تيسا دِ لو

التوأمتان

ترجمة

حيدرة أسعد



TAKWEEN PUBLISHING

حين صدرت «التوأمتان» سنة ١٩٩٣، كان قد مر على نهاية الحرب العالمية الثانية ما يقارب خمسة عقود، وكانت أوروبا ما تزال تعيش بشكل أو بآخر صدمة تلك الحرب وما نتج عنها، في ظل إجماع على تحميل ألمانيا وشعبها الثقل الأخلاقي، والمسؤولية عن مآلات هذه الحرب. وقد لبست ألمانيا هذا الدور، خاصة أنها كانت الجهة المهزومة، في الوقت الذي صاغت فيه بقية الدول الأوروبية روايتها، التي ظهرت فيها بريئة من هذه الكارثة براءة الذئب من دم يوسف.

وقد تكون هذه الصيغة المتفق عليها، شكلًا فريدًا في التاريخ، الذي لطالما رُويت فيه الحروب من وجهتي نظر على الأقل. في مثل هذا الجو من الإجماع الأخلاقي والتاريخي، أتت رواية «التوأمتان»، مثل حجر رمي في مياه السردية الأوروبية؛ حيث أفسحت تيسا د لو في روايتها مساحة لتصوير الظروف التي صعدت فيها النازية وتصدرَ فيها هتلر المشهد السياسي الألماني، وآثار تلك الحقبة والحرب على المجتمع الألماني. لقد روت تيسا د لو حكايتها بحس أخلاقي عال، وبنظرة نقدية ابتعدت عن أية محاباة، وتجرأت على الثوابت: أن ترى عدوك من زاوية أخرى، غير الزاوية التي سعت كل القنوات إلى فرضها على من يريد أن ينظر إلى الماضي.

ولقد أثار إصدار الرواية ردود فعل عنيفة لدى المراجعين والنقاد في بلدها، واتهمها البعض بخيانة وطنها، حين أتاحت للألماني - العدوّ الذي احتل هولندا، وأذلّ شعبها، وأباد اليهود - مساحةً ليُسمِع صوتَه ومعاناته، ويظهر كضحية للنازية هو الآخر.

لیندا حسين









www.takweenkw.com | takween.publishing@gmail.com

تيسا دِ لو

التوأمتان

ترجمة

حيدرة أسعد

مراجعة

ليندا حسين



الكاتب: تيسا دِ لو

عنوان الكتاب: التوأمتان

ترجمة: حيدرة أسعد

العنوان باللغة الأصلية: De Tweeling

الكاتب: Tessa de loo

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-775-20-4

الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2023

2000 نسخة



الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takween.publishing@gmail.com

takweenkw

takween_publishing

TakweenPH

www.takweenkw.com

إلى أمّي وماريا هيسّه

*

العالمُ رَحبٌ، العالمُ جميلٌ

مَن يدري إن كنا سنلتقي من جديد



أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية



تقديم

اختارت يوهانا مارتينا (تينيكه) دايفينه دِ ڤيت المولودة سنة ١٩٤٦ في بوسوم بهولندا أن تنشر أعمالها الأدبية باسم تيسا دِ لو، وقد استوحت اسمها الذي عرفها القراء به من اسم بلدة تيسّنديرلو البلجيكية. بدأت د لو دراسة اللغة الهولندية في جامعة أترخت، لكنها اضطرت إلى وقفها بعد ولادة ابنها. حاولت لاحقًا استئناف دراستها إلا أنها تخلّت عنها نهائيًا كي تتفرغ للكتابة. سنة ١٩٨٣، نشرت مجموعتها القصصية «فتاة مصنع الحلوى» التي حققت نجاحًا لدى صدورها، وسلطت الضوء على مؤلفتها. في منتصف الثمانينات، وبينما كانت د لو تكتب في فرنسا روايتها «تسكع» تلتقي بماريا هيسه، المرأة الألمانية السبعينية، وتتبادل معها الأحاديث والنقاشات حول الحرب العالمية الثانية، وموقف الألمان مما جرى، ومآلات الحرب والحقبة النازية، وكنتيجة لهذه النقاشات التي أثّرت على د لو وموقفها من ألمانيا والألمان، تقرر كتابة روايتها «التوأمتان» وتهديها إلى ماريا هيسه.

بذلت دِ لو جهدًا هائلًا في التحضير لروايتها، وعادت إلى العديد من المراجع والكتب، وسافرت إلى ألمانيا وبولندا، لتلتقي بشهود عايشوا

الفترة الزمنية التي تدور بها أحداث الرواية. وقد أصبحت ماريا هيسه صديقة للكاتبة، ومنها استلهمت شخصية بطلتها آنا. إلى جانب ماريا هيسه، أهدت د لو الرواية إلى والدتها التي استندت إلى سيرة حياتها لرسم شخصية بطلتها لوته. وكانت د لو قد استلهمت جزءًا من روايتها من حياة جدتها، التي أوت في منزلها خلال الحرب عددًا من اليهود والفارين من الخدمة العسكرية.

أمضت د لو سنوات في فرنسا والبرتغال، وتعيش حاليًا في هولندا. وقد أصدرت العديد من الروايات والقصص القصيرة، وتعد اليوم من أبرز الأسماء في الأدب الهولندي المعاصر، إلا أن عملها الأبرز هو رواية «التوأمتان» التي تصدرت طوال أسابيع قوائم الكتب الأعلى مبيعًا في هولندا وألمانيا، وحوّلت إلى فيلم بإنتاج هولندي-ألماني سنة ٢٠٠٢، رشح لجائزة الأوسكار لأفضل فيلم أجنبي.

* * *

في «التوأمتان»، تنفصل الشقيقتان آنا ولوته عن بعضهما البعض في عمر السادسة، لتبقى آنا في ألمانيا، بينما ترحل لوته إلى هولندا. خلال الحرب العالمية الثانية، تتخذ الأختان موقفين متناقضين من الحرب. بهذه الحبكة تطرح تيسا د لو واحدًا من الأسئلة الكثيرة التي تحفل بها روايتها: ماذا لو بقيت لوته في ألمانيا، ورحلت آنا إلى هولندا؟ كيف كانت ستتغير خياراتهما؟ هذه الـ «خيارات» التي كانت أهم أسباب القطيعة الحاصلة بين الشقيقتين والممتدة لعقود، قبل أن تلتقيا مصادفة في مدينة سبا البلجيكية، وخلال لقاءاتهما وجدلهما تستمرُّ لوته في إدانة آنا، ورفض

تبرئتها أو تبرئة الشعب الألماني مما حدث، وتصارع لئلا تنجرف نحو تفهُّمها أو رؤيتها ضحية هي الأخرى.

حين صدرت الرواية سنة ١٩٩٣، كان قد مر على نهاية الحرب العالمية الثانية ما يقارب خمسة عقود، وكانت أوروبا ما تزال تعيش بشكل أو بآخر صدمة تلك الحرب وما نتج عنها، في ظل إجماع على تحميل ألمانيا وشعبها الثقل الأخلاقي، والمسؤولية عن مآلات هذه الحرب. وقد لبست ألمانيا هذا الدور، خاصة أنها كانت الجهة المهزومة، في الوقت الذي صاغت فيه بقية الدول الأوروبية روايتها، التي ظهرت فيها بريئة من هذه الكارثة براءة الذئب من دم يوسف. وقد تكون هذه الصيغة المتفق عليها، شكلًا فريدًا في التاريخ، الذي لطالما رُويت فيه الحروب من وجهتي نظر على الأقل. في مثل هذا الجو من الإجماع الأخلاقي والتاريخي، أتت رواية «التوأمتان»، مثل حجر رمي في مياه السردية الأوروبية؛ حيث أفسحت تيسا د لو في روايتها مساحة لتصوير الظروف التي صعدت فيها النازية وتصدرَ فيها هتلر المشهد السياسي الألماني، وآثار تلك الحقبة والحرب على المجتمع الألماني. لقد روت تيسا د لو حكايتها بحس أخلاقي عال، وبنظرة نقدية ابتعدت عن أية محاباة، وتجرأت على الثوابت: أن ترى عدوك من زاوية أخرى، غير الزاوية التي سعت كل القنوات إلى فرضها على من يريد أن ينظر إلى الماضي. ولقد أثار إصدار الرواية ردود فعل عنيفة لدى المراجعين والنقاد في بلدها، واتهمها البعض بخيانة وطنها، حين أتاحت للألماني - العدوّ الذي احتل هولندا، وأذلّ شعبها، وأباد اليهود - مساحةً ليُسمِع صوتَه ومعاناته، ويظهر كضحية للنازية هو الآخر.

* * *

في كل فعل إدانة، وبخاصة الإدانات الجمعية المتفق عليها، هناك زوايا إشكالية يُسدَل عليها غطاء، ويموّه بعناية، وأحد أجمل ما يمكن للأدب أن يقوم به هو أن يكشف هذا الغطاء، ويتورط في معالجة التعقيدات، والألغام القابعة تحته. وربما كان هذا واحدًا من الجوانب التي عززت النجاح الكبير الذي حققته رواية «التوأمتان»، لكنه ليس الجانب الوحيد بالتأكيد.

لقد اختارت المؤلفة لبطلتيها أن تلتقيا وتتبادلا الذكريات واللوم في مدينة سپا، التي لا يخلو اختيارها لحصول هذا اللقاء من رمزية، وهي المدينة المعروفة بينابيعها المعدنية، وحماماتها التي يقصدها المرضى للنقاهة، وعلاج الجسد و«تخليصه من السموم». وبالمثل فقد اختارت المؤلفة بقية الأمكنة التي تدور بها أحداث الرواية بعناية، ووظفتها بذكاء لتطوير حكايتها، فلم تكن الأمكنة مجرد خلفية للحكاية، بل عنصرًا هامًّا فيها، ومن خلالها انعكست صورة المجتمع، وبيئة الشخصيات التي تدخلت في مسارات حياتها، ومن خلال الأمكنة عكست الروائية التبدلات التي طرأت على المجتمع، والإرث المعماري والثقافي الذي تحمله أوروبا، واستغلت المكان لتأسيس فضاء مقنع تتحرك فيه الشخصيات. وعلى هذا المنوال، لا يوجد تفصيل في الرواية لم يكن له وظيفة. فالمقطوعات الموسيقية والقصائد والمؤلفون والمغنون وغيرها من تفاصيل تحفل بها الرواية ارتبطت بالمسار الزمني للأحداث، وساعدت على إبراز التشابك والتقارب الثقافي في أوروبا، ومن خلالها أيضًا طُرحت أسئلة أخلاقية وجدلية حول تلقي الفنون في ظل التحيزات السياسية والمواقف الأيديولوجية لصنّاعها.

ومع المواضيع الإشكالية التي تتناولها الرواية، وبالرغم من سوداوية الأحداث، وثقل الوقائع والظروف التي تسودها إلا أن د لو استطاعت تخفيف وطأة حكايتها، بالتنقل برشاقة بين الماضي الثقيل، والحاضر المطعّم بالرفاهية والأمان، وبخلطة متقنة من السخرية والشاعرية، واحتفاءٍ بالفنون والأعمال الأدبية الخالدة، لترسم مشهديةً متقنة، وتبني سرداً يأسر قارئها حتى آخر سطر من حكايتها.

* * *

رواية «التوأمتان»، أول عمل ينقل إلى العربية لتيسا د لو، بعد أن نُقلت إلى أكثر من عشرين لغة، وقد نقل المترجم حيدرة أسعد النص عن الإنكليزية وزوّد ترجمته بهوامش هامة كان لا غنى عنها لفهم الرواية وتذوقها، وخلال عملية الترجمة والمراجعة استؤنس بالترجمتين الألمانية والفرنسية، الأمر الذي جنّب النص العربي أقصى قدر من المشكلات المحتملة للترجمة عن لغة وسيطة. وسيشكل إصدار هذا الكتاب فرصة للقارئ العربي للاطلاع على واحدة من أكثر الروايات المعاصرة إثارة للجدل في هولندا، رواية تعمّدت مؤلفتها –وهي التي مارست التعليم لسنوات– أن تطرح خلالها العديد من الأسئلة الشائكة، وأن تبطّنها درسًا في إعادة النبش في الصور النمطية للعدو، وللذاكرة والخيال الشعبيين.

ليندا حسين


أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

الجزء الأوّل

بين حربَين


أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية



١

- «يا إلهي، ما هذا المكان؟ مَجْمَعٌ للمحتضرين؟»

استيقظت لُوْتّه غودريان بغتةً من غفوةٍ هانئة، من خدر خفيف: أن تكون مسنّةً، وألا تشعر بجسدها مع ذلك. من خلال رموشها، لاحقت بنظرها القوام المستدير، العاري مثلها، تحت رداء الحمّام ذي اللون الأزرق الفاتح البريء، وهو يغلق الباب خلفه بصخبٍ. بنفورٍ جليّ، تهادت المرأة في غرفة الاستراحة المعتمة، بين صفّين من الأسرّة الفارغة، باستثناء السّرير الذي كانت ترقدُ عليه لوته، بين الملاءات النّظيفة، بجسدها الذي بات سجلًا طويلًا وسحيقًا من اعتلالات الصحّة. بغريزةٍ محضةٍ، انزلقت عميقًا في السّرير. كانت اللغة التي أدلت بها المرأة ملاحظتها غير اللائقة هي الألمانيَّة. الألمانيَّة! ما الذي تفعله ألمانيّة هنا، في مدينة سبا[1]، حيث لا تخلو ساحة ولا حديقة عامّة من نصبٍ تذكاريّ محفور عليه أسماء الذين قضوا في حربين عالميتين؟ كان بلدها يعجُّ بالمتنجعات الصحيّة. فلماذا هي هنا في سبا؟ أغمضت لوته عينيها وحاولت تجاهل

(١) مدينة بلجيكية، تشتهر بالمتنجعات الصحية والينابيع المعدنية الطبيعية. (المترجم)

المرأة بأن تجبر نفسها على الإنصات إلى هديل الحمائم التي تجمّعت خلف ستائر بيضاء من الحرير، بعيدًا عن الأنظار، على الأفاريز وفي باحات المنتجع الحراريّ. لكنّ أدنى حركة قامت بها الألمانيّة كانت بمثابة استفزازٍ صوتيّ. سمعتْها لوته بوضوح وهي تسحب الأغطية عن سريرٍ مقابل سريرها. تمدّدت عليه وتثاءبت وتنهّدت تنهيدةً عميقةً؛ وحتّى حين استلقت ساكنةً أخيرًا، وبدأت تنغمس في الهدوء المفروض، كان الصمتُ الذي تسبّبت به مؤلمًا للأذنين. ابتلعتِ لوته ريقها. كان شعورٌ من التوتُّر يزحف من بطنها إلى حلقها، غثيانٌ ذهنيّ قاست مثيله اليومَ الفائت حين جلست، مغمورةً حتّى ذقنها، في حمّام الخُثّ[1].

عندما استسلمت لحرارة الخثّ الحامض، التي خفّفت آلام مفاصلها المتيّبسة، تردّدت في الحمّام أغنية قديمة للأطفال، تدندنها عجوزٌ بصوتها الرّاجف، من خلال شقٍ في الباب. أثارت هذه الأغنية، التي تسرّبت من الحمام المجاور إلى وعيها لأوّل مرّةٍ منذ سبعين عامًا، مزيجًا من المخاوف والانفعالات الغامضة في داخلها؛ مشاعر ينبغي لمريضةٍ مسنّة في حمّام خُثّ تبلغ حرارته أربعين درجة مئويّة أن تحترسَ منها. لقد تربّصت نوبةٌ قلبيّةٌ في الحمأة البُنيّة، بين الكتل والحبيبات والأغصان المتحلّلة جزئيًّا والطافية فيها. فجأةً، لم يعد بوسعها تحمُّل الحرارة. رفعت نفسها بجهدٍ جهيدٍ حتّى وقفت مترنّحةً وسط حوض الاستحمام المعدنيّ، جسدها مغطّى بطبقة من الشوكولاتة السائلة، أخفت كلّ عيوبه. حدّثت نفسها:

(١) الخُثّ: تراكم للنباتات والمواد العضوية المتحللة جزئيًّا، يوجد في أماكن مخصّصة كالمستنقعات، يستخدم على نطاق واسع في العلاجات بالمياه المعدنية. (المترجم)

كما لو أنّي ميتة بالفعل وقد تمَّ دفني. وحين خطر لها أن حالتَها يمكن أن تتركَ، عند المرأة التي ستسارع إلى غسلها، انطباع الحُمقِ والذُّعر، انحنت ببطءٍ على ركبتيها، عائدةً إلى الحمأة، وهي تتشبّثُ بكلتا يديها بحواف الحوض. في تلك اللحظة تحديدًا، توقّفتِ الأغنية، فجأةً مثلما بدأتْ، كما لو أنّها مجرّد ومضةٍ من ذكرى مفترضةٍ منسيّة.

لم تطق الألمانيّة البقاء في السرير لمدّة طويلة. فبعد دقائق قليلة، مشت متثاقلةً على الأرضيّة الخشبيّة البالية مرّة أخرى، نحو طاولةٍ عليها زجاجتان من المياه المعدنيّة بجانب كومة من الأكواب البلاستيكيّة. تتبّعتْ لوته تحرّكاتها عن كثبٍ، بشكل لا إرادي، كما لو كان عليها البقاء على أهبة الاستعداد.

- «عذرًا سيّدتي...»، بفرنسيّة مدرسيّة ثقيلة، مشفوعةً بانعطافةٍ خفيفة، استدارت المرأة، على نحوٍ غير متوقّع، باتجاه لوته. «هل مسموحٌ... لنا... أن نشرب من هذه المياه؟»

ربما لم تكن القصّة التّالية لتحدث لو أنَّ لوته، بدورها، أجابت بالفرنسيّة. لكنّها باندفاعٍ طائش قالت:

- «*نعم، يمكنك الشرب*»[1].

- «يا إلهي!»، نسيت المرأة أمرَ الماء، تراجعتْ بخطواتها نحو سرير لوته، وصرختْ بسعادة، «أنتِ ألمانيّة!».

- «لا، نعم، لا...»، تلعثمتْ لوته.

---

(١) اعتمدنا الخط المائل للإشارة إلى ما ورد بالألمانيَّة ضمن النصّ الأصلي. (المترجم)

لكنْ، وقد أشعلت الفتيل بالفعل، تقدّمت المرأة باتجاهها، وثمّة حسيسٌ يتطاير. كانت ضخمة ومكوّرة ومنحنية القوام، عجوزٌ من الفالكيريات[1] لن ترحل عنها. وقفت عند مؤخّر سرير لوته، ملقيةً ظلّها عليه. نظرت إليها بثقة:

- «من أين أنتِ، لو جاز لي أن أسأل؟».

حاولت لوته تثبيط اندفاعها.

- «من هولندا».

- «لكنّ لغتك الألمانيّة لا تشوبها شائبة!»، ألحّت المرأة وهي تبسط يديها الممتلئتين.

- «من كولونيا»، أقرّت لوته، باللهجة الخفيضة لاعتراف قسريّ.

- «كولونيا! أنا أيضًا من هناك!».

كولونيا، *كولن*. بينما تردّد اسم المدينة في غرفة الاستراحة التي لم تعرف غير الصّمت المطلق داخل جدرانها، خطرَ لوهلةٍ على بال لوته أنّ كولونيا مدينة ملعونة، خيرٌ للمرء ألا ينحدر منها، مدينة أُبيدت بأسرها عقابًا لغطرسة شعبٍ.

فُتح الباب. دخل بتثاقلٍ رجلٌ في منتصف العمر، منطوٍ على نفسه؛ اختار سريرًا وانسلّ بين ملاءاته من دون ضجّة. في الضّوء الخافت للغرفة، لم يعد يُرى من الرجل سوى قناعُ موتِه مبهمًا. عاد كلُّ شيءٍ إلى ما كان عليه بالنسبة للجميع باستثناء الألمانيّة. انحنت للأمام وهمست:

---

(١) الفالكيريات، في الأساطير الإسكندنافيّة، فتيات يجلبن أرواح المحاربين القتلى إلى الفالهالا (قاعة الشهداء). (المترجم)

- «سأنتظرُكِ في الرَّدهة».

تسمّرت لوته في مكانها، يتناوشها الارتباكُ والتهيُّج. جاءت كلماتُها بلهجةٍ آمرة: سأنتظركِ! قرّرت تجاهلها. لكنْ كلّما طالت مدة بقائها في السّرير، تفاقم قلقها. لقد نجحت هذه الألمانيّة المتطفلة في حرمانها من هدوئها الذي دُفع لأجله مبلغٌ طائل. لا مفرَّ منها: ثمّة بابٌ واحد فقط لغرفة الاستراحة، وكان ينفتح على الرَّدهة.

أخيرًا، نهضت من سريرها فجأةً، انتعلت خفّها، شدَّت حزامها حول خصرها ومشت نحو الباب، عاقدةً العزم على التخلُّص من المرأة بأسرع ما يمكن. كان دخول الرَّدهة، التي تغمرها الإضاءة، أشبه بدخول معبدٍ مخصّصٍ لآلهة الصحّة. أوهمت باتّساع المكان الأرضيّةُ المُعبّدة قُطريًّا بقطعٍ كبيرةٍ من الرُّخام ذي اللون الأبيض المكسور، إلى جانب البهو المكشوف الذي وفَّر رؤية متواصلة لدرابزين الطّابق الأوّل. عزّز هذا الانطباعَ السَّقفُ بلوحته التي تظهر فيها ڤينوس بلون الفُندان[1] وهي تخرج من البحرِ في جوف صَدَفةٍ، تحيط بها ملائكة الكروبيم[2] المكتنزة. باستمرار كان يُسمع صوت المياه الجاريّة، صادرًا عن نافورتين رخاميّتين بعروقٍ رماديّة وبنيّة على جانبَي الرَّدهة، تحيط بهما أعمدة إغريقيّة متينة. من رأسٍ مُذهَّبٍ لأنثى، برز صنبورٌ لامعٌ مثل لسانٍ ناتئ ينضحُ خيطًا رفيقًا من الماء. إحدى النّافورتين تَغيّر لونها إلى البنيّ من جرّاء المياه الغنيّة بالحديد، والتي كانت الطبقة الأرستقراطيّة الثريّة في أوروبا تقصدها أيّامَ الرَّخاء علاجًا لفقر الدّم، وكانت متصلة مباشرةً مع نبع «سورس

(١) الفُندان: عجينة سكريّة تستخدم لتزيين الكعك، تصنع من السكر والماء والجيلاتين. (المترجم)
(٢) الكروبيم: جوقة من الملائكة مذكورة في عدّة مواضع من الكتاب المقدّس. (المترجم)

دولارين»؛ أمّا الأخرى فقد اتصلت مع «سورس ماري-هنريت»، هو نبع تتدفّق فيه مياه صافية تخلّصُ الجسمَ من كلّ سمومه.

في ملاذ الصّبا الأبديّ هذا، وجدت الألمانيّة المسنّة كرسيًّا عتيقًا لنفسها. أخذت تقلّب صفحات مجلّةٍ، وهي تحتسي كوبًا من ماء الينابيع، منتظرةً لوته التي اقتربتْ منها على مضضٍ، متذرِّعةً:

- «أنا آسفة، لا وقت لديّ».

نزعت المرأة نفسها بصعوبةٍ عن الكرسيّ المنحوت على الطراز الإمبراطوريّ. طغت على وجهها تعابير الألم.

- «اسمعي، اسمعي»، قالت، «أنتِ من كولونيا. أريد أن أسالك عن اسم الشّارع الذي عشتِ فيه».

اتكأت لوته على أحد الأعمدة كي تسند نفسها، تحسّس ظهرُها ضلوعَ العمود الضاغطة عبر قماش الرّداء.

- «لم أعد أتذكر. كنتُ في السّادسة حين أرسلوني إلى هولندا».

- «السّادسة...»، ردّدت المرأة بانفعالٍ، «السّادسة!».

قالت لوته بتردُّدٍ:

- «كلُّ ما أتذكّره هو أننا كنا نعيشُ في كازينو... أو في بناءٍ كان كازينو فيما مضى».

- «لا يمكن أن يكون ذلك صحيحًا! لا يمكن ذلك!» قالت الألمانيّة بصوتٍ شجيّ، ورفعت يديها إلى رأسها وضغطت صُدغَيها برؤوس أصابعها. «لا يمكن أن يكون ذلك صحيحًا!».

ملأ جؤارها الفضاء المُقدَّس باستهتار، ارتدَّ صداه عن الأرضيّة الرُّخاميّة، وارتفع عاليًا كي يعكِّر سكينة المشهد المرسوم على السّقف. حدَّقت في لوته بعينين واسعتين. تغمرها الرَّهبة؟ أم البهجة؟ هل مسَّها الجنون؟ فتحت ذراعيها وهرعتْ نحو لوته وعانقتها.

- «لوتشن»، تأوّهت، «هل فهمتِ؟ هل لاح لكِ؟».

محشورةً بين العمود وجسد الألمانيّة، نال الدّوارُ من لوته. أحسَّت برغبةٍ عارمةٍ في الهروب من هذه الحميميّة السخيفة، في أن تتلاشى في الهواء، أن تتبخّر. لكنَّها عالقة بين محتدها وذاكرتها الانتقائيّة، اللذين دخلا منذ زمنٍ طويلٍ في تحالفٍ مُعادٍ ضدّها.

- «أنتِ... يا حبيبة روحي»، همست المرأة في أذنها، «أنا آنا، بعينها!».

*

يفسح الفانوسُ السّحريُّ العائد لأوائل القرن العشرين مجالًا واسعًا للمُخيّلة. على المتفرِّجين أن يملؤوا بأنفسهم الفجوات الممتدة بين مشهدٍ وآخر من مشاهد الشرائح المعروضة. تظهر هنا مشربية من طراز «الفن الجديد»[1]، تطلُّ من الطّابق الأوّل على الشَّارع. ثمّة أنفان يضغطان على النافذة فيأخذان مظهرًا مسطّحًا، يعلوهما زوجان من عيون تراقب بقلقٍ المارّة في الأسفل. من الأعلى، تبدو كلُّ النساء بالهيئة نفسها: قُبّعة تغطي الشّعر المرفوع، معطف طويل مخصّر بأزرار صغيرة،

(١) أسلوب عالميّ في الفن والعمارة والتصميم بلغ ذروة شعبيته في فترة الحداثة الفيناوية مطلع القرن العشرين. (المترجم)

حذاء بأربطة. لكنّ واحدة منهنّ فقط تضمُّ تحت ذراعها صندوقَ نقودٍ صغيرٍ من الألمنيوم اللامع. عند نهاية كلِّ يوم، يرونها على الجانب المقابل: تغلق وراءها الباب المزدوج لمتجر «الأمل» وتعبر الشارع مع حصيلة اليوم في صندوق النقود. حالما تصل إلى المنزل، تفقد الفتاتان اهتمامهما بالصندوق؛ وتتشبثان بالأمّ التي يتعيّن عليها فتح مليون زرٍّ قبل أن تتمكّن من احتضانهما. في حالات استثنائيّة جدًّا، تسمح للفتاتين بمرافقتها إلى المتجر الذي يشي اسمُه لمن يمرُّ أمامه بأنّه تعاونيّة اشتراكيّة. إنَّ والدتهما، المتوَّجة كملكة خلف صندوق النقود البُنّيّ المرتفع، والتي تفرغُ لهما مارشميلو الشوكولاتة من عُلبة الورق المقوّى، هي محورُ المعاملات الماليّة كلِّها؛ منذ أن جلست خلف طاولة النقود، تضاعفت الحصيلة الماليّة. إنها ذكيّة ومثابرة وأمينة. وهي مريضة أيضًا، لكنْ لا أحد يعرف ذلك بعد. ينخرُ المرضُ ببطءٍ فيها، مع أنّها ما تزال تبدو من الخارج امرأةً شقراء مكتنزة من حسناوات فِستفالِن.

تُوضَع شريحة أخرى في الفانوس بحذر؛ ينبغي مراعاة الترتيب بدقّة. ثمة غرفة في المنزل لا تدخلها الفتاتان إلّا برفقة والدهما، تسودها ظلمةٌ دائمةٌ مشبّعة برائحة حلوة ومرّة. على سريرٍ من خشب البلّوط، تحت نقشٍ بغيضٍ لصخورٍ سوداء وأشجار تنوّب نحيلة، تستلقي الأم مثل امرأة غريبة، بخدّين غائرين وظلالٍ زرقاء تحت العينين. تجفلان من الابتسامة اليائسة والمستسلمة التي تظهر على وجهها وهما تقتربان منها. والدهما، الذي عادةً ما يدفعهما بلطفٍ نحو السّرير، يجد نفسه هو الآخر ذات يومٍ مستلقيًا على سريرٍ مؤقّت في غرفة المعيشة. يطلب إليهما التحلّي

بالهدوء قدر الإمكان لأنّه مريض وينبغي أن ينام. مغمومتين، تجلسان متجاورتين على الأريكة في المشربية، الذقن على عتبة النافذة، تحدّقان إلى الأسفل، تنتظران ظهور صندوق النقود الذي سيضعُ حدًّا للصّمت المشحون، على الرغم من أنَّ المرأة متمدِّدة تحت المنظر الطبيعيّ الصخريّ. يخيّم الظلام تدريجيًّا. لا تشعران بالوقت؛ فمروره بالنسبة إليهما يماثلُ الانتظار العبثيّ لظهور صندوق النقود. ثمّ يُقرع الجرس بتردد. تهرعان إلى الباب. يجب أن تكون آنا في المقدّمة دومًا، مدفوعةً بالغريزة منذ ولادتها كي تكون كذلك، تقف على رؤوس أصابعها وتفتح المزلاج.

- «خالة كاتي، خالة كاتي»، تتعلّقُ بها، «هل أتيتِ لأخذنا؟».

تردِّدُ لوته:

- «هل أتيتِ لأخذنا؟».

توحي الشريحة التّالية أنَّ الفانوس سيرهقنا بقصّةٍ تفطر الأفئدة. على الأريكة، ثمّة نعشٌ مستطيل، تجلس آنا ولوته عليه، تديران ظهريهما إلى غرفة ملأى بأقارب غير مألوفين. بفضل النعش، تتمكّنان من وضع قدميهما على عتبة النافذة. لقد اكتشفتا للتوّ أن بوسعهما حجب النّحيب والهمهمة عبر نقر النافذة بنعال حذاءيهما الضيقين الأسودين الملمّعين اللذين ألبستهما إياهما الخالة كاتي، وفي الوقت نفسه، تطردان هذه النّكسة غير المفهومة التي حلّت بهما، وتحاولان إعادة كلّ شيء إلى نصابه. في البداية، يميل الحاضرون إلى التسامح، فبالرغم من كلّ شيء، ليس ثمّة قواعد تحكم سلوك طفلتين في الثالثة من العمر، فقدتا أمَّهما، لكن حين يستمرّ النقر على النافذة وتتجاهل الفتاتان التحذيرات الوديّة، يتحوّل

الصّبر إلى انزعاج. ألا يشبه هذا النّقر بالأقدام قرع الطّبول البدائيّ الذي، وفقًا للمجلّات المصوّرة، يرافق رحلة الموتى إلى مثواهم الأخير عند قبائل الأدغال في إفريقيا؟ في ظلّ الظروف الحاليّة، يُتوقّع قدرٌ قليل من الإخلاص المسيحيّ عند الطفلتين. طلبوا إليهما النزول عن النعش، لكنهما رفضتا بعنادٍ، وهاجمتا الأيدي التي امتدّت لحملهما. فقط حين يصل حاملو النعش، بملابسهم المخيفة، ويبدؤون بسحب التابوت، تسمح الفتاتان للخالة كاتي بأن تحملهما. بعد ذلك، تتصرّفان بطريقةٍ مثاليّة، باستثناء حادثةٍ صغيرةٍ جرت في الموكب الطويل الذي يسير خلف النعش تحت شمس ربيعيّة غير مواتية. في اللحظة المناسبة، تمنعهما الخالة كاتي من خلع المعطفين الصوفيين الأسودين اللذين حاكتهما الأمُّ في سريرها، من أجل هذه المناسبة على وجه الخصوص. ولأنّها استهانت بقدرة جسدها على المقاومة، فقد أخطأت في تقدير الفصل المصادف لرحيلها.

الغائب الرئيس عن الجنازة موجودٌ في المستشفى. كلّ مساء عند السادسة والنصف، تقف الخالة كاتي مقابل إحدى واجهات المبنى الجانبيّة، ممسكةً طفلةً بكل يد. ثُمّ يظهر وجهٌ من أحد النوافذ العديدة، واضحًا بالقدر الذي يقنع كلًّا من آنا ولوته بأنَّ العدمَ لم يبتلعه على النّحو الغادر الذي ابتلع فيه والدتهما. تلوّحان له، ويردُّ ملوّحًا بدوره، بيدٍ بيضاءَ كبيرةٍ تمرُّ أمام وجهه يمنة ويسرة، كما لو أنّه يريد أن يمحو نفسه. بعد ذلك، تخلدان إلى النوم باطمئنانٍ. يعود إلى المنزل ذات يوم، نحيلًا ومُرهقًا. حين تتسلّقان لعناقه، يعيدهما إلى الأرض، بابتسامة محرجة وكئيبة.

- «لا ينبغي أن أقبّلكما» يقول بوهنٍ، «وإلّا ستمرضان أيضًا».

تكتسب الشّرائح طابعًا أكثر بهجة. يستأنف عمله كمديرٍ للمعهد الاشتراكيّ الذي حلّ مكان الكازينو السّابق، والذي يقدّم خدماته للعمّال ممّن يريدون تحرير أنفسهم من الجهل. «المعرفة قوّة» تقول العبارة القوطيّة الموجودة فوق مدخل المكتبة. لا يكاد يوجد خطٌّ فاصل بين منزلهم في الطابق الأوّل وبقيّة المبنى. آنا ولوته، اللتان نشأتا بمصادفة سعيدة في قصر الثقافة البروليتاريّ هذا تمامًا كما أولاد القائم بالأعمال، تلعبان الغميضة في الممرّات الرّخامية الفسيحة، وتختبئان خلف الأعمدة المتينة وفي كواليس المسرح، وتمارسان القفزات الهوائيّة في القاعة المستديرة الهائلة، حيث ترتفع صيحاتهما إلى نافذةٍ عاليةٍ من الزجاج الملوّن، تصبُّ عليهما اللون الأحمر القرمزيّ والأزرق الطاووسيّ حين تعبرها أشعة الشمس. بعد اكتشافها للخصائص الصوتيّة، تقف لوته تمامًا تحت أعلى نقطةٍ من السقف المقبّب، ورأسها إلى الخلف، تنشد أغنية قطار كولونيا البطيء. أمّا آنا، التي كانت بطبيعتها أكثر تململًا من أن تستطيع التوقف عن الحركة، وبتشجيع صبيّ يقطن في المنزل المجاور، تستخدم أريكةً من طراز بيدرماير مُنجّدة من السّاتان كترامبولين، حتّى تبدأ نوابضها بالصّرير، وحين يصيبها الدّوار من جرّاء القفز، تسقط جارحةً فمها بمسند الذّراع المصنوع من خشب الماهوجني. الأريكة موجودة في البهو، الذي ما يزال محتفظًا ببريق الفخامة العصريّة الخاصّة بطراز نهاية القرن. فوق البار الغنيّ بالزخارف، بما يحتويه من صنابير نحاسيّة، تتدلى ثُريّات كريستاليّة من سقفٍ مُذهّبٍ آيلٍ للتقشُّر. وعلى الجدران، تتوزع

عشرات المرايا المتآكلة التي ما تزال تعكسُ، باستثناء وجه فتاة محمرّ بشفة نازفة، شهوةَ القمار المتقدة في عيون النخبة الثريّة السابقة ومتطفّليهم. منع والدُها الدخول إلى هذه الغرفة منعًا باتًّا. شاعرةً بالذنب، تهرع إلى مكتبه. بشفتها العلوية المجروحة، تقف تحت رحمة نظراته المستفسرة. «ماذا حدث؟» يسألُ وهو يضع سبّابته تحت ذقنها. تختلقُ كذبةً وليدة اللحظة. على نحوٍ عفويّ، تخترعُ موقفًا مغايرًا، لكنّه معقول بحيث يبدو أكثر منطقيّة من الحقيقة. فبينما كانت تلعب في الحديقة، تعترفُ بعينين ذابلتين، سقطت على حافّة طاولة خشبيّة فوق العشب. بعد أن أوقف النزف بهدوء، يرافقها إلى الحديقة.

- «إذًا..»، يقول، «دعينا نرى كيف حدث ذلك».

ينكشف لها هنا ما سيشي بالكذبة: طاولة الحديقة عالية كثيرًا لدرجة أنَّ فتاةً بحجمها يجب أن تسقط من السماء مباشرةً كي تجرح شفتها العليا بحافة الطاولة.

- «حسنٌ..»، يقول والدها بنبرةٍ رخيمةٍ؛ نبرةٍ تثير الشّكوك في داخلها.

يقرصُ، بإبهامه وسبّابته، الجلد العاري لذراعها، مسببًا إحساسًا كوخز الإبر. إنّها العقوبة الوحيدة التي ستظلُّ في ذاكرتها لسنواتٍ لاحقة، عقوبةٌ ستحكمُ عليها، مدى حياتها، بتفضيلٍ لا يُساوَم للحقيقة.

لكنَّ جموحها لن يُكبح بهذه السُّهولة. فبعد ذلك بفترةٍ وجيزة، تكسر مرفقها أثناء لهوها على الدرج الرُّخاميّ في القاعة، ثم تأخذ بالصراخ والهياج مثل كونتيسة هستيريّة راهنت على كلِّ ممتلكاتها وخسرتْها،

تعضدها لوته، التي تغلغلت قدرتُها على الشّعور بالألم والذُّعر إلى جسد أختِها على نحوٍ تآزريّ. يُركَّب قالبُ الجبس، وتُعلَّق ذراعها بحمّالة. حين تخرج آنا من المستشفى بهذه الزينة، تنفجر لوته بالبكاء. لا أحد يعلم إن كان ذلك بدافع التضامن أم من الغيرة. ولم تهدأ إلّا حين عُلِّقت ذراعها اليسرى أيضًا بفوطة المطبخ كمحاكاة للضماد.

تُوضع الآن شريحةُ عيد الميلاد. منذ اللحظة التي أشفقت فيها الخالة كاتي على الطفلتين لم تتركهما أبدًا. تزوّجت من والدهما بصمتٍ، لكيلا يضطرّ إلى الابتعاد عنهما، بعد أن خرج من المستشفى بسبب عجز كلِّ التداخلات الطبيّة عن تغيير حالته: رجل مصاب بمرضٍ مُعدٍ لا يجدي معه سوى الوقت، سواء إلى الخير أو الشر، ولا يصلح لتربية الأطفال. كان ذلك بديهيًّا بالنسبة لآنا ولوته. الخالة كاتي هنا كالمعتاد، تزيّن شجرةَ مغطّاة بالثلج في الغرفة؛ تنحني كلُّ أغصانها من جرّاء كثرة السّاحرات والبابانويلات ورجال الثلج والأقزام والملائكة المعلّقة عليها. تمنحهم الرّائحة النفّاذة لأغصان التنوب المختلطة بالصّمغ لمحةً عن عالم الطبيعة الذي يبدأ من حيث تنتهي كولونيا. جاء الشقيق الأصغر لوالدهما، هاينريش، من قريته الواقعة على حدود غابة تويتوبورغ، للاحتفال معهم بعيد الشجرة. إنّه شاب نحيل يبلغ السّابعة عشر من العمر، جلب بدوره روائحَ الطبيعة إلى المنزل: القش وروث الخنازير المشبع بالرُّطوبة العالية. تتحطّم صورته كعمٍّ فتيّ مَرِح حين يحرّف، بمنتهى الفظاظة، كلمات ترانيم عيد الميلاد التي يغنّونها. ينضمُّ إليه شقيقه مبتسمًا. وعلى نحوٍ مفاجئ، يشرعان في التنافس على إيجاد قوافٍ لا معنى لها.

- «توقّفا، توقّفا» تصرخُ آنا مذعورةً، وهي تدقُّ على صدر أبيها. «الترنيمة لا تقول ذلك».

يهزأ الرجلان من التزامها الطفولي، ويمضيان في الابتداع. تغنّي آنا بصوتٍ راجفٍ في محاولة عبثيّة للانتصار عليهما بالنسخة الحقيقيّة للأغنية، ثُمّ تركضُ يائسةً إلى المطبخ، حيث تنهمك الخالة كاتي في تقطيع الخبز.

- «إنّهما يفسدان ترنيمة عيد الميلاد» تصرخُ، «بابا وعمّي هايني!».

تدخل الخالة كاتي الغرفة مثل إلهة الانتقام.

- «ماذا فعلتما لهذه الطفلة؟».

تُحمل آنا وتُواسى، وتُعطى منديلًا وكوبًا من الماء.

- «كانت مجرّد مزحة»، يهدِّئها والدُها، «لقد وُلد الطّفل يسوع منذ ألف وتسعمئة وواحد وعشرين عامًا، وهذا سببٌ وجيهٌ للسّعادة».

يُجلِسها على ركبته، ويسوّي الفيونكة الكبيرة على شعرها، والذي تسبّب الذُّعر في انحرافها.

- «سأعلّمكِ أغنية حقيقيّة... اسمعي»، يقول. وبصوتٍ أجشّ، يقطعه السُّعال بين الحين والآخر، ينشدُ أغنيةً حزينةً: «سار اثنان من رماة القنابل نحو فرنسا، كانا أسيرين في روسيا...».

يعرض الفانوس السحريُّ خشبةَ مسرح؛ يمثّل المشهد غابةً من جذوع الأشجار الباسقة. يبحث مخرجُ العرض عن ممثّلة قصيرة القامة؛ يجب ألا يزيد طولها على مترٍ واحد.

- «كما ترى سيّد بامبيرغ»، يقول، «أبحثُ عن فتاة يمكنها أن تؤدّي دور طفلة فقيرة تاهت في الغابة. أفكّرُ في إحدى ابنتيك..».

- «أيّهما برأيك؟».

- «مَن الكبرى بينهما؟».

- «كلتاهما في العمر نفسه».

- «أوه، توأمتان.. أمر مثير للفضول».

- «أيّهما برأيك؟»، يكرّر الأب.

- «حسنٌ، لقد فكّرتُ.. صاحبة الشعر الداكن، فالشقراء تبدو ممتلئة الجسم، ولا يمكن أن تلعب دور طفلةٍ جائعة».

- «ومع ذلك، فهي تفهم النصوص بشكلٍ أفضل» يقول وهو يتحسّس شاربه بفخرٍ. «إنّها... مميّزة، في هذا الصّدد».

عملًا بالنصيحة التي تعلو باب المكتبة، اعتاد أن يكرّس فراغ أمسياته لقراءة الكتّاب والشعراء الكلاسيكيين. وفي تلك الأثناء، لأجل التسلية، جرّب أن يعلّم آنا قصيدةً.

- «لابنتنا آنا»، يوضِّحُ، «ذاكرة ببغاء. بوسعها أن تلقي قصيدة شيلر «أغنية الجرس»، من دون أن تنسى سطرًا واحدًا منها».

- «جيّد..»، يذعنُ المخرج: «أنت الأب، وبوسعك الحكم في الأمر أفضل مني».

- «لستُ موافقة»، تعترضُ الخالة كاتي، «ما تزال الطفلة صغيرة لأداء مثل هذا العرض».

لكن لا طائل من معارضة طموح أبيها. وهكذا جلست الخالة يومَ العرض مع لوته والأب في الصفّ الأماميّ، تغمرها البهجة، وتحيط بها أخواتها السّبع. وراء الكواليس، تخفي مسؤولة الملابس فستان آنا تحت معطفٍ شتويّ رماديّ بالٍ وتربط شريطة شعرها البيضاء بالحزام من الخلف على نحوٍ غير محكم. من دون أن يساورها شك في أنّه العرضُ التجريبيّ لما سيكون واقعًا، وأنّها ستنخرطُ في أداء هذا الدّور لعشر سنوات، دونها جمهورٍ، ودونها تصفيق، تؤدي آنا، على خشبة المسرح، دورًا مقنعًا لطفلة مثيرةٍ للشفقة لدرجةٍ تغرورق معها عيون الخالات بالدّموع. بعد أن قادها رجلان يرتديان بدلات الصّيد خارج الغابة الخيالية، تختلس نظرة فضوليّة إلى القاعة من وراء الكواليس. الجمهور، الذي لم يكن سوى مجموعة من الرؤوس، لا يهمُّها. تبصرُ وجهًا واحدًا فقط في العتمة الخافتة، يرتفعُ ملتفتًا نحو الخشبة؛ وجهَ أصغر شخص في القاعة، ضئيلًا وغيرَ مميّز بين البالغين. تحدّق آنا بها، ينتابها إحساسٌ غريب ومرعب. خلال العرض ودورها في المسرحيّة، تعيش لوته وآنا وجودهما للمرّة الأولى كفردين منفصلين عن بعضهما. لكلٍّ منهما منظوره الخاصّ؛ لوته من قلب القاعة، وهي من فوق الخشبة. هذا الوعي بالانفصال، بالازدواجيّة غير المرغوبة، يصيبها بالضيق فجأة، فتندفع آنا على الخشبة، أثناء المشهد الذي يلتئم فيه شمل عاشقين، يرفرف معطفها الرثّ مفكوك الأزرار حولها ويتدلّى خلفها فوق الأرض الحزامُ المتصل بشريطة شعرها.

تصرخ الأخت الصغرى للخالة كاتي متحمّسةً بلهجة كولونيا:

- «أوه، انظروا لهذي الصغيرة!».

ويعمُّ هدير الضحك في القاعة. يعلو التصفيق، كما لو أنَّ ذلك بفضل عبقريّة المخرج. تقفز آنا بثقةٍ عن خشبة المسرح. تسرع باتجاه لوته، ولا يهدأ لها بال حتّى تجلس بجوارها على المقعد نفسه.

يضيء جهاز العرض، كأنَّه نور القمر، سريرًا بملاءات زرقاء شاحبة. ترقد تحتها آنا ولوته كلَّ ليلةٍ، تتشابك أطرافهما بقوّة كأخطبوطين متزاوجين. من دون أن تنتبها، يفكُّ الليلُ هذه العقدة بمهارة، بحيث تستيقظان عند الصّباح، كلٌّ منهما على جانبٍ من السرير، بظهرين متقابلين.

يستطيع الفانوس السحريّ الوصول إلى أيّ مكان، يعرض لنا هنا غرفةً صفيّة. يمكننا سماع خربشة أقلام الغمس. لا يتناسب مزاج آنا العاطفيّ مع فنّ التخطيط. فبينما تُحكِمُ لوته قبضتها على حروف الأبجدية بيدٍ ثابتةٍ، ترفض الحروف الامتثال لإرادة آنا. بعد المدرسة، تجلس آنا بجانب أبيها في المكتب، وتخربش حروفًا على لوحها الذي يستمرُّ في مسحه قائلًا: «حاولي مرّة أخرى، ليست جيّدة» إلى أن يرضى عن كتابتها. بين الحين والآخر يستدير ليبصق في زجاجةٍ زرقاء، يُحكم إغلاقها كي لا تهرب الأرواح الشريرة منها. بعد ذلك، وكمكافأة على مجهودها، يسمح لها بالمساعدة في عدّ النقود. بأصابع رشيقة تجمع الأوراق النقدية الممزقة للعملة المتضخّمة، في حزمٍ عشاريّة، حيث تبلغ الميزانية مليارات، إلى أن تصاب رؤوس أصابعها بطفحٍ جلديّ ملتهب يضع حدًّا لهذه التسلية.

صباحَ كلّ اثنين، وقبل أن تبدأ الدروس، تجوب المعلّمة التلاميذ بنظرها، وتسألهم بنبرة تلميح:

- «من منكم لم يذهب أمس إلى الكنيسة ؟».

يسود الصّمت، ولا يتحرّك ساكنٌ، حتّى ترفع آنا إصبعها. «أنا»، وعلى الفور، يتبعها صوت لوته الأكثر ارتفاعًا ووضوحًا؛ «وأنا أيضًا».

- «إذًا، أنتما من بنات الشيطان»، تجزمُ المعلّمة بثقة.

ترى الأختان، في أعين الأطفال الآخرين، انعكاس حرمانهما الكنسيّ. يعترض الأب حين تخبرانه بالواجب التقليديّ لحضور قدّاس الأطفال صباح الأحد، قائلًا:

- «لكنكما ما تزالان صغيرتين جدًّا... لن تفهما كلمة واحدة منه».

لم يسبق أن رأت الطفلتان أباهما أو الخالة كاتي في كنيسة. كلَّ أحدٍ تتوسلان إليه؛ لم يعد بإمكانهما تحمّل نظرة المعلّمة الفتّاكة أو استهزاء زملاء الصفّ. أخيرًا، يترك كوب البيض المخفوق على الطّاولة، ويضع يديه على كتفيهما.

- «غدًا، سأذهب معكما إلى المدرسة»، يقطع وعدًا.

لكن حين ينطلقون في طريقهم، كلٌّ واحدة على جانبٍ منه، يبدو الأمرُ كما لو أنّ عليهما أن تحميا والدهما، المحموم الواني، بمعطفه الأسود الذي يهتز فضفاضًا حول قوامه الهزيل. متكئًا بتثاقلٍ على عصاه، ينبغي أن يتوقّف بعد كلّ عشر خطوات لالتقاط أنفاسه. يتردّد صوت نقر العصا على الحصى خلفه، سلسلة من الأصداء التي تحول بينه وبين السقوط. يدخلون مبنى المدرسة؛ يشير إليهما أن تنتظراه في الممرّ ويقرع باب غرفة الصفّ. تدعوه المعلّمة، التي أزعجتها المقاطعة غير المعتادة، للدخول بلطف مصطنع. تتكآن جنبًا إلى جنبٍ على الحائط، تحدّق آنا ولوته في

الباب، وتنصتان. فجأةً، يعلو صوت أبيهما الأجش فوق صوت المعلّمة التي تجاهد من أجل ضبط النفس.

- «كيف تجرئين! على طفلتين أضعف منك!».

تتبادل آنا ولوته النظرات بذهولٍ. تشدّان ظهريهما؛ لا حاجة لهما للاستناد إلى الحائط بعد الآن. تجتاحهما قوةٌ مبهجة ومتمرّدة. الفخر والانتصار والثقة بالنفس؛ لا يمكنهما تسمية الشعور، لكنّه موجود... بفضله.

يُفتح الباب.

- «تعالا»، يقول، كاتمًا سعاله.

تجتاز آنا العتبة أولًا، وتتبعها لوته بسرعة. تقفان قرب السّبورة. لم تتناثر المعلّمة قطعًا مبعثرةً على الأرض. ومع ذلك، يبدو أن عمودها الفقري قد كُسِر في مواضع عدّة. تتشبّث بمكتبها، برأسٍ منحنٍ وكتفين متدليتين. ينظر التلاميذ، الجالسون بلا حراك في مقاعدهم، بخجلٍ واحترامٍ إلى الأب، الذي يهيمن على المشهد بأسره.

- «حسنٌ... فلتعتذري الآن إلى ابنتيّ، أمام تلاميذ الصفّ كلّهم»، يقول وهو يدفع طفلتيه بلطفٍ نحو المعلّمة.

تنظر المعلّمة إليهما بطرف عينها. تبتعد نظراتها على الفور من جديد، كما لو أنّها وقعت على شيءٍ قذر.

- «أنا آسفة عمّا قلته لكما. لن يتكرّر ذلك»، تقول ببرودٍ.

يعمُّ الصمت. ماذا الآن؟ هل ثمة ما يُضاف لإذلال المعلّمة؟

- «سأصطحبهما إلى المنزل الآن»، تسمعان صوت أبيهما أعلى رأسيهما، «لكنّهما ستعودان في الغد. وإذا علمت بأنَّ شيئًا كهذا حدث مجدّدًا، سآتي ثانيةً».

لحسن الحظّ، التزمت المعلّمة بالوعد الذي انتزعه منها، لأنّه لم يكن ليستطيعَ تنفيذ وعيده في حال الإخلاف. لقد صار أقل قدرة على الصمود في وجه حرب الخنادق المستعرة في رئتيه. شريحة جديدة: متمدّدٌ على الأريكة مثل شاعرٍ رومانسيّ، يؤدي عمله الإداريّ لاهثًا. بين الحين والآخر، يستقبل أصدقاءه الذين يضمرون قلقهم خلف ثرثرتهم المبتهجة؛ وتمثّل طفلتاه الواعدتان، بفساتينهما المزركشة بالمربّعات، مع الباقات البيضاء، مصدرَ إلهاءٍ مُرحَّبٍ به، بما تحفظانه من أغانٍ وقصائد. لم يعر أحد انتباهه إلى أن غناء لوته قد قُوطع ثلاث مرّات بسعال جاف، باستثناء الخالة كاتي. ولأنَّ التجارب علّمتها أن تبقى مرتابة، تخضع لوته لفحص طبيب العائلة. ظل ينقر على صدرها الرقيق عدّة مرّاتٍ، في الوقت الذي يضع فيه سماعته ويقرب شاربه من جلدها الشاحب. يطلب إليها أن تسعل، الأمر الذي تؤدّيه بسهولةٍ كما لو أنّها تمرّنت على السّعال مثل أغنية.

- «لستُ مطمئنًا بشأنها»، يتمتم خلف ظهرها، «أسمعُ صوتًا خافتًا في رئتها اليمنى».

تقف لوته أمام دمية تشريحٍ بشرية وتلمس القلبَ الورديّ بقشعريرةٍ واهية. يسمح لهم بالذّهاب، بعد أن أعطاهم زجاجةً من شراب السّعال وموعدًا للتصوير بالأشعة السينيّة.

في المجموعة التالية، لا نشاهد أيّام تدهور الأبِ وحدها في الشريحة المغبرة ذات اللون الأصفر الذهبيّ، بل أيّام تدهور الأسرة أيضًا. تنبع من الكازينو السّطوة نفسها التي سادت حين كانت المقامرات ما تزال تجري فيه: الكلّ أو اللاشيء، الحياة أو الموت. لقد كان مبنى يدخله المرء طافحًا بالآمال، ويغادره محطمًا، خدعة خيميائيّة حُفظت وصفتُها السرّية بين الجدران الأربعة لهذا المعقل. بسبّابته الطويلة والنحيلة، يشير إلى ابنتيه لتدنوا إليه. لاهثًا، يجلس على حافة الأريكة.

- «اسمعاني»، يقول ببطءٍ، كأنّه يحرّك لسانًا ثقيلًا إذ يتكلّم، «كم من الوقت تظنّان أنني سأعيش؟».

تتجّهم آنا ولوته، كما لو أنّهما تجمعان أرقامًا فلكيّة.

- «عشرين عامًا!»، تخمّن آنا.

تزيد لوته: «ثلاثين!».

- «حسنٌ، هذا إذًا ما تعتقدانه»، يقول بأناة.

ينظر إليهما، فمه مفتوح، عيناه محمومتان، لامعتان، كما لو أنّه يرغب في قول شيءٍ آخر، لكنّ نوبةً من السّعال الحادّ تستبدُّ به، فيبعدهما عنه، بيدٍ مرتعشةٍ.

بعد عدّة أيام، حالما تعودان من المدرسة، تقودهما الخالة كاتي إلى غرفة النوم. رائحة الملفوف الأحمر مع التفّاح والقرفة تملأ المنزل. يتناقض التجمّع المتحلّق حول سرير والدهما على نحوٍ بغيض مع الرائحة الحارّة والحلوة. يحدّق العم هاينريش، الذي يعقد ذراعيه أمام بطنه حاملًا قبّعةً مجعّدة، في أخيه النائم بارتياب مُزارعٍ. هل هذا مشهد

خاصّ ينبغي على الجميع الوقوف أمامه ومعاينته؟ تدفع الخالة كاتي آنا ولوته نحو السرير.

- «يوهان» تقول مقرِّبة فمها من أذنه، «ها هما الطفلتان».

حين يتبيّن ابنتيه، تتألّق عيناه كما لو أنّه يتمتّع خلسةً بالتمثيليّة المضحكة حول سريره. سينهض في الحال، تفكّرُ لوته، ويرسل الحاضرين جميعهم إلى منازلهم. لكنّ مزاجه ينقلب بعد ذلك. ينقّل بصره بانفعال من واحد إلى آخر. يرفع رأسه المتعرّق؛ يبدو من عالمه السرّيّ الداخليّ أنّه يريد قول شيءٍ لا يحتمل التأجيل.

- «أنيليزِه...»، يتفوّه.

سرعان ما يسقط رأسه على الوسادة، غارقًا في البعد مرّةً أخرى. على الخدّين الغائرين، ثمّة ظلّ للحية خفيفة.

- «لماذا قال لنا أنيليزه؟»، تسألُ آنا مستاءةً.

- «إنّه يفكّر بأمّك»، تقول الخالة كاتي.

بعد تناول الطعام، تأخذهما إحدى الأخوات السبع بعيدًا عن الاحتفال الذي ليس باحتفالٍ. تُوضعان في سريرٍ غير مألوف؛ طوّافة عائمة في مُحيطٍ غريب، لا ينقذهما من الغرق فيه سوى العناق المحكم بينهما، والاستلقاء من دون زحزحةٍ في المنتصف تمامًا. في الليل، تحلمان بأنّ الخالة كاتي توقظهما وتقبّلهما بوجهٍ مبلّل، لكنّهما حين تستيقظان بحلول الصّباح لا تعثران عليها. سبعة أزواجٍ من الأيدي تُخرج آنا ولوته من السّرير وترفعهما على كرسيّ كي يسهل إلباسهما.

- «أبوكما..» تقول إحداهنّ وهي تسحبُ قميصًا داخليًّا، «تُوفّي الليلة الماضية».

لم يثر هذا البلاغ في البداية أيّة ردود فعل، لكن أثناء العمليّة المرهقة لربط الأحذية، تتنهّدُ آنا:

- «إذًا لن يسعل بعد الآن».

توافقها لوته مُردفةً:

- «ولن يعاني مزيدًا من الآلام في صدره».

تعرض الشريحة الأخيرة مشهدَ الوداع. الجنازة غير مرئيّة، وكذلك الانحناءات الكريهة المستمرّة المتوقّعة من الفتاتين في هذه المناسبة. المشاجرات أيضًا، ودموع الخالة كاتي، وتهديدها باتخاذ الإجراءات القانونيّة، والحقائب المحزومة... كلّها لا تُرى. آخر مرّة ترى لوته فيها آنا: تقف في منتصف الطريق أسفل السلّم في القاعة، محاطة بأفراد من العائلة قدموا من أماكن بعيدة. تقف الخالة كاتي جانبًا، معلنةً التخلّي، على وجهها آثارُ نحيبٍ عابثٍ. آنا تملؤها الثقة بالنفس، ترتدي فستان حدادها، وفيونكة سوداء كبيرة، مثل غرابٍ، مغروسة في شعرها الأشقر. يقف بجانبها العمّ الذي استهزأ بترانيم عيد الميلاد؛ وعلى الجانب الآخر، تقف عمّة أخرى، بصدرها ذي الأبعاد المذهلة، يرتكز عليه صليبٌ ذهبيّ متلألئ. ثمّة شخصيّات عديدة غير واضحة ومن دون ملامحِ خاصّة تُكملُ الصفّ. خلف آنا، يقف عجوزٌ متيبّس يرتدي بدلة من الجوخ، شاربه أشعث، وتخرج من أذنيه خصلٌ كثيفةٌ من العشب الذابل، يضع يديه المتعظّمتين على كتفيها، كما لو أنّه استحوذ عليها بالفعل. آخرَ

مرّة ترى آنا فيها لوته: واقفةً عند الباب، تحت النافذة الزّجاجيّة الملوّنة مباشرةً. ليس بوسعك أن تميّزها إلّا من خلال وجهها؛ فقد لُفَّ باقي جسدها بطبقاتٍ كثافةٍ كما لو أنّها ذاهبة في رحلةٍ استكشافيّة نحو القطب المتجمّد. بجانبها سيّدة مسنّة مغناج، تتكئ على مظلّة، تحملُ قفّازاتٍ جلديّة رقيقة مرخيةً بين أصابعها، وتعتمر قُبّعةً أنيقة مرفقةً بشبك. ظلّت تنادي العجوز، الذي يضغط بثقل يديه على كتفي آنا، بلهجةٍ فوقيّة عابثة طوال اليوم: «عزيزي بولي».

لا تشعر آنا ولوته بالقلق. لا تتراميان في أحضان بعضهما، لا تبكيان، لا تتوادعان بأيّ شكلٍ من الأشكال؛ كيف بوسعهما فعل ذلك، وهما غير مدركتين لمعنى البُعدِ في الزّمان والمكان؟ الوحيدة التي تضفي لمسةَ حنانٍ تناسبُ هذا الوداع هي الخالة كاتي، التي تندفع عبر القاعة، في اللحظة الأخيرة، وسيلٌ من الدموع على خديّها، تضمُّ لوته إلى صدرها.

٢

- «سيّدتي، لقد عثرتُ على أختي!».

بادرت آنا بالكلامِ ضيفةً عابرةً في المنتجع الصحيّ، فتراجعت الأخيرة مذعورةً. تبيّنت لوته على مضضٍ تهوُّرًا وصخبًا يعودُ لزمنٍ بعيد... بعيد.

- «أمرٌ لا يُصدَّق»، أمسكتها آنا من كتفيها ومدّت ذراعيها. «دعيني ألقي نظرةً عليكِ».

كلُّ عضلةٍ في جسم لوته كانت متوفّزة. لا سيّما أنّها يجب أن تخضع للمعاينة الآن! أثارت هذه الألفة نفورها؛ لقد جُرفت في تيّارٍ لا تقوى على مقاومةِ اندفاعه. لكنَّ ولادتها في الوقت نفسه عمليًّا، ومن الأمِّ نفسها، قبل أربعة وسبعين عامًا، لم تكن بالحقيقة التي يسهلُ الفرار منها، مهما كانت آليّة الإلغاء التي صقلتْها على مدى نصف قرن. كانت عينان ثاقبتان، بزُرقةٍ فاتحة، تتمعّنان فيها بفضولٍ، وقليلٍ من السُخرية.

- «لقد أصبحتِ سيّدةً وأيّ سيّدة» قالت آنا. «ما زلتِ نحيلةً جدًّا، وبهذا الشعر المرفوع... تبدين بكامل الحُسن، عليّ أن أقر بذلك».

حدّقت لوته بتحفُّظ في هيئة آنا التَرِفة وشعرها القصير؛ ما يمنحها مظهرًا شابًّا ومتمرّدًا.

- «هذا ما لم أستطع فعله»، قالت آنا بضحكةٍ تردَّد في صداها السخرية من نفسها والفخرُ على السّواء.

شدّت على ذراع لوته، واقتربت بوجهها، تشعُّ عيناها بنظرةٍ حازمةٍ.

- «وأخذتِ أنف بابا، رائع!»

- «كيف... انتهى بكِ المطاف لتكوني هنا؟» حاولت لوته، وهي محاصرة، أن تشتّت انتباه آنا، التي تركتْها، حمدًا للرب، تفلتُ منها أخيرًا.

- «أعاني من التهاب المفاصل. لقد اهترأ جهازُ الحركة في جسمي برمّته، كما ترين». أشارتْ إلى ركبتيها ووركيها. «أخبرني أحدهم عن حمّامات الخُثّ في سپا؛ والمكان ليس بعيدًا عن كولونيا. ماذا عنك؟»

تردّدت لوته، وهي تتوقّع أنّ إجابتها ستسعد أختَها.

- «التهاب مفاصل أيضًا»، تمتمت.

- «لا بُدّ أنّه مرضٌ عائليّ!»، صرخت آنا بحماسٍ. «اسمعي، دعينا نذهب ونجلس في مكانٍ ما. لا أستطيع البقاء واقفة لمدّة طويلة».

لم يكن ثمّة ما يمكن فعله. أمرٌ لا مفرّ منه قد بدأ؛ لا تجدي معه المقاومة.

- «أختي، من كان يظنُّ ذلك!»، قالت آنا تغمرها البهجة، في منتصف طريقهما في الممرّ.

كان هناك عجوز غافٍ على مقعدٍ بجانب الحائط، يداه المتعظّمتان تقبضان على عكّازه، هبَّ مستيقظًا فجأة.

بفنجاني قهوةٍ من آلة البيع، دخلتا الصّالة التي تتصدّرُها لوحة عملاقة تصوّر امرأة شابّة برفقة بجعة. عندما جلست لوته أخيرًا على نحوٍ مريح، واحتست بضع رشفاتٍ من القهوة، أخذت تستعيد بعضًا من رباطة جأشها المعهودة.

- «من كان يظنُّ أنّنا قد نلتقي مجدّدًا...؟»، هزّت آنا رأسها. «وفي هذه البقعة الغريبة تحديدًا... لا بُدّ أنَّ ذلك يضمر معنى عميقًا».

ضغطت لوته على الكوب البلاستيكيّ. إنّها لا تؤمن بالمعاني العميقة، لقد كان ذلك مجرّد مصادفة غبيّة، سبّبت لها إحراجًا بالغًا.

- «هل تشعرين بالتحسُّن مع استخدام هذه الحمّامات؟» قالت آنا في محاولةٍ لبدء الحديث.

- «أنا هنا منذ ثلاثة أيامٍ فحسب»، قالت لوته بتردُّد. «الأثرُ الوحيد الذي أشعرُ به حتى الآن هو التعب الشديد».

- «إنّها السُّموم وهي تخرج من جسدكِ»، اتخذت آنا نبرةً احترافيّة مزعجة، ثم قفزت فجأةً: «أما زلت تتذكّرين حوض استحمامنا في كولونيا؟ قوائمه على هيئة أقدام أسد؟ في المطبخ؟»

عبست لوته. تبادر إلى ذهنها حمّامٌ آخر. حدّقت متأمّلةً نحو الخارج، حيث أضفت شمسُ الشتاءِ مظهرًا عاريًا على المباني.

- «مساء كلِّ سبت، اعتاد والدي أن يغسلنا واحدةً تلو الأخرى في حوض الاستحمام».

- «والدك؟»

- «والدي الهولنديّ». ابتسمت لوته بارتباك.

- «كيف كان يبدو؟.. أقصد، أيّ صنفٍ من النّاس كانوا؟.. حين كنت صغيرة، تخيّلتُ بشتّى الطُّرق..»، قالت آنا وقد رفعت يديها في الهواء. «لأنّني لم أكن أعرف شيئًا على الإطلاق، اخترعتُ الأشياء بأسلوبي الخاصّ.. حلمتُ بزيارتك... لا تعرفين مدى صعوبة ألّا أسمع خبرًا منك... تصرّف الجميع كما لو أنّكِ غير موجودة... لذا، على أيّ حال، أيّ نوعٍ من البشر كان أولئك النّاس؟»

زمّت لوته شفتيها. انبثقت جاذبيّةٌ مريبةٌ من فكرة استحضار الذكريات القديمة. كانت هذه الذكريات مدفونةً عميقًا في زاويةٍ من ذاكرتها، تحت طبقةٍ كثيفة من الغبار وخيوط العنكبوت. ألم يكن من الأفضل تركها وشأنها بدلًا من النبش حولها؟ مهما يكن، فهي جزءٌ منها؛ وثمّة إغراء في أن تعيد إحياءها. وسط مُحيطٍ لا معقول كالمنتجع الحراريّ، وبناءً على طلبِ آنا بالتحديد. لقد تحدّتها سخافة الأمر وانعدام لياقته، فأغضمت عينيها نصف إغماضة، وأخذت تتمتمُ بهدوءٍ مع نفسها.

*

مساء كلّ سبتٍ، كان يفركُ منظّفًا أجسام بناته الأربع، في حوض مليء برغوة الصابون الدّافئة، مغمغمًا: «اقعدن ولا تتحرّكن!»، في هذه الأثناء كانت زوجته تستغلّ ساعات التسوُّق المتأخِّرة. يُختتم هذا الطّقس

بكوبٍ من الحليب الساخن الذي تركه يغلي حتى أخذ يصفر. بأربعة من أردية النوم، وثمانية أقدامٍ حافية؛ كنّ يرتشفن الحليب بكلِّ البطءِ الممكن كي يماطلن في الوقت. وبعد أن يتلقّى أربعًا من قبلات ما قبل النّوم، يرسلهنّ بحزمٍ إلى الفراش. يختلف الأمر في الصّيف. حيث كانت ثلّة من فتيات القرية الأكبر سنًّا تجتمع في ملعب كرة القدم المعشوشب أمام المنزل، لممارسة الجمباز الإيقاعيّ في غشاوة الضباب التي تتصاعدُ من العشب. تحت السّماء الحمراء، تظهر الصّورة الظليّة لشاحنة التوصيل التي تقتربُ مُسرعةً، وهي تنفثُ سحبًا من الغبار على طول الطريق الترابيّ. تتوقّف عند بوابة الملعب، يُفتح بابها الخلفيّ، ثُمّ تحصل المعجزةُ التي تخطف أنفاس لوته مساءَ كلِّ سبت؛ حيث تُخرج ذراعان مفتولتا العضلات بيانو وتضعه في موقعٍ إستراتيجيّ في الملعب بين أعشاب الحَوْذان والحُمّاض. يجلس شاب يرتدي بدلة صيفيّةً بيضاء مائلة إلى الصُّفرة أمام البيانو، ويطلق ألحانًا كلاسيكيّة بإيقاع سريع نحو سماء المساء.

تركل فتيات نادي الجمباز أرجلهنّ عاليًا ويتقوّسن إلى الوراء؛ يقفن على أصابع أقدامهنّ وأذرعهنّ ممتدّة فوق رؤوسهنّ كما لو أنّهن هبطن على الأرض معًا بمظلّات خفيّة. بانسجامٍ تامٍّ مع الإيقاع الرُّباعي الصّارم لعازف البيانو. مايز وماريا وجيت ولوته، وهن ما يزلن دافئاتٍ بسبب الحمّام، يراقبنْ المشهد من حافة السياج إلى أن يلمحن أمهنّ تلوح في الأفق من بعيد، منتصبةً على درّاجتها من طراز «غازيل»، وقد تدلّى مقوداها، كما يبدو، تحت ثقل أكياس التسوُّق المنتفخة.

لا حمّامَ لآنا. بعد وقتٍ قصيرٍ من وصولها إلى مزرعة الأجداد في ليبه[1]، اتّضح لها أنَّ الاستحمام يندرج ضمن النشاطات الاستثنائيّة المريبة على العموم. عقب رحلة القدوم مباشرةً، غاص جدُّها في كرسيّه المعتاد، واضعًا جوربيه على حافّة الموقد الحديديّ، إلى أن فاحت رائحة عفنٍ نفّاذة في غرفة المعيشة الصغيرة والمكتظة، جدّها الذي سيموت قبل أن تدنّس صدره الشّاحب قطعة صابون.

- «أريدُ أن أستحمّ»، قالت آنا متذمّرةً.

لانت العمّة ليزل أمام عناد ابنة أخيها على التمسك بمبادئها، فوضعت إبريقًا كبيرًا من الماء على النار وملأت حوض استحمامٍ على الأرضيّة المعبّدة بالحجر. كانت هذه النغمة التي ستحدِّدُ عادةً طويلة الأمد، حافظت آنا عليها بمفردها بعد أن غادرت العمّة ليزل المنزل. بعد سنواتٍ، حين بدأت تقفل الباب عليها لإجراء هذه العمليّة، هزَّ العمّ هاينريش الباب، هاتفًا بضحكةٍ مستثارة: «لا بُدَّ أنّك في غاية القذارة طالما تفتعلين كلّ هذه الجلبة».

ارتاب أطفال القرية في سلوكها المتحضِّر ولهجتها المثقّفة. ثبّتوا ورقةً على ظهر معطفها كُتب عليها: «ارحلي من هنا!». كانت متفوِّقةً في مدرستها؛ وقد راقب زملاؤها إنجازاتها ومهاراتها بمزيجٍ من الرّهبة والحسد، وتجنّبوا مرافقتها. أدركت شيئًا فشيئًا بأنَّ موتَ أحدهم يعني غيابه الأبديّ، وأنَّ شيئًا لا يمكن أن يعيده إليك، ولا حتى توقك العميق لأن يبدِّد، بمقدرته البالغة، أسباب عذابك. وفقًا لهذا التعريف، كانت

(١) مقاطعة شرق ولاية نوردراين-ڤستفالِن في ألمانيا. (المُراجِعة)

لوته ميّتة أيضًا. ظلّت آنا تلحُّ بشأن عودتها، وهي تدور حول جدّها، حتّى صرخ بشراسة:

- «لا تكوني عديمة الصّبر! إن لم تتعافَ تمامًا، فستموت هي أيضًا. هل هذا ما تريدينه إذًا؟».

يائسةً، التفتت إلى العمّة ليزل التي كانت تغزل الصوف وتغنّي بصوتٍ عالٍ رقيقٍ: *«لست أدري ما الذي يعنيه...»*[1]. كان نهداها الطريان يهتزّان مع حركة العجلة. فوق رأسها عُلّقت لوحة تلقّتها العائلة كهديّة خلال الحرب عندما قضى أحد أبنائها في القتال. كانت عبارة «ما من حبٍّ أعظم من أن تضحي بحياتك في سبيل وطنك» مكتوبة بحروفٍ مزخرفةٍ تحت صورة جنديٍّ يحتضر، وقربه ملاك يمدُّ إليه سَعفةَ النَّصرِ. تسلّلت آنا خارج المنزل، بأملٍ غامضٍ في أن يتمّكن العمّ هاينريش من إلقاء بعض الضوء على هذه القضية. لكنّه كان جالسًا فوق المرحاض، في الحديقة الخلفيّة، داخل كوخٍ خشبيٍّ مطليٍّ بالأخضر الدّاكن، عالٍ وضيّق ومائل بسبب رافدٍ لنهر ليبه يمرُّ تحت الأرض. الباب الذي يحوي ثقبًا على شكلِ قلب مفتوحٌ على مصراعيه. كان يجلس مسترخيًا، يتبادل الحديثَ مع أحد الجيران الذي كان يؤدّي النشاط ذاته على الجانب الآخر من حقل شمندر العلف، مع بابٍ مفتوحٍ أيضًا. كانت محادثتهما عن مباراة الرماية والفتيات؛ فلم تغامر آنا بالدخول إلى هذا الميدان.

---

(١) قصيدة مغناة معروفة للشاعر الألماني هاينريش هاينه. (المترجم)

مشت بتثاقلٍ نحو النهر، مستسلمةً لليأس، عبرت الجسر ووقفت بكتفين ذابلتين، أمام مزارٍ للعذراء، في ظلِّ شجرة بيلسان وارفة. وضع أحدهم حزمةً من أزهار الفاوانيا الحمراء الدّاكنة عند قاعدة التمثال. كانت الأمُّ تنظر إلى طفلها بورع، على نحو يوحي بعلاقةٍ حميمة غامضة وخفيّة تقصي كلَّ النظرات الفضوليّة. انتابت آنا رغبةٌ في إفساد هذا التأمُّل الذاتيّ، وتمريغ هذا الوجه التقي. بدلًا من ذلك، أخرجت الورود من المزهريّة، وحملتها راكضةً إلى الجسر، وألقت بها في نهر ليبه، بقذفةٍ غاضبةٍ من معصمها. نظرت إليها وهي تسبحُ طافيةً ببطءٍ تجاه هولندا. شذّت إحدى الزهرات عن البقيّة: فبعد أن دارت في دوّامةٍ، غرقت نحو الأعماق. حدّقت آنا بغيظٍ في البقعة التي اختفت عندها الزهرة. أن تختفي بين لحظةٍ وأخرى، ذلك ما كانت تريدُه لنفسها أيضًا، كي تنضمَّ إلى أحبابها الغائبين. حملت ريح عنيفة رائحة العشب والقصب الرّطبين. لم تقاوم الريح حين أمسكت بها ورفعتها، فأخذت ملابسها ترفرف. حلّقت عاليًا، في حفيفٍ يصمُّ الأذنين، مباشرةً إلى السّماء الصّافية. بعيدًا نحو الأسفل منها، رأتْ مزرعة جدِّها، مغطّاة جزئيًّا تحت ذروة شجرة زيزفون. رأت الحقول والضِّفاف الرمليّة المغطاة بالطمي، المعشوشبة، حيث ترعى الأبقار، والمدرسة وكنيسة لاندولينوس؛ المستوطنة القابعة بأسرها على جانبي نهر ليبه، الذي حاول بتعرجاته اليائسة الهروب من هذه القرية التافهة التي اختلق سكانها لتعزيز مكانتها حكايات عن ڤيدوكيند[1]، إذ يقال إنه أبدى فيها، مع جحافله من السكسونيين،

(١) ڤيدوكيند: زعيم السكسونيين والمعارض الرئيس للملك الفرنجي شارلمان خلال الحروب السكسونية (٧٧٧-٧٨٥م). (المترجم)

مقاومةً دمويّةً لملك إمبراطوريّة الفرنجة. لم تلقِ آنا، التي تحوم بعيدًا فوقها، بالًا للأمر.

استلقت لوته في الحديقة، في كوخ خشبي أبيض، يستندُ إلى محورٍ دوّار يسمح بتوجيهه نحو الشمس أو بعيدًا عنها حسب الرغبة. متمدِّدة في السّرير، تنثني مع الطَّقس؛ وجهها الرفيع على وسادةٍ بيضاء ذات حواف من الدّانتيل. سحبت والدتُها الهولنديّة كرسيَّ المطبخ نحو السرير وأخذت تعلمها اللغة الهولنديّة؛ وأعطتْها أيضًا كتاب حكايات خرافيّة للأخوين غريم، مزيَّنًا برسوماتٍ رومانسيّة. باللغة الألمانية، «لكيلا تنسي لغتك الأمّ»، قالت لها.

بدت هي أيضًا كما لو أنّها خرجت من كتاب الحكايات الخرافيّة. كانت طويلة ومنتصبة وفخورة؛ تضحك من تلقاء نفسها؛ أسنانها بيضاء بياض الحمائم التي تطير ذهابًا وإيابًا إلى وُكْنَتها عند طرف الغابة. كان كلُّ شيءٍ فيها يتألق؛ بشرتها وعيناها الزرقاوان وشعرها البُنّيّ الطويل المثبّت ببعض الأمشاط المنحوتة من صدف السلاحف، والموزّعة على نحوٍ مدروس. لقد فاضت ببهجة الحياة على كلِّ من عبرَ طريقها. لكنَّ أكثر ما تشتركُ به مع الحكايات الخرافيّة كان قوّتها غير الأنثويّة. فإذا رأت زوجها يحمل كيسًا من الفحم، كانت تهرع إليه لتزيح العبء عن كاهله بلطفٍ خالصٍ، وتحمل الكيس إلى مستودع المنزل كما لو أنّه كيسٌ مملوء بالرّيش.

سرعان ما أدركت لوته أنَّ المطاف انتهى بها في فرعٍ ذي صلة بالعائلة: فرع الأنوف الطويلة. وكان رأسُ هذا الفرع يشبه أباها على

نحوٍ لافت. النظرة الكئيبة الحادّة نفسها، الأنف الدقيق المقوَّس نفسه، الشّعر الداكن المُمشَّط نحو الخلف نفسه، والشارب نفسه. لقد كان في الحقيقة ابن عمة والدها، وقد نقل خصائصه الوراثيّة إلى بناته من دون أيِّ تغيير؛ كان عضوٌ مماثلٌ للشمِّ، شامخٌ وحَسَّاسٌ، ينمو لديهنّ بالفعل من خلال الأنف الطفوليّ المُدوَّر. بعد سنواتٍ، حين صار خطيرًا أن تمتلك أنفًا طويلًا على هذا النحو في منتصف وجهك، فإنَّ هذه الحقيقة البيولوجيّة الصغيرة كادت تكلِّف إحداهنّ حياتها.

اعتمادًا على موقع الشمس، تمكّنت لوته على الدوام من رؤية أجزاء مختلفة للكون من كوخها الخشبيّ. هناك، خلف الخندق الواسع الذي يحدُّ الحديقة من الجانبين، كانت الغابة. بجانب وكنة الحمائم، شكّلت مجموعة من الأشجار الصنوبريّة بوّابةً طبيعيّة، فجوةً مظلمة تجتذب أنظارها؛ عبر جسرٍ تغزوه الطحالب، يفضي إلى الغسق البازغ بين الأشجار. من زاويةٍ أخرى، شاهدت البستان وحديقة الخضراوات حيث انتفخت ثمار القرع بسرعةٍ كبيرة لدرجةٍ ظنّت معها لوته، متأثّرةً بالحكايات الخرافيّة حيث بوسع التفّاحات ولفائف الخبز أن تتكلّم، أنَّ بمقدورها سماع أنين آلام نموها. ثمّ كان هناك منظر المنزل وخزّان الماء البرجيّ الضخم مثمّن الأضلاع، بثغوره العديدة؛ المبنيّة مع قناطر مزخرفة بالطوب الأخضر المزجَّج الذي يحيط بالنوافذ والأبواب. شاهدت ذات يومٍ أباها الهولنديّ وهو يتسلَّق ذلك البرج، لينصبَ علمًا ضخمًا. حبست أنفاسها حين رأت الهيئة الضئيلة في الأعلى بجانب علمٍ يرفرف في الرِّيح مثل شراعٍ مفكوك؛ ألم يكن مصير الآباء أن يُجرفوا فجأة خارج العالَم؟

في الليل، نامت داخل المنزل في غرفةٍ منفصلة. لتتكشَّف بعدَها مناظرُ الطبيعة الليليّة: تلالٌ وصخورٌ لم ترَها من قبل، غابات التنُّوب والمروج الجبليّة، والجداول. طاف جدُّها فوق هذه المشاهد على ذيل معطفِ حدادِه؛ كانت آنا تتدلّى من مخالبه، تصرخُ في صمتٍ. ركضت لوته مندفعةً فوق التلال، صعودًا ونزولًا، هاربةً من الظلّ الذي يلقيه عليها. كانت الأرض تتفتّت تحتها، تتعثّرُ فوق الصخور؛ استيقظت وهي تصرخُ وتسعلُ. حُملت ووُضعت على سريرٍ آخر، حيث واصلت النوم، من دون انزعاج، في حَجْرِ ذراع أمّها الهولنديّة.

*

- «لماذا هرعوا بنا، كاللصوص في الليل، مباشرةً عقب الجنازة؟»، تساءلت لوته.

ضحكت آنا ضحكةً كالحةً.

- «لأنّه كان بمثابة انتقام. إضافةً إلى المكافأة المميّزة التي تمثّلت في قوّةٍ عاملةٍ جديدة تنضمّ إلى المزرعة. قرية من المزارعين الكاثوليك المحافظين؛ هكذا كانت الحال حينذاك. هرب والدُنا من تلك البيئة في التاسعة عشر من عمره. رحل إلى كولونيا وأصبح اشتراكيًّا. لم يستطع ذلك العجوز، حاسر النظر، أن يتحمّل ذلك؛ تخيّلي. ولهذا، حالما مات الابن المرتدّ، سارع الجدّ لانتشالنا من بؤرة الوثنيّة والاشتراكيّة تلك. غارة استباقيّة لمنع الخالة كاتي من الاحتفاظ بنا».

أحسّت لوته بدوارٍ طفيفٍ. لم تتصوّر أنها يمكن أن تنتمي إلى تاريخٍ

عائليٍّ بهذه البشاعة. فجأةً، بهذه البساطة، ذاب ختم الشّمع مُفرِجًا عن لغزٍ مريرٍ كانت قد ختمت عليه منذ زمنٍ بعيدٍ: شششش، لا تفكّري في الأمر بعد الآن، ذلك لم يحدث أبدًا.

- «لكن..»، اعترضت بوهنٍ، «لماذا تركني... أنا... أذهب إلى هولندا إذًا؟».

شعرتْ بأنّها لا تسمع غير صدى صوتها، أو أنّ شخصًا آخر يتحدّث بالنيابة عنها. مالت آنا نحوها، واضعةً يدها الممتلئة فوق يد لوته.

- «ساءه أنّك كنتِ مريضة. كان الطفل السّليم استثمارًا رابحًا، لكنّ الطفل المريض... أطباء وأدوية؛ مصحّة وجنازة: أمور تكلّف مالًا فحسب. وافق على اقتراح أخته إليزابيت بأن تصطحبكِ معها، مع أنّه لم يكن راضيًا عنها أبدًا، وارتاب بشأن ملابس الحداد الأنيقة التي كانت ترتديها. قالت إنّ ابنها يعيش في منطقة حراجية قريبة من أمستردام، تتمتّع بهواءٍ جافٍّ، وهو أمر مفيد بالنسبة لمرضى السلّ؛ كما كان هناك مصحّة قريبة في المقاطعة. حسنٌ، تعرفين كلّ ذلك أكثر مني. هذه العمّة ذاتها هربت من حياة المزرعة خلال القرن الماضي -تخيّلي، منذ مئة عام تقريبًا- لترحل إلى هولندا كخادمة قبل أن تتزوّج هناك. أخبرتْني العمّة ليزل بكلّ هذا، بعد سنواتٍ من الحرب. لم يأتِ جدّي على ذكركِ بعد ذلك، حتّى بعد شفائك. إنّ قطًّا سقيمًا في صغره لن يصبح أبدًا حيوانًا قويًا ومعافى، كانت هذه وجهة نظره».

- «أتساءلُ»، قالت لوته مع ابتسامةٍ متشنّجة، «إن كان سيدعني أذهب لو علم أنّه سيعهد بي إلى رجلٍ ستالينيّ، أنشأني تحت وابلٍ من التجديف بالبابا والكنيسة».

- «يا ربي، أصحيح ذلك؟» مذهولةً، هزّت آنا رأسها. «يا للمفارقة.. ذلك أنّي ما كنتُ لأعيش طويلًا لولا هذه الكنيسة».

*

خبز ومسامير للنِّعال ونقانق ودبابيس، لم يكن هناك أشياء غير واردٍ توفُّرها في المتجر الغني بالبضائع والمحاذي للمقهى، حيث اعتادت آنا أن تتلو قائمة التسوُّق الخاصّة بها بصوتٍ واضح.

- «هل تريدين أن تكسبي عشرة فنغات[1] يا بنت؟»، همست المرأة الجالسة خلف طاولة النقود؛ ولم يمنعها فقدان أسنانها الأماميّة من إظهارِ ابتسامة البقّالِ الماكرة على شفتيها.

أومأت آنا.

- «إذًا تعالي واقرئي لوالدتي مرّتين في الأسبوع».

جلست الأمُّ، العمياء بسبب المياه البيضاء في عينيها، في الغرفة الخلفيّة بجانب النافذة، متكوِّمة في كرسيّها البالي. على الطاولة أمامها، تأمُّلات كاثرينا إميريش الصُّوفيّة. كان لا بُدَّ من اختتام كلِّ جلسة بقراءة الفقرة الأثيرة لدى العجوز: تلك المتعلِّقة بجَلْد يسوع قبيل

(١) الفنغ (تُلفظ بالألمانيَّة: الفِنيش) من المارك الألماني، كالبنس من الدولار، وهي أصغر فئة من العملة الألمانية التي بقيت حتى اعتماد اليورو عام ٢٠٠٢. (المترجم)

الصَّلْب. صوّرت القدّيسة إميريش مراحل الجَلْدِ المختلفة من دون تحفُّظٍ: جلدَه في البداية سائطٌ عاديّ لمدّةٍ، ثمّ حلَّ مكانه جنديٌّ آخر مُجهَّز جيّدًا وضربه بسوطٍ مشقوق، وحين تضاءل عزمُه، استبدلوا به جنديًّا بسوطٍ تتغلغلُ أشواكِه عميقًا في الجلد. مع كلِّ جَلْدة، كانت المرأة تضرب ذراع الكرسيّ بأصابعها المتعظّمة، ويتلفّظ فمها أنينًا يتراوح بين صرخاتِ الألم والتشجيع. بلغت آنا كذلك ذروةً شعوريّة في كلِّ مرّة: تعاطفها مع يسوع ممتزجًا بغضبها على الجنود الرّومانيين والمحرّضين الفعليين؛ اليهود. بعد أن أغلقت الكتاب بأصابع راعشة، أخذ شعور السّخط يتلاشى ببطءٍ.

- «تعالي إلى هنا»، قالت المرأة العجوز.

اقتربت آنا مُكرَهةً من كرسيّها. أخذت الأصابع العتيقة التي كانت تنقر بإيقاعٍ على مسندِ الذراع قبل قليلٍ، تتلمّس طرفيها الممتلئين. لاحظت آنا ببرود علامات التدهور؛ النمش الشيخوخيّ على وجهها الأبيض، الانتفاخات تحت عينيها الباهتتين، الشّعر الرقيق الذي يلمع من خلاله جلدُ رأسها.

- «آه، ربّتي على رأسي...»، قالت المرأة بلطفٍ، وهي تعصر كفّ آنا.

لم تطعها آنا.

- «*أرجوكِ، أرجوكِ*، ربّتي على رأسي...».

هل كان هذا الجزء من مهمّتها المتمثّلة في القراءة بصوتٍ عالٍ، بمثابة استزادة؟ تفعل في النهاية ما طُلب إليها، بسرعةٍ وعلى نحوٍ آليّ.

- «صغيرتُنا آنا تصلي مقابل المال»، قال العم هاينريش ساخرًا أمام أي شخص يستمع إليه، «إلى أن يسيل الزبد من فمها».

لم تتجاهل آنا جَلْد يسوعٍ، الذي أخذ يحلُّ مكان أبيها تدريجيًّا. كلّ يوم أحدٍ، كانت تجلس بين جدِّها وعمّتها في الكنيسة الكاثوليكيّة التي يعود تاريخها إلى الهدايات الجماعيّة للشعوب الجرمانيّة. مجوِّلةً نظرها في الأنحاء، سرعان ما اكتشفت عيناها نحتًا بارزًا يصوّر الحدث على أحد الجدران الجصّية البيضاء. ذات يومٍ، رآها القسّ ألويس ياكوبسماير، وهو يتلو من كتاب صلواته اليوميّة في أحد الأروقة، تمشي في الممرّ وفي يدها كرسيّ خشبيّ صغير. اتجهت إلى اليمين، بتصميمٍ، نحو سلسلةٍ من النقوش البارزة العتيقة التي تُصوِّر صَلْب المسيح. صعدت على الكرسيّ، وأخذت تضرب معذّبي يسوع بقبضتيها. «خذوا!»، دوّى صوتها منتقمًا في أرجاء الكنيسة، «خذوا!». تساءل ياكوبسماير قلقًا، وهو يحكُّ رأسه، ما إذا كانت هذه النقوش قادرةً على الصمود في وجه تحطيمٍ للأيقونات على غرار هذا.

٣

أوشكَ اللقاء، لوهلةٍ، أن يكتسبَ طابعًا محتدًا. لقد أثار غيظَ لوته مشهدُ الكنسية كما وصفته آنا، على نحوٍ لا يخلو من الرقّة. اندلع داخلها، فجأة، شعورٌ بغيضٌ، حادّ كالسكين، كان يستعرُ داخلها طوال الوقت.

قالت، وقد تلطّخ خدّاها ببقعٍ حمراء:

- «وبهذا أعطتكم الكنيسة ذريعةً ممتازة لقتل ستة ملايين إنسان».

- «تمامًا»، قالت آنا، «الأمرُ كذلك حقًّا! وأنا أخبركِ حتّى تفهمي بأنَّ الأرضية كانت مهيَّأة لذلك بالفعل، منذ طفولتنا».

- «لا أعتقدُ أنّني بحاجة إلى الفهم»، نهضت لوته ببطءٍ عن كرسيّها، «أولًا، أشعلتم أنتم الحرائق في العالَم، والآن، تريدون منّا أيضًا أن نتعمق في دوافعكم».

- «أنتم؟ أنت تتحدّثين عن شعبك».

- «لا علاقة لي بذلك الشعب»، صرخت لوته، باشمئزاز. ثم حثت نفسها على الحفاظ على هدوئها، وسمحت لنفسها أن تُردفَ بغطرسةٍ: «أنا هولنديّة، قلبًا وروحًا».

هل تسرَّب شيءٌ من الإشفاق إلى النظرة التي رمقتها بها آنا؟

- «حبيبة روحي»، قالت آنا بنبرةٍ مُهدِّئة، «لستّ سنوات، جلسنا أنا وأنتِ في حجر الأبِ نفسه، أنت على ركبة وأنا على الأخرى. وفي الحقيقة، لا يمكنك التملُّص من ذلك على هذا النحو. انظري إلينا الآن، مسّنتَيْن عاريتَيْن تحت أردية الاستحمام، بنعالنا البلاستيكية. مسّنتَيْن، وأكثر رُشدًا، كما آملُ. دعينا نحتفل بلمّ شملنا بدلًا من إلقاء اللوم على بعضنا البعض. ما رأيك بأن نرتدي ملابسنا ونذهب إلى مخبز الحلويات الواقع في الشارع الذي يحمل اسم الملكة أستريد.. لديه كعكات لذيذة»، قالت وهي تقبّل رؤوس أصابعها.

انحسر غضبُ لوته. أومأت برأسها، شاعرةً بالخجل لأنّها تسبّبت في جرف الحديث على ذلك النّحو. مشتا معًا على طول الممرّ الفخم إلى غرف تغيير الملابس. معًا؛ يا لها من كلمة.

بعد ربع ساعة، هبطتا درجَ الحمّام الضخم، تشبّثت إحداهما بالأخرى على نحوٍ لا إراديّ، لأنَّ الثلج كان يتساقط ودرجات السلّم زلقة.

لم يكن بعيدًا. دخلتا إلى متجرٍ بواجهة غير مميّزة، ومشتا إلى الجزء الخلفيّ، مرورًا بصندوق عرضٍ مليءٍ بأطايب الحلويات التي تمتّع النظر، نحو غرفة جلوس أُعيد تجديدها، حيث كانت سيّدات المسنّات، يرتدين قبّعات الفرو، منغمساتٍ بصمتٍ تامٍّ في الطقوس الأموميّة لتذوّق القهوة والكعك. تدلّت من السقف ثُريّا على شكل عجلة عربة، تلقي ضوءًا ساطعًا على الزبائن؛ وعلى الجدران، توزّعت لوحاتٌ تصوّر

مناظر طبيعيّة خياليّة بألوان صارخة، تشي بذوقٍ مبتذل لكنّه يمنح جوًّا من الطمأنينة.

طلبْنا طبق «ميرڤيّو»؛ لقمة هواء مطوَّرة على نحوٍ متقن، تتماسك بالميرنغ والكريما المخفوقة واللوز المقشور.

- «لقد عرفت الآن مَن كان يغنّي أمس».

توقّفت لقمة الميرنغ التي كانت لوته تجلبها إلى فمها في منتصف الطريق، وبدت مستغرقةً في التفكير.

- «مَن؟»

- «البارحة، في أحد حمّامات الخنّ، كان أحدهم يغنّي أغنية قطار كولونيا البطيء».

ضحكت آنا.

- «أنغمس أحيانًا في الغناء الأوبراليّ داخل الحمّام إذا ظننتُ أن أحدًا لن يسمعني. لكن... في الأصلِ، كنتِ أنت التي تحبّين الغناء بيننا».

عبست لوته. عمّتْ همهمةُ الثرثرة المتحضِّرة المكان من حولها؛ بين الحين والآخر، كان جرس المتجر يرنُّ ويدخل زبونٌ يتناثر عليه الثلج.

- «لم أبدأ الغناء حقًّا»، صحّحت لأختها، «إلّا بعد أن غرقت تحت الجليد».

*

كانت لوته واقفة على العشب الذي يكسوه الصقيع بجانب الخندق. أخذت شقيقاتها يتزلّجن، ملوحات بأيديهن، على الزلاجات الخشبية من نوع فريزيان، في صفٍ طويلٍ، مع بنات البستانيّ في المزرعة المجاورة وابنة خالتهنّ القادمة في زيارة من مقاطعة برابانت. ظهرت والدة الفتاة أيضًا على الجليد، امرأة قوية تعتمر قبّعة بنيّة من اللُّبَّاد، تعلوها رايةٌ من ريش البطّ تشير إلى اتجاه الرياح. وزّعت على الأطفال سكاكرَ النعناع الملوّنة بالأخضر والأحمر المخطّط من كوزٍ كبيرٍ بحوزتها.

- «سأذهب لرؤية أمّك قليلًا»، قالت ممسكةً بيد لوته، «هل تريدين القدوم معي يا فتاة؟».

اندفعت راكضةً عبر الخندق، تطلق صيحاتٍ جذلى، وتجرُّ لوته معها في مباهج التزلُّج على الجليد. وهكذا انزلقتا نحو المنزل، ظلّت المرأة تثرثر دون انقطاعٍ وبلهجةٍ غير مفهومة. وصلتْا إلى قارب تجديف أخضر داكن، نصف غائص، يمثّل بداية منطقة الخطر حيث يصرِّف البرجُ المياه الفائضة في الخندق؛ وقد حُذِّر الأطفال بشأن هذا المكان.

- «لا تذهبي أبعد من ذلك، لا!»، صاحت لوته.

لكن المرأة القادمة من برابانت استمرت في الارتجاج على نحوٍ آليّ مثل قاطرة الزنبرك الصغيرة في المنزل التي لا تسمح لأحد أن يحرفها عن مسارها الجامح بين أرجل الطاولات.

عندما بدأ الجليد بالتصدُّع، حرّرت لوته نفسها غريزيًا من قبضة المرأة. لم تكن خائفة. اختفت الصّلابة الموجودة تحت قدميها، وانفتحت الأرضيّة الكريستاليّة سامحةً لها بالدّخول إلى منطقةِ موتٍ حلو مبكّر،

مزيّنةٍ بالسراخس والطحالب التي تتحرّك معًا في تيّارٍ من فقاعات الهواء. انغلق الجليدُ، بإحكامٍ، فوق رأسها. مع ذوبان الأشكال المتنوّعة ببطءٍ في اللون الأخضر الفاتح والفيروزيّ والفضيّ، فكّرتْ آسفةً في صندوق الخياطة المصغّر الذي كانت تحمله منذ ليلة عيد الميلاد في جيب ثوبها الداخلي... شعرت بالحسرة أيضًا على كنزتها الصوفيّة الحمراء الجديدة، والطفل المولود حديثًا. مثل حبّاتِ عقدٍ اصطفت أمّها الهولنديّة ووالدها وشقيقاتها بجانب بعضهم البعض؛ وراءهم على مسافةٍ بعيدة، كانت آنا، تظهر بصورةٍ مشوّشة في ومضاتٍ من الضوء الخافت. لا مزيد، فكّرتْ. لا مزيد من الكعك باليانسون.

دوّت صرخةُ احتضارٍ من حنجرة المرأة البرابانتية، تنبّهت إليها الطفلات المتزلّجات. هرعن إلى المرأة؛ كانت تقف في الماء مغمورةً حتى ثدييها المكتنزين، جامدةً من الرُّعب. لم يصدر صوت آخر من فمها المفتوح على وسعه. بقيت القبعة ثابتة على رأسها، وحدها الريشة كانت تتحرك.

- «لوته... أين لوته؟»، صاحت جيت، الأخت الصغرى، بصوتٍ هادرٍ.

خلعت زلاجتيها، وركضت نحو المنزل، وعادت بسرعةِ البرقِ مع والدتها التي انزلقت فوق الجليد على بطنها، حتّى اقتربت من المرأة البائسة التي كان النصف السفليّ من جسدها قد غرق. حاولتْ، ويداها تحت إبطي المرأة، أن تسحب الجسدَ الثقيل من الماء. لكنْ لم تصدر عن هذا الصّنم المتحجّر، العالق في لجّة الوحل، أدنى حركة. جاءت زوجة

البستانيّ راكضة وهي تصرخ. لقد شاهدت عمليّة الإنقاذ من الضفّة؛ أدركت عجزها عن فعل أيّ شيء، وأخذت تشدّ شعر رأسها. وبسبب عويلها، ظهر زوجها أخيرًا؛ لقد كان مساعدًا في مشفى عسكريّ قبل أن ينتقل إلى زراعة الدفلى وأشجار البرتقال. من الضفة داس على الجليد حتى هشّمه، وفتح طريقًا، نحو الغريقة. في هذه اللحظة، خرقَ صوتُ جيت الصّاخب الهواءَ المتجمّد، وهي تشير بإصبعٍ راجفٍ إلى بقعةٍ من الجليد حيث كان معطف لوته المصنوع من الفرو الصناعيّ يلمع عبر الجليد.

- «سيّدي، سيّدي.. لوته هنا.. أختي لوته هنا!».

بعد أن ألقى نظرةً خبيرةً على أخت زوجته، تركها واقفة حيث كانت، وغاص تحت الجليد. بعد مرور دهر، عاد إلى عالَم الأحياء ومعه جسد لوته المبلّل.

- «توقّفي»، قال لأمّها، وهو يبصقُ الماء، بينما كانت ما تزال تكافح يائسة لسحب جسد أخت زوجته، لكنّها لم تستطع إنقاذ ما هو أكثر من كوز السكاكر الدّبقة، «لقد ماتت منذ وقت طويل».

أشار بيده الخالية إلى قطرةٍ من الدّم تسيل من الزاوية اليسرى لفمها.

كانت نظرةٌ واحدةٌ إلى جسد لوته الهامد كافية للتخلي عن أي أمل. لكنّ البستانيّ، الذي لم يخرجها من نهر ليثي[1] عبثًا، رفض الاستسلام. مُدِّدت عاريةً على مائدة الطعام. خمّنوا أنها بقيت تحت الجليد نصف

(١) نهر ليثي: أحد الأنهار الخمسة في العالم السفلي والذي تتحدث عنه الأساطير الإغريقية والرومانية، وكلمة ليثي يونانية تعني النسيان. (المترجم)

ساعة. جرّب إنعاشها فمًا إلى فم، بالتناوب مع صفع أنحاء جسدها، ثمّ دعكه بمنشفةٍ كانت قد دفّأتها أمُّها على الموقد. استمرَّ يائسًا إلى أن صدر صوت بقبقة مشيرًا إلى بدء التنفّس. وهكذا دُعِكت لوته على مهلٍ، وصُفعت إلى أن عادت إلى الحياة، من خلال المثابرة العنيدة لشخصٍ كان تخصُّصه الفعليّ الحفاظ على حياة المزروعات والأشجار.

لم تستعد وعيها على نحوٍ تامٍّ إلا في سرير أمّها، محاطةً بفضوليين قدموا ليشهدوا المعجزة الطبيّة. لم تتفاجأ. فقبل سنوات، تولّت الخالة كاتي رعايتها، ثمّ اصطحبها، باليد، شخص مجهول إلى هولندا، والآن سحبها شخصٌ غريب تمامًا من تحت الجليد إلى العالَم. كيف يمكنها ألا تكون مطمئنة لهذا النمط الذي لا ينفكّ يكرّر نفسه بإلحاحٍ جماليٍّ راسخٍ تقريبًا؟

في الطابق السفليّ، سُجّيت الغريقة الأخرى على الطاولة. وضعوا قبّعتها على بطنها تعلوها يداها، فبدت كأنّها ماثلة عند بوّابة الجنّة على استحياء.

- «لقد ماتت بسببي»، ناحت زوجة البستاني، وهي تؤرجح جسدها نحو الأمام والخلف، مكابدة العذاب، على كرسي المطبخ. «لقد عاقبني الربّ! رأيت لوته متمدّدة هناك طوال ذلك الوقت ولم أقل شيئًا. لقد فكّرتُ أنّني إذا أخبرتك، ستتخلّى عن أختي وتتركها تغرق».

وبّختها والدة لوته:

- «لا تضلّلي نفسك. توقّف قلب أختك لأنها كانت قد تناولت

وجبةً ساخنةً للتوّ، كما قال زوجك، ونجت لوته لأنّها لم تكن قد أكلت شيئًا بعد».

- «لقد طهيتُ كبد الدجاج اللذيذ مع مخلّل الملفوف ولحم الخنزير المقدّد... وهذا لا يمكن أن يقتل أحدًا، قطعًا...»، انتحبت الأخرى.

بالعودة إلى المدرسة، سُمح للفتاة التي غرقت بالجلوس قرب الموقد. لقد استعادت طبيعتها القديمة تمامًا باستثناء عيبٍ صغير وحيد: ظلَّ نطقُها متجمّدًا. كانت تتلعثم كثيرًا لدرجة أنّ امتياز جلوسها قرب الموقد قد انتزعته خيبة تجاوزها حين يجيء دورها لتتحدّث في الصفّ. كانت تستغرق وقتًا طويلًا لتعبّر عن نفسها. يتربّص وحشٌ صغير بين أفكارها ونطقها، يشدُّ المقاطع الصوتية إلى الوراء قبل أن تغادر شفتيها. تطلّب الحديث بصوتٍ عالٍ جهدًا خارقًا في ظلّ هذه القوة المعاكسة؛ حيث كان رأسها يرزح تحت ضغطٍ هائلٍ، ويتسرع قلبُها، ويلتوي لسانُها المشلول بلا حولٍ ولا قوة. كان ثمّة رقيبٌ شرس يقف في الممرّ، ولم يسمح لشيء بالخروج.

اكتشفت والدتُها أنّها لا تتلعثم حين تغنّي مع الآخرين. لقد أمكن سماعُ صوتِها الواضحِ من بين كلّ الأصوات الأخرى، حيث حفظت المقاطع كلّها، وارتجلت صوتًا آخر بيُسرٍ ومن دون أن تتعثّر بكلمة واحدة. كان الطريق الرّمليّ بجوار ملعب كرة القدم يؤدّي إلى شارعٍ تصطفُّ على جانبيه أشجار الزان، يمرُّ عبر منطقةٍ من الفيلات القديمة وصولًا إلى إستوديوهات المحطة الإذاعيّة. ذهبت والدةُ لوته إلى هناك على درّاجتها

من طراز «غازيل»، وأقنعت قائد جوقة الأطفال، التي كانت تغنّي عبر الراديو كلّ أسبوع، بمنح فرصة للوته. لقد عوّض صوتها، الذي لم يفقد شيئًا من نقاوته حتّى لو اقتصر ما تؤدّيه على أغنية بسيطة للأطفال، عن حقيقة كونها الصُّغرى في الجوقة. كلّ أسبوع، كان قائد الجوقة يختار طفلًا ليؤدّي أغنيةً منفردةً من اختياره. رُفعت لوته فوق صندوق برتقال كي تصل إلى الميكروفون. لم تبلبلها الوضعيّة الاصطناعيّة التي اتخذتها؛ والقلق المتسلّل من التلعثم والذي كان غافيًا على الدّوام عند عتبة لا وعيها –بعينٍ مفتوحة وعينٍ مغمضة– اختفى حالما شرعت في الغناء. موجِّهةً تركيزها على المايسترو، الذي تتحركُ غُرّته الرّمادية بتزامنٍ مع عصاه، بثّت عبر الراديو أغنيتَها الأثيرة «في هولندا، يُوجدُ بيت»، إلى غرفِ المعيشة من دون أيّ تعثر. بعد يومين، تلقّت بطاقةً بريديّةً، كُتب عليها بخط يدٍ مزخرف: «لديكِ صوتٌ أخّاذ.. آمل أن يوليه والداكِ حقّه من الرّعاية».

*

– «أوه نعم»، تنهّدت لوته، «لقد رُحّل قائد الجوقة أثناء الحرب. كان يهوديًّا».

ساد صمتٌ مزعجٌ. كيف يمكن أن يكون هناك حديثٌ عن النسيان، تساءلت لوته، وهي تنظرُ خلسةً إلى آنا. على المرء أن يبقى متيقظًا، مع كلّ ممثّل عن ذلك الشّعب.

تردّدت قائلة:

– «لا أعرف إذا كان من الصواب أن أجلس برفقتك هنا، أتناول الكعك، وأتظاهر بأنّ شيئًا لم يحدث».

ثارت آنا.

- «مَن قال أنّه ينبغي لنا التظاهر بأنَّ شيئًا لم يحدث؟ لقد نشأتُ في ثقافةٍ تكنّين لها البغضاء. أنتِ نجوتِ منها في الوقت المناسب. هل تريدين أن أخبرك كيف كانت ستنقلب حياتك لو أنّك بقيتِ؟ هل تريدين...».

- «نعرف تاريخكم القديم». قاطعتْها لوته بضجرٍ. «معاهدة فرساي المهينة. الكساد العظيم».

هزّت آنا رأسها.

- «دعيني أخبركِ شيئًا عن المكانة التي احتلّها اليهود في حياتنا، في حياتي، قبل الحرب. في البلد. سنطلب فنجانًا آخر من القهوة. اسمعي».

*

لقد استغرق الجدُّ سنواتٍ عديدة كي يموت. نادرًا ما كان يترك مكانه خلف الموقد، ويخرج؛ إذ لم تتوقف عظامه عن الاصطكاك ببعضها البعض إلا داخل غيمة من الهواءِ الدّافئ. ذات يومٍ شديد الحرارة خرج من البيت لمرة أخيرة وهو يعرج، وجلس على مقعدٍ أمام المنزل. ذهبت آنا لتجلس قربه. توقفت أمام المنزل عربة سوداء؛ تجلس على صندوقها امرأةٌ عجوزٌ بملابس الأرامل، وقد التصقت خصلٌ من شعرها الأشيب على وجهها المتعرّق. تبيّن أنّها أخته التي تعيش على بعد ستّة كيلومترات في مزرعةٍ كبيرةٍ. لم يلتقيا منذ عشرين سنة.

- «ماذا تفعلين هنا يا ترود؟»، جاء صوتُه متصدِّعًا.

- «حسنٌ، بما أنك لم تأتِ لزيارتي»، قالت بلهجةٍ لاذعةٍ، كاشفة ثلاثة من أسنانها المنفردة، «كان لزامًا عليّ القدوم إليك».

وقع على عاتق العمّ هاينريش، الذي يؤثر القراءة على حلب الأبقار، مثل شقيقه المتوفَى، كلّ أعباء المزرعة المتدهورة. ففوق أبواب إسطبلات ذلك المنزل السكسونيّ نصف الخشبي المبني عام ١٧٧٩، ثمّة نقش يقول: «لأنّك منحتنا، أيُّها الربُّ العظيم، عطاياك الكثيرة/ سنفعل ما تأمرنا به بطاعةٍ خالصةٍ/ وبأقصى قدرٍ من التفاني». مقولةٌ لها طابع النبوءة، تركِّزُ على «الطاعة». وبينما انشغلت العمّة ليزل يمينًا وشمالًا، في تدبير المنزل وتربية الدجاج، والعناية بحديقة الخضراوات، واجه العمُّ هاينريش صعوبةً بالغةً في توزيع انتباهه بين إغواء الكلمات المطبوعة وخمسين خنزيرًا، وأربع أبقار مع عجولها، وحصان جرّ، وأرضهم التي تبلغ مساحتها خمسين فدّانًا، إلى جانب ستة فدّانات مُستأجَرة.

حتّى عندما كان يعقد الصفقات، نادرًا ما كان يتوقّف عن القراءة. فعندما جاء تاجر الماشية، بابا روزنباوم، بعد أن علم أنّ هناك بقرةً معروضةً للبيع، جلس العمّ هاينريش مع كتاب في المطبخ، وواصل القراءة أثناء لعبة المساومة التقليديّة.

- «كم تريد مقابلها؟»، سأل بابا روزنباوم وهو يصفق بيديه المكتنزتين.

كانت قبّعته منزاحة إلى الوراء، كأنّه فرد من عصابات شيكاغو. وعلى صدره المربّع تتدلّى سلسلة ساعة عتيقة.

- «ستمائة»، غمغم العمُّ هاينريش من دون أن يرفع نظره.

- «ستمائة؟ اعذرني يا بامبيرغ، لكن هذا أمر مضحك! أضحكتني حتى كاد ينشقّ فمي!».

وانفجر بضحكةٍ راعدة؛ كان العمّ هاينريش منهمكًا في قراءة مقطعٍ يأسر الألباب؛ أخفت آنا نفسها في زاويةٍ من زوايا المطبخ. حين توقّف عن الضحك، جادل روزنباوم بقضيّة أسعار الماشية على خلفيّة الوضع الاقتصادي المتردي الذي يعصف بالبلاد. إلامَ أفضى كلّ ذلك؟ يمكنه أن يدفع أربعمائة، فقط لا غير. لم يتراجع العمّ هاينرنيش.

- «أربعمائة وخمسون».

لا غير.

- «تريد أن تدمرني! لا يمكنني المتاجرة على هذا النّحو».

خرج بابا روزنباوم وصفق الباب خلفه بعنف. عَلِقَ ذيل معطفه بالباب، ممّا أجبره على فتح الباب من جديد لتحريره. سحب معطفه مستهجنًا. ثمّ سمعوه يندبُ بصوتٍ عالٍ وهو يذرع فناء الدّار جَيئة وذهابًا:

- «سأفلس! ستتضوّر عائلتي جوعًا!».

ركب سيّارته من طراز «واندرر»، أدار المحرّك، ثمّ ترجّل منها وعاد إلى الدّاخل.

- «روحي، روحي المسكينة تحتضر!».

لكن ترسانة التهديدات والتحسُّر على الذات ارتدّت حطامًا على

الجدار غير المرئي المحيط بالقارئ غير المكترث. وبعد أن تكرّر المشهد ثلاث مرّات، أخرج روزنباوم ساعتَه من جيب سترته.

- «لقد مرّت ساعة بالفعل، هكذا راح عملي هباءً... حسنٌ، ستحصل على الستمائة التي تريد».

في وقتٍ لاحقٍ، بعد أن شهدت هذه الاحتفاليات مرات عديدة، أدركت آنا أن النتيجة النهائيّة للمساومات محدّدة مسبقًا من قبل المتخاصمَيْن، وأنّها كانت تجري ليتسليا بها فحسب.

التُقطت صورة لطلاب الصفّ. وسط أربعة وخمسين طفلًا، كانت آنا التّاسعة إلى اليسار في الصفّ الثالث. حدّقت مباشرةً في الكاميرا، ما تزال ترتدي فستانًا أسود مع فيونكا سوداء تتدلّى على رأسها. بينما وقف الأطفال الآخرون قرب بعضهم البعض، أحاطت مساحة فارغة بآنا كأن بهم خشيةً غريزيةً، من أن يكون الحنين للوطن داءً معديًا... مع ذلك، فقد نجت من نبذ أطفال القرية، وكسبت ثقة زملائها بفضل شجاعتها الفطريّة. بعد أن ضاق عليها ثوب الحداد، تلقّت ثوبًا من دون ياقة مصنوعًا من قماشٍ مقاوم له لون الحمام الرماديّ، ويكفيها حتّى تكبر. تزايدت المسؤوليات والمهام الملقاة على عاتقها في المزرعة طردًا مع عدد السنتيمترات التي اكتسبتْها قامتها. كان هناك يوم عطلة وحيد في السّنة: يوم النزهة إلى ڤيڤيلسبورغ، قلعة يعود تاريخها إلى القرون الوسطى وليست بعيدة عن القرية. كانت عربات التبن، التي تجرّها الأحصنة، تزيّن بلحاء شجر البتُولا والأوراق الملوّنة، ويكافح الجميع للحصول على مقعدٍ في عربة لامبين-هايني، المزارع الثريّ الذي يمتلك

خيولًا رشيقة خفيفة الحركة. في الطريق، ينسون حياتهم اليوميّة الشاقّة شيئًا فشيئًا، وينشدون أغاني النزهات الزاخرة بالبهجة.

كان لديهم قدرٌ كبير من الأشياء التي ينبغي نسيانُها. فملايين العاطلين عن العمل في المدن، على سبيل المثال، لم يملكوا المال لشراء أيّ شيء، لذا كانت الزبدة والبطاطا ولحم الخنزير تُعاد إليهم باستمرار. وبسبب الإيجارات والأسمدة الصناعيّة والضرائب التي لم يستطيعوا تحمّل تكاليفها، صار الحصول على زوجٍ من الأحذية الجديدة أو لفة من الصّوف لرتق الجوارب مجرّدَ حلم. سادت حالة طوارئ في منطقة حوض الرور. أُرسل العاطلون عن العمل إلى الأرياف للعمل عند المزارعين مقابل تأمين الطعام والمنامة. قَدِم الأطفال فيما بعد، ووزّعتْهم الكنيسة على زوجات المزارعين اللاتي أبلغن عن استعدادهن. أثار المجيء الغامض للأطفال الشاحبين، فاتري الهمّة، إلى جانب دور الوساطة الميتافيزيقيّ للكنيسة، خيالَ آنا وصديقاتها لدرجة أنهنّ اخترعن لعبة اسمها: «مجيء أطفال الرور». رسمن قريةً مُتخيّلةً بواسطة عصا على الأرض المسطّحة، فيها كنيسة ومزارع متناثرة حولها. تناوبن في تأدية دور الأمّ. كانت تجلب طفلًا من أطفال الرور من الكنيسة، وتمشي عبر القرية برفقته، وتدخله إلى بيتٍ من تصميمهن. وما يحدث بعد ذلك لم يثر اهتمامهنّ؛ المسألة بالنسبة إليهن تتعلق فقط باستقبال طفلٍ مسكين، فقد لامس هذا غريزتهنّ الأموميّة النامية. لعبت آنا بشغفٍ، شاعرةً بالتماهي مع الأطفال النازحين، إلى أن أصبحت اللعبة واقعًا حقيقيًّا على نحوٍ مفاجئ، بقدوم الطفلة نيتشن التي جلبتْها العمّة ليزل إلى المنزل.

طفلة من أطفال الرور من لحم ودم. دخلت المنزل برفقة العمّة ليزل، نحيلة ومتسخة وبالية الحذاء. ثُبّتت ضفيرتاها البنّيتان الطويلتان على رأسها؛ وكان ثمّة قشور على شفتيها لم تستطع تركها وشأنها. ضحكت بطريقةٍ غامضةٍ على كلّ ما قالوه لها، لكنّها لم تكن تردّ بأيّ كلمة. ظنّوا في البداية أنّ نيتشن لا تستطيع التكلّم، لكن في النهاية، حين تحدّثت متلعثمة، اتّضح أنّ أفكارها محدودة، ببساطة. لم تستطع مواكبة المدرسة. عادت ذات مرّة من المدرسة بواجب منزلي مُصحَّح؛ وأسفل اللوح ملاحظة كتبتْها المعلّمة تقول: «عزيزتي آنا، ألا تخجلين من إرسال نيتشن إلى المدرسة مع واجب كهذا؟ ألا تملكين وقتًا لمساعدتها؟». لم يكن بمقدور آنا تجاهل هذا التحدي. ليلةً إثر ليلة، كرّستْ نفسها بانضباطٍ صارمٍ لإحياء عقل نيتشن المهمل. أثار حيرتها أنّ جهودها لم تؤتِ ثمارها على الإطلاق. إنَّ ضحكة نيتشن الغامضة على كلِّ سؤالٍ أصرّت على الإجابة عليه إجابة خاطئة، دفعت آنا إلى اليأس.

- «لماذا كل هذا العناء؟»، قال العمُّ هاينريش باقتضابٍ. «أليست نيتشن أفضل حالًا ممّا أنا وأنتِ عليه؟»

كانت نيتشن مهتمّة بالحبّ. فالفتى الأوسم من بين جميع الفتيان الذين يعيشون على امتداد أميالٍ، على ضفتي نهر ليبه، كان واقعًا في غرام العمّة ليزل. كلّ أحد، كان ليون روزنباوم يأتي إلى المزرعة حاملًا باقة من الأزهار. سارع حبُّهما المستحيل إلى نهايته قبل الأوان على مقعد حديقةٍ صدئ يطلُّ على مسكبةٍ من الملفوف الصغير. كانا صامتَيْن عن

الكلام الذي يجب أن يُقال. وبدلًا من ذلك، أمسك كلٌّ منهما يدَ الآخر، وتمتما بالعموميّات التي سرعان ما تبخّرت. استلقت آنا ونيتشن خلف شجيرات عنب الثعلب، في انتظار مزيدٍ من الجرأة. بين الحين والآخر، كان ليون يقبّل العمّةَ ليزل قبلةً عفيفةً، فيعلو صدرُها ويهبط بتكاسلٍ، ويهتز الصليب الذهبيّ معه، وتقرص نيتشن ذراعَ آنا.

خلال قدّاس الجمعة العظيمة، أدركت آنا على نحوٍ مبهمٍ علاقةً بين الهمّة الفاترة للمبادرات ونهاية مقطع «دعونا نركع» المتكرّر الذي يُتلى في وضع الرّكوع: «دعونا نصلّي من أجل الكنيسة، البابا، الأساقفة، الحكومة، المرضى، المسافرين، الغرقى..». فالقائمة لم تغفل أيّة فئة، حتّى اليهود. وحين جاء دورهم، أخيرًا، نهض المؤمنون من ركوعهم، ووقفوا على أقدامهم وقفة رجلٍ واحدٍ؛ ألم يكن اليهود قد جثوا ساخرين أمام يسوع يردّدون: «أنت ملك اليهود!»، وهكذا اختُتمت الصّلاة: «نتضرّع إلى ربّنا أن يزيل الحجاب الذي غشّى قلوبهم حتّى يعترفوا هم أيضًا بربّنا يسوع المسيح».

عندما أدرك ليون أن كلّ جهوده اصطدمت بحاجزِ الصليب الذهبيّ، أوقف زياراته. غرقت العمّة ليزل في صمت كئيب. بدت لأسابيع وكأنها تؤدّي أعمالها على غير هدى، حتّى اتخذت قرارًا يليق بقصة دراميّة بثلاثة قروش: ذهبت إلى ديرٍ للراهبات الكلاريسيّات. عند الوداع، عانقت آنا بحرارةٍ وقبّلتْها بحنانٍ على جبينها. أخرجت بنزقٍ صورةً مجعّدةً لليون من حقيبتها السوداء، كان عليها التخلّي عنها عند بوّابة الدير، ودفعتْها في قبضة آنا.

أشعل رحيلها الفتيل لسلسلة من التغييرات الجذريّة. أُعيدت نيتشن إلى الكنيسة. الجدُّ، الذي مارست عيناه المبصرتان لكلّ شيء سيطرةً رمزيّةً حتّى آخر أيّامه، استبدل بوجوده الدنيويّ الخلودَ؛ ودُفن في مقبرة تغطّيها الثلوج إلى جانب زوجته، التي سبقته بالرّحيل قبل خمسة عشر عامًا.

بالعودة إلى المزرعة، وضع العمُّ هاينريش يده على كتفِ آنا.

- «حسنٌ يا آنا، لم يبق سوانا، والبهائم. أنا وأنت لسنا بمزارعين على الإطلاق. تعالي، فلنبدأ العمل».

ذكّرها القبولُ البطوليّ لهذا المصير بأبيها الذي تصالح مع مرضه بالطريقة نفسها. بلفتةٍ خاويةٍ، تعلّقت بمعطف الجنازة الذي يرتديه. حين يموتُ بدورِه، فكّرتْ في خلدها، سأكون وحيدةً حقًّا.

٤

- «كتبتُ لكِ عشرات الرّسائل»، تنهّدت لوته. «استلقيتُ في مقصورتي الصغيرة في الحديقة، وكتبتُ. اشترت لي أمّي ورقًا للكتابة من نوعٍ خاصّ، تزيّن زاويتَه العلويّة اليسرى أزهارُ البنفسج. ختمتُ كلَّ رسائلي بعبارة: عزيزتي آنا، لماذا لا تكتبين لي؟ متى سنلتقي من جديد؟»
- «لا بُدّ أنّهم اعترضوا طريقَ كلّ هذه الرسائل ورموها، بعد أن قرؤوها إرضاءً لفضول المزارعين لديهم. وفي هذه الأثناء، كنتُ أفكّر أنّك قد نسيتِني».

شردت أنظارهما نحو الطاولات الأخرى. كلتاهما غارقتان في الصمت. تجلسان هنا، بعد ما يناهز سبعين عامًا، وما تزالان تشعران بالخداع والخيانة؛ لم تعرفا ما ينبغي فعله بهذه المشاعر. هل شهدت هؤلاء السيّدات الجالسات هنا جميعهن، بملابسهن الحريريّة وأقراطهنّ الذهبيّة وشفاههن المطلية بعناية، انقلاب مسار حياتهنّ نتيجة سوء فهمٍ كهذا؟ قهقهت آنا ساخرة.

- «لماذا تضحكين؟»، قالت لوته بريبة.

- «لأنّي لم أفقد ذرّةً من سخطي بالرغم من مرور كلّ هذه السنوات».

طرقت آنا على الطاولة بأصابعها. تذكّرت أنّها قررت ذاتَ يومٍ أنَّ لوته ماتت من جرّاء المرض الذي يُفترض أنّها كانت ستتعافى منه في هولندا. لم يخطر لأحد أن يرسل إليها نعوة. ربّما كان جدّها قد تلقّى الخبر بالفعل، لكنّه تكتّم حياله لكيلا يزعجها. وهكذا قتلتْ لوته، لأنَّ لوته التي ماتت أهون عليها من لوته التي نسيتْها ببساطة. علاوةً على ذلك، فقد كان الموت مسترسلًا في هذه العائلة.

- «أشبه برواية»، قالت لوته.

عبر بها الزمن سريعًا. ما يزال بإمكانها سماع أمِّها، تتحدّث عن آنا بشفقةٍ: «الطفلة المسكينة، انتهى بها المطاف مع أولئك البرابرة». جعل هذا الوصفُ، الذي استعارتْه من حماتها الألمانيّة بلا تشكّك، مصيرَ آنا يزداد غموضًا. هل أصبحت آنا بربريّة أيضًا؟ ألا يمتلك البرابرة ورقًا وأقلامًا للكتابة؟ اختلقت شتّى أنواع الأعذار لآنا بهذه الطريقة، حتّى لا تضطرّ للتعايش، ببساطة، مع فكرة أن آنا لا تريدها أن تسمع أخبارها على الإطلاق.

*

حالت بين العمّ هاينريش والابنة الشقراء الرقيقة لمزارعٍ نبيلٍ، قوانين صارمة عرفيّة يمكن التعبير عنها بشكل أفضل بالأرقام: حجم قطعان الماشية، وعدد الخدم، ومساحة الأراضي. مارتا هونيكوب، التي كانت نقيضتها في كلِّ شيء، كانت وسيلته التي حاول من خلالها تخليص نفسه من محبوبته. التقى بمارتا في مباراة للرّماية. متمرّدًا على بطشِ الطبقة والمنصب

ورأس المال، اختار فتاةً ليس لديها ما تخسره. الابنة البكر في عائلة من أربعة عشر طفلًا. يدير والدها مقهى يتجنّب دخوله كلُّ مَن يحترمُ نفسه. لكن العمّ هاينرش كان مخمورًا، ومارتا هونيكوب في متناول اليد.

ذات يومٍ، دخلتْ حياةَ آنا. بخطواتٍ عريضةٍ وجلفةٍ تناقضت على نحوٍ فَجّ مع الدانتيل ذي اللون الكريميّ الذي زيّن فستان زفافها، دلفت إلى غرفة المعيشة الخانقة، ألقتْ باقة الورود وأزهار الفلوكس على الطاولة، وارتمت لاهثةً على كرسيّ الجدّ. التقطت أنفاسها من جديد: مبنى البلدية، الكنيسة، المأدبة؛ لقد أرهقها أن تكون متحضِّرة وجذّابة كلّ هذا الوقت. راقبتْها آنا عن كثب. امرأة قوية، لها وجه واسع مسطّح، وشفتان ضيقتان، وفكّان عريضان؛ وفي الأعلى، عينان مائلتان، غامضتان، غائرتان، لا يُسبَر غورهما. كانت قد رفعت شعرها الأسود المسترسل؛ والوردةُ التي غُرزت فيه عند الصّباح، وظلّت مكانها طوال اليوم، أخذت تنزلق ببطءٍ. احمرّ خدّاها على نحوٍ غير طبيعيّ. خمّنت آنا أن ذلك بسبب الزفاف، لكنْ تبيّن فيما بعد أن حمرة خدّيها هذه كانت موشومة على بشرتها، كما لو أنّها تكابد حالةً من الانفعال لا نهايةَ لها.

- «أرسلْ هذه الطفلة إلى النّوم»، قالت للعمّ هاينريش مشيرةً بيدها إلى آنا.

- «لقد تزوّجنا للتوّ، ومع ذلك، لدينا فتاة كبيرة كهذه»، أجاب العريس بضحكةٍ زائفةٍ، «هذا أمر لم يسبقنا إليه أحد».

لكن العروس، التي سئمت من نظرة آنا الجريئة والمحدِّقة، لم تجد الجانب المضحك في الأمر.

الشيء الوحيد الذي كان يعملُ جيّدًا في مارتا هونيكوب هو رحمُها، فقد أنجبت طفلًا كلّ عامٍ. وباستثناء ذلك، لم تنجز شيئًا على الإطلاق. فحين تستيقظ عند التاسعة، متثائبة، تحكّ رأسها، يكون يوم العمّ هاينرش قد بدأ منذ أربع ساعاتٍ. منذ ذلك الوقت، عَرفت، بعنادها الأحمق، كيف توهم الآخرين بأنها منهمكة في تدبير شؤون المنزل، بينما في الحقيقة لم تكن تفعل شيئًا سوى التبختر في ذلك المنزل الصغير، بجسدها الضخم الذي يشبه زلزالًا مدمّرًا، من دون أن تحرّك شيئًا قيد أنملة. أعمال كثيرة ما كانت لتُنجَز لولا فتاة في الحادية عشرة مجرّدة من الحقوق. فتاة لا تنتمي لأحدٍ مع أنّها تأكل وتشرب معهم وتنام تحت السقف نفسه. ينبغي للكسول أن يكون ذكيًّا. لقد أدركت العمّة مارتا أنَّ ابنة شقيق زوجها المزعومة هذه قوّة عاملة جاءتها من السّماء، ولا ينبغي التفريط بها.

مع كلِّ طفلٍ يُولد، كان جزء من آنا الطفلة يذبلُ، بينما وحشُ الأعباءِ يكبرُ حجمًا في المقابل. سبعة أيّامٍ من أسبوعها تبدأُ بحلب الأبقار؛ لا بُدّ أن توضع جرار الحليب بجانب الطريق عند السادسة. ثمّ عليها عَلْف الخنازير والأحصنة والأبقار والعجول والدجاج، وضخّ مياه الشرب لها، وتنظيف الحظائر وطهي علف الخنازير وتمشيط الأبقار. هذه السلسلة من المهام كانت تُدعى بالعمل الصباحيّ، وثمّة نسخة مطابقة منها تُدعى العمل المسائي. تُعاد الكرّة من جديد في فترة ما بعد الظهر عند الرابعة، بعد العودة من المدرسة. لو أنَّ التعليقتين المتدليتين على رفّ الموقد كانتا على هيئة تمثالين صغيرين، لظهر عبْدَان راكعان بظهرٍ مقوَّس؛ والسَّاعة تدقُّ مُراوحةً بينهما بلا هوادة.

أخذ حلمُها بأن تكون تلميذة مدرسة ثانويّة يضمحلّ شيئًا فشيئًا. في هذا الحلم، كانت حياتها ما تزال تسير وفقًا للخطّة الأصليّة، حيث كان أبوها قد علّق آمالًا كبيرةً على ذكائها؛ الذي ضاع الآن بين الأبقار والخنازير. جاء معلّمان وقسّ إلى المنزل، بسذاجةٍ، لإقناع العمّ هاينريش بالسماح لها أن تذهب إلى المدرسة. لكن ترتيلة المديح لمواهب البنت لم تصمد أمام تلك الحجّة البدائيّة: «كلّا، نحتاجُ إليها في المزرعة».

لم يتجاوز صدمة زواجه المتهوِّر. فبعيدًا عن كونه هروبًا، ربّما مثّلت تلك الضربة الخاطفة محاولةً صبيانيّةً لترميم حياته الأسريّة المشتّتة. لكن النتيجة أوضحت أنّه، بهذه الزيجة، كبّد نفسه مزيدًا من الويلات. حاول التسلُّح لمواجهة خيبة أمله عبر زجّ نفسه في العمل بتعنُّتٍ ووجومٍ. لقد اكتسب السيماء القاسية والمنضبطة لمزارع يعرف مسبقًا أنّه مهما استنزف نفسه في العمل، فإنَّ مصيره لن يتغيّر، لذا أخذ، بدافعٍ من مازوشيّةٍ خالصةٍ، يبالغُ في الانهماك. لو لم تكن آنا بجانبه، شريكتُه الصغيرة في المصائب والأحزان، لكان عليه أن يخوض معركةً مع القوّة البدائيّة التي تُدعى زوجته، لكي يحملها على العمل أيضًا؛ معركة معروفٌ خاسرُها منذ البداية.

حرّر القدّاسُ الكبير يوم الأحد المنزلَ من وجود العمّة مارتا لبضع ساعات، وسنحت الفرصة للابن الأصغر لبابا روزنباوم لمفاجأة آنا في يومٍ من أيام الصيف الحارّة. كانت قد أضافت للتوّ البطاطس والجزر على الحساء الذي يغلي على نارٍ هادئةٍ مع قطعةٍ من لحم الخنزير المقدّد. فجأة، من خلال البخار، رأت صبيًّا يقف عند المدخل. خطا عدّة خطواتٍ

داخل المطبخ. تبيّنت وجه دانيال روزنباوم الذي كان يجلس بالقرب منها في الصفّ.

- «سأذهب للسباحة في نهر ليبه»، قال بتلقائيّة، «هل يمكنني تبديل ثيابي هنا؟».

نظرت إليه آنا شاردة الذّهن.

- «آه نعم»، قالت بإيماءةٍ مبهمةٍ، «يمكنك استخدام تلك الغرفة هناك».

السباحة في النهر، فكّرتْ في ذهولٍ، لم يفعل ذلك أحد من قبل. لا تعرف أحدًا يستطيع أن يسبح. نظرت إلى الفقاعات والدوّامات على سطح الحساء الذي يغلي، وتراءت لها دوّامات نهر ليبه المهدِّدة للحياة. حين سمعت صوتًا خلفها، استدارت تلقائيًّا. كان روزنباوم الصبيّ يقف عاريًا على ممسحة الباب، عضوه المنتصب مغمور بشعاعٍ من ضوء الشمس تسلّل عبر النافذة. حدّق فيها بجديّةٍ طافحة بالجرأة. سقطت المغرفة من يدها. بغضّ النظر عن جسده الفتيّ النحيل الواقف هناك في العتمة، بدا أن ذلك الشيء، الذي تعلوه عين واحدة، يريد استهدافها، مثل كوبرا متوفّزة للهجوم. لم تكن تعرف بوجود شيء كهذا، لقد رفضت ذلك، وليس لها علاقة به، هربت من المطبخ إلى الخارج، متجاهلةً التحيّة التي ألقاها عليها، واختبأت خلف سياجٍ من نبات الحناء. أخذت ترتجف. وفي الأفق البعيد، كان برج كنيسة لاندولينوس الشاهق يعلو فوق الأشجار. البرج أيضًا كان يشير إلى الأعلى. انحنت لتنتزع حزمةً من العشب، وقشّرت نصالها واحدة تلو أخرى. كيف أمكن حدوث هذا،

بينما يُقام القدّاس الإلهيّ هناك، كيف يمكن لشيءٍ كهذا أن يجاهر بنفسه هنا؛ أن يُوجد الأمران معًا في العالَم نفسه؟

قال يسوع: «فكُونُوا أنتُم كَامِلِينَ كما أنَّ أبَاكُمُ الَّذي في السَّمَاوَاتِ هُوَ كَامِلٌ»[1]. حاولت آنا بتهيّب الالتزام بهذه الوصيّة رغم أنّ جهودها كانت تخضع لاختبار صعب في يوم ذكرى الأموات. في هذا اليوم من شهر نوفمبر كانت تُستجاب كلُّ الصلوات من أجل خلاص أرواحِ الموتى. البعض ممّن أُتيح لهم القيام بذلك قصدَ الكنيسة ستّ مرّات لتحقيق الاستفادة القصوى من هذه الفرصة. لكنّ الصلوات لم تكن من أجل الأحبّة الموتى فقط. كانت أعظم تضحية هي الصلاة من أجل الكافرين، «أحسنوا إلى الخُطاةِ أيضًا». كانت قد صلّت بالفعل من أجل أبيها وأمّها وجدّها ومن أجل لوته أيضًا، كي تكون بأمان. لمن غيرهم يمكنني أن أصلّي الآن، فكّرتْ، ما هو أصعب شيء بالنسبة لي؟ ثمّ ظهر روزنباوم العاري أمامها بغتة، على ممسحة الباب، مغمورًا بأشعة الشمس. وفي ومضةٍ، كانت التضحية المطلوبة منها جليّة: لماذا لا تصلّين من أجل يهوديٍّ – لا على التعيين – ميت؟

*

شربت لوته كأسًا من «غران مارنييه»[2] مع فنجان القهوة الثالث.

– «كان من الممكن أيضًا ألّا يكون هذا الصبي يهوديًّا».

(١) إنجيل متى، ٥:٤٨.

(٢) Grand Marnier: علامة تجارية فرنسية لمشروب كحولي أساسه الكونياك، منكّه بالبرتقال. (المترجم)

- «بالتأكيد! أقول لك ذلك لأريك مدى تناقض موقفي تجاه اليهود، وكيف غذّت الكنيسة ذلك. الآن نأتي إلى الأسوأ». ابتلعت آنا الرّشفة الأخيرة في كأسها. «في مرحلةٍ معيّنة، اختفوا تمامًا: لم يعد هناك يهود في قريتنا. لم يعد روزنباوم يأتي لشراء الماشية؛ حلّ تاجر مواشٍ مسيحيّ مكانه، بلا جلبة. ومع ذلك، لم أسأل أبدًا: أين رحلت عائلة روزنباوم؟ أبدًا، هل تتخيّلين؟ لم يطرح أحدنا أيَّ سؤال، ولا حتّى عمّي».

- «ما الذي حلَّ بالعائلة بعد ذلك؟».

- «لا أعرف! عندما يقول الناس «لم نكن نعرف» فهذا صحيح. لكن لماذا لم نكن نعرف؟ لأن ذلك لم يثر اهتمامنا على الإطلاق! ألوم نفسي الآن لِمَ لم أسأل: أين ذهبوا؟».

أحسّت لوته بارتفاع الحرارة وأصابها الدوار. بدا لوم آنا لنفسها مثل كلماتٍ جوفاء تقع على مسامعها؛ بماذا ينفعك ذلك؟ اختفت قبّعات الفراء من حولها. ما تزال المصابيح في عجلة العربة مضاءة، لكن بوهجٍ أقلّ.

- «أظنّهم يريدون أن نغادر»، تمتمت.

أصرّت آنا على تسديد الحساب كاملًا، ولم ترغب لوته في ذلك. لكن آنا تغلّبت عليها. كانت قد دفعت بالفعل بينما كانت لوته تبحث عن الكمّ المفقود لمعطفها. كان الألمانيّون سريعين جدًا بالنسبة للجميع بعملتهم القويّة؛ المارك الألمانيّ.

كانتا للتو تتجوّلان في دهاليز ثلاثينات القرن الماضي، أمّا الآن فقد

خرجتا إلى عالمٍ أبيض سرمديّ؛ منحهما الصمتُ القسريّ الذي ساد هناك إحساسًا داخليًّا بالعدم الهائل. مدّت آنا ذراعَها إلى لوته. مفترضتين أنّ سبيليهما سيفترقان عند هذه النقطة، توقّفتا أمام نصب «الانسييه» التذكاريّ في «پلاس رويال»؛ فارس بطل في طريقه إلى المعركة، يرتدي خوذةً من الثلج.

- «أراكِ غدًا». نظرت آنا إلى لوته نظرةً جديّةً وقبّلتها على الخدّين.

- «إلى اللقاء...»، قالت لوته بصوتٍ واهنٍ.

- «مَن كان يظنُّ ذلك...» قالت آنا مرّة أخرى.

ثمّ عبرتْا الطريق في الاتجاه نفسه.

سألتْها آنا:

- «إلى أين ستذهبين؟».

- «إلى فندقي».

- «وأنا كذلك!».

تبين أن كلتاهما تقيم في فندقٍ على الجانب الآخر من سكّة القطار.

- «لا يمكن أن يكون ذلك مجرّد صدفة»، ضحكت آنا، متأبطة ذراع لوته من جديد.

وهكذا مشتْا معًا، وأخذ الثلج ينسحق تحت قدميهما بعذوبة. وعلى جسر سكّة الحديد، توقّفتا لإلقاء نظرةٍ من الأعلى على الأسطح المغطّاة بالثلوج.

- «هل لكِ أن تتخيّلي»، قالت آنا متأمِّلةً. «عدد الشخصيّات

الشهيرة التي جاءت لتلقّي العلاج هنا على مرّ القرون. حتّى القيصر بطرس الأكبر».

- «ظلّت هذه المدينة محافظة على ما يميّزها»، أيّدتْها لوته، وهي تزيل شريطًا من الثلج عن السياج بإصبعها المغطى بالقفّاز.

أحبّت جوّ الحياة الأرستقراطيّة والمجد الغابر الذي يحيط بالمباني تحتهما. كان القرن التاسع عشر ما يزالُ حاضرًا على نحوٍ ملموس، مثيرًا الحنين إلى أسلوب حياةٍ أكثر انسجامًا وتنظيمًا ولّى منذ زمنٍ. في الحمّامات الحراريّة، كلّما مدّ أحد أفراد الطاقم يده لمساعدتها في النهوض من الحوض وارتداء ثوب حمامها المدفأ مسبقًا، كانت تتخيّل نفسها أرملة ثريّة أو ماركيزة أحضرت معها خادمتَها الخاصّة.

راحتا تخطوان من عمود إنارة إلى آخر، ومن بقعة ضوء إلى أخرى، إلى أن توقّفتا أمام ڤيلا لها برجان دائريّان.

- «ها هو ذا»، قالت لوته.

خلق هذا المبنى الذي بدا كأنه من الفُندان المرشوش بالسُّكر النّاعم انطباعًا غير واقعي كالأحلام. هذا اليوم، بكلِّ ما جرى فيه من أحداثٍ غير معقولة مجرّدُ حلم، وآنا التي بجانبها لم تكن حقيقيّة.

- «إنّه قصر حقيقيّ»، علّقت آنا برصانة، «أسكن أبعد قليلًا، لكنّ فندقي أكثر تواضعًا».

تلقّت لوته انتقادها، لكنها لم ترغب في توضيح أنَّ هذه الواجهة الفاخرة تخفي وراءها فندقًا عائليًّا متواضعًا.

- «أتمنّى لكِ... ليلة طيّبة»، قالت متلعثمة.

- «لا يسعني الانتظار إلى الغدّ»، تنهّدت آنا وهي تضمُّها بقوّة.

استغرقت لوته وقتًا طويلًا لتغفو. كانت كلُّ الوضعيّات مؤلمة. وسواء أكانت مستلقية على ظهرها أم على جانبها، فقد استمرت في استحضار اللقاء وما تلاه من مكاشفات. حال مزيج من المشاعر المتضاربة بينها وبين الاستسلام الأعمى للنوم. كيف سأخبرُ أولادي بذلك، كان آخر ما فكّرت فيه حين غفت بحلول الصباح.

٥

استيقظت لوته تتناهبُها هواجس كئيبة. بدت لها غرفةُ الفندقِ غريبةً ومعادية؛ لم تثر الأغصان المغطّاة بالثلج، البادية من خلال النافذة، أيَّ أحاسيس شاعريّة، كلُّ شيء كان مؤلمًا. أثار جسدُها نفورَها، ليس فقط لأنّها تحسُّ به كلّما تحرّكت، بل لأنّ أصولَه لا يمكن إنكارُها. هولنديّة في جسدٍ ألمانيّ. في بلجيكا. ودّت لو تغادر بصمتٍ، لكنّ العلاج كان هديّة أولادِها لها، فكيف يمكنها أن تهرب من هديّة عيد ميلادها؟ إنَّ سماحها لآنا بأن تضلّلها شكلٌ من أشكال الخيانة: الألم الذي أحسّته في أطرافها كان بمثابة تحذيرٍ من أنّها تجاوزت الحدود. تلك السّنوات الأولى من الحياة التي أشارت إليها آنا؛ ماذا تمثّلُ بالفعل من حياة الإنسان؟ لقد قدمنا إلى هذا العالَم معًا، في قلب الحرب العالميّة الأولى، حيث كان الموت الجماعيّ لا يبعد أكثر من مئة كيلومتر. كانت ولادتهما في مثل ذلك الوقت أمرًا في غير محلّه، وفوق هذا على هيئة توأمتين. لا بُدّ أنَّ لعنةً أحاطت بهما. كان من العدل هذه الفرقة الكبيرة التي حصلت بينهما، ويجب أن يظلّ الوضع على حاله. ربّما هو ذنب تاريخيّ وغير شخصيّ كان عليهما، بمعزل عن بعضهما

البعض، تحمُّل وزره طوالَ حياتها عبر جرعة الشّدائد التي أنزلتها الظروف عليها.

بينما كانت لوته تنتظر في القبو ريثما يُحَضَّرُ حمّام الخث الخاصّ بها، ظهرت آنا عند المدخل. كان هناك بالفعل شيء مألوفٍ فيها؛ عساه ألا يكون بداية شكل من أشكال المشاعر الأسريّة! جلست آنا قربها على المقعد الأبيض.

- «كيف كانت ليلتكِ *يا عزيزتي*؟»

قالت لوته بغطرسة: «لا بأس».

- «نمتُ بصورة عجيبة»، قالت آنا وهي تدلّك فخذيها.

أشارت امرأة ترتدي معطفًا أبيض إلى لوته. أمسكتها آنا من كتفها.

- «ثمّة مقهى جميل بالجوار، روليه دولا پوست، دعينا نلتقي فيه. بعد ظهر اليوم!».

أومأت لوته برأسها على نحوٍ غامضٍ وتوجّهت إلى الحمّام. كيف أمكن ذلك: نجحت آنا مرّة أخرى في مفاجأتها، وجعلها تحت الأمر الواقع!

في مقهى «روليه دولا پوست»، توقّف الزمن عند أوائل الثلاثينات. كلّ الأشياء فيه تعود إلى تلك الفترة: الكراسي الخشبية البنيّة الداكنة، مفارش الطاولات البيضاء تحت ألواح الزجاج، المصابيح النحاسيّة ذات الكرات الزجاجيّة. لم يجد المالكُ في أهواء ما بعد الحرب كالفولاذ، والبلاستيك، والإضافات ذات الطابع الريفيّ الزائف سببًا وجيهًا لتغيير أثاث المقهى. المكان هادئ على العموم، ثمّة بعض المرتادين الدائمين

يدردشون بصوت منخفض عند البار. في الخارج، سار المارّة، بمعاطفهم مرفوعة الياقات، على الثلج، حيث بدت بوجوده جدران المتنجع الحراريّ على الجانب الآخر من الشارع متسخة. اقترحت المرأة الواقفة خلف البار مشروبًا محليًّا للسيدتين، لتدفئتهما؛ راتفيا التفّاح. توغلّت الحموضة الحلوة في مشروب التفاح هذا لتزعزع إحجامَ لوته عن هذا اللقاء. بعد الكأس الثانية، لاحظت راديو بدائيًّا في زاوية معتمة، له صندوق خشبيّ آسر. مشت نحوه، مبتهجة، ومرّرت أصابعها بلطفٍ على الخشب المصقول.

- «انظري إلى هذا!»، هتفت، «كان لدى أبي المجنون واحد مثله أيضًا!».

*

لم يجلب شراءُ الغراموفون من شركة «غراموفون وپوليفون» في أمستردام، مصدرًا للمتعة فقط، بل كذلك سببًا للمشاجرات والأرق في المنزل. كانت ساعات من التذوُّق الموسيقيّ قد مرّت قبل أن يقع الاختيار النهائيّ. استمع والدُ لوته، بعينين مغمضتين، لصوت كاروسو الإلهيّ: كاد يزلزل بأغنيتيه «أوصَنّا» و«بِلِيَاتشُو» قاعة پوليفون الفاخرة في لايدسترات. في الجزء العلوي لقطعة الأثاث الجديدة ثمّة غطاء يوضع القرص الدوار تحته. اكتسب موقع الصدارة في غرفة المعيشة؛ منذ ذلك الحين فصاعدًا، ستجتاحُ المنزلَ سمفونياتُ شوبرت وبيتهوفن، مع صوت التينور الشهير جاك أورلوس، الذي غنّى «همهمة النسيم»، إضافة إلى الصّوت العذب لآلتجي نوردفيه في غنائها «آلام المسيح» لباخ. كان يستمرّ في تشغيل الآلة الجديدة حتّى جنح الليل؛ لقد خلقت

تعايشًا مثاليًّا بين حبِّه للموسيقى ولأحدث إنجازات التكنولوجيا الكهربائيّة. رافقتْه زوجته حتّى نهاية جلساتِه الليليّة لأنّها اكتشفت أنّه حين يدخل في حالة النشوةِ هذه ينسى إطفاء المصابيح والمواقد قبل الذهاب إلى الفراش. أحبَّ الصوت العالي للموسيقى. وقد عانت الطفلات من اضطراباتٍ في النّوم مع هذه الأصوات السّماويّة المبالغ فيها. كان يغلبهن النّعاس فوق كتبِ الحساب في المدرسة، وكان بمقدور لوته أن تسمع الإيقاعات الضعيفة لأورفيو في موجاتٍ متصاعدةٍ خلال دروس القراءة.

احتوى مخزن پوليفون أكثر من أربعة آلاف وخمسمئة أسطوانة غراموفون مختلفة. كانت والدة لوته تتفاجأ على نحوٍ دوريّ بمبعوثٍ من الشركة، يلوّح بفاتورة أمام وجهها. وفي المساء، مع صوت الموسيقى، تندلع شجارات بشأن المال.

- «لقد دفعتُ ثمنها بالفعلِ».

- «لا لم تدفع، جاؤوا يقرعون الباب مرّةً أخرى. ما هكذا تُقضى الأمور!».

انسلّت جيت ولوته من الفراش، وجلستا على قمة السلّم، ذراع كلّ منهما تلفّ كتف الأخرى. الصّوت الذي بدا مجرّد تهديد في غرفة النوم، أصبح خطيرًا هنا. استمرّت الموسيقى بلا رحمة، وعلا غضب والديهما فوقهما. في بعض الأحيان، سمعتا قرقعة شيءٍ يصطدم بالأرض. في النهاية، هبطتا الدرج باكيتين، ودخلتا مشهد المعركة بقدمين حافيتين، مستعدّتين لما هو أسوأ. «رأينا حلمًا مخيفًا»، كانت ذريعتهما. أمسكت

لوته كُمّ رداء جيت بإحكام. أُعلن وقف إطلاق النّار فوريًا. اتجه أبوهما نحو الآلة المدهشة ليضع تسجيلًا آخر، وضمّتهما الأمُّ في حضنها شاعرةً بالذنب.

لم يكن شغف الأب بالموسيقى الجديدة يضاهيه سوى ولعه الشديد بأجهزة الصّوت. سرعان ما توقّف صوت الغراموفون المستنسخ عن تلبية تطلُّعاته. عدَّ قاعة الحفلات الموسيقيّة في أمستردام معيارَه؛ هكذا يجب أن يكون الصوت في غرفة المعيشة أيضًا. أجرى كلَّ أنواع التحسينات التجريبيّة في ورشته، وسط فوضى من المحوّلات والموزّعات ولوحات المفاتيح ومكبّرات الصوت والأقطاب الكهربائيّة؛ حتّى أن طرف شاربه احترق بفعل اللحام. ضم رصيدُه بالفعل سلسلةً من النجاحات في تصنيع المعدّات اللاسلكيّة؛ فهاتف «كريستلفون» الذي صنعه في منزله تفوّق على منتجات علامة أديسون التجاريّة. أدخل العديد من التعديلات العبقريّة على الغراموفون لدرجة أنّه لم يعد بالإمكان التعرُّف على الجهاز الأوليّ. وحين ظهر جهاز ألترافون في الأسواق على نحوٍ غير متوقّع، اقتبسه في الحال. ضمّ هذا الجهاز، الذي أبهج حتّى المنتقدين المتحفظّين، ذراعَين للصوت وإبرتين، ما أدّى إلى توزيع الصّوت نفسه مرّتين، بينهما وقفةٌ طفيفة؛ وهذا ما أعطى تأثير الصوت المُجسَّم السَّابق لأوانه. غراموفون ينطق بصوتٍ بشريّ، جاء في عناوين الصحافة حينذاك. رأى والد لوته هذا الأمر بمثابة إعلانٍ للحرب على شخصه. من جديد، انكبَّ في ورشته، ولم يهدأ حتّى بنى جهازًا مع مكبرَي صوت بشكلٍ مخروطيّ. لم ينبعث الصوت من جوانب مختلفة فحسب، كما يجري في

قاعة الحفلات الموسيقيّة، بل جاء متخطيًا في سباق التغلُّب على ضوضاء السّطح. إنَّ الصندوقين المصقولين المصنوعين من خشب الزان اللذين تصدّرا الغرفة، جلبا له شهرةً تخطّت نهرَي ميز وڤال. توجّه مهندسو صناعة المصابيح الكهربائيّة نحو الشمال بسيارات الشركة لسماع الظاهرة الصوتيّة بأمّ آذانهم. تبعهم تقنيّو الصوت من الإذاعة وموسيقيون وهواة ومعارف غامضون، وليلةً بعد ليلةٍ، كان القادمون الجدد المهتمّون يتمتعون بالصوت المستنسخ الرائع، بالإضافة إلى مجموعة التسجيلات المتزايدة باستمرارٍ. مبتكرُ كلّ هذه الإبداعات التقنيّة والموسيقية، التي جاءت نتيجة تعلُّمه الذاتيّ في عالم الصوت، وجد نفسَه في حالةٍ دائمةٍ من النشوة الرّوحية بسبب الجرعة الزائدة من الاهتمام والاعتراف التي تلقّاها. كان يضعُ تسجيلاته على القرص الدوّار بخُيلاء العازف إذ يضع كمانه تحت ذقنه. استعاد شاربُه مجدَه السّابق من جديد، وأشرق لامعًا كما لم يُعهد من قبل.

عرّضتْ هذه الأمسيّات الحافلةُ إمدادات الكهرباء والمياه في المنطقة، والتي كان مسؤولًا عنها، للخطر؛ لقد حصل على هذه الوظيفة بعد سنواتٍ من الدراسة الذاتيّة للنظريّة الكهربائيّة. كان ينامُ حتى وقت متأخّرٍ في الصّباح. ولأنّه ليس ثمّة مَن يفعل ذلك غيرها، كانت زوجته تنهض في الصباحات الشتويّة المظلمة من فراشها الذي لم ترقد فيه أكثر من أربع ساعات، ترتدي معطفًا منزليًّا فوق رداء منامتها، من أجل تشغيل مضخّات الضغط في برج المياه شديد البرودة. في بعض الأحيان، كانت تثور غضبًا.

- «إنّك لا تفكّر إلا في نفسك»، صرخت في وجهه بعد أن نزل إلى الطّابق السفليّ أخيرًا، وعيناه ما تزالان منتفختين من النعاس، «لا تفعل إلا ما يحلو لك. أنانيّ! اشتراكيّ صالونات!».

تذمّر قليلًا، باحثًا بلا جدوى عن حججٍ يدافع بها عن نفسه. دفعها إلى اليأس ادعاؤه المفاجئ عدمَ سيطرته على أفعاله، فلكمته. رأته الطفلات يترنح؛ هرعن عبر الجسر إلى الغابة لبناء كوخٍ بديلًا عن منزل الوالدين. عمدن إلى التلكؤ في أعمال البناء أطول فترةٍ ممكنة، على أمل أن تهدأ الحرب حين يعبرن الجسر بالاتجاه المعاكس. بعد ساعاتٍ، عدن إلى المنزل بحذرٍ شديد، جائعات وقلقات. كان بمقدورهن، وهنّ بعدُ في الغابة، رؤية والديهنّ جالسَيْن على مقعد الحديقة تحت شجرة الكمثرى المتسلّقة، ذراع أحدهما تحضنُ الآخر، وابتسامة سعادة على شفتيهما؛ لقد استُعيدَ التوازنُ.

أدّت الطفلات واجباتهنّ المدرسيّة في الغرفة الخلفيّة؛ وقد ظلّ الغراموفون صامتًا طالما كان والدهنّ خارجًا في جولةٍ تفقديّة. أخذته درّاجةً ناريّةً من نوع «هارلي ديفدسون» تابعة للشّركة إلى أبعد المناطق في المقاطعة. كان يندفع بسرعةٍ في طرقٍ مهيبةٍ، مرتديًا معطفه الجلديّ الطويل وكساءً واقيًا حول ساقيه، عيناه محميّتان بنظّارات الدرّاجين الكبيرة، وغطاءا الأذنين المعلقين بقبّعتُه على رأسهِ يرفرفان كجناحي طائرٍ مخمورٍ. حين يعود إلى المنزل، ويخلع ملابسه، كان يتناول مجلّدًا من الأعمال الكاملة لماركس أو لينين من رفِّ الكتب، ويرتمي برفقته على الكرسيّ.

فجأة انفتحت الأبواب المنزلقة.

- «ماذا تفعلن؟»، سألَ بصرامة.

- «واجبات المدرسة».

- «ما المادّة؟».

- «تاريخ هولندا».

- «أغلقن كتبكنّ تلك. فمن هذا الكتاب بإمكانكنّ تعلُّم أشياء أكثر بكثير. اسمعن: فحيثما يحتكر جزءٌ من المجتمع ملكيّة وسائل الإنتاج، فإنَّ على العامل، حرًّا كان أم غير حرّ، أن يضيف إلى وقت العمل الضروريّ لإعالته، وقت عمل إضافيًّا بغية إنتاج وسائل العيش لمالك وسائل الإنتاج، سواء كان هذا المالك أرستقراطيًّا أثينيًا، أو ثيوقراطيًّا أتروسكيًا، أو مواطنًا رومانيًّا، أو بارونًا نورمنديًا، أو مالك عبيد أميركيًّا، أو نبيلًا من فالاشيا، أو مالكًا عقاريًّا معاصرًا أو رأسماليًّا».

رمقهنّ بنظرةٍ جادّة، من فوق غلاف «رأس المال» المزيّن بفروع الأزهار.

- «افهمن. يكدُّ العامل بعرق جبينه كي يتمكّن الأثرياء من تكريس وقتهم للقيام باللا شيء. هكذا تجري الأمور في العالم. فليبقَ ذلك في أذهانكنّ».

ثمّ أكمل المحاضرة، التي كان يمكن أن تمتدّ لساعاتٍ إذا ما جادت قريحتُه، إلى أن أطلقت الأمُّ سراحهنّ بالمهمّات الوهميّة التي توكلها إليهنّ. حين اشتكين من اضطرارهنّ إلى تعشيب حديقة المطبخ، رمى في وجههن مصيرَ أقرانهن خلال القرن الماضي.

- «عند الثانية أو الثالثة أو الرّابعة صباحًا، يساق الأطفال الذين

تتراوح أعمارهم بين التاسعة والعاشرة من مهاجعهم القذرة، ويجبرون على العمل مقابل لقمة عيشهم حتّى العاشرة أو الحادية عشرة أو الثانية عشرة ليلًا، تذبل أطرافهم وتنحني أجسادهم وتبهت ملامحهم وتتحجّر سحناتهم البشريّة خلف أقنعة بلا تعابير، ما عدا ملمح وحيد، تلك النظرة المرعبة».

كان يعاملُ الضّيوفَ بطريقة أكثر كياسة. في البداية، يغويهم بالموسيقى السماويّة. وحين يحكم قبضته عليهم تمامًا، موهنًا أرواحهم بقوّة العاطفة، يعمد إلى خفض مستوى الصّوت، وكما لو أنّه بمحض إلهامٍ عفويّ، يفتح كتابًا كان قد وُضِع جاهزًا في مكانه منذ البداية. تمكّن بعضهم من النأي بأنفسهم في الوقت المناسب، بينما انجرَّ آخرون في جدالاتٍ ساخنة استمرّت حتّى وقتٍ متأخّر من الليل. لكنّه لم يثر مناهضةً شديدةً بشكل جدي إلا حين أعلن، في السّاعات الأولى من الفجر، ومكبّرات الصوت الفاخرة في الخلفيّة كدليلٍ على ذكائه الحاذق، معارضتَه للنِّظام الملكيّ. مدفوعين بتأثير مشروب الجِنّ، كانوا على استعدادٍ للمضيّ شوطًا طويلًا مع حججه حول الماديّة التاريخيّة؛ لم يمانعوا غضّ الطّرف عن تهجمه على المسيحيّة، لكن بمجرّد أن وصل به الأمر للتطرُّق إلى العائلة الحاكمة، فقد تعدّى الحدود: قوبلت هذه الفعلة باحتجاجات غاضبة. لم تكن موسيقاه ولا مشروباته الكحوليّة ولا أساليبه في الإقناع لتضاهي حبَّهم لعائلة أوراني[1]. بذل قصارى جهده كي يخفي ازدراءه، ممسّدًا شاربه بسبّابته

(١) عائلة أوراني (أو أورانج): فرع من عائلة ناساو الأوروبية، لعبت دورًا مركزيًا في سياسة هولندا وحكمها، خاصة في عهد وليام الأول الذي نظّم الثورة الهولندية على الحكم الإسباني، والتي أدّت إلى تأسيس دولة هولندا المستقلة. (المترجم)

المدودة. أدمن أحد ضيوفه على المناقشات لدرجة أنّه كان يتردّد مساء كلّ سبتٍ من أجل التفلسف، حتّى يظهر قاع زجاجة الجِنّ: البروفيسور كونينغ، المحاضر في التاريخ الاستعماريّ في جامعة أمستردام. كان والد لوته، الذي يكنّ احترامًا طفوليًّا للسُّلطة في المجالات العلميّة، فخورًا بهذه الصّداقة إلى حدٍّ بعيد، والتي توطّدت عميقًا لدرجة أنّ البروفيسور اشترى منزلًا مسقوفًا بالقشّ عند الجانب الآخر من الغابة.

في عيد ميلاد الملكة، رفض والدها نصب العلم فوق برج المياه. لكنّ عضوًا بارزًا في مجلس المقاطعة، كان يقطن في الحيّ ويتجوّل في الغابة كل يوم، أبلغ عن استهتاره.

- «هيّا...»، قالت زوجته العام التالي، «ارفع العلم وإلا ستتسبّب لنا بالمشكلات».

- «أيُّ خُرقٍ... أن نرفع العلم من أجل امرأةٍ عاديّة للغاية»، احتجَّ.

- «إنَّك تتحدّث عن الملكة».

بدت هي نفسها كملكة، بفستان الشانتون ذي اللون الكريميّ، شامخة وساحرة وعنيدة. وقفت الطفلات في صفِّها، وقد زيّنّ الدرّاجات الهوائيّة بأغصان الصنوبر والفوانيس البرتقاليّة:

- «الجميع يعلّقون العلم يا بابا».

كشّر: الجماهير!

- «إذا لم تقم بذلك، سأقوم به بنفسي».

ابتعدت عنه زوجتُه بخطوات واسعة؛ تبعها غاضبًا. عند باب برج المياه، أمسك بها ودفعها جانبًا. دلف إلى الدّاخل، وفكّاه يصطكّان.

جاء أحد المفتّشين إلى المدرسة لإعداد سجلٍّ للتلاميذ. وقف أمام الصفّ وبيده قائمة: كان على التلاميذ الوقوف واحدًا تلو الآخر والإدلاء بالاسم. بصوتٍ خافتٍ رتيبٍ كان يضيف:

- «وماذا يعمل أبوك؟».

أجاب التلاميذ من دون تردُّد. استحوذت لوته على لقب والديها الهولنديين من دون كثير تفكير: عائلة روكانيه. لكنّها حدّقت في المفتّش فاغرةً فمها من دون أن تتفوّه بشيء حين سألها عن مهنة أبيها.

- «لوته..»، قالت المعلّمة بلطافةٍ، «أنت تعلمين ماذا يعمل والدكِ. أليس كذلك؟».

تطلّب منها النطق بهذه الكلمات قوّة هائلةً:

- «لم م أأعرف بعد».

كان رأسها على وشك الانفجار. هل عليها أن تمضي في تعداد كلِّ ما يفعله أبوها؟ من أين ينبغي لها أن تبدأ؟ تجاوز المفتّش هذه العقدة التي ظهرت في السلسلة، وواصل التسجيل بتعبيرٍ محايد. فجأة نزل الإلهامُ على لوته. رفعت إصبعها وقالت:

- «ع-عرفتُ الآن».

- «حسنٌ»، قالت المعلّمة والمفتّش في آنٍ. «ماذا يعمل والدكِ إذًا؟».

- «حارس برج الملكة!» صرخت من دون تلعثم.

*

- «لو علم جدّنا بأنّك ستحطّين في وكرٍ شيوعيّ...»، هتفت آنا بمرح، «يا لها من مزحة!».

- «لكنّ أمي كانت تعارضه. لقد قالت له: لا تظنّ بأنَّ العمّال سيكونون أكثر إنسانيّة إذا ما استولوا على السُّلطة. في بعض الأحيان، كانت تُنزله بفظاظة من سحابته الورديّة التي لا يكفّ فيها عن تمجيد ماركس ويظلّ يردّد هلوساته عن التوزيع العادل للمال والعمل. وتتابع: من الأفضل أن تطبّق ذلك على نفسك يا عزيزي. بدلًا من التفوّه بهذه الكلمات الرّنانة».

دخل رجل عجوز، وهو يطبع على الأرض بحذائه، ثمّة ندف ثلجٍ على حاجبيه الكثيفين. راقبت عيناه الزرقاوان الدامعتان الزبائن بخجل. خلّف وراءه أثرًا من جليدٍ ذائبٍ في طريقه إلى البار. ظهرت بقع حمراء على خدَّي لوته بفعل شراب الراتفيا بالتفّاح. كانت عينا آنا تبرقان. لقد وقعت لغةُ لوته الألمانيّة الدقيقة قديمة الطراز كالموسيقى على أذنيها، تتخلّلها بين الحين والآخر كلماتٌ كولونيّة بطُلَ استخدامها منذ زمنٍ بعيد.

- «*تلك البرجوازيّة المتأنّقة*... التي أتت إلى كولونيا لاصطحابك... كيف كانت طباعها؟»، قالت.

سرحت لوته بنظرها خارج النافذة.

- «اعتدتُ أن أذهب للبقاء معها في أمستردام من وقتٍ لآخر. كان بإمكانكِ رؤية سوق «ألبرت كويب» إذا نظرتِ من غرفة المعيشة إلى المرآة بجانب النافذة. عند الصّباح، نخرج معًا إلى

السّوق بينما يذهب جدّي إلى الحلّاق. كانت تشتري اللحم والخضروات أولًا. لكنّ هدفها الحقيقيّ هو أن تتلّمس الأشياء المعروضة على كشك مليء بالخرز والأزرار والمخمل والدانتيل والحرير. كانت تقف هناك، تأخذُها الأحلام التي ليس لها نهاية، بينما تمرّر يديها على كلّ تلك الأشياء. بعد فترة طويلة من المداولات، تشتري شيئًا صغيرًا، زوجًا من أزرار عرق اللؤلؤ أو ما شابه. كانت ما تزال في غاية الغنج. انظري، هذا ما كنتُ عليه في شبابي، قالت ذات مرّة. وهي تشدّ جلدَها المترهّل بأطراف أصابعها. صُدمت. لم أتعرّف عليها بهذا الشّكل. سألتُها ذات يوم: ألا يمكنني الذهاب لرؤية آنا؟. قالت لي: *آه منك يا حبيبتي*، إنّك لا تعرفين مدى عناد عائلتنا وضيق أُفقها. نحن لا نتواصل معهم على الإطلاق. في المستقبل، حين تكبرين، يمكنك البحث عن آنا بنفسك. وعندها لن يهمّكما، معًا، أمرَ هذا النّسل بأسره».

ضحكت آنا.

- «كانت لها صورة معلّقة فوق كرّسي جدّي حين كان على قيد الحياة؛ فتاة صغيرة ترتدي فستانًا أبيض، تظلّلُ وجهَها قُبّعة من القشّ. صورة *جميلة*. لا بُدّ أن عمر هذه الصورة يناهزُ مئة عام الآن. تخيّلي يا لوته، مئة عام! لم يحصل أن تغيّر العالم بشكل جذريّ كما حصل خلال آخر مئة عامٍ. لا عجب في أن تشعر كلتانا ببعض التشويش. دعينا نشرب شيئًا آخر!».

احتكّت طبقاتُ الزّمن ببعضها، لها صوت الصّرير. قبل الحرب، بعد الحرب، سنوات الكساد الاقتصادي، قبل قرنٍ... مناظر شتّى تنقلت آنا بسرعة بينها، ثملةً قليلًا، كما لو أنّها على متن قطارٍ جامحٍ. في لحظةٍ من اللحظات، كانت تركب قطارًا بخاريًّا، تندفع خيوط الدُّخان أمام نافذتها، وفي اللحظة التالية، تجلسُ على مقعدٍ من الجلد الأخضر اللامع في قطارٍ سريع حديث. تسمّرت صورُ شخصيّاتٍ من الماضي في المحطّات المتعاقبة التي عبرتها بسرعة. لم يلوّحوا، بل اكتفوا بالنّظر إلى القطار الشبحيّ بأعينٍ مزرورة وحواجب عابسة. اشتعلت الحرائق في محطّة برلين، وغصّت المنصّات بالدُّخان والغبار. أين تنتهي هذه الرحلة؟ عند حافة الزمن؟ شعرت بالضجر من هذه الأسئلة. قرعت كأسها بكأس لوته، وشربت نخبَ صحتها.

- «سألتُها أيضًا...»، قالت لوته.

- «مَن سألتِ؟».

- «جدّتي... العمّة إليزابيت... سألتُها: هل عرفتِ والدي حين كان صغيرًا؟ أعني والدي الحقيقيّ. قالت: أبوكِ... كان صبيًّا ذكيًّا ولطيفًا... ثوريّ العائلة. أُغرمتُ به كثيرًا. ولهذا السبب كنتُ في جنازته، ولهذا أنتِ هنا الآن *يا صغيرتي*. أجل، أصحاب الطّبع الحسّاس يموتون صغارًا وهؤلاء */الأوغاد* يكبرون ويعمّرون؛ هذا هو حال الدُّنيا...».

أضافت لوته بحنانٍ:

- «كانت جدّتي تحبُّ الشّتائم».

- «لو أنَّ جدّة خرافيّة كهذه ظهرت لي في ذلك الوقت»، قالت آنا بلهجةٍ لا تخلو من مرارة، «لكانت وفّرت علي قدرًا كبيرًا من المعاناة».

*

كانت إعانة اليتيم، التي قدرها خمسة وثلاثون ماركًا، تدفعها الدّولة لآنا كلَّ شهر. مبلغ كبير؛ مع ذلك عاملتها العمّة مارتا كما لو أنها طفيلي، علقة انقضّت على الأسرة الفتيّة بِمِحجمَيْها لتمصّ دمها. صبّت جام استيائها المزمن، الذي جلبته كجهاز عرسٍ معها، على آنا التي أُرهقت بالعمل واستنزفت، ووقفت عزلاء أمام مضايقاتها. كلّما نظرت آنا في مرآة حلاقةِ العمّ هاينريش المتصدّعة، كانت العمة مارتا تقول بازدراء:

- «لماذا تنظرين في المرآة؟ ستموتين على أيِّ حال. أصيب أبوك بالسلّ، وأمّك بسرطان الثدي، ستصابين أنت أيضًا بأحدهما. لا تتوهّمي خلاف ذلك».

وجدت آنا، التي قرأت العديد من الحكايات الخرافيّة، في مارتا الصورة النمطيّة لزوجة الأب الشريرة، إلّا أنَّ العدالة التي انتصرت دائمًا في القصص الخيالية، طال انتظارها في الواقعِ.

- «لماذا تحتاجين فستانًا جديدًا؟ لماذا تشربين الحليب؟ ستموتين بكلِّ الأحوال».

الآنَ وقد أُجهِضت كلُّ احتياجاتها الحياتيّة وأُشبعت سخريةً، تسرّبت إليها الرغبة القديمة للاختفاء الأبديّ من جديد. للموت، لكن كيف تفعلُ ذلك؟ إذا أصابك مرضٌ، فإنَّه يحدث من تلقاء نفسه. أما

التسبب المتعمّد بالانتقال من حالة الوجود إلى عدم الوجود فقد كان أكثر صعوبة. قادها اللا يقين نحو الكنيسة؛ خلال الوقت المستقطع من نصيب الأبقار والخنازير والذي وجب عليها تعويضه لاحقًا. صلّت على أكمل وجهٍ تضرُّعًا لاستجابة السّماء للمعجزة التي تريد. لكن الربّ، والدها الثّاني الذي تعذّر الوصول إليه، لم يكّلف نفسه عناء النزول إلى كنيسة لاندولينوس المتواضعة. أقصى ما حصل أن سمح لألويس ياكوبسماير بالخروج من العتمة الخافتة؛ كان ضعيفا أمام آنا، منذ أن انهالت على الروم ضربًا. كان هو من ناشد عمَّها:

- «أرسلْها إلى المدرسة! إنّها أنجب تلميذة في القرية. سنتكفّل نحن بجميع المصاريف».

أمسكت آنا بردائه وطلبت إليه بلهجةٍ واثقةٍ أن يمدّها بوسيلةٍ للاختفاء من العالَم، من دون التسبب بأي إزعاج. مصعوقًا، همس:

- «لا تقدمي على تصرُّف أحمق! وهبك الربّ حياة واحدة، إنّها كلّ ما لديكِ. يريدُك أن تعيشيها حتى نهايتها الطبيعيّة. اصبري، ستكونين حرّة عندما تبلغين الحادية والعشرين».

لكن الحادية والعشرين كانت بعيدة لدرجةٍ لا تطاق.

- «لن أتحمّل حتّى ذلك الوقت»، قالت بغضبٍ.

- «بلى». أخذ رأسها بين يديه، وهدهدها برفقٍ. «ينبغي عليك ذلك!».

لم يمض وقت طويل، حين بدا أنَّ جسدها قد اتخذ قراره، فقد أرهقها الاستنزاف اليوميّ والطعام المتقشّف. أصابتْها نزلة برد معنّدة.

حثّها ياكوبسماير على الذّهاب إلى الطبيب، لكن العمّة مارتا ضربت بنصيحته عرض الحائط؛ نزلة برد كهذه تزولُ من تلقاء نفسها. ثُمّ فكّر في حيلةٍ لتخليصها من السُّعال من دون اتّهامه بالتدخُّل في شؤون الآخرين. بعد القدّاس تمشّى باتجاه المزرعة. كانت آنا في الحظيرة حين برز رأس العمّة مارتا، وعظام وجنتيها قد احمرّت من غضبٍ مكبوتٍ.

- «القس يريد أن يراكِ».

كان ياكوبسماير جالسًا في المطبخ وطفلٌ يكركر في حجره. سحب زجاجة بنيّة صغيرة من ثوبه.

- «لا يمكن السّماح باستمراره أكثر من ذلك»، قال لآنا. «كنت تسعلين طوال الوقت في القدّاس، لم أستطع سماع ما أقوله».

بمزيجٍ من الانتصار والسّخط، صرخت العمّة مارتا:

- «هذه؟ إنّها عديمة التهذيب. نحن نعلم ذلك!».

- «أحضرتُ معي دواءً من أجلها»، أكمل ياكوبسماير بهدوء، «سيدة بامبيرغ، ستتأكدين من تناولها الدواء بانتظام؟».

أومأت العمّة مارتا برأسها متفاجئة.

- «وإذا ابتلّت ملابسها من العرق»، استأنف، «ينبغي تبديلها، لكيلا تصاب بالبرد من جديد».

- «نعم، نعم»، قالت العمّة مارتا باستخفاف: «ولكي تقوم بذلك، عليها أن تخرج إلى الحقل وتعلّق قميصها على الصفصافة، وتنتظر عاريةً حتّى يجف. سيعجب هذا الرجال هنا بالتأكيد».

أنّبها منزعجًا لأنّه غذّى خيالها التافه بغير قصد :

- «يجب عليك أن تشتري قمصانًا إضافيّة لها، سيدة بامبيرغ».

وقف بمهابةٍ ومرّر الطفل إليها.

- «تذكري، طفلك الصغير هذا، ولكن أيضًا آنا... إنهم جميعهم أبناء الربّ».

استدار عند عتبة الباب:

- «يجب أن تسقيها الكثير من الحليب، مع القشدة».

- «حين تكون أنتَ من يدفع ثمن ذلك»، زمجرت العمّة مارتا بعد أن أغلق الباب خلفه.

- «إذًا؟»، استفسر ياكوبسماير.

نظرت آنا إلى الأرض، متكئة على أحد الأعمدة في صحن الكنيسة.

- «أعطتني العمّة مارتا أحد قمصانها القديمة البالية. لكنّ شرب الحليب غير مسموح، إنه للبيع».

- «ليسامحني الربّ»، تنهّد قائلًا، «حين تخضّين الحليب يا آنا، ضعي فمك تحت الفوّهة بين الحين والآخر. لكن استمري في التدوير وإلا ستأتي لترى ما يجري».

نصب العمّ هاينريش حاجزًا بينه وبين زوجته، قوامه الأشغال وألعاب الورق مع القرويّين والجرائد والكتب التي كانت تقرؤها آنا أيضًا في الدقائق المختلسة. لم يعترض على ذلك، إلا حين أرادت أن تقرأ رواية «لا جديد على الجبهة الغربيّة». لقد منع ذلك، ليس بسبب أهوال

الحرب، إنّها لوجود مشهدٍ غير لائق، لم تتمكّن من اكتشافه وهي تقرأ الكتاب في الخفاء، لأنَّها افتقدت إلى الهوائيّ المخصص لهذا النوع من الموجات. لقد عزّز مصير أربعة فتيان في التاسعة عشرة من عمرهم خلال حرب الخنادق (١٩١٤-١٩١٨) إيمانَها بأنَّ حياة الإنسان لا تساوي شيئًا. كانت حياة الجنديّ أشبه بشمعةٍ أمام تمثال العذراء؛ حالما تحترق، توضع واحدةٌ جديدةٌ في الشمعدان.

كانا يناقشان الكتب التي قرآها، عند الصّباح، حين تكون العمّة مارتا ما تزال في فراشها، وبعد الظهر، حين تغرق في قيلولتها، وفي المساء، حين تخلد إلى النوم. خلقت هذه المحادثات العابرة رابطًا سريًّا بين شخصين متقاربين في التفكير؛ آخر أحفاد العائلة، في جوّ الشعور بالخطر لوجود الزوجة الراقدة في الطابق العلويّ والتي ظلّت غريبةً عنهما. لم تدرك آنا، إلّا بعد وقتٍ طويل، أنّ عمّتها شعرت بهذا التحالف، من وراء الجدران؛ وربّما رأت فيه، بشكوكها السقيمة، حبًّا غير معلن بينهما. ترقبّت العمّة بصمتٍ الفرصة لدقّ إسفين بينهما. وكان بيرند مولر وسيلتَها إلى ذلك، من دون قصدٍ منه.

ذهبت آنا إلى ورشتِه لتعرف ما إذا كان قد أصلح محورَ العربة. لم يرفع رأسه عن الدّراسة التي كان يعمل عليها؛ اضطرّت لتكرار السّؤال قبل أن تأخذ منه ردًّا واضحًا. لا، لم يصلحها بعد. كان ثمّة جريدة مفتوحة على طاولته، بين الصواميل والمسامير. ولهوسها بأيِّ نصٍّ مطبوعٍ، انحنت آنا بفضولٍ فوق الأعمدة. عاد الهدوء إلى ورشة العمل، باستثناء الأصوات الرّتيبة لعمليّات الإصلاح الجارية.

- «أما زلتِ هنا؟»، قال بيرند مولر متفاجئًا، «ماذا تفعلين؟».

- «أقرأ».

- «ماذا تقرئين؟».

قلبت آنا إلى الصّفحة الأولى. *«فولكيشر بيوباختر»*[1].

- «هذه الأمور لا تهمّك، كلّها سياسة».

طوت آنا الجريدة ورفعتها أمام أنفه.

- «مَن هذا؟».

أشارت بظفرها الأسود، الذي تجمّع تحته روث الدجاج والخنازير، إلى صورة رجلٍ بقبضة مشدودة ونظرة غاضبة مستفزّة، يصرخ بصوتٍ غير مسموع، ووراءَه علمٌ تظهر فيه أرجل عنكبوت سوداء على دائرة بيضاء.

- «أدولف هتلر»، قال بيرند مولر، وهو يمسح أنفه بكمّه.

رفعت رأسها.

- «يبدو كما لو أنّه ذاهب للقتال».

- «هذه نيّته». وضع المصلِّح مفتاحه على الأرض ونهض ببطءٍ. «من أجلي، من أجلك، من أجلنا جميعًا. ضدّ البطالة والفقر».

نسي كلّ ما كان منشغلًا فيه قبل قليلٍ، وذهب للجلوس على طاولة العمل كي يشرح لها الخطط التي وضعها ذلك الرجل في الصورة

---

(١) فولكيشر بيوباختر (Völkischer Beobachter)، بالعربية: المراقب الوطني، اسم الجريدة التابعة للحزب النازيّ، كان أدولف هتلر قد استولى عليها إبان سيطرته على الحزب. (المترجم)

للشعب الألماني. أمرٌ طال انتظارُه، نظامٌ جديد؛ حتّى بالنسبة للرجل العاديّ الذي يكدح ليل نهار مقابل طبقٍ من حساء البازلاء.

- «انظري، ها هو مكتوب».

أحاطت بيبرند مولر هالة من التفاؤل. لقد ظهر في الأفق رجل يُعدّ لإحداث تغييرات كبيرة، سيضع حدًّا للفقر والفوضى التي تعمّ البلاد. مأخوذةً بحماسته، شعرت آنا بأنَّ شيئًا لصالحها قد يحدثُ أيضًا؛ ولو كان صغيرًا. شخصيّة الأب الذي طال انتظارُه، الذي سيشدُّ أَزْرَها، ويحرِّرها من قيود الكدح والمشقّة والجوع. تمعّنت في الصورة. لقد تبيّن، بالنّظر عن كثبٍ، أنَّ الانطباع الذي أعطته الصورة، والذي أثار نفورها في البداية، توافق تمامًا مع ما كانت تشعر بِهِ تحت قشرة طاعتِها الذليلة: الغضب والتمرّد.

في ذلك المساء، قالت لعمّها بنبرةٍ تآمريّة:

- «هناك شخص سيضع حدًّا للفقر».

كان جالسًا على الكرسيّ الذي مات والدُه فوقه؛ أمّا هي فكانت على الأريكة تحت الجنديّ القتيل.

- «بشرى سارّة»، قال وهو ينظر إليها نظرةً ساخرةً أثناء قراءته في الكتاب، «كيف اكتشفتِ ذلك؟».

- «من خلال فولكيشر بيوباختر. قال أدولف هتلر...».

صرخ:

- «ماذا تقولين؟».

انزلق الكتابُ من بين يديه.

- «هذا الأحمق؟ إنّك لا تعرفين ما تتفوّهين به. لا يتبع هذه الشخصيّة التافهة إلا الأغبياء واليائسون. من علّمكِ هذا الهراء؟».

- «بيرند مولر»، قالت مستاءةً ومرتبكة.

- «أوه، لقد فهمت. هذه هي طريقته في التمرّد. عبر فولكيشر بيوباختر! كيف قرأتِ ذلك! لا أحد يقرأ هذه الجريدة هنا. كلُّ شخصٍ سليم التفكير، كلُّ كاثوليكي عاقل، يصوّت لحزب الوسط[1]. يصف المنشور العام للبابا بيوس العاشر بدقّة كيف يمكن التغلُّب على الفقر من وجهة النظر المسيحيّة. اسمعي يا بنت؛ هتلر هذا، بكلّ ما يتبجّح به، يريد أمرًا واحدًا فحسب: الحرب».

انحنى كي يلتقط كتابه ونظر إليها كما لو كان ينصت بحدّة لشيءٍ ما.

- «لن أسمح لك بالتعامل مع بيرند مولر، افهمي ذلك».

لكن آنا لم تستطع أن تسمح لنفسها بالتخلّي عن بصيص الأمل ذاك بهذه السهولة. توجّهت في اليوم التالي إلى ورشة العمل. هزّ بيرند مولر رأسه تعقيبًا على ردّ فعل عمّها.

- «سأشرح لكِ بالضبط لماذا قال ذلك؛ لكيلا تنظري إلي مصدومةً بعد الآن بعينيك الزرقاوين الجميلتين. لا أستطيع تحمّل ذلك»،

---

(١) حزب الوسط: حزب سياسي كاثوليكي ألماني تأسس عام ١٨٧٠، كان مؤثرًا في فترة الإمبراطورية الألمانية، لعبت مواقفه الوسطيّة في العديد من المسائل دورًا في تشكيل الأغلبيات. حلّ نفسه بعد تصويته لصالح قانون التمكين الذي جعل الحزب النازي، بقيادة هتلر، الحزب القانوني الوحيد في ألمانيا منذ أوائل ١٩٣٣. (المترجم)

قال مبتسمًا. «ببساطة عليك أن تدعيهم يتحدّثون، هؤلاء المزارعين الشجعان، الكاثوليكيين المطيعين. هذه حدود معرفتهم. مثل حيوانات عاشت حبيسة القفص لفترة طويلة: إذا فتحتِ لهم الباب، فسيبقون مكانهم. وإذا كان علينا الانتظار ريثما يحلُّ لنا حزبُ الوسط مشكلاتنا، فستتضوّر جوعًا».

كان اعتدادُه بنفسه معزِّزًا لثقتها به. كانت بحاجةٍ إلى الإيمان بفرصةٍ للتغيير، لم يكن هناك خيار آخر. وقد أضرم بيرند مولر الحياة في هذا الإيمان بأنشوداته المبهجة. صارت تؤدّي أعمالَها بوتيرة مستعجلة فقط كي تتمّكن بين حين وآخر من المرور بورشته والتحدُّث معه، أو مشاهدته وهو يعبث بمحرّك آلةٍ زراعيّة. لم يقتصر حديثهما على السياسة. مطبّات الحياة اليوميّة، التصرُّف الذي يجب أن تتخذه تجاهها، الكتب التي تقرؤها آنا، وسعالها؛ لم يكن هناك موضوع محرّم في الجو الحميمي لتلك الورشة القديمة، التي تمرح فيها تيّارات الهواء، حيث كانت تجلس، نصف مؤخّرتها على جريدة مفتوحة، والنصف الآخر على الخشب المخدوش لطاولة العمل.

- «مع أنّك في السادسة عشر فحسب، لكنّك فتاة استثنائيّة»، قال بيرند.

أطنب في امتداحها؛ ففي عينيه، كانت تجسيدًا للعذراء، عذراء صغيرةٌ، وفلسفيّة، بقلب كبير ينبضُ من أجل كلّ المنبوذين والبائسين في العالم. كانت ألمانيا الجديدة ستحلِّقُ بكلِّ يسرٍ لو أن فيها مزيدًا من شابات مثلها. هناك مستقبل عظيم بانتظارها، كان يؤكّد لها، وهو يضغط يديها

ذات الأظافر المشقوقة والمكسورة بقبضة يديه الملطختين بزيت المحرّك. بمرور الوقت، أخذ هذا المستقبل يقاربُ شيئًا فشيئًا هيئةَ منزلٍ كان يخطّط لبنائه من أجلها. منزل ريفي قديم الطراز بسقفٍ مجملن ومصاريع وشرفة باڤاريّة على طول نطاق الواجهة وباب ضخمٍ من خشب البلوط، والذي سيدفعه حاملًا إيّاها بين ذراعيه، يعبران العتبة، وذلك حين تبلغ الثامنة عشرة. ارتدت تلك الخيالات أمام لامبالاة آنا. لم تفكّر في الزواج أبدًا من قبل؛ بدت لها الفكرة برمّتها سخيفة. وكلّما استحضر صور الأحلام هذه، كانت تحدّق في الأرضيّة التي تعجُّ بالمعدّات وقطعِ الآلات؛ فلا شكّ أنَّ الصداقة كانت تتطلّب هذا النوع من التضحية بين الحين والآخر.

في موسم حصاد الجاودار، لم يكن ثمّة متسع من الوقت لمثل هذه الاستراحات. حشر صبيّ صغير من القرية رسالةً في يدها: «هذا المساء عند الثامنة والنصف خلف كنيسة السيدة بجوار الجسر». كان الغسق قد حلّ حينذاك، والجو يعبق برائحة مُسكرةٍ من التبن الرطب. لم تتعرّف عليه في البداية. عبر الجسر وقد ارتدى زيًّا بنيًّا ضيّقًا إلى حدٍّ ما، مع تسريحة الشعر المفروق. اعتلت ملامحَ وجههِ تعابيرُ رسميّة غير معهودة. أمسك بها من معصمها.

- «سيُبنى منزلُك يا آنا! أنجز مهندسٌ معماريّ من بادربورن تصميمه. إنّه بانتظارك، عليكِ الموافقة على المخطّط».

رمقته بنظرةٍ بليدةٍ. فجأة لم تعد تعرف ما الذي جاءت تبحث عنه عند كنيسة السيدة مع هذا الغريب الذي يضايقُها بشأن منزلٍ كان يجب أن يظلّ خيالًا، لا أن يُرسَم على الورق، ويُبنى حجرًا حجرًا على هذه

الأرض الرمليّة التي لا تمتُّ إليها بصلةٍ. مدفوعًا بحماسته، أحاطها بذراعَي العامل العضليّتين المشدودتين، ناشدًا المستحيلَ من كُميّه. سمعت صوت انفتاق خيوط الدروز، ومن فوق كتفِه، لمحت إحدى الجارات مارّةً مع عنزةٍ صغيرةٍ تشدُّها بحبل. شاعرةً بالعار، أخفت وجهها في صدره؛ خالَ أنّها فعلت ذلك بسبب تفجُّر العاطفة، فزاد من ضغط ذراعيه. حين أفلتت منه في النهاية، هرعت عبر الجسر نحو المزرعة، وتعثّرت بقدميها كما لو أنّها قد نجت بشقّ الأنفسِ من خطرٍ بالغٍ.

لم تتوانَ الجارة عن أداء واجبها الوطنيّ، ففي اليوم التالي، نقلت خبر غراميّات آنا إلى العمّة مارتا التي أدركت على الفور أنَّ هذا ما كانت تنتظرُه طوال الوقت. مخفيةً انتصارَها خلف استعراضٍ نموذجيّ للسُّخط الأخلاقيّ، كشفت تقرير اللقاء لزوجها، وزيّنته بتفاصيل صادمة أصابته في الصميم. آنا، التي لم تدرِ شيئًا بعد، كانت تجلب الماء للخنازير. وحين استدارت، وجدت العمّ هاينريش واقفًا عند العتبة. بالرغم من أنّه لم يكن ضخم الجثّة، بدا شاغلًا المدخلَ بأكمله. لماذا كانت تنبعثُ منه شرارات التهديد؟ اقترب منها، طافحًا بالغيظ المكتوم، حتى صار بينهما مسافة متر واحد. شعرت فجأةً بأنَّ ثمّة سوء فهمٍ لا تعرُفه انفجر متقيّحًا بينهما، وكان لا بُدَّ من علاجِه بأسرع ما يمكن.

– «ماذا كان سيقولُ أبوكِ؟»، بدأ بصوتِه المروّع، «لو أمسكَ بكِ مع زير الفتيات ذلك، ذلك المحرِّض؟ ماذا؟ هل كنت ستجرئين على ذلك في حياته؟».

تجمّدت آنا، تراءت لها سلسلة السبب والنتيجة بأكملها في ثانيةٍ واحدةٍ.

- «هل كنت ستجرئين؟ آه؟»، كرّر كلماتِه، معزِّزًا قوّة سؤالِه بصفعةٍ على وجهها.

حين رفعت يدها إلى خدِّها غير مصدِّقة، عاجلها بصفعةٍ على الخدّ الآخر. استدارت بعيدًا وانحنت محاولة الفرار من قبضته؛ وقد أثارت ردّةُ فعلها هذه، بمحاولة التملُّص، جنونه. أعمل ضربًا بها أينما وقعت يداه. وحين سقطت على الأرض الزّلقة، سحبها من شعرها ولكمها على بطنها. كان الغضب الذي أفرغه عليها أكبر منه، وأكبر من السبب نفسه. كان ينطوي على كلّ استيائه من هذا العالم الذي وقف أمامه عاجزًا، وكذلك على كلّ القرابة الروحية التي جمعته بآنا، وتضامنهما معًا؛ ربَّما حتى على ضعفه أمام الشابة التي كانتها آنا، من دون أن يكون لديها فكرة عن ذلك. لم تعرف آنا شيئًا عن أيٍّ من هذه الدوافع الغامضة، المظلمة، فهي لم تشهد غير الصفعات واللكمات، والصرخات التي أطلقها، كما لو أنّه، بضربه الشديد لها، عانى العقاب أكثر منها. في لحظة، رأت على نحوٍ خاطفٍ جانب الحظيرة، ثم الجانب الآخر، وخطوم الخنازير تتحرك مثل شهودٍ صامتين مذهولين. فقدت كلَّ إحساسٍ بالوقت، إلى أن رأت، من تحت ذراعها المرفوعة لحماية رأسها، العمّة مارتا واقفة عند العتبة للتمتُّع بالإجراء العقابي. أدّى ظهورها إلى إخماد غضب العمّ هاينريش. تسمّر فجأةً، رامقًا آنا بنظرة ذاهلةٍ وعينين مطفأتين. لم يتكرّم بإلقاء نظرة على زوجته، دفعها جانبًا، واختفى في الخارج.

نهضت آنا بجهدٍ بالغٍ؛ سرى ألمٌ حارقٌ في جسدها كلّه. كانت العمّة مارتا أشبه بفقاعة سوداء مبتهجة في تباينٍ مع ضوء النهار من حولها.

- «بماذا سيفكّر الجيران؟»، دمدمت. «لقد افتعلتِ جحيمًا من الضجّة».

- «أيّة ضجة؟»، تنهّدت آنا.

مَن الذي صرخ مع كلّ ضربة؟ ليست هي، فقد أغلقت شفتيها بإحكام حينها. كان لا بُدّ من الحفاظ على الانضباط، ولو في خضمّ الفوضى. مستجمعة آخر رمقٍ من قوّتها، جرّت نفسها نحو عمّتها، ومدّت أظافرها المكسورة قاصدةً جلد الذراعين الطريتين العاريتين. المرأة التي بدت في غاية القوة والضخامة، صالبت يديها بقلقٍ أمام صدرها؛ غارت عيناها العميقتان فوق وجنتيها العريضتين في محجريهما أكثر فأكثر. فرّت خارج الحظيرة؛ تعثّرت آنا وهي تتبعها، وسقطت على العشب مباعدةً ذراعيها.

لا مزيد من صليل الأسلحة، بل صمت مطبق فحسب. وضع العمّ هاينريش الطعام والشراب على الأرض بجانب سريرها شاعرًا بالذنب؛ وكما لو أنّها حيوان بريّ، لم تكن تمسّ الأطباق إلّا بعد ذهابه. في الأيّام الأولى، استلقت على بطنها لأنَّ ألم ظهرها كان الأسوأ، ثمّ تخلّت عن المشهد البانوراميّ الرتيب للعروق والعُقد الخشبيّة في الأرضيّة واستبدلت به مشهدَ الجدار، فاستدارت على جانبها لأنَّ الآلام الواخزة والتشنّجات في بطنها طغت على أشكال الأوجاع الأخرى. تفاقمت شدّة الألم بدلًا من أن تتضاءل. مفارقة لا تُحتمل؛ لم تستطع تحمل الأمر

أكثر، لكنّها قاومت. مع كلّ موجة من الألم، كانت تغرقُ في تأوّهٍ ضعيفٍ يتسلّل نازلًا عبر مدخنة الموقد إلى المطبخ مع لحم الخنزير والنقانق. أخيرًا، صعد العمّ هاينريش متعثرًا إلى الطابق العلويّ كي يسألها عمّا يمكنه أن يضع حدًّا لهذا الأنين. بصوتٍ أجشّ، اشتكت آنا من وخزٍ في بطنها. وقد أثار الأمر ذعره، فالأعضاء التناسليّة مقدّسة: «أثمروا واكثروا واملؤوا الأرض»[1]. وما عُدّ غير ضروريّ وقتَ سعالها قاموا به الآن: حدّدوا موعدًا مع الطبيب. كان عليها أن تعد عمّتها بالتزام الصمت بشأن الإصابات والكدمات. عمليّات تعذيبٍ جديدة أُعلن عنها. يشترط القانون حضور امرأةٍ بالغةٍ كمرافقةٍ أثناء إجراء الفحص النسائيّ. مستلقية على ظهرها المصاب بالكدمات، تحت عيني العمّة مارتا المحملقتين، كعيني نسر، شعرت آنا بإصبعه المطاطيّ يخترق منطقة لم تكن تعرف بوجودها حتّى تلك اللحظة. ألمٌ ثاقبٌ شقّها نصفَين.

- «إنّه مزعج بعض الشيء»، قال فاعل الخير.

مزعج! هل سبق أن شعر بألمٍ يشقّه نصفين؟ سالت دموع بلهاء على خدّيها رغمًا عنها، وهو نصرٌ لم تشأ أن تمنحه لعمّتها.

- «هيّا، هيّا»، قال الطبيب، «لن نصنع مأساةً من الأمر. رحمك مقلوب، وأحاول إعادته إلى مكانه».

سكن الألم. صارت العمّة مارتا أكثر تسلطًا من أيّ وقتٍ مضى، كما لو أنّ ما حدث كان بمثابة طقسٍ استهلاليّ منحها، من الآن فصاعدًا، سلطةً جديدةً على آنا. أثناء القدّاس، خلف ظهر عمّتها المتيبّس المنتصب،

(١) سفر التكوين ٩:١.

دسّت في يد صديقة قديمة من المدرسة، رسالةً مجعّدة لياكوبسماير تحتوي نداءً بسيطًا، لكنّه طارئ: «ساعدني! آنا». أثناء الترانيم الغريغورية[1]، وقع نظرها لا إراديًا على النّقش البارز الذي يصوّر جَلْد يسوع. حبست أنفاسها. وسرعان ما وجّهت نظرها إلى السقف المقبّب المزيّن بالنباتات المتسلّقة، حيث تلتقي أصوات الغناء بأصداء الصلوات. وصلت الرسالة إلى القسّ بسرعة مذهلة؛ ناداها أثناء مغادرتها الكنيسة. شمّرت أكمام فستان يوم الأحد الذي ترتديه، وقالت:

- «ظهري مثل ذراعي أيضًا».

مع أن ياكوبسماير، بسبب مهنته، قد ألِف العنفَ من خلال الكتاب المقدّس، والفكرة المسيحيّة التي تقول إنَّ المعاناة أقصر الطرق إلى الربّ، إلّا أنّ مواجهة ذلك في الواقع قد أزعجته تمامًا. رفع نظّارته عن أنفه، ثمّ أعادها، ثمّ رفعها من جديد قبل أن يضع يده المرتعشة على رأسها.

(١) الترنيم الغريغوري: شكل من أشكال الأغاني المقدسة أحادية الصوت، غير مصحوبة بآلات موسيقية، باللغة اللاتينية (وأحيانًا اليونانية) للكنيسة الكاثوليكية الرومانية. (المترجم)

٦

- «لا... لستُ نادمة على شيء».

- «ها!»، هتفت آنا.

جفل العجوزُ الجالس عند البار والذي كان مستغرقًا في حلمه، ورمشت عيناه الدامعتان: كان ثمّة بركة صغيرة من الثلج الذائب تحت كرسيّه.

- «ها! لستُ نادمة على شيء... لم تندم ملكة الحبّ قطّ. وحين كانت على مرمى خطوة من القبر، اتخذت عشيقًا شابًّا؛ وريثها الموسيقي، عندليبها الذي تبيّن أنّه غُراب...»، ضحكت ساخرةً. «دوريٌّ صغير. أُخذ من المزراب... كنتُ أيضًا عصفورة دوريّ صغيرة في المزراب؛ أمّا الآن، فامرأةٌ عجوز تعذبّها الذكريات. عجوز ستشرب نخبًا آخر»، وقد أشارت بأصابعها نحو طاولة المشروبات.

- «نعم»، قالت لوته بهدوء، في محاولة لاحتواء انفعالات آنا، «كلّما تقدّمتِ في السنّ، غرقتِ أكثر في حياةِ الماضي. ونسيتِ الأشياء التي حدثت بالأمس».

رفعت آنا حاجبيها بعد هذه العبارة المبتذلة. لكنّها كانت، بالنسبة إلى لوته، الافتتاحيّة الأنجح والأكثر عمليّةً للنّوح على الشيخوخة، وحيلة لإبقاء مركب النقاش في مياهٍ آمنةٍ. وضعت المضيفة أقداحًا ممتلئة أمامهما وهي تبتسم. ربّما كانت على الجانب المخطئ في الحرب، مثل كثيرٍ من البلجيكيين؟ كان صعبًا عليها تخيُّل آنا، هذه المرأة الجالسة مقابلها، ذات الذكاء الحادّ، والجسم المتين، كفتاةٍ مريضة في السّادسة عشرة من عمرها، تقاسي أهوال سوء المعاملة، وترتدي فستان يوم الأحد، وقد كتمت زوجةُ عمِّها على نَفَسِها، تلك المرأة التي خصّت نفسها بفيضٍ من الصفات السيّئة كما لو أنّها شخصيّة كاريكتوريّة. هل وقعت آنا في المبالغة؟ ألم يشوّشُ الزمنُ ذكرياتها؟ شعرت على الفورِ بخجلٍ من تشكُّكها المستمرّ. برابرة، كانت أمُّها تقول. لقد فهمت الآن لماذا قالت ذلك. كان كلُّ شيء في أقصى تطرُّفه. عدّت لوته أنَّ الخبثَ، المنطوي على العنف، مرضًا ينبغي تطويقه والابتعاد عنه. وفي ضوء ذلك، شخّصت حالة العمّة مارتا على أنها اختلال عقليّ بلغ حدًّا خطيرًا؛ ولا عجبَ أنَّ الجنون قد تمكّن من العمّ هاينريش شيئًا فشيئًا بسببها.

- «عمّتك هذه كانت مريضة».

ابتلعت رشفةً كبيرةً. ضحكت آنا ضحكةً جافّةً.

- «ليس بالضّرورة. كانت مجرّد امرأةٍ لا تصلح لأيّ شيءٍ. ثمّة أناسٌ من هذه الشّاكلة. أشرارٌ وفقًا للأخلاق المسيحيّة، ومرضى وفقًا للطبّ النفسيّ. ما الفرق حين تكونين أنت ضحيّة ذلك؟ دعينا نتحدّث عن أشياء أكثر بهجة. أشياء عنك».

لم يخفَ التلميح على لوته: فبالمقارنة مع آنا، كانت طفولتها، بنظر آنا، نموذجًا لراحة البال. ومن بين الاثنتين، كانت آنا هي الجديرة بالتفهم. على الرغم من أنّها ظاهريًا تحدّثت عن الماضي، بحياد، وبسخريةٍ، إلّا أنّها في الواقع كانت بطُرق خفيّة، تستدرُّ التّعاطف. التعاطف الذي لطالما حُرمت منه، صار الآنَ مُتوقّعًا -لا بل مطلوبًا- من أختها. لكنّ هذا الدّور لم يَرُق لها.

- «عن غنائك»، قالت آنا مُلاطِفةً، «عن صوتِك الجميل».

- «ربّاه ما هذ الحرّ!»، قالت لوته.

نهضت لتخلع سترتها وهي في وضعيّة غير متوازنة. مرتبكةً تتحسّس كُمَّيها؛ لقد اضطربت قدراتها التنسيقية بفعل شراب التفّاح. كان أمامها خياران: أن تمنح آنا ما تطلبه أو أن تلتزم الصمت. بدا لها الخيار الثاني شاقًّا؛ إنها تستمتع بالحديث عن الموضوع. من ظلَّ يهتمّ لأمرها؟ ليس أولادها. وإذا استمرّت في التكتُّم عليه، ضاع ذلك كلّه، كأنّه لم يحدث أبدًا.

*

تغلَّب الغناءُ على تلعثمها تدريجيًّا: فاقتْ لذّة الغناء القلق الذي يسبُقُ النطق بالحرف الأوّل. نما جسمُها، ونما صوتُها معه؛ لطالما كان صوتها أكبر من سنِّها في الحقيقة. وحين قُبلت في جوقة شهيرة للفتيات، لم يكن منها، سوى صوتها، في مكانه المناسب. كانت كاتارينا ميتز قائدة الجوقة، امرأة داكنة وكئيبة بشاربٍ ناعم، تحلقه أحيانًا، وتتركه في أغلب الأحيان بدافعٍ من عدمِ الاكتراث؛ كانت الأشعار الرقيقة ترتجف مع تهديجها للصوت. ما تزال هناك قصاصات صحفيّة صفراء حول مسيرتها

الغنائيّة، التي انتهت على نحوٍ مفاجئ مع مرضِ والدِها. لم تسنح لهم الفرصة لرؤية المريض الغامض؛ عاش وجودَه المجرّد في جناحٍ من المنزل، تكسوه عرائش الكرمة، ولم يلمّح إلى وجوده إلّا من خلال الهالات المظلمة حول عيني ابنتهِ. ففي بعض الأحيان، كانت توقف التدريبات، بإصبع مرفوعٍ، للاستماع بتركيزٍ إلى شيءٍ لم يكن مسموعًا للطالبات. أخذت بيدهنّ، من خلال ملحنين فرنسيّين وإيطاليّين غير مألوفين، نحو عوالم الكلاسيكيّات العظيمة.

كلّما غنّت الجوقة في الإذاعة، كانت والدةُ لوته تحثُّ الجميع على البقاء متحلِّقين حول الكريستلفون، على هيئة مُدرَّجٍ مُرتجلٍ من كراسي المطبخ. ذات صباحٍ من صباحات يوم الأحد، علا صوتُ لوته في غرفةِ المعيشة على نحوٍ مفاجئ، منفصلًا عن الجوقة، في مقطوعةٍ غنائيّة لباخ. عادت إلى المنزل قلقةً بشأن نتيجة أدائها؛ فلم يكن بوسعها أن تسمع صوتها في الإستوديو. كان ثمّة حفلٌ جارٍ: الكحولُ يدور على المائدة. عانقتْها أمُّها، متأثرةً، وقدّمت لها باقةً من الزهور التي دغدغت منخريها. أصابتها نوبة عطاس.

- «اهتمّي بصوتك!»، صاحت مايز، التي أحبّت أن تكون محطّ الاهتمام، هازئة.

أخذ والدُها يبحثُ بحماسةٍ عن تلك المقطوعة على وجه الخصوص؛ هذه كانت طريقته في التعبير عن احتفائه. ارتمت لوته على الكرسيّ، في حيرةٍ من أمرها، وتناولت، غارقة في التفكير، كأسًا طافحةً من الأدفوكات[1]

---

(١) الأدفوكات: مشروب كحولي هولندي تقليديّ، يُعدّ من البيض والسكر والبراندي، له قوام كريميّ. (المترجم)

أحضرتها لها ماريا مع ابتسامةِ احترامٍ. لقد منحها حصد النّجاح من شيءٍ تحبُّه بكلِّ جوارحها شعورًا لذيذًا بالمتعة؛ بيد أنَّ المكافأة كانت في الغناء نفسه. بعد يومين، تلقّت رسالةً معطّرة تقول: «نغمة صوتِك فريدة من نوعها، إنّها هِبَة نادرة. سأظلّ أتذكّر صوتك بعد عشرين عامًا، وهذا أمرٌ يدفع الآخرون الكثير من أجله». عرفت كاتارينا ميتز أنَّ المرسل ناقد موسيقيّ معروف بآرائه اللاذعة. محمّرة خجلًا، خبّأت لوته الرسالة في الحقيبة التي جاءت بها من ألمانيا. إلى جانب فستان حدادها ومنديل آنا المطّرز الذي كان في أحد الجيوب، احتفظت هنا بعلبة الخياطة التي غرقت معها وقصاصة صحفيّة عن أميليتا غالي-كورتشي[1]. فيما بعد، ستنتقل الرّسالة إلى درج في طاولة الزينة الخاصّة بها، حيث بقي أريجُ البنفسج يفوح بعد ستين عامًا.

سمعت لأوّل مرة بأميليتا غالي-كورتشي من خلال أداء ثنائيّ مع كاروسو. كان الجوّ حارًّا، ذات أصيل من سبتمبر، وهي في طريق عودتها من المدرسة عبر الغابة برفقة جيت. أخذ خزّان المياه يتلألأ بين الأشجار حين توقّفت فجأة. مثل قوّةٍ من قوى الطبيعة، انبعث صوتٌ من نافذةٍ مفتوحةٍ، ساحرٌ لدرجة أنّ لوته غرقت في إنصاتٍ تامٍّ؛ كأنّها أذنٌ عملاقة لا تتحرّك. شدّتها جيت، بنفاد صبر، من كمِّها وسارت، تهزُّ كتفيها. أرادت لوته أن تؤخِّر، قدر إمكانها، اللحظةَ التافهة للعودة إلى المنزل، واكتشاف أنَّ هذا الصوت صادر من أخدودٍ منقوشٍ في قرصٍ

---

(١) أميليتا غالي-كورتشي (١٨٨٢-١٩٦٣): إيطالية من أشهر مغنيات الأوبرا في القرن العشرين، برعت بالكولوراتورا، وهو اسم لنوع من أصوات النساء حادة الطبقة (سوبرانو)، يتميز بالخفة والقدرة على أداء الزخارف الغنائية السريعة الملوّنة. (المترجم)

من الإبونيت[1]. لذا، وقفت في مكانها، بعينين مغمضتين، حتى تلاشت آخر الأصوات بين جذوعِ الأشجار.

كانت غالي-كورتشي ملكة غناء الكولوراتورا، المتزوّجة من ماركيز ينحدرُ من كعبِ الحذاء الذي ترسمُه خريطة إيطاليا، قد سجّلت نجاحاتٍ مدويّة في الولايات المتحدة مباشرةً بعد الحرب العالميّة الأولى بوصفها «صوتَ السوبرانو الغنائيّ الذي لا مثيل لجماله، النقيّ الصّافي كما الألماس من درجة لا المنخفضة وحتى دو العُليا»، كما جاء في مجلّة «عالم الأوبرا» آنذاك. في القصاصة التي احتفظت بها لوته، كان ثمّة صورة لامرأة جليلة ذات شعر داكن ترمق الكاميرا بنظرة تحدٍّ وذقنٍ شامخٍ؛ على رأسها قُبّعةَ رامبرانتيّة مائلة، يلفُّ كتفيها شالٌ عليه زخارف كبيرة لزهور وعصافير، وخاتمان مبهرجان في يدها اليمنى التي استقرّت على صدرها، أعلى القلب تمامًا، في إيماءة قتاليّة. وضعيّة نابليونيّة. متأثّرة بكلِّ ذلك، تسلّلت لوته إلى برج المياه، متجاهلةً الحظرَ الصارم؛ فالشعر الطويل أو الشرائط يمكن أن تعلق في إحدى الآلات. اتخذت وضعيّتها، الذقن مرفوع، اليد على الصدر، ووجّهت أنظارها إلى الأعلى، وأحدثت تغييرًا في المشهد: فالسّلالم المعدنيّة ما عادت تفضي إلى خزّانٍ مليء بالرّمل والحصى والفحم، بل تلولبت حول محورها صاعدةً إلى اللانهاية، إلى سماء مرصّعة بالنّجوم؛ قد تكون أيضًا أضواء مسرح. حتّى اللحظة، لم يعرقلها النقد الذاتيّ المفرط، فأخذت تغنّي مقطوعة «كارو نومي» أو «ڤيرانو آتي» في نسخةٍ إيطاليّة تخصُّها، بما استطاعت تعلمُّه من التسجيلات

---

(١) الإبنويت: مطاط صلد مقسى بالكبريت، صُنع كبديل عن خشب الأبنوس الطبيعي. (المترجم)

التي تسمعها. ملأ صوتها البرجَ المائيّ بأسره، من لا المنخفضة وحتّى دو العليا، صاعدًا السّلالم إلى حيث تلاشتِ الدرجات شيئًا فشيئًا، في دوّامةٍ لا نهايةَ لها تشبه دوّامات إيشر[1]. توسّع صدرُها. ثملة من اللحن ومن رنين صوتها، انجرفت بعيدًا نحو مرحلةٍ أخرى في حياتها؛ فوقها قوس الخزّان، وزجاج النافذة المعشّق يشطرُ الضوء إلى قطع ملوّنةٍ، وفي مكانٍ خلفها، تردّد الصوتُ عبر الممرّات الرّخامية لمبنى كالمتاهة. شعور عصيٌّ على الوصف، إلّا أنّه تغلغل إلى جزء فقط من وعيها، فقد اختفى في غياهب النسيانِ على الفورِ، حالما توقّفت عن الغناء.

لكي تتمكّن من مرافقة غنائها بالعزف، اشتروا بيانو مصنوعًا من خشب الجوز، يعود لعلامةٍ تجاريّة غامضة في أوروبا الشرقيّة. المال اللازم لشرائه ولتغطية نفقات الدروس، جمعته الأمّ، قرشًا وراء قرش، مانحةً بذلك فرحة رهيبة للأب: فقد صار دوره الآن لافتعال خلافٍ حول النفقات الطائشة. لقد انغمس، بسرور، في عبادةِ مشاهير مثل ماركس وستالين وبيتهوفن وكاروسو، لكنّه لم يستطع أن يتخيّل أنّ شيئًا استثنائيًّا، يتطلّب تقديم التضحيات، يمكن أن يترعرع بالقربِ منه، في محيطه، حيث تستمر تفاهات الحياة اليومية في تعكير مزاجه على نحوٍ متزايدٍ.

تطلّب وجود البيانو تردُّدَ المدوزِن على المنزل كلّ ثلاثة أشهر. كان طويل القامة ونحيلًا، له أنف غجريّ، كمنقار الطير الجارح. شعره

---

(١) موريس كورنيليس إيشر (١٨٩٨-١٩٧٢): رسام هولندي عرف بلوحاته المستوحاة من المفارقات الرياضيّة، وهنا إشارة إلى لوحته «النسبيّة» التي تمثل سلسلة من السلالم المتقاطعة في تصميم يشبه المتاهة. (المترجم)

الأسود المجعّد حليق على الجانبين، لكنّه متكوّم في الأعلى بحيث يبدو من بعيد كقبّعة على رأسه. كان يرتدي دائمًا البدلة السّوداء الضيقة نفسها التي أثارت كلّ ضروب التكهُّنات. أهي بدلة زفافٍ تعود لما قبل الحرب، أم معطف لمتعهّد دفن الموتى، أم سترةٌ مقطوعةُ الذيل، أم زيّ مسرحي مصمّم لدور الشيطان أو الموت؟ تحت سرواله الضيّق، انتعل حذاءً أمريكيًّا عصريًّا اعتنى به لدرجة كبيرة. كان رجلًا يعجُّ بالتناقضات. عوّض ضعفَ جسدِه الحجمُ الواضحُ لأعضائه التناسليّة التي كان، لشُحِّ المساحة، يفسح لها المجال للتنفّس في ساق سرواله الأيمن تارةً، والأيسر تارةً أخرى. النّغمة الهامسة لصوته الخجول أطاحت بها موسيقى الصعاليك التي عزفها على البيانو. هرعت الأخوات إلى المطبخ، يجمعهنَّ الاشمئزاز من شيئه، لكنهن تعجّبن من قدرته على إبقاء التعبير المحايد على وجهه بالرغم من كلّ ما يجري بوضوحٍ أسفلَ حزامه. طُلب إليهنّ تقديم القهوة له، لكنّ واحدةً منهنّ لم تجرؤ. تشبّثن ببعضهن البعض مقهقهاتٍ. في النّهاية، أدخلت لوته القهوة؛ فقد كان مُدوزِنُها. تناولَ الفنجان منها بابتسامةٍ، غير واعٍ بالذُّعر الذي كان يسبّبه بجسده المثير للجدل. وعقب زيارته، كان يُغسَل الفنجان بكميّة إضافيّة من الصابون.

كما كان مُصوِّرًا هاويًا يلبّي الحاجة. أقنعته والدةُ لوته بأن يلتقط لهم صورةً عائليّة بمناسبة ولادة إيفجي. دعتْه إلى المنزل بعد ظهرِ أحدٍ من آحاد شهر مايو؛ فوق مقعد الحديقة الأبيض الذي اختير عنصرًا مركزيًّا في الصّورة، كان عشّ السنونو متوضّعًا تحت جملون السّقف، وزوجُ الطيورِ يذرع المكان ذهابًا وإيابًا بلا كلل. ساد نشاطٌ متوتّر قبيل وصول

المصوّر؛ فحتّى اللحظة الأخيرة، كانت الفساتين ما تزال تخضع للتعديل والتسوية. رفض والدُ لوته أن يرتدي بدلةً أخرى. لم يكن لديه نيّة للظهور في الصّورة، كما قال؛ فوحدهما القيصر وزوجته قد خُلِّدا كأسرة.

- «ماذا عليّ أن أفعل مع هذا الرجل؟»، أضاف بازدراء.

- «ليس عليك القيام بأي شيء مع الرجل، لقد أتى لالتقاط الصّور لنا، سأقدّم له فنجانًا من القهوةِ باحتفاء وستعرِضُ عليه سيجارًا».

لكنّ مزاجه كان ميّالًا نحو التخريب، والاستمتاع بالسّلطة التي منحتْه إيّاها المناسبة.

لم يُعثر على أثرٍ له حين وصل المصوّر جارًّا معه كاميرا تلسكوبيّة ثقيلة مع حاملها. قادته والدةُ لوته نحو الحديقة، وقد بدت لا تقاوَم بثوبها ذي أزهار الخشخاش فوق الخلفيّة قشديّة اللون تقاطر نسلها إلى الخارج بينما كان يثبّت معدّاته ويتّخذ موضع وقوفه في المكان الذي أشارت إليه، أمام مقعد الحديقة مباشرة. ارتدت مايز، التي كانت تعمل في متجرٍ للقبّعات النسائية، ثوبًا بلون الكونياك وعلى رأسها عُشّ طائرٍ مقلوبٍ من أليافِ نخل الرافيا. أرادت ماريا أن تثبت للأجيال القادمة أنّها البطّة القبيحة في العائلة؛ فارتدت فستانًا رماديًّا بياقة عالية ورفضت خلع النّظارات من أجل الصورة. سارت جيت ولوته بتُؤَدَة، مثل ملائكةٍ هابطةٍ على الأرض، ترتدي كلٌّ منهما فستانًا أبيض من قماش الأورجانزا بكشاكش وثنايا. أمّا كون، الذي كان رضيعًا حين سقطت لوته تحت الجليد، رفض ارتداء السروال الطويل لإخفاء جروح ركبتيه.

بناءً على طلب المصوّر، جلست الوالدة في منتصف المقعد، حاملةً المولودة الجديدة بين ذراعيها، وعلى جانبيها فستانا الأورجانزا مراعاةً للتنسيق. وقف البقيّة في الخلف، تخز ظهورَهم وردةٌ متسلّقة.

- «رائعة..»، تمتم وهو يتأمّل اللوحةَ النابضة بالحياةِ من خلال عدستِه، «أوه.. ألن يأتي سيدي؟».

قالت والدة لوته:

- «السيّد في مزاجٍ سيئ، لذا لا نريده في الصّورة».

- «هلّا ابتسمنا ابتسامةً صغيرة؟».

بذلن قصارى الجهد لتناسي المفسد الأكبر، مفتعل المشكلات، وحدّقن مباشرةً في الكاميرا؛ زقزقت فِراخ السنونو، وهبّت نسمةٌ خفيفة حاملة معها عبير الليلك، انحنى المصوِّر خلف صندوقه السحريّ؛ كان ممكنًا قبول الوضع برمّته لولا تلك الثغرة الماثلة هناك، في المنتصف، خلف المقعد، الشخص المفقود الذي كان يجدر به أن يضع يديه على كتفي الأمّ. ناشدهم المصوِّرُ أن يضحكوا. بعد محاولاتٍ قسريّة، ابتسمت مايز فقط، ابتسامة جذّابة، مثل نجمةٍ سينمائيّة، رامقةً العدسة بتعبيرٍ يضجُّ بالأحاسيس؛ فيما أخذ كون يحكُّ قشور الجروح على ركبتيه.

في تلك اللحظة، انبعثت سمفونية بيتهوڤن التاسعة عبر النافذة المفتوحة، مدويّةً ومهيبة. رُفع مستوى الصّوت لأقصى حدٍّ يمكن لمكبّرات الصوت أن تصل إليه. ضغط المصوِّر صُدغيه بكلتا يديه وأغمض عينيه على نحوٍ يثير الشفقة. مشيرًا إلى أنّه لا يستطيع التركيز بهذا الوضع. للمرّة الأولى، جرّبت لوت إحساسًا ثاقبًا، سامًّا حُلوًا، لم يكن بوسعها حتى

ذلك الحين تعريفه على أنّه كراهية. نظرت فوق رأس المصوّر، حيث ذُرى أشجار الصنوبر تميس برفقٍ مع النّسيم وتمنّت بشدّة لو أنَّ أفكارها تحظى بقوّة القتل.

- «ابتسام!»، صاحت الأمّ، وهي تنكزهم وتقرصهم، «هيّا يا أولاد!».

افترّت ابتسامتُها المشرقة كاشفةً عن كلّ أسنانها؛ ألم تكن ترغبُ في تمزيقه إرْبًا؟ انضمّت عيناها إليها أيضًا، وقد غمرتها السّعادة.

- «لدينا طفل آخر»، هتفت أثناء مقطع الاسكرتزو[1]، «طفل كبير وعنيد، في الداخل».

أومأت برأسها نحو النافذة، ضاحكةً بسخرية. مرّت سحابة أمام الشمس، رفع المصوّر ذراعه السّوداء الطويلة إلى السماء وطردها بعيدًا. حبس أنفاسه وضغط الزرّ مغلقًا مصراع الكاميرا.

لم ينسحب والدُ لوته من الأحداث على الداوم. فقد أبدى مقاومةً شرسة حين أُرسلت إلى مدرسة مسيحيّة لأنَّ المدارس الحكوميّة توقّفت عن استقبال المزيد من التلاميذ. نظر إلى زوجته باشمئزازٍ تامٍّ كما لو أنّها قد سجّلت لوته في معهدٍ للمعاقين ذهنيًّا.

- «سترى أنَّ كل ما له علاقة بالدين سيدخل من إحدى أذنيها ليخرج من الأخرى»، قالت باقتضاب.

---

(١) الاسكرتزو: حركة نشيطة حيوية، ذات ميزان ثلاثي. ظهرت بديلاً لحركة المينويت داخل المؤلفات الآلية رباعية الحركات؛ كالسمفونية والسوناتا وغيرها. وهنا إشارة إلى سمفونية بيتهوفن التاسعة التي تضمّ اسكرتزو في حركتها الثانية. (المترجم)

وقد ثبت أنّها على صواب، لكن بغير الطريقة التي قصدتْها.

كان للكتابِ المقدّس جاذبيّة الأشياء المحرّمة. تمامًا كما تتسلّل بعض الفتيات إلى السينما، بشفاهٍ مطليّة بالحمرة، من أجل مشاهدة فيلم للبالغين يُلهِثُ الأنفاس، وجدت لوته متعتها السرّيّة في الكتاب المقدّس، الذي كان كذلك موسومًا، قَطعًا، بشعار «+١٨»، بكلّ ما يُقدّم من موتٍ وقتلٍ، وزنا وفسوقٍ، بين يدي القارئ البريء. كم كان الكتاب الذي يقرؤه أبوها، بالمقارنة، باهتًا يخلو من الإثارة! درست باجتهادٍ قصص الدماء والمعجزات. اصطدمت محاولات تبادل الأفكار مع زملائها في الصفّ بحائطٍ من اللامبالاة. لم يكن لديهم رأيٌ بالأمر؛ لقد نشؤوا على تعاطي الدّين بطريقةٍ تشبه تناولَ المرء جرعته اليوميّة من زيت كبد الحوت. الأمر سيّان مع ابنة الوزير، التي تشاركت معها المقعد، فلم يكن الكتاب المقدّس موضوعًا للتأمُّل، بل كان واجبًا، فرضًا رتيبًا لأيّام الآحاد التي مثلّت حبسًا أسبوعيًّا في صفوف التثبيت الدينيّ الكئيبة بجانب الكنيسة. لقد صدمها قبولهم الأعمى، غير المكترث، بهذا الخليط من القصص التي قُدِّمت على أنّها «ما حدث فعلًا». فمع درجاتها المتفوّقة في مادة تاريخ الكتاب المقدّس، كانت الوحيدة التي أخذت الدين على محمل الجدّ!

تجسّس مدير المدرسة، وهو رجلٌ ذو وجهٍ تحسبه محفورًا في كتلةٍ من الجليد بقلمٍ حادٍّ كالسكين، من نافذةٍ صغيرةٍ في الباب بينما كان التلاميذ يختمون دروسهم بأداء الصلاة، ولاحظ أنَّ تلميذةً من الجمعِ كانت تحدِّق عبر النافذة منتظرةً باستسلامٍ انتهاء الطقس الجاري. أسرع داخلًا إلى الصفّ، وقال لمعلّم الدين، بشفتين مزمومتين: «عليها البقاء

هنا». أشار بإصبعه النحيل نحوها. إشارة امتيازٍ أم إدانة هلاكٍ؟ خرج التلاميذ كلّهم.

- «أنتِ لم تصلّي»، أعلن المدير.

- «نعم يا سيّدي».

- «ولماذا؟»

- «أنا لا أصلّي أبدًا يا سيّدي».

- «لا تصلّين أبدًا؟»، تقلّصت شفته العُليا الرفيعة لا إراديًّا.

- «نعم».

- «وماذا عن المنزل؟»

- «لا أحد يصلّي أيضًا».

- «إذًا أنت لا تذهبين إلى الكنيسة؟»

- «نعم، على الإطلاق».

أخذ معلِّمُ الدين يمسّد لحيته الرّسوليّة مندهشًا:

- «ولكن لماذا أتيتِ إلى هذه المدرسة؟»

- «لم أجد مقعدًا شاغرًا في سواها. لذا سجّلتني والدتي فيها. ولم يسألها أحد ما إذا كنتُ مسيحيّة».

بارتياب رمقها المدير عابسًا، كما لو أنها تحجب عنه النقطة الجوهرية للمسألة. كان واضحًا بالنسبة له أنّها مذنبة بشيءٍ ما، لكنّه لم يستطيع تحديده.

- «لكنّك تحرزين أعلى الدرجات في مادة الدّين»، هتف المعلِّم.

- «كلّ تلك الدروس سمعتُها للمرّة الأولى»، قالت لوته، «كنتُ أنصتُ بعنايةٍ تامّة».

- «وما رأيكِ بها؟»، سأل بفضولٍ مفاجئٍ.

- «أفترضُ أنّك أدركتِ أنّها تمثّل الحقائق الراسخة»، عقّب المعلّم على كلامه.

ابتلعت لوته ريقها. ونظرت إليه نظرةً متوتّرة؛ فإن أخبرتْه بالحقيقة التي ظلّت تتّقدُ على رأس لسانها طوال هذه الأشهر، سيطردُها من المدرسة على الفور. «بنات الشيطان!» تردّد صدى الصّوت القادم من بُعدٍ سحيقٍ. «بنات الشيطان!» تراءى لها على نحو ضبابيّ خيالٌ مألوفٌ، راح يحثّها. شيء أسود، شيء يرفرف، نقرٌ حزينٌ بالعصا... إحساس مُشتّت لا أكثر.

- «كلّا»، قالت، وقد تملّكتها الشجاعة فجأة.

- «لماذا؟»، سألها المدير محتدًّا.

نظرت وراء كتفه النّاحل نحو الخارج، حيث تتمايل الأغصان السّوداء اللامعة تحت السماء الرماديّة الداكنة.

- «إنّها غير منطقيّة»، قالت. «وفقًا لقصّة الخلق، فالله كلّيّ القدرة، والله محبّة. إذًا كيف ترك الشيطان طليقًا بين البشر... طالما أنّه يستطيع فعل أيّ شيء؟»

- «هذا هو... سرّ الإيمان»، ردّ معلّمُها متلعثمًا.

يا للابتذال. نقّلت نظرها بينهما، وقد تغلّب عليها الازدراء والشّفقة لسذاجتهما التي لا حدود لها.

- «قصّة آدم وحوّاء اللذين عاشا في الجنة، وأكلا من الفاكهة المحرّمة...»، تنهّدت قائلة، «أراها شبيهة بقصّة بياض الثلج».

نزع المعلّم نظّارته عن أنفه، وأخرج منديلًا من جيب سترته بإبهامه وسبّابته، وأخذ ينظّف العدستين جيّدًا. أمّا المدير، فقد ارتفعت تفّاحةُ آدم البارزة في عنقه وهبطت، وهو يطلق ضحكة جافّة وساخرة.

- «ليس بوسعك إثبات هذه الأشياء»، قال، «ينبغي لك الإيمان بها ببساطة».

حكّت لوته مؤخّر رأسها. شعرت برغبةٍ في الحكّ تعمُّ فروتها، لكنّها تدرك أنّه من غير اللائق، في تلك اللحظة، أن تهرشها بكلّ أظافرها.

- «يؤمن المرء بسانتا كلوز لفترةٍ من الوقت»، تمتمت، «لكنّه يومًا ما يكفُّ عن ذلك».

أوه، إنها تقف الآن فوق جليدٍ متصدِّع، لقد شطّت بعيدًا بالفعل. ليس أمامها إلا أن تمضي قُدمًا، أن تزيح وزنها نحو الأمام باستمرار. نظر المدير إليها كما لو أنّه يريد أن ينتزع لسانها الوثنيّ من جوف فمها.

- «إنّها لا تفهم على الإطلاق»، جاء الصّوت العميق لمعلّم الدين الذي اعتاد أن يضفي على القصص التوراتيّة رونقًا برونزيًّا دافئًا.

ارتدى نظّارته، ونظر نظرة خاطفة إلى المدير الذي أسقط يديه، قابضًا كفّه اليمنى، وسبّابتُها تشير إلى لوته كما لو أنّها فوّهة مسدّس.

- «أنتِ ملزمة بإطاعة قوانين هذه المدرسة. تذكّري ذلك. من الآن فصاعدًا ستصلّين مع الآخرين كالمعتاد».

أدار لها ظهره العالي المحدّب، بكتفيه المتدليتين. رازحًا تحت ثقل ثلاثة قرون من الكالفينية[1]، غادر غرفة الصّف بمشيةٍ لا تخلو من حِدّة، كما لو أنّه فعلَ عين الصّواب بالأمر الذي أصدره.

*

- «و...»، استفهمت آنا، وذراعها تشابكُ ذراع لوته، «هل صلّيتِ معهم بعد ذلك؟»

كانتا قد غادرتا المقهى، الذي انسجم تصميمُه الداخليّ على نحوٍ مثاليّ مع الفترة الزّمنية التي تطاردهما، وأخذتا تمشيان خطوة خطوة في الثلج. حلّ الظلام من جديد. ارتفعت واجهات المباني التي تنتمي للقرن التاسع عشر على كلا الجانبين؛ شرفات وأبراج ومشربيات وكوى مُدوّرة وشبابيك عُليّات. وبالجوار، في واجهة متجرٍ للقرطاسيّة، بين التقاويم والمذكّرات المكتبيّة وأقلام الغمسِ، ثمّة كتاب يشرح فيه الرئيس الروسيّ رؤيته للمستقبل؛ كان كلبٌ يرفع مخالبه بحذرٍ وهو يتحرّك على رقعةٍ من الثلج لم تطأها الأقدام؛ أشجار فندق «آتينيه رويال» ساكنة في أماكنها؛ وأضواء زينة عيد الميلاد ما تزالُ تتلألأ عند بائع الخضراوات.

- «بالطبع لا»، قالت لوته لاهثةً.

أخذ الشارع يمتدُّ صعودًا، وتأثير الكحول كذلك؛ فقد شعرت بالدوار. توقّفتا للاستراحة عند جسر القطار. أضاءت عبر الثلج، من بعيدٍ، إشارة المرور الحمراء، وبرز برجٌ أبيض بوضوحٍ في السماء المظلمة.

---

(١) الكالفينية: مذهب مسيحي بروتستانتي أسّسه جون كالفن، يؤكّد سيادة الرب وسلطة الكتاب المقدّس. (المترجم)

- «انتهز المدير كلّ فرصةٍ لإحباطي. ففي أحد الأيّام»، ضحكتْ، «كنت أرتدي فستانًا بياقة مثلّثة. استوقفني في الممرّ قائلًا: عليك أن تطلبي إلى أمّك أن تُلبسكِ فستانًا آخر. هذا الذي ترتدينه فاضح جدًّا».

صعدت رشفةٌ من شراب التفّاح؛ فابتلعتْها وأخذت تضحك مجدّدًا.

- «ذات مرّة، ذهبت إلى المدرسة على درّاجة والدي. ترجّلت عنها في الباحة، وركنتُها في مصفّ الدرّاجات. حين استدرت، كدتُ أصطدم بالمدير. صرخ: إيّاكِ أن تفعلي ذلك مرّة أخرى، هنا، علنًا وبمرأى الجميع، تترجّلين عن درّاجة للرجال! ألا تخجلين! نظرتُ إليه مذهولةً. ماذا يقصد، سألتُ نفسي، ما الذي يزعجه؟».

تردّدت ضحكاتها الخافتة فوق الثلج الذي بدا كالقطن. حثّتا الخطى. وحين وصلتا عند فندق لوته، دعت آنا نفسَها لتناول العشاء. بعد برهةٍ، كانتا تجلسان متقابلتين تحت سقفٍ ورديٍّ بلون السلمون، بحوافّ بيضاء مزخرفة، تتدلّى منه ثريّات كريستاليّة. على الطاولة المجاورة، جلست امرأة شابّة كان تتلقى علاجًا لإصلاح عيوب ما بعد الولادة في المنتجع الحراريّ. اتفقتا على طلب زجاجة من الماء بدل النبيذ. كانت المقبّلاتُ عبارة عن خضراوات نيئة مع لحم الخنزير الخاصّ بمدينة آردين، إلى جانب شرائح اللحم المقدّدة؛ أزالتا الدهون عن اللحم، وتركتَا الشرائح المقدّدة. طوت المرأة حديثة الولادة يديها، وأغمضت عينيها قبل أن تمسك الشوكة والسكين.

- «ألا ترغبين بـ... بـ...»، همست لوته بضحكةٍ ساخرةٍ ناحيةَ المرأة، «أعني... قبل الأكل...».

- «أنا؟ أصلّي قبل الطعام؟». فرشت آنا منديل المائدة الورديّ في حجرها. «افهميني جيدًا. أنا ما زلتُ مؤمنة، بطريقتي الخاصة، لكنّي تخلّيت عن مؤسسة الكنيسة منذ زمنٍ بعيدٍ. ومع ذلك، لم أنسَ ما فعلتْه الكنيسة من أجلي في ذلك الحين. لا تستخفّي بمدى تشابك الكنيسة والمجتمع آنذاك. لقد كان زمنًا مختلفًا... مختلفًا تمامًا».

*

طلب ياكوبسماير تدخُّل مؤسسة رعاية الأطفال للمساعدة. أرسلوا مندوبة اجتماعيّة إلى المزرعة. استهلّت العمّة مارتا الحديث عن آنا، التي كانت تتنصّت خلف الباب. لقد أَوْت هذه العمّة المسكينة أفعى في منزلها طوال تلك الفترة: فالطفلة لا تفلح في شيء، كانت تحبُّ مصاحبة الرجال الأكبر سنًّا؛ عاهرة على الرغم من صغر سنّها. وما أثار ذهول آنا، أنَّ تلك المندوبة حثّت عمّتها على متابعة الحديث من دون التشكيك بأيِّ شيء في خطابها المسعور. تلاشى أملُها الأخير. لم تأتِ هذه المرأة من أجلها، بل لمساندة العمّة مارتا. وبعد أن استمعت لكلّ الكلام، قالت المرأة بهدوء:

- «أريد الآن أن أتحدّث إلى الطفلة على انفراد».

هرعت آنا نحو المطبخ. جاءت العمّة مارتا لاستدعائها، مسرورةً والابتسامة تعلو وجهها. مسلِّمة بنصيبها، دخلت آنا غرفة المعيشة، فيما

خرجت العمّة مارتا، واثقةً من نفسها. أغلقت المندوبة الاجتماعيّة الباب وراء آنا، ووقفتْ هناك مسندةً ظهرها إليه، ثمّ فتحت ذراعيها وقالت:

- «ثقي بي، سأساعدكِ».

بفعلِ نظراتها، التي أظهرت أنّها أدركت تمامًا حقيقة العمّة مارتا، تبدّدت مخاوف آنا. أحسّت أنّ ثمّة مَن يمدُّ لها حبل النجاة، مَن يفهمُ عليها من دون حاجةٍ للكلمات. رسولٌ من عالَم آخر، موضوعيّ وعقلانيّ وربّما (تردّدتْ) محبّ. في الخارج، شاهدت عمّتها تقطف الكمثرى، أسفل النافذة مباشرةً، في محاولة منها لاختلاس السّمع إلى التقريع المسهب الذي سيُكالُ في وجهِ فرخة الوقواق الخبيثة. استرخت آنا. هل شارفت عبوديّتها على الانتهاء؟ هل ستتحرّر من سلطةِ قاطفة الكمثرى المختلّة عقليًّا بكلّ أهوائها وشكوكها؟

انتُشلت من المنزل كما هي، بلباس المزرعة. تناولت وجبةً مغذّية في بيت ياكوبسماير. منحها تبريكاته وبعض المال لشراء الملابس ولوّح لها مودِّعًا حين أقلّتها السيّارة لأول مرةٍ في حياتها إلى خارج القرية الواقعة على ضفاف ليبه. صعودًا وهبوطًا عبر التلال، بين الغابات المتوهّجة بلونٍ أصفرٍ وبرتقاليّ، وصولًا إلى قرية، تزحف منازلها نحو قمة منحدر الجبل، لتقترب قدر الإمكانِ من محيط كنيسة تطلّ على كلّ ما حولها، وقلعة نصف خشبية بعشرات النوافذ الضيقة والسقوف الصخريّة. وقد أُلحق بالكنيسة دير للسيّدات الفقيرات[1]. سارعت راهبةٌ ترتدي ثوبها الأسود عبر البوّابة لاستقبالهنّ بذراعين مفتوحتين.

---

(١) السيدات الفقيرات: أخوية دينية رهبانية للنساء على الطريقة الفرانسيسكانية، أنشأتها القديسة كلير الأسيزية. (المترجم)

كمّادات من أوراق السنفيتون المسحوق على الكدمات الزرقاء، مرهم للدّهن على جروح يديها، هدوء فرانسيسكانيّ عريق محفوظٌ وراء الجدارن السميكة، حليب رغويّ في أكواب كبيرة، التفاني النزيه عند الرّاهبات، اللواتي يرفرفن في الممرّات المهيبة مثل فراشاتٍ سوداء. كان بوسعها أن ترى، وهي في سريرها، قلعة البارون تسيتسيڤيتس؛ اسم هارب من حكايةٍ خرافيّةٍ، مثل الماركيز كاراباس. لقد حطّت حرفيًّا في حضنِ الكنيسة الأمّ، مع مجموعة من شريكاتٍ لها في المعاناة، الحالات الإسعافية التي تمّ انتقاؤها. تكتّمن بشأن الماضي، كأنّهن أجمعن على ذلك في اتفاقٍ ضمنيّ. تعلّمن من الرّاهبات مهاراتٍ سيستفدْن منها لاحقًا في حياتهنّ: الحياكة والطبخ ورعاية الأطفال وحتّى إعداد الموائد. كان ثمّة غرفة مخصّصة لهنّ، يأتي إليها الناس من الخارج لتناول الغداء، يحظى فيها ضيوف *المائدة* هؤلاء بتغذيةٍ جيّدةٍ، مستمتعين باختبار المذاق، مثل خنازيرِ غينيّة تخضع للتجارب.

لم يصل إليهنّ شيءٌ من التطوّرات الجارية خارج أسوار الدير. لا راديو ولا جرائد، بل فونوغراف فحسب مع خزينة من الأغاني العصريّة الرائجة، التي رقصن على أنغامها برفقة الرّاهبات الصغيرات؛ تحت نظرة الاستهجان التي يلقيها كاردينال يرتدي ثوبًا رسميًّا أرجوانيًّا، عُلّقتْ صورتُه فوق المدفأة. كانت رقصة التانغو المرافقة لأغنية «ماذا تفعل بركبتك، عزيزي هانتس؟» أكثر رقصة تنقطع أنفاس آنا معها؛ حيث تدور بجنون عبر حلبةِ الرّقص، تتهدّل جواربها، فيما يلطم فستان شريكتها الطويل ربلتيها. ظلّت هذه الأغنية الصرخة الدارجة في الدير حتّى تمعّنت

آنا ذات يومٍ في كلماتها واكتشفت أنَّ هانتس كان يستخدمُ التانغو ذريعةً كي يدفعَ ركبتَه مثل إسفينٍ بين فخذي شريكته مع كلِّ حركة. حذّرتْ الأختَ كليمنتينه، التي كانت تدور في دوّامةٍ بين ذراعي فتاةٍ يتيمة متينة القوام، مبتسمةً بسعادةٍ كما لو أنّها في حضن عريسها السماويّ. أُدير القرص مرّة أخرى؛ استمعت الراهبة إلى الكلمات مغمضةً عينيها، وهي ما تزال تلهث. هزّت رأسها بلطفٍ مع الإيقاع. احمرّت وجنتاها شيئًا فشيئًا، وفغرت فمها. خلّفت الأصوات الأخيرة للأغنية صمتًا خانقًا. برأسٍ مرفوع، مشت الأخت كيلمنتينه نحو الغراموفون وحملت قرص التسجيلِ بإصبعين ممدودتين. ثمّ رفعت ركبتها على طريقة هانتس. وبلا أدنى تردُّدٍ، وضعت القرص فوقها، وحطّمته إلى قطعتين.

لقد أُخِذُ بثأر شرفها الملطّخ، لكنّ آنا سرعان ما أدركت أنَّ إذلالًا أكبر بكثير يتهدّدها. فأحد ضيوف الغداء، وهو حارس غابة في منتصف العمر، لديه ندبة أرجوانيّة متعرِّجة في منتصف رأسه الأصلع تمامًا، كما لو أنَّ جرّاحًا مخمورًا قام بمحاولةٍ فاشلة لإجراء جراحة على فصوص دماغه. وكلّما وقع نظر أحدهم على هذه الندبة، كان يوضّح عَرَضًا أنّها حدثت من جرّاء شظيّة أصابته أثناء دوريّة ليليّة. كانت آنا تخدمُه باحترامٍ صارمٍ، فيما رواية «لا جديد على الجبهة الغربيّة» ما تزال حاضرةً في ذهنها. وقد أسعده ذلك؛ لأنَّ أيّ توددٍ من ناحيتها كان سيعدُّه إهانةً. ذات يومٍ أشار لها بالاقتراب بإيماءةٍ آمرةٍ. أمسكها من معصمها.

- «إذًا...»، لمعت عيناه في إيحاء مُلتبس، «هل تترك الراهبات شعرهنّ ينمو؟».

- «ماذا تقصد؟»

شاعرةً بالخزي، تذكّرت آنا الأخت كلمنتينه، برأسها الحليق الذي لمحتْه يومًا، وقد ترك عريه الضعيف أثره فيها.

- «لأنّهن عمّا قريب، حين تُغلق الأديرة، سيضطررن جميعهنّ لخلع الأردية»، قال بضحكةٍ لزجةٍ، «وعندها سنرى عن كثبٍ أيّ أرجلٍ لديهنّ!».

أفلت معصمَها. ارتجّت الصينية المحمّلة بالأطباق الممتلئة في يديها؛ تركتها على طاولةٍ فارغةٍ، وركضت على نحوٍ أعمى خارجةً من غرفة الطعام، غيرَ آبهةٍ بالضيوف الآخرين. هاجَ النبضُ في صُدغيها، وتردّد الصوت الثقيل لخطاها في الممرّات المهيبة. طرقت بشراسة باب رئيسة الراهبات. وحالما دخلت، نسيت أدنى قواعد اللباقة، وأفشت دون وعي، وبأنفاسٍ منقطعةٍ، ما بحوزتها، يعتريها اقتناعٌ بديهيّ بأنَّ هذا الضيف الوقح سيُجرُّ على الفور من أذنيه الشبيهتين بأذني خنزير، من خلف صحنه الطافح، عبر ممرّات الدير، ويُرمى على الرّصيف المعبّد بالغرانيت، ليدوّي بعد ذلك صوتُ إغلاق البوّابة في مسمعيه لعدّة أيامٍ قادمةٍ.

- «على مهلٍ، شَشش، اهدئي الآن...!». رفعت رئيسةُ الرّاهبات يديها في تضرُّع: «ماذا قال بالضبط؟».

- «إنّ كلّ الأخوات سيخلعن أثوابهنّ لأنَّ الأديرة ستُغلق. كيف يمكن أن يتفوّه بشيءٍ كهذا؟»، قالت آنا لاهثة.

سارت الرئيسة بهدوء نحو الباب الذي تركتْه آنا مفتوحًا، وأغلقتْه بحذرٍ.

- «دعينا نصلّي»، قالت وهي تدير ظهرها.

- «كيف خطرت له هذه الفكرة؟»، ألحّت آنا في عنادٍ.

تنهدّت الرئيسة.

- «لا يهمُّنا، كلّ ما يتعلّق بالسيّاسة لا يهمّنا. لقد اختاروا جميعًا هذا المسيح الدجّال؛ إنه يريد إغلاق الأديرة والكنائس. دعينا نصلّي ألّا يحدث ذلك».

- «المسيح الدجّال؟»، تمتمت متلعثمة.

نما لحارسِ الغابة قرنان على جانبي ندبته. وضعت الرئيسة ذراعها حول كتف آنا.

- «أدولف هتلر»، قالت بأناةٍ.

لمعت شرارة كهربائيّة في ذهن آنا. الصورة، وبيرند مولر، والعمّ هاينريش... أومضوا، واحدًا بعد آخر، متناقضين وأشرار. تبيّن أن بطلَ الفقراء والعاطلين عن العمل هو مدمِّر الكنائس والأديرة. إذًا فقد كان عمّها على حقٍّ؛ ولكن هل هذا يبرِّر الاعتداء عليها؟ كيف أمكن لها أن تكون مخطئة إلى هذا الحدّ؟ شعرت بالعار؛ وفي آنٍ واحد، شعرت بالاحتقار تجاه غطرسة هذا المتسلّط ذي الأفكار الحالمة: كيف بوسعه أن يفعل شيئًا للمسيحيّة، أو للكنيسة، التي صمدت تسعة عشر قرنًا؟ الربّ سيتدخّلُ بنفسه، كانت متأكّدة من هذا. ولذلك قالت الرئيسة: «دعينا نصلي». إيمانٌ راسخٌ؛ لا يزعزعه أي معتدٍ. توجّهت الرئيسة إلى النافذة، ونظرت إلى الخارج، كانت هالةٌ من أوراق الزيزفون الصفراء تشعُّ حول غطاء رأسها.

- «ما تحدّثنا به هنا»، قالت بهدوء، «يبقى داخل الجدران الأربعة لغرفتي هذه. لا تتحدّثي بالأمر مع أحد، ستضعين نفسك في ورطة».

أومأت آنا برأسها، بيد أنّها لم تكن خائفة من أيّ شخص.

كان الشهر الأوّل من عام ١٩٣٣ يشارف على نهايته حين نظرت آنا من نافذةٍ في الطابق الأوّل، ورأت علمًا ضخمًا يرفرف وسط القرية عند تقاطع طريقين. ميّزت أرجل العناكب التي ثُنيت نهاياتها نحو اليمين؛ والتي تراها تدور أمام عينيك إذا ما حدّقت فيها لفترة طويلة. هبطت بسرعةٍ طائشةٍ السلّمَ الواسع المصنوع من خشب البلوط، فيما عمّت جلجلة خطواتها ردهة الدرج.

- «علم!».

صاحت وهي تدهم حجرة الطعام حيث كانت راهبتان تضعان الأطباق على الطاولة بدقّةٍ متناهيةٍ، كأنها أحجار لعبة الداما.

- «لقد نصبوا ذلك العلم، وسط القرية، ولا أحد ينزله!».

جاءت رئيسة الرّاهبات بسبب الجلبة، يعلو وجهَها تعبيرٌ مُطمئِن.

- «لو كنتُ صبيًّا»، رفعت آنا يديها، «لما بقي في مكانه لحظة!».

- «ولكنّكِ فتاة»، قالت الرئيسة تذكّرها، «لذا تصرّفي كما يليق بذلك».

- «لكنّ هذا العلم...»، غمغمت آنا، مشيرةً عبر الجدران إلى الشيء الذي عكّر صفو السّماء.

- «ينقصكِ الاعتدال يا آنا»، هزّت الرئيسة رأسها، «هناك احتمالان أمامك: إمّا تصبحين شخصيّة باهرة وإما ينتهي بكِ المطاف في الحضيض، لا خيار ثالث بينهما».

- «لكن يسوع الناصريّ قال...»، تلعثمت آنا، «... هكذا لأنّكَ فاتر، ولستَ باردًا ولا حارًّا، أنا مزمعٌ أن أتقيّأكَ من فمي[1]...».

ضحكت الرئيسة ضحكةً متسامحة.

- «أوه يا آنا، بوسعنا إنزال ذلك العلم، لكن ما جدوى ذلك... نحن عاجزون أمامَه. لقد أصبح هتلر مستشار الرايخ اليوم».

ركضت آنا نحو الخارج ممتعضةً. أحسَّت أنَّ كلمة «عاجزون» التي خرجت من فم الرئيسة إهانةٌ موجَّهة إلى الربّ العظيم. انغلقت بوّابة الدير خلّفها بصخبٍ. قادها الشارع مباشرةً إلى تقاطع الطريقين. وقفتْ تحت سارية العلم. أمالت رأسها إلى الوراء، ورنت بعينيها إلى الأعلى. لم يكن سوى قطعة من القماش. إن أمطرت، فسيصيبه البلل، وإن عصفت الريح، فسيخفق متلاطمًا. لم يبق الكثير من الأثر الاستفزازيّ الذي انتابها حين شاهدته من النافذة في الطابق الأول. فعن كثبٍ، وجدتْه مجرّد شيء، يخيّب الآمال. استدارت كي تعاين الدير. لكنّه ومعه الكنيسة وذرى الأشجار العارية، والدمغة الرّمادية التي يضفيها شهر يناير على الجدران والأسقف، تلاشوا جميعًا أمام الزخارف الحمراء والبيضاء والسوداء التي زيّنت أبراج القلعةِ في الحكاية الخرافيّة. فقد كان فون تسيتزيڤيتس قد علّق العلم أيضًا.

---

(١) سفر الرؤيا، ٣:١٦.

٧

- «كم كنّ طيباتٍ معي...».

ودّعت آنا الراهبات. فقد أتمّت تعليمها في الدير، وشُفيت من نَزلة السلّ، وزاد وزنُها خمسة عشر كيلوغرامًا، ونمت طبقةٌ من الجلد القاسي فوق جراحها الداخليّة. شعرت بثقةٍ بالنّفس غير مسبوقةٍ بسبب نجاتها من حضيض مطلق. رجعت إلى المنزل، نزولًا من أعلى الجبل إلى ضفّة النهر. لن تسمح لأحدٍ باستغلالها مرّةً أخرى. العمّ هاينريش؛ في ثنايا تحفُّظه لمعتْ سعادتُه بعودتها. أمّا العمّة مارتا، ففي ثنايا سيطرتها القسرية على نفسها لمعتْ غيرتُها من هيئة آنا المتورِّدة، وخيبتُها من كونها ما تزال على قيد الحياة أساسًا. لكنّها ظلّت حذرة: فقد توجّهت أنظار العالَم (القسّ، ووكالة رعاية الأطفال) إليها من الآن فصاعدًا.

أثناء الفترة التي عاشتها آنا في منفاها الطوعيّ، تسلّل التغيير إلى القرية. فمنذ أن تمكّن أبناء المزارعين مع خيولهم من الانخراط في فيلق النخبة الخاصّ بهتلر؛ كتيبة العاصفة[1]، ذاعت شهرة هذه الأخيرة على

(١) كتيبة العاصفة: الجناح شبه العسكري للحزب النازي، أدّت دورًا مهماً في صعود هتلر للسلطة في عشرينات وثلاثينات القرن العشرين. (المترجم)

نحوٍ واسع. إلى جانب ذلك، رقّى هتلر المزارعين إلى الطبقة الفخريّة الأولى في الرايخ الثالث، وصارت محور المجتمع: *رايشسنيهشتاند*[1]. رفاق الدراسة السابقون والأخوة وعشّاق صديقات آنا القديمات... التحقوا جميعهم تقريبًا بالكتيبة. لم يعد هناك من يقول: لا تُقدم على شيءٍ كهذا. وحدها أخوية شبيبة العذراء، التي انتمت إليها آنا منذ تثبيتها في الرابعة عشر، ضمّت فتيات يُشاركن آنا نفورها. أسّست السيّدة تيله، رئيسة الجماعة، التي كانت كلُّ الفتيات في صفّها، على عجلٍ، مجموعة غناء، ومجموعةَ للرقص وثالثة للتمثيل، لتمنع طالباتها من ارتياد رابطة الفتيات الألمانيات النازيّة «ب.د.م» التي كانت قد سبقتها إلى مثل هذه الأنشطة. مع ذلك، كانت أيّامها، كرئيسة للجماعة، معدودة. فقد ألزمها مرسومٌ بالانضمام إلى نقابة المعلّمين القوميّة الاشتراكيّة. ليصدر مرسومٌ لاحقٌ يمنع أعضاء هذه النقابة من العمل مع المنظمات الكنسية.

تحدّث ياكوبسماير إلى آنا بعد القدّاس.

- «اسمعي يا آنا»، نظر إليها بتآمرٍ، «هذه المرّة أريد أن أطلب منكِ شيئًا. هل يمكنك أن تتولي مكان السيدة تيله كرئيسة للجماعة؟»
- «أنا؟»، تداعى صوتُها. «لكنّي في الثامنة عشر فحسب. لن يأخذني على محمل الجدّ!».

---

(١) بالألمانية: Reichsnährstand، هيئة حكومية أُنشئت في ألمانيا النازية لتنظيم إنتاج الغذاء، يركز عملها بشكل أساسي على التحكم في إنتاج السلع الغذائية وتوزيعها وأسعارها. (المترجم)

- «ششش»، هدّأها، «لم أتمّ كلامي بعد. في الوقت نفسه، ستنضمّين أنت ومجموعة من الفتيات الجديرات بالثقة للـ ب.د.م».

انفغر فم آنا. أخذ يكشف خطّته، مبتسمًا ابتسامة خفيفة. اختراق جناح الفتيات في منظّمة شبيبة هتلر، تقديم التقارير إليه حول كلّ ما يحدث هناك، وأخيرًا، بعون الربّ، تقويض الفرع المحليّ من الداخل.

- «بمقدورك أن تفعلي ذلك يا آنا. أعرفُك منذ وقتٍ طويلٍ».

حدّقت آنا فيه، مذهولة. إنَّ ممثّل الربّ هذا، الموثوق والمحبوب، بردائه الذي تفوح منه رائحة البخور الذي أدّى به القدّاس للتوّ، لن يزحزحه شيء عن مبادئه! لقد كان اختياره لها من أجل هذه المهمّة مصدر فخرٍ لها. فعلى الأقلّ، سيمكنها القيام بشيءٍ ما بدل التسليم بالقدر الذي دعت إليه رئيسة الدير.

- «هل ستفعلين ذلك أم لا؟»، سألها ياكوبسماير.

يوم الأحد، كانت تغنّي وترقص للكنيسة الكاثوليكيّة، وفي الأحد الذي يليه، لمنظّمة شباب هتلر؛ بتنوّرةٍ زرقاء داكنة وقميص نسائي أبيض وسترة بنيّة، ووشاح حول الرقبة معقود بحلقة جلديّة مضفّرة. قطف ياكوبسماير ثمار خطّته. تلقّت الفتيات تدريبًا سياسيًّا، وتعلّمن كيفية كتابة التقارير الصحفيّة. نالت آنا الثناء لرشاقة قلمها. أمّا العمّ هاينريش فقد أشاح بنظره في الاتجاه الآخر حين وضعه ياكوبسماير في صورة الموضوع. وفي يومٍ مشمسٍ من أبريل، قاد مدير المدرسة، الذي ما يزال يتذكّر آنا كتلميذةً استثنائيّة، درّاجته إلى المزرعة.

- «أحضرت شيئًا لك»، قال وهو يخرج كتابًا رقيقًا من حقيبته.

«هل يمكنك أن تحفظي هذا عن ظهر قلب؟ حقيقة الأمر أنّ هناك احتفالًا ضخمًا سيُقام في الأوّل من مايو؛ ويتضمّن عرضًا مسرحيًّا».

مسحت آنا يديها الموحلتين بمئزرها وتصفّحت الكتاب سريعًا. جاء العمّ هاينريش مرتابًا.

- «إنّ *الكايزلايتر*، القائد السياسيّ للمقاطعة، يبحث عن فتاةٍ جرمانيّة...». أوضح المدير وهو يضغط بعصبيّةٍ قفل حقيبته مرارًا. «ينبغي أن تكون شقراء ممتلئة الجسم».

- «لماذا ابنتنا من بين كلّ الفتيات؟»، قال العمّ هاينريش، «هناك الكثير من الشقراوات في القرية».

- «لأنّها الوحيدة التي تتحدّث الألمانيّة السليمة وتتقن إلقاء الشّعر».

- «نعم، هذا صحيح»، تمتم العمّ هاينريش متذمّرًا، «لكن اسمعني.. جرمانيّة! هذه مبالغة حقيقية!».

- «ليس لدينا خيار آخر»، اشتكى المدير، «أنا موظّف حكوميّ، ولديّ عائلة، ويجب أن أتأكّد أن كلّ شيء يسير على ما يرام».

استمرّت التدريبات على مدار الشهر. وفي العرض التجريبيّ الأخير، ارتدت آنا باروكة مُتقنة من الشعر الأشقر الطويل المجعّد. بنظرٍ ثابتٍ، كان عليها أن تلقي الأبيات الأكثر ميلودراميّة التي خطّها قلمٌ ألمانيّ. جنديّ حربٍ ملقى عند قدميها، تحيط رأسَه ضمادةٌ مدمّاة؛ يُفترض أن يبقى مرئيًّا حتى للمشاهدِ الجالسِ في آخر القاعة. توجّهت آنا صوبَ أُفقٍ مُتخيّل، «لا أرى حولي إلّا الخراب الذي عاث في بلادنا، لا شعاع

للأمل، لا ضوء للشمس... جرمانيا المسكينة التعيسة، كلُّ أبنائها يلقون حتفهم هنا... شعبها يُسجّى هنا...». لم يُطلب من الجنديّ موهبة تمثيليّة تفوق التظاهر بالموت على نحوٍ مقنع، لكنّ شريان عنقه تجاهل التعليمات ونبضَ بقوّةٍ لدرجة جعلت آنا تنفجر ضاحكةً في منتصف المرثيّة. وبينما ترتجُّ بأكملها، بخصلات شعرها المجعّد المتواطئة مع فعلها التخريبي، سارعت الجرمانيّة إلى النزول عن خشبة المسرح، يدُها تكمُّ فمها، كما لو أنّها قد تتقيّأ في أيّة لحظة.

- «ما هذا الذي يحدث الآن»، صاح المخرج وهو في ذروة توتّره، لأنَّ الفشل ممنوع.

- «لا يمكنني الاستمرار»، صاحت آنا مقهقة من وراء الكواليس، «كيف تريد منّي أن أحافظ على جدّيتي! بحق الربّ، ضع ضمادة أخرى حول عنقه...».

لكن في اليوم الأوّل من مايو، لم تتخلَّ الجرمانيّة عن دورِها للحظة. لقد مثّلت بتفانٍ خالصٍ حتّى أقنعت نفسها أيضًا، وليس الجمهور فحسب. بعد العرض، افتتح الكايزر لايتر الحفلة الراقصة. ومن دون أن يمنحها فرصة لتغيير ملابسها، دعاها للرقص بإيماءة رأسه الآمرة. رقصا فوق حلبة الرقص الفارغة، ذقنُها على كتفه، وزيُّ الآلهة الذي ترتديه ينتفخ متموّجًا، والضفائر الشقراء تدور حول رأسها. حولهم، كان الشبّان بلباسهم الموحّد والفتيات بأكاليل الزهور على رؤوسهنّ يراقبون بإعجابٍ. الكايزر لايتر يرقص معها! لقد كانت الرّمز الحيّ لشيءٍ يؤمنون به، من دون أن يتبادر إليهم شكٌّ بأنّ هذا الرمز قد

تسلّل إلى الداخل قادمًا من معسكر الأعداء. ملأها الانتصارُ زهوًا. أمسكها الكايزلايتر بقوّة، كما لو أنّه قرّر من الآن فصاعدًا أن يلقي اهتمامًا بالغًا لمصير الجرمانيّة البائسة. شعرت آنا بإغراء الاستسلام، سامحةً لنفسها بالانقياد مغمضة العينين، مستمتعةً بمكانتها الجديدة كلّ الاستمتاع. فماضيها كيتيمة مسكينة قاست أسوأ أشكال المعاملة، قد ولّى إلى غير رجعة. بعد الاحتفال، عادت إلى المنزل طافيةً فوق سحابةٌ ورديّة بحواف ذهبيّة. ما لبث العمّ هاينريش أن مزّق هذه السحابة بشكوكه.

- «بهذه الطريقة يغرون الشباب لتنفيذ أعمالهم القذرة»، قال بازدراء، «هؤلاء المضللون! الآن يمكنك بعينكِ أن تري كيف يفعلون ذلك».

أرسل فرع الـ ب.د.م في المقاطعة شابةً ذات شَعرٍ مصفّف ببراعةٍ إلى القرية لتقديم حصص الجمباز الصباحيّة في الفرع المحليّ. أوضحت للفتيات أنّه بدءًا من الآن، يتوجّب عليهن التجمّع في الساحة المجاورة للكنيسة عند بزوغ الفجر، ليس لبدء اليوم بتلاوة «أبانا»، بل لرفع العلم وترديد النشيد الوطني ونشيد الحزب النازي «هورست فيسل». بعد ذلك، يقمن بتمارين الجمباز الصباحيّة للحصول على جسمٍ صحيّ ومرن؛ ضغط واستدارة وثني الركبتين ورفع الذراعين وانحناء. بلهجةٍ مدنيّة عالية النبرة، لقّنت المدربّة الفتيات هذه التعليمات. راحت بنات المزارعين الطيبات يراقبنْها بصمتٍ، وقد طفح الرّفض بداخلهنّ. فكيف بإمكانهنّ القيام بكلّ هذه الطقوس إلى جانب أعمال المزرعة التي

تبدأ قبل الفجر؟ ضيّقت آنا جفنيها. وحين أنهت الشابّة كلامها، تقدّمت آنا خارج الدائرة.

- «أدعوكِ لممارسة الجمباز»، قالت، «عند الخامسة صباحًا معي في المزرعة. حيث بإمكانكِ ضخ المياه، وإطعام الدجاجات والخنازير الخمسين، وسقاية العجول، وأثناء حلب الأبقار، بوسعك أن ترفعي ذراعيك عاليًا وتثني ركبتيكِ، فيما تحيط بكِ الحيوانات السعيدة».

انفجرت الفتيات في ضحكٍ، خاليات البال. مصدومةً، شاركتهنّ القائدة الضحك؛ عدّلت تسريحة شعرها واختفت على عجلٍ. ياكوبسماير، الذي كان قريبًا في الجوار، بعيدًا عن الأنظار، وثّق نجاحَها الأوّل. ولم يأتِ أحدٌ على ذكر حصص الجمباز الصباحيّ فيما بعد.

في الخريف، دعا هتلر كلّ المزارعين للاحتفال بمهرجان الحصاد في تلّة بوكيبيرغ بالقرب من بلدة هامِلِن. ذهب العمّ هاينريش يدفعه الفضول بالرغم من كل شيء. بعد عودته، قضى أسبوعًا في صمتٍ رهيبٍ. لقد صار النّاس الجديرون بالثقة في هذه القريّة نادرين، وكانت آنا الوحيدة التي يمكنه أن يخبرها بما رآه. قال إنّ الملايين من المزارعين قد توافدوا من كلّ أنحاء البلاد في ذلك اليوم. في سكسونيا السُّفلى، قلب ألمانيا الجرمانيّة الزاخر بأشجار البلّوط المقدّسة التي تجوّلت بينها روح الزّعيم ڤيدوكيند، انتظر الناس، في جموعٍ غفيرة، على جانبي الطريق الذي سيعبر فيه الموكب. كان العمّ هاينريش بينهم. لقد قرأ «كفاحي»، وأدرك أنّ الكاتب أراد أن يضع محتوياته موضع التنفيذ كلمةً كلمةً، وكان يعرف الشخص الذي

سيسير في العرض العسكريّ. لكنّ ما حدث فاق أكثر تخيّلاته شطحًا. فظهور الفوهرر[1]، الذي أشرف فنّانون مختارون على حُسن تنسيقه من البداية وحتى النهاية، تفوّق على ما كان لنيرون وأوغستوس وقيصر مجتمعين. بدأت الحشود بالهتاف، وتدفّقت الأغاني بين الصفوف، وحلّت بالجماهير حماسة مسعورة، ورفرفت اللافتات بألوانها الحمراء والبيضاء والسوداء في السماء التي اكتست لون الأرجوان. تبجيل جماعيّ قُدِّم لذلك الشخص السّحري الفريد الذي كان مصيرُ الأمّة بأكملها بين يديه. كافح العمّ هاينريش كي لا ينجرف مع التيار كما لو أنّه قد علق وسط دوّامةٍ في نهر ليبه. لاهثًا لالتقاط أنفاسه، انتزع نفسه من هذا الجمع العملاق، العاصف، الصّاخب وهربَ. «سيتبعونه عميانًا»، تنبّأ، «كما تبعت الجرذان زمّار هاملن[2]. صوب الهاوية».

كان تعطُّش الزمّارِ للسُّلطة واضحًا في كلِّ مكان؛ حتّى رئيس أساقفة بادربورن لم يسلم منه. فذات أحدٍ، كان ينظّم رحلةَ حَجٍّ إلى مزارٍ للسيّدة العذراء؛ فعقدت الـ ب.د.م اجتماعًا على الفور في اليوم نفسه.

- «حسن»، قال رئيس الأساقفة، «سنؤجّل الرحلة إلى الأحد القادم».

فعلت المنظّمة الشيءَ نفسه. لم يشعر رئيس الأساقفة بأيّ خوف، وأعاد ترتيب الرحلة مرّة أخرى، لكن المنظّمة قلّدته من جديد. وفي النهاية، أُجِّل الحجّ إلى أجلٍ غير مسمّى. وكان صبر آنا قد نفد.

---

(١) الفوهرر: كلمة ألمانية تعني القائد، وترتبط بهتلر. (المترجم)

(٢) طبقًا للأسطورة، فإنّ بلدة هاملن الألمانية ابْتُلِيَتْ بالجرذان، وذات يوم سار فيها رجلٌ وقد عرض تخليص البلدة منها نظير مبلغ من المال، وعندما وافق العُمْدة سحب الرجل مزمارًا ومشى في شوارع البلدة يعزف عليه نغمةً مسحورةً، فخرجت كلّ الجِرذان تتبع الزمّار إلى نهر الوِيزَر، حيث غرقت فيه. (المترجم)

- «لماذا تفعلون ذلك؟»، سألت حين سنحت لها الفرصة، «لماذا تخرّبون رحلة الحجّ؟»

- «ماذا تقصدين؟»، نظرت إليها قائدة المنظمّة ببراءة، «لم نفعل أيّ شيء».

- «نحن كاثوليكيون. ونريد حقًّا القيام بهذه الرحلة». قالت آنا بلهجةٍ حادّة.

أومأ الآخرون بالموافقة.

- «لا أعرف عمّا تتكلّمين»، هزّت القائدة كتفيها.

- «تكذبين! لقد تعمّدتم عرقلة خطط رئيس الأساقفة. أنتم حفنة من المنافقين! لن أكون جزءًا من هذا بعد الآن. أنا كاثوليكيّة أوّلًا وقبل كل شيء، قبل أن أكون في الـ ب.د.م». أثار تظاهر القائدة الزائف بالبراءة جنونَ آنا. «كلّكم كَذَبة!».

دفعت كرسيّها للخلف، فانزلقت أرجلها فوق الأرض، ومشت باتجاه المرأة التي أخفت ارتباكها وراء ابتسامةٍ حمقاء.

- «لا أريد التعامل مع كاذبين»، صرخت آنا، «وداعًا».

خرجت من دون تحيّة هتلر، صافقةً الباب خلفها بقوّة. أُرجعت كلّ الكراسي على الفور، ووقف الأعضاء جميعهم، ثمّ غادروا الغرفة؛ بقيت القائدة وحدها، يداها مرفوعتان في ذهولٍ. لقد أُنجزت المهمّة بالنسبة لياكوبسماير، فقد حلَّ فرع المنظّمة نفسه بنفسه في هذه القرية.

كانت آنا تنظّف حظيرة الخنازير، وتجمع القشّ، وتزيل الروث، حين دخلت سيارة مرسيدس سوداء كبيرة فناء الدار، تحمل علمًا صغيرًا عليه

صليب معقوف يرفرف على غطاء المحرّك. مَن هؤلاء؟ تساءلت بفضولٍ وهي تسير نحو الخارج. ترجّلت امرأة متينة البنية ترتدي زيًّا عسكريًّا مزيّنًا بالشارات والميداليات. شخصيّة رفيعة المنزلة، كما تبيّن لآنا، إنها رئيسة *القاطعة*. بقي السائق داخل السيّارة يحدّق إلى الأمام ببرود. بعد أن ألقت نظرة متعجرفة على أنحاء المزرعة، متجاهلة آنا، مدّت المرأة ذراعها باتجاه العمّ هاينريش.

- «*يحيا هتلر*، أبحث عن آنا بامبيرغ».

نظر إليها العمّ هاينريش بمزيجٍ من الريبة والتعب ولم يقل شيئًا. بنَزَقٍ، كما لو أنّها قد تحدّثت إلى أصمّ بطريق الخطأ، التفتت نحو آنا.

- «*يحيا هتلر*، هل أنت آنا بامبيرغ؟»

- «نعم».

تمعّنت في آنا، من رأسها إلى أخمص قدميها؛ بمئزرها الموحل وحذائها البالي.

- «أأنتِ تلك الفتاة البارعة في كتابة التقارير الصحفيّة؟»، سألت بتشكُّك.

- «نعم»، قالت آنا وهي تمسح أنفها بكمّها، «ربما خطر لك أنّي لا أجيد القراءة أو الكتابة لأنّي كنتُ أنظّف حظيرة الخنازير؟».

تجاهلت المرأة تعليقها. كانت الطريقة التي حُشر فيها جسدُها داخل الزيّ العسكري تثير الشفقة؛ وقد تسلّل توتّرُ جسدها المحصور في الزيّ إلى تعابير وجهها الجامدة والمضبوطة. لقد جاءت لسؤال آنا: كيف تركتِ الـ ب.د.م من دون سبب؟

- «من دون سبب؟»، قالت آنا، «أنتم كاذبون، أليس هذا سببًا كافيًا؟ لا أريد التعامل معكم بعد الآن. دعوني وشأني. لدي ما أقوم به».

استدارت ورفعت عربة الروث، وصرخت مشيحة برأسها:

- «للرايشسنيهشتاند المرتبة الأولى في الرايخ الثالث».

سمعت دويًّا عنيفًا لإغلاق باب السيّارة من ورائها.

*

- «هل أعجبكما؟»، سألتْ النّادلة وهي تنحني نحوهما مبتسمة.

- «لا، لا، لا أريد المزيد»، قالت لوته على عجلٍ.

أخذت آنا تضحك.

- «كانت تسألكِ إذا أعجبك الطعم».

نعم بالطبع، لقد أعجبها. احمرّت خجلًا. لكن ما الذي أكلته بحقّ السماء؟ كانت تمضغ وتبلع تلقائيًّا، مأخوذةً بالقصة التي ترويها آنا. فصورة العدوّ التي رسخت في ذهنها لسنواتٍ صارت، على نحوٍ متزايد، موضع تساؤلٍ ومراجعة. كلُّ شيء في حالةٍ من الفوضى؛ ما زال تأثير الكحول موجودًا، ووجبة الطعام العامرة تفعل فعلها، والثوابت التي لا يجوز انتهاكها أخذت تنهار. كان زوجان من العيون يحدّقان بها بترقّب: ماذا تريدين للتحلية؟ سُردت قائمة الحلويات على مسامعها بسرعة، لكنّها لم تستوعب كلمةً أخرى بالفرنسيّة. قهوة، أرادت قهوة فحسب.

- «لقد رأيتِ إذًا»، التقطت آنا خيط الحديث بلا كللٍ من جديد، «كيف تسبّب هتلر في إثارة ضجة بيننا في القرية. سأخبرك شيئًا آخر. في رحلةٍ قبل بضع سنوات، عدت بمحض المصادفة إلى قلعة ڤيڤيلسبورغ، كما تعلمين، حيث اعتدنا الذهاب في نزهاتٍ بعربات المزرعة. أثناء الحرب، اختار هيملر[1] تلك القلعة لإنشاء مركزٍ ثقافيّ للرايخ الثالث. أراد بناء برجٍ بأبعاد هائلة، ذي جمالٍ وحشيّ، كرمزٍ للقوة. وقد استطاع النازيّون القيام بذلك. مات أكثر من أربعمئة شخص أثناء بناء ذلك النصب التذكاريّ. لاحقًا مُحي أثر المقبرة التي دُفنوا فيها. المفارقة هي أنّ الناس يتوافدون إلى المكان من كل أنحاء العالم؛ فالجميع مغرمٌ بجمالها. إنّ خطّة هيملر ما تزال فعّالة، وهذا هو الأمر المروّع. ينبغي طلاء هذا البرج باللون الأحمر القاني؛ ينبغي أن يُرسم درب آلام اليهود على جدرانه».

نظرت لوته حولها مشدوهةً. فقد ارتفع صوت آنا مع ازدياد انفعالها. تردّد صدى الجمل الأخيرة بطريقة مستفزّة عكّرت هدوء الفضاء الورديّ. أشارت بيدها إلى آنا كي تخفض مستوى صوتها قليلًا.

فهمت آنا التلميح.

- «أوه حسنٌ»، تابعت بصوتٍ أخفض، «ومنذ أن تغيّرت العلاقات السياسيّة، أقاموا متحفًا حربيًّا صغيرًا في ذلك المكان. زرتُه على

---

(١) هاينريش هيملر (١٩٠٠-١٩٤٥): أحد أقوى رجالات هتلر وأكثرهم شراسة. قاد فرقة القوات الخاصة الألمانية وأشرف على عمليات إبادة المدنيين في معسكرات الموت الألمانية. (المترجم)

عجلٍ. عُرضت فيه أشياء من شتّى الأنواع. سرعان ما اكتشفتُ ورقتيّ اقتراع تعودان لقريتنا، وقد أُطِّرتا بعناية. واحدة بتاريخ ٣٠ يناير حين وصل هتلر إلى السلطة، والأخرى في مارس من العام نفسه، بمناسبة تعديل دستوريّ مكّنه من وضع القوانين، وبالتالي تجاوز البرلمان. شعرتُ أنّ قلبي توقّف للحظة. يبدو أنّ العم هاينريش كان مخطئًا على نحوٍ فادح؛ ففي ذلك الوقت، كان يظنُّ أن حفنةً فقط من البلهاء في القرية يتعاطفون مع القوميين الاشتراكيين. يتضح من هاتين الورقتين أنّه في ٣٠ يناير، صوّت ربع سكّان القرية لصالح هتلر؛ وبعد شهرين، وصلت النسبة إلى الثلثَيْن. المزارعون، والخبّاز، والبقّال، وأصدقاء العمّ هاينريش في لعب الورق؛ ظهروا لي فجأةً على نحوٍ مختلف. صدمني ذلك بالرغم من مرور كلّ هذه السنين. فطوال تلك المدة، حدث كلُّ هذا بشكلٍ خفيّ، لكنّه لم ينتبه إليه».

وضعت يدها على يد لوته ونظرت إليها واجسةً.

- «أحيانًا، أخشى أنّ يتكرّر ذلك. أمّة واحدة؛ ذلك الشعار السخيف أثناء إعادة التوحيد، وصعود القوميّة. لم أتصوّر للحظة أنّ الناس سيظلّون متقبّلين لهذه الحماقة، هنا في أوروبا حيث بوسعك أن تسافري من كولونيا إلى باريس خلال ساعة، وإلى روما خلال ساعتين. مزعج حقًّا، لا أريد ان أكون كاساندرا[1]...».

---

(١) كاساندرا، في الأساطير اليونانية، هي ابنة بريام ملك طروادة، وهبها الإله أبولو القدرة على التنبؤ بالمستقبل مقابل وعدٍ له بأن تمنحه حبها، ولكنها لم تفِ بوعدها، فعاقبها أبولو، بأن جعل الناس لا يصدقون نبوءاتها. (المُراجِعة)

- «الأمر مختلف بالنسبة لنا»، قاطعتها لوته.

- «الهولنديّون، صحيح... *أكياس الفلفل*[1] هؤلاء!»، ردّت آنا. «موقفكم مختلف من الأجانب لأنّكم انخرطتم في التجارة العالميّة باكرًا. لكن بالنسبة للألمان؛ هل فكّرتِ يومًا بما نحن عليه؟ لم يكن الرجل العاديّ فينا شيئًا ذا قيمة، لم يملك شيئًا. لم يكن لديه أيّة فرصة ليعيش حياة أفضل. وإذا حظي بشيءٍ ما عن طريق المصادفة، كانت تندلع الحرب ويخسر كلّ ما بحوزته في النهاية. وقد استمرّ الحال على هذا المنوال، على مرّ القرون».

- «والپروسيّون، من أين جاء تفاخرهم؟»، أجبرت لوته نفسها على البقاء متيقظّة بالرغم من الإرهاق.

- «حين تكونين لا شيء، وليس بحوزتك أيّ شيء، ستضطرّين لإيجاد ما تفتخرين به. هذا ما استغلّه هتلر بدهاء. مُنح الرجلُ الوضيع وظيفةً، ورتبةً، ولقبًا: حارس مبنى، زعيم مجموعة، قائد مقاطعة. بهذه الطريقة، صار بإمكانهم أن يصدروا الأوامر، ويشبعوا رغبتهم في إثبات ذاتهم».

وصلت القهوة. استعادت لوته حيويّتها. رفعت الفنجان بلهفةٍ نحو شفتيها. راقبتْها آنا وهي تبتسمُ ساخرة.

(١) مصطلح ازدرائي يستخدم باللغة الألمانيّة للإشارة إلى الهولنديّين، وتحديدًا التجار الأثرياء الذين اشتهروا بتجارة التوابل. (المترجم)

- «آه من الهولنديّين وفنجان قهوتهم. صارت حياتهم وسعادتهم تتوقّف عليه منذ أن عادت سفنهم من المستعمرات محمّلةً بأولى حبّات البنّ».

بادرتها لوته في هجومٍ مضاد.

- «ألم يكن لديكِ ذرّة تعاطفٍ مع هتلر؟»

- «أيّ تعاطف يا حبيبتي؟! إنّه يثير اشمئزازي. ذلك الصوت إذ يقول: *«قبل أرررربع عشرررة سنة! مذلّة ڤرررساي!»*. لم أشعر بشيءٍ تجاهه. كنت طفلة مطيعة للكنيسة وآمنتُ بما يقوله القسّ لي لأنّه عاملني معاملة حسنة. بكلّ هذه البساطة. ومع ذلك، فقد استسلم الكثير من الكاثوليكيين المطيعين للإغراء. أدخل غوبلز[1]، الذي تلقّى تنشئة يسوعيّة، بمهارةٍ القيمَ الكاثوليكيّة الراسخة في قلوب النّاس ضمن الدعاية النازيّة. عملوا على تمجيد طهارة الشعب الألمانيّ وعفته. فالرجل الألماني لا يعرف الجنس إلّا عندما يختار زوجة؛ زوجة ألمانيّة صالحة بالتأكيد، لا تدخّن ولا تشرب ولا تضع مساحيق التجميل وليس لديها أطفال خارج إطار الزواج. لذا كانوا يتزوّجون وينجبون اثني عشر طفلًا، كي يقدّموهم قربانًا للفوهرر. لقد فُرضت هذه القيم عليهم بالقوّة».

---

(١) بول يوزف غوبلز (١٨٩٧-١٩٤٥): سياسي ألماني، شغل منصب وزير الدعاية في ألمانيا النازية منذ عام ١٩٣٣ وحتى ١٩٤٥، عُرف بولائه ومهاراته الخطابية ومعاداته الصريحة لليهود. (المترجم)

تنهّدت لوته وهي تحدّق في فنجانها الفارغ.

- «لماذا تنهّدتِ؟»، سألتْها آنا.

- «هذا ثقيل عليّ يا آنا».

فتحت آنا فمها ثم أغلقته. أدركت أنّها تفضِّلُ الحديث، ترغب في شرحِ كلّ شيء، كلّ شيء، مع تقديم المبرّرات إلى اللانهاية. كانت تعرف، بشكلٍ عام، ما عانى منه الهولنديّون أثناء الحرب، ففي تلك الأثناء، كان الألمان على علمٍ تامٍّ بمصير السكان في المناطق التي يحتلّونها. لكنّهم أُجبروا على السكوت عما قاسوه بأنفسهم خلال اثنتي عشرة سنة من الاستبداد: فما الذي يدفع المعتدي للشّكوى؛ أليس هو مَن أقدم على ذلك بنفسه؟

تمالكت أعصابها.

- «إذا ذهبتُ بعيدًا في ثرثرتي التافهة، فعليك تنبيهي كي أكفّ يا لوته. كما كان يفعل بابا منذ زمنٍ بعيد، أتذكرين؟ كان يضع أصابعه في أذنيه ويصرخ: اسكتي يا آنا. أرجوكِ توقّفي!».

لم تتذكّر لوته ذلك على الإطلاق. ففي كلّ مرّةٍ تحاولُ فيها استذكار أبيها الأصلي، تنزلقُ محلّها تمامًا صورةُ أبيها الهولنديّ، المهيمن، الذي لا يُمحى، بسبب التشابه في الشّكل. بدأت القهوة تُعطي مفعولها، فقد استعادت نشاطها. وكان على آنا أن تهدأ قليلًا. كفى سياسة، فقد حان دورها الآن.

٨

كانوا جالسين فوق الحصى المجمّع، وقد ذاع عبيرُ الوردة المتسلّقة، بحمرتها الدّاكنة، في دفء الأمسية الصيفيّة. راحت لوته تحدّق نحو طرف الغابة التي أخذت تُعتم شيئًا فشيئًا، بينما تمايلت أمُّها بلطفٍ مع أنغامِ بروخ، في كونشرتو الكمان الذي ألّفه على سلّم صول الصّغير، والتي وصلت إليهم عبر النّافذة المفتوحة من دون أن تفقد شيئًا من تأثيرها. مقابلهما، جلس اثنان من عشّاق الموسيقى اللذين جاءا للاستمتاع بالصوت المستنسخ. سامي غولدشميت، عازف الفلوت في أوركسترا الإذاعة الفيلهارمونيّة، الذي أنصت للأنغامِ بعينين مغمضتين، وإرنست غودريان، صانعُ الكمنجات المتدرّب من مدينة أُترخت، الذي أسندَ ذقنه على رؤوس أصابعه. أمّا المُضيف، فقد كان خلف الكواليس، متواريًا عن الأنظار، يضبط المعدّات. ولم يخرج إلّا بعد انتهاء الحفلة لكي يملأ كأسَه ويردّ على سيل المدائح بتواضعِ ساحرٍ. في تلك اللّحظة، بدأ العندليب يشدو في الغابة التي صارت الآن كتلةً شاسعةً لا يمكنُ اختراقها.

- «يريد أن ينافس بروخ»، علّق إرنست غودريان قائلًا.

لقد استمعوا، مذهولين، للأغنية المنفردة الغامضة؛ شدوٌ من بهجةٍ

ليليّةٍ صافيةٍ، لا يرجو لها جمهورًا مُتخيّلًا، بل ينشد نشوتَه الخالصة. جلس والدُ لوته على طرف كرسيّه، مأخوذًا بالتّسجيلِ الصّادر عن آلةٍ مثاليّةٍ قابعةٍ في أعماق الغابة. غبّ كأسين متتاليين من الجنِّ المعتّق، وهزّ رأسه: يا له من صوتٍ استثنائيٍّ! في اللّيلة التّالية، تسلّل إلى الغابة مثل لصٍّ، ساحبًا أجهزة التّسجيل، كي يجد موقعًا إستراتيجيًّا، لكن تبيّن أنّ العندليب قد ألغى عرضَه الغنائيّ. كرّس قدرًا كبيرًا من الصّبر من أجل الأمر. ليلةً تلو أخرى، أخذ يطاردُ صوت العندليب بمثابرةٍ عنيدةٍ إلى أن تكرّرتِ المعجزة ذات ليلةٍ، فوق رأسه مباشرةً، واستطاع أن يحبسها على قرصٍ صقيلٍ إلى الأبد. ذهب إلى محطّة الإذاعة حاملًا غنيمة صيدِه. «لدينا مفاجأةٌ للمستمعين». بهذه العبارة توقّف البثّ من أجل إذاعة صوت العندليب، على نحوٍ شبه مباشرٍ، في الأثير.

«لماذا لا يسجّلُ صوتي؟»، فكّرتْ لوته متسائلةً. بقدر ما تابعت أمُّها عروضَها الغنائيّة عن كثبٍ، فلم تفوّت فرصةً للحضور في أي مكانٍ تغنّي فيه الجوقة، حيث أمكنَ تمييزُها على الفور من بين عشرات الرؤوس الغريبة، بعقصة شعرها البنيّة اللامعة، كان شرود أبيها يزداد حين تغنّي عبر الرّاديو. مثيرًا استياء الجميع، كان يشرع في العبث بالمقابض كما لو أنّ هناك عطلًا في البثّ. أتُراه لم يتحمّل فكرة أن يزاحمه أحدٌ في العائلة على استفراده في جلب الموسيقى إلى المنزل؟ أم تصرّف على هذا النحو لأنّها لم ترث هذه النّزعة الموسيقيّة عنه؟ في بعض الأحيان، كان والدُها الحقيقيّ يتراءى لها، بصورةٍ باهتةٍ على هيئة حنينٍ غامضٍ، كما لو أنّها تنظرُ إليه عبر زجاجٍ مُلبَّدٍ بالضّباب. كانت تودُّ لو تمحو تلك الغُبْشة عن الزّجاج كي

تراه كما هو، كي تهشِّم شرنقة الصّمت، كي تسمعَ صوتَه كما كان. طوال هذه السّنوات كان غافيًا بداخلها، أمّا الآن فقد تسلّل غيابُه الكليّ إليها، فراغًا، عدمًا مُطلقًا. كان الأمر مختلفًا بالنّسبة لآنا. فحين تتذكّرها لوته، يخطر على بالها بشكل أساسيّ سلسلةٌ من الحركات المتواصلة، خطوات سّريعة على الأرضيّة الحجريّة، قفزات للأعلى والأسفل، صوت قويّ وجسد متين ينضمّ إلى جسدها في توافقٍ، وسط فراش نوم كبير. آنا. فكرةٌ محرّمةٌ، شعورٌ سريٌّ. فليست الحدودُ وحدها ما يفصلُها عن آنا، ولا البعد وحدَه، إنّما، وقبل كلّ شيء، الوقت الذي طال منذ ذلك الحين، والعلاقات الأسريّة الغامضة.

لكن آنا ظلّت على قيد الحياة. حتّى لو حدث ذلك عن طريق برام فرينكل، البالغ من العمر ثماني سنوات، والذي قَدِم إلى هولندا من برلين، في منتصف العام الدراسيّ. اصطحبه كون معَه إلى المنزل بعد المدرسة؛ ذلك أنّ كرة القدم تخترق كلّ الحواجز اللغويّة. أخذت لوته تتحدّث إليه بلغته الأمّ؛ وقد استرسلتِ الكلماتُ من فمها كما لو أنّها لم تتوقّف يومًا عن استخدامها. كانت بالنسبة له بمثابة بقعةٍ من وطنِه، وكذلك كان بالنسبة لها. أوضح لها باستخفافٍ سبب مغادرة والديه للبلاد: لم يبقَ لليهود مكانٌ في ألمانيا. وكان أبوه، عازف الكمان، قد عثر على عملٍ في هولندا. علّمته لوته أن يقول: «كمن يركب زلّاجةً عوجاء!»[1]، وأخذ يكشّر وهو يلفظ صوتَي «خي» و«آي» المستحيلَيْن. كانت ردّةُ فعل كون

---

(١) مَثل وليد للبيئة المحليّة، ويُقال عند ارتكاب الأخطاء لا سيّما أنه يتضمّن تقريعًا أخلاقيًّا؛ فركوب الزلاجة العوجاء يجعلك تنحرف عن طريقك الصحيح. إلا أنّ غاية لوته هي تعليمه نطق هذا المثل لما فيه من صعوبة في اللفظ على اللسان الأجنبيّ. (المترجم)

على طلاقة أختِه في اللّغة الألمانيّة مزيجًا من الدّهشة وعدم الثّقة. راح يلعب بالكرةِ على بعد أمتارٍ قليلةٍ، مستاءً، أثناء تلك المحادثات المشفّرة بينها وبين برام.

وقع أمرٌ لم يكن بالحسبان. أُصيبت والدةُ لوته، تلك المرأة البهيّة، ذات القوّة الرّاسخة، بمرضٍ لا تنطبق عليه أسماء الأمراض المطمئنة كالبرد والإنفلونزا. وأوّل أعراضه تمثّلت في إخراج زوجها من غرفة نومها. ومنذ ذلك الحين، صار ينام على سريرٍ مرتجلٍ في ورشته، بين روائح اللِّحامِ والفواصمِ المنصهرة، وخلال النّهار كان يدور في المنزل بتجهُّمٍ فاقَ أشرس نوبات مزاجه السيّئ المعهودة. من سريرها الواقع بجوار النّافذة المقوّسة المكونة من ثلاثة أجزاء، المطلّة على أشجار الردندرة والمرج والخندق وطرف الغابة، سمع الأطفال، من خلال السّقف، سيلًا من الشّتائم الغاضبة الموجّهة إلى أبيهم. أخذ طبيب العائلة يصعد ويهبط على السلّم حانيًا رأسه. وقد بدا أنّه، بدوره، لا يقوى على مقاومة صبيب النّيران التي استهدفته في الطّابق الأوّل. متكئاتٍ بانكسار على طاولة الطّعام، غرقت الفتيات في التكهُّن حول طبيعة هذا المرض الغريب، غير مدركاتٍ أنّهن لن يكتشفن سببَ غضب أمهنّ إلّا بعد مرور سنواتٍ، حين تُرفع ستائرُ المحظورات شيئًا فشيئًا.

بدأ المرض بشكوك حول زوجها الذي كان يعود من رحلاته إلى أمستردام في وقتٍ متأخّر. ذات مساء، تبعتْه برفقة صديقةٍ؛ وقد تبرّجتا على نحوٍ فظيعٍ، وارتدت كلّ منهما معطفًا عصريًّا بياقةٍ مرفوعةٍ، مع قبّعة بولا نيغري. عمدتا إلى تنكير صوتيهما، وتحدّثتا إليه بلهجة أمستردام العاميّة.

لم يتعرّف إليهما تحت ضوء مصباح الشّارع، في ظلال القبّعتين. وحين أبدى استعداده، كعادته، لقبول عرضهما، تشابكت ذراعاهما بإحكامٍ وركضتا من هول الصّدمة، فيما ظلّ مكانه تملؤه الحيرة. أمّا المرحلة التّالية من المرض فقد جلبها معه من العاصمة ونقلها إليها. مثّلت هذه المرحلة أكثر الأعراض الملموسة، التي تمكّن الطّبيب من مكافحتها بالحُقَنِ. بعد ذلك، دخلت في حالةٍ من الكآبة الشّديدة تلتها نوباتٌ من الغضب، وقد تبيّن لاحقًا أنها كانت المرحلة التي سبقت شفاءها، شفاءها الذي نالته بيدها بطريقةٍ غير تقليديّةٍ.

لم يكن لدى بناتها أدنى فكرةٍ عن أيٍّ من هذه الأشياء، أثناء اجتماعهنّ حول المائدة مثل إوزّاتٍ مغفّلاتٍ. لقد تلقّين الحدّ الأدنى من التّثقيف الجنسيّ الذي يتلّخص في شعار أمّهن البسيط: دعي الطّبيعة تأخذ مجراها. لكنّ هذه الطّبيعة، التي أعادتها إلى أحضان خالق المشكلات مرّةً تلو الأخرى عقب كلّ شجارٍ، أثارت شكوكهنّ العميقة. كانت فكرة الارتباط برجلٍ مثل والدهم طوال حياتهن وسيلةً ناجعةً مئةً بالمئة لمنع الحمل، ذلك أنّ أيًا منهنّ «لم يُقبّل خدَّها أحد قطّ»، حتى مايز، بملابسها الضّيقة وفمها الكبير الشره. والمربك أنّ والدتهنّ بدت في الوقت نفسِهِ متمرّدةً، من دون وعيٍ، على المصير الذي فرضتْه هذه الطّبيعة، عبر السّماح لهنّ بقراءة الأعمال الأدبيّة الاجتماعيّة؛ قصص الخادمات البائسات اللواتي يحملن من أسيادهنّ، والأمّهات اللواتي يعشن في أقبيةٍ رطبةٍ، ولديهنّ اثني عشر طفلًا، وعليهنّ حماية أنفسهنّ كلّ مساءٍ من الأيدي العابثة لرجالهنّ المخمورين، والعبدات السوداوات اللواتي

يسيء معاملتهنّ أولئك الذين اشتروهنّ مقابل بضع قطع من الفضة. نساءٌ خارجاتٌ من روايات إميل زولا ودوستويفسكي وهاريت بيتشر ستو. وإذا كانت هذه هي «الحياة التامّة» التي تُركت فيها الطّبيعة لتأخذ مجراها، فإنّ بناتها المتحلّقات حول المائدة، لم ينخرطن فيها بعد. لذا أحنين رؤوسهنّ بخجلٍ أثناء نوبات الغضب التي تردّدت قادمةً من الطّابق العلويّ مثل عاصفةٍ رعديّةٍ، والتي أيضًا، كنّ عاجزاتٍ عن مواجهتها.

فجأةً ساد الهدوء في الأعلى. من دون مزيدٍ من التّوضيح، نهضت والدتهنّ وارتدت ملابسها بعنايةٍ وغادرت المنزل بصمتٍ، وقد ارتسمت على وجهها تعابير شرود الذّهن. راقبنْها مذهولاتٍ، وهي تختفي تحت رذاذ المطر على متن درّاجتها بهيئتها المنتصبة المعتادة. بعد ظهر ذلك اليوم، وصلت لوحةٌ بعرض مترٍ ونصف، تظهرُ تمثيلًا انطباعيًّا للأهوار التي أُغرمت بها الأمّ: غيومٌ كثيفةٌ تنذرُ بطقسٍ سيئٍ في سماءٍ فضيّةٍ، تنعكس صورتُها على سطح بحيرةٍ يخلو من التموّجات، يحيط بها القصب والصفصاف الباكي. بعد ذلك ببرهةٍ، عادتْ إلى المنزل من اشترت اللّوحة من رسّامٍ واعدٍ، مهدِّدةً الأسرة بخطر استنزافٍ ماليٍّ؛ لقد شفيت تمامًا، وتورّد خدّاها بحمرةِ الانتقام. حظيت اللّوحة بموقع بارزٍ في غرفة المعيشة، فوق مجموعة النّظام الصوتيّ الخاصة بزوجها، وفي منافسةٍ صامتةٍ معها. لو أنّ الوقت أكثر استقرارًا، لما فوّت فرصة إشعالِ حربٍ بسبب نفقاتها الباهظة. أمّا الآن، فقد انتهز الفرصة، بحماسةٍ مزيّفةٍ على نحوٍ رديءٍ، لجعل العلاجِ المفاجئ مستمرًّا. فبعد أقلّ من عامٍ، تسبّب السلامُ المستعادُ في إنجاب الابن الأصغر: بارت.

لمواجهةِ كلّ هذه المشاعر الغامضة، وجدت لوته العزاء في الموسيقى. فعلى الأقلّ، كانت تحتوي على بنيان: الطريقة التي تنتظمُ فيها العلامات الموسيقيّة، وفق الإيقاع الذي يضبطها، حيث يؤدّي كلّ عنصرٍ وظيفته في الكلّ الأكبر، فتثيرُ الوجدانَ بتكاملها البارع. بعد انتهاء امتحانات الثانويّة، كرّست نفسها بحماسةٍ مضاعفةٍ لدراسة الغناء ونظريّة الانسجام. كان العامل المزعِج أنّ البيانو الخاصّ بها موجود في غرفة الغراموفون. ترتيبٌ انطوى على إشارةٍ: فبينما كانت تتدرّب، اعتاد أبوها أن يدخل، بكلّ براءة، ليشغّل تسجيلًا أو يأخذ كتابًا من الخزانة، مشيرًا إليها بالتزام الصّمت كي يتسنّى له التركيز. كانت تجلس وراء البيانو، عاجزةً عن الإتيان بحركة، تشعرُ بقطرات العرق البارد تتدحرج على ظهرها. حين يكون معها في الغرفة نفسها، تشعر بأنَ التنفُّس عملٌ شاقّ؛ كما لو أنّه يستهلك كلّ الأوكسجين. تغمض عينيها وترضخ للسُّلطة التي يستعرضها. يتراءى لها، على جفنيها، عالمٌ شاعريّ، يتبدّى فيه أفراد العائلة كلّهم، متشحين بملابس سوداء وقورة، يمشون خلفَ نعشه، على صوتِ شدوِ العندليب.

في اليوم الذي أتمّت فيه أختها الصغرى عامها الرّابع، تبيّن أنَ المشهد الذي تراءى لها في الحلمِ على وشك التحقُّق. في طريق عودته من العمل، بعد ظهر أحد الأيّام، كان على الأب أن يستلم طلبيّة من متجر الحلويات. ولأنّ درّاجته الناريّة كانت في ورشة الصيانة، فقد طلب إلى زميلٍ يتمتّع بحماسةٍ مماثلة لقيادة الدرّاجة الناريّة أن يوصله إلى المنزل. غادر المتجر حاملًا علبة الكعكةِ بيده اليمنى وكيسًا من بسكويت الزبدة

بيده اليسرى. ركب بحذرٍ خلف زميله على الدرّاجة. وحفاظًا على سلامة الكعكة، اقتربا من التقاطع الذي عليهما عبوره بخطى حلزون. من اليسار، اندفع رجل على درّاجةٍ ناريّة بأقصى سرعة، منحنيًا على المقود، ولم يدرك أنّ عليه أن يفسح المجال لهما إلّا بعدما رأى والد لوته مرميًا على الأرض، بلا حراك، متلويًّا على نحوٍ عجيب، رأسه على حافة الرصيف بين كيس البسكويت المفتّت وعلبة الكعكة المنبعجة، وخيط من الدم يسيل من زاوية فمه.

استعاد وعيه في سيّارة الإسعاف.

- «إلى أين تأخذونني؟»، سأل بريبةٍ.

- «إلى المستشفى».

- «لا، لا...»، احتجّ محاولًا النهوض، «خذوني إلى البيت. ليس هناك ممرّضة أفضل من زوجتي».

لُبّيت رغبتُه. أُدخل على متن نقّالة.

- «انتبه لرأسك»، حذّر عند منعطفِ الدرج، «السقف منخفضٌ جدًّا هنا».

فتحت زوجته باب غرفة النوم بيدٍ راجفة. وضعوه برفقٍ على السرير، فيما كان طبيب العائلة يقرع الجرس في الأسفل. شكرهم بتهذيب حين همّوا بالمغادرة، ولكن حين شرع الطبيب في فحصه وسؤاله عن ظروف الحادث. تمتم متفاجئًا:

- «حادث؟ هل وقع حادث؟».

- «لقد تعرّضتَ لحادث»، قال الطبيب بنبرةٍ رسميّةٍ، «وأحضروك إلى المنزل للتوّ».

- «مَن؟ أنا؟»، عبَس بصعوبة. «أين زوجتي؟»

- «إنّها هنا، تقف إلى جانبي».

في هذه الأثناء، انتظر الأولاد في الطابق السفليّ متوتّرين، تحت حبال الزينة الملوّنة وبقي حامل الكعكة فارغًا وسط المائدة، وقد شخّص الطبيب الأذيّةَ بتردّد على أنها ارتجاج حادّ في الدماغ وكسور في الأضلاع. وللتأكُّد، استدعى طبيبًا مختصًّا مثّلَت إشارته الفاترة إلى وجودِ كسرٍ خطيرٍ في قاعدة الجمجمة تهديدًا بإطفاء أيّ وهجٍ للحياةِ في المنزل لمدّة ستّة أشهر.

- «الانتظار»، قال، «ليس بوسعنا شيء سوى الانتظار».

أزالت ماريا وجيت أكاليل الزينة وقد انتابتهما قناعةٌ غير معلنة بأنّ كلّ دقيقة تبقى فيها هذه الأكاليل معلّقةً تضرُّ بصحّة أبيهما. لاعبت إيفجي دميتها الجديدة بهمّةٍ فاترةٍ في ركنٍ من الغرفة التي جُرّدت من زينتها.

كان على والدهم أن يبقى مستلقيًا على ظهره. شاحبًا، ساكنًا، مغمض العينين، ظلّ راقدًا في الغرفةِ المظلمة التي تفوح منها رائحة المطهِّرات وعطر الكولونيا؛ كما لو أنّه في نعشه بالفعل. ومع أنّه ليس ميتًا بالتأكيد، لكنّ تلك لم تكن بحياة. واظبت زوجته، ليلَ نهار، على ترطيب جبينه وصُدغيه ومعصميه بمنشفةٍ مبلّلةٍ ومرّرت رشفات الماء الدافئ، بملعقة الشاي الصغيرة، بين شفتيه المتشققتين. تحشرجت أنفاسُه التي زفرتْها أضلاعُه المكسورة، وبين الحين والآخر كان يئنُّ، طافيًا على أجنحة

المورفين الفضيَّة، في رحابٍ محايدةٍ وقاتمةٍ. أخذوا الطفل الأصغر إلى بيت إحدى خالاته؛ فقد كان الهدوء المطلق شرطًا أساسيًّا لتعافي الأب. نُفِّذت كلُّ حركةٍ في المنزلِ بأقصى قدرٍ من الهدوء؛ المشي على رؤوس الأصابع، الوشوشة همسًا، وحتى صوت النّفس كان يُكبَح. ومع هذا الغياب الجذريّ للصوت والإسكات القطعيّ لموسيقى بيتهوفن وباخ، للسوبرانو والباريتون، والألتو والباص، بدا كأنّهم جميعًا يُحضِرون الموتَ عن غير قصدٍ إلى المنزل، من خلال خلق الجوّ المناسب له كي يزدهر. كان بمقدورهم سماع حسيسه من وراء الأبواب الموصدة.

عندما كان يحين دورُ لوته لتتولى رعاية أبيها، وتتأمّل اللحية الخفيفة التي تغزو خديّه الغائرين مثل العفنِ، يتسلّل إليها تخوّف من أن تكون قدراتها التخيُّلية هي التي أودت به إلى هذا المطاف. ندمت على تلك المخيّلة الانتقاميّة التي كان يثيرها بداخلها. هل أضمر بالفعل نوايا خبيثة في تصرّفاته أم كان ذلك بفعل أنانيّته المعتادة والمألوفة؟ تمنّت بشدّة أن يخرج من هذه الحالةِ سالمًا، وإلّا فستضطر من الآن فصاعدًا إلى فرض رقابةٍ صارمةٍ على أفكارها. علاوةً على ذلك، فقد لمعتْ وسطَ شعورها بالذنب صورةُ أبيها الحقيقي، وهو يرتقبُ قدوم أجله، محاطًا بأفراد العائلة. ولئن نجحت طوال تلك السنوات في إخفاء هذه الصورة بعيدًا، إلّا أنّ التشابه البارز جعلها تتبدّى من جديد، جنبًا إلى جنبٍ مع شعور الاغتراب والخوف الذي سبّبَتْه. وعلى هذا النّحو، كانت رعايةُ أبيها شكلًا متكرِّرًا من جَلْد الذات بسبب هذه السلسلة من المشاعر التي تثيرها في كلّ مرّة.

بعد عدّة ساعاتٍ تحرّرها أمُّها من جديد، وتتولّى المراقبة، مثل أبي الهول، لما تبقّى من اليوم. في بعض الأحيان، كانت تميل صوبه لتتأكّد بأذنيها من أنّه ما يزال يتنفّس.

- «لن تفلت مني»، تهمس قائلة، «يا وغدي القديم».

لم تهمل نفسها، حيث دأبت على تغيير ملابسها بانتظامٍ كي يتسنّى له، في المناسبات النادرة التي يفتح فيها عينيه، أن يجد امرأةً جذّابةً بجوار سريره. من خلال الستائر، رأت الشمس وهي تشرق ثمّ تغرب، رأت الضباب يعمّ المرج، وسمعت هديل حمائمِ الغابة. وفي الليل، كانت تشاهد النجوم؛ إذ ليس باستطاعتها إضاءة مصباحٍ كي تقرأ كتابًا؛ ولا بُدّ أنّ ذلك كان أعظم تضحياتها.

ومع ذلك، لم يحلْ حضورُها المُلازم له دون إصابته بالتهابٍ رئويّ ثنائي الجانب، ترافق مع التهابٍ في الجنب بعد ثلاثة أسابيع. كان الطبيبُ ممثلًا فاشلًا: لقد صعُبَ عليه بشكل واضح أن يخفي احتمالَ موتِه في أيّة لحظة. قام بالترتيبات اللازمة لتعيين ممرضة ليليّة تصدّت لنوبات الحمّى بكمّادات باردة. لم يكن من صوتٍ في المنزل سوى هذيان المريض خلال الليل. ثبّتت المرضة أكياسًا من مكعّبات الثلج على رأسه.

- «كلّا»، احتجّ صارخًا وقد فزّ من حلمه بعينين مُحدِّقتين؛ طردهم بعيدًا بحركاتٍ متشنّجة من ذراعه: «لا أريد هذا التاج! لا أريد أن أكون ملك إنكلترا، لن أفعل! لن!».

رفعت الممرّضة الأكياس عن الوسادة ودفعتْه إلى الخلف دفعًا رقيقًا.

- «ينبغي أن تبقى مستلقيًا على ظهرك»، قالت ناصحة.

- «لا أريد ذلك التاج، أريد الآنسة سيمبسون!»، صاح في أنين.
مهتاجًا، غرق من جديد في نومه المحمومِ العميق.

حين زالت الحالة الحرجة، فتح عينيه بمنتهى الهدوء، وتملّى في وجهِ المرأة الغريبة المُكلَّلة بكثّةٍ من الشعر القاسي المنتصب. من تحت حاجبيها الكثيفين بادلته النظرات بشراسة، وكان ذلك هو التعبير الطبيعيّ لوجهها الذي لا ينمّ عن شيءٍ بعينه.

- «تشبهين بيتهوفن بشكلٍ لافت»، قال بذهولٍ.

- «أمّا أنتَ فشديد الملاحظة»، أقرّت له، «وفي الحقيقة، ثمّة قرابة تربطني به».

وما أن بدأت الأسرة تلتقط أنفاسها، حتى أعادت جلطةٌ دمويّة في إحدى ساقيه احتماليّةَ موته إلى الواجهة. وقد وقع الطبيب في مأزق تضارب العلاجات؛ فبسبب تجلط الدم يجب على المريض أن يجلس منتصبًا، بينما كان من الضروريّ أن يظلّ مستلقيًا من جرّاء الكسر في الجمجمة.

ولأنّ زيارة المريض كانت ممنوعة، فقد دخل المنزلُ في قطيعةٍ مع العالم، مثل جزيرةٍ نائية، مركزها الجسدُ البائسُ المنكوب. هربًا من هذا الخواء، هذا الافتقار إلى الحيويّة المعتادة، تجوّلت لوته في الحديقة وانتهت بها النزهة إلى الجانب الخلفيّ من البستان. مرّرت يدها على الطلاء المتقشّر لحجرة السلّ القديمة التي تخصُّها، التقطت خصلةً من الطحالب، وكسرت غصنًا من شجرة الجوز التي كانت ذروتها مترامية الأطراف شاهدةً على السنوات الأربع عشرة الماضية. كانت الآلةُ التي

تدوّرُ الحجرة قد صدأتْ بالكامل، وقد توجّه الجانب المفتوح نحو الشرقِ بشكلٍ دائم. نحو الشرق. جلست على كرسي المطبخ المتهالك وتخيّلت آنا مجهولة في عام ١٩٣٦، ليس في شكلٍ ماديٍّ معيّن، بل كتراكمٍ للطاقةِ، والاتقاد، والحيويّة؛ كانت آنا على قيد الحياة. غزاها الشعور بالنّدم والخزي لأنّها لم تفكّر بها منذ فترةٍ طويلة، كما لو أنّها باتت قضيّة سقطت بالتقادم في غياهب النسيان. حاولت أن تضع نفسها مكان الطفلة طريحة الفراش، المصابة بعدوى في الرئة، وهي تنظر حولها في ذهول محموم. وما كانت صغيرة جدًّا، وعليلة جدًّا، وقاصرة جدًّا أمام فعله في ذلك الوقت بدا الآن مثيرًا للسخرية: أن تستقلّ قطارًا وتعود إلى كولونيا. تخيّلتْ أن تلتقي بها ثانيةً؛ لقد كان مجرّد التفكير في آنا ترياقًا لطيفًا ضدّ مغازلةِ أبيها المستمرّة للموتِ.

ذات يومٍ من أيام الآحاد، أصيبَ فجأةً بضيقٍ في التنفُّس. مثل سمكةٍ تتلوّى على أرضٍ جافّة، أخذ يلهث لاستنشاق الهواء بفمٍ مفتوحٍ على وسعه. ساعدته زوجتُه في النهوض والاتكاء على الوسائد، وسقته بعض الماء، وفكّت أزرار سترته؛ وما كان منه إلّا أن قبض بإحكامٍ جهةَ قلبه. أخطروا الطبيب. أعطاه طبيبٌ نائبٌ، غير مألوف، حقنةً كبيرةً في قلبِه مباشرة.

- «محاولة إنقاذٍ أخيرة»، قال هامسًا وهو يعيد المحقنة إلى حقيبته، «جهّزي نفسك لأسوأ الاحتمالات يا سيّدتي».

ساعات من الانتظار. كانت معجزةً ألا تنفد قدرتُها على الصّمود بعد كلّ هذه الأشهر. هل سيتخطّى هذه المرحلة أم لا؟ تغلغل السؤالُ في

جوّ المنزل، حتّى أن لوته ركضتْ إلى الغابة مخافة أن تتسلّل أفكارُها غير الإرادية من قبضةِ الرقابة، على مقربةٍ منه، في لحظةٍ حرجة قد تودي بحياته. عاد تنفسُّه إلى حالته السويّة بحلول المساء. شرب بعض الماء وطلب إلى زوجته أن تشغّل معزوفة «قدّاس الموت» لموتسارت في الطابق السفليّ، وأن ترفع الصوت إلى أقصى مستوى، وتترك كلّ الأبواب مفتوحة. تركت الإبرة تهبط على قرص التسجيل بأصابع راجفة. صعدت أنغامُ الكآبةِ عبر السلالم. وأجهشت جيت ببكاءٍ عارم.

- «افرحي لأنّك لست تستمعين إلى موسيقى جنازته، وأنّ بوسعه التمتُّع بسماعها الآن»، قالت لها أمُّها.

بعد طقسِ التمجيد هذا، سارت عمليّة التشافي ببطء: عاد إلى الحياة بأناقته. وشيئًا فشيئًا صارت الزيارات مسموحة.

- «ولكن ماذا حدث لهامس كونينغ؟»، تذمّر قائلًا، وهو ما يزال يشفُّ من الضعف.

- «من المؤكّد أنّه سيأتي»، هدّأته زوجته.

- «إنّه على دراية بما حدث، أليس كذلك؟»

- «بالطّبع».

لكن الأستاذ لم يأتِ على الإطلاق. بقدر ما كان مواظبًا في زياراته الأسبوعيّة التي شرّف بها المنزل قبل الحادث، كان عنيدًا في غيابه الآن. اتصلت به والدةُ لوته. ظهر عند عتبة الباب بوجهٍ مغتمّ، وقد استجاب لدعوتها بتهذيب. صعد إلى الطابق العلويّ وصدم رأسه عند منعطف السلّم، وعند طرف السرير، وقف مرتبكًا من دون أن يصافح يد المريض.

- «كيف حالك؟»، سأل وهو يسعل سعالًا حادًّا خلف يده البدينة التي اعتاد أن يبعِدَ بها أدنى اعتراض.

لم يخفِ المريض فرحتَه. إنّ مجرّد حضور صديقه الحميم ورفيق روحه قد أعاد الرّونق إلى لون وجهه أكثر ممّا فعله كلّ الزائرين الآخرين مجتمعين.

- «أرقد في السرير هنا لكن...»، تنهّد، «أتصدّق أنني أتوقُ إلى ليلةٍ من ليالي السبت الخالية...».

نظر إليه هانس كونينغ بضيق.

- «اسمع يا صديقي العزيز، لا أتحمّل البقاء في غرف المرضى...»، وليدعم كلماته، تلفّت من حوله متعذّبًا كما لو أنه يحاول عبثًا النجاةَ في جوّ مسمومٍ. «أقصد أنني ببساطة لا أتحمّل ذلك ولو دقيقة!».

- «ولكن...»، غمغم المريض غير مصدِّق.

تقدّم الأستاذ نحو الباب.

- «أعلمني حين تسترجع نفْسك القديمة»، استدار ممسكًا قبضة الباب، «أتمنّى لك الشفاء العاجل».

وفاءً لحساسيّتِهِ، ظلّ الأستاذ غائبًا خلال أشهر التعافي البطيئة. كان على المريض أن يصارع نوبات اكتئابه. لماذا خسر صديقه المقرّب في وقتٍ كان في أمسّ الحاجة لرفقتِهِ، كي يشحذ عقلَه المتشظّي من جديد، ليحفّز مخيّلته، حتى يتمكّن من استعادة وجهات نظره السابقة بشجاعة؟ كان غياب الأستاذ بمثابةِ هزيمةٍ شخصيّة. «من أنا بالنسبة لهم؟»، تساءل بينه

وبين نفسه، متكئًا على الوسائد. «أنا لا شيء. ماذا حقّقتُ؟ لا شيء. ليس لدي أيّة مكانة في هذا العالم. لماذا لم أمت ببساطة؟». سارعت زوجتُه إلى إقناعه بتفوّقه، مستفيضةً في التركيز على مزاياه وتجاهل صفاته السلبيّة. وقد صدّقت ذلك تمامًا، حيث كانت تأمل بشدّةٍ أن يستعيد ذاته القديمة من جديد. انهارت مقاومتُه لكلمات الإطراء دفعةً واحدةً.

- «أنتِ امرأة عظيمة»، قال هامسًا وغفا مجبور الخاطر.

لقد كان تجاوزًا للحدود، مثيرًا للإعجاب، لن يطاله النسيان من بين كلّ الأحداث الأخرى، حين نزل إلى الطابق السفليّ، ذات يوم، جارًّا قدميه خطوةً تلو الأخرى نحو غرفة المعيشة، وقد أعياه الجهد، ليشرب فنجان قهوة على كرسيٍّ دُفع بعجالةٍ قرب المدفأة. وقد كان مقعد الحديقة وجهتَه التالية. هكذا، استعاد قوّته تدريجيًّا حتى جاء اليوم الذي وجد نفسه فيه وحيدًا في المنزل، وقد بلغ فيه الطموح مبلغًا يحثّه على إحراز مزيدٍ من الانتصارات. لعلّ غياب زوجته ما أثار قلقه، أو ربّما لم يعد قادرًا على المقاومة بعد كلّ هذه الأشهر من كبحِ الشّوق إلى تبادلِ روحيٍّ للأفكار. مستسلمًا للاندفاع المتهوّر، عبرَ مترنّحًا اللوح الخشبيّ فوق الخندق باتجاه الغابة، ببطءٍ وتركيزٍ، وقد عرجت إحدى قدميه نتيجة تجلُّط الدم، وخفق قلبه بحماسٍ. حين وصل إلى منزل عائلة كونينغ، على الطرف الآخر من الغابة، وقد هدّه الإنهاك، تشبّث معانقًا أحد الأعمدة الخضراء الداكنة التي تحملُ المظلّة فوق الباب. لا يدري كم بقي على هذ النحو، يكافح انقطاع النَّفس وخفقان القلب والخوف من أن يراه الأستاذ بهذه الحالة. حين استردّ شيئًا من عزمه، قرع الجرس.

فتح صديقُه الباب بنفسه، مرتديًا بدلةً من ثلاث قطع، وسلسةُ ساعة فضيّة تتدّلى على صدره مثل إكليلٍ. اهتزّت لحيتُه من الدهشة.

- «يا إلهي، ماذا تفعل هنا؟ إنّك آخر شخص توقّعت قدومه. آسف لكن...»، أخفض صوته كما لو أنّه على وشك أن يفشي سرًّا: «كلّ ما في الأمر أنّنا ننتظر بعض الضيوف. قد يصلون في أيّة لحظة. كيف اخترت توقيتًا بهذا السوء؟ من الأفضل أن تدخل الآن، ثمّ بإمكانك الخروج من باب المطبخ».

مشى والدُ لوته متعثرًا على طول الممرّ، وارتمى على كرسيّ في المطبخ.

- «لحظة واحدة»، قال لاهثًا، «لا بُدّ لي أن... هل أستطيع... هل يمكنني أن أشرب بعض الماء؟».

- «سأحضر لك».

فتح الأستاذ أبواب كلّ خزائن المطبخ، وصفقها بصخب.

- «يا إلهي، أين تضع الكؤوس؟... الفنجان يفي بالغرض».

شرب الزائر غير المرغوب فيه الماء. فتح الأستاذ باب المطبخ ملوِّحًا.

- «حظًّا أوفر المرّة القادمة، أيّها العجوز. يا يسوع، كم ساء حالُك».

التفتت والدة لوته بنظرها نحو الأعلى حين سمعت طقطقةً على الحصى. رأت زوجها، الذي حسبت أنه في سريره، يسير متعثرًا فوق مسار الحديقة، مستندًا على شجرة الكمثرى في منتصف الطريق، وهو يحدّق في المنزل بنظرةٍ جوفاء ذاهلة، كما لو أنّه يشعر بوجود شيءٍ مروّعٍ فيه. عندما تملّت فيه عن كثبٍ، عرفت أنه يبكي. في المساء نفسه، أخبرتِ

الأستاذ عبرَ رسالةٍ بأنّها قطعت الصداقة. وصفتْه بقلمها، الذي راح يخدش ورقة الكتابة، بأنّه شخص مجبولٌ على الأنانيَّة، وقد تلاشتْ إنسانيّتُه عند عتبات غرف المرضى وعند عتبةِ باب منزلِه.

*

- «ومع ذلك، فمن المذهل أنّك فكرتِ في الذهاب إلى كولونيا في ذلك الوقت»، قالت آنا.

- «لماذا؟».

- «لأنني أنا أيضًا كنتُ أتوق للذهاب إلى كولونيا في ذلك الوقت».

*

وصلت آنا إلى السنّ نفسه الذي شعر فيه والدُها، فيما مضى، بأنّه ضاق ذرعًا بالعالم التكافليّ الممتدّ بين الكنيسة والنهر؛ والذي لم يكن سوى مجموعة من المزارع يشاهدُ سكّانُها بعضهم بعضًا وهم يولدون ويموتون. وبالنسبة لها أيضًا، لم يتحوّل ضجر عقلها إلى قَبولٍ قدريٍّ بالمصير، إنّما إلى تمرُّد. سحبت ياكوبسماير من كمّ ردائه.

- «كيف يمكنني أن أخرج من هذه القرية؟»، عكّر صوتُها الهدوء الذي يغمر كنيسة لاندولينوس. «فبالتأكيد ليست وظيفتي أن أفني عمري في كنس روث الخنازير؟».

أومأ ياكوبسماير برأسه مفكّرًا.

- «ربّما أعرف طريقة تفيدك...»، مسّد ذقنه مستغرقًا. «رئيس أساقفة بادربورن يبحث عن امرأةٍ شابة لتتولّى محلّ مدبّرة منزله المسنّة

على المدى البعيد. يريد أن تتلقّى تدريبًا في معهدٍ بكولونيا يعلّم بنات العائلات الميسورة إدارة شؤون الخادمات والخدم. مدرسة للسيّدات...». ضحك ساخرًا.

لم يمانع العمّ هاينريش، أمّا العمّة مارتا فقد واجهت صعوبةً أكبر في تقبُّل رحيل الخادمة التي لا تتقاضى أجرًا.

- «إنّك لا تعرفين على ماذا تُقدمين»، قالت بازدراءٍ وهي تسترجعُ في عقلها كمَّ الأعمال الذي سيقع على عاتقها. «لن يفيدكِ ذلك بأيّ شيءٍ، على ضمانتي».

حرّكت آنا الحساء بصمتٍ؛ فلم يكن لديها أيّة نيّة للانخراط في نوبة غضبٍ عند الساعة الحادية عشرة.

- «لماذا لا تقولين شيئًا؟ هل تشعرين بأنّك تستحقّين مكانًا أفضل من هذا؟ سأخبركِ شيئًا: لن تسير الأمور على ما يرام هناك. وبوسعي أن أتصوَّر ذلك اليوم الذي...»، أخذ صوتُها نبرةً عميقةً، «تعودين فيه زحفًا على ركبتيك، تتسوّلين لقمة الخبز. لا تظنّي...».

تنهّدت آنا متبرِّمة.

- «لماذا تعكّرين مزاجك؟»، قالت ببرودٍ، من دون أن ترفع نظرها عن القِدر، «سأموت على أيّ حال؛ أليس هذا ما تقولينه دائمًا؟ وأنّي لن أبلغ عامي الحادي والعشرين؟».

سجّلت للفصل الدراسيّ الجديد. اتّصل العمّ هاينريش بابن عمٍّ له في كولونيا لتأمينِ مسكنٍ لها، وطلب إلى خيّاطٍ تفصيلَ معطفٍ من خامةٍ

مقاومة للتلف كي يدومَ مدى الحياة. وعلى النّحو نفسه الذي تتأهّلُ فيه العروسُ، بفستان زفافها وطَرحَتها، كي تصبح زوجة، توقّعت آنا أنّ هذا المعطف سيزفُّها إلى حياةٍ جديدةٍ كليًّا. قبل بضعة أيامٍ من الرّحيل، استدعاها ياكوبسماير.

- «لديّ نبأٌ مروّعٌ لكِ، آنا: تلك الوظيفة لن تتمّ».

- «لا يمكن أن تكون جادًّا...».

انهارت على أحد مقاعد الكنيسة المتلألئة والصقيلة، ونظرت نحو تمثال العذراء، التي بدت لها فجأةً مزهوة بنفسها. ليس بمقدورها التراجع بأيّة وسيلة؛ لقد تجرّدت بالفعل من حياتها السابقة، وكان هذا كلّ ما تعرفه. سار ياكوبسماير جيئةً وذهابًا أمام المذبح، وهو يحكُّ لحيته.

- «أتعرفين ماذا سنفعل»، استدار بغتةً، «لن نقول شيئًا لعمّك وزوجته. سأتولّى تسديد أقساط المدرسة. لا تقولي شيئًا، احزمي حقائبك، وسافري إلى كولونيا، واحضري دروسك».

في أوّل يومٍ من شهر نوفمبر، استقلّت آنا القطار إلى بادربورن. كانت ترتدي معطفًا واسعًا؛ كي يستوعب نموّها، مع قبّعةٍ رماديّةٍ من اللُّبَّاد مزيّنة بريشةٍ بُنيّةٍ من ريش الصّيف لإوزّةٍ ورديّة القدمين. كانت كلّ أمتعتها قد وضعت في صندوق سَمنٍ من الورق المقوّى. سار القطار عبر غابات الصنوبر باتجاه غاباتٍ نَفضِيّة صفراء، مجتازًا المروج والحقول المحروثة. أغمضت عينيها وفتحتهما مرّةً أخرى، كلُّها أملٌ بأن تلمح شيئًا مألوفًا. لقد مرّت المشاهد أمامها بحيادٍ تامّ. ومع ذلك، فقد شعرت بأنّها تقترب رويدًا رويدًا من مسقط رأسها، وأنّ الخيط الذي كان يربطُها به بإحكامٍ

والذي تراخى قبل أربعة عشر عامًا، قد شُدَّ من جديدٍ الآنَ، على إيقاع هدير القطار. ولكن حين وصل القطار إلى المحطّة، تبدّد ذلك الإحساس بالعودةِ إلى المنزل. أرعبها المثولُ الهائلُ للكاتدرائيّة في جوار المحطّة، بأبراجها المدبّبة التي تبدّت ظلالُها المسنّنة على السّماء الفضيّة كأنّها نذيرٌ قاتم. أيُّ عبثيّةٍ ستنطوي عليها الأدعية التي تُرفَع في مكانٍ للتعبُّد بهذه الضخامة، إذا كان سماعُها في الأعلى صعبًا حتّى في كنيسة لاندولينوس.

أحكمت حمل الصندوق الورقيّ إلى بطنها. والآن إلى العمّ فرانتس، قالت لنفسها، في محاولةٍ لمواجهة الدّوار النّاجم عن العدد الهائل للخطوط المتوازية. أخرجت ورقة مطويّة بعناية من جيب معطفها. بحروفٍ قوطيّة مرسومةٍ بتفنُّنٍ خطيٍّ لا بأس به، كتب العمُّ هاينريش اسم المستشفى الذي كان ابنُ عمّه رئيسَ عاملي الصيانة فيه. أرشدها أحد المارة، باللهجة الكولونيّة، إلى الترام الذي عليها أن تستقلّه. كبحت الرغبة في إلقاء التحيّة على الجميع عندما صعدت على متنه، وعبرت الممرّ بين العديد من مواطنيها؛ نعم، مواطنيها. لكن أحدًا لم ينتبه إليها. كانوا يحدّقون إلى الخارج باستسلامٍ تامٍّ، كما لو أنّ الخيارَ لم يكن بيدهم شخصيًّا، للرّكوب على متن هذا الترام، في هذه المدينة، في هذا الوقت. الواجهات الشاهقة، وصخب الناس، وازدحام المرور؛ لقد غمرتها كثافة الحياة في مدينة طفولتها. ففي القرية، لطالما كانت ابنة نجل عائلة بامبيرغ الخائن الذي مات شابًّا؛ أمّا هنا، في زخم إغفال هُويّتها، فهي لا أحد على الإطلاق.

وفيما أخذت تدفع الباب الثقيل للمستشفى، داهمها شعور مُوحِشٌ بأنها تدخلُ مدينةً في جوف مدينة. ثمّة ولاداتٌ ووفيّاتٌ في كليهما، لكنْ

بتركيز أكبر هنا. انتظرت عمّها في البهوِ جالسةً على حافّة كرسيٍّ مغطّى بالجلد. تسمّرت نظرات المارّين عليها لفترةٍ طويلةٍ بعض الشيء. مرتابةً، حاولت أن ترى نفسها بعيون الآخرين. رأت فتاةً ترتدي معطفًا من معاطف العصور الوسطى، بقبّعة صيد وريشةٍ غريبةٍ، تحملُ صندوقًا من الورق المقوّى في حضنها؛ مثالٌ نادرٌ لنوعٍ بشريٍّ انقرضَ في هذه المدينة منذ زمنٍ بعيد. أبدو سخيفةً، أقرّت في داخلها. تقدَّم رجلٌ برداءٍ أبيض نحوها. عبرتْ وجهه بسرعةٍ خاطفة تعابير صدمة طفيفة، لكنّه قمعها على الفور، وصافح آنا بمنتهى البشاشة. حاولتْ أن تتذكّره، يوم الجنازة، على أمل أن تجدَ شيئًا من الماضي في وجهه بعد أن فشلت في ذلك مع كولونيا. لكنّها لم تلحظ شيئًا؛ إنّه لا يشبه أباها ولا العمّ هاينريش ولا جدَّها. فهذه الرّوح المبتهجة لم تكن طبْعا من طباع العائلة أبدًا.

- «هل هذه كلُّ أمتعتك؟»، سألها وهو يتناول الصندوق منها.

أومأت آنا برأسها من دون أن تتفوّه بشيء. خلعت قبّعتها السخيفة، من أجل أن يكون ثمّة ما تحملُه بيدها، وتبعته، وهي تمسّد الريشةَ في استحياء.

كان منزله ضمن فناء المستشفى. تركها هناك في رعاية زوجته التي رحّبت بها حاملةً طفلها الرضيع بين ذراعيها. أخذتها العمّة ڤيكي جولةً في أنحاء المنزل وهي تتحدّث بمرح. كانت ممتلئة الجسم، وشعرُها المجعّد بشقرته الضّاربة إلى الحُمرة مثبّتٌ بالأمشاط. ثمّة غمّازةٌ صغيرةٌ وسط ذقنها، تبديها في بعضِ الأحيان محرَجة، كما لو أنَّ شخصًا يخدعها للتوّ، لكنْ سرعان ما يعود صفاءُ وجهها بفعل ضحكةٍ عفويّة. تجوّلت

آنا في منزل البرجوازيّ مشوَّشةً. غرفةٌ بأثاثٍ مصقول؛ فقط من أجل الجلوس فيها! فغر الغراموفون قرنَه الضخم بفظاظةٍ في وجهها. حمّامٌ حقيقيّ مع مغسلة. مياهٌ ساخنة في الصنبور. غرفة نومٍ لها وحدها: ورق جدران مزخرف، طاولة زينة بسطحٍ رخاميّ وحوض غسيل، خزانة للملابس؛ تلك التي ليست بحوزتها. المرحاض الخشبيّ في الجزء الخلفيّ من المزرعة، مضخة المياه التي تغسل عندها، العُليّة بأرضيتها التي نهشها الدّود حيث كانت تنام؛ هذه الأشياء كلُّها نُفيت فجأةً إلى الخانة الغبشاء للذكريات غير المرحّب بها.

انسلّت بين ملاءات السرير القاسية تلك الليلة وقد تمكّن منها الدّوار. وعلى الرغم من أنّ حياتها انقلبت في ليلةٍ وضحاها، إلّا أنّها شعرت ببُعدٍ أكبر من أيّ وقت مضى عن المدينة التي استمرّت في الوجود داخلها طوال تلك السنين. صورةٌ مصغّرة لطفلةٍ في السادسة، في مدينةٍ تغطيها قبّة، حيث تدفّقت الحياة بسلاسةٍ وكمالٍ، على وقعِ أصواتٍ مألوفة.

- «*نومًا هنيئًا* يا آنا»، قالت العمّة فيكي وهي تطلّ برأسها من وراء الباب.

- «*تصبحين على خير*»، أجابت بتردُّد.

لقد أربكتها طيبةُ العمّ وزوجته، فهي لم تعتد أن تُعامل سوى بالجفاء والريبة.

في مدرسة السيّدات، كانت الوحيدة القادمة من الريف. لم ينتبه أحد لذلك. فقد ارتدت فساتين عمّتها؛ وتحدّثت بلغةٍ ألمانيّةٍ رفيعة؛ وهي

الوسيلة التي استخدمها والدُها لينأى بنفسه عن عائلته. ومع ذلك، لم تستطع أن تفهم كلّ الأحاديث التي تبادلتها الزميلات؛ حيث كانت لغتهنّ تشير إلى عالمٍ مجهولٍ له اصطلاحاته الخاصّة: خطوبة وشيكة، حفلة شاي بعد ظهر الأحد. لم يكن لدى آنا حفلات شاي، لكن الظُّلمة السحريّة لصالة السينما المجاورة جعلتها تسترجع الذكريات الغامضة لمسرح الكازينو. هاينريش جورج وزارا ليندر[1] بخصلات الشعر المجعّد المثبّتة على صُدغيها والوردة خلف أذنها. *الحب العظيم، الوطن، لابانيرا*. كانت أفلام شركة «يونيڤيرسال فيلم» تُعرض بعد النشرة الإخباريّة؛ صورٌ من الواقع اكتسبت جاذبيّة صور الأحلام. سار الجنود البواسل عبر الشاشة البيضاء. امتلكت ألمانيا جيشًا من جديد، فقد كانت تجهد للخروج من حالة الرّكود بوتيرةٍ متسارعة. أولادٌ أصحّاء ذوو بنية رياضيّة أُرسلوا من قبل «خدمة عمّال الرايخ» للمساهمة في تجفيف المستنقعات وحصد المحاصيل. فتياتٌ متألّقات، من دون مساحيق تجميل، كنّ يساعدن في شؤون المَزارع؛ تولَّيْن أعمال التنظيف والغسيل ورعاية الأطفال، ودعم النّساء اللواتي أنجبن للتوّ. ابتسمن بلا كلل، وعشن في المعسكرات وبدأن يومهنّ برفع الأعلام وترديد نشيد الحزب النازي بحميّة: *«أخلوا الشوارع، رصّوا الصفوف»*. كانت الأمور تسير على ما يُرام في ألمانيا؛ الجميع متحمّسٌ للمساعدة في إعادة الإعمار؛ إنّها نهاية الفوضى والفقر والبطالة. ثمّة كيانٌ من جديد، كيانٌ له لون القمحِ النّاضج وسماء الصّيف، لون الشعر الأشقر والعيون

---

(١) هاينريش جورج: (١٨٩٣-١٩٤٦) ممثل مسرحي ألماني، وزارا ليندر (١٩٠٧-١٩٨١): ممثلة ومغنية سويدية، لعبت بطولة أعمال عديدة مثل: الحب العظيم ولابانيرا. (المترجم)

الزرقاء. وبالرغم من عدم ثقتها بالأعلام وأغاني المسيرات، ونفورها من النمساويّ الزاعق وبالرغم من تحذيرات العمّ هاينريش عقب مغامرته في بوكيبيرغ، إلّا أنّ التفاؤل قد غمرها، كما كُلّ الآخرين الذي يجلسون متلاصقين في جوٍّ حميميٍّ دافئ داخل صالة السينما. بعثت الصور شعورًا مريحًا بالثقة. كلُّ شيء في الخارج تحت السيطرة، وفوق ذلك كلّه، فقد ذهبوا لمشاهدة فيلم. لم يكن التحسُّن الشّامل مفاجئًا لآنا؛ فقد تزامن على نحوٍ طبيعيّ مع المسار الصاعد الذي تنهجه حياتُها. كانت ألمانيا تصعد خارجةً من الحفرة، وكذلك كانت آنا. لم تكن هذه ملاحظة رصينة، بل إحساسًا، شعورًا بديهيًّا بالتوافق. كان لوحُ الشوكولاتة الذي تشاركتْه مع العمّة ڤيكي خلال حضور الفيلم أصدقَ برهانٍ على ذلك: فمَن كان يأكلُ الشوكولاتة فيما مضى؟

ومع ذلك، فقد واصلت كولونيا، بتاريخها الذي يعود إلى العصر الرومانيّ، تخويفها وتخييب أملها. كانت الأبراج الدّائرية الوطيدة ذات الأسوار التي عبرتْها بين الحين والآخر تخبرُها بمَكرٍ أنَّ أربعة عشر عامًا من المنفى على تخوم غابة تويتوبورغ ليست بشيءٍ يُذكر مقارنةً بأن تكون برجًا رومانيًّا راسخًا في الأرضِ الألمانيّة منذ تسعة عشر قرنًا. وأنَّ نهر ليبه لا يعدو كونه خندقًا مائيًّا أمام نهر الراين. ذات أحدٍ، ذهبت بعد الظهرِ في نزهة إلى الحديقة برفقة عمّتها التي تجرُّ عربة الطفل؛ حيث ألقت شمس الشتاء خطوطًا بيضاءَ طويلة بين جذوع الأشجار. كانت ما تزال تواجه صعوبةً في التعامل مع وجود يومٍ في الأسبوع لا تضطر فيه للقيامِ بأيّ شيء: المشي بلا هدف، والانحناء فوق السطح المتلألئ للبركة، وحمل

الطفل من العربة ورفعه إلى السّماء الزرقاء بذراعين ممدودتين من أجل أن يتمكّن من هزّ أطرافه. باندفاعٍ قالت:

- «دعينا نمشي حتّى الكازينو، حيثُ اعتدتُ... اعتدنا أن نعيش».

هذه الـ «نا» التي قالتها بصوتٍ عالٍ، أضفت الشرعيّة على الفكرة: ينبغي أن تذهب إلى الكازينو نيابةً عن أبيها ولوته أيضًا؛ فلا بُدّ أنّهما سيرافقانها ويراقبانها من فوق كتفها. هزّت العمّة ڤيكي كتفيها، ولم تمانع ذلك. من دون علمٍ منها، كانت أحاديثها المبهجة اللاهية بمثابة مانعة الصّواعق التي امتصّت القلقَ المباغت الذي أطبق كاتمًا على حلقها. كما لو كانت عابرةً غير مبالية، تجوّلت في الشارع الذي عبرتْه في الاتجاه المعاكس، حين كانت طفلة، يجرُّها أقاربٌ متعجّلون. كان الشّارع مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بشخصيّة أبيها وهو يمشي فوق الحصى مرتديًا المعطف الأسود، يتّكئ بثقلٍ على عصاه ومن وقتٍ لآخر، يُخرج عبوة القشع وسرعان ما يواريها من جديد. في تلك الأثناء، كانت السّحابة المظلمة التي ستحمله بعيدًا؛ خارج المدينة والبلد والعالَم، معلّقةً بالفعل أعلى الشّارع، فوق الكازينو والكنيسة والمدرسة.

مرّت بجوار المدرسة؛ لم تستطع رؤية ما في الدّاخل لأنَّ النوافذ كانت مرتفعة جدًّا عن الأرض؛ ثمّ اجتازت الكنيسة المبنيّة على الطراز الصّارم للقرن التاسع عشر على نحوٍ يولّد الرّهبة من الخالق الأعظم. توقّفت قليلًا بعد ذلك. صعدت نظراتُها من الواجهة حتّى النوافذ ذات الزجاج الملوّن، لتنزلق بعدها صوبَ الباب المطليّ المزدوج مع الجرس النحاسيّ والنوافذ الشبكيّة الصغيرة. أينما أزاحت بصرها، كان يرتدُّ

عائدًا. لقد لفظها هذا المبنى، ناكرًا أنّها عبّت أنفاسها داخلَه ذات يوم، وأنَّ أفكارها ومشاعرها ملأت مساحاته الفارغة، وأنَّ أباها ولوته كانا، فيه، على قيد الحياة. طوّقت هذه الجدران ذاتَ يومٍ كنفَ حياة الأسرة؛ أمّا الآن فقد صارت عقبةً لا تتزعزع تحول بينها وبين الآخرين.

- «لقد عبّدوا الطريق»، قالت بازدراء، «كان مرصوفًا فيما مضى».

مضتا في السير، كما لو أنّه أيُّ شارع آخر. كلُّ شيءٍ كان عاديًّا، الشمس مشرقة، والطقس شتويّ، سنة ١٩٣٦ تشارف على نهايتها، أمّا سنة ١٩٢٢ فبدت بعيدةً على نحوٍ لا يمكن تصوُّره. سنواتُ حياتِها الستُّ الأولى، مع الأشخاص الذين كانوا ضمنها، ولّت بلا أثرٍ باقٍ: لم يكن ثمّة ما يذكّر بوجودها.

لم يعد للقرية الواقعة على ضفّة نهر ليبه وجودٌ أيضًا. فالعمُّ هاينريش لم يبادر بالاتصال بها، وهي ردّت بالمثل. وحدَه ياكوبسماير كان يكتب لها رسالةً بين الحين والآخر. وحين بلغت الحادية والعشرين من عمرها، استدعتْها محكمةُ العدل للتوقيع على صكِّ الوصاية الذي يخلي عمّها رسميًّا من أيّ مسؤوليّاتٍ تجاهها. كان الصكّ عبارة عن مقالة بالغة الطول. أخذت تقرؤها بعُجالة؛ وقد فهمت أنّ توقيعها يقضي بموافقتها على الطريقة التي مارس بها وصايتَه عليها في الماضي. هل ما ورد في الصكّ يعكس الواقع؟ شعرت بحرارةٍ، شعرت ببرودةٍ. ولم تقوَ على متابعة القراءة. هذه الوثيقةُ تخصُّ شخصًا آخر، من حياةٍ أخرى. رفعت رأسها عن النصّ، ونظرت إلى الأعلى في حيرة. مقابلَها، جالسًا خلف مكتبه المعدنيّ الرتيب، عبّر الموظَّف عن نفاد صبره بإيماءاتٍ صغيرة.

أمضت توقيعها بجرّة قلمٍ غاضبة. آنا، التي تفوح منها رائحة الصابون، وترتدي ملابسها المتمدّنة النظيفة، وضعت القلم جانبًا، ودفعت الوثيقة بفظاظةٍ نحو المسؤول، ثمّ وقفت وغادرت المبنى. هبطت الدرج الحجريّ وسارت في المدينة، المدينة التي كان لا بُدَّ من إعادة بنائها على أنقاض ذاكرتِها المتهالكة.

لم يكد الحبر المخطوط على شهادة مدرسة السيّدات يجفُّ حتى حصلت على وظيفة كخادمةٍ مقيمة، مع يوم عطلة كلّ أسبوعين. انخرطت في خدمة عائلة شتولتس التي تعيش شرق المدينة، في حيٍّ من الڤيلات الصغيرة، لا يبعد كثيرًا عن مجمّع «باير» الصناعيّ حيث كان السيّد شتولتس يعملُ مهندسًا كيميائيًّا. لم يكن لديها أيّة فكرة عمّا يعنيه أن تكون خادمة، أن تكون هذا العنصر الأساسيّ في أسرة ربّ عملها. سرعان ما خاب توقُّعها بأنّها ستتولّى التدبير المنزلي لأسرة شتولتس منذ اليوم الأوّل، حين اتّضح أنَّ السُّلطات التشريعيّة منفصلةٌ عن السُّلطات التنفيذيّة. فالأولى، ممّثلةً بشخص السيّدة شتولتس، ابتكرت نظامًا مصنعيًّا يضمن تنفيذ المهمّات المنزليّة بأقصى قدرٍ ممكن من الكفاءة والسُّرعة. منذ زواجها، قبل تسع سنوات، كان يُنفض الغبار عن الألواح الخشبيّة في الڤيلا الخاصّة بها، الواقعة شرقًا، عند العاشرة تمامًا من كلِّ صباح، وبعد ظهر أيّام الخميس، كانت تُكوى القمصان عند الثانية والنصف، وصباح أيّام السبت، كانت تُنظَّف النوافذ عند التاسعة. لقد حدّدت المدّة، بالأجزاء العشريّة، التي تتطلّبها كلّ واحدةٍ من هذه المهمّات. وقد تشابكت عناصرُ البرنامج بإحكامٍ لم يدع للسُّلطة التنفيذيّة وقتًا كافيًا للتنفُّس بينها. كما لو

كانت في فيلمٍ صامتٍ، انتقلت آنا من مهمّةٍ إلى أخرى. نفضت الغبار عن الألواح بفرشاةٍ من شعر الخنزير؛ في هذه الأثناء، رنّ جرس الباب، فوضعت الفرشاة في جيب مئزرها وسارعت لفتح الباب. ثمّ استأنفت عملها على نحوٍ محمومٍ لتدارك المقاطعة التي لم تكن مدرجة ضمن البرنامج. في جولة التفقّد اليوميّة، كانت السيدة شتولتس تمرّر سبّابتها على مسافة نصف المتر التي غفلت آنا عن تنظيفها بسبب الإلهاء، قائلة: «لم تنفضي الغبار هنا اليوم».

لقد فاتها أن إصرارها على كسبِ الطّاعة المطلقة قد أجهض أيّة مبادرةٍ شخصيّة لدى مرؤوستها، ليس هذا فحسب، بل راحت تلومها على هذا أيضًا. فبعد ظهر أحد الأيّام، ذهبت في زيارة. كان على آنا أن تكوي كلَّ القمصان قبل عودتها. حينها بدأ المطر يهطل، رفعت آنا نظرها ورأت القطرات على النافذة، إنّها في ورطة حقيقيّة: فإذا صعدت إلى الطابق العلويّ لإغلاق النوافذ في غرفة النوم، قد لا تنجز الكيّ في ميعاده. لم تجرؤ على المخاطرة. بعد برهةٍ، اقتحمت السيدة شتولتس الغرفة لاهثة.

- «لم يكن ذلك بحسباني»، صرخت منتصرة، «قلت لصديقتي: ينبغي أن أذهب، فالنوافذ مفتوحة في المنزل. قالت لي: أليس ثمّة أحدٌ في المنزل؟ أوه نعم، قلتُ لها، خادمتنا هناك؛ لكنّي لا أظنّ أنَّ الفكرة ستخطر لها!».

بعيدًا عن إملاء المتطلّبات، الذي عدّته شكلًا من أشكال التربية النموذجيّة، شعرت السيدة شتولتس بمسؤوليّةٍ كبيرةٍ تجاه سعادة آنا. لم

تستطيع تحمُّل بقاء آنا وحدها في غرفتها العلويّة، أثناء أمسيات الإجازة، لذا كانت تدعوها لتناول الحليب بالشوكولاتة في غرفة الجلوس. علّمتها التخريم والتطريز، بالغرزة المتصالبة والغرزة النقطيّة الصغيرة. أوضحت لها أنّها مهارات ينبغي للمرأة الشّابة أن تتقنها، وزوّدتها، بسخاءٍ ولطافة، بكلّ المواد التي تحتاجها. جلسوا ثلاثتهم هناك، السيّد شتولتس والجريدة في يده، الزوجة وخادمتها؛ وقد وحّدهما شغلُ التطريز. أمّا الابنة، غيته، التي بلغت الثامنة من العمر وتمتاز بضفائر شعرها الطّويلة، كانت قد خلدت إلى النّوم منذ فترةٍ طويلةٍ.

كلّما كان الفوهرر على وشك أن يلقي خطابًا، يعمد السيد شتولتس إلى تشغيل *مذياع الشعب*[1]. استمعت آنا، ولم تستمع. بدا الأمر شبيهًا بالتطريز الذي بين يدَيها: لقد قامت به، فيما يحومُ عقلها في مكانٍ آخر. تحدّث غوبلز أوّلًا، عن قضايا تتجاوز نطاق رؤيتها. «*هؤلاء الأثرياء المتحكّمون؛ يهود وول ستريت يريدون إبادتنا...*» تاتاتا، هلمّ جرًّا. وكانت هذه المقدّمة فحسب. يتلوها موسيقى مسيرات، أوامر عسكريّة، والكثير من التّحيات النازيّة. ثمّ يتحدّث الفوهرر بنفسه، متوجّهًا إلى شعبه مباشرةً، بصوتٍ جهوريٍّ كما جرت العادة، ليستمرّ ذلك طوال فترة البثّ. «*أودُّ أولًا وقبل كلّ شيء أن أطمئن السيد الوزير إيدن بأننا، نحن الألمان، لا نريد أن نكون معزولين، كما أننا لا نشعر بالعزلة على*

---

(١) بالألمانية Volksempfänger، اسم يطلق على مجموعة من أجهزة المذياع التي طورها أوتو غرايسنغ بطلب من يوزف غوبلز بهدف إتاحة تقنية الاستقبال الإذاعي عند كلّ أطياف الشعب لضمان وصول الدعاية النازية، وقد صمّمت بحيث لا تستقبل إلا الموجات الألمانية في وقت كان فيه الاستماع إلى إذاعات أجنبية جريمة. (المترجم)

الإطلاق...». أومأ السيد شتولتس برأسه مُوافقًا. شابك يديه أمام انحناءة بطنه، كلُّه آذانٌ مصغية. تركت آنا طوفان التبجُّحِ يتداخُ حولها، منتظرةً نهايته، كما لو كانت تترقّبُ زوال عاصفةٍ ممطرةٍ، وفي غضون ذلك، واصلت التنفُّس بهدوء. أصبح الفوهرر مؤسسة. فوق رأسها، كان كلُّ شيء يُقرَّر ويُنظَّم على نحوٍ تجريديّ؛ من دون أن يكون لها أدنى تأثيرٍ في ذلك. لذلك لم تكترث حيال الأمر. فقد كان الكفاح الصّامت ضد سُلطةِ السيدة شتولتس مرهقًا بما فيه الكفاية.

ألقت آنا، من فوق حافة طارة التطريز التي تعملُ عليها، نظراتٍ خاطفة ومتكرِّرة على خزانة الكتب المصنوعة من خشب الجوز، حيث حُفظت الكتب خلف الزجاج كما لو كانت مجوهرات ثمينة. لم تعد قادرة على مقاومة الإغراء أكثر من ذلك.

- «سيد شتولتس، عفوًا، هل يمكنني...؟»، أشارت تجاهَ الركن المقدَّس بإبرة التطريز، «هل يمكنني أن أقرأ كتابًا في يومٍ من الأيام؟».

- «بالطبع...» أومأ إليها مندهشًا، «اختاري واحدًا منها».

تفادتْ آنا نظرة السيدة شتولتس المذهولة، وقفت وتوجّهت إلى الخزانة بتردُّد. صدر صريرٌ طفيفٌ أثناء فتحها للأبواب؛ وفاحت رائحةٌ تشرحُ الصّدر من المجلّدات المجمّعة، أكثرها مذهّب الحواف، رائحة الآلاف والآلاف من الصفحات المطبوعة، وأغلفة الورق المقوّى، والقصص التي تتوسّل أن يوقظها أحدهم من سباتها، رائحة الهروب من اللاواقعيّة السخيفة التي تحكم اللحظة الراهنة؛ الوعدِ بعوالم، رحبة

إلى ما لا نهاية، يفوق سحرُها عوالم التطريز والخياطة. قرأت العناوين وقد ألمّ بها شيء من الدّوار، بينما نظرات السيدة شتولتس تحرق ظهرها. لم تجرؤ على إطالة مدّة تردُّدها، فتناولت «آلام الشابّ ڤيرتر».

- «هذا الكتاب صعبٌ للغاية»، غمغمت السيدة شتولتس متهكّمة.

- «هل قرأتِه؟»، قال زوجها.

- «لا، لكن...».

- «حسنٌ، دعيها تفعل، فالثقافة ملك للجميع هذه الأيّام. لن يضرّك في شيءٍ إن طالعتِ كتابًا بين الحين والآخر».

صمتت السيدة شتولتس، وابتسمت في وجهِ آنا، لتداركِ الإحراج. لم يتضّح ما إذا كان تعليق زوجُها المهين سببَ الإحراج أم الحقيقة المؤلمة أنها لا تقرأ. فتحت آنا الكتاب وغرقت فيه.

تبيّن هنا أنَّ الكيميائيّ الأصلع، صعب المراس، كان نقطة الضعف في درع السيدة شتولتس. ربّما كانت نزعتُها للاستبدادِ وبلوغ الكمال محض وسيلةٍ للحفاظ على احترامها لذاتها. كانت تستعيد قوّتها حين يغيب. عقب اليوم الذي برهنت فيه آنا على شهيّتها للمطالعة، سألتْها وهي ترفع غطاء سلّة الغسيل أمامها مثل ترس:

- «ألا تأخذين أيّ غسيل لعمّتك أيّام الآحاد؟».

- «لا»، أجابت آنا متفاجئة.

- «كيف لا يكون لديك ما يجب غسله، فستان من وقتٍ لآخر...».

- «ليس لديّ سوى فستانين».

- «.. وبعض الملابس الداخلية بين حين وآخر.. أو فوطة صحيّة..».

- «فوطة صحيّة؟ ما هذه؟».

جحظت عينا السيدة شتولتس. بدت شاهقة فوق آنا التي أخذت تتضاءل شيئًا فشيئًا. لم تكن تملك شيئًا، فستانَين وبعض الملابس الداخليّة، كانت لا أحد.

- «تمزحين بأنّك لا تعرفين الفوط الصحيّة، أليس كذلك؟».

- «كلا»، قالت آنا، «لم أسمع بها من قبل».

- «لكنك تحيضين؟».

- «أحيـ...؟ لا».

- «كلُّ النساء يحضن شهريًّا».

بقيت آنا صامتة لبرهة، حيرى.

- «لا أشعر أن شيئًا ينقصني»، قالت بتحدٍّ.

«اسمعيني...»، بقلق الأمّهات، وضعت السيدة شتولتس يدها المعتنى بها جيدًا على كتف آنا. وبنبرةٍ خفيضة، تخلق جوًّا من الألفة التي بعثت ارتيابًا هائلًا داخل آنا، شرعت في كشف أسرار الدّورة الأنثويّة لها. «نحنُ» التي قالتْها السيدة شتولتس، مشيرةً بها إلى كلّ نساء الأرض، قوبلتْ بنفور شرس من آنا. وإذا كانت الأنوثة تتمثّل في فقدان الدم كلَّ شهر، تمامًا كما تفقد السيدة شتولتس من دمها شهريًّا، فإنّها فخورة بأنَّ جسدها لا علاقة له بالأمر. لكن السيدة شتولتس حدّدت موعدًا لها مع طبيبها النسائيّ. أثناء الفحص، سألها عن سبب كون غشاء البكارة مخرّبًا.

- «هل سبق أن كنتِ في علاقةٍ مع رجل؟».

لم يخطر ببال آنا أنّه كان ينتظرُ منها ردًّا. تأمّلت السقف في عنادٍ؛ اكتشفت شقوقًا وألوانًا وأشكالًا وصورًا تعبّرُ من دون قصدٍ عن شيءٍ ما، حاولت جاهدةً فهم ماهيّته، كمناورةٍ تلهيها عن الأصابع والأدوات المعدنيّة التي تخترقها، في مواضع تخصُّها جدًّا لكنّها عاجزة، بأيّ حالٍ من الأحوال، عن صون خصوصيّتها. طرح السؤال بنبرةٍ أعنف. هزّت رأسها سخطًا.

- «ششش..»، هدّأها وأومأ لها بلطف، «استرخي. هل فُحصتِ من قبل؟».

- «نعم»، همست، «كان ذلك عندما... حاولوا إعادة رحمي».

برزت ذكريات الفحص السابق إلى الواجهة؛ جوّ السريّة الذي أحاط به، وحضور شبح العمّة مارتا التي كانت تراقب عذريّتها من زاوية في غرفة الاستشارات.

- «رحمك مقلوبٌ بالفعل»، قال الطبيب، «ولا يمكن إصلاحه إلا بالتداخل الجراحيّ... إلى جانب ذلك، المبيضان ضامران، لكن لدينا علاج لهذه المشكلة».

جعلتها كلمة «مبيضَين» الحيوانيّة تفكّر بولادات الخنازير والعجول التي تمّت في جوٍّ تسوده رائحة التبن والروث والعرق والجهد.

فيما أخذت ترتدي ملابسها خلف ستارة، هاتف الطبيبُ السيدة شتولتس لإبلاغها بالنتائج التي توصّل إليها. تحدّث إليها مستخدمًا لغةً شعريّةً رقيقة: غشاء البكارة، الرّحم، المبيض، الجُريبات. كانت مغتمّة،

تمامًا كما شعرت قبل سنوات، لانهماكِ امرأةٍ غريبةٍ كليًّا في صراعٍ غامضٍ معها، من أجل الاستيلاء على أعضائها الأنثويّة.

- «مرّة في اليوم»، قال الطبيب مبتسمًا. «فتاة شقراء بهذا الجمال ينبغي أن تكون قادرة على إنجاب الكثير من الأطفال!».

تحقّقت السيدة شتولتس كلّ يومٍ من أن آنا قد تناولت دواءها. تحمّلت كلّ المسؤولية عن خصوبتها، تمامًا مثلما ارتأت أنَّ من واجبها أن تعلّمها التطريز. ينبغي أن تكون آنا مرتبّة وخالية من العيوب، من الخارج ومن الدّاخل، مثل الألواح الخشبيّة التي نُفض الغبار عنها للتوّ. لم يفلت من عينها الرّاصدة لكلِّ شيء سوى أفكار آنا. لم تكن تدري أنَّ روحًا متمرّدة، في ذروةِ سُخطها، تتربّص الوقت المناسب تحت قشرةٍ من الخضوع ترقُّ أكثر فأكثر. بعد أشهرٍ، حين أظهر العلاج لأوّل مرّةٍ تأثيرًا ملتبسًا، عدَّت ذلك انتصارًا شخصيًّا على الفوضى: فمع عودة الأحشاء في بطن آنا إلى نظامها، كان العالَمَ أيضًا يستعيدُ شيئًا من نظامه.

كان هناك مراقبون سريُّون آخرون يراقبون خصوبتها؛ يهمّهم النّظام بالقدر نفسه. في ذلك الصيف، سافرت أسرة شتولتس في رحلةٍ لمدّة أسبوع، وتركوا غيته في رعاية آنا. بعد الظهر، كانتا تذهبان معًا إلى حمّامات السباحة، تتدلّى حقائب الشاطئ على كتفيهما. تميّزت كلُّ الأيّام بسماءٍ صافية زرقاء فوق الأسطح وقمم الأشجار السّاكنة. وحين عادتا إلى المنزلِ ذات مرّة، كان ثمّة سيّارة غريبة أمام المنزل. اتكأ رجلان على أبوابها، كلٌّ منهما يضع يديه في جيبيه، وعيناه ذابلتان بفعل الشمس. سارعا بعد أن اجتازت آنا ممرّ الحديقة ووضعت المفتاح في القفل.

- «مساء الخير، سيّدتي، هل لنا أن نتحدّث معك قليلًا؟».

دفعت آنا الباب الأماميّ وتركته مفتوحًا؛ انسلّت غيته إلى المنزل مفلتةً ذراعها، وتوجّهت مباشرةً إلى غرفتها. ظلّوا واقفين في الصّالة، آنا بحاجبيها المرفوعين، والرجلان - المُحرجَان إلى حدٍّ ما - بالرغم من هيئتها الحاسمة.

- «كما ترين، نحن مُرسلان من دائرة الأمراض الوراثيّة. لديكم خادمة معيّنة...». عمدا إلى مراجعة الأوراق. «آنا بامبيرغ، أليس كذلك؟».

- «نعم، بالفعل»، قالت آنا بغطرسة، «ما شأنُها؟».

- «حسنٌ، كما تعلمين...»، قالا معًا.

ضحكا معتذرين لبعضهما البعض، وبعد ذلك، تولّى أحدهما الحديث واكتفى الآخر بإيماءات الموافقة.

- «لسنا متيقّنين تمامًا، ما زلنا في طور التحقُّق، لكن آنا بامبيرغ تعاني شيئًا من البلاهة العقليّة، صحيح؟».

- «أوه حقًّا؟»، قالت آنا ببرودٍ شديد. «أهي كذلك؟ إنَّها تبدو سويّة تمامًا، هذه الخادمة».

- «نعم، نعم»، تنهّد، «يمكن أن يكون الأمر على هذا النحو، سيّدتي، لكن... يجب أن تتفهّمي... ينبغي تعقيم هذه المرأة».

من جديد، كانت تسمعُ كلمةً للمرّة الأولى. لا بُدَّ أنّ السيدة شتولتس تعرف معناها. حاولت التملُّص:

- «ما السبب؟».

- «حسنٌ، كما تعلمين، لا نستطيع... البلاهة مرضٌ وراثيّ؛ وإذا أنجبت أطفالًا، سيكونون بلهاء أيضًا».

دغدغتها ضحكةٌ من أعماق صدرها.

- «كيف عرفتم أنّ آنا...».

- «ألم تلاحظي شيئًا عليها؟».

- «كلّا».

- «انظري...»، رفع الشخص الذي تولّى الحديث المستندات كأنّها كأسُ البطولة، «ذلك كلُّه مسجّل في صكّ الوصاية».

عندما استمعت إلى ما قاله، أدركتْ لا واقعيّة ما يجري بينهم في الصّالة؛ لقد كانت سيّدة المنزل بالنسبة لهما، فأخذت تُظهر استرخاءَ شخصٍ يتصرّف على أنه صاحب البيت، ولكنّها في الوقت نفسه، تحدّثت عن نفسها على أنّها فردٌ ثالث غائب، شخصٌ مُجرَّد.

كان الرّجلان قد ذهبا إلى المحكمة وقرأا صكّ الوصاية الذي وقّعت عليه بنفسها. كان الجزء الذي أغفلت قراءته يتعلّق بالتقارير السنويّة الإلزاميّة التي طُلب فيها من العمّ هاينريش تبرير حقيقة أنّه أبقى آنا بامبيرغ، ابنة فلان وفلانة، في مزرعته. في كلِّ عام، كان يملأ التقرير بما أملى عليه ضميره قائلًا إنَّ الطفلة، التي تولّى وصايتها منذ وفاة جدِّها، بلهاء عليلة الجسد، وغير قادرة على متابعة التعليم أو البحث عن عمل. كتب ذلك بلغةٍ رصينة بلا تنميق، مستخدمًا العبارات نفسها كلَّ عام، بحيث لم يفكّر أي عضو من مجلس الوصاية أن يذهب للتحقُّق من حالة الطفلة المعنيّة بأمّ عينيه.

هناك، بالأبيض والأسود، وبخطّه المألوف: آنا بامبيرغ بلهاء عليلة الجسد. جملةٌ وحيدةٌ طمستْها، ودمّرت الشيء الوحيد -غير الفساتين وبعض الملابس الداخليّة- الذي تملكه: وهو أنّها، ابنة يوهان بامبيرغ، كانت تمتلك عقلًا راجحًا وذاكرة ببغاء. كانت الصّالة صغيرة جدًّا بالنسبة للانفجار الذي تلظّى في رأسها؛ غضب بقوّة رجعيَّة لا يمكن التعبير عنه بأيِّ مكان في ظلِّ غياب الهدف. انزلقت حقيبة الشاطئ، التي كانت ما تزال معلّقة بكتفها، على الأرض. تمكّنت من السيطرة على غضبها والحفاظ على رباطة جأشها وهي تخاطبهما.

- «أيّها السيّدان، إنّ التي تقف هنا أمامكما هي آنا بامبيرغ. أنا الفتاة البلهاء عليلة الجسد التي تبحثان عنها. ما الذي تريدان معرفته؟ كم ناتج ضرب ستة في اثني عشر؟ متى اندلعت حرب الثلاثين عامًا؟ هل أجعلكما تمليان عليّ كلماتٍ لأكتبها؟ أخبراني!».

تراجعا تحت هول الصّدمة. سقط أحد المستندات على الأرض. لم يجرؤ أحدهما على الانحناء لالتقاطه.

- «قولا شيئًا! لقد سئمت ذلك الآن. بل بات يفوق طاقتي. حين كتب عمّي ذلك في صكّ الوثيقة، فذلك لأنّه أراد أن يبقيني في المزرعة، أعمل عنده بلا مقابل طوال تلك السنوات؛ في الحظائر والأرض، يومًا تلو الآخر، عامًا تلو الآخر، بلا توقُّف. لأنّه ضربني، لأنّه سمح لزوجته أن تروّعني ولأنَّ مجلس وصايتكم العزيز قد صدّقه طوال كلّ تلك السنوات! وقاضيكم هذا،

الذي ورد اسمه أعلى الصكّ؛ لماذا لم يخطر له أبدًا أن يتأكّد من حقيقة الحالة؟ والآن، وفوق كلّ ذلك، تريدون تعقيمي. لقد ضقت ذرعًا بما يكفي، لقد طفح الكأس!».

استدار أحدهما بنظره ليرى ارتفاع مقبض الباب. انتزع الآخر المستند عن الأرض وهو يضحك بعصبيّة.

- «*المعذرة، المعذرة...*»، تمتما، وهما يتراجعان خارجَين من الصّالة باتجاه الباب، «*لم يكن لدينا علمٌ بذلك...*».

اختفيا فجأةً. ظلّت مكانها في الصّالة، رازحةً تحت وطأة ذهولٍ ثقيلٍ، أعنف وأقوى من أن تتحمله لوحدها. سمعت صوت إقلاع السيّارة وانطلاقها. دهمها الغثيان، فقد أثار اشمئزازها هذان الساذجان البريئان بما حملاه من أخبارٍ كارثيّة. كانت القصّة بأسرها مقزّزة لدرجة شعرت معها بالحاجة لافتعالِ العنف، لتهشيم شيءٍ يحظى بالاحترام والتقدير، لتدمير شيءٍ ما. لكن الجوّ شديد الحرارة؛ لقد أحسّت حينئذٍ بأنَّ الجو حارٌ بما لا يدع مجالًا للقيام بأيّ شيء. كان ثوبها ملتصقًا بجسدها؛ والحرارة العالية تحول دون التفكير بأيٍّ شيء. ومع ذلك، كانت الأشياء التي يُستحسن تدميرها، في متناول يدها: كلُّ ما يحيط بها، هذا الأثاث بطرازه البروسيّ الطاغي سيمثل هدفًا رائعًا. ارتمت على كرسيّ في غرفة المعيشة التي لا تشوبها شائبة ونظرت حولها بعينين مرهقتين. لم تشعر بأيّ دافع، فالنظافة الصارمة بلّدت أحاسيسها، كلُّ شيء كان يبلّد أحاسيسها، لكنّها لم تكترث للأمر. انفجر الغضب داخل رأسها، وانحسرت المشاعر بعيدًا. عاينت أنحاء الغرفة التي بدت لها غريبة تمامًا، مع أنّها سبق أن نفضت

الغبار ولمّعت وغسلت كلّ محتوياتها آلاف المرّات. شعرت بالخواء والإرهاق.

أخيرًا، أيقظتها كلمة «تعقيم» من سباتها. وقفت بفتورٍ وتوجّهت إلى المكتبة، وأخرجت القاموس على نحوٍ أعمى. «يجعله غير قادرٍ على الإنجاب». إذًا، فمبيضاها، اللذان تطوّرا بشكلٍ طفيف بفضل السيدة شتولتس، كان من المفترض أن يُعادا إلى وضعهما السابق بأمرٍ من سلطات المقاطعة، أو حتى أن تتمّ إزالتهما من جسدها، لمزيدٍ من الأمان. بذلك أرادت المحكمة ضمان ألّا يُولَد أطفالٌ يعانون البلاهة. لكن هذا كان ضربًا من الحماقة بالتأكيد، قالت لنفسها: بلغ ذلك من البلاهة مبلغًا يوازي عدمَ تحمُّل وجود أيّة ذرّة من الغبار، لأيّ سببٍ من الأسباب، في أيّ مكان، ولا حتى على طول نصف مترٍ من أحد الألواح.



٩

بدأ النّهارُ بسماءٍ صافية وأشعة شمسٍ حادّة؛ أمّا الثلجُ فكان يجرحُ النظر. انفرجت أسارير الحياة من جديد. في «پلاس رويال»، مقابل المنتجع الحراريّ، كان الاحتشادُ عامرًا؛ أتراها محاولة للتعويض عن افتقادهم للشمس؟ حين تلاقتا في غرفة تبديل الملابس، اقترحت آنا الذهاب في نزهةٍ بعد الظهر. إلى أحد الينابيع ربّما، إذا سمح لهما العمرُ الطّاعن والمفاصل المتهالكة، بالرغم من الثلج والتضاريس الجبليّة وغيرها. وقد استسلمت لوته للسُّخرية الذاتيّة التي تضمّنتها كلماتُ آنا.

كلٌّ منهما تتّكئ على عصا، اجتازتا «لو پوّون پيير-لو-غران». ألقتا نظرةً خاطفة خلال المبنى. اخترقت النظرة نوافذ بأقواس عالية فوق الباب، لتخرج من نوافذ ذات زجاج مطليّ يتألّق بألوان الباستيل تحت ضوء الشمس الخافت. قرّرتا بدء النزهة عند «سوڤونيير»؛ النبع الأقدم في مدينة سپا، من دون الذهاب إليه عبر الغابة؛ بمسالكها الوعرة التي يصعبُ السير عليها، والتي تحملُ أسماء شاعريّة مثل: «ممشى الفنّانين» و«ممشى الزّان»، إنّما بارتياد الطريق إلى فرانكورشام ببساطة، كي لا تتوها. أثناء النقاش الذي سبق اتخاذ هذا القرار،

لاحظت كلٌّ منهما القلقَ عينه في الأخرى، الميل المفرط نفسه لتوقُّع المساوئ التي قد تحدث في الطريق. أهي علامةٌ من علامات تقدُّم السنّ، أم تُراها خصلةٌ عائليّة؟

ذاب الثلجُ كلُّه عن أغصان الأشجار. أثقلهما الجهدُ أثناء صعود تلّةٍ شديدة الانحدار. أخذت آنا تلهث على نحوٍ رهيبٍ. لم تعانِ لوته من ضيق التنفُّس؛ وقد منحها هذا الاختلاف الصغير شيئًا من الرِّضا: فقد شعرت على الدّوام بالضعف والتعب في مواجهةِ حيويّة آنا التي لا تعرف الكلل. سرعان ما اعتراها الخجلُ من أفكارها. فبالتأكيد لم تكن في منافسةٍ مع هذه المرأة التي كانت شقيقتها؟

- «هلّا أخذنا استراحة».

مدّت آنا يدها ووضعتها على ذراع أختها. توقّفتا عند حافة الطريق، بين الحين والآخر، كان ثمّة سيّارة تتخبّط في الثلج الذائب. وقفتا هناك متجاورتَين، وحدّقتا في الأفق، صوبَ التلال البيضاء الممتدة أمامهما، هادئة بلا حراك، كما لو أنّها نتيجة لخيالاتهما الخاصّة.

- «هناك أسطورة متعلِّقة بنبع سوفونير»، قالت آنا. «غطَّ القدّيس ريماكل، شفيع سبا، في النّوم أثناء صلاته بجانب النبع. تأنيبًا له، شاء الربُّ أن يُغرق قدمه في الأرض لتترك أثرًا في الصّخر. اعتاد الرجال المتزوّجون حديثًا أن يأخذوا زوجاتهم إلى النبع منذ العصور الوسطى؛ فقد ذاع صيته في تعزيز الخصوبة. وإذا وضعتِ العروس قدمها فوق الانطباع الذي تركه سانت ريماكل وشربت من مياه النبع، فيمكنها الثقة بأنّها ستنعمُ بمجيء

الورثة. قصةٌ جميلة، أليس كذلك؟»، ضحكت. «ربّما كان النبع غنيًّا بالهرمونات!».

- «إنها بالطبع دعاية من العصور الوسطي لجذب النّاس إلى زيارة النبع»، قالت لوته.

واصلتا المشي. استمرّ الطريق في الارتفاع أكثر فأكثر.

- «أخالُ أنّنا نتسلّق جبل الجلجثة»[١]، تنهّدت آنا.

قادهما الطريق إلى قلبِ غابةٍ من أشجار الزان؛ انتصبت جذوعٌ لامعة وداكنة على الجانبين. انفتح جوفٌ على يسار الطريق، يتدفّق فيه جدول، يتعرّج مسارُه الأسود عبر الثلج. باستثناء مرور سيّارةٍ وحيدةٍ، فقد كانتا وحيدتين تمامًا لأوّل مرّة. عزّزت هذه العزلة من التئام الشمل، أكثر بكثير مما فعلت الأماكن العامّة التي اجتمعتا فيها من قبل. وحدهما فحسب، في الآردين[٢]؛ في مكانٍ ما من هذه الغابات، وهذه التلال، حيث تصادمَ الشرقُ مع الغربِ مرّتين.

- «آخ يا قدميّ المسكينتين»، قالت آنا.

على مرمى نظرهما، ظهر سقفٌ هرميٌّ سداسيّ صغير، في مستوى أخفض من الطريق بقليل. ثمّة فتحةٌ صغيرةٌ في الأرض امتلأت بماء بنيّ. أمّا البيت الصغير فمن الواضح أنّه أُقيم لحماية المزار. انطباع القَدَمِ

---

(١) موقع خارج مدينة القدس القديمة، يُعتقد بحسب الإنجيل أنّ يسوع قد صُلب عنده. (المترجم)

(٢) الآردين: منطقة غابات تقع بين بلجيكا ولوكسمبورغ وفرنسا، شهدت معارك عديدة. (المترجم)

كان هناك أيضًا، في الأرضيّة الحجريّة الصلبة، على مقربة من صنبورٍ لم تجرؤ أيٌّ منهما على الشرب منه. تبادر لخيالهما أنّهما ستعثران على شيء يفور متصاعدًا من الأرض بطريقةٍ تلقائيّة، لكن الظاهر هنا أنّ كلّ شيء مخفيٌّ عميقًا تحت البناء السخيف الذي لن يبدو في غير محلّه لو أنّه كان ضمن مقبرةٍ كاثوليكيّة.

- «سيشعر القدّيس ريماكل بالحَرَج»، قالت آنا بخيبة أمل.

- «والمقهى مغلق»، أشارت لوته برأسها نحو حانةٍ بدت مهجورة ومظلمة.

- «اثنتان من العجائز لن تدرّا مالًا يُذكر»، قالت آنا. «حسنٌ، لقد بنوا لنا جدارًا صغيرًا من الطوب، فلنمنح أقدامنا المسكينة بعض الراحة».

وقد كان هذا مقصد رحلة حجّهما التي أضرمت نيرانًا في مفاصلهما: بقعةٌ على جانب الطريق، خالية من الرومانسيّة، مهيّأة لأغراض السياحة.

- «لو كان ثمّة نبعٌ للخصوبة كهذا في منطقتنا»، قالت آنا مازحةً، «لشربت منه دلوًا تلو الآخر في ذلك الوقت، بلا شكّ».

- «ألم تساعدك الحبوب التي تناولتِها آنذاك؟»

- «أوه!»، دحرت الفكرةَ بعيدًا كما لو كانت تطارد ذبابة، «كلُّ تلك الأشياء الأنثويّة، إن جاز لي القول، لم تنجح معي أبدًا. دورتي الشهريّة غير طبيعيّة. وظلّ رحمي في غير موضعه: فبعد سنواتٍ من الحرب، أظهرت صور الأشعة السينيّة أنني حين كنت في طور النمو، وبسبب مشقّة أعمال المزرعة، فقد انغرز عمودي

الفقري بعمقٍ شديدٍ داخل حوضي. وإلّا لكنت أطول بعشرة سنتيمترات، مثلك».

تراءت أمام لوته صورتها الجماعيّة مع أولادها وأحفادها التي التُقطت بمناسبة عيد ميلادها السبعين، صورة تعجُّ بنسلها. خامرها شعورٌ بالذنب لوهلةٍ؛ شعور مكدِّر مبعثُه انقلابُ الأدوار. ففي النهاية، تجشّمت آنا عناء العمَل عن شخصين اثنين. فلو كانت رئتاها سليمتَيْن، لنشأت، هي الأخرى، في مزرعة جدِّها وأُرغمت على العمل. فكرةٌ أصابتها بالدّوار. انطوى ذلك على تعسُّفٍ لا يُفهم؛ فلو أصيبت آنا بالسلِّ بدلًا منها، لحدث كلُّ شيء بالاتجاه المعاكس. أكانت ستُقدم على الخيارات نفسها حينئذٍ؟ في حيرةٍ من أمرها، نظرت إلى خُلاصةِ الحياةِ الماثلة بجوارها. أغرقتها كلُّ هذه الأفكار، بما فيها من قابليّةٍ للانعكاس، في دوّاماتٍ من الخواء الخطير. وقد اتّضح أنّه كان من الأفضل بقاء الأمور على حالها. «لا تثقي بكرنبة[1]؛ الكرنبة تبقى كرنبة إلى الأبد»، قال لها أبوها الهولنديّ، الذي ما كان، بدوره، أهلًا للثقة على الإطلاق. وفي أثناء الحرب، جرى تحديد الفرق بدقّة بين أولئك الجديرين بالثقة والبقيّة المخالفة. كان عليهم أن يفعلوا ذلك، ولولا هذا التقسيم الصارم لما استطاعوا الخروج منها. إمّا أن تكون متعاونًا مع النازيين أو لا. لم يختفِ هذا التقسيم مع انتهاء الحرب، كلُّ ما تغيّر هو صيغة الفعل؛ تحوّل الحكمُ إلى الزمن الماضي.

---

(١) كان الهولنديّون يستخدمون كلمة الكرنب اختصارًا لاسم الطبق الأوروبّي التقليدي، مخلّل الكرنب، كإهانة للعرق الألماني، لا سيّما الجنود المشاركين في الحربين العالميتين. (المترجم)

- «دعينا نذهب»، قالت مرتجفة، «بدأتُ أشعرُ بالبرد».

تابعتا المشي بالرغم من الآلام التي شبّت في مفاصلهما احتجاجًا على استئناف المسير. توارت الشمس من وراء الأشجار؛ وأخذ ضوؤها المرتدّ على الغيوم يلقي توهُّجًا ورديًّا فوق الحقول التي يغطّيها الثلج. وبينما كانتا تقتربان من المركز المكتظ بالمباني لمدينة سبا، ظهرت صورةٌ ظلّيّة لفيلا عتيقة برزت فوق الأشجار على يمين الطريق. توقّفت لوته.

- «انظري، يا له من منزلٍ فاتنٍ!»، صاحت قائلة.

- «خِربة حقيقيّة»، قالت آنا ببرودٍ.

- «يا للخشب المنحوت...».

مشت لوته إلى حافّة المنحدر. بدا المنزل، المظلم والغامض وسط الشَّفَق، مبنيًا من شظايا الأحلام. كان شامخًا ومربّعًا، وفي كلّ طابق، ثمّة شُرُفات من الخشب المطليّ باللون البنيّ الداكن على كامل امتداد الواجهة، تتصل مع بعضها البعض بسلالم خشبيّة. تنفتح الأبواب على الشُّرفات بمصاريع ذات نقوش شبكيّة ناعمة. أمّا الأفاريز العريضة البارزة فقد زُيّنت بمنحوتاتٍ مزركشة. لا بُدَّ أنه كان أمرًا في غاية السُّرور، راحت تفكِّرُ، الاستيقاظ في هذا المنزل، وفتح المصاريع، والخروج إلى الشّرفة بقدمين حافيتين والتملّي في الحديقة تحت شمس الصباح الباكر. يبدو أنَّ المنزل قد نال عقابًا لأنّه ضمّ تلك الحياة الهانئة بين جدرانه. هناك ثقوبٌ سوداء خلف النوافذ المكسورة، مصاريع ملتوية ومتهدِّلة، وأجزاء من السلالم تتدلّى كما لو أنّها قد قُطعت للحصول على حطب.

- «منزل هارب من قصص تشيخوف»، تنهّدت لوته.

- «بل منزل لأثرياء لم يلمسوا ممسحة الغبار يومًا»، صحّحت آنا. «أشفقُ على الخادمة التي اضطرّت للحفاظ على نظافة هذا الكوخ».

- «لقد تركوه ينهار»، قالت لوته ساخطة.

- «من يمكنه تحمّل نفقات منزل كهذا الآن؟ فواتير التدفئة والصيانة والخدم...».

لم ترق برغماتيّة آنا للوته. بدا الأمر كأنّه: العدالة أخيرًا.

- «كلُّ ما هو جميل يختفي»، احتجّت.

- «*هيّا يا حبيبتي*»، قالت آنا وهي تبتعد بإصرار.

يا له من رثاء طويل لمنزلٍ طاعنٍ في القِدم، آيلٍ إلى الانهيار. كانت آنا، أيضًا، طاعنة في السنّ؛ وكانت مصاريعها أيضًا متهدّلة وملتوية.

واصلتا المشي من دون أن تقولا أيّة كلمة. كان استهجان آنا مضمرًا في صمتها؛ وقد شعرت لوته بذلك مع كلِّ خطوة. تزايدت كثافة المباني من حولهما، وكان الثلج قد جُرف عن الأرصفة هنا وهناك. استقبلتهما سبا من جديد؛ فكان ثمّة إحساس بالطمأنينة تبعثه المتاجر بمصابيحها المضاءة وصخب الناس وحركة المرور. قررتا الاستراحة في محلّ للحلويات في «بلاس ألبير» لتناول تورتة خفيفة بالكمّثرى مع بياض البيض المخفوق. وفي الخلفيّة، كان الراديو يبثُّ مجموعة من الأغاني المألوفة.

رفعت لوته نظرها وقد تعرّفت على اللحن.

- «أليست... ليلي مارلين؟».

- «الأغنية رقم واحد من صرعات الحرب»، قالت آنا ساخرة.

- «بلى... ما زلتُ أتذكر الضجّة التي أحدثتها مارلين ديتريش. لقد رأت كيف ستنحو الأمور وغادرت ألمانيا في الوقت المناسب».

- «تقصدين أنّها شقّت طريقها المهنيّ في هوليوود».

الشكُّ ذاته من جديد. من دون أن تعي حجم الحريق الذي ستضرمه، قالت غاضبة:

- «ما زلت لا أفهم كيف أنكم جميعًا لم تتوقّعوا حدوث ذلك. ما كان هتلر ليحظى بموطئ قدم عندنا، بالرغم من أزمة الكساد...».

- «لكنكم لم تفقدوا الثقة بأنفسكم كما حصل لنا. إنّه، هذا المهرّج، مَن أعادها إلينا. بمسيراته واجتماعاته الحزبيّة وخطاباته. بالألعاب الأولمبيّة الأشهر على مرّ العصور. وقف الأجانب يهتفون مبتهجين على المدرّجات، فيما كان هتلر يستضيف العالم كلّه. إنَّ أحدًا لم يقل: لا خيرَ فيك. على العكس، فقد جاؤوا كلُّهم. فضلًا عن الصحف والدوريّات والإذاعات وتقارير السينما التي حملت كلّها رسالةً واحدةً لا غير. كنتِ تتلقّينها كلَّ يوم، وليس هناك سوى نسخة واحدة فقط... تجرّعناها كما لو كنّا نتجرّع إعلانًا. وقد ضربت جذورها عميقًا داخل أذهاننا، ببطءٍ وثباتٍ. أوه، لا يمكنكِ تخيُّل ذلك...».

تنهّدت آنا؛ وغرزت شوكتها فجأةً في التورتة.

- «كانت الصناعة في طور ازدهارها. لم يتسكّع الفتية في الطُّرقات؛ بل كانوا في «شبيبة هتلر» ويذهبون إلى المدارس منتعشين سعيدين.

خضعوا للتدريب استعدادًا للخدمة العسكريّة حتى يصبحوا جنودًا أقوياء فيما بعد. وحين اندلعت الحرب، كانوا معتادين مسبقًا على المعسكرات وانضباطها... كان كلُّ شيء مُخطَّطًا له، لكنّ أحدًا لم يدرك ذلك. انخرطت الفتيات تلقائيًّا في فرق «فتيات البرق» التابعة لقوّات الدفاع. وبالنسبة للشابّات المتميّزات، كان ثمّة «رابطة الإيمان والجمال» في الـ ب.د.م، حيث تعلّمن الإيقاع والرقص والغناء والموسيقى: وهكذا كسب النازيّون الشباب اللامعين إلى صفِّهم. كان عالمًا منظّمًا وجميلًا ورائعًا».

على الرغم من نبرة صوتها الساخرة، تحدّثت آنا بصوتٍ عالٍ لدرجة أنّ لوته أومأت متوسّلةً إليها الهدوءَ، وتلفّتت حولها بتوتّرٍ.

- «حان الوقت لأن تفهمي»، استأنفت آنا بالصوت العالي نفسه، «فما زلتُ أشعرُ بمعارضتك لكلامي. لقد أُعفيتِ الأمّهات من رعاية أطفالهنّ، لم يكن هناك ملل، ولا إدمان على المخدِّرات، وكلّ هذه الفوضى التي نعيشها الآن لم يكن لها وجود. معظم الناس في عمري ممّن عاشوا آنذاك ما زالوا يحلمون بذلك الزمن. عليكِ أن تتحدّثي إلى قائدة سابقة في الـ ب.د.م أو في خدمة العمال، وعندها سينتصب شعرُ جسدك من القشعريرة. لقد كان ذلك بالنسبة لهم صباهم، أفضل سنوات عمرهم، *كان شيئًا رائعًا!*».

حدّقت لوته فيها. بدت آنا كأنّها تنتفخُ أكبر فأكبر فيما تردِّدُ ترنيمة المدائح هذه، كما لو أنّها -وشوكة الحلوى في قبضة يدها- قد اكتسبت

أبّهة وحشية. هذه الغطرسة، هذه الحماسة القاتلة المتدفّقة من فترة ما قبل الحرب، قد عمّت مخبز الحلويات بأسره.

- «ومع ذلك، فهناك استثناءات؛ أناسٌ لم يفقدوا رشدهم!». كانت لوته تتحدّث عكس الريح، وقد تطايرت كلماتها عائدةً لتلطمَ وجهها، وشعرت بضعفٍ شديدٍ في مقاومتها. «حتى عندما يفقد شعبٌ كاملٌ رشدَه على هذا النحو، ستجدين بينهم استثناءات».

- «بالطبع. لكن المعارضة السياسيّة نُحّيت جانبًا في الحال، كما تعلمين، لقد تمّ استئصالهم بدقّة. أمّا البقيّة، المثقّفون، والأشخاص الأذكياء، وأولئك الذين كانوا على اتصالٍ مع الأجانب فتمكّنوا من الحصول على معلوماتٍ أخرى، أو أشخاص كالعمّ هاينريش ممّن فهموا الأمر بحدسهم: كلُّهم أدركوا أنّهم سيزجّون أنفسهم في المخاطر إن فتحوا أفواههم. لذا لم تُسمع أصواتٌ معارضةٌ. كلُّ الأيدي كانت مرفوعة نحو الجهة نفسها، نحو الجهة الوحيدة...».

- «لكن ماذا عنكِ يا آنا... لماذا لم تفعلي شيئًا؟».

- «كنتُ خادمة، خادمة للغير، لا أحد. توجّب عليّ أن أبقى هناك طوال الوقت، من أجل *السّيدة*، كي أنفّذ ما تريده، بسرعة البرق. لم أكن أحبّ هتلر، لكن كلّ شيء كان على ما يرام بالنسبة لي، وما كان الأمر ليهمّني في النهاية».

احتقن وجهُ لوته بالدم المتصاعد. بطريقة أو بأخرى، انغمست آنا في المراوغة؛ وتحت رايةِ الصّراحة، كانت قد نصبت ساترًا من الدخان. لكن لوته لم تسمح لها بالخداع.

- «وماذا عن اليهود؟»، قالت بشراسة. «الاختفاءات، ليلة الزُّجاج المكسور[1]...؟».

- «الجواب الرسميّ على هذا السؤال كان: لقد حميناهم وإلا كان سيقتلهم الغضب الشعبيّ. اليهود أصلُ كلّ كوارثنا: الحرب العالميّة الأولى، معاهدة ڤرساي المخزية، الكساد، انحطاط الفنون... أشياء ما زلتِ تجدينها في عقول بعض الألمانيين، لقد جرى ترسيخُها بشدّة. اسمعيني... لوته...».

انحنت آنا فوق الطاولة حتى اقتربت من لوته. علقت بُقعة من رغوة بياض البيض على شفتها العليا. شعرت لوته بأنّ هذه البقعة الصغيرة تمثّل آخر أعداء النظام النازيّ؛ وسرعان ما خرج لسانٌ ثخينٌ لامعٌ ليلعقها بعيدًا عن موقعها المتزعزع أعلى شفتها.

- «اسمعيني، بإمكانك طرح كلّ هذه الأسئلة لأنّك تعرفين كلَّ ما حدث. لم نكن نعرف إلى أين سيقودنا كلّ ذلك لذا لم نكن نطرح الأسئلة. لماذا تنظرين إليّ هكذا؟».

- «*لم نكن نعرف*... لقد سمعنا جميعًا ذلك لفترة طويلة».

أخذت آنا تنخز قاعدة التورتة بشوكتها، وبدت غاضبة حقًّا. كان هذا النخزُ يثيرُ أعصاب لوته التي كانت على وشك الغضب بدورها.

---

(١) إشارة إلى سلسلة المذابح ضد اليهود التي أطلقها زعماء نازيون في التاسع والعاشر من نوفمبر ١٩٣٨، سميت كذلك بسبب تناثر الزجاج المكسور في الشوارع بعد تدمير الشركات والمعابد والمنازل المملوكة لليهود. (المترجم)

- «كلُّكم تشيرون إلينا بأصابع الاتهام»، قالت آنا بكلماتٍ لاذعة، «بقيتم تفعلون ذلك منذ خمسة وأربعين عامًا، أمرٌ في غاية السهولة. لماذا سمح الشعب الألمانيّ بحدوث شيءٍ كهذا، تولولون. لكني سأوجِّه السؤال إليكِ: لماذا أنتم، في الغرب، سمحتم لذلك بالحدوث؟ تركتمونا نسلّح أنفسنا بكلّ هدوء؛ بينما كان من الممكن أن تتدخّلوا بموجب معاهدة ڤرساي. تركتمونا نغزو الراينلاند من دون عائق أو معارضة، ومن بعدها النمسا. ثمّ تساومتم معنا على تشيكوسلوفاكيا. حذّركم الألمان الذين هاجروا إلى فرنسا، إلى إنكلترا، إلى أمريكا. لم يصغِ إليهم أحد. لماذا لم يُوقفوا هذا الأحمق حين كان ذلك ممكنًا؟ لماذا تركونا نلاقي مصيرنا، تحت رحمة الطاغية؟».

- «إذًا نحن الفاعلون في النهاية!».

- «لماذا؟ هذا هو سؤالي؟».

التمعت عينا لوته.

- «إنّك تحرّفين الأشياء على نحوٍ جميلٍ يا آنا»، قالت وهي تضحك ضحكةً ناقمة، «هذه حقًّا أجمل حجّة سمعتها لتبرئة الألمانيين».

وقفت يطفح داخلها الغضب وقالت بغطرسة:

- «اسمحي لي أن أدفع».

رفعت معطفها عن ظهر الكرسيّ وتوجّهت إلى المرأة عند طاولة النقود. آهٍ، لقد أمضّت هذه المشية باطنَ ساقيها بشدّة.

وقفت آنا مذعورة. لماذا انزعجت لوته فجأةً؟ لقد كاشفتها بأفكارها

بمنتهى الصّدق. لم تأتِها هذه الأفكار على غفلة: بل إنّها قرأت أكوامًا من الكتب في محاولة لفهم كلّ هذه النماذج المخيفة. ومن المشكوك فيه، أن تكون لوته، قد كلّفت نفسها عناء القراءة عن هذه المواضيع.

- «لوته»، ناذت، «انتظري لحظة...».

- «لقد تعبتُ»، قالت أختها وقد أدارت ظهرها. لقد بدت، فجأةً، طاعنة في السنّ وواهنة كثيرًا. «أظنّ أنني متعبة حقًا».

١٠

حين انغلق باب المخبز وراء لوته، تناولت آنا معطفَها الشتويّ عن الكرسيّ. لقد أحسّت بالاختناق بين كلّ هؤلاء النِّسوة؛ عمَّ الدُّخان المكان ولم تلاقِ آراؤها التي صاغتها بشقِّ الأنفس سوى النفور والتباس الفهم من الشخص الوحيد في العالم الذي كانت تودُّ إقناعه. كان سوء التفاهم هائلًا. مرّت بصعوبة بين كرسيَّين واتجهت إلى محاسب الزبائن. كانت لوته قد دفعت عنها أيضًا؛ أكانت تريد تبرير مغادرتها المتسرِّعة بهذه الطريقة؟ خرجت آنا إلى الثلج؛ حاولت أن تتنفّس بعمقٍ، لكنْ بدا كما لو أن رئتَيها قد انكمشتا. كان قلبها يدق بسرعة وبشكل غير منتظم. هنا، الآن، قد يحصل ذلك، هكذا بكل بساطة، فجأة، وخلافُها مع لوته لن تتمَّ تسويته أبدًا. سارت ببطءٍ، جاهدةً لضبطِ تنفُّسها؛ ربّما كان الشعورُ المباغت باللا جدوى هو ما سبّب لها الضيق.

تنفّست لوته الصعداء. لقد ملأها العملُ التخريبيّ الذي ارتكبته للتوّ بالفرح، وأحسّت بالتحرُّر؛ لقد سمحت لآنا بأن تغالي في الاشتباك معها، إلى حدٍّ تجاوز مقدرتها على التعاطف. بات الأمرُ كما لو أنّهما متورِّطتان في حربٍ زائفة. ألقت كلٌّ منهما حججًا باليةً سُمعت آلاف

الممرّات، والتي بدت في ظاهرها منصبّةً مباشرةً في صميمِ العداء الصريح بينهما، فيما كان على المحكّ ما هو أكبر بكثير من ذلك. شيء سرعان ما يتوارى بمجرّد أن تحاول مراقبته عن كثب عبر عدسة المنظار.

وصلتا إلى المنتجع الحراريّ في الوقت نفسِه من صباح اليوم التالي، إلّا أنّ لوته كانت واقفة أسفل الدرج بينما كانت آنا، ولأسبابٍ مجهولةٍ، على الجانب الآخر من الطريق، تنتظر مرور موكبٍ عسكريّ. لكنّها بالتأكيد لم تكن تترقّبها، أليس كذلك؟ ما كانت لوته لتلاحظها لولا تلويحها وصراخها، بين المركبات التي تسير ببطء نحو الغرب. انتظرت لوته. لقد حظيت بنومٍ جيّد تلك الليلة بعد أن قرّرت ألّا تسمح لآنا بتكديرها بعد اليوم. أمّا الآن، فها هي هناك تلوّح؛ ثمّ تختفي للحظةٍ خلف سيّارة دفعٍ أو دبّابة أو مركبة إسعافٍ عسكريّة. أمامها، سار الموكب الذي لا نهاية له، زاحفًا وفق منطقه الخاصّ. رؤوس تعتمر الخُوَذ تتطلّع إلى الأمام بنظرةٍ عسكريّة تعطي انطباعًا بأنّهم قد استولوا على سبا بالقوّة، لغرض التمكّن من العبور فيها فحسب. أخذت لوته تقهقه. ورأت آنا تضحك بدورها على الجانب الآخر. هل كانتا تكتشفان، في اللحظة عينها، أنّ ما يفصل بينهما ليس سوى استعراض زائف؟ حين مرّت آخر دبّابةٍ مموّهة، عبرت آنا الشّارع وهي تهزّ رأسها.

كأنّ شيئًا لم يحدث قبل يومٍ، صعدتا درج المنتجع الحراريّ، تعضد كلٌّ منهما الأخرى. يبدو أنّ اليوم السّابق قد أوضح أمرًا شائكًا؛ ليس بالإمكان تتبُّع التقلُّبات التي تعتري الروح البشريّة. وفي وقتٍ لاحقٍ من اليوم، التقتا مرّة أخرى في أحد الممرّات. جالستين على مقعدٍ طويلٍ

أبيض، ناقشتا مزايا الحمّامات المختلفة على العضلات والمفاصل كما لو أنّهما زائرتان مخضرمتان في منتجعٍ صحيٍّ. لقد انتهت الذروة، وينبغي أن تظهر النتائج الاستشفائيّة تدريجيًّا. قرّرتا تناول العشاء ذلك المساء في مطعم يقابل مبنى «لو پوّون پيير-لو-غران». وحسب رأي آنا، التي لا تفوتها فائتة، فإنّ هذا المطعم ذو جوٍّ بهيجٍ وأسعارٍ معقولة.

*

لم يخرج والدُ لوته سالمًا من مرضه. أخذت ساقه المصابة بخثرةٍ دمويّة تعرج قليلًا مع كلِّ خطوة. أمّا قلبه فكان ينبض بسرعة في بعض الأحيان ومن دون سبب. ثمّ كان يقبض على صدره كما لو أنّ لحظة الاحتضار قد أزفت. أعادت هذه الإشارة إحياء الخوف القديم في قلوب الجميع. توقّفت المحادثات، أُطفئت الموسيقى، فُتحت إحدى النوافذ؛ بالرغم من علمهم أنّه يستغلّ خفقان قلبه في الأوقات التي تفشل فيها محاولاتُه الأخرى لجذب الانتباه. لقد بات محور كلّ شيء وفي كلِّ الأوقات أثناء فترة مرضه الطويلة؛ كرّست زوجته نفسها له تمامًا كما في بدايات زواجهما قبل أن يشتّتها مجيء الأولاد. بعد شفائه، عاد الأطفال الصّغار إلى المنزل ورجع إلى ديدنه القديم، على نحوٍ أسوأ من أيّ وقتٍ مضى، والذي تمثّل في مضايقة الأطفال (أطفالها) بمطالب وعقوبات مفرطة. كانت أيسر الطرق للدخول في شجارٍ معها؛ وخلال التصالح، كان يستعيد الحقوق الحصريّة لامتلاكها لفترةٍ من الوقت. وبدلًا من أن يكون في غاية الامتنان لنجاته من ثلاثة أسباب مختلفة للموت، خامرتْه المرارة، كما لو أنَّ الحياة المستعادة قصرت عن تلبية توقّعاته بأيّ حالٍ

من الأحوال. اعتاد أيضًا على التنشُّق المتكرِّر، من أحد منخريه أولًا، ثمّ الآخر، فحتى رائحة حياتِه الثانية ما كانت لتسرّه.

كان التنشُّق يثير حفيظة لوته؛ حيث باتت تسمع صوته في كلِّ مكان. خلف الأبواب المغلقة، في آخر الممرّ، عند الزاوية، وعبر جدران غرفة النّوم خلال الليل. حلمت بالهرب من هذا الأب، من التنافر الذي لم يتوقّف عن تحريضه ضمن الأسرة بأساليب مختلفة وابتكارٍ لا ينضب. رغبت أيضًا في الخلاص من تذمُّرِه الدائم. اشتكى من رئيس الوزراء، كولين، الذي لا حول له ولا قوّة، والذي ارتأى مكافحة أزمة الكساد عبر تخفيض إعانات البطالة وأجور موظفي الخدمة المدنيّة. لاحظ والدُها تبعات الأمر بوضوح من خلال التنامي البطيء لمجموعة تسجيلاته. كما تذمّر من الحزب الشيوعيّ، الذي ناشد كلّ الأحزاب السياسيّة للتخلُّص من الخلافات الأساسيّة فيما بينها وتوحيد الصفوف ضدّ الحركة القوميّة الاشتراكيّة؛ الآن لم يعد قادرًا على تسليط سيفه حتى في وجه الباباوات والكالڤينيين! انتقد هتلر، الذي كان مجرّد معتوهٍ في البداية، لكنّه أخذ، شيئًا فشيئًا، يتمتّع بمكانةِ مجنونٍ خطيرٍ. كما انتقد الشعب الألمانيّ الذي انقاد خلف هذا المجنون الخطير، متناسيًا بسهولة أنَّ أمّه وأسلافه من ناحيتها، كانوا ألمانيّين على السّواء، بمَن فيهم قريبته الموسيقيّة. متنشّقًا بعنف، كان ينقضُّ على الجريدة حالما تسقطُ في صندوق البريد، من دون أن يفلتها، مثل كلبٍ لا يتخلّى عن عظمةٍ صارت بين أنيابه. كلّما سمعتْه لوته يشجب الشعب الألمانيّ، زاد تعاطفها معهم. كان أدنى تعليقٍ مهينٍ لهم يثير شوقَها للقاء آنا من

جديد. وإذا كان والدها يعتقد أن الألمانيّين غير صالحين، فإنّها تودُّ لو تنتمي إليهم.

وبالرغم من ذلك، فقد سافر ثيو دِ زوان، خطيب ماري، إلى ألمانيا برفقة صديقَين بعد سماع شائعاتٍ حول وفرة فرص العمل هناك. عاد بعد مرور أسبوعين. وبدلًا من كسب المال، كان قد أنفق كلَّ مدخراته على كاميرا من نوع لايكا، علّقها على صدرِه مثل غنيمة حرب.

- «متى ستفهم ذلك!»، قالت والدة لوته، «نحن لا نشتري بضائع ألمانيّة من حيث المبدأ، وأنت رجعت إلى البلد تتبختر بكاميرا لايكا باهظة الثمن».

لكنّه لم يكن مبتهجًا بما اقتنى، بل كان هذا الفعل بمثابة بلسم لجرحه لا أكثر. كان متجهّمًا ومقتصدًا في الكلام. نعم، هناك فرص عمل كافية، لكنّه لم يحبّذ البقاء في ذلك البلد. فنصف الشعب يرتدي الزيّ الموّحد، حتّى الأطفال؛ وقد ولّدت العمليّة العسكريّة لضمِّ النمسا حماسةً شعبيّةً مقزِّزة، ملصقات ورايات في كلِّ مكان، ولافتات مكتوب عليها: *«شعب واحد، رايخ واحد، فوهرر واحد»*. لقد رأى كلَّ ذلك بأمِّ عينيه ولم يرغب في أن يكون له أيّة علاقة به.

- «كان بوسعي إخبارك ذلك من البداية»، قال له والدُ زوجتِه المستقبليّ، «وحينها، كنت ستوفِّر على نفسك عناء تلك الرّحلة بأسرها».

لم تثق لوته بهذا الغُراب المشؤوم. ربّما لم يرغب أحد في توظيفه؛ فعلائم التراخي كانت باديةً عليه. كانت تجربته في ألمانيا مترعَةً بخيبة

الأمل فعلًا، وقد تمحورت حول حقيقة أنّ هذا البلد لا يستقبل كلَّ وافدٍ جديدٍ بذراعين مفتوحتين.

وفي محاولة لتعويض هذا الخسران، كان ثيو يصبو لأن تزوّده الكاميرا بصورٍ مذهلة. طلب إلى جيت ولوته أن تكونا فأرَيْ تجاربه. وبما أنَّ كلتيهما لم تستطع أخذه على محمل الجدّ، ارتدت كلٌّ منهما، على سبيل المزاح، سروالَ رجلٍ وسترةً وقبّعة هومبورغ. بشفاههما المطليّة بإفراط، سمحتا لنفسيهما أن تُخلَّدا قرب برج المياه، بوضعيّاتٍ ذكوريّة، الكتف على الكتف، والسيجارة في الفمّ؛ حدّقتا في الكاميرا كما كانت غريتا غاربو ترمقُ العدسة بنظرة أبي الهول الثابتة؛ في تقليدٍ لمارلين ديتريش إذ تغنّي: «*أنا جاهزة للحبّ، من رأسي وحتى أخمص قدميّ*». وفي النهاية، انفجرتا في ضحكةٍ رهيبةٍ جامحة. التقط ثيو صوره، ببرودته المعتادة، بعد محاولاتٍ لضبط بؤرة العدسة وتحديد زاوية الرؤية. وحين شوهدت المرأتان المحنكتان، المتيقظتان، غير الماليتين، المستقلّتان، على الصور الصغيرة الدارجة ذات الحواف المتعرّجة، ثار فضول الجميع. أتكونان هما حقًّا؟ نقّلت الأمُّ الصّور وهي تبتسمُ لزائراتها بفخرٍ: «انظرن إلى ابنتيّ ما أحلاهما!».

شُغِّلت سمفونيّة لمالر على القرص الدوّار. انضّمت لوته إلى المجموعة المتحلِّقة للاستماع كما لو أنّهم في طقس اعترافٍ دينيّ؛ شلّال ينهمرُ على سفحِ صخرةٍ في فسحةٍ من الغابة بلا أشجار، ورعودٌ مهدِّدةٌ يتردّد صداها من خلف قمم الجبال، وغزلان هاربة. كان سامي غولدشميت يستمع زامًّا شفتيه؛ متخيّلًا أنّه يشارك العازفين. أمّا إرنست

غودريان، الذي كان يحدّق إلى الأمام، متجهّمًا، فقد تراءى له أنَّ الموسيقى تستحضر مزيدًا من الرؤى المكفهِرَّة.

- «من كان قائد الفرقة؟»، قال حين تلاشت النغمةُ الأخيرة، وقد عمَّت الكآبة وجوهَ الجميع لأنَّ التعويذة السحريّة قد بُتِرت للتوّ.

- «ڤيلهلم فورتڤينغلر»، قال والدُ لوته، متنشِّقًا يمنةً ويسرةً.

- «فورتڤينغلر!»، قال غودريان، «إنَّه يعزف للنازيّين الآن!».

- «فورتڤينغلر!»، ردّدت والدةُ لوته مذعورةً.

- «حسنٌ»، تمتم زوجُها، «لقد سُجِّلت هذه السمفونيّة منذ سنوات، واستمتعنا بسماعها عدّة مرّات».

تلفَّت غودريان حوله قلقًا. أوضح أنَّه قد عاد لتوِّه من ألمانيا. بدا الأمر أشبه باعتذارٍ. كان قد قضى فترة تدريب على يد صانعِ كمنجات شهير. وخلال تلك الفترة، أقام مع عائلةٍ يهوديّة، وقد انتهى به الأمر لأن يكون جزءًا منها إلى حدٍّ ما. وقبل بضعة أيّام، اقترب منه صانع الكمنجات.

- «سمعتُ أنّك تقيمُ مع يهود. إذا كنت تريد إكمال تدريبك عندي، فعليك مغادرتهم بأسرع وقتٍ ممكن».

- «لكن لا شأن لي بهذه القوانين. أنا هولنديّ»، أجاب غودريان.

- «أنتَ هنا في ألمانيا، يجب أن تفهم ذلك جيّدًا. إمّا أن تترك هذه العائلة أو تغادر هذا المكان».

- «حسنٌ، سأرحل»، قال غودريان.

امتلأت الغرفةُ بالإنكار الممزوجِ بالنّقمة. عقّب غودريان بضحكةٍ حزينةٍ. رمقت لوته التلميذ النحيل متردّدة بين التعاطف والشكّ. وجدت صعوبةً في تصوُّرهِ صانعًا للكمنجات؛ نشارةُ الخشب على بدلته التي لا تشوبها شائبة، والحفُّ اللانهائيّ لقطعةٍ من الخشب، إنّها حرفةٌ مرتبطةٌ بالأذرع مفتولة العضلات والثياب المخصّصة للعمل. شغّل والدُها سمفونيّة بيتهوفن التّاسعة، في نسخة كوشر[1]. ألن يكون بمقدورهم بعد اليوم الاستماع إلى الموسيقى بعقليّةٍ منفتحة ودونها تحيُّز؟ «كلُّ النّاس يصيرون كالإخوة»[2]، تردّد صدى هذه العبارة بفخامةٍ؛ تُرى لماذا لم تكن «كلُّ النّاس يصيرون كالأخوات»؟

ومع مرور الأيّام، كانت صعوبة العثور على أعذار لبلدِها الأمّ في ازدياد. لم يسبق أن تزايد الاستماع إلى الراديو كما حدث في أيّام سبتمبر، عندما سافر تشامبرلين[3] إلى ألمانيا ثلاث مرّات لدرء اندلاع الحرب، وأخيرًا، برفقة دلادييه، حيث جرت التضحية بتشيكوسلوفاكيا من أجل السلام. غمر الارتياح قلوب الجميع؛ إلّا والد لوته، الذي ثار غضبه لأنَّ فرنسا وإنكلترا أخلّتا بمعاهدتهما مع التشيك على هذا النحو الجبان.

---

(١) كوشر في اليهوديّة مثل حلال في الإسلام، وهي مراعاة أحكام الشريعة اليهودية، تستخدم بكثرة مع الطعام. (المترجم)

(٢) مقطع من قصيدة «إلى الفرح» للشاعر فريدريش شيلر، التي لحّنها بيتهوفن في المقطع الرابع والأخير من سمفونيته التاسعة. ولهذه السمفونية شأن في الدعاية النازية التي عمدت إلى إقناع الجماهير بأن بيتهوفن كان متعاطفًا مع أيديولوجية العرق النازي وأنّه استخدم موسيقاه، وخاصة هذه السمفونية، للتعبير عن آرائه تلك. (المترجم)

(٣) آرثر نيفيل تشامبرلين (١٨٦٩-١٩٤٠) رئيس وزراء بريطاني ونظيره الفرنسيّ هو إدوار دلادييه (١٨٨٤-١٩٧٠). (المترجم)

- «كلُّ ذلك خوفًا من البلشفيّة»، تنشّق بازدراءٍ. «إنّهم معجبون، في قرارة أنفسهم، بالطريقة التي طهّر بها هتلر بلاده من الشيوعيين».

- «لم يكن خوفًا غبيًّا»، قالت زوجتُه مستخدمةً حججَها المعتادة من جديد؛ «عندما يتولّى العمّال السُّلطة على نطاقٍ واسع، فإنَّ هؤلاء الذين يصلون إلى القمّة أيضًا سيعمدون إلى إرهاب الشعب».

- «هل تعلمين عمّن تتكلّمين؟»، أحسَّ بالإهانة. «تتحدّثين عن ستالين، لقد كان عليه أن يحكم سيطرته على قارّةٍ بأسرها».

ثمّ أصبح عاطفيًّا، كان الجميع يعرف مآل هذا النقاش القديم. لاذت لوته إلى نظريّتها الموسيقيّة. لقد عُيّنت الأدوار مسبقًا بالفعل. كانت أمُّها تعدّ نفسها من المدافعين عن الديمقراطيّة، مطالبةً بإقامة توازنٍ طبيعيٍّ بين الأحزاب؛ أمّا والدُها، فراح يهزأُ بالمبدأ الديمقراطيّ:

- «هل تقصدين الادّعاء بأنّ لدينا ديمقراطيّة هنا؟ فيما الفقراء يزدادون فقرًا!».

سمح لنفسه بالانجراف مع مشاعره، وارتشف قليلًا من الجِنّ؛ فالحرب التي حرص على تفاديها حتّى اللحظةِ الأخيرة تخطّوها الآن. كان ثمّة حربٌ أخرى، أقدم بكثير، تُخاض هنا بذريعةِ الاختلاف في الآراء السياسيّة؛ معركة ظلّت دومًا من دون تسويةٍ حاسمة.

- «إنّك تضحكني»، كانت الكلمة الأخيرة لوالدتها، «فأنت تعلم جيّدًا أنّك، في هذا المنزل، ستصير الطاغية إذا أُتيحت لك الفرصة».

واظبت لوته، منذ فترةٍ طويلة، على ادّخار الأموال اللازمة للرحلة

إلى ألمانيا، لكن مع تفاقم خطر الحرب، كان الجهر بمخططاتها يزداد صعوبة. بمنتهى المازوشيّة، اجتمعوا للاستماع عبر الراديو إلى ملخَّص خطابٍ عدوانيّ ألقاه وزير الرايخ؛ هيس. طمأنوا بعضهم البعض: لن تتأثّر هولندا أبدًا، لطالما اتخذنا موقف الحياد. وعلى أيّة حال، فنصف الهولنديين لديهم قرابة عائليّة مع الألمانيين: أميرنا، والملكة السابقة إيما، وجدّتنا في أمستردام، وما إلى ذلك. كانت وفاة الفنّان لويس ديڤيدز مأساةً أشدّ وقعًا من ضمٍّ ألمانيا لميملاند والغزو الإيطاليّ لألبانيا؛ حيث سارت والدةُ لوته حول المنزل وهي تئنُّ وتصفع جبهتها بملء يديها كأنّها تقرّع نفسها على ما حدث، ثم جلست على المقعد، تحت شجرة الكمّثرى، مهمهمةً أغنياته بحزنٍ.

- «سيظهر باباك المسكين الآن بمظهر سيىء»، قالت حين وقّع هتلر وستالين على ميثاق عدم الاعتداء.

- «إنّها خدعة من جانب ستالين»، أجاب زوجها ضاحكًا على افتقارها للبصيرة. «هناك شيء وراء ذلك. فإبرام اتّفاقٍ، في الوقت الحالي، يصبُّ في مصلحته».

ظهرت الملكة في بثٍّ إذاعيٍّ هادئ: ليس هناك ما يدعو للقلق. أما التعبئة التي صدر مرسومٌ بشأنها، فمن أجل الحفاظ على حياد البلاد. غادر ثيو دِ زوان على متن واحدٍ من مئات القطارات: لم يكن ساخطًا، فأخيرًا، كان لديه ما يفعله.

- «هولندا بجنودها التّنَك»، نخرت والدةُ لوته، وهي تدفع كيسًا من التفّاح والشطائر إلى يدِه.

بعد يومين، اجتاح الألمان بولندا، وعقب يومين أيضًا، أعلنت فرنسا وإنكلترا الحرب على ألمانيا: لم يعد ثمّة فسحة للحوارِ مع هتلر. بيد أنَّ هذه المملكةِ الضئيلةِ التي لا يَعبأُ بها أحد، والماثلة بجوار البحر، غير منحازة لأيٍّ من الطرفَين، ظلَّت واثقةً باستتباب أمنِها.

*

- «كما ترين إذًا، لقد كنتم ساذجين مثلنا»، قالت آنا.

أومأت لوته برأسِها.

واصلتَا تناول الطعام، غارقتين في التفكير. أخذت آنا تهرس كرات البطاطس المقليّة، ما أثار استياء لوته التي قطّعتها إلى أجزاء متساوية بالحجم، الأمر الذي بدا لآنا انشغالًا فارغًا.

- «تُراها طبيعيّة؟»، قالت آنا وهي تمرِّر إصبعها على وردةٍ حمراء متفتّحة بنَماءٍ مريبٍ في إناءٍ رفيعٍ بجانب الطاولة.

- «كلُّها من البلاستيك»، قالت لوته، التي سبق أن شاهدت الوردة حين دخلت.

- «أنتِ على حقّ»، سحبت آنا إصبعها. «الجوّ هنا مظلمٌ للغاية بالنسبة للنباتات. آه... إنّها تذكّرني بصبّارات السيدة شتولتس؟».

ابتسمت.

- «لقد كادت تودي بي، يمكنكِ القول».

*

خفّفت خزانةُ الكتبِ، بمحتوياتها، وطأةَ العبوديّة المقنّعة التي رزحت تحتها آنا. كان تقدُّمها في إتمامِ التطريزة بطيئًا؛ فلم تكن تضعها في حجرها إلّا شكليًّا، حيث تجعّدت التطريزة جرّاء الكتاب المفتوح فوقها. وزّع السيد شتولتس انتباهه بين الجريدة والراديو، اللذين كانا يُعلنان أخبار الانتصارات فحسب.

- «قبل عشر سنوات، كنّا منبوذين من أوروبا، أمّا الآن، فيتكبّد تشامبرلين عناء زيارتنا ثلاث مرّات. من كان يتوقّع ذلك؟»، قال شتولتس بانتشاء. «مدينون بكلِّ شيء لعبقريّة قائدنا».

وفي يوم رأس السنة الجديدة، قدَّم هتلر تلخيصًا شاملًا: «كانت سنة ١٩٣٨ هي الأغنى بالأحداث في تاريخ شعبنا». نما الرايخ الثالث إلى عشرة ملايين نسمة عبر استعادة كلِّ الأقليّات الألمانيّة في المناطق المحيطة إلى حضن الوطن الأمّ؛ *هايم إنس رايخ*[1]. صّرحت السيّدة شتولتس بارتياحٍ أنّها قد تجرّأت أخيرًا على الافتخار، من جديد، بكونها ألمانيّة. بكأسٍ من الزيكت، شربوا نخب الحماسة المذهلة للفوهرر، والخطط الكبيرة التي كان يعدُّها من أجلهم.

لم تفلح هذه النّشوة في التأثير بآنا. فلم يسبق أن راودتها فكرة أنّها ألمانيّة. حين سمعت هتلر وبينش، الرئيس التشيكيّ، يتوعّدان بعضهما عبر الراديو، قالت لنفسها: فليأخذ كلٌّ منهما هراوةً كي يحلّا الأمر بينهما.

---

(١) بالألمانية، وتعني: العودة إلى الوطن، وهي السياسة الخارجية التي اتبعها هتلر لإقناع العرق الألماني القاطن خارج الدولة النازية بضرورة السعي لضم مناطقهم إلى الوطن، وشملت هذه المناطق: النمسا وتشيكوسلوفاكيا ومقاطعات من بولندا وغيرها. (المترجم)

ما علاقتنا بها؟ لقد سئمت هذه المنطقةَ السكنيّة القريبة من مداخن المصانع التي تنفث أدخنتها بلا كللٍ، أمّا روحها فقد ذبلت لما عانته من كبحٍ لتمرُّدها، وكانت تؤدّي واجباتها بروحٍ أقرب إلى الموت. ولكن، ذات يومٍ من أيّام ذلك الشتاء، طفحَ الكيلُ. ومن جرّاءِ حادثةٍ صغيرةٍ وبريئة، انطلقت تلك الشرارة الوحيدة التي لا مفرَّ منها.

كان عليها تنظيف غرفة الطعام عند الخامسة والنصف من صباح يوم الخميس. ما زال الجميعُ نيامًا؛ وقد عمَّ الصمتُ والبرد أرجاءَ المنزل. تحت نافذةٍ كبيرةٍ تطلُّ على الحديقة الخلفيّة، ثمّة رفٌّ من الرخام الأسود، تتوضع عليه نباتاتُ الصبّار. لم تظهر أيّ زهرةٍ صحراويّةٍ غريبةٍ بين الأشواك؛ ففي ظلّ نظام السيدة شتولتس، كانت مسألةُ الإزهارِ مستبعدة. توجّب عليها أن تزيل النباتات عن عتبةِ النافذة، واحدة تلو الأخرى، ثمّ تلمّعها بالشّمع حتّى يعكس سطحها الأسود اللامع صورةَ وجهها بوضوح. وفي وقتٍ لاحقٍ من ذلك اليوم، استدعتْها السيّدة شتولتس.

- «لقد نسيتِ تنظيف عتبة النافذة هذا الصباح».

أنكرت آنا.

- «لا تكذبي، انظري هنا وهنا».

انحنت على ركبتيها، مقلِّدة سيّدتها. ثمّة موضعان لم يجرِ تلميعهما تمامًا. تُركت بعض البقعِ من الغُبشة، التي لم يكن بوسعها رؤيتها آنذاكِ لأنَّ الحديقة، عند السّادسة والنصف صباحًا، ما تزالُ معتمة. نهضتْا واقفتين. انسلَّ ضوءٌ شتويٌّ ثاقب إلى الغرفة. وكان وجهُ السيّدة

شتولتس، الضاجّ باللامبالاةِ والفتور، بمثابةِ درعٍ جليديّ يواجهُ ركامَ الغضب المكبوتِ داخل آنا.

أخذت تفكُّ مئزرها.

- «لا تقلقي أيّتها السيّدة شتولتس، بشأنِ عتبات نوافذك وصبّاراتك والواحكِ الخشبيّة، فلن تمسّها يداي بعد الآن، أعدكِ بذلك».

- «عليكِ أن تتقبّلي بعض الانتقاد»، قالت السيّدة شتولتس.

نظرت آنا إلى الصبّارات، وسبرت الغرفة بأكملها؛ تلك الأشياء التي مرّت يداها عليها، تنضمّ الآن، في اللحظةِ الحاسمةِ، إلى صفّ السيّدة شتولتس.

- «لا يمكنني العمل في هذه الظروف»، قالت بنبرةٍ قاطعةٍ، «هذا النِّظام التافه، هذا الالتزام البروسيّ[1] بالواجبات، لا مكان لي هنا. اتركيني وسط صحراء قاحلة، وسأجعل منها حديقةً غنّاء من أجلك... لكن بطريقتي الخاصّة».

- «آه...»، بدأ الأمر يتضح للسيّدة شتولتس. «أنتِ تريدين أن تكون لك الكلمة الأولى والأخيرة هنا!».

راقبتها آنا، وقد أصبحت المسافة بينهما، فجأةً، باعثةً على الدّوار. ألقت عليها نظرةً فاحصةً، للمرّة الأولى والأخيرة، السيّدة شتولتس، تقف هناك، امرأة قويّة البنية، بجسم مستطيل. إنها تقف هناك، تمامًا

---

(١) بروسيا: مقاطعة ألمانيّة، سكانها من أصول بلطيقيّة، كانت فيما مضى مملكة تتمتع بمكانة بارزة في أوروبا. ويستخدم اسمها لكثير من الدلالات التاريخية والثقافية، ويؤمن البعض بأنّ القيم البروسيّة من تنظيم وانضباط واجتهاد كانت السبب لارتقاء المملكة كقوة عظمى. (المترجم)

كما هي، بكلِّ ما تتسمُ به من ضيق أفقٍ مروّع. غرقت المرأة في تفكيرٍ محمومٍ؛ فقد تطلّب الردّ النهائيّ، الذي من شأنِه أن يحفظ كرامتها، جهدًا هائلًا.

- «أتعرفين ما هي مشكلتك؟ أنّ أفكارك كبيرة وطموحك أكبر..».

انتزعت المئزر من يدي آنا.

- «لن يهدأ لكِ بالٌ حتّى تتربّعين قاعة الولائمِ في «باير»، وتحت إمرتكِ اثنان من الخدم».

لم تكن غيته لتسمح لآنا بالرّحيل. وفي اليوم الموعود، عمدت إلى قفل كلِّ أبواب الڤيلا. جلست على أريكة المخمل الخمريّة مُباعدةً ساقيها، وقد عقدت ذراعيها، وبرزت ركبتاها الناحلتان موجِّهتين لومَها: لا يمكنكِ أن تتركيني هنا وحدي.

- «أين المفاتيح؟».

هزّتها أمُّها؛ لكن غيته لم تحرِّك ساكنًا. تجمّدت آنا بين حقائبها؛ لقد أدركت، في مشاعر الفتاة، تشابهًا أليمًا مع مشاعرها.

- «رميتُها في المرحاض ودفقتُ المياه»، قالت غيته بغطرسة.

كانت تؤكِّدُ رفضها المطلق لرحيلِ آنا. بمنتهى الهدوء، توجّهت السيّدة شتولتس نحو الهاتف لاستدعاء مصلِّح الأقفال. حاولت آنا أن تعانق غيته عناقَ الوداع، لكنّ الطفلةَ ابتعدت مكلومةً. أخيرًا، شقّت آنا طريقها إلى المطبخ مع حقائبها، وفتحت نافذةً ضيّقة ومرتفعة فوق طاولة المطبخ، وألقت أمتعتها خارجًا، ثمّ ألقت بنفسها، من السفينة الغارقة إلى الأعماق التي انسحقت بسرور تحت قدميها حين هبطت.

عادت إلى منزلِ عمِّها، إلى غرفة النّوم بورق الجدران المزخرف، وغرفة المعيشة ذات الكراسي المريحة والغراموفون وأوبريتات العمّ فرانتس، لكنّ هذه التفاصيل ما عادت تثير اهتمامها بعد الآن. كان شبحُ الإكراه ما يزالُ يهيمن على الأثاث والأواني في نظرها؛ إكراه التنظيف، كلَّ أسبوعٍ، المهام المتكرّرة إلى الأبد. ملأت رسائل توظيفٍ لا روحَ فيها. عندما خرجت من الحمّام، وقفت بأدبٍ أمام انعكاس صورتها المتساقطة على المرآة. «يسرُّني لقاؤك، اسمي آنا بامبيرغ، تُوفيّت والدتي منذ سنوات، وكذلك أبي، لدي أختٌ أيضًا، اسمها لوته، لكنّها، كي أكون صريحة، لم تعد بقربي منذ مدّةٍ طويلة. من ناحيةٍ أخرى، فأنا على قيد الحياة وأتمتّع بصحّةٍ جيّدة، وهذا واضح...».

جاء الردُّ على إحدى الرسائل، ظرف من الورق المرمريّ، مع اسم المرسِل، مكتوبٍ بخط اليد، بدقة ورصانة: شارلوته فون غارليتس دوبلو، كونتيسة فالكِناو. وبدلًا من دعوة آنا لإجراء مقابلة، أعلنت لها عن موعدِ قدومها، في ذلك اليوم نفسِه. كونتيسة! هرعت العمّة ڤيكي بحماسٍ إلى خزانة ملابسها للعثورِ على فستانٍ لآنا. حدّقت آنا في الحروفِ المتوازية، الأنيقة، فيما تناهبتها الهواجس البغيضة، فكرة الكونتيسة تذكّرُها بالعبوديّة؛ ستتلاشى إذًا حُريّتها الهشّة، التي نالتها بشقّ الأنفس. من خلالِ ثقبٍ في الستائر الشبكيّة، تراءت لها الكونتيسة وهي تخرج من سيّارتها الكايزر-فريزر، تتدثّر بمعطف الفراء المفتوح فوق قميص حريريّ بلونٍ كريميّ. شدّت العمّة ڤيكي على يد آنا.

غرفة الجلوس، التي أذهلت آنا منذ وقتٍ ليس ببعيدٍ، بوصفها ذروة الرفاهيّة والفخامة، اتخذت مظهرًا برجوازيًّا تقليديًّا بمجرّد دخول هذه المرأة إليها. لم تفلت الكونتيسة يد آنا، بل أخذت تستطلعها من دون خجل.

- «أودُّ أن أسألك سؤالًا»، قالت. «هل لكِ قرابة مع يوهان بامبيرغ؟».

سحبت آنا يدها غريزيًّا، غير قادرةٍ على الإجابة عن هذا السؤال المباشر المطروح ببراءة. لم يعد أحدٌ ينطق هذا الاسم؛ لقد طوت العائلة ذكراه بالتزامنِ مع دفنِ رُفاته. نظرتْ إلى المرأة من دون أن تبصرها. لأوّل مرّة، تعي تكّاتِ السّاعة في هذه الغرفة؛ عاد إليها صوتُ نقرِ العصا على أرضيّة الشارع المرصوفةِ بالحصى. نقّلت العمّة ڤيكي نظرها من واحدةٍ إلى الأخرى، وهي تفرك يديها، وحين طالَ الصمّتُ قالت:

- «يوهان بامبيرغ، نعم، إنّه أبوها، وهو ابن عمّ زوجي... لم أعرفه لأنّه مات شابًا...».

- «أبوها إذًا»، قاطعتْها المرأة، يغمرها الرِّضا، وأدارت رقبتها الشبيهة بعنق بجعة نحو آنا.

- «نعم بالفعل، إنّه والدها»، وافقتْها العمّة ڤيكي بلطف.

- «حسنٌ، كلُّ شيء في محلّه».

استقرّت يدها اليمنى، التي يغلّلُها قفّاز، على كتفِ آنا.

- «هل ستأتين معي؟ سيّارتي في الخارج».

- «لكنّ أغراضها»، صاحت العمّة ڤيكي، لاهثةً من فرط السرعة التي تمّت بها الإجراءات.

- «سأرسل السّائق في وقتٍ لاحق».

قادت الكونتيسة، صاحبة الاسم العصيّ على اللفظ، آنا أمامها، خارجتين من غرفة المعيشة المتواضعة، وصولًا لنهاية الممرّ، من دون إعطاء العمّة ڤيكي الفرصة لفتح الباب لها، لقد فعلت كلّ شيءٍ بنفسها بتصميمٍ هائل. وفيما كانت تغمر يدها برشاقةٍ في شعرها البُنيّ القصير، فتحت باب السيّارة لآنا بيدها الأخرى. ركضت العمّة ڤيكي لتحضر لها المعطف. أمّا آنا فقد دخلت السيّارة بانشداهٍ تامٍّ، كما لو كانت تحت التنويمِ المغناطيسيّ.

مرّت كولونيا على الجانبين، مثلَ خلفيّةٍ متحرِّكة. فقدَ الزمانُ والمكان أبعادهما الطبيعيّة. أثار اسمُ أبيها شيئًا يشبه، إلى حدٍّ كبير، فيلمًا يُعرض بسرعةٍ متزايدة. كان اختطافًا صريحًا؛ هل عاد ليتولّى زمامَ مسؤوليّته تُجاه آنا من جديد، بعد كلّ هذا الوقت؟ وهل المرأة الجالسة خلف عجلة القيادة هي مبعوثته لأداء المهمّة بكلِّ هذه الأناقة؟ قادت السيّارة بيد واحدةٍ، وأشعلت سيجارة باليد الأخرى. ملاكٌ يدخِّن. غادرتا المنطقة المأهولة بالمباني؛ أهي نهاية العالم المسكون هنا؟ انحرفت السيّارة عن الطريق، ضغط إصبعٌ مشذّب على البوق، فانفتحت بوّابات من الحديد المطاوع. ظهر طريق واسع تصطفُّ على جانبيه أشجارٌ معمِّرة تشابكت ذُراها. تعرّفت آنا، في المشهدِ المتلألئ للحديقةِ، بين جذوع الأشجار، على الحقول الإليزيّة التي جاء السيّد شتولتس على ذكرها في أساطيره اليونانيّة. المروج المنحدرة نحو الأفق، والأسيجة دائمة الخضرة، وتجمّعات الأشجار والشجيرات؛ كلّها حظيت بعنايةٍ وتشذيبٍ مماثل لما

حظيت به أظافرُ السيّدة التي تقود. تحت قنطرة من الأغصان السوداء، توّغلنا عميقًا في النفق الذي انتهى بدائرةٍ من الضياء. يقف شخصٌ بلا حراكٍ، يرتدي بدلةً داكنة، أعلى الدرج المفضي إلى منزلٍ مهيبٍ ببياضٍ ناصعٍ؛ تبعت عيناه المسارَ نصف الدائريّ الذي قطعته السيّارة قبل أن تتوقّف أسفل الدرجات. نزلت المرأة. أمّا آنا، التي كان من المتوقّع أن تفعل الشيء ذاته، فقد بقيت جالسةً، مشوَّشة.

- «تعالي، لقد وصلنا».

فُتح الباب، انسلّت خارجة، تسترق النظر. أعياها الدوار وهي تصعد الدرج الواسع. لم ترَ مِن الشخص الداكن سوى ذراع طويلة تنتهي بيدٍ تسندُ الباب المفتوح لهما، فيما بعد، تبيّن أنّ لهذا الشخص ذراعَين اثنتين، راحتا تساعدان كلًّا منهما على خلع المعطف في قاعةٍ ضخمةٍ ملأى بالممرّات والأبواب المؤدية إليها.

خُصِّصت لها غرفة في الطّابق الأوّل، تطلُّ على حوضِ السِّباحة الفيروزيّ؛ الذي بدا عنصرًا خبيثًا وغير حقيقيّ وسط الخضرة الطبيعيّة للمروجِ. المدبّرة والطّاهية والخدم الشخصيّ والسّائق وعاملات الغسيل والتنظيف والبستانيّون، يقيمون معًا في تعايشٍ وقناعة، كلٌّ في نطاقه الخاصّ. هذا النهج التشاركيّ القديم، مثّل شكلًا جديدًا من أشكال التخديم المنزلي الذي سُخِّر لطبقة النبلاء البروسيّين الأسلاف، بيد أنّه أثبت فعاليّته، لقرون، في القدرة على إدارة شؤون القصور والمنازل الريفيّة. عُهِدت إلى آنا العنايةُ بخزانة الملابس الخاصّة بالسيّدة فون غارليتس، لتحلّ بذلك مكان الخادمة السابقة التي طُردت. ينبغي لها أن تصلح أيّة

درزة ترتخي خيوطها، وتأخذ الملابس إلى عاملة الغسيل، وتتناول فستان السهرة الممدّد على الأرضيّة الخشبيّة وتعلّقه داخل الخزانة. بدت هذه الحياة الفاخرة في تناقضٍ صارخٍ مع معركة الاستنزاف اليوميّة التي مثّلتها وظيفتها السّابقة لدرجة أنّها خجلت من مقدار الأجر: ضعف ما كانت تكسبه عند السيّدة شتولتس، من دون احتساب الإكراميّات والهدايا التي كانت السيّدة فون غارليتس تدسُّها لطاقمِ العاملين بانتظامٍ مع ضحكةٍ ملأى بالمودّة.

في ساعات الفراغ، كانت تحوم في أرجاء المنزل. تعلّمت، على نحوٍ عابر، كيفيّة ترتيب الطاولة حسب الزائر القادم لتناول العشاء، سواء كان جنرالًا أو صناعيًّا كبيرًا أو نبيلًا؛ بحيث تعبِّر الخدمة عن احترامٍ كافٍ من جانب المضيف ومن دون مبالغة؛ تعلّمت تنسيق باقةٍ من الأزهار الموسميّة على منضدة نصف دائريّة تحت لوحة من لوحات الطبيعة الصّامتة التي تعود للقرن الثامن عشر، تصوِّر عناقيد عنب وطيور الدرّاج. اعتادت السيّدة فون غارليتس أن تنام منفصلة عن زوجها؛ غرفتا نومهما، في جناحٍ خاصٍّ من المنزل، مزوّدتان بحمّامٍ من الرُّخام الورديّ. البحثُ عن قميص نومِ السيّدة، الذي ينبغي أن يكون معلّقًا في مكانه عند الصباح، قاد آنا إلى غرفة نوم السيّد فون غارليتس، بناءً على نصيحة الخادمة السّاخرة، وقد خاب أملها حين رأت الثوب المنشود مرميًّا بلا مبالاةٍ على الأرض قرب سريره؛ لقد ذهبت الكونتيسة إليه!

حازت آنا ثقة الطاهية التي، بدافعٍ من إخلاصها اللامحدود لسيّدتها، زوّدتها بسلسلة من المعلومات الأساسيّة. وُلدت السيّدة باسمِ

فون فالكِناو، فهي من سلاسة أقدم طبقة من النبلاء البروسيّين. أمّا زوجها، ڤيلهلم فون غارليتس دوبلو، فينحدر من كولِنبوت. رفعت آنا حاجبيها. حوض الرور، أوضحت الطاهية. وقع أبوه، قبطان السفينة التي نقلت القيصر إلى النرويج، في حبٍّ إحدى وصيفات زوجة القيصر، الكونتيسة دوبلو. رُقِّيَ على عجلٍ حتّى يتمكّن من الزواج بها. وهكذا استحوذ غارليتس على لقب «فون» ثمّ أُضيف اسم دوبلو في النّهاية. وتعبيرًا عن الامتنان والتقدير للقيصر ڤيلهلم، سُمّي الابن البكر باسمه.

تحدّثت الطاهية باحترامٍ ومودّة عن السيّدة، قابلهما ازدراءٌ تبدّى أثناء كشف السيرة الذاتيّة للسيّد فون غارليتس.

- «خسيس، إنَّه كازانوڤا»، قالت، «لكنّها مجنونة به، يا لها من مسكينة».

سلّم مرؤوسيه إدارة مصنع «دي بازيلڤيركه»، الذي ينتج مستحضرات الڤيتامينات والعلاجات العشبيّة لتنشيط قوّات الدفاع.

- «الخيول، يقضي كلّ وقته على ظهر الخيل»، تنهّدت المرأة بقهر، كما لو أنَّ ذلك سبب كلِّ البؤس في العالم.

مخفيّةً خلف أسوارٍ من القرون الوسطى، كانت أرض المصنع متاخمة بحدودها للحديقة. في بعض الأحيان، كان يتجوّل على ظهر خيله حول مجمّع المباني العائدة للقرن التاسع عشر ليذكّر العمّال بأنَّ مداخنَ المصنع تنفث دخانها على حسابه.

- «هل قابلتِ زوجي من قبل؟»، قالت السيّدة فون غارليتس. «تعالي، سأعرّفك عليه».

أسرعت لمقابلته، أسفل درج المدخل. تبعتها آنا مُحْرَجة. حسبت نفسها تشاهد مقتطفًا من إنتاج شركة «يونيفيرسال فيلم»: ابن القيصر بالمعموديّة، مرتديًا ثوبَه الأبيض، منتصبًا على ظهر حصانه من سلالة ليبيزان، يتنزّه خببًا بين الأعمدة السوداء اللامعة للطريق. أسفل الدرج، توقّف «فارس الجواد الأبيض»[1] للاستراحة؛ ترجَّل وأفسح المجال كي يُحتضَن غارقًا في شرودٍ مدلّل.

- «هذه آنا، الخادمة الجديدة المسؤولة عن غرفة نومي».

دفعتْها السيّدة فون غارليتس برفقٍ صوبه. صافحها على نحوٍ عابرٍ فيما كانت عيناه تبحثان في الأرجاء عن عمودٍ يربط اللّجام به. لقد فطنت آنا إلى أنّها، بالنسبة له، أقلّ قيمة من حصان.

كان اكتشافُ المكتبة بمثابة نهاية الإحساسِ بالتطفُّل. غرفةٌ فسيحة ذات جدرانٍ تكسوها الكتب، باستثناء النوافذ الثلاث التي تحتكُّ بها الأغصان المتعرِّشة لكرمةِ العنبِ العارية في مهبّ النسيم؛ خزانة كنوزٍ محفوظة بعناية، لا تخلو من أزهارٍ نضرةٍ ونارٍ مشتعلةٍ في الموقد دومًا. كلُّ ما فيها مصمّم لإرضاء القارئ المتخيَّل: ومع ذلك، فلم تكن تعثر على أيّ أحدٍ فيها. الكوميديا الإلهيّة، معجم لاروس الصغير، مغامرات سيمبليسيوس، دون كيخوته، نبوءات نوستراداموس، وفاوست ونظريّة الألوان لغوته... كانت هذه الكتب جنبًا إلى جنبٍ، من دون ترتيب معيّن. ثمّة مؤلّفات بطبعاتها الأولى: تتصدّع مصدرةً الصرير حين

---

(١) إشارة إلى بطل الرواية التي تحمل الاسم ذاته، من تأليف الشاعر الألماني تيودور شتورم. (المترجم)

تُفتح لتفوح منها رائحة الإهمال؛ فالكتابُ يستمدُّ وجودَه من القارئ، كما يُقال. أدركت آنا حينها ضخامة المهمّة التي تنتظرها.

ذات يوم، طرحت السؤال الذي كان يتلظّى على شفتيها منذ البداية.

- «آهِ نعم..»، زمّت السيّدة فون غارليتس فمها الشبيه بشكل القلب، المطليّ بحُمرةٍ داكنة. «كان والدي يقيمُ هنا حين كنتُ أنظر في كلّ رسائل التوظيف تلك. بامبيرغ، تمتمتُ بصوتٍ عالٍ، ورسالتك في يدي، آنا بامبيرغ... رفع والدي نظره عن الصحيفة قائلًا: كأنّي أعرف أحدًا بهذا الاسم... لحظة... يوهان بامبيرغ، شاب رائع، موظّف من الدرجة الأولى، لدي ذكريات خاصّة عنه، يا إلهي لا بُدّ أن ذلك كان قبل ثلاثين عامًا... قلتُ لنفسي، إذا كانت آنا من أقربائه، فسأردُّ عليها بالقبول وأعدُّ ذلك إشارة من السّماء على صحّة اختياري».

تابعت مقهقهة:

- «لا أؤمن بالربّ، ولا بيسوع المسيح، لكنّي أؤمن بإشارات القدر، من قبيل التسلية. هذا كلُّ ما في الأمر!».

- «ما نوعُ تلك الذكريات الخاصّة؟»، سألت آنا.

- «عليكِ أن تسأليه ذلك بنفسك، في الوقت المناسب. كان والدي يدير المصنع الموجود هنا. لا بُدّ أنّ أباك كان يعمل لديه... وترك أثرًا!».

كان المنزل أشبه بجزيرةٍ عائمةٍ في بحار القرن العشرين الهائجة، وبداخله مكتبةٌ هي نفسها جزيرة أخرى حضر فيها القرن السابع عشر

والثامن عشر والتاسع عشر أكثر من القرن العشرين. عكفت آنا على التنقيب فيها خلال وقت فراغها، باطمئنانٍ مبعثه الصلاحيّات التي يضمنها منصبُها المتميّز كخادمة لغرفة السيّدة فون غارليتس. أدركت حينذاك أنَّ هذا ميراثها المستحقّ: السمعة الطيّبة جلُّ ما تَركه أبوها لها؛ أثمن بكثيرٍ من الأموال والممتلكات. ألهمته بصيرته اللاواعية بأن يخلّف لها شيئًا قبل ولادتها بوقتٍ طويل. هذا الشكلُ من الحبِّ الأبويّ، الذي سبق ولادتها واستمرّ متجاوزًا الموت، جعلها تشعر بأنّه ما زال يحيطها باهتمامه، بقوّةٍ ذات أثر رجعيّ.

وبذلك، قضت الشتاءَ والربيع والصيف من دون عناء. في بعض الأحيان، كانت تتجوّل في أرجاء المنزل حاملةً فستانَ سهرةٍ أو قميصَ نومٍ في يدها، لكنّها كانت تزجي أغلب الوقت بالقراءة، من دون اعتراضٍ من أيّ أحد. لم تكن تعرف أنَّ تلك الفترة كانت مجرَّد استراحة؛ حبسًا مديدًا للأنفاس.

*

انعكس وهج الشمعة الماثلة بين الأطباق، وقد تساقطت قطراتُها، في عينيّ آنا.

- «هذا الانضباط الصّارم الذي طلبته منك زوجة المهندس الكيميائيّ»، قالت لوته، «هو الطبع الألماني النموذجيّ، أليس كذلك؟».

- «حسنٌ، كانت تلك وجهة نظرها حول نظام التدبير المنزليّ»، وضّحت آنا فكرتها: «ببساطة؛ لم أستطع العمل في ظلّ ذلك النظام: أن أكون دائمًا رهن الإشارة».

أخذت تضحك.

- «لقد تبادر إلى ذهني شيءٌ للتو...». شدّت على يد لوته بدافعٍ من بهجتها الخالصة. «جمعني اللقاءُ بأسرة شتولتس مرّة أخرى، في الخمسينات. كنت أعمل في مجال رعاية الأطفال، وذهبت في وفدٍ يزور مجمّع باير؛ أعتقد أنَّ الأمر يتعلّق بمشروعٍ لخلق فرص عملٍ للأطفال الذي يواجهون مشكلاتٍ معيّنة. جرى استقبالنا بترحابٍ حافلٍ في قاعة الولائم، ولكلِّ ضيف خادمان اثنان يرتديان زيًّا مخصّصًا. أثناء تناول الطعام، تردّد في مسمعي، على نحوٍ مباغت، التوبيخ الذي وجّهته إليّ السيّدة شتولتس: لن يهدأ لكِ بال حتّى... في باير... إلى آخره. وها أنا ذا في المكان عينه! غصصتُ، واضطرّ الشخص الجالس بجواري، بقلقٍ ظاهرٍ، إلى التربيت على ظهري بقوّة. بعد أن انتهى الأمر، انطلقتُ بسيّارتي الأولى، من نوع فولكس فاغن؛ على بعد أكثر من ألف مترٍ عن المنزل. ما زالوا يقطنون هناك، إلّا أنَّ الجرس ما عاد يرهجُ من شدّة النظافة والتلميع بمستحضر سيدول، ودرجات السلّم الأماميّ ما عادت خالية من البقع، قرعت جرس الباب. أطلّت عجوزٌ برأسها من النافذة: آنا! بطبيعة الحال، كان عليَّ أن أدخل. ثمّة صور لغيته مع زوجها وأطفالها فوق منضدةٍ جانبيّة؛ يُفترض أن تُنظّف الألواحُ الزجاجيّة لأبوابها بقماشةٍ من جلد الشامواه. كان السيّد المهندس عائدًا إلى منزلِه في تلك اللحظة، وقد اندهش قائلًا: أخبرينا ما الذي أتى بكِ إلى هنا!

أعدتُ على أسماعهم النبوءة التي نطقتها السيّدة شتولتس ذات مرّة. «واليوم، كنت أتربّع هناك، وتحت إمرتي اثنان من الخدم!». انفجرت ضحكتُه الجامحة التي عمّ صداها كلّ حجرات المنزل. ندّت عن السيّدة شتولتس ضحكةٌ مرتبكة، وشعرتُ بالأسف لها. قال هامزًا زوجته: انظري بأمّ عينيك... ألم أقل لكِ دائمًا: ليس بوسعك أن تتخذي من تلك الفتاة خادمة ولو في غضون مئة عام!».

الجزء الثاني

الحرب

١

في صباح يوم الأحد، كان الممشى المسقوف الذي يعود للقرن التاسع عشر ويربط «پلاس رويال» بأعماق «پارك دو سيت أور» يضمُّ سوقًا للسلع الرخيصة والمستعملة. الجوُّ مشمسٌ، لكنَّ ريحًا صرصرًا تهبُّ من جهة الشرق. تحت القناطر الأنيقة، كان بعضُ الباعة يضربون الأرض بأقدامهم من أجل التدفئة؛ فيما راح آخرون يذرعون المكان جيئةً وذهابًا بين الأعمدة الحديدية. تجوّلت آنا ولوته أمام البضائع المعروضة: مزهريّات ومجوهرات وتسجيلات غراموفون عتيقة وبطاقات بريديّة مصوّرة. توقّفتا أمام حصانٍ هزّاز بلا طلاء، يحدِّق بضجرٍ في تمثالِ قدّيس.

- «أما زلت تتذكّرين؟ الحصان الهزّاز الذي تعاركنا عليه دائمًا!»، هتفت آنا بصوتٍ عالٍ سرق أنظار روّاد السوق.

خُيّل إلى لوته أنّها رأت النفور الذي عمَّ ملامحهم لأنَّ ثمّة مَن أفسد عليهم هدوء يوم الأحد وسكينته. ليس هذا فحسب، بل باللغةِ الألمانيّة أيضًا!

- «لا، لست أتذكّر شيئًا عن ذلك»، قالت بحزم.

- «بلى... بلى... كان مطليًّا بلونٍ أزرق وأبيض، ومزوّدًا بلجامٍ متين وسرج بُنيّ؛ اعتدنا أن نتدافع عليه إلى أن تدخّل بابا بمقترحٍ للتوفيق: اليوم، الأحد، يكون دور لوته في الركوب على الحصان، والاثنين يأتي دور آنا، والثلاثاء للوته من جديد، وهكذا. ما رأيكما؟ كنت قد نسيتُ ذلك تمامًا»، قالت مشابكة يديها. *«يا لجمال المصادفة التي جعلت ذلك يحضرُ فجأة من جديد!»*.

لم يحرّض الحصان شيئًا في وجدان لوته، بل إنّه كسر إحساسًا طفيفًا بالتعاضد، لم تكد تستعيده، من بين كلّ تلك الأشياء الآتية من الماضي. كيف يُعقل أنّ ذاكرتها لا تلمُّ إلّا بما أعقب وجودها داخل حجرةِ المرضِ في الحديقة، تحت رعاية والدتها الهولنديّة؟ لأوّل مرّة، بات ذلك يعيقها؛ لقد جعلها تشعر بأنّ شيئًا ينقصها.

- «الحرب موضة لا تموت»، أشارت آنا، «فهي لا تنفكّ عن جلب الأموال».

على قطعةٍ من القماش المخمليّ، وُضعت خُوَذ وأحزمة عسكريّة. نعم، تجلّت الحرب بحضور سلميٍّ في كلّ مكان: قارورة مياه لجنديّ موضوعة بجوار مطحنة قهوة قديمة، وبين مجموعةٍ من الروايات الرومانسيّة والقصص البوليسيّة التي تجعّدت أوراقها، برز كتيّب مصوّر عن رُتَب الجيش والزيّ العسكريّ في الرايخ الثالث، وعلى أحدِ الأكشاك التي تعرض صورًا قديمة لأزواجٍ ولطقوس المعموديّة والتثبيت، كانت هناك صورة ذات إطار لجنديّ شابّ يرمق عدسة الكاميرا بنظرةٍ ملأى بالتحدي.

- «لم يكن يدري أنَّ نصبًا تذكاريًا سيُقام من أجله هنا»، قالت لوته.

- «انظري كيف نفخ صدره، يا له من صبيّ مسكين؛ لقد آمن بمهمّته على محمل الجدّ».

- «ليس صحيحًا... فلم يقاتل من أجل مَثلٍ أعلى، كان عليه أن يدافع عن بلاده».

أمسكت أختها بذراعها، واقتادتها بعيدًا. لا داعٍ للردّ على الاستفزاز، فكّرت آنا. في الجزء الخلفيّ من الحديقة، متكئًا على جدارٍ صخريّ شديد الانحدار، بقي «شاليه دو بارك» واقفًا لمدّة تزيد على القرن؛ توقّفتا للاستراحة فيه، كانت الشمس تصبُّ أشعتها الأفقيّة، ودوّامات من البخار، تتصاعد من فناجين القهوة، يميلُ لونُها إلى الزُّرقةِ إذ تعبر حزمَ الضوء.

جال في خاطر لوته أنَّ لقاءاتهما تتمُّ دائمًا في أماكن عامّة، كأنَّ هناك شيئًا غير لائق في وجودهما معًا.

*

لم تتضرّج السماء بلون المصير، لم تتوقّف الطاهية عن دلْك العجين لوهلة، لم ينحِّ السّائق جريدتَه، واصلت الخادمة طريقها حاملةً الصينيّة الملآنة، لم تنحرف إبرة الحياكة في يدِ آنا عن مسارها للحظة، لم يكن بحسبانِ أحدٍ، على هامشِ النشاطِ اليوميّ البريء، أنَّ صَدْعًا قد ظهر ذلك الصباح، حين تناهى إلى مسامعهم صوتٌ مألوفٌ لدرجةٍ كبيرة، لم ينصتوا إليه منذ مدّة طويلةٍ، تردّد صداه مجتاحًا المطبخ عبر مذياع

الشعب: «فجررر الأوّل من سبتمبررر، اجتازت القوّات الألمانيّة حدود بولندا... من الآن فصاعدًا، سنرردُّ على القنابل بالقنابل...».

بعد ذلك ببضع ساعاتٍ، حين وقفت آنا وسط العشبِ للتمتُّع بالجمال غير الواقعيّ للمنزلِ والحديقة، لم تدرك أنَّ هناك، تحت السَّماء نفسها، وفي وضح النَّهار ذاته، يتمُّ الإعداد لأمرٍ ما، فائق في لاواقعيّته؛ عمليّة انسلاخٍ شاملة ستبتلعهم جميعًا. لمع شيء عصيٌّ على التحديدِ عاليًا في الهواء. زمّت عينيها. بالتزامن مع صوت انفجار قادمٍ من بعيد، ظهرت سحبٌ بيضاء من العدمِ وأخفت ذلك الشيء عن الأنظار. في تلك اللحظة ذاتها، بدأ المنزل يتكلَّم؛ وأخذ يصرخ بها عبر جميع منافذه: «هل جننتِ؟ ابتعدي من هناك، هيّا ادخلي، إنَّها الحرب!».

- «ماذا؟»، هتفت آنا وهي تمشي نحو المنزل، ضامَّة يديها على أذنيها.

- «إنَّها الحرب!».

كانت السيّدة فون غارليتس عند النافذة، تلمّحُ بإيماءات عنيفة؛ وقد أرسلت زوجها لانتشال آنا من ميولها الانتحاريّة. اصطدما عند الباب.

- «طائرة استطلاعٍ بريطانيّة»، قال باقتضاب، «أسقطتها دفاعاتنا المضادّة. يُستحسن البقاء في الداخل».

وبالرغم من رباطةِ الجأش الرجوليّة، ارتعش شاربُه، المشابه لشارب كلارك غيبل، انفعالًا. يا للسخافة، كل هذا الهرج والمرج، فكّرت آنا. الحرب؛ لم يكن ذلك أكثر من كلمة، كانت تودُّ لو حدث بالفعل، شيء

أكبر من مجرَّد نقطةٍ في السماءِ، شيء من شأنه أن يضفي على الكلمة بعض المعنى.

بعد ثلاثة أيّام، عقب إعلان إنكلترا وفرنسا الحرب على ألمانيا، جمعت السيّدة فون غارليتس أطفالها وموظّفيها وأمتعتها الأهمّ وعهدت، لاهثةً، بمسؤوليّة المنزل إلى آنا.

- «جهّزي الطابق العلويّ لاستقبال اللاجئين من زارلاند»، قالت وهي تضع يديها على كتفي آنا، في إيماءةٍ رمزيّة تؤكّد انتقال السيادة إليها، «نحن ذاهبون نحو الشرق».

معتمرةً قبّعة غير متناسقة، مثل خوذةٍ منحرفة، محاطة بطفليها، تجرُّ في أعقابها موكب خدمتها، المطيع والعملاق، انطلقت إلى منزل العائلة شرق براندِنبورغ.

فتحت آنا، بعدما تولّت وظيفتها الجديدة كحارسة للمنزل، كتابها وواصلت من حيث توقّفت، في ظلّ الترقّب الهادئ لقدوم الزارلانديين. لا خوف يعتريها من جرّاء كونها وحيدةً على متن السفينة، بعد أن هجرتها الفئران؛ فجهازُها العصبي لم يكن يستجيب للتهديدات الغامضة. خلال الحملة البولنديّة، التي استمرّت ثمانية عشر يومًا، تغذّى جسمُها، من دون تحرُّجٍ، على المؤن الهائلة في القبو، وكذلك فعل عقلُها مع تلك المؤن المكدّسة في المكتبة. وفي أحد الأيام، بدلًا من مجموعةٍ من اللاجئين المهجّرين، كانت القافلة بأكملها عند البوّابة من جديد، واستُؤنفت الأنشطة اليوميَّة كما لو أنَّ أحدًا لم يغادر؛ باستثناء السيّد فون غارليتس، الذي سار متقدِّمًا إلى بولندا، بصفته ضابطًا، ولحسن الحظّ، تعرّض لخلعٍ

في مفصل الركبة، عند غابة توكولا، ترتّب عليه سحب سميّ القيصر الغالي بعيدًا عن خطّ المواجهة.

تحوّلت الحربُ إلى مهزلة. انتظرت القوّات المتمركزة على الحائط الغربيّ وخط ماجينو[1] في مواجهة بعضها البعض مثل فرق الكشافة، وأثناء ذلك زرعوا الكرنب والبطاطا بين التحصينات وشربوا نخب صحّة بعضهم البعض رافعين أقداح البيرة عاليًا. بعد تماثله للشفاء، اعتاد السيّد فون غارليتس الذي كان ماكثًا في مكانٍ ما في الجوار مع كتيبته، القدوم إلى المنزل كلّ أحد برفقة مجموعةٍ من الضبّاط، للانقضاضِ على مخزون المشروبات بدافعٍ من السَّأمِ الطائش. وبسببِ التقنين، انشغلت زوجته طوال الأسبوع في تأمين المكوّنات اللازمة لهذه الوجبات الاحتفاليّة. أمّا أنا، فلم تكن مدركة لكلّ ما يجري. وبعد فترةٍ وجيزةٍ من الحملة البولنديّة، تلقّت رسالةً من هولندا.

*

مُكدَّرةً بالمستجدّات السياسيّة الطارئة، سافرت الجدّة من أمستردام إلى كولونيا لزيارة صديقة قديمة، قُبيل إغلاق الحدود. عادت باستياءٍ نخرَ أعماق روحها، وأقسمت أنّها لن تَطأ بقدمها الحدود مرّةً أخرى. وذات يومٍ ممطرٍ من أيّام شهر أكتوبر، جاءت لتحكي قصّة إقامتها هناك. طوال ذلك الأصيل، بقيت مرتدية قبّعتها السّوداء المزيّنة بأزهار البنفسجِ المخمليّة، التي اشترتها بلا شكٍّ من متجرٍ للزينة والحليّ في سوق ألبرت

(١) يمثل خط ماجينو سلسلة التحصينات الدفاعية التي أقامتها فرنسا على حدودها مع ألمانيا بين الحربين العالميتين، أما خط سيغفريد، الذي يُسمى الحائط الغربي، أنشأته ألمانيا على حدودها الغربية ليواجه الخط الفرنسي من الجنوب. (المترجم)

كويب. قالت إنَّها قاسَت نزلةَ بردٍ شديدة في ألمانيا، مبعثُها العواطف. لبثتْ لوته ملتصقةً بها.

- «لقد كان الوضع في غاية الإزعاج...»، تنهّدت الجدّة، في ظلّ القبّعة.

تردَّت لهجتُها الألمانيَّة. وما انفكَّت عن قطع الحديث بين الحين والآخر لتمسح أنفها بمنديلٍ من الدانتيل، وروت عن صديقتها الكولونيّة كيف اعتادت المسارعة لوضع غطاء إبريق الشاي فوق الهاتف كلَّما تطرَّق النُّقاش إلى الحرب، خوفًا من أن يسمعهم أحد. وحين قدمت زوجةُ ابنها، برفقة طفلها المهندم بزيٍّ «شبيبة هتلر»، عمدت الصديقة بتوتُّرٍ إلى تغيير الموضوع نحو شيءٍ تافهٍ. «النِّساء الألمانيّات يعشقن الفوهرر»، أخبرتها صديقتها فيما بعد.

- «ينتابني الخزي»، سعلت الجدّة قائلة، «ينتابني الخزي من كلّ هؤلاء النساء الألمانيّات اللواتي أصابهنّ الجنون».

زارت الجدَّة أيضًا ابن أخيها؛ فرانتس، «الولد اللطيف...». وقد زوّدها بأخبارٍ عن آنا. رمقتْ والدةَ لوته بنظرةٍ خاطفةٍ، استجداءً للمساندة. أومأت الأخيرة برأسها موافقة. ثار الدمُ في وجهِ لوته، ولم تعرف أين تثبّت عينيها.

- «و...؟»، قالت بصوتٍ مخنوق.

استعانت الجدَّة بمنديلها من جديد، استغرقت في ذلك وقتًا بدا، بالنسبة إلى لوته، لانهائيًّا... انتهى المطاف بآنا على نحوٍ حَسن، وفق ما قاله فرانتس، فهي عند عائلة أرستقراطيّة تقيم في ضواحي كولونيا.

تفرَّست لوته في شبكةِ العروق الواهنةِ على الوجنتين المتورّدتين، باحثةً عن موضع المقلتين فوقهما، حيث توارت عيناها مثل شقَّين ضمن الأجفانِ المتدلّية بتثاقلٍ. رغم شخصيّتها المحبّة للتواصل، كان هناك شيءٌ غامضٌ يحوم حول الجدّة؛ فذات يومٍ سترحل فجأةً وتأخذ معها، إلى الأبد وعلى نحوٍ لا رجعة فيه، كنزًا دفينًا من المشاهد والأصوات والأسرار والأخبار والروائح التي تعود لحقبةٍ أخرى. استولى على لوته قلقٌ مباغت: هذه العجوز هي الحبل السريّ الوحيد الذي يربطها بالماضي.

- «هل لديكِ عنوانها؟»، سألت بحرارةٍ.

- «لأجل ماذا؟»، قالت أمُّها.

- «أودُّ الكتابة إليها».

شعرت بنظرات التواطؤ التي تبادلتها المرأتان تخترقها، فيما كان المطر، المنهمر في موجاتٍ، يدهم السّهول ويصطدم بزجاج النوافذ.

- «نعم، عنوانها بحوزتي»، قالت الجدّة بنبرة هادئة.

- «أريد أن أذهب لرؤيتها»، أوضحت لوته.

- «الآن...؟»، صرخت أمُّها مذعورة، «في هذه الأوضاع؟».

- «لا بُدَّ أن ذلك سيتمّ عاجلًا أم آجلًا»، قالت الجدّة مستغرقةً بالتفكير، «ليس بوسعنا منعها».

- «الحرب مشتعلة هناك!»، برّرت والدةُ لوته.

رفعت الجدّة، بكلتا يديها، القبّعةَ عن رأسها؛ رغبةً في التزوُّد بالهواء أم اعترافًا بالعجزِ أمام قوّة التجاذب التي تربط الشقيقتين التوأمتين؟

وضعت القبّعة في حجرها وحدّقت بضجرٍ واغتمامٍ بزهرات البنفسجِ فيما كانت أصابعها تلامسُ الحافّة بشرود.

- «إن كانت عجوزٌ مثلي قادرة على الخروج سالمة من تلك الفوضى المروّعة»، قالت تهزُّ كتفيها، «فإنَّ امرأة يافعة وقويّة ستتمكّن من ذلك حتمًا».

خطّت لوته رسالةً تلافحتْ فيها عباراتُ المجاملة معَ التطلُّعات الرومانسيَّة الملأى باللهفة، وختمتها بتوضيحٍ لاستعدادها التامّ للمجيء إلى ألمانيا. تلقّت الردَّ برسالةٍ رسميَّة موقّعة على نحوٍ أنيقٍ من آنا بامبيرغ، مرفقة بدعوة لقضاء ليلة رأس السنة في ضيافة عائلة فون غارليتس. حتّى اللحظة الأخيرة، عايشت لوته تخوُّفًا بشأن الحصول على التصريح اللازم للسفر. وفي النِّهاية، استطاعت السفر بتاريخ يوم الثلاثين من ديسمبر. كان المنديل المطرّز، الذي احتفظت به في حقيبتها طوال تلك السنوات، داخل جيب معطفها، في طريقه نحو صاحبِهِ الحقيقيّ.

حين طلب ضبّاط الجمارك، أثناء عبور الحدود، أوراقها متحدّثين باللغةِ الألمانيّة، قالت لنفسها: هذا موطني. حاولت أن تتخيَّل صورةَ والدها تتجلّى أمامها، لكنَّ أباها الآخر ما انفكَّ يظهر دائمًا في طليعةِ التخيُّلات. آثرتِ التفكيرَ بهذه البلاد بوصفها «مكان مولدها» أو: أرض المؤلّفين الموسيقيين وقادة الأوركيسترا، أرض السمفونيَّات وأغنيات الليد[1]؛ أليس بديهيًّا أن تغنّي «الراعي على الصخرة» بكلِّ يسر في بلدٍ

---

(١) الليد: فن الأغنية الألمانيّة، أسسه فرانز شوبرت، صاحب الليد الشهيرة «الراعي على الصخرة» التي ألفها في آخر أيام حياته. (المترجم)

t.me/yasmeenbook

يعجُّ بالجبالِ لا بالمروج والمراعي. مع كلِّ ثانيةٍ تقتربُ فيها من آنا، كانت الأشياء تزدادُ عصيانًا على التصوُّر. فبالرغمِ من التخيُّلات الدائرة في ذهنها، التي لا تعدُّ ولا تحصى، لما يمكن أن تكون عليه لحظةُ لمّ الشمل، ظلّت مثل نقطة عمياء. وكلّما دنت من وجهتها، توهّج الشوقُ الذي أعياه القلقُ؛ قلقٌ جامحٌ لا يحكمه منطق. لتعلّل نفسها، راحت تنظر إلى الخارج باهتمامٍ بالغٍ. قضمت لقمةً من إحدى التفّاحات التي وضعتها أمُّها في الحقيبة. وللحظة، اندلع شعورٌ طفيف بالذنب، بل بالخيانة، سرعان ما استحال إلى الشفقةِ: وهي في قلبِ ألمانيا، كم بدت ضئيلةً وتافهة.

أخيرًا، تباطأ القطار داخلًا المحطّة. وكانت النصرةُ للقلقِ. ودّت لو تستطيع البقاء في حميميّة المقصورة إلى الأبد، إلّا أنَّ القطار توقّف وبدأ تفريغ ركّابه الذين احتشدوا في الخارج، هامدين تحت وطأة الرحلة. لفح البردُ وجهَها، فتمايلت إلى الوراء، ووضعت حقيبتها على المنصّة وقد ضاقت ذرعًا بالزّحام الذي يلُفُّها، بالشتاء، بالمحطّة الملأى بالغرباء، وبنفسها إذ اعتراها الجبنُ المفاجئ. مرتجفةً، أخرجت المنديل من جيب معطفها الشتويّ. وبدلًا من التلويحِ به، حسب الخطّة، رفعتْه عاليًا بارتباكٍ بين إبهامها وسبّابتها. بات لمُّ الشملِ أمرًا لا مفرَّ منه فلم تبذل جهدًا للتعرُّف على وجهٍ مألوفٍ بين وجوه أولئك المارّة. دوّى صوت صافرة في الأرجاء. تسلّل الصوت فوق رؤوس المسافرين كأنّه صرخة طائر. ثمَّ سمعت همسةً متردِّدةً وخافتة قادمة من الخلف؛ اسمها. بدا ذلك الصوت مثل تنهيدة صامتة صدرت من أفواه الجموع. استدارت ببطءٍ، لاح وجهٌ شاحب بين المعاطف الشتويّة... وجه مدوَّر، مدبَّب، تتناحر فيه الأضداد.

مدَّت لوته المنديل للأمام كردَّةِ فعلٍ، تناولته الأخرى باحتراس. «آنا؟».
أغمضت المرأة الواقفة أمامَها عينيها موافقةً. في المشاهدِ الشاعريّة التي دارت في ذهن لوته، تنهمك الأختان في عناقٍ حارّ، واحدةٌ بين ذراعي الأخرى، أمّا ما حدث على المنصّة في محطّة كولونيا، فاقتصر على تبادلٍ رسميّ للمصافحة وابتساماتٍ غامضةٍ يكتنفها ضباب الهواءِ المتجمّد.
حملت المرأة حقيبة لوته وسارت نحو المخرج، وأومأت لأختها كي تلحق بها.

كان كلُّ شيءٍ هائلًا وغامرًا: سقف المحطّة العالي، الملتاث بسواد الدخان، والقاعة الضخمة التي يهيمن عليها إعلان عن عطر كولونيا (٤٧١١) على زجاج ملوّن، والحضور المهيب للكاتدرائيّة، ببرجيَها المدبّبَين مثل حارسَين يراقبان المدينة؛ يومئان بإشارةٍ مزدوجة نحو السّماء، كتوأمين، في الحقيقة. كان كلُّ شيءٍ هائلًا وغامرًا عدا اللقاء الذي أخذ يسير بذلك القدر من التحفُّظ والاكتفاء، كما لو أنَّ كلتيهما تؤدّي دورَ شخصٍ آخر، وأنَّ الأمر، في صميمه، لا يمسُّ أيًّا منهما. قرب نافورةٍ جافّة، عند سفحِ الكاتدرائية، نقلت آنا الحقيبة إلى يدها الأخرى كي تخرج من جيبها النقود لشراء تذاكر الترام. شعرت لوته بأنَّ الألفة المتبادلة بين ركّاب عربة الخط الحادي عشر، التي تقلُّهم عبر شوارع البلدة القديمة، تفوق بحرارتها تلك التي بينها وبين آنا. عبثًا، راحت تبحث عن ملامح الأسرة في ذلك الوجهِ الشاحب.

- «إذًا، هذه هي كولونيا»، ندّت عنها ضحكة صغيرة في محاولة لكسر الصمت.

- «نعم، ليس للمرء أن يقول سوى ذلك»، قالت آنا مازحة. «و... أما زلت تتذكّرين هذه الأغنية...؟».

أخذت تغنّي بصوتٍ مرهف، وعلى وجهها تعابير مزاح:

«بيم، بيم، بيم
ها هو الترام يقتربُ
والمراقب يرتقبُ
فمَن لا يملك النقود
سنتركه مشيًا يعود...».

لم تجترح هذه الأغنية الطفوليّة، التي أوشكت أن تكون مفتاحَ الاعتراف المتبادل بينهما، مجدِّدةً عرى الرابطةِ القديمةِ، شيئًا يُذكر في دخيلةِ لوته؛ ربّما تردّد في خاطرها الكثيرُ من الأنغامِ والأناشيد في تلك الأثناء. نظرت آنا إليها متوفِّزة. ردَّت لوته على اختبار الثقة بتجاهلٍ مُحرج. بصمتٍ، أشاحت آنا بعيدًا عنها، نحو السطحِ الرماديّ الداكن لنهر الراين. لعلع صوت الترام عابرًا الجسر. أخالُها تلقي اللومَ عليّ، فكّرت لوته، ربّما تنظرُ إليّ كهاربةٍ تنصّلت مدَّةَ ثمانية عشر عامًا.

- «ثمانية عشر عامًا...»، قالت بصوتٍ عالٍ، «لقد مرّ ثمانية عشر عامًا...».

بدتِ التعويذة متصدِّعة فجأة. وصل الترام إلى الضفّة الأخرى.

- «لماذا لم تكتبي لي قطّ... في ذلك الوقت؟»، سألت لوته، في مزيجٍ من الدفاعِ والهجوم والارتباك.

- «لأنّي لم أسمع منكِ شيئًا»، صرخت آنا.

- «لكن هذا مستحيل»، صدحت لوته، «لقد كتبتُ إليكِ عشرات الرسائل وأنهيتُها كلّها بعبارة: آنا، لماذا لا تجيبينني؟».

تجرَّدت آنا من رباطة جأشها للحظة. لكنها موجةٌ عابرة لا أكثر؛ هزَّت كتفيها وقالت بصوتٍ خافت:

- «إذًا، هناك من كان يعترض الرسائل. لم أتلقَّ حرفًا منك».

نظرت إليها لوته في حيرة.

- «لماذا يقدمون على شيءٍ كهذا؟».

حدَّقت آنا نحو الخارج بمكابرة، كما لو أنَّ ذلك لا يعنيها.

- «إنَّك لا تعرفينهم»، قالت بلا مبالاة.

غارقةً في غمرة الانفعال والسُّخط من لا مبالاة آنا؛ وتلك كانت النقطة الحاسمة، أخذت تصرخ:

- «بأيِّ حقٍ يمكنهم فعل شيء كهذا؟».

متبلِّدة الشعور، أدارت آنا وجهها:

- «هكذا هم».

ثمّ أضافت بنبرةٍ حانقةٍ:

- «يُستحسن أن تُقال الأخبار السيئة على الفور ودونما مواربة... لقد أتيتِ إلى هنا ملأى بالآمال لكنني... لكنني أقول لك بصراحة... أنا لا أعرف حقًا ماذا تعني... الأسرة... أو الشعور العائليّ الحميم. آسفة، لكن الآن، وقد عدتِ فجأةً كما عاد لعازر،

فلا أعرف ماذا يجدر بي أن أفعل... منذ زمنٍ طويل، تصالحتُ مع مصيري المحتومِ بكوني وحيدة على هذه الأرض... لا صلةَ لي بأيّ أحد، ليس لأحدٍ صلة بي، هذه هي الحقيقة... ليس لدي ما أقدِّمه من أجلك...».

- «ومع ذلك، ما زلنا... ابنتَين للأبوين نفسيهما»، حاججت لوته بوهنٍ، «لا بُدَّ أن لهذا معنى ما، أليس كذلك؟ من أجل أن نعرف من نحن، ينبغي لنا بالتأكيد أن نعرف... كيف بدأ كلّ شيء...؟».

- «أعرفُ بالضبط مَن أنا: لا شيء. وهذا يناسبني تمامًا!».

في خضمّ سلوكها الاستفزازيّ، تبدَّت حرقةُ المرارة في صوتها الذي أضحى غليظًا عاليًا. تلفَّت بعض الركَّاب من حولهم. حافظت لوته على صمتها، مذعورةً، يتصبَّبُ منها عرق بارد. شعرت من جديد بلومٍ آنا لها. إنّما لأجل ماذا؟ لأنّها ظلَّت على قيد الحياة؟ لرغبتها في إضفاء المعنى على فكرة «الأخت»؟ أكان هذا عقابًا لها على الحلمِ الواهمِ، القديم جدًّا، لفتاتين يتيمتين تغرقان في أحضان العناق أخيرًا، بخالصِ البراءة، من دون أدنى اكتراثٍ بالوقتِ والمسافةِ والمشكلات العائليَّة؟ أخذ وصفُ الجدّة للبيئة الكاثوليكيَّة المنغلقة ومزارعيها البدائيِّين يتراءى لها بالفعل.

في وقتٍ لاحقٍ، راحت تؤنِّب نفسها لإحجامها، في تلك اللحظة، عن العودة مباشرة في الرحلة المعاكسة. لم يكن ثمّة أيُّ شكٍّ يساور حقيقةَ الخديعة المتمثّلة في لمّ الشمل، بل حقيقة أنَّ بقاءها سيفاقم كلَّ

شيء سوءًا. فما زال بالإمكانِ قضاء ليلة رأس السنة الجديدة في المنزل، مع النبيذ الدافئ وكعكة دهن الخنزير والموسيقى. لكنَّ ضربًا من العناد، في غير محلِّه، حملها على مقاومة الوجل. ففي الحكايا الخرافيّة الألمانيّة، التي ترعرعت عليها في الطفولة، لم يكن هناك مناص من قتلِ التنانين والوحوش ذوي الرؤوس الكثيرة لتحرير الأميرات المسحورات. ربَّما كانت تأبى الإقرار بالهزيمة في هذه المرحلة، ربَّما كانت ترغب في مماطلةِ تلك اللحظة التي ستعود فيها إلى بلدها، خالية من الأوهام، ربَّما كانت تودُّ اختراق القوقعة ومعرفة ما يخفيه جوفها.

توقَّف الترام. أشارت آنا أن عليهما أن تنزلا. كانت هذه فرصتها الأخيرة: اعذريني يا آنا، أظنُّ أنَّ من الأفضل أن أعود أدراجي، لكنّها نهضت وانتزعت حقيبتها؛ وفجأة لم تستطع تحمُّل فكرة استيلاء آنا على الحقيبة من جديد. نزلتا، البردُ قارس والظلمة قد حلَّت، فيما اصطدمت الحقيبة بساقها مع كلِّ خطوة.

- «السيارات جميعها محجوزة»، أوضحت آنا ببرود. «علينا المشي بقيّة الطريق».

فُتحت بوّابات حديديّة، وامتدّ أمامهما مسارٌ تصطفُّ جذوع الأشجار الداكنة على جانبيه، أمَّا القمر فقد تعاون مع الأغصان لرسم مشهدٍ من الظلال الشريرة فوق رأسها. نسيرُ في الطريق نفسه للمرّة الأولى، هي وأنا، فكّرت لوته، وقد غمرتها مشاعرُ عاطفيّة في غير مكانها. ما زالت تودُّ لو تعانق أختها، التي كانت تسير بجانبها في صمتٍ عاتٍ... بحقّ السماء، هلّا خلعنا أقنعة هذه الحفلة التنكريُّة. بيد أنَّها

سارتا في ذلك الطريق اللامتناهي، معًا، ولكنّهما مفترقتان، بينهما بضعة أقدام. في الظلام، تلألأ منزلٌ أبيض بنوافذ سوداء عاتمة. سلالم واسعة على هيئة قوس أنيق، تنحني في المقدّمة متباعدة، ثم تعود لتلتقي معًا، مؤدّيةً إلى مدخلٍ على الطراز الباروكيّ.

جرت التحضيرات لليلة رأس السنة الجديدة على قدمٍ وساق في المنزل المظلم الذي كان يترقّب عودة السيّد فون غارليتس. أمّا زوجته فحاولت تقدير كميَّة الطعام والشراب التي سيحتاجها مع رفاقه. مستغلّةً مكانتها الرفيعة وأموالها الطائلة وسحرها الطاغي، عرفت كيف تدبّر مختلف المنتجات التي لم يكن بمقدور الأناس العاديين الحصول عليها منذ فترةٍ طويلة. أظهرت آنا اجتهادًا بالغًا منذ وصول لوته وحتّى رحيلها. وفي الفترات المستقطعة بين المهام، عرّفت بأختها إلى الكونتيسة والطاهية وكبيرة الخادمات والمربّية وأعضاء الطاقم الآخرين، وقد فعلت ذلك تمامًا على النحو اللائق ولكن من دون أدنى قدرٍ من الحماس. وبالطبع، عُقدت المقارنات بين الشقيقتين. بمقدور المرء رؤية الزرقة نفسها في عينيهما، أكّدت الطاهية، وفي ما عدا ذلك، كانت أوجه الاختلاف لا تحصى. أثنت السيّدة فون غارليتس على طلاقة لوته بالألمانيَّة. فبعد ثمانية عشر عامًا، لم تشب لهجتها شائبة! كان العمل في أوج كثافته. فرائحة ليلة رأس السنة تضوّعت بغزارة في المطبخ، وكلّما اقترب العام الجديد قليلًا، تضاعف نشاط الخدم وتوتّرهم. وقفت لوته عند نافذة غرفة الضيوف التي خُصِّصت لها، مرتدية البيجاما، وحدّقت، عبر شَقٍ في ثنايا الستائر العاتمة، في انعكاس القمر على سطح الماء في حوض السباحة. لقد قالت

لها آنا: *«ليلة سعيدة»* باقتضابٍ فظّ، ولم تتبادل كلمة أخرى معها. انتهى اليومُ بغموض أكبر من ذلك الذي بدأ به. لم يعد السؤال هو «كيف ستكون آنا؟» بل صار «مَن هي آنا؟».

في اليوم التّالي، وعلى غرار سابقه، انشغل الخدم ذهابًا وإيابًا في التحضيرات الخافتة إلى أن أجبرهم غزو الضباط على العودة وراء الكواليس. لجأت لوته إلى الحديقة. فإن كان استياؤها، في البداية، لمجرَّد شعورها بعدم الترحيب، فإنَّ الملابس العسكرية والقبّعات والأصوات الصاخبة -التي تميّز بعضها بلُكْنَةٍ شرقيّة متشدّقة أو بنطقٍ مروّع لحرف الراء- جعلتها تشعر بأنَّها غريبة، دخيلة بالمطلق. مرتجفةً، راحت تمشي في الحديقة. أرضٌ ألمانيَّة. عشبٌ ألمانيّ. أشجارٌ ألمانيَّة... أهذا مسقط رأسها؟ بدت حديقة الخضراوات في منزلها، والبستان الملآن بأشجار الفاكهة المهملة، مثلَ الجنّة إزاء هذه الثروة الباذخة المنتشرة في كلِّ مترٍ طوليّ من العشبِ، وفي كلِّ مترٍ مربَّعٍ من حوض السباحة، وفي كلِّ مترٍ مكعّبٍ من الهواء الألمانيّ. أمضت ما تبقّى من اليومِ في غرفة الخدم، تتصفّح مجلّة «بيوباختر المصوّرة»، بينما ذهنها غارقٌ في التفكير برحلةِ العودة والطريقة التي ستواري بها خيبة الأمل في منزلها. تناولوا وجبة العشاء على عجلٍ في المطبخ، وظهرت آنا على المائدة بثوبٍ أسود مع مئزرٍ أبيض منشّى وقبّعةٍ على رأسها. وبصوتٍ خفيضٍ كما لو أنَّها توجِّه اتهامًا قالت:

- «هذا ما تبدو عليه حياةُ خادمة غرفة النوم».

- «هل يمكنني المساعدة في أمرٍ ما؟»، تمتمت لوته.

- «لِمَ لا؟»، قالت آنا ساخرة. «لديّ زيّ آخر كهذا، سيكون تحوّلًا رائعًا».

في محاولةٍ يائسة للانسلالِ تحت جلدِ آنا، أو على الأقلّ لاتخاذ مظهر الشقيقتين التوأمتين لمرّةٍ واحدة فحسب، تركت لوته فستان الخادمةِ ينزلقُ على كتفيها. دخلت غرفة المائدة، حاملةً قصعة الحساء، نظراتها تنصبُّ مباشرةً على شرائط مئزر آنا، المعقودة بدقّة هندسيّة. جلس الضبّاط على جانبي طاولة ممتدّة مزيّنة بأغصان التنوب، وقد استبدلوا بملابسهم العسكرية الأطقمَ الأنيقة. توهّج لمعانُ الشموع في الشمعدانات المتفرّعة على أواني المائدة الفضيّة وعلى الخرزِ البرّاق الأحمر في فستان الكونتيسة ذي الياقة الكاشفة للصدر. جلست على رأس الطاولة، بكامل الإشراق؛ وكان زوجها على الطرف المقابل، يمارس دوره المزدوج مُضيفًا وضابطًا. لم ينتبه أحد للوته وآنا فيما تضعان الأطباق على المائدة؛ كما لو أنّهما طيفان شفيفان. ها قد اكتسبت عبارة آنا «أنا لا شيء» بعدًا إضافيًّا. رجعتَا من دون جَلَبَة؛ فخدمة المائدة منوطة بالنُدُل.

على هذا النحو، تسرّبت الأمسية الاحتفاليّة من بين أصابعهم، في انقيادِ ممل. أطباقٌ متّسخة، كؤوس، ملاعق، صحونٌ فارغة. تعالى صخب الضيوف شيئًا فشيئًا، وتسارعت وتيرة ملء أقداح النبيذ والزيكت، حتى تعذّرت مواكبتها. أحد الضيوف، وهو ضابطٌ بدين ذو وجهٍ أحمر مُشرق، انتزع سيفًا عن الجدار، وبدأ يرقص رقصة مرتجلة حول كأسه نصف الفارغة، التي وُضعت على أرضية الخشب المزخرف. لدى وصولها حاملةً حلوى الباڤاروا مع الفراولة، شتّتت آنا تركيز الراقص البهلوانيّ؛

فاندفع للخلف، فاقدًا توازنه، وسقط على القطعة الوحيدة من الأواني الكريستاليّة. بعينين محتقنتين بالدماء، نهض على قدميه، وشظايا الزجاج تبرز من مؤخرته كأنّها مخالب غربان. اشتعل التصفيق الحماسيّ. قهقه أحد الضيوف مدويًّا: «الضحيّة الأولى سقطت على الحائط الغربي!».

في تلك اللحظة، اقتنعت لوته التي كانت تحملُ بدورها طبقًا من حلوى الباڤاروا، بشجاعة أختها تمامَ الاقتناع. وضعت آنا طبق البودنغ المتذبذب على الطاولة برفق، وانحنت فوق موقع الحادثة وراحت تجمع القطع واحدة تلو الأخرى بحيادٍ تامّ، كما لو أنّها تتلقّط أكواز الذرة. ثم ساندت الجريحَ في ذهابه نحو خزانة الأدوية. قبيل مغادرة الغرفة، وضع يده على ردفَيها، مؤكِّدًا أن روحه الظريفة لم تنكسر؛ فدفعتها آنا بهدوءٍ بعيدًا.

قبل منتصف الليل بقليل، احتشد الخدم في غرفة الجلوس المشتركة وفي تمام الثانية عشرة، تعانقوا جميعًا وفي أيديهم كؤوس طافحة بالرغوة. تبادلت الشقيقتان القبلَ مثل ملكات الثلج. وعلى الفور، تكفّل حدثٌ خارجيّ جديد بتقديم عذرٍ وافٍ للتنائي بينهما: طلقة بندقيّة، تلتها طلقة أخرى، جعلت الجميع يهرعون نحو النوافذ. انطفأت الأنوار، ودوّى صوت أحدهم. رفعوا الستائر العاتمة وضغطوا بأنوفهم على الزجاج.

– «يا إلهي»، تأوّهت الطاهية، «لقد جُنَّ جنونهم!».

كان بعض الضباط يصوّبون على منشفة بيضاء معلّقة على غصنٍ واطئ وهم يضحكون ويصفقون. أطلقوا النّار مرةً أخرى، ترنّحت قطعة القماش قليلًا قبل أن تسقط هامدةً. توجّهت الطاهية نحو الباب.

- «يا لها من فضيحة»، صاحت بغضب، «لن أقف ساكنة حيال ذلك!».

أوقفتْها المربّية:

- «اهدئي يا سيّدة ليتسماير، لا يجدر بكِ إعطاء الأوامر لكبار الضباط».

محبطة، عبّت بضعةَ أكواب من الزيكت. انسلّت لوته خلسةً إلى غرفتها من دون أن يراها أحد، حيث ارتمت على سريرها.

أعاد إطلاقُ النار وصورةُ المنشفة الممزقة إلى ذهنها القصصَ المقلقة لثيو دِ زوان وإرنست غودريان بعد عودتهما من ألمانيا؛ قصصًا لم تتسبّب إلّا بازدياد شوقها. ولم تكتسب معناها سوى في هذه اللحظة: شعرت بالتهديد الذي ينبع من كلِّ عيارٍ ناريّ أُطلق تفريجًا للملل وافتقارًا لمرمى أهدافٍ أفضل. فحتّى تلك اللحظة، كانت كلمة «عدوّ» فارغة؛ أمّا الآن فقد شُحنت بالمعنى. معنى يجدّد نفسه في قبلة آنا الباردة ليلة رأس السنة، والنزهات الكئيبة في الحديقة، وحقيقة العجزِ عن التماهي مع مكانٍ غامض كمسقط رأسها. توقّف إطلاق النار، وتردّدت أغنية. أغمضت عينيها باشمئزازٍ تامّ. خلعت الغطاء عن رأسها وفكّت أزرار المئزر ونظرت إلى نفسها في المرآة. بدا الفستان الأسود متناسقًا بجدارةٍ مع جنازة أوهامها المحتضرة.

كانت قد وضعت حقيبتها في الردهة حين دخلت المطبخ لتناول الإفطار. بدا واضحًا أنّهم قد عملوا طوال الليل؛ لم يتركوا كأسًا متّسخًا أو بقايا حلوى تذكّر بالليلة الفائتة. بدلًا من ذلك، انصبَّ التركيز على إعداد وجبة فطور شهيّة؛ فمهما يكن السبب، لن يُسمح للضيوف بالعودة

إلى الحائط الغربي وبطونهم خاوية. سارعت آنا جيئةً وذهابًا، واثقة من نفسها، من دون أدنى أثرٍ للإرهاق، فيما كان شعرها الأشقر يتموّج على نحوٍ متماثلٍ حول قبّعتها. بادرتها لوته بالسؤال عن مواعيد انطلاق الترام. ستستفسر عن ذلك، ردّت عليها من دون التفاتٍ وهي تختفي في الممرّ حاملةً طبقًا فضيًا مليئًا بالشطائر. متجاهلةً اعتراضات لوته، قررت السيّدة فون غارليتس أنَّ واحدًا من الضباط سيقلّها إلى المحطة.

منخرطين في أحاديثهم حتى لحظة المغادرة، سمح الضيوف لآنا بأن تساعدهم في ارتداء معاطفهم الثقيلة بتلقائيَّة. ظلّت لوته على الهامش، متيبّسة، حاملةً حقيبتها. التفت البهلوانيّ نحو جاره وتذمّر بشأن مستأجري أراضيه في براندنبورغ.

- «يا لهم من حمقى وقذرين وكسالى؛ ليسوا بشرًا في الواقع، هم فصيلة بين البشر والحيوانات...».

تجمّدت آنا، وكان معطفه بين يديها.

- «الكلام سهلٌ عليك»، قالت بلهجةٍ لاذعة، «كم أودُّ أن أراك، حين يكون عليك أن تكدح مثل فلّاح».

استدارت كلُّ الرؤوس نحوها؛ نظرت إليها الكونتيسة بفمٍ مفغور. في دهشةٍ شديدة من هذه الوقاحة، انطاع لها الضابط، مثل رضيعٍ، في ارتداء معطفه. احتقن وجهه باللون نفسه الذي كان عليه في الليلة الماضية عقب سقوطه؛ ولا شكّ أنه تذكّر رعايتها اللّبِقة له ممّا جعله يعدل عن المطالبة بطردها الفوريّ. في تلك اللحظة، لاحت علامات المغادرة في الطرف الآخر من المدخل. أمسكت لوته حقيبتها. اقتربت

آنا لتصافحها. عادت لها ابتسامتها للمرّة الأولى منذ مجيء لوته؛ لم تكن بدافع الودّ بقدر ما كانت نتيجةً للرضا عن الطريقة التي أعادت فيها مالك الأراضي المتغطرس إلى حجمه الحقير.

- «ستتبادل الرسائل في وقتٍ لاحق»، قالت وهي تدير رأسها؛ فقد كانت السيّدة فون غارليتس تناديها.

آخر ما وصل إلى مسامع لوته كان صوتها الحانق المنمّق:

- «من تظنّين نفسك حتّى تجرئي على إهانة ضيوفنا! إذا شهدتُ منك تكرارًا لهذا الفعل...».

أمسك ضابطٌ قصير القامة، متين القوام، حقيبةَ لوته وسحبها بسرعة إلى الخارج. صعدت على متن عربةٍ عسكريّة. وسمحت لهم باقتيادها بعيدًا من دون أن تلتفت برأسها إلى الوراء، وعبروا الممرّ الرئيس نحو ضاحيةٍ يغمرها هدوءٌ عميق. ما انفكّت آنا تعاود الظهور بذقنٍ شامخٍ ومعطف بين يديها، وفي كلّ مرّة تسمعُ ردَّها الغاضب، الذي مثّل، بلا شكٍّ، طريقتها في تسويغ ماضيها. «برابرة»؛ تردّد صدى هذا النعت في ركنٍ قصيٍّ من وجدان لوته. غالبها الفضول: لقد أثار صدق آنا الباسل إعجابها. لكن الأوان قد فات، كانوا يجتازون نهر الراين؛ كان اللاتلاقي المحتومُ أقلَّ إيلامًا على البُعدِ منه على القُرب. حدّقت في الكاتدرائيّة. البرجان يخترقان السماء؛ لا بدَّ أنّهما، ومنذ قرونٍ مضت، قد عثرا على صيغة للتعايش معًا في سلامٍ هنا، في الأرض الأمّ لكليهما.

أثناء الرحلة، ظلَّ الضبّاط صامتين حتّى أودعوا الأمانة الهولنديّة، التي عُهد إليهم بها، عند محطّة الترام.

٢

في عصفةٍ من الهواء القارس، دخل صبيٌّ يتبعه أبوه وقد اشترى خوذةً عسكريّةً من الخوذات التي تُباع في السوق. وضعها على رأس ابنه، مبتسمًا، بعد أن طلب زجاجتين من الكوكاكولا. من الطاولة حيث جلست آنا ولوته، كان باديًا أنّ شراء الخوذة أحيا العلاقة الرومانسيّة بين الأب والابن. ومهما طالت هذه النشوة، فقد كانا جزءًا من المغامرة نفسها، من حربٍ لم يعرفها أيٌّ منهما. لو كان ثمّة غطاء رأسٍ من الريش يُباع في الأسواق، لكانت معركة وينيتو[١] ضدّ البِيض ستتمخّض عن هذا الأثر نفسه.

- «كوكاكولا أمريكيّة مع خوذة ألمانيّة...»، هزّت آنا رأسها، «لقد هرمتُ بالفعل». لم تتخلّص لوته من التفكير بتلك الليلة المشؤومة لرأس السنة الجديدة.

---

(١) وينيتو: شخصيّة أمريكية بطوليّة خياليّة، ظهرت في سلسلة روايات، ابتكرها الألماني كارل ماي (١٨٤٢-١٩١٢)، تتناول الصراع بين الأوربيين البيض وسكان أمريكا الأصليين. لم تُحظر في ألمانيا النازية لشعبيتها الكبيرة، بل جرت أدلجتها والادعاء بأنّها توضيح لسبب سقوط الشعوب الأصلية الأمريكية المتمثل في نقص الوعي العنصري. (المترجم)

- «لن أنسى ذلك»، تمتمت، «كلّ أولئك الضباط المخمورين... شعرت بأنني كنتُ بين زمرةٍ من أنصار هتلر المتعصّبين».

- «هل جُننتِ؟»، قوّمت آنا جلستها؛ ثمّة حقيقةٌ ينبغي توضيحها. «كانت عائلة فون غارليتس من طبقة النبلاء القُدامى، كانوا صناعيّين! لقد أعانوا ذلك المهرّج في اعتلاء السلطة، أتفق معك في ذلك؛ ولكنّه بالمقابل صفّى حساباتهم مع الشيوعيّين وأقام لهم الرايخ الألمانيّ الأكبر. لكن هل تظنّين حقًا بأنّهم أخذوا ابن موظّف الجمارك ذاك على محمل الجدّ؟ لقد أحسنوا استغلاله لبعض الوقت، حتى جاء دورهم للموت في ساحة المعركة، وحينها أدركوا أن مُحدَث النعمة ذاك قد استخدمهم بدوره».

قهقهت بصخب.

- «ما المضحك في الأمر؟»، سألتها لوته مغتاظة.

- «ما زلت أتخيّل نفسي راكضةً في أرجاء ذلك المنزل، مرتديةً مئزري وقبّعتي. يا له من بؤس! طوال الوقت كنت أحاول، بإلحاحٍ، نسيان أنَّ تلك الزيارة كانت من أجلي؛ فكّري في الأمر، كنتُ أستقبلُ زائرًا لي للمرّة الأولى في حياتي. لا يمكنك تصوُّر مدى المشقّة التي مثّلتْها لي. كان الضبّاط مجرّد ذريعةٍ ممتازة. ما الذي فعلته!».

بصمت، كانت لوته تبني هرمًا من قطع السكّر.

- «لقد لازمتْني مثلَ صورةٍ منحطّة»، همست، «أولئك الضبّاط في

تلك الليلة... عدوٌّ بوسعك أن تتوقّعي أيَّ شيءٍ منه طالما كان قادرًا على إطلاق النار على المناشف...».

- «كانوا يتراقصون على فوّهة بركان»، قاطعتها آنا. «لماذا أسرفوا في الشربِ برأيك؟».

*

ذرعت آنا غرفة نومها جيئةً وذهابًا. تألَّم جسدُها مع كلِّ خطوة، كأنَّ أحدهم ينهال عليها ضربًا. ضربت قبضتها في راحة يدها الأخرى. كان تَرْدادُ الصمتِ لا يُحتَمل. صمتٌ منبّهُه مزدوجٌ، خلّفه شخصٌ رحل الآن إلى الأبد. لا علاقة للآخرين به، ليس مؤامرةً منهم، بل كانت وحدها المذنبة هذه المرّة. حاصرتها صورٌ كانت تلمحها في لحظاتٍ عابرةٍ أثناء القيام بواجبات عملها: صورة أختها؛ في الحديقة، والمعطف يتطاير حولها، وحيدةً على مائدة المطبخ الممتدّة وأمامها طبقٌ فارغٌ بعد تناول الوجبة، تراها من طرف عينيها تصعد إلى الطابق العلويّ يائسةً. راح الصمت يكيل الاتّهامات، واحدًا تلو الآخر. لفّت سلسلة المشاهد وأعادت تشغيلها؛ إنَّما على نحوٍ مغاير. فات الأوان، فات الأوان، فات الأوان. لكن لماذا؛ هذا جلُّ ما أرادت أن تعرفه. بيد أنّها لن تعثر على الإجابة في أثرى المكتبات وأفضلها، بل ستجدها دفينة بداخلها. الأمر الوحيد الذي تيقّنت منه أنَّها، ومنذ اللحظة التي استدارت فيها لوته عند منصّة المحطّة، قد قابلت أباها وجهًا لوجه. الأنف الطويل المعقوف، الوجه الرفيع والشعر المتموّج الداكن، والنظرة السوداويّة العنيدة. هناك شيءٌ غير متلائم في ذلك؛ كما لو أنَّ لوته قد سرقته منها أو تسبّبت في

منافسةٍ غير عادلة. لم تجد، في لوته، تلك الأخت البالغة من العمر ستّة أعوام، المكسوّة بطبقات الملابس الكثيفة، التي أقدمت امرأةٌ متدثّرة بوشاح على انتزاعها منها. هناك الآن شخصٌ آخر تحقُّ له المطالبة بأبيها، وربّما يكون أكثر جدارة منها، بفضل الشَّبهِ المذهل بينهما. إنّها لوته. لماذا في هذا الوقت تحديدًا؟

بين القلق من جهةٍ وتأنيب الضمير من جهةٍ أخرى، صارعت للمضيّ في هذا الدرب المزدوج طوال الشتاء الذي دفع بأكوام الثلوج باتجاه المنزل، وأودع أعلى السلَّم غرابًا مات متجمّدًا من الصقيع، وحين عثرت عليه الخادمة هانيلوره صباحًا رأت في ذلك فألَ شؤمٍ، ممّا دفع بخادمة الغسيل لتحذيرها من أن الخرافات تجلب الحظ السيء. أمّا آنا، التي تجاهلت كلَّ شيء لوهلة، أخذت تضحك على هذه الأشكال الغريبة من المعتقدات الخرافيّة. عاود الماضي زيارة آنا للمرّة الثانية من دون قصدٍ منها. هانيلوره، ذات الثمانية عشر عامًا، استقدمتها الكونتيسة مؤخّرًا من قرية صغيرة في سيليزيا السفلى ووضعتها تحت رعاية آنا منذ مجيئها. أعلنت الفتاة فجأةً أنّها كانت ترقص في الكازينو بعد ظهر أيّام الآحاد.

- «لا يمكنك السماح لها بالذهاب إلّا إذا ذهبتِ برفقتها أيضًا»، قالت السيّدة فون غارليتس.

بدا أنَّ الكازينو أخذ على عاتقه مغازلة الاشتراكيَّة الجديدة. لم تعد الجدران تصدُّ آنا؛ كانت الأبواب ذات المقابض النحاسيّة مفتوحة على مصراعيها. ارتدت فستانًا أزرقَ مريميًّا؛ تلألأ الحرير الأحمر تحت

التنورة، وكان عطر السيّدة ما زال يفوح من الثوب. سلّمت آنا التذاكر بحماسٍ قليلٍ يليق بمُرافق. وبذلك تمكّنت من دخول قاعتها الخاصّة. الميدان الرخاميّ، ساحة القفز، أعمدة الغُمَّيضة، القبّة العالية حيث تأتلف الأغنيات... درج الرخام حيث سقطت... كلُّ شيء في مكانه، على حاله... لا بُدَّ أنها كانت موجودة، لا بُدَّ أنهم كانوا هنا، في مكانٍ ما... خلف هذه الأعمدة، في أرجاء الممرّات... تعالت سحبٌ من الأنفاس الكثيفة نحو القبّة. اختفت هانيلوره في البهو. هنا الأرائك؛ ترامبولينات في نظر آنا. بين همهمة الأصوات، وموسيقى الرقص، وعبر التصفيق وخبط الكعوب على حلبة الرقص في الداخل، سمعت آنا صمتًا عميقًا مرتعشًا. حجزت هانيلوره المقاعد، وطلبت النبيذ، وذهبت بعيدًا. كانت آنا تلمحها بين حينٍ وآخر ترقص الفالس بين ذراعي جنديّ ظلّت رَقَبَتُه الحليقة، الثخينة تبدو للعيان. بدا أنَّ الحائط الغربيّ قد أُخلي من المرابطين فيه؛ وأنَّ حرب القطّ والفأر قد انتقلت إلى بهو الكازينو عند ظهيرة يوم الأحد هذا من شهر أبريل.

احتست نبيذها من دون أن تتلذّذ بتذوّقه ونظرت أمامها بثباتٍ؛ وعلى نحو شديد المباغتة، اتخذ أحدهم مكانَه بينها وبين ذكرياتها.

- «هل تسمحين لي أن أحظى بهذا الشرف...؟».

نهضت بفتورٍ، وانقادت معه إلى حلبة الرقص. بدت أغنيّة «ماذا تفعل بركبتك، عزيزي هانتس؟» كشيءٍ من حياةٍ سابقةٍ. كان أداء الجنديّ لا تشوبه شائبة. حدّقت شاردةً بالـ V الفضيّة على كمّه. بعد انتهاء الرقصة، رافقها إلى مقعدها. بدأت المقطوعة التالية حين كانت على وشك

الجلوس؛ أشار لها بإيماءةٍ خاطفةٍ ودعاها للرقص من جديد. انحسرت الصور شيئًا فشيئًا أثناء الرقصة الثانية التي كانت أكثر حيوية من الأولى؛ كما ميّزت الجنديّ بوضوحٍ أكثر. بدا وجهه مألوفًا على نحوٍ غريبٍ؛ وجه إنسانٍ لا وجه جنديّ، فكّرتْ من دون أن تعير اهتمامًا.

أشاحت بنظراتها بعيدًا واكتشفت على الجدار صورةً كبيرة مؤطّرة للمضائق النرويجيّة. هل بدؤوا يتباهون فعلًا بانتصاراتهم؟

- «إنّهم راهنون هنا تمامًا لا سيّما مع الزخارف الجدارية»، قالت بفظاظة.

- «وكذلك تلك التي تصوّر الجسور فوق نهر فلتافا»، عقّب.

تفاجأت بلهجته.

- «أأنت من التخم الشرقيّ؟»[1].

- «أنا نمساويّ»، صحّح لها بإيماءةٍ مهذّبة.

- «لكنّهم جميعًا جنود قادمون من الأوبريتات، يحملون ورودًا حمراء في بنادقهم بدلًا من الرصاص».

انكمشت أساريره.

- «في تشيكوسلوفاكيا، قليلة جدًا فرصك للضحك أو الغناء».

- «إذًا فلست جنديًّا، كما يتبيّن».

---

(١) يُقصد بالتخم الشرقيّ (أوستمارك) العبارة التي استخدمتها الدعاية النازيّة لتحلّ محلّ اسم دولة النمسا الاتحادية المستقلة بعد عملية أنسلوس السلميّة التي ضُمت فيها النمسا إلى ألمانيا النازية في مارس ١٩٣٨. (المترجم)

- «أؤدّي خدمتي العسكريّة»، أجاب مبتسمًا، «وأفضّلُ ألف مرّة لو أكون في منزلي في ڤيينا... مع الورود في بندقيّتي».

كان يتكلّم برخامة جعلت كلَّ ما قاله يأخذ طابع المزاح. أحكمَ إمساكَها أكثر فأكثر، وراح يدور بحماسٍ حول حلبة الرقص. عندما انتهت المقطوعة، أعادها بحفاوةٍ إلى مقعدها؛ طقسٌ ظلَّ يتكرّر، فكلّما بدأت الأوركسترا العزف من جديد، كان يسارع مجتازًا الأرضيّة الخشبيّة ليقف أمامها. في حوالي الحادية عشرة والنصف، تقدّم معتذرًا. ينبغي أن يعود إلى الثكنة بحلول الثانية عشرة.

- «هل سأراكِ مجدّدًا؟»، سألها. «المعذرة، لم أعرّف بنفسي: اسمي مارتين غروزالي».

- «يمكنك الاتصال بي على الرقم: ٥٢٠٠٠»، قالت بلهجةٍ مباشرةٍ.

- «هل أنت جادّة؟»، نظر إليها ذاهلًا.

- «لماذا؟».

- «لا يبدو رقمًا عاديًّا».

- «لذا فأنت تقصد التلميح إلى أنّي اختلقته»، قالت منزعجة.

احمرّ خجلًا وانحنى مقتربًا ليقبّل يدها.

- «*أقبّلُ يدكِ سيّدتي*»[1]، قالت آنا بسخرية، وانتزعت يدها بعيدًا عن شفتيه.

---

(١) هذه العبارة عنوان لأغنية تانغو من ألحان رالف إروين وتأليف فريتز روتر تظهر في فيلم ألمانيّ صامت له الاسم نفسه، من إخراج روبرت لاند، وبطولته لمارلين ديتريش. (المترجم)

لم يرتدع الجنديّ. اتصل عبر الهاتف بعد يومين. لم تخطر لها ذريعة فوريّة لممانعة اللقاء الذي التمسه. اجتمعا في مقهى بساحة «آلتر ماركت»؛ وكان المطر ينهمرُ بلا انقطاع. شعورٌ بالاغتراب، بالعارِ، تمكّن منها حين جلسا متقابلَين هذه المرّة، من دون خيار الرقص كمهربٍ. لكنه تولّى على عاتقه، ببراعة تلميذ مدرسة، قيادة اللقاء بسلاسة. راح يصف لها ڤيينا، قصر شونبرون، سوق ناشماركت، حديقة براتر، المنزل الذي وُلد فيه شوبرت، المنزل الذي عاش فيه موتسارت، المنزل الذي مات فيه هايدن. استعرض لها كلَّ المشاهد؛ لقد أعاد تركيب مدينته وتجوّل معها في أنحائها، مشيرًا إلى كلّ ما يصادفه في الطريق، بخالص الحيويّة والحماس؛ لم يغفل ذلك لإغرائها، بل ليُبقي على شيءٍ ما بعيدًا، شيء يتزايد ظهوره في خلفيّة المشاهد، منتظرًا حلول وقته المناسب. حتّى آنا، التي لا علاقة لها بذلك الشيء، شعرت بأنه يحوم في الجوار. ومع ذلك، فقد ظهر على نحوٍ غير متوقّع.

- «ها نحن هنا»، قال متنهّدًا، «في مواجهة الفرنسيّين، بكل معدّاتنا، وهم في مواجهتنا أيضًا. لماذا؟ آمل أن تنتهي هذه المهزلة قريبًا ونتمكّن جميعًا من العودة إلى منازلنا».

تلت ذلك لقاءات أخرى. كان يقلُّها من وإلى المنزل؛ واتفق الجميع على أنه فتى وسيم مهذّب، الأمر الذي أزعجها. راحت تضايق الفتى الوسيم المهذب بالإغاظات التي استمتع بها كثيرًا؛ سخرت من لهجته، من مجاملاته، من أصله النمساويّ. وفي إحدى الأمسيات، أُقيمت حفلة راقصة في قاعة شتاتهاله. حين شارفت على الختام، جذبته آنا نحو المَخرَج.

- «هيّا، لقد انتهت».

- «لا، لا. سيعزفون مقطوعات أخرى»، ناشدها. «ما رأيك أن نراهن؟ إذا فزتُ، سأخاطبك من دون كُلفة».

فاز. جابا صامتَين الطرقات الخالية في الضاحية، كان القمر متقوّسًا خلف الغيوم، الهواء مفعمٌ بالرائحة الحلوة لبراعم الأوراق الأولى. لا يمكنني السماح له بتجاوز الرسميّة في مخاطبتي، فكّرت آنا. أمام المنزل، عند الدرجة السفليّة، قبّلها قبلةً مفاجئة كما لو أنّه أراد الانتقام من صوت ظلّ يمنعه عن فعل ذلك طوال الطريق هناك.

- «حضرتُكَ تبكي...».

صُدِمت آنا.

- «تقصدين... أنتَ...»، صحّح لها بصوت أجشّ.

في خضمّ الموقف، لم تجرؤ على المغادرة: لا تستطيع التخلّي عن جنديٍّ يبكي عند عتبة السلّم. مع أنّها تودُّ لو تهرع إلى الداخل حيث بوسعها التفكير في الأمر من وراء بابٍ مُقفل، لكنّها دفعته باتجاه الحديقة، نحو مقعدٍ حجريّ بدا وكأن القمر قد أضاءه وحده، يحيطه من ثلاث جهات سياجٌ من شجر الطقسوس المشذّب اللامع. جلسا. لاحت مقتطفات من الكتب والأفلام في ذهنها، سرعان ما اتّخذت فيها الشخصيّات الخطوة التالية: عناق، مصارحات رسميّة... لكنّها لم تعثر فيها على العاشق الباكي. لطالما اعتبرت بكاءها علامة ضعفٍ، لكنْ بدا لها كما لو أنه يتطلّب من الرجل شجاعة خاصة. ففي آخر مرّة بكت فيها -منذ دهرٍ- كانت غاضبة، تشعر بالإذلال والألم. أمّا في حالة الجنديّ،

فالسببُ مغايرٌ بلا شكّ؛ لكنها لم تجرؤ على طرح الفكرة. أمسك بيدها وحدّق في المنزل النائم، أمامه مباشرة، بهدوءٍ تامّ. في داخلها، تلاشى الترقُّب الذي أحسّت به طوال الوقت، وانتابها تراخٍ عذب.

- «غلبني النعاسُ فجأة»، تثاءبتْ.

- «تمدّدي»، همس لها، «وضعي رأسك في حضني».

من دون تردّدٍ، استلقت، غارقةً في النوم، مأخوذةً برائحة الجنديّ.

أثناء نومها، انتقل الهلالُ إلى موضعٍ آخر في السماء. استيقظت مسترخيةً، في حالةٍ من الاستسلامِ الكامل لم تعرفها منذ طفولتها. راقبته من دون أن يلحظ ذلك. وبينما كان هناك، جالسًا بلا حراك، ذكّرها بالجندي المحتضر في منزل جدّها، ووجهه الناظر نحو ملاكٍ نازلٍ من السماء. كأنّه يتواصل من دون كلامٍ وعلى نحوٍ حميمٍ مع شيءٍ غير مرئيٍّ لها. ابتلع ريقه. ارتفعت تفّاحة آدم ثم هبطت، ما أعاده إلى هيئته الأرضيّة. خجلى من المراقبة السريّة، تفوّهت باسمه، فانحنى نحوها.

- «لم يخطر لي أبدًا وجود شيء بجمال أن تغفو فتاةٌ في حضنك»، قال وهو يحطُّ إصبعه على شفتيها.

- «ألم أقل لك ذلك؛ أنت *فارس الوردة*[1] بعينه»، قالت بلهجةٍ متزنةٍ.

---

(١) فارس الوردة أوبرا ذائعة الشهرة وبالغة النجاح للموسيقار الألماني البافاري ريتشارد شتراوس (١٨٦٤-١٩٤٩)، كتب نصها المسرحي في ثلاثة فصول الشاعر هوفمانستال عام ١٩١١، تصوّر عالم فيينا الأرستقراطي اللامع في القرن الثامن عشر، وفارس الوردة هو من يقدّم وردة فضية للمرأة إشارة إلى بداية خطوبتها، وحريّ بالقارئ أن يعود إلى حكاية المسرحية من أجل فهم أعمق للإحالة في هذا النص. (المترجم)

في الأيّام التي تلت، حامت أفكارها حول الجنديّ مثل سربٍ من ذباب الصيف. كيف أمكن له أن يكون جديرًا بالثقة وغامضًا في الوقت نفسه؟ أوقعتها هذه المفارقة في حيرةٍ مستساغة. لا طريقَ للعودة كما يبدو. خطّطا للذهاب إلى جبل «دراخِنفِلز»[1] في عيد العنصرة. وُضِّبت سلّة النزهة. لكن ذلك التِنّين لم يمهلهما الوقت حتى يذهبا. استيقظ من سباته الذي دام أكثر من عقدين من الزمن، وتمدَّد وتثاءب واطمأنّ، ناظرًا في المرآة، إلا أنّ عينيه ما زالتا في محجريهما، وأنَّ حراشفه ما زالت تلمع، وشحذ مخالبه على الصخرة وفغر فمه على مصراعيه ليتحقق من الأداء السليم لأجهزة نفث النار وأبخرة الكبريت، ثم انحدر من أعالي الجبل بصدرٍ منتفخ وراح يلطم الهواءَ بذيله الكاسح متجهًا نحو الغرب.

رنَّ جرس الهاتف في التاسع من مايو.

- «اتصالٌ من أجلكِ»، قالت هانيلوره.

التقطت آنا السماعة. كان الجنديُّ يلهث على الطرف الآخر: «أُلغيت كلّ الإجازات». إنذار، مغادرة سريعة. كان قد تسلّق فوق جدار الثكنات للاتصال بها. عليه العودة في الحال. إذا عثروا عليه فسيُقتل بالرصاص من دون رحمة. كانت ما تزال واقفة هناك، جهاز الاستقبال ظلَّ في يدها لمدّةٍ بعد أن أغلقَ الهاتف. ذلك الشيء هنا من جديد، لم يعد في الخلفيّة. لقد ألقى بظلاله الشاسعة عليها، ووجدَ مستقرًّا له في قاع صدرها.

انهمرت الدموع على خدّيها من تلقاء نفسها.

---

(١) أحد جبال سلسلة زيبنغبيرغه في ألمانيا على نهر الراين. معنى الاسم: صخرة التنين. (المترجم)

- «نعم، نعم. هكذا هي الحرب. أليس كذلك؟»، قالت السيّدة فون غارليتس.

أغضبتها هذه الملاحظة المقتضبة. انهمرت الدموع المكنونة منذ سنين. لقد قرأت ما يكفي لتعلم أن البكاء على جنديٍّ يلتحق بجبهة المعركة يجعلها في صفٍّ واحدٍ مع ملايين النساء على مرّ العصور. لقد كتبوا ذلك وغنّوا عنه مرارًا وتكرارًا، ومع ذلك، كان حزنها هو الحزن الوحيد، والأعتى على الإطلاق. من جديد، باتت عاجزة عن مواجهة ما يحدث؛ إلّا أنّه كان عجزَ شخصَين، هذه المرّة.

جاءت رسالته الأولى مع البريد العسكريّ من باد غودِسبيرغ. «أنا هنا، في صالةٍ للألعاب الرياضيّة، بحوزتي شمعة وقلم رصاص وورقة، كتابتي لهذه الرسالة نابعة من اهتمامي بكِ. أرجوكِ لا تبخلي عليّ بأخباركِ». على هذا النحو، بدأت المراسلات التي ستستمرّ لسنوات. نجت من الحملات العسكريّة في بلجيكا وفرنسا وروسيا، حتّى الحرف الأخير الذي لم يكتبه بنفسه. لقد ازدهر الحبّ على صفحات الورق، ممهورًا بنكران الذات الذي تبلور في هذه الكلمات: «... بالنسبة لي، كلّ شيء على ما يُرام...».

«الفرنسيّون قادمون!». لاذت السيّدة فون غارليتس بالفرار مع حاشيتها نحو الشرقِ مرةً أخرى. بقيت آنا وهانيلوره للعناية بالمنزل. باب ملجأ الغارات الجويّة الذي بُني ببصيرةٍ ثاقبة عام ١٩٣٤ لم يعد مغلقًا بعد الآن. مُلئ حوض السباحة بمياه إطفاء الحريق كما نصَّ القانون. نُظِّم كلّ شيء تنظيمًا جيّدًا.

*

مثل ناجيتَيْن من غرق سفينة، جرفتهما أمواجُ بحرٍ من القهوة والشاي والنبيذ والراتفيا بالتفّاح؛ مشروباتٌ مضرّة للمصابين بالتهاب المفاصل، لكنّها بلسمٌ لأرواحهم. أعادتهما تيّارات الخليج الدافئة في كلِّ مرة لرؤية شواطئ جديدةٍ غير معهودة، لم تطأها قدماهما. إنه يوم الأحد. طلبتا وجبة الغداء. وبدلًا من استكشاف المناطق المحيطة بمدينة سبا، في جولات مؤلمة، فضّلتا الخوض في دروب الماضي ودهاليزه، مع أنَّ خطر انفجار الألغام الأرضيّة أخذ يتزايد أكثر فأكثر.

*

بعد سنوات، سيتعلّم أبناء لوته أنَّ الحرب بدأت في العاشر من مايو لعام ١٩٤٠. أمّا بالنسبة للألمانيين، فقد بدأت في وقت أسبق، في سبتمبر، أو قبل ذلك -مسألة وجهات نظر- في عام ١٩٣٣، حين تسلّم ذلك الرّسام، الدؤوب والخائب، السلطة. يوم العاشر من مايو ذاك، لم تفارق العائلة الراديو للحظة. نظرت لوته إلى الخارج عبر النوافذ الطويلة. السماء الخالية من الغيوم دحضت كلّ تلك الأحداث غير الواقعية التي رواها المذيع بصوته المحايد. مظليّون؟ غارات على المطارات؟ جحافل القوّات الألمانيّة تعبر الحدود كما فعلت الخادمات الألمانيّات طوال السنوات الماضية؟

سرعان ما أحرز الجيش الألمانيّ تقدُّمًا. باتت الحقائق والشائعات في تناحر: تنكّر المظليّون الألمانيّون بزيّ سعاة البريد وشرطة الأرياف، وعجَّت البلاد بالجواسيس، هربت العائلة الحاكمة، واحترقت روتردام بلهب النيران. هدّد الألمانيّون بقصف مدنٍ أخرى أيضًا. دافع الجنود الهولنديّون عن أنفسهم بقوّة اليأس. كانت هولندا صغيرة، لكن ليس

للدرجة التي تمكّنها من إخفاء نفسها؛ لمحة واحدة من قاذفة القنابل كافية لإقناعك بذلك.

كان الاستسلام مُوهنًا للعزيمة، لكنّه أزال القلق. نجت المدن المهدّدة، وعرف المحتلُّ كيف يتصرف : لا نهب ولا اغتصاب ولا مذابح كما وُصِف في الكتب. بيد أنّ الأرتال العسكريَّة أصبحت منذ ذلك الحين جزءًا من مشهد الشارع، وكانت تُسمع أصداء خبط الأحذية وأغنيات المعارك هنا وهناك. في طريقها إلى درس الغناء، صادفت لوته مجموعةً من الألمانيين يسيرون جنبًا إلى جنب، وقد أغلقوا مسار الدرّاجات. دقّت جرسها بشدّة من دون جدوى، انعطفت نحو الطريق كي تجتازهم. ركض خلفها أحد الجنود مهانًا لأنّها تجرّأت على قرع إشارة التنبيه، وحاول الإمساك برفّ أمتعتها. وقفت على الدوّاسات لتزيد السرعة؛ اندفع الدم إلى أذنيها. طاردها سيل شتائمه. عاودت سماع الصراخ ودويّ الرصاص في الليل. تضخّم الجندي خلفها وصارت له هيئة وحش أراد اللحاق بها ورميها ومعاقبتها. ابتعدت عنه شيئًا فشيئًا. لم تجرؤ على التلفُّت حولها حتى أصبحت على بعد ثلاثة شوارع، وعاد الهدوء خلفها.

كانت الموسيقى طاردةً فعّالة للأرواح الشريرة. دافيد دِ ڤريس، الطالب ذو السمعة الطيّبة في المعهد الموسيقيّ، رافق الجوقة في التسجيلات الإذاعيّة لبعض الوقت. طلبت إليه لوته أن يتشاركا دراسة نشيد «ترانيم لموت الأطفال» لمالر في المنزل، حتّى تتمكّن من صبّ تركيزها على الجزء الغنائيّ، الذي كان بحدّ ذاته صعبًا. وهكذا، كانا يخضعان، مرتين في الأسبوع، لتعويذة الألم السحريّة التي تحوّلت إلى جمال:

كثيرًا ما أحسبُ أنهم خرجوا للتو!

وسوف يعودون إلى المنزل قريبًا!

الجوُّ جميل! لا تقلق!

لقد ذهبوا في نزهةٍ طويلةٍ!

نعم، لقد خرجوا للتوّ

وسوف يعودون إلى المنزل حالًا!

ملأتها الأغاني بحنينٍ غامض؛ لم يعد التنفس الخاطئ يعرقل صوتها الذي بات ينبعث من جسدها بأسره، لا من صدرها فحسب. لقد صارت بوتقةً منفردةً من الموسيقى، من الشوق الذائع؛ في تلك الأثناء كانت ترى صورةَ رفيقها، في حالة استسلام تفطر الفؤاد، كما لو أنّه تماهى من دون أدنى مشقّةٍ مع الأب الحزين. حين انتهيا، ظلَّ ذلك الشعور مهيمنًا، كان صعبًا عليهما أن يفارقا بعضهما البعض، فحام أحدهما حول الآخر، والموسيقى ما زالت ترنُّ في أذنيهما، من دون أيّ رغبةٍ في التخلُّص من التعويذة والانخراط في الحياة اليوميّة، كلٌّ على حدة. راح يماطل قبل أن يضع النوتة الموسيقيّة في حقيبته؛ جعلته لحظات التردد هذه فريسةً سهلةً لوالد لوته الذي أخذ يُطلِعه على أحدث مقتنياته.

حرصًا على ألّا ينتهي به المطاف موسيقيًّا واهنًا ومصابًا بفقر الدم مثل شوبان، كرّس الشاب نفسه بشغفٍ للإبحار. ذات يوم صيفيّ جميل، استأجر قاربًا ودعاها لرحلةٍ في بحيرات لوسدريخت. وفيما كان يعرّفها على مبادئ الملاحة، راح يمتدح والدها: كم كان ودودًا، ويا لجمال الجهاز الصوتيّ الذي ركّبه! رأت أنّ مخالفته لن تكون إلا جحودًا،

جحودًا بمثل هذا اليوم الجميل، بإيقاع المياه الهادرة وهي ترتطم بجوانب القارب، بالرياح التي سبّبت لها القشعريرة، فأسرعت حرارة الشمس لتلطيفها؛ جحودًا بمرأى جسده المسفوع بالشمس وأصابعه الطويلة التي لا تتراقص على المفاتيح الآن، بل انهمكت في لعبة نشيطة مع الحبال والصواري ودفة القيادة.

يبدو أن المجاملة كانت وسيلته للتشكّي من أبيه. فقد كان في البداية قائدًا لجوقة التراتيل في كنيسٍ يهوديّ، لكن لم يستطع مقاومة إغراء الأغنية الشعبيَّة. تمتّع بسمعةٍ طيبة بين جمهورٍ واسع، في هولندا وألمانيا على السواء: حيث جرى تداول أسطوانات الغراموفون الخاصّة به. جلبت له الشهرةُ الأفراحَ والأتراح. تدافعت الفتيات تحت نافذة غرفته في الفندق؛ حيث كان ينتظر مرتديًا ثوب الحمام اللامع، وزجاجة الشامبانيا في دلو الثلج، أن تشقَّ أجملُهنَّ طريقها إليه. أخذ يخلّص نفسه من شعور الذنب تجاه زوجته المريضة بشراء المجوهرات المبهرجة لها، أمَّا أغانيه العاطفيَّة فحافظت على طابعها البريء وأنغامها المبهجة: بعد انتهاء عروضه، كانت الجماهير تعود إلى منازلها مفعمةً بالحماسة؛ أضحوا مستعدين لمواجهة الحياة من جديد. دافيد، حين رافق أباه في جولة، جلس في مقصورةٍ مجاورة في القطار صباحَ اليوم التالي: لم يستطع تحمُّل حضور أبيه. أغمض عينيه اشمئزازًا، وهرب في خياله إلى فلسطين، متأمِّلًا دراسة الطب هناك بعد إتمام الدراسة في المعهد الموسيقيّ؛ ستسنح للمتفوّق فرصٌ أكثر هناك. كانت الرحلة تنتهي على الدوام بندم الأب. بكى من اعتراض ابنه الوحيد، وتوسّل إليه طلبًا للتفهم والودّ، مقابل أن يضع العالم كلّه تحت قدميه.

- «ستحظى بقاربٍ شراعيّ مني يا بنيّ»، كان يترجّاه، «لكن دعنا ننتظر حتى تنتهي الحرب».

لم تكن لوته، التي كانت المياه تتدفّق على قدميها، على درايةٍ بأنّ القارب الشراعيّ الوهميّ المذكور هنا لأوّل مرّة سيصبح رمزًا لحدثٍ من شأنه أن يلقي بظلاله على سائر حياتها. شيء لا يتماشى بأيّ حالٍ مع السماء الصافية والأشرعة البيضاء المتلاطمة والسباحة معًا في البحيرة؛ حيث تلامسا خلسةً للمرّة الأولى؛ وكانت المياه ذريعةً ممتازة لذلك.

انعكست الأيّام الأولى للحرب على محلّات البقالة. تزايد تقنين الحاجات الضروريّة؛ لم تواجه والدةُ لوته مشاكل كبيرة في البداية؛ فالأسرة كانت تعيش في مكانٍ بعيدٍ، وقد اعتادت على الاحتفاظ بالمؤن الكافية على الدوام في المنزل. اشترت علب الشاي الصينيّ من شخص عاش سابقًا في المستعمرات ويقيم في إحدى المزارع الريفيّة، وحصلت على الحليب الدافئ الرغويّ من المزارع، وتولّت صنع الخبز بنفسها. رفضت الانسياق لسُعار التكديس، واقتصرت على تخزين الصابون الأخضر. لم يتطلّب الالتزام بتعليمات التعتيم أيّة ترتيبات خاصة، واكتفت بإسدال الستائر السميكة المصنوعة من شعر الخيل. أُطلق سراح ثيو دِ زوان في يونيو. لم يشهد أي عمليات حربية، حيث كان محتجزًا في ليمبورغ في مكانٍ لم تطله يد الأحداث.

- «لا بدَّ أنّه اختبأ في كومة قش، وانتظر بهدوءٍ حتّى تبدّد دخان المعارك»، قالت حماته.

٣

بالرغم من كلّ شيءٍ، دفعهما الغداء الشهيّ لاستنشاق بعض الهواء النقيّ. مرتجفةً، احتمت لوته بياقة معطفها: بدت الرياح الشرقيّة أشدّ قسوةً. أمَّا آنا، فقد تمتّعت بمستوى أعلى من المناعة الطبيعيّة، فضلًا عن أنَّها، بكل الأحوال، أقلّ تأثُّرًا بما تمليه ظروف الطقس، لذا دخلت إلى «پارك دو سيت أور» بخطواتٍ مرحة. باتت الحديقة مهجورة الآن بعد أن أُغلق سوق السلع المستعملة. مجموعة من أشجار الخيزران المصفرّة تصدر حفيفًا وسط الريح. تساءلت آنا عمّا إذا كانت هذه الأشجار ستتعافى بحلول الربيع؛ ذلك مؤكّد وفقًا للوته، وعلى حدّ علمها يتميّز الخيزران بأنه يزهر كلَّ مئة عام مرةً واحدةً في الوقت نفسه، في كلّ أنحاء العالم. بدا ذلك أشبه بخرافةٍ بالنسبة لآنا، مع أنَّها تعترف بوجود نباتات تزهرُ لليلةٍ واحدةٍ فحسب، بالرغم من أن أحدًا لم يشهد ذلك.

فجأةً، وقفتا أمام نصبٍ تذكاريّ صغيرٍ من الحجر، يتكئ على جرفٍ صخريّ شديد الانحدار، بدا مثل جدار يطوّق سپا من الشمال ويفصلها عن باقي العالم. أُقيم النصبُ تخليدًا لذكرى مصمّمي مسارات التنزُّه حول سپا. ذُكرت أسماؤهم جميعًا: ابتداءً من كونت دِ ليندن-

أسبريمون عام ١٧١٨ وانتهاءً بجوزيف سيرڤيه عام ١٨٤٦. في الأسفل حوض مملوء بالمياه المتجمّدة؛ على الحافة جثم ضفدعان من النحاس، ورأساهما إلى الخلف، وفي الصيف، كما يبدو، ينبثق الماء من الفم المفتوح لكلٍّ منهما. تملّك آنا إحساسٌ غريب بأنّهما مثل هذين الضفدعين تمامًا، باعدَ بينهما الصقيع، وهما تحاولان حفظ التوازن على شفا الحوض، وترتقبان ذوبان الجليد.

استدارتا يُمنةً بانسجامٍ تامٍّ، وعبرتا شارع الملكة أستريد لتصيرا، بعد ذلك بقليل، أمام بوّابةٍ حديديّة كانت مدخلًا لمبنى يضمّ «متحف مدينة الماء». تبادلتا الإيماءات قبل أن تدخلا. كانت عجوزٌ تبيع تذاكر الدخول، متقوقعةً خلف طاولةٍ عليها بطاقاتٌ بريديّة مصوّرة. وجهها المستدير المحمرّ مثل ثمرةٍ ذابلة من تفاح النجمة، محكومٌ بشبكةٍ معقّدة من التجاعيد التي يزاحم بعضها البعض. في مكانٍ ما، بين التجاعيد، تلألأت عيناها وهي تناولهما التذاكر بيدٍ متغضّنة. طلبت آنا الحصول على دليلٍ إرشاديّ؛ تلكّأت المسننات في الآلة، ثمّ بدأ الرأس يهتزُّ بشدّة، واستلمتا نسخةً باهتةً.

– «يا لها من فضيحة»، تمتمت آنا، «امرأة تجاوز عمرها المئة وما زالت تعمل».

شعرتا بغتةً بأنّهما صغيرتان جدًّا. دخلتا الحجرة الأولى بشيءٍ من التجاسر. احتوت الصناديق الزجاجية المضيئة تجميعةً واسعة من الـ«جوليته»، وهي الأشياء التي استخدمها زوّار المنتجع على مرّ القرون: أكياس السعوط والتبغ، دوارق المياه، عكاكيز المشي بمقابض تصوّر

نابليون بونابرت أو حيوانات بريّة، ساعات الجيب، وعلب أوراق الكوادريل[1]، وقطع أثاث فاخرة، كلّها مطليّة ومنحوتة من الخشب الشهير الذي يُسمّى بكلّ فخر «بوا دو سبا»؛ كما لو أنّها صنفٌ من الرخام. الصور الطوباويّة لنساء أنيقات يتمشّين، سواء بشعر مستعار وكرينولين أو من دونهما، على الطرق التي شقّها ليندن-أسبريمون وسيرڤيه، أثارت صرخات الإعجاب من لوته. انزعجت آنا من التحف الرخيصة التافهة ورأت في اللوحات المنمنمة استغلالًا للحرفيّين الذين يتلقّون أجورًا منخفضة. أبعدت نسخة الدليل الإرشاديّ عن عينيها، وراحت تقرأ بصوتٍ عالٍ وبلهجتها المرتعشة:

«قبل وقتٍ طويل من تحوُّل مدينة سپا إلى ما هي عليه، أشاد بلينيوس الرومانيّ بالخصائص العلاجيّة للمياه التي كانت تنبجس من أرض هذه المنطقة. ومنذ أن أمر طبيب هنري الثامن مريضَه بشرب الماء من هذه الينابيع، أصبحت سپا معروفة في كلّ أنحاء أوروبا، ووجدت زجاجات المياه المضفّرة بأكاليل الصفصاف طريقَها إلى كل الأصقاع. وفي عام ١٧١٧، شرّف القيصر بطرس الأكبر المدينة بزيارته الكريمة. كذلك سار أبناء الطبقة الأرستقراطيّة الأوروبيّة على نهجه، محاطين بالمغامرين والمتطفّلين؛ رجال دولة وعلماء مشهورون وفنّانون وسيّدات من النسل الملكيّ راحوا جميعًا يتنقّلون من ينبوعٍ إلى آخر، عكّاز في يد وزجاجة ماء في الأخرى، ونهلوا حدّ الارتواء من المياه الخارقة للطبيعة، التي لم يخلُ صيتُها

---

(١) لعبة تتطلب أربعة لاعبين وأربعين بطاقة من أوراق اللعب، كانت شائعة في القرن الثامن عشر. (المترجم)

الذائع من القدرة على شفاء آلام الحبّ. أطلق سكّان المدينة على هؤلاء الناس اسم «بوبولان»[1]. وقد كان على البوبولان الالتزام بقاعدةٍ سلوكيّة صارمة للغاية: تجنُّب الانزعاج بأيّ ثمن. الهدوء والوئام والترفُّع عناصرُ أساسيّة في العلاج. تلا ذلك قدوم أسماء مرموقة: ديكارت، كريستينا ملكة السويد، بولانديوس، ماركيز براندنبورغ، دوق أورليانز، پولين بونابرت...».

ذَرَتْ آنا الهواءَ بيدها. أفّ... نعم بالطبع، الأثرياء وحدهم من استطاعوا تحمّل تكاليف مثل هذا العلاج، لقد أمضوا كل هذا الوقت هناك، بينما كان العمّال يكدحون. كيف تسلّل المرض إليهم إلّا بمعجزة: فمنذ نعومة أظافرهم، تلقّوا تغذية غنيّة ومارسوا الرياضة وما كانوا مضطرين لجرّ عربات الطين...

صامّةً أذنيها عن خطبة آنا العصماء، انحنت لوته على صندوق تحفٍ صغير، فيه سيّدتان بخصرٍ مشدود، تعتمر كلّ منهما قبّعة عريضة ملأى بالريش المموّج، تشربان من كؤوس الماء.

- «انظريّ إلى هذه»، شدّت كُمّ آنا، «ما أجمل هذه الأزياء! صورة أنثويّة حقيقيّة. إنّها في غاية الأناقة...».

- «بالطبع كانتا أنيقتين. لقد نشأتا على هذا النحو. عملتُ لدى أمثالهما لسنوات عديدة، وأعرفهم عن كثب. هذه كلّها قشور؛

---

(١) أطلق السكان الأصليون هذا اللقب على ضيوف مدينة سبا القادمين من أراضٍ بعيدة، وتعني الشخص الأحمق أو غريب الأطوار. تشير فرضية اشتقاقية أخرى إلى أنّ الكلمة مشتقة من bibelus اللاتينية والتي تعني: يسرف في الشرب. (المترجم)

هؤلاء النبلاء من الخارج، ليسوا أفضل منا. أشعر أنني أرقى بكثيرٍ من هؤلاء الذين يُسمّون النخبة». أجابت آنا.

سحبتها لوته من خزانة عرضٍ إلى أخرى. رفضت السماح بإفساد ملذّاتها عبر القدح بالأرستقراطيين. لقد أرادت الاستمتاع بهذه الممتلكات الشخصيّة الغريبة التي أحاطت تلك الطبقةُ نفسَها بها؛ فقد بدت الحياة في تلك الحقبة أكثر كثافةً وثراءً بالألوان منها الآن. سرعان ما كانتا في الردهة من جديد. العجوز غارقة في النوم، أو ربّما ماتت. غادرتا المتحف؛ وفي غمرة الريح، انتهى بهما المطاف على بعد بنائين من محل الحلويّات الذي بات الآن مألوفًا لهما. جلستا مجدّدًا تحت الشمعدان البشع المصنوع من الحديد المطاوع، وطلبتا طبقَين من الـ «ميرڤيّو»، هذه المرّة بجوز الهند.

*

بعد الحملة الفرنسيّة، عادت الأسرة من الشرق. لقد فعلها الفوهرر مرّةً أخرى! تدفّق الزيكت في سيولٍ جارفة، واستمرّت نشوة الانتصار حتّى سقطت غارات القصف الإنكليزيّة على كولونيا. حاولت آنا تعلّم السباحة؛ راحت تطفو على ظهرها في الحوض المملوء بمياه إطفاء الحرائق، محدِّقة في السماء الزرقاء من خلال رموشها. انعدام الثقل... أن تكون هناك ولست هناك... أن تتناسى للحظةٍ مارتين الذي كان في بولندا مع فرقته العسكريّة. بعد اللقاءات الأولى بينهما، التي كانت أقرب للأحلام منها إلى الوقائع، أخذ يصير رجلًا عاديًّا في اختيار الكلمات والتأمُّلات في رسائله عبر البريد العسكريّ: شجرة في قرية أودزيڤو عمرها ألف

عام، كنيسة باروكيّة مطليّة بالذهب في قرية فيها من الخنازير أكثر ممّا فيها من البشر، عجوز يتلعثم بثلاث كلمات ألمانيّة، ويتفاخر بأن أجداده كانوا مع غاريبالدي على المتاريس، منطقة مجاورة فيها مئات البحيرات التي تعكس صورة السماء فلا يكاد المرء قادرًا على تمييز الأرض من السماء. لم يتطرّق إلى شؤون الحرب على الإطلاق، لكنّه كان يتحدّث عن الزواج؛ خطوبة مُشبعة بأناقة ڤيينا وازدهارها. كان يدرك ذلك منذ أن رآها على الجانب الآخر من حلبة الرقص، بفستانها الأزرق، من دون أي ملامحِ للغُنج، بل كانت تبثُّ رسائل من قبيل «إيّاك أن تقترب مني». في إجازته التالية، أراد طلب يدها من أبيها. قالت له إنَّه ميت. وليّ أمرك إذًا؟ كان بالنسبة لها ميتًا. أحقًّا عليه أن يطلب يدها من أحدهم؟ وجدت عناده حول هذا النقطة تقليدًا باليًا لكنّها أحبّت ذلك، وأشارت إليه بأنّ العم فرانتس قد يتولّى هذا الدور. كانت فكرة الزواج طافحةً بالتهوُّر بنظرها حتّى أنّها كانت تنفجر ضاحكة بين حينٍ وآخر. أنا على وشك الزواج، كانت تقول لنفسها. أحسّت بأنَّ الأمر يعني شخصًا آخر غيرها؛ كما لو أنَّ لا علاقة لها بهذا الزواج. ولكن، في الوقت نفسه، كانت مدركةً لمدى الجديّة التي ينطوي عليها ذلك، كما يظهر في الصورة النمطيّة السائدة: جسد واحد، روح واحدة، لا يفرّقنا سوى الموت... لن نكون على حدة بعد الآن، سيرتبط المصير بالمصير إلى الأبد، على نحوٍ فعليّ وميتافيزيقيّ. لن تكون «خادمة أحدهم» بعد ذلك، بل «زوجة أحدهم»... وخلف كلّ هذه الاعتبارات، ساد شعورٌ براحة البال؛ فكلُّ ما هو مُقدَّر سيجري لها على أيّ حال.

بعد ظهر يومٍ من أيّام الخريف، ترجّل مارتين من القطار سالمًا غانمًا. تكاثف دخان القاطرة عالقًا تحت السقف. أخذها السُّعال فيما كان يعانقها. ثمّ أبعدها بذراعين ممدودتين ليملّي النظر فيها. أثناء غيابه، صار شفّافًا بالمعنى الفيزيائيّ. أمّا على ورق الرسائل، فقد كان مألوفًا مثل شخصٍ تعرفه منذ صغرها، حتّى بأدقّ التفاصيل. لقد انقلب كلّ شيءٍ الآن بسرعةٍ مذهلة. تبخّر صديق الرسائل القديم؛ وفي مكانه، ثمّة جنديّ عيناه لامعتان ووجهه ملفوحٌ بالشمس. لمداراة خجلها، سبقته وشقّت طريقها نحو المَخْرج عبر الحشد المكتظّ.

الطاهية والخادمات والمربّية ومسؤولة الغسيل؛ استحوذ على إعجابهنّ جميعًا مرّة أخرى، بسلوكه اللطيف ومظهره الخالي من العيوب، في مزيجٍ نادرٍ من السطوة الطبيعيّة ونضارة الشباب التي نضح بها. بعد بشائر الخطبة الوشيكة، عاملن آنا بمراعاةٍ خاصّة. رتّبت السيدة فون غارليتس حجزَ غرفتَيْن لهما في فندقٍ صغيرٍ في آيفل؛ كانت تظنّ أنّهما يستحقّان قضاء بعض الوقت معًا من دون إزعاجٍ بعد كلّ تلك الأشهر من الفراق واللايقين.

عبر مشهدٍ طبيعيّ أضرم الخريفُ به النيران، كان القطار البخاريّ يلهث على نحوٍ متقطّع متّجهًا نحو الجنوب. أقلّهما ابن شقيق مالك الفندق، الذي كان كذلك جنديًا في الجبهة، من المحطة بعربةٍ متهالكةٍ، احتُفظ بها لسنوات كقطعة أثرية واستُخدمت الآن بدلًا من السيّارة المصادرة. جلجلة العجلات على الطريق، جوّ الغابة، وجهةٌ مجهولة. توقّعت آنا في أيّة لحظة أن ترى ديرًا على قمّة التل بجوار قلعة فون تسيتزيفيتس عند منعطف الطريق. أعادتها لمحةٌ خاطفة على وجه مارتين إلى عام ١٩٤٠؛

لقد تغيّر الزمن، ولا حاجة للنظر إلى الوراء. في كنف حمايته، ستتمكّن من الذهاب إلى أيّ مكان. مع أنّها كانت حتّى ذلك الوقت مدركة في دخيلتها أنّها أفلتت قدر المستطاع من الواقع بصورته التي كان عليها، واستعاضت عنه بالتواطؤ مع عالمٍ من الأدب الخياليّ، لكنّها في تلك اللحظة، حيث دفعتْها كلُّ عثرةٍ في الطريق غير المعبّد نحو حضن مارتين، قد شعرت بالتصالح مع الواقع اليوميّ؛ حتّى أنّها استعذبت هذه المطبّات في الطريق طالما كانت ترميهما في حضن بعضهما البعض.

كان للفندق طابعٌ من أناقة متداعية جذابة. كانا النزيلَين الوحيدين، وقد تناولا العشاء في غرفة طعامٍ باهتة بجانب أشخاص غير مرئيّين من النخبة، كانوا يأكلون متهامسين على طاولاتٍ متناثرة بين أشجار النخيل المغبرّة. تابعت زوجة مالك الفندق، عبر الراديو، أخبار الجسم الخطير المُهدِّد، الذي كان يحلّق فوق البحر ذلك المساء باتجاه ألمانيا. وبدلًا من موسيقى الكمان المرهفة، فقد تخلّل العشاءَ مرارًا وتكرارًا صوتُ التكّات المألوفة، وما أعقبها من تقارير عن اقتراب الخطر. لقد عقدا العزم على عدم السماح لأيّة كارثة بتعكير صفو تلك الليلة التي كانت ليلتهما الخاصة، وطلبا إلى المرأة أن ترشدهما نحو الغرف. كانت غرفتها على طرف من الممرّ الطويل وغرفته على الطرف الآخر، كما لو أنَّ هناك كفّتي ميزان حسّاس، وينبغي الحفاظ عليهما في وضع التوازن.

بعد برهة، طُرِق بابها، وفاجأها مارتين بزجاجة زيكت. جرَعَاها كلّها بوتيرةٍ طائشةٍ على حافة السرير. تلاشت الحرب من وعيهما؛ استولى عليهما شعورٌ بالحرّيّة، منفصلَين عن العالم الخارجي، منفصلَين

عن الزمن، في غرفةٍ تخصُّ شخصًا آخر، محاطَين بكلّ هذه الأشياء التي رآها آلاف الآخرين. تلامسا، شعرا بأنهما يحلّقان خارج جسديهما بخفةٍ أخّاذة ولُذعةٍ خلّفها الزيكت. أخذ يعرّيها بأصابع راجفة، وعلّق ثيابها على الكرسيّ بعناية. انسلّا داخل السرير مرتعشَيْن، وتغطّيا بالملاءات.

- «لم أنم مع امرأة من قبل»، همس في أذنها.

أخذ عضوه المنتصب يستحضر شيئًا من ذاكرتها، تحذيرًا، ردّةَ فعلٍ لا علاقة لها باللحظة الراهنة. خلف ستارٍ من استدعاء غامضٍ للذكريات، ظلّت مستلقية بلا حراك فيما راح يستكشف جسدها بشفتيه. كان بمقدوره أن يفعل به ما يريد، ولم يكن الأمر مهمًّا لها؛ فلطالما تصرَّف الآخرون به على هواهم.

- «انظر إلى السماء يا مارتين! انظر!».

رفعت رأسها عن صدره. نهضا عن السرير واقتربا من النافذة. شمالًا، وراء التلال، سطع وهجٌ أحمر في كلّ الجهات. ذاع دويٌّ هادر، يشبه قرعَ الطبول أو مطلع عاصفةٍ رعديّة. أحسّت آنا بسخطٍ شديد من الشيء الذي تسبّب في زعزعة السلام المخيّم على الأفق، ومن رئيس مارتين الصارم الذي يمكنه، في أيّة لحظة، أن يأمره بالمجيء الفوريّ.

- «إنّها تحترق، هذا كلّ شيء، تعال»، قالت.

أسدلت الستائر بنزقٍ، وسحبته نحو السرير الذي عُلِّقت فوقه حوريّة لوريلي[1] ملتفعة بالضباب، تمشّط شعرها الأشقر فوق الصخرة المشؤومة.

---

(١) لوريلي، في الأساطير الجرمانيّة، حسناء شقراء ذات صوت ساحر، تمركزت فوق جبل صخريّ يطلّ على نهر الراين ويحمل اسمها، كانت تشدو الأغاني لإغواء الملّاحين. (المترجم)

انسدّت سكك الترام تحت أكوامٍ من الأنقاض بارتفاع متر؛ ترجّل الركّاب واستأنفوا رحلتهم، متعثّرين بالتسلّق عبر دروبٍ متعرّجة نشأت في غضون أيامٍ قليلة. على جانبي الطريق، مبانٍ محترقة بواجهاتٍ متفحّمة ما زالت قائمة على نحوٍ متضعضع. فكّرت آنا في بيتٍ من الشعر لشيلر: «في فتحات النوافذ الفارغة، يسكنُ الرعب...». فمن إطار نافذة لم يصبها الدمار رفرفت الستائر في مهبّ الريح؛ وعلى غرار منازل الدُّمى، كشفت الواجهة الأماميّة المنهارة الأرضيّات المفروشة للطوابق المختلفة؛ لم يرجع سكّانها لتعليق الثريّا التي سقطت على جناح البيانو. لقد ضلّوا سبيلهم بعد الفوضى التي عمّت الشوارع؛ أرشدهم إلى الطريق رجلٌ يتصبّب عرقًا منهمكٌ في إزالة الأنقاض. كانت الأمور طبيعيّة على نحوٍ مذهل، وسرعان ما دارت عجلةُ الحياة؛ وسادت ضوضاء المدينة الاعتياديّة فوق دويّ الانفجارات والمباني المتهدِّمة وفرقعة النيران وصرخات الذعر والنحيب. حاملين أكياس التسوّق، مشى الناس فوق الأنقاض التي ربّما أصبحت قبورًا لمن تحتها من السكّان.

يبدو أنّ الخوف أفقدَ العمّة ڤيكي شهيّتها للثرثرة. أمّا العمّ فرانتس، فحافظ على هدوئه وثباته المعتادَين؛ فحتّى لو تعرّض المستشفى للقصف، عليه أن يحافظ على هدوئه وثباته. أثناء تناول العشاء، رمق آنا بنظرةٍ موافقة: «أحسنتِ يا بنيّتي، لقد حظيتِ بشابٍ رائع». كانت العمّة ڤيكي مبتهجة على السواء: فمارتين في غاية التهذيب والملاطفة؛ رجلٌ يعرف بالفطرة ما يُسعد المرأة. عزف العمّ فرانتس ألحان الأوبريت على شرف ضيفه النمساويّ، حتّى انطلقت صفّارة الإنذار فجأة خلال

أنغام «*أغنية حبي هي رقصة الڤالس*»[1]. وفقًا لطقوسٍ ثابتةٍ، هرعت العمّة ڤيكي إلى غرفة الطفل، وحملته من سريره نائمًا وسارعت نحو القبو. تبعوها لا إراديًا. عمَّ ضجيج الخطوات والأصوات في كلّ مكان. جلسوا على الأرض في بقعة فارغة عند الزاوية. نظرت آنا قلقةً إلى أنابيب الغاز والصرف الصحيّ وتخيّلت كيف سيغرقون جميعًا في مياه المجاري إذا انفجرت هذه الأنابيب. كان الاحتمال مثيرًا للتقزُّز لدرجة أنّها راحت تصلّي بصمتٍ أن تنفجر أنابيب الغاز إن كان الأمر محتومًا. خفّف هذا الاحتمال من روعها. وفي كلّ مرة بدت أنابيب المجاري على وشك الانفجار، كانت تتضرّع في صلواتها إلى أنابيب الغاز. لكنّ شيئًا لم يحدث في الوقت الحاليّ. طفل العمّة ڤيكي مازال غارقًا في النوم؛ هل يُعقل أن ينوي أحدهم قتل طفل على هيئة ملاك صغيرٍ بشعر أشقر وجفنين يرفّان بنعومة؟ ربّما كان الطفل بمثابة تعويذةٍ حارسةٍ أبعدت الخطر المُحدق عن كلِّ مَن بجوارها. رؤيته جعلت آنا تشعر بالنعاس. اتّكأت على مارتين وغفت شيئًا فشيئًا. ظلّت نائمة بوداعةٍ حين بدأت الأرض ترتجّ.

- «أيقظوها!»، صاحت العمّة ڤيكي، مستاءةً من فكرة أن تلاقي امرأة بالغة حتفَها وهي نائمة.

في غفوتها، سمعت آنا صوت مارتين الباعث على الطمأنينة يقول:

- «فلندعها نائمة، ما الفرق الذي سيحدث إن استيقظت؟».

---

(١) من أعمال الملحن النمساوي روبرت شتولز. (المترجم)

اهتزّت الأرض من جديد. ضمَّها بذراعه؛ لا مكروهَ يمكن أن يطالها.

في ظلّ التهديد الدائم الذي تبثّه أسراب الطائرات الإنكليزيّة، لاذت السيّدة فون غارليتس أخيرًا إلى منزل والديها في براندنبورغ. فبالرغم من أنَّ منزلها كان بعيدًا عن مركز المدينة، على الضفة المقابلة لنهر الراين، إلّا أنَّ قُرب المصنع الكيميائيّ المتاخم للحديقة جعله هدفًا جذّابًا لقصف الطائرات. عاد مارتين إلى پولندا، وبقيت آنا مرّةً أخرى وحدَها تحرس المنزل؛ وظيفةٌ غريبة عبثية، انتظار مديد خامل، ولكن لأجل ماذا؟ دفعها شعورٌ قديمٌ - شعورها حين هجرها الجميع، وتركوها وحيدةً في بيئة معادية - إلى التجوّل بلا هوادة في غرف المنزل. حتّى المكتبة لم تعد تمنحها العزاء؛ تلاشى تركيزها عن الصفحات. تعطّلت كلُّ قدراتها على التخيُّل، باستثناء ما يتعلّق بالميتات المختلفة التي يمكن أن يكابدها جنديّ. امتلكت براعةً لا تنضب في اختلاق سيناريوهات تجري في أماكن غير مألوفة في پولندا. الدولة البدائيّة، على حد تعبيرهم. ولكي تستطيع السيطرة على أفكارها، عمدت إلى تنظيف الخزائن القديمة وتلميعها بهوس. بعد أن فرغت من الخزائن، بدأت العمل على العوارض الخشبية؛ ينبغي أن يغدو كلّ شيء برّاقًا. عندما حلّ الظلام، نزلتْ إلى ملجأ الغارات الجويّة الفاخر حيث كان سريرها، ينتابها إحساسٌ بأنّها تدخل قبرًا، تمدّدت في نعشها المبطّن، وعقدت ذراعيها، وأغمضت عينيها، وهكذا.

في أواخر الشتاء، جاءتها الأوامر بإغلاق المنزل والتوجُّه شرقًا. ولكيلا تترك كلّ شيءٍ للذئاب، وضّبت الثمين منها كأواني الفضة

والكريستال وأدوات المائدة في صناديق ملمّعة وأقفلتها وألصقت المفاتيح الحديديّة الكبيرة على الأرضية بشريط لاصق. نزعت الستائر عن القضبان وطوتها وخزنتها مع الكتّان باهظ الثمن. ثمّ ذهبت إلى الحديقة لتلقي نظرة أخيرة على المنزل من بعيد، مضاءً بشمس مارس الباهتة، بدا هشًّا وشفّافًا بعد إزالة الستائر. تركت المنزل خلفها في منطقةٍ محرَّمة، بما فيه من غرفٍ خاوية، مقفرة، باردة. بقدر ما كانت أركان هذه المنزل راسخة في عمق الأرض، شعرت بأنّها تُقتلع من جذورها: مرةً أخرى توجّب عليها الرحيل؛ كانت قائمة القدوم والمغادرة، التعلُّق والانفصال، تطول أكثر فأكثر. حاملةً حقيبة في كلّ يد، سارت في الممرّ قاصدةً محطة الترام. في كولونيا، استقلّت قطارًا سيتجه بها شرقًا، بكل الأحوال، نحو وجهةٍ ما.

في لقائها الأوّل مع مدينة برلين، تفاجأت بطباع السكان المائلة إلى البرودة والفظاظة. كانت مصابة بالدّوار من جرّاء الرحلة، منهكة بثقل الحقيبتَين، بادرت اثنين من المارّة على الرصيف قائلة:

- «المعذرة لو سمحتم، أين تقع محطّة سيليزيا؟».

بعد أن رمقاها بنظرة استهجان، كما لو أنّها متسوّلة تستجدي الصدقات، سارا بعجالة نحو السلّم. أوقفت مسافرًا آخر، واستغنت هذه المرّة عن عبارة «المعذرة لو سمحتم»، وقبل أن تنهيَ كلامها، ابتعد عنها هازًّا برأسه. تخلّت الآن عن كل مظاهر الأدب.

- «أين محطّة سيليزيا!»، ارتدَّ صدى صوتها عن السقف.

توقَّف رجلٌ يعتمر قبّعة هومبرغ له هيئة رجال العصابات، وقال ساخرًا:

- «إنّها تحدّق في وجهك، هل تحتاجين إلى نظّارات؟».

أومأ برأسه إلى لافتةٍ في الأعلى، كُتب عليها اسم المحطّة بأحرفٍ عريضة.

كان قصر العائلة على ضفاف نهر الأودر، محاطًا بضواحٍ ممتدّة وطرقٍ متعرّجة وبحيرات ومُصلًّى للعائلة وشواهدِ قبور تغطّيها الطحالب تحت ظلال أشجار الصنوبر والطقسوس. القسم المركزيّ، المُتوَّج بقوصرة، والذي تختفي بوابته خلف أعمدة بيضاء طويلة، يقسم الواجهة إلى نصفين متماثلين. خفّف الجصّ بلونه الأصفر المائل للحمرة، إلى جانب الإوزات الجاثلات كما يحلو لهنّ على الشرفات، من حدّة الطابع الكلاسيكيّ الجديد. كان قدومها أمرًا في غاية الإلحاح. فقد عانى رودولف، نجل السيّدة فون غارليتس من تدرُّن الطحال. وكانت هناك حاجة لوجود ملاك حارس يهتمّ به ليلَ نهار، ويعتني بنظامه الغذائيّ الصارم وفترات راحته، ويلطّف ضجرَ غرفة النوم للفتى البالغ من العمر سبع سنوات بالقراءة على مسامعه بصوت عالٍ. لقد قيّده المرض، وعزله عن أقرانه، ولم يكن تهديدًا لحياته فحسب، بل لآمال جدّه وتوقعاته المستقبليّة أيضًا، حيث كان الذكر الوحيد بين أحفاده. اعتاد العجوز القدوم كلّ يوم، يبرّم طرفَي شاربه الأبيض، مستفسرًا عن صحّة حفيده. وفي كلّ يوم، كان لزامًا على آنا أن تمنعه من إعطائه الحلوى. وهكذا صار دورُها كملاك حارس أقرب، شيئًا فشيئًا، إلى حارس السجن. أحضر الأعمام والعمّات وأولادهم الأطعمة الشهيّة خلسةً، شأنهم شأن من يخفي شفرةَ منشارٍ داخل كعكة، ظنًّا منهم بأنّ ذلك يحرِّر المريض المسكين من نظامه الغذائي

القاسي، لكنّهم كانوا يقرّبون الفتى، عن غير قصدٍ، من الموت. كانت تقرأ له من كتبه الأثيرة كي ينسى الحلوى التي رُميت بعيدًا، وكي تتناسى أنَّ الشيء الوحيد الذي كانت تنتظره هو رسالة قادمة من بولندا. كانت غارقة من رأسها وحتّى أخمص قدميها في بحر الانتظار، إن صحَّ التعبير.

في هذه الأثناء، تمكّنت من الحصول على إجابةٍ عن السؤال القديم: لماذا كان لاسمِ أبيها ذلك الأثر على السيّدة فون غارليتس. سألت فون فالكناو بلا مواربة.

- «يوهان بامبيرغ... نعم... دقيقة... لا يمكن أن أنساه... كان شابًا استثنائيًّا، مخلصًا ومبدعًا للغاية، أضفى تحسينات مختلفة على العمل لزيادة الكفاءة...».

نظر إلى آنا بتمعُّن.

- «لا تشبهينه كثيرًا، لكنّي أجد فيك السعي والنزاهة نفسها. لسوء الحظّ، لم نتمكّن من اغتنام قدرات أبيك طويلًا. أتذكّر أنّه تلقّى عرضًا لوظيفة أخرى... كان اشتراكيًّا، حسنٌ، هذا شأن يخصُّه... لم يكن عاديًّا البتّة، ابن بامبيرغ ذاك...».

*

- «أنتم من بدأتم قصف المدن».

قالت لوته منزعجة من الطريقة التي صوّرت بها آنا سكّان كولونيا على أنّهم ضحايا. فقد تجمّد تعاطفها حين فكّرت في قصف روتردام ولندن.

- «نعم، بالطبع، نحن من بدأنا ذلك»، قالت آنا.

- «لذا لا ينبغي أن يكون الردّ مفاجئًا لكم».

- «لم نتفاجأ، كنّا خائفين؛ مثلما تكدّس سكّان لندن فوق بعضهم البعض في الملاجئ جرّاء الغارات الجويّة. في الحقيقة، هذا الخوف موجود عند الجميع!».

- «مع فارقٍ وحيدٍ هو أنّ ذلك من صنيع أيديكم. لقد سلّمتم السلطة إلى رجال لا يتردّدون للحظة عن قصف المدن».

تنهّدت آنا. أرخت ذراعيها المكتنزتين على الطاولة، وانحنت إلى الأمام ونظرت نحو لوته بضجر.

- «لكنّني شرحت لك سابقًا كيف جرى خداع السذّج الأغبياء من الناس. لماذا لا تتقبّلين هذا الأمر؟ لن نتقدّم خطوةً إذا بقينا على هذا المنوال».

بحثت لوته عن قطرة باقية في فنجانها الفارغ. شعرت بالغضب يتصاعد إلى رأسها؛ من تظنُّ نفسها كي تلقي المحاضرات على مسامعي! يا للغطرسة!

- «سأخبرك الآن بالتفصيل المملّ لماذا لا يمكنني تقبّل ذلك»، قالت حانقة. «لعلّك تحاولين أن تتفهّمي شيئًا ما هذه المرّة».

*

كانت المياه التي اصطدمت بهيكل القارب قبل ستّة أشهر، تتهشّم جليدًا تحت مزالج الفريزيان. يداهما متشابكتان، راحا يتزلّقان على الجليد

في إيقاعٍ يشبه تقاسيم الكادنزا[1]، كأنهّما جسد واحد. مرّا بأحزمة القصب المتجمّدة وأشجار الصفصاف، فيما كانت الشمس تتدلّى منخفضةً فوقهما، وتحوّل لونها إلى القرمزيّ رويدًا رويدًا. تعثّرت لوته عند صدعٍ في الجليد، فأمسك بها دافيد. وفيما كان يحاولان التوازن على الزّلاجات الضيّقة، وقفا وجهًا لوجه؛ قبّل شفتَيها المتجمّدتين.

- «يا ملكة الثلج...»، همس في أذنها، «ما رأيك بأن أتقدّم لخطبتك...».

- «ولكن...»، بادرت لوته بالردّ.

نظرت إليه مذهولة. تبسّم وطبع قبلة على ذروة أنفها التي خدّرها الصقيع.

- «فكّري بالأمر...»، قال.

أمسك يديها، وسار في خطٍّ متعرّج قُدمًا. تكاثف الضباب؛ اصطبغت جزيئات الماء الصغيرة بلون الشمس الغاربة. تغلغل البرد عبر ثيابها. لمع سطرٌ من أحد مقاطع الأغنية في رأسها: «في طقسٍ عاصفٍ كهذا، ما كنتُ لأرسل الأطفال إلى الخارج...».

حين خيّم الظلام، قادا الدرّاجة في طريق العودة. ودّعها أمام المنزل.

- «لا أقصد أن تخافي، كلّ ما في الأمر أنّي متيّمٌ بك».

نفخت في يديها، تناولهما بيديه، وأخذ يدفّئهما بالتمسيد.

- «سآتي يوم السبت ونتحدّث عن ذلك»، وعدها.

(١) الكادنزا: فقرة ختامية كان يرتجلها المغنّون لإظهار مهاراتهم. (المترجم)

- «لا، لا... لا أستطيع يوم السبت... دعنا ننتظر قليلًا...».

قبّلها مبتهجًا.

- «حسنٌ... حسنٌ... لسنا في عجلةٍ من أمرنا...».

انطلق على درّاجته مهمهمًا، واستدار ليلوّح لها مرّةً أخرى.

لأيّام، كانت تفعل واجباتها بذهنٍ شارد. هذا الحبّ الذي لم يُصرَّح به ينبغي أن يدوم إلى الأبد؛ لقد أحبّت هذه الحالة من التكتّم، الخفاء، الإيلام. أثارت فكرة الخطبة توتّرها. ومع ذلك، كانت تعرف أنّها لن تمانع ذلك في النهاية. لكنّها أرادت أن تخامرها مشاعر متناقضة، أن تعيش عزلةً مألوفة، قبل أن تتسارع وتيرة العلاقة بينهما، ويتدخّل فيها الجميع. ربّما أحسّ بذلك؛ لكنّه لم يقل شيئًا في هذا الصّدد.

لقد انتهى الوهم بأنّ الحرب تسير على ما يرام. اندلعت اشتباكات في الحي اليهوديّ بأمستردام بين رجال الميليشيات الموالية لألمانيا وعصابات يهوديّة، ما أسفر عن مقتل أحد رجال الجماعة الأولى. وعلى سبيل الانتقام، اعتُقل مئات الشباب اليهود تعسفيًّا في الثاني والعشرين من فبراير. وردت في التقرير الرسميّ للحادثة الإشارة إلى «جريمة قتل شنيعة ومروّعة، لا يقترفها إلّا اليهود وأمثالهم»، لكنّ صحيفة «هيت بارول» غير الرسميّة كشفت حقيقة القضية: كانت جريمة قتل غير متعمّد في شجارٍ عاديّ؛ فقد عُثر على هراوة بحوزة الجثّة! أحضر والد لوته بيانًا من الحزب الشيوعيّ السريّ يحثّ على مقاومة المذابح اليهوديّة: «إضراب!!! إضراب!!! إضراب!!!»، جرى تحريض العمّال. وضع الألمانيّون حدًّا للإضرابات التي نشبت في أنحاء

مختلفة من البلاد عبر تنفيذ الإعدامات. ساد الهدوء، على ما يبدو، من جديد.

لم تستطع لوته الصمود أكثر؛ كان الوقت يمرّ ببطءٍ شديد، حين تلقّت مكالمةً هاتفيّة من والد دافيد. سألها بنبرةٍ فاترة عمّا إذا كان الوقت مناسبًا كي يأتي وزوجته بزيارةٍ لهم في ذلك المساء: فثمّة موضوعٌ ينبغي نقاشه. تضرّج وجهها بالدم المتصاعد. لماذا أراد دافيد إرسال والديه بدلًا من المجيء بنفسه؟ بعد كلّ ما قاله عنهما؟ جرى استقبالهما باحترامٍ بالغ (المغنّي الشهير!). صافحهما والدُ لوته صامتًا، ابتسم المغنّي ابتسامةً حزينةً حولّت شاربه الفاتن إلى شريطٍ ضئيل. مرتّ نظراته على الأخوات الأربع.

- «ومن منكنّ لوته؟».

أومأت لوته باحتراس. سارعت والدة دافيد إلى التقاف يديها وقبضت عليهما برفق. مغمورة بالعاطفة، فتحت حقيبتها المصنوعة من جلد التمساح لتخرج منديلًا.

- «لم نكن نعرف أنّ لديه حبيبة...»، قالت متأثّرة.

تولّى زوجها زمام الحديث بعد أن جلسوا. كان سبب الزيارة بطاقة بريديّة أرسلها دافيد من بوخنڤالد[1]، يطلب فيها إلى والديه إيصال تحيّاته إلى لوته لأنّه لم يتمكّن من توديعها.

- «بوخن... ڤالد...؟»، ردّدت لوته متلعثمة.

(١) من أوائل معسكرات الاعتقال النازية داخل ألمانيا. (المترجم)

ازدرد السيّد دِ فريس ريقه ومرّر يده على جبهته في بادرة استسلامٍ ويأس. محدِّقًا بالأرض، أوضح أنَّ دافيد اعتُقل يوم السبت في الثاني والعشرين من فبراير، في الحيّ اليهوديّ بأمستردام أثناء عزفه للموسيقى برفقة مجموعة من أصدقائه. داهمتهم قوّات الشرطة الخضراء[1] وأرغموهم على الوقوف وظهورهم مستندة إلى الحائط. «من فيكم يهوديّ؟»، انهالت الصرخة عليهم. من دون تردّد، ربّما كان عقله ما زال مأخوذًا بالموسيقى، تقدّم دافيد خطوة إلى الأمام. اليهوديّان الآخران في المجموعة تكتّما بحكمة. اقتيد إلى ساحة يوناس دانييل ماير حيث كان رفاقه من عاثري الحظّ على طابور الانتظار. نُقلوا لاحقًا إلى معسكر في ألمانيا من دون بيان التّهمة ومن دون تقديمه للمحاكمة.

بكت والدته في منديلها. ألقى الأب نظرات يائسة من حوله، واستجمع رباطة جأشه قائلًا:

- «سنرى أنهم سيطلقون سراح الشباب بعد عدّة أشهر من الكدح المضني في المعسكر. أراد الألمانيّون أن يجعلوا منهم عبرة: فكِّروا بالأمر، لن تقوم مجدّدًا أعمال الشغب. دافيد بخير، فهو معتاد على الرياضة الشاقّة... لا يقضي وقتًا سيئًا هناك... ها هي البطاقة، اقرؤوها».

اقتربت لوته لتقرأ الأسطر القليلة البائسة على البطاقة، المتوارية خلف الطوابع: «... أنا بخير، نعمل هنا بجدّ...». لقد مرَّ بيديه على هذه البطاقة. بدا الأمر مرعبًا إلى حدٍّ ما، بمقدور البطاقة مغادرة معسكر

(١) الشرطة النظامية في ألمانيا النازيّة، كان عناصرها يرتدون زيًّا أخضر. (المترجم)

الاعتقال بحريّة، بينما يرزح المُرسل في الأسر. وبالرغم من ذلك، لم تستوعب مدى الجديّة على الفور. كان الأمر في غاية الغرابة والعبثيّة والسخف، لدرجة تجعله عصيًّا على الإدراك. التفتت بتلقائيّة نحو البيانو؛ لا تزال النوتة مفتوحة على الصفحة التي وصلا عندها. كلُّ ما بداخلها يقاوم فكرة اختفائه على هذا النحو؛ هكذا فحسب. فيما تعلّقت بفكرة معسكر الكدح، شكلٌ من أشكال معسكرات الكشّافة؛ تقطيع الأخشاب في الهواء الطلق وغرس الأشجار.

- «سنرسل له بطاقة، هل تودّين إضافة بضع كلماتٍ له؟»، قال والده.

«عزيزي دافيد...». اعتصرت كلماتها في الحيّز الصغير أسفل البطاقة المغطّاة بالكتابة. توقّف قلمها، عائمًا فوق الورقة. شعرت بعيني والده تراقبانها، تتابعان جرّة قلمها. أرادت أن تكتب له بالرموز شيئًا ذاتيًّا، شيئًا جوهريًّا. خطر لها سطرٌ من أحد مقاطع الأغنية، ومن دون تفكير بالأمر، كتبت تحويرًا له: «... كلّي أمل بأن تكون قد خرجت للتو، وستعود حالًا إلى المنزل من جديد...». حين أعادت قراءة السطر، سرت رعدةٌ قويّة بداخلها. ما الذي كتبته بحق السماء؟ اقتباس من قصيدة حداد، من مرثيّة. فات الأوان، فات الأوان للتغيير. أعادت البطاقة بيدٍ راجفة. لم تحتمل البقاء أكثر في تلك الغرفة. أقلقها منظرُ والديه، وكذلك ليست قادرة على تحمُّل التعاطف الذي أبداه والداها... إنَّ عالمًا بوسعه إخفاء شخصٍ على هذا النحو لهو صخرةٌ تعصرُ صدرها. وقفت فجأةً وغادرت الغرفة من دون استئذان، خارجةً من المنزل، نحو الهواء

الطلق. جلست على درجةٍ في الحديقة بقلبٍ يخفق باضطراب. تغلغل في أحشائها مثل سُمٍّ بطيء المفعول، شيء لا يُطاق على غرار اختفاء دافيد: في الثاني والعشرين من فبراير، كان عازمًا على لقائها... لو أنّها أرادت ذلك.

كرّست نفسها، على مدار أسابيع عديدة، لمكاشفةٍ ذاتيّةٍ مُرهقة، على غرار التعذيب: لماذا لم توافق على اقتراحه العفويّ؟ لماذا أرادت العثور على مَخْرج للمماطلة، أمن أجل العُرف الشكليّ؟ هل كانت تريد اختباره، استفزازه؟ لماذا كان ذلك التحفُّظ كلّه؟... وبّخت نفسها بأسئلة لم تستطع الإجابة عنها، سؤال تلو آخر راح يكشف لها صورةً شنيعةً عن نفسها، الأمر الذي أوصلها، في كلّ مرّةٍ، إلى النتيجة التي لا ترحم نفسها.

اتصل والدُه عبر الهاتف مرّةً أخرى. كانوا قد تلقّوا بطاقةً أخرى منه، أرسلها هذه المرّة من معسكر ماوتهاوزن، مرفقة بنصٍ غامضٍ يقول: «إذا لم ألتحق بقاربي الشراعيّ سريعًا، فسيكون الأوان قد فات...».

صرخ يأسًا:

- «إنّه يتوسّل إلينا لمساعدته، ولكن يا ولدي، ماذا بإمكاني أن أفعل؟ أتمنّى لو أنّي أفديه بنفسي؛ أنا رجل عجوز، أمّا هو فما تزال الحياة على وسعها بانتظاره».

جاهدت لوته للعثور على كلماتٍ بلا جدوى؛ حين احتاجت العثور عليها حقًّا، اختفت كليًّا. إن لم تُكتب النجاة لدافيد، ستكون فكرة العدالة ضربًا من الأوهام؛ الضيم يسود والفوضى تعمّ مبتلعةً في جوفها شخصًا واحدًا، بكلّ خططه وآماله وتوقّعاته وخيالاته، من دون

أن يرفّ لأحدٍ جفنٌ؛ كأنّه لم يكن موجودًا. في الليل، أبحر القارب ذو الأشرعة المتلاطمة في أحلامها، حيث تعاظمت بحيرات لوسدريخت وصارت بحجم محيط؛ تارةً يجلس أمام الدفّة، بابتسامته المشرقة وقد لفحت جلده الشمس، وتارةً في غمرة الأمواج، يكافح ليسحب نفسه على متن القارب، متشبّثًا على الحافّة بأصابعه المتحجّرة فيما تنشغل بمراقبته.

تلقّت صورة حديثة من والده. كان دافيد يبتسم للمصوِّر ببراءةٍ جارحة حدّ الألم. دفع حريّته، وربّما حياته، ثمنًا لهذه السذاجة. لقد كان في المكان الخاطئ والوقت الخاطئ؛ لم تستطع النظر إلى الصورة من دون أن تراودها هذه الفكرة. منعها الاحترام من تمزيق الصورة، وأجبرت نفسها مرارًا وتكرارًا على النظر إليها. كان دافيد قد خرج من حياتها، على متن درّاجته، استدار ليلوِّحَ لها مبتهجًا؛ ظلّت حركة ذراعه، يمنةً ويسرة، ترافقها طويلًا، كما لو أنّها تعبّر عن شيءٍ ذي أهميّة بالغة. ترى بماذا كان يهمهم حين توارى في الظلام؟

نغَّصتها الموسيقى. بدت لها كلّ هذه الألحان والموازين الموسيقيّة والتفاصيل الرقيقة في غاية التفاهة؛ مجرّد زخارف عقيمة، مشاعر زائفة. أبى صوتها الغناء في الطبقات العليا، وراح يرتجف باضطرابٍ عند الطبقات الدنيا. أرسلتها كاترينا ميتز إلى منزلها قائلة: «يُستحسن أوّلًا أن تستجمعي قواك قليلًا».

٤

من أين أتت كلّ هذه المياه وإلى أين ذهبت؟ كانت آنا مستلقيةً في حوض استحمامٍ من النحاس اللامع، محاطة بعددٍ لا نهائيّ من فقاعات الهواء الصغيرة التي تنطلق من جلدها الأشبه بشبكةٍ من الحراشف. بدا جسدها شاحبًا وله هيئة السمكة في المياه. لا شكَّ أنَّ نظام الأنابيب المُبتكَر سمح للماء بالوصول إلى المنتجع الحراري قادمًا من الينابيع والمغادرة عبر أحواض الاستحمام؛ غمرُ الجسم لمدّة نصف ساعة مجرّد مرحلة وسيطة في طريقه. كان الدوران الخفيّ الصامت لهذه المياه يحاكي الدورة الدمويّة في الشرايين، حيث الأحواض بمثابة القلب الذي يعمل كمضخّة. كم عدد زجاجات المياه المعدنيّة التي يغمرني ماؤها الآن؟ تعجّبت آنا.

منذ زمنٍ بعيد، تربّع هذا الجسد نفسه في حوضٍ على أرضيّة المطبخ. دقّ العم هاينريش على الباب المغلق للمطبخ ساخرًا: كم تبلغ قذارتك كي تستحمّي كلّ أسبوع! اكتنف الحمّامَ صمتٌ مُثقلٌ مشحونٌ بضيوف الماضي الحاضرين بالخفاء، الحريصين بقلقٍ على الاحتجاب. كم من الموتى والمشاهير مرّوا بهذا الحمّام، ورقدوا في هذا الحوض تحديدًا؟ هل استوطنت أفكارهم هنا، ولذلك بات الصمت مُثقَلًا لهذه الدرجة؟

ضحكت بينها وبين نفسها وهي تفكّر أنّ أفكارهم لا يمكن أن تكون بهذه الجسامة.

لم تكن لوته تبعد سوى خطوة صغيرة عن أولئك المتوفين المجهولين. لقد حال الخزي والغضب والحزن بينها وبين النوم طوال الليلة الفائتة. ولكننا شقيقتان، احتجّت على نفسها بعنادٍ. ألا ينبغي أن يترافق تقدّم العمر مع ازدياد رحابة الصدر واكتمال الحكمة؟ إذا لم تتمكّن كلتانا من تجاوز كلّ هذه العوائق، فكيف سيتمكّن الآخرون من ذلك؟ عندها، سيظلّ العالم محكومًا داخل قبضة الاختلافات العصبيّة على التوفيق لقرونٍ عديدة، وستتضاعف مدّة كلّ حربٍ على مدى أربعة أجيال على الأقل. بالطبع؛ انتزعت ألمانيا المصالحة بأموالها الطائلة، لكن مباراة كرة قدم واحدة كانت كافية لتظهر أنَّ العداء القديم ما زال حيًّا ونشيطًا.

شيءٌ ما في زاوية الضوء الساقط، في الانعكاس الأخضر على البلاط، في الخصوصيّة الوادعة، أعادها بالذاكرة إلى الكازينو. كانت لوته جالسةً أمامها في حوض استحمامٍ قوائمه على هيئة أقدام أسد، وثمّة امرأة بخيالٍ عاتمٍ (أهي الخالة كاتي؟) تنحني نحوهما وتسكب، من إبريقٍ أزرق مطليّ بالمينا، خيطًا رفيعًا من قطرات الماء البارد على ظهر كلٍّ منهما. ارتجفتا بالتناوب، وسرت عبرهما رعشاتٌ لذيذة. رأت أختها أمامَها بوضوحٍ شديدٍ، بشعرها الداكن المبلّل، وهي تغمض عينيها؛ كانت الصورة جليّة، وأكثر واقعيّة من صورة لوته التي جلست مقابلها على الطاولة في اليوم السابق. مازلت أحتفظ بكلّ شيء، قالت مذهولةً. مع أن القصف لم يترك بلاطة على بلاطة ولا حجرًا على حجر في الكازينو،

لكنّه ظلّ راسخًا على حاله في ذهني؛ كلّ هذه السنوات المنصرمة لا تغيّر شيئًا. كانت تعتقد أنّه لا ينبغي أن نثقل كاهلنا بالتمحيص في ما فرضه علينا التاريخ. المعاناة لا تفرّقنا، بل توحّدنا؛ كما وحّدتنا المتعة في حين. شعرت براحةٍ كبيرة حين فكّرت بالأمر على هذا النحو مهما بدا سخيفًا. في تلك اللحظة، جاءت المرأة التي ترتدي مئزرًا لتساعدها على الخروج من الحوض. من دون حركاتٍ غريبة، صعدت بثباتٍ ووقار فوق حافة الحوض ثمّ نزلت. كما لو أنّها پولين بونابرت، وخادمتها تساعدُها، ضحكت بينها وبين نفسها.

في وقتٍ متأخّر من الصباح، تلاقتا في الردهة. مع أنّ الباب ظلّ مفتوحًا على مصراعيه، لم تصادفا أيّ شخصٍ هناك. بين حينٍ وآخر، كان يعبر أحد النزلاء متاهة الممرّات، لكنّ الهدوء والفراغ كانا سائدين؛ يناير شهر الركود.

- «لم أحظَ بنومٍ مريحٍ، تراءت لي طوال الليل صورة ذلك الشاب الذي تقدّم خطوة للأمام من دون أن يخامره شكّ»، اعترفت آنا.

أومأت لوته برأسها شاردةَ الذهن، وراحت تحتسي من قهوتها تارةً ومن كوب المياه المعدنية تارةً أخرى. شعرت آنا بأنّها لا تريد المضيّ في هذا الحديث.

- «لا أريد أن تشعري بأنّي أزايد عليكِ بالضيق الذي أصابني»، قالت بحذر، «لكنّ زوجي قُتل في الحرب أيضًا، في الحرب الوحشيّة نفسها، بعد سنواتٍ من القلق المبرح...».

*

تردّد مطلع سمفونيّة بيتهوفن الخامسة في غرفة المائدة. «تا تا تا تا... تعلن القيادة العليا لقوّات الدفاع: فرقة المشاة الثامنة والعشرون تتقدّم إلى روسيا...». كانت آنا تعدّ قطعة خبزٍ لرودولف. ببطءٍ، راحت تدهن عليها بعض الزبدة الممزوجة بالدموع. كان العجوز فون فالكناو الجالس أمامها يتناول فطوره ويراقبها بشفقة.

- «لا يجدر بكِ البكاء يا آنسة»، هزّ رأسه، «خطيبك ليس من المشاة! لا خطر عليه البتّة مع قوّات الإشارة. بكل الأحوال، ستنتهي العمليّة بأكملها في غضون ستة أسابيع. هل تعتقدين بأنّ تلك الأمة ستهبّ للدفاع عن نفسها؟ إنّهم سعداء لتحريرهم من الشيوعيّة».

ضحكت آنا ضحكةً كئيبة. بالرغم من أنَّ السيد ڤون فالكناو مخضرم بالحروب، وله اتصالات مع أعلى الرتب العسكريّة تخوّله الحصول على الأخبار الحصرية والمباشرة، لم تكن الطمأنة الخارجية كافية لإخماد مخاوفها. ما الذي يعنيه جنديٌّ واحد من بين مليون جنديّ؟ ليس أكثر من زغبة طائرٍ تتلوّى في رياح سهلٍ أجرد، تنتهي في مكبّات ذلك البلد الذي تشرق عليه الشمس من جانب لتغرب عن جانبه الآخر. حربٌ عبثيّة، عبّروا عنها بأرقامٍ هائلة تجاوزت قدرات العقل على التصوّر: «تا تا تا تا... تعلن القيادة العليا لقوّات الدفاع: ثلاثون ألف روسيّ من أسرى الحرب، أربعون ألفًا، خمسون ألفًا». ماذا حلَّ بهم، أين أقاموا؟ كلّها أسئلة طرحها العقل العمليّ في المنزل بمنتهى البراءة بينها كانت ثرثرات الانتصار تتسلّل من الراديو نحو الخارج عبر أبواب

الحديقة المفتوحة معرِّجةً نحو الورود لتحثَّها على الإزهار بخصوبةٍ أوفر. الرسالة التي وصلت أخيرًا كان قد مضى عليها أربعة عشر يومًا. ربّما مات مارتين بالفعل في هذه الأثناء. ذهبت لمشاهدة نشرة الأخبار في بلدةٍ مجاورةٍ، وقرأت الصحيفة. كلّما بذلت جهودًا أكثر لتقدير فرصه في النجاة عبر أخبار الجيوش المتقدّمة، ازداد شعورها بأنّها مجرّد دخيلة خائرة القوى. عكفت في المنزل، عاجزةً عن القيام بأيّ شيء؛ حيث جبهة الحرب التي لم يتحدّث عنها أحد قطّ.

وصلت برقيةٌ في نهاية شهر أكتوبر. «أرجوكِ تعالي إلى ڤيينا. حالًا. سنعقد زواجنا». كانت حقيبتها التي تحتوي على فستان زفافٍ بيتيّ الصّنع ووثيقةٍ رسميّة لشجرة عائلتها جاهزةً منذ أشهر. سافرت إلى ڤيينا بعجالة. حين ترجّلت، أصابها التردُّد. شعرت لوهلةٍ كأنَّ تيّارًا قويًّا من الهواء يدفعها للعودة إلى داخل القطار. وقف هناك بكيانه الحقيقيّ، بعد أن مات مئة ميتةٍ في خيالاتها. كان هناك، عاد من اللانهاية التي يتحتّم فيها على الكائن العاديّ أن يضيع. أعاده الزمان والمكان إلى هنا، كما لو أنَّ هذه العودة أيسر الأمور في العالم. كان محاطًا بوالديه. لوهلةٍ حسدته لأنَّ لديه والدَين بوسعه أن ينتظرها برفقتهما: انظر، إنّها هي. الأب والابن كلاهما يرتدي بدلة، وبخلاف قبّعة الأب المستوية، انحرفت قبّعة مارتين. الأب نحيل، يتمتّع بنضارة الشباب، ولكن هناك تكشيرة قلقٍ على وجهه، يخفيها ظلّ القبّعة، كما لو أنّه مكفهرّ من التحديق المستمرّ في شمسٍ ساطعةٍ. أعطت الأم، بدورها، انطباعًا بأنَّ الوجود المحض استلزم منها جهدًا خارقًا. زمّت شفتيها معًا بصلابةٍ كأنّها تنفخ بالونًا؛ وبانَ شعرها

الأسود المموّج بشدّة كغطاءٍ يدثّر رأسها. بين هذين الشخصين، اللذين يتجاهلان بعضهما البعض كما يبدو، وقف مارتين مبتسمًا.

ألقى الأب تحيّة الوداع في شارع تسوّق واسعٍ بلا أشجار، تندفع على جانبه عربات الترام، عند مدخل مبنى ضخم من ستّة طوابق. أوضح بلطفٍ أنّ الوقت حان كي يعود إلى زوجته، ودعاهم بحرارة لزيارته. نقّلت آنا نظرها بينهما في دهشة. لماذا لم يخبرها مارتين بأنّ والديه منفصلان؟ رفع الأب قبّعته وسار إلى محطة الترام. صعد ثلاثتهم سلّم المبنى الذي نشأ فيه مارتين، في الطابق الأول، فوق صيدليّة. بعد أن اعتادت آنا على الغرف الكبيرة المفروشة بالسجاد والأثاث العتيق واللوحات والصور العائليّة، أحسّت بشيءٍ من النفور حين دخلت الغرف الصغيرة المزدحمة بالتحف الصغيرة الرخيصة.

ذهب مارتين لأداء مهمّةٍ بأمرٍ من والدته التي قادت آنا إلى غرفة نومها بحفاوةٍ مبالغ بها. قالت بسرورٍ وهي تغلق الباب خلفها:

- «الآن يمكننا التحدّث امرأة لامرأة. اسمعي. أريد أن أحذّرك، من أجل مصلحتك. لا تتزوّجي. أقلعي عن الزواج طالما ما زلت قادرة على ذلك. الرجال اخترعوا الزواج، وهم وحدهم المستفيدون منه. من خلال هذه الصفقة يحصلون على أمّ، عاهرة، طاهية، عاملة، لخدمتهم. دفعة واحدة، وبالمجان. لا أحد يعرف شيئًا عن حياة الزوجة. تجلس بين جدران تلك الأمتار المربّعة القليلة، مع نقود زهيدة تتصرّف بها لتدبير شؤون المنزل. وبذلك أدخلت نفسها في فخٍّ قذر، وحين تدرك الحقيقة يكون الأوان قد

فات. لا تُقدمي على ذلك يا عزيزتي، كوني حكيمةً في قرارك. أقول لك ذلك من منطلق الصداقة».

حاولت آنا أن تحرّر نفسها من شباك عينيها السوداوين المنوِّمتين.

- «أؤكِّد لكِ أنّي أحبّ مارتين حبًّا كبيرًا...»، قالت لها.

- «أوه، الحبّ...!»، قالت المرأة باستخفافٍ، «كلّ هذه حيل وأكاذيب للإيقاع بالنساء».

أخذت آنا تفتح حقيبتها بيدين مرتعدتين، وأخرجت بلوزة لا على التعيين.

- «المعذرة لو سمحت، أريد تغيير ثيابي»، قالت بوهن.

- «فكّري بالأمر مرّة أخرى!».

غادرت المرأة الغرفة مزهوّةً بالانتصار. انحنت آنا على حافة السرير. لعلّها لا تراني مناسبة لابنها، هذا ما فكّرتْ به أوّلًا. أيّ نوعٍ من الأمهات مَن تحاول إفساد خطط ولدها من وراء ظهره؟ خطط جنديّ ينبغي له العودة سريعًا، إلى الحرب! محدّقةً في فستان زفافها وقد نالت منها الصدمة، راحت تتخبّط في شبكةٍ من الأفكار والتصوّرات إلى أن قرع مارتين على بابها، تملؤه سعادةٌ متلهّفة.

- «هل تسمحين لي بالدخول...؟».

آثرت بشجاعةٍ أن تكتم الأمر.

بعد العشاء، وضعت الأم صحنًا من الخزف عليه زخارف على شكل وردة أمام ابنها.

- «لديّ مفاجأةٌ أخرى لك يا ولدي، شيءٌ مهووسٌ به».

بضحكةٍ غامضة، أحضرت جرّةً من كُمبُت[1] المشمش، وأخذت تملأ الطبق منها.

- «ألن تتذوّق أنا منها؟»، قال مارتين.

- «لكنني احتفظت به خصيصًا من أجلك».

تألّقت عيناها ببريقٍ خبيثٍ، يشتهي إشعالَ حرب. تنهّد مارتين.

- «أريد منك أن تملئي طبقًا آخر».

وقفت الأم هناك بلا حراك. وسط هذه الغرف المزدحمة، كانت الملكة التي هدّدت كلّ مَن يغامر بالدخول إلى أراضيها بالتعرُّض لجرعات من الحبّ الأموميّ المختلّ. حلّ الامتعاض مكان بهجة التوثّب للحرب.

- «أوه... ينبغي لي أن أفعل ذلك من أجلها».

- «نعم، وإلّا فلن أتذوّق لقمةً منها».

خارج الغرف الأربع، أفلتا من قبضتها. رغبةً في استنشاق الهواء بلا قيودٍ، ذهبا إلى المدينة التي أظهرت أناقتها الرفيعة بكلّ ما تحتويه من كنائس وقصور ومنتزهات وبحيرات متناسقة وحدائق نباتيّة ومحميّات ومحلّات كعك. كانت هذه مدينته؛ بشائر مستقبلها. هنا ستعيش بمجرّد أن تنتهي الحرب. في المتحف، أعجبتها كنوز هابسبورغ الفنيّة، ومن أعلى جبل ليوپولدسبرغ، أخذا ينظران إلى الأسطح الواقعة في الأسفل. كانت

---

(١) الكُمبُت: نوع من الحلوى اشتهر في فرنسا في القرن السابع عشر، يتكون من قطع الفاكهة في شراب من السكّر. (المترجم)

تذاكر الأوبرا والمسرح نادرة، إلّا في حالة جنديّ بحوزته تصريح إجازة. دعا والدته إلى حضور كلّ العروض برفقتها. أصرّت الأخيرة في كلّ مرةٍ على اصطحاب صديقتها المقرّبة وهي امرأةٌ بدينة من ڤيينا، أثوابها كثيرة الكشكشة والدانتيل، تثور عاطفتها بسرعة وطوال العروض تشعر بحاجة ملحّة لإخبارهم بكلّ ما يخطر لها.

- «أمّاه، كم أكون سعيدًا بمرافقتك، لكن هل من الضروريّ أن ترافقنا تلك الصديقة دائمًا؟»، قال مارتين أخيرًا.

- «آها...»، رفعت ذقنها مستاءةً، «ألم تكن صديقتي على ذوقك؟ بالرغم من أنّك لم تستشرني حين اخترت خطيبتك».

اعتذر مارتين نيابةً عنها، في غرفة النوم، وهو ينظر إلى آنا بضجر.

- «آسف، لا تلوميها... إنّها على هذا النحو منذ أن تركها أبي. كنت صغيرًا حينها. لم تكن أمًّا عاديّة في يوم من الأيّام.. لم تكن كما ينبغي للأم أن تكون. لطالما أرادت أن تتملكّني بطريقةٍ استبداديّة. كي تثير غيظه. لا يمكن فعل شيء حيال ذلك، هذا هو الحال الآن».

بات شعورُ الأمل الذي غرسته ڤيينا في آنا ينحسر ببطء. أحسّت بأنّ حماتها بسطت جناحيها الممتدّين على المدينة بأسرها، ولم يفلت من ظلّها حيٌّ أو مبنى، أينما ذهبا. ذات يوم، حين رجعا، بدا البيت مثل مشرحةٍ للجثث. أُسدلت الستائر، عَلِقَت رائحةُ خلّ لاذعة في حناجرهم. فتحا باب غرفة النوم بحذرٍ. كانت الأم مستلقية في سريرها، عيناها مغمضتان. جلست صديقتها قربها؛ كانت قد وضعت كمّادة مبلّلة بالخلّ على قلبها، بمنتهى الخشوع.

- «ششش... أُصيبت أمك بنوبة أعصاب»، قالت وهي تضع إصبعها على شفتيها.

أطبق مارتين فكّيه. استدار وغادر الغرفة بعد أن ألقى نظرةً فاترة على المشهد. توقّفت آنا عند طرف السرير، ونظرت بقلقٍ إلى الأمّ الشاحبة بلون الرماد. يا إلهي، فكّرتْ، إذا كان يتعامل مع والدته على هذا النحو، فكيف سيعاملني لاحقًا إذا أصابني مكروه؟ أحسّت بالاختناق. خرجت من الغرفة على أطراف أصابعها، يدها تحيط بحلقها. كان مارتين جالسًا على طاولة المطبخ، مكتئبًا.

- «أعرف بماذا تفكّرين»، قال، «لكني سأخبرك: هذا برمّته تمثيل. لم يمسّها سوء».

- «كيف أمكنك التأكّد من ذلك الآن؟»، قالت آنا ساخطة.

- «حسنٌ، أنت متعاطفة معها على الرغم من كلّ شيء. اذهبي وتحسّسي نبضها، سترين مدى جديّة الأمر».

عادت آنا إلى غرفة النوم على استحياء. جسّت بإصبعٍ معصمَها. أومأت لها الصديقة بلطف. كان الخفقان هادئًا منتظمًا، تمامًا كما ينبغي له. لم يرفّ جفناها؛ كانت مستلقية على الوسائد مثل زهرة أضالية سوداء عملاقة.

- «أريد أن أعترف لك بشيء. كنت أفكّر به طوال اليوم لكني لم أجرؤ على قوله... لا يمكننا الزواج الآن...».

- «لماذا؟».

تجمّدت آنا. أحاطها بذراعه. أوضح لها أنّ إجازته غير قانونيّة، وأنّ

التصريح الذي بحوزته مزوّر. بعد أسابيع من الخوض في أرض المعركة، حصلت الوحدة العسكريّة التابع لها على ثلاثة أسابيع من الراحة. في روسيا بالطبع. اقترح قائد الوحدة، وهو رجلٌ طيّب، قائلًا: «قبل أن تعودوا إلى الجحيم، أقدّم لكم نصيحة واحدة... اذهبوا لقضاء أسبوعين في المنزل. على مسؤوليّتي». إذا أقدم على الزواج، فعليه إخطار رؤسائه بذلك، لأنّه حدثٌ رسميّ، وبإقدامه على ذلك سيكون قد اقترف الخيانة بحقّهم جميعًا. أومأت آنا برأسها من دون أن تقول شيئًا. فجأةً، تجلّت الحرب مرّةً أخرى، بثقلها الهائل. مال برأسه مستندًا على كتفها، يهدّه الندم. تضاءلت أهميّة كلّ شيء أمام حقيقة أنه سيعود قريبًا إلى الشرق. وأنها ستعود إلى الشمال. لم يكونا أكثر من بيدقَين على رقعة شطرنجٍ بحجم العالم.

- «ذلك الجحيم...»، كرّرت آنا بتمعُّن. «لا أريد سوى أن تخبرني الحقيقة يا مارتين، كيف تسير الأمور هناك؟ لا تضنّ عليّ...».

وضع إصبعه على شفتيها.

- «ششش... لا تتحدّثي عنها. أنا هنا لنسيانها»، قال هامسًا.

حين فارقتها نوبة الهُجاس، نهضت الأم من ميتتها المُختلقة. راحت تتجوّل في الشقة، مستعيدةً صلاحياتها. وضع مارتين وآنا خططهما لقضاء الأسبوع الأخير.

- «أعتقد أنّه ينبغي أن أراجع بنك التوفير...»، قال متفكّرًا، «لا أريد أن نقلق بشأن المال».

حين توجّها نحو علّاقة المعاطف، سمعا صفعة انغلاق الباب

الأماميّ. غادرا المنزل، السماء التي تنذرُ بالمطر، كان لها لون واجهات المقاطعة العاشرة. أمسك مارتين بذراعها.

- «أوه، انظري هناك...».

على الجانب الآخر من الشارع، كانت والدته تتقدّمهما قليلًا، تسير في الاتجاه نفسه، رأسها للأمام، تمسك بيدها حقيبةً جلديّة كبيرة، مثل سلاح.

- «ما أغرب العجلة التي تبدو فيها!»، قال مندهشًا.

مرّا بجانب واجهة متجر لفساتين الدرَنْدَل[1].

- «هل تتخيّل أنّها ستليق بي؟»، مازحته آنا.

كشّر مارتين.

- «إنّها مخصّصة للفتيات الشغوفات بشفق الألب وأبواق النفخ القرويّة».

قال موظف البنك مبتسمًا:

- «أمرٌ عجيب. قبل دقيقتين، سحبت والدتك آخر مبلغ من المال متبقٍ في الحساب».

- «لكنّه كان يحتوي مبلغًا ضخمًا»، صرخ مارتين، «حصيلة سنوات من الادّخار».

كان عليه أن يجلس. هزّ رأسه، دائخًا، يحدّق إلى الأمام مباشرة.

---

(١) الدرندل: فستان تراثي ظهر منذ عام ١٨٧٠ ترتديه النساء في جنوب ألمانيا والنمسا وسويسرا والبلدان المحيطة بجبال الألب. (المترجم)

- «قبل أن أغادر، أعطيتُها توكيلًا رسميًا في حال حدثت أيّة مشكلة طارئة»، قال بصوتٍ خافت.

دفعته آنا إلى الخارج برفق. رمى قبّعته في الهواء.

- «بتُّ مفلسًا»، قهقه بضحكةٍ صاخبة تردّد صداها عن الجدران، *«آه، يا عزيزي أوغستين، لقد ضاع كلّ شيء!...»*[1].

دخل الشقّة يغمرُه سرورٌ باعثٌ على الرعب. انهمكت والدتُه في المطبخ كأنّها لم تغادر البيت قط. أخذ مارتين كرسيّ المطبخ ووقف عليه.

- «وما الذي تبقّى في حسابي المصرفيّ...؟»، نادى بنبرةٍ خطابيّة، «لا شيء...!».

التقط جرّةً من الجرار المملوءة بكُمبُت المشمش والمصفوفة بعنايةٍ على الرفّ، وتركها تنزلق من يديه على الأرض وتمدّد ليتناول جرّة أخرى.

راحت والدتُه تندبُ:

- «ظللتُ أعتني بهذه الجرار طوال تلك السنوات... حرمتُ نفسي من أجلها... كلّ ذلك لا تقابله الآن ذرّة امتنان».

نظر مارتين إلى والدته المنتحبة وبيده جرّة. فجأة، أعادها بهدوء إلى الرف، وأدارها على نحوٍ أنيق كي يظهر الوجه ذو اللصاقة، ونزل عن الكرسي.

قال بهدوء وقد أمسك آنا بإحدى ذراعيه:

- «هيّا، سنحزم أمتعتنا».

---

(١) سطر من أغنية شعبيّة ذات حظوة لدى سكان مدينة فيينا. (المترجم)

جابت الأمّ مملكتها البائسة، تلفُّها سحبٌ من التحسُّر على الذات؛ ألقت نفسها على نحوٍ مثيرٍ للشفقة فوق حقيبة ابنها نصف الممتلئة. دسّت آنا فستان زفافها، الذي كان معلّقًا، داخل حقيبتها وأغلقتها. أبقاها صُداعٌ ثقيلٌ نابضٌ منفصلة عن العالم الخارجيّ؛ تبعت مارتين إلى خارج المنزل بلا تفكيرٍ، وكذلك في الشارع، ثمّ إلى الترام.

استقبلها الأب وزوجته الثانية بصمتٍ وهدوءٍ مُشبعٍ بالتفهُّم. اطّلعت آنا، التي ظنّت أن انضمامها كفردٍ جديد إلى الأسرة بات مسلّمًا به، على أحدث الألغاز. لقد جدّد والدُه مؤخرًا دوره الأبويّ بعد قطيعةٍ قسريّة استمرّت عشرين عامًا. طوال ذلك الوقت، منعته والدة مارتين من الوصول إلى ابنه، وصوّرته على أنّه زير نساء حقير ومجرّد استغلاليّ. عندما كان مارتين في الصف الرابع من المدرسة الثانويّة، توقّفتْ، ولأسبابٍ لا يفهم منطقَها إلّا هي، عن قبول بدل الدراسة الشهريّ من الأب. قالت للابن إنَّ أباه لم يعدْ يريدُ الإنفاق عليه، وقالت للأب إنَّ ابنه لا يودُّ متابعة دراسته. كانت قد عثرت على مكانٍ شاغرٍ لابنها كمتدرّب في صالون حلاقة وتصفيف شعر من الدرجة الأولى بجوار دار الأوبرا في شارع كيرنتنرشتراسه. وهكذا، بدلًا من أن ينكبّ على دراسة الأبيات الشعريّة سداسيّة التفاعيل لهوميروس، راح يتعامل مع رؤوس مغنّيات الأوبرا متقلّبات المزاج. لم تنكشف حيلتها إلّا حين سعى مارتين للتواصل مع أبيه بمناسبة زواجه الوشيك.

باسترجاعها الأحداث، توصّلت آنا لإدراك سبب الاستقبال الثلاثيّ الغريب في المحطّة. لم يرغب أحدهم في التنازل أمام الآخر؛

لن يسمح الأب بأنّ يتعدّاه أحد بعد الآن. أربكها هذا الانخراط في الأحابيل المتشابكة لهذه العائلة، حتّى صارت تعدُّ نفسها محظوظة لأنَّها بلا أبوين؛ مع أنَّ مارتين أيضًا، بمعنى ما، كان يتيمًا لسنواتٍ، في ظلّ الأب الغائب والسيطرة الهستيريّة التي فرضتها الأمّ.

تابعا الرحلات بعزمٍ يائسٍ. صعدا من قصر بيلڤيدير السفليّ، وهو المقرّ الصيفيّ في القرن السابع عشر للأمير يوغين دِ ساڤوي الذي حرّر ڤيينا من الأتراك، إلى القصر الأكبر؛ بيلڤيدير العلويّ، الذي مثّل رمزًا لسلطانه. زارا كنيسة القدّيس كارل حيث ودَّ مارتين أن يعقد زواجه. شربا حتّى الثمالة في حانة هويريغر. استغلّا الأيّام القليلة المتبقية لملء خزّان الاحتياطيات بالمتع والملذّات المشتركة، كي يتسنّى لهما الاغتراف منه فيما بعد، طوال حياتهما.

رافقته إلى المحطّة مع والده. ومن نافذة القطار المغادر صرخ مارتين:

- «سأكون بخير... روسيا شاسعة والقيصر بعيد!»[1].

*

- «ما زلتُ أتذكّر جيّدًا كم كنّا نخشى أن يُهزم الروس في ذلك الخريف»، قالت لوته.

- «لم أقلق سوى على حياة ذلك الشخص»، قالت آنا وهي تحدّق في أظافرها، «كان ذلك الأمر الوحيد الذي يهمُّني. وفيما عدا ذلك،

---

(١) تحوير للمثل الروسي الشائع: الربُّ سامق في عليائه والقيصر بعيد، ويُقال لإظهار فقدان الأمل وقلّة التفاؤل بالفرج وتلقي العون. (المترجم)

لم أرَ شيئًا ولم أسمع شيئًا. تمنّيتُ وصلّيت لكي يعود. كلّ هذا بات منسيًّا الآن، القلق المستمرّ الذي كابده كلٌّ واحد منا في منزله، القلق الذي عاشه؛ كان هناك ملايين الشباب مثل مارتين».

شعرت لوته بأنّها مضطرّة لتذكيرها بأنَّ هؤلاء الشباب أنفسهم قد قتلوا الملايين من الروس.

اندفعت آنا قائلة:

- «لم نفكّر في ذلك ببساطة. كلّ ما سمعناه كان: تقدّم، تقدّم، بياويستوك، لينينغراد، أوكرانيا. ألقى هيرمان غورينغ[1] خطابًا مهمًّا قال فيه: لقد احتللنا أخصب دولة في العالم... وتعهّد: سننفّذ أشياء عظيمة هناك. سيكون لدينا ما يكفي من الزبدة والدقيق. كانت ألمانيا تتآكل: أرسَلوا إلى هناك كلّ من لديه مهارة من أجل إدارة المزارع والخدمات الغذائيّة والصحيّة. بين عشيّةٍ وضحاها، صار حتّى الحمقى أشخاصًا معتبرين هناك ويمكنهم فعل ما يحلو لهم. نُقل أسرى الحرب من المعتقلات إلى العمل في المصانع. أصبحت الدولة جهازًا تنظيميًّا مجنونًا إلى حدٍّ ما، مكانًا للإنجاز الهائل. برع الناس في بيوتهم أيضًا؛ حاكوا المعاطف من أغطية الطاولات البالية، وصنعوا أحذيتهم بأنفسهم...».

- «الهولنديّون قاموا بالمثل أيضًا»، ردَّت لوته.

- «بطبيعة الحال... تحشدُ حالة الطوارئ كلّ القوى التي كانت

(١) هيرمان غورينغ (١٨٩٣-١٩٤٦): قائد عسكري نازي، ومؤسس جهاز الغيستابو، وقائد قوات الطيران الألمانية، خلال الحرب العالمية الثانية. (المترجم)

هاجعة دومًا. ولهذا السبب، يشعر الناس بالضجر الشديد الآن. صاروا بحاجة لدروس التحفيز الإبداعيّ. إنّه داء العصر».

شعرت لوته بأنّ دفاع آنا صار شيئًا فشيئًا أشبه بترنيمة مديح، فقاطعتها بنيّةٍ انتقاميّة:

- «... وبعد ذلك حلّ الشتاء».

- «نعم، جنرال الوحل[1]. ثمّ انتهى التقدّم السريع».

- «لقد علق نابليون فيما مضى بالوحل والصقيع؛ كنّا نأمل من صميم قلوبنا أن يكرّر التاريخ نفسه، وهذا ما حدث. لقد خسر هتلر الحرب الآن، هذا ما قلناه لأنفسنا على الفور».

- «وكنّا نفكّر: علينا مساعدة الشباب لتجاوز هذا الشتاء. كتبوا إلينا قائلين إنّهم يعانون من البرد، لذا انشغل الجميع -حتى الأطفال والمرضى في المستشفيات- في الحياكة. خيّطوا البطانيات مع الملاءات، وأرسلوا معاطف الفراء، بمساعدة الصليب الأحمر، ومن دون معرفة قيادة الحزب. حرص الجميع على ألّا يشعرَ زوجٌ أو ابنٌ أو أبٌ لهم بالبرد. أوه، نعم...». حدّقت نحو الخارج؛ السماء بلون الأسقف الصخريّة. «ما زلتُ أحتفظ بميدالية الجبهة الشرقيّة[2] التي مُنحت له؛ وسام ذلك الشتاء

---

(١) تسمية شائعة للموسم من السنة الذي يكثر فيه الوحل المائع الناجم عن ذوبان الثلوج فتنسدّ الطرقات، ويشكل هذا الوحل ميزة دفاعية في زمن الحرب. (المترجم)

(٢) ميدالية الجبهة الشرقية: وسام عسكري أُطلق عام ١٩٤٢ لتكريم المشاركين على الجبهة الشرقية في الحرب العالمية الثانية وتخليدًا للصعوبات التي واجهها الجنود الألمان خلال الشتاء الروسي قارس البرودة، وسمّاها أفراد الجيش وسام اللحم المتجمّد تهكّمًا. (المترجم)

الرهيب في روسيا، حيث اصطّكت أصابع الأيدي والأقدام والأنوف من البرد القارس. سخر الناس منه وأسموه: وسام اللحم المتجمّد».

*

قرّرت والدة السيّد فون غارليتس، التي كانت ذات يوم من وصيفات الإمبراطورة، أن تقضي أيامّها الأخيرة في العالم الحضريّ وانتقلت إلى بوتسدام. كان القصر الذي غادرتْه مكوّنًا من خمسٍ وأربعين غرفة، يقعُ على الضفة الأخرى لنهر أودر في قرية تمتدُ بيوتها على جانبي شارع واحد، وفق الطراز الفريدريشي، تشبه تلك القرى الموجودة بكثرة في براندنبورغ. فيما مضى، استصلح الإمبراطور فريدريش العظيم هذه المقاطعة الحدوديّة وأهّلها بالسكّان؛ عيّن أميرًا فيها، بُنِي له قصرٌ وسط الحقول، وعُبّد الطريق الذي توزّعت على جانبيه منازل عمّال المزارع، ثمّ دُشّنت كنيسة ومدرسة صغيرة. ومقابل جهوزيّتهم الكاملة، مُنح العمّال الحبوب وقطعة أرض كافية لتربية بقرة وخنزير.

أمّا السيّد فون غارليتس، فقد ارتأى أن ينتقلوا جميعًا إلى المقاطعة التي نشأ فيها لأنّها كانت بعيدة عن مرمى القنابل. سافر مع زوجته في رحلة استطلاعيّة لترتيب الأمور، وعهد بالأطفال في منزل والد زوجته إلى رعاية آنا. بعد ستة أسابيع تلقّت برقيّة استدعاء عاجل من السيّدة فون غارليتس جاء فيها: «تعالي إلى هنا. أحتاجك. أرسلنا في طلب آدِلهايد، المربيّة السابقة لرودولف، وستتولّى رعاية الأطفال». مرّةً أخرى، انطلقت آنا مع حقيبتَيها، واحدة تحتوي فستان الزفاف ورسائل

مارتين عبر البريد العسكريّ والأخرى لما تبقّى من أغراضها. أقلّتها عربة الحصان من المحطة؛ كانت سيّدتها جالسة في قمرة العربة بهيئةٍ شعثاء وأناقةٍ أقلّ من المعتاد. لقد اكتسبت طبعًا لامباليًا ساحرًا، متبنية سياسة عدم التدخل، ممّا فاجأ آنا التي لم تعهد منها إلّا الالتزام بالسلوك اللائق وضبط النفس تحت كلّ الظروف.

- «ستموتين من الضحك»، قالت الكونتيسة بأعلى صوتها، وهي تتمايل على الطريق الترابيّ غير المعبّد، بنبرة الإهمال نفسها التي سادت حين أحضرت آنا معها على متن سيّارة الكايزر-فريزر، منذ سنوات طويلة. «كلّ ما يمكنك فعله هو الضحك، القصر متهالك للغاية على نحوٍ لا تتخيّلينه، عليك أن تري ذلك بأمّ العين».

بعد رحلةٍ دامت نصف ساعة عبر مناطق مهجورة، حيث ولّدت سلاسل الغابات والحقول المتعاقبة على مدّ النظر إحساسًا شديدًا بالرّتابة، وصلنا إلى قرية. جميع العناصر موجودة: الكنيسة، المدرسة، منازل العمّال على جانبي الطريق. أمّا القصر فكان متواريًا عن الأبصار عبر جدارٍ تغطّيه فروع أشجار الكستناء والقيقب المعمّرة. فتح البوّابة رجلٌ بعينين حولاوين لدرجةٍ بدا معها أنّه يستقبل أشخاصًا آخرين إلى جانب آنا والكونتيسة. تمايلت العربة وهي تدخل وأُغلقت البوّابة خلفها. كان القصر ماثلًا هناك، بجدرانه الضخمة المتينة الرماديّة المغطّاة بالنباتات المتسلّقة، وبنوافذه ذات الإطارات البيضاء، إلى جانب لفيفٍ من المداخن على الأسطح الحمراء. بدا منكفئًا على حاله، خجولًا، كأنّه

شخص لا يطاوع في إفشاء أسراره. وتلبيةً لمتطلّبات الأسلوب المتناظر الذي راج في عهد فريدريش العظيم، توسّط الواجهةَ الأمامية رواقٌ مع درج يبدأ رحبًا وجذّابًا لكنّه يضيق مع اقترابه من الباب الأماميّ المزدوج. وعلى جانبيه ارتفعت الأعمدة المربّعة لتدعم القوصرة التي نُحت عليها شعار العائلة بشكلٍ بارزٍ. توجّهتا جانبًا نحو مدخل الخدم. أحاطت العديد من المباني الملحقة والإسطبلات بفناءٍ داخليّ مرصوفٍ بالحصى.

قادتها السيّدة فون غارليتس إلى المنزل. لم تكد آنا تطأ بقدمها الأرض، حتّى عمد بعض العمّال الحرفيّين المنشغلين بأعمال الترميم في الطابق الثاني إلى نفض الغبار والحصى عن ملابسهم؛ لتنهال على قبّعة آنا الڤيينيّة. عمّت ضحكاتٌ مَرِحة المكان.

- «لكِ أن تتخيّلي كيف هي الحال هنا»، قالت السيّدة فون غارليتس.

أثبت الاستطلاع الشامل في اليوم نفسه أنَّ الكونتيسة لم تقع في المبالغة. ففضلًا عن المشكلات الهيكليّة الناجمة عن سنوات من تراكم أعمال الصيانة غير المُنجزة، كان الدّاخل متّسخًا ومتداعيًا. عشعشت في كلّ غرفة رائحة نفّاذة لسيّدةٍ عجوز طالبت بإصرار، ولخمسين عامًا، بأن يبقى كلُّ شيءٍ كما كان في شبابها. اهتزّت تماثيل الدروع المتهالكة في الردهة والممرّات لدى هبوب تيّارات الهواء؛ كان ثمّة جذوع أشجار بأشكالٍ غريبة، وأضواء تشعُّ بوميضٍ فوسفوريّ وأشكال شبحيّة، جعلت المسكين الذاهب ليلًا إلى المرحاض، يهبُّ من نعاسه ذُعرًا. كانت غرفة السيّدة فون غارليتس بحاجة لعنايةٍ عاجلة. فمنذ وصولها، قبل

ستّة أسابيع، وهي تنام بالثوب نفسه، على الملاءات نفسها، في سرير تدلّت مظلّته المصنوعة من الساتان تحت ثقل الغبار. كان كلّ شيء في أقصى درجات القذارة حتى أن مجرّد النظر إليه كفيلة بجعلك متسخًا.

- «يا إلهي، إنّها زريبة خنازير!»، همهمت آنا.

رفعت السيّدة فون غارليتس يديها يأسًا.

- «لا أعرف أماكن الأشياء، ليس لدي أدنى فكرة بحق الربّ، أعني الملاءات وما إلى ذلك».

- «لا بُدَّ أنها في مكان ما»، قالت آنا بصوتٍ مبحوحٍ وهي تفتح النوافذ.

بدأت تدرك أنّ الكونتيسة، بهذا الموقف الصريح والخجول، كانت تنقل إلى كاهلها كاملَ المسؤولية عن هذا العقار المتضعضع.

- «كم أنا سعيدة لوجودك هنا»، تنهّدت مثل فتاةٍ صغيرةٍ.

وعلى هذا النحو، بدأت الإصلاحات. وعلى مدار عام، تنقّلت آنا مع الفرق المتعاقبة من العمّال البولنديين وعاملات التنظيف القادمات من القرية من غرفةٍ إلى أخرى حتى خضعت الغرف الخمس والأربعون لتحوّلٍ شامل. استُبدل بقاطنيها الألمان، الذين أُرسلوا إلى الحرب، عمّال السخرة البولنديّون وأسرى الحرب الروسيّون، حيث أقاموا في الإسطبلات، تحت حراسة أربعة جنود مسلّحين. لم يكن هناك جرّارات أو وقود. في تمام السادسة صباحًا، كانت قطعان الثيران التي بلغ عددها ثمانين تُساق إلى الحقول المجاورة مع عرباتٍ مجلجلة، يقودها روسيّون تحت إشراف مفتّشٍ زراعيّ معفى من الخدمة العسكريّة، حيث كانوا

يعملون طوال اليوم بوتيرةٍ غير معهودة لدى الروس لاستيفاء حصّة الحبوب التي حدّدها الرايخ. البطاطس والحبوب والحليب والزبدة، كلّها كان ينبغي تسليمها باستثناء حصة صغيرة للاستهلاك الفرديّ. أمّا بالنسبة لسكّان القصر، فقد بنيت خزانة على الحائط تحوي حجرات احتفظ فيها كلٌّ منهم بمخزونه الخاص من الزبدة؛ مئة وخمسة وعشرين غرامًا في الأسبوع. كان لزامًا عليهم تسليم أكثر من نصفها للطهي، وما تبقى للخبز. بدت البشرية منقسمة إلى معسكرين: الأوّل يدهن الخبز بسخاء ويتناول خبزًا حافًّا لبقية الأسبوع، والآخر يدهن كلّ قطعةٍ من الخبز بطبقة رفيعة جدًّا من الزبدة.

قبل أن يصبح سير عملية الإصلاحات مثاليًا، كان على آنا مكافحة بعض الممارسات القديمة. أربَكها اضطرارُها فجأة لتولّي شؤونِ منزلٍ معقّدة وغير مفهومة، لا يسندُها شيء سوى الشهادة الهزيلة التي حصلت عليها من مدرسة التدبير المنزلي للشابات من الطبقة الميسورة، لذا كانت تحوم في الممرّات والغرف على أمل اكتشاف مسار عملٍ متماسك لإدارة المنزل الجديد. انتهى بها المطاف في حجرة الغسيل حيث اجتمعت أربع نساءٍ بديناتٍ ومرحاتٍ من القرية لفرك الملاءات في أحواض غسيلٍ بيضويّة، وهنّ يغنّين ويضحكن ويثرثرن. سرعان ما انتقل هذا الموكب الصغير إلى القبو حيث جفّفت الملاءات ومُلّست عبر الكيّ بقطعة معدن متوهّجة. لم يكنّ في عجلة من أمرهنّ، حيث استغرق الغسيل أربعة عشر يومًا، بعدئذ وصلت دفعةٌ جديدة، ليعدْن الكرّة من جديد. تخلّلَت كلَّ نهارٍ فترةُ استراحةٍ بهيجةٍ. كانت ماممسيل تعدُّ القهوة وتخبز البسكويت.

لقد كان خارج نطاق اهتمامهنّ، حقيقة أن هذه المؤانسة تجري على خلفيةٍ من خمس وأربعين غرفة تتداعى. «يا إلهي، لن يستمرّ الأمر على هذا المنوال بالتأكيد»، فكّرت آنا.

في الجزء الخلفيّ من حجرة الغسيل، اكتشفت حوض غسيل ضخم مع مُجفّفة، تحت طبقةٍ سمكيةٍ من الغبار.

- «معطّلة»، قالت النساء بإيماءات تنمُّ عن تسليم بالأمر.

كانت أحزمة نقل مرتفعة تمتدُّ عابرةً الفناء لتنتهي عند مولِّد في مصنع التقطير، حيث كان مشروب الجِنّ يُصنع من البطاطس.

- «ما حال هذه الآلة؟ أهي معطّلة؟»، سألت عامل الصيانة.

- «لا أعرف»، غمغم هازًّا كتفيه.

شعرت آنا بأنّها تسبحُ في نهرٍ من شرابٍ لزج، نهرٍ من الخمول واللامبالاة.

- «ماذا تقصد بجوابك: لا أعرف!»، قالت آنا بنبرةٍ حادّة. «بإمكانك إلقاء نظرة عليها لتعرف».

انحنى الرجل نحو الآلة، متنهّدًا، يلقي نظراتٍ فاترة. بعد ساعاتٍ قليلة أنجز إصلاحه مُرغمًا. في السادسة من صباح اليوم التالي، وضعت آنا الملابس في الحلّة؛ بدأت الآلة الهائلة، التي يبلغ قطرها حوالي المتر، بالتحرُّك فوق نار الحطب المتوقّدة. جرى استقبال عاملات الغسيل لدى وصولهنّ بأصواتٍ مبهجة: بوم، بوم، بوم، تك، تك، تك، كلو، كلو، كلو. رفّت أجفانهنّ مشدوهاتٍ، قبل أن يثور غضبهنّ. من تظنُّ نفسها، هذه القادمة من الراينلاند، حتّى تستطيع التدخُّل بحياتهنّ على

هذا النحو؟ لطالما غسلن يدويًّا منذ زمنٍ طويل، وكانت الأمور بخير، ولا حاجة للتغيير الآن على الإطلاق.

- «لماذا عليكنّ قضاء أسبوعين في الغسيل والكيّ؟»، صرخت آنا بصوت فاق ضجيج النساء.

كانت إحدى الوجبات قد دخلت المُجفّفة. الشمس مشرقة في الخارج؛ علّقت الغسيل على الحبل وعادت مُسرعةً إلى الحجرة. أرشدت النساء إلى طريقة تشغيل الآلة، متجاهلةً نظراتهن المستهجنة.

- «بوسعكنّ الذهاب والجلوس بجانب الغسيل المنشور بهدوء».

ذهبت آنا إلى حبال الغسيل مرارًا وتكرارًا. وفي نهاية اليوم، طُوي الغسيل بعناية وقد فاحت رائحته الزكيّة. كان كلّ شيء جاهزًا؛ تبقّى ثلاثة عشر يومًا لتنظيف المنزل. ثورة صغيرة. حين أدركت النساء ذلك، تحوّل غضبهنّ إلى كراهية؛ سرعان ما تبدّدت تدريجيًّا في الشتاء حين مرضن وأطفالهنّ، وكانت آنا تغلي لهم شاي البابونج وتدثّرهم بالأغطية الدافئة وترافق الحوامل منهنّ إلى المدينة ليلًا حين يقترب مخاضهنّ. بذلك، كانت تعوّض بصمت عن إهمال السيّدة فون غارلتس؛ فقد كان واجبًا تقليديًّا على النبلاء الاعتناء بمعيشة مزارعيهم.

نُظِّفت الغرف تنظيفًا شاملًا واحدة تلو الأخرى. تحوّلت دهشة آنا من كمية خيوط العناكب والغبار والعفن والحشرات الميتة التي تراكمت على مرّ السنين نتيجةً لولع الكونتيسة العجوز بالماضي إلى صراعٍ مرير. أمّا الغرفة التي تفوّقت بجدارة على سواها فهي غرفة الإمبراطور. لقد ظلّت حِرزًا مغلقًا منذ أن أمضى القيصر ڤيلهلم ليلةً واحدة فيها ضيفًا

على الوصيفة السابقة لزوجته. بمجرّد فتح الباب، هبّت رائحة مشبعة بالحموضة والعفونة. أنزلن الستائر والأسدال، نزعن الملاءات والوسائد عن السرير المسقوف بكلّ ما فيها من غبارٍ وعثّ، بيد أنَّ تلك الرائحة الإمبراطوريّة ظلّت معشعشة حتى بعد تجريد الغرفة من كلّ محتوياتها. أخيرًا، بدأن بفكّ الفراش: عجّت الديدان في المكان الذي حطّ عليه جسد صاحب الفخامة، ووثبتْ بفرحٍ من شعر الخيل المنجّد نحو الحرّية المفاجئة. ذُعرت آنا. إنَّه زمن حرب، فكّرت مليًّا، ولا يجدر التخلُّص من شعر الخيل باهظ الثمن على هذا النحو. تذكّرت بغتةً ما رأته في مصنع التقطير. عبرن الفناء يحملن الفراش، وألقين محتوياته في المِرجل الذي اشتعلت نار خافتة تحته. انفجرت يرقات الديدان مثل حبّات الذرة. وحين اختفى كلّ أثرٍ للكائنات الحيّة بين خصل شعر الحصان، جرى غسلُها وتجفيفها في الشمس. وأخيرًا، ذهبت بحشوة الفراش الثمينة إلى المُنجِّد، وبحوزتها ليتران من نبيذ الجنّ.

كانت العُلّيّةُ طافحة بأشياء تقيّأها الزمن منذ سنين. لم تعثر آنا فيها على شيءٍ ذي قيمة سوى سلسلة من النقوش الإنكليزيّة ولوحات لمشاهد صيد قديمة في إطارات من خشب الماهوجني، علِّقت في الممرّات والردهة. صادفت أيضًا كميّةً مذهلة من التحف الرخيصة تحت أكوامٍ من القذارة، تنتمي لحقبةٍ درج فيها الطلاء المذهّب والأشكال المجعّدة. أحضرن كلّ تلك الأشياء إلى الفناء لوضعها برسم البيع للعامّة. تناقلت الأفواه ذلك الإعلان: «أيّة قطعة بخمسين فنغًا». احتشدت النساء البولنديّات من المساكن المجاورة في ملابس رثّة قبيحة مع أوشحة

معقودة بإحكام حول وجوههنّ المدوّرة الشاحبة. تهلّلت ملامحهنّ لرؤية السلع الفاخرة، ورحن يمرّرن أصابعهنّ على الرموز العائدة لحياة مُترفة ورغيدة، فيما تلألأت أعينهنّ. وبعد تردُّد مديدٍ بشأن مشترياتهن؛ كرسيّ خفيض بلا ظهر، منجّد بالحرير، أو غطاء لإبريق شاي على شكل سيّدة روكوكو، غادرن سريعًا كما لو أنَّ أحدًا سيستعيدها منهنّ.

بعد حصاد الشمندر السكريّ، كانت النساء الپولنديّات يغسّلنه ويقطّعنه إلى شرائح ويعصرنه، مسببًا فوحان رائحة حلوة ومثيرة للغثيان. ثمّ يُحوَّل إلى شراب، ويغدو كلّ شيء لزجًا ودبقًا. وكمكافأة، حصلت كلّ واحدة منهنّ على كيس من الشمندر للاستهلاك الشخصيّ.

- «هل يمكننا استخدام المكبس...؟»، سألن بخجل، مشيراتٍ إلى مدى صعوبة كبس الشمندر باستخدام اليدين وقطعة قماش.

- «بالطّبع، لقد انتهى الأمر، لسنا بحاجته بعد الآن»، أجابت آنا.

بعد بضع ساعات، جاء السيّد فون غارليتس مرتديًا زيّ الفروسيّة.

- «قولي لي بأي حق أعرتِ المكبس للپولنديّات؟»، هتف بها.

- «ولِمَ لا؟»، قالت آنا بجرأة، مستاءة لوجود هذا العنصر المتأنّق اللامبالي وسط النشاط الصاخب للمكان.

- «هل تظنّين أنّنا لو كنا في پولندا، نعمل هناك، سيسمح لنا الپولنديّون باستخدامه؟»، قال مكشّرًا.

نظر إليها بتحدٍّ وأجاب نيابةً عنها:

- «بالتأكيد لن يفعلوا ذلك، إنّهم يضمرون لنا الكراهية».

ردّت آنا:

- «ولكنّنا لا نكرههم. على كلّ حال، إذا كان اليولنديّون أسوأ منّا بكثير، كما تقول، وكان من المفترض أن أجاريهم في ذلك وأتّبع أسلوبهم، فهذا لن يجعلنا أفضل منهم ولو بقيد شعرة، وليس هناك ما يعطينا الحقّ بمعاملتهم كما لو أنّ إطاعتنا واجبة عليهم».

هزّ رأسه أمام ما رآه تفكيرًا متناقضًا.

- «إنّهم أونترمينش»[1]، قال بصلف.

- «إذا كانوا أونترمينش ونحن هيرينمينش، كما تقول»، حاولت أن توضّح له بدبلوماسيّة، «إذًا، فلا أستطيع أن أكون كاليولنديين، ألا يجدر بي أن أكون مثلنا، نحن الذين نُدعى: العرق المتفوّق؟».

شعرت بالسخافة البالغة التي تنطوي عليها فكرة التمييز بين البشر، لكنّها امتلكت الوعي السياسيّ الكافي لتدرك ضمنيًّا بأنّها غير قادرة على التصريح بذلك أمام أتباع الفوهرر. قطّب فون غارلتس حاجبيه؛ لقد أشكل عليه هذا الجدال. أحسّ عند نقطةٍ معيّنة بأنّ واحدةً من طاقم الخدم، لا غنى عنها لسوء الحظّ، مستفردة برأيها الذاتيّ، قد قلّلت من شأنه، وجعلت بوقاحة سلطتها على شؤون بيته في مواجهة سلطته كربّ عمل. كان كلُّ هذا تجاوزًا للحدّ بالنسبة له؛ مشى بخطوات قصيرة محسوبة حانيًا رأسه، كي يبدّد البلبلةَ التي ألمّت به، وأخذ يضرب شجرةً هنا وشجرةً هناك بسوط الخيل.

---

(١) بالألمانية، مصطلح يعني الإنسان الدون الذي ينتمي لعرق محتقر من غير الآريين حسب الأيديولوجيا العنصرية النازيّة ويُقصد خاصّة اليولنديون والصرب والروس. ويقابله مصطلح هيرينمينش الذي يشير إلى أبناء العرق المتفوّق. (المترجم)

خفّف انهماكُها بأعباء العمل المتزايدة من إحساسها بطول فترات الانتظار الفاصلة بين رسائل البريد العسكريّ. كتب لها مارتين عن جمال الحقول الملأى بأزهار عبّاد الشمس؛ عن صندوق الكتب الذي عثر عليه في أحد الأسواق؛ وأرسل لها وصفة حساء البُرش[1]. كانت مواكب النصر الصاخبة لقوّات الدفاع، التي أذاع أخبارها الراديو، متناقضة على نحوٍ غريب مع الهدوء السلميّ الذي أفعم رسائل مارتين التي لم يمرَّ بها صوتٌ لطلقة بندقيّة أو ذِكرٌ لمنزلٍ احترق. بحلول الخريف، كان متمركزًا بالقرب من مدينة تولا. حين ساد الصقيع وطقطقت إبر الحياكة في كلّ مكانٍ لمقاومة برودة التندرا، أرسلت له آنا طردًا بأملٍ أعمى أن يجد طريقه إليه؛ في اللانهاية. تزايدت الشائعات حول الأشخاص الذين لقوا حتفهم في الجبهات أكثر من أيّ وقت مضى، وقد أنكرتها النشرات الإخباريّة كأنّها تهديدات غامضة، وصوّرت الجنود وهم يدخّنون السجائر بكلّ سرورٍ في الخنادق المحفورة في الثلج. كان هؤلاء الأشخاص المعنيّون في البداية أبناء عمومة من الدرجة الثانية، زملاء دراسة، أصدقاء الأصدقاء، ثم صاروا إخوة وآباء وخطباء. ظهر جمال الشتاء في رسائل مارتين كأنّه من وصف تشيخوف. صادف مع رفاقه مزرعةً تحتوي على بيانو كبير. بيانو واحد كبير وسط حقولٍ ثلجيّة تمتد بلا انتهاء، تبيّن أنَّ دوزانه قد اضطرب بفعل البرد. اعتاد أصحاب البيت أن يناموا على منصّةٍ مثبّتة فوق الموقد. سحب الجنود الفراش واستجمعوا قوّتهم لرفع البيانو على المنصّة. سرعان ما ذاب الصقيع الذي جمّد أوتاره؛ وعُزفت

---

(١) حساء شهير في روسيا من الشمندر الأحمر. (المترجم)

الموسيقى ليلةً بعد ليلة. تغاضى المُزارع عن اعتذارات مارتين المهذّبة: فبالنسبة له، كان الاستماع إلى مقطوعات باخ وموزارت أهمّ بكثير من التنعُّم بنومٍ دافئ. كلّما غدت الأمور، كما يصفها في رسائله، زاخرة أكثر بالحياة والألوان، تنامى الشكُّ الذي يساور آنا.

تمتّع أحد الأسرى الروس بامتيازٍ استثنائيّ في عمله: كان عليه أن يُضرم مواقد القصر ويتولّى صيانتها. يومًا بعد يومٍ، كان يتنقّل من غرفةٍ إلى أخرى حاملًا سلّة من الحطب. لم يخاطبه أحد؛ فقد كانت معاملة الروس على أنّهم بشر من الجرائم. ذات يوم، وجدت آنا نفسها معه في غرفة. خجولًا، غيرَ مرئيٍّ تقريبًا، كان يؤدّي عمله كما لو بات مدركًا بأنَّ وجوده ينحصر في إطار إشعال النار. تحدّثت إليه، من دون نيّةٍ معيّنة، لمجرّد أنّهما فردان جمعهما مكان واحد. دُهشت حين أجاب راطنًا بالألمانيّة؛ اتّضح أنّه يُدعى ڤيلهِلم: فبعد أن زار القيصرُ الألمانيّ نظيره الروسيّ، أُطلق اسم ڤيلهلم على كلّ المواليد الجدد. ابنٌ آخر بالمعموديّة لأجل الإمبراطور، سخرتْ آنا بينها وبين نفسها. تخلّلت الأحرف الروسيّة الساكنة، التي يرافقها اهتزازٌ ناعم، سائرَ حديثه. بعد اللقاء الأوّل، صادفته بانتظامٍ في الغرف التي يجري فيها إضرام المواقد. العاملون في الإسطبلات يعانون من الجوع، همسَ لها، هناك شحّ في كلّ شيء. سرقت الطعام من المطبخ لأجله. في الأمسيات، كانت تقصّ أغطية اللحف الزرقاء المهملة لتصنع منها مناديل للأسرى. جمعت فُرَشَ الأسنان المرميّة وبقايا معجون الأسنان والصابون وأمشاط الجيب التي فقدت بعض أسنانها. تولّى ڤيلهلم تهريب الغنائم إلى الإسطبلات حيث جرى الانقضاض عليها بلهفة. لم تسائل

نفسها عن سبب إقدامها على ذلك؛ كانت النوايا التخريبيّة بعيدةً عن خاطرها؛ كلّ ما في الأمر أنّها لم تستطع تحمّل التنافر الهائل بين الرفاهية النسبيّة التي اكتنفت القصر والحرمان الشاقّ الذي ساد الإسطبلات.

بين المواقد، أطلعها ڤيلهلم على الشائعات المنتشرة بين الروس والپولنديين، شائعات أماطت اللثام عن عالمٍ تخفيه نشرات الأخبار الحافلة بالبهجة: أُحبط الهجوم الألمانيّ؛ لا سيّما حين ظنّوا أنّ عزيمة الجيش الروسي قد وهنت بعد الملايين من الخسائر، فقد تقدَّم مئة جنديّ سوڤيتي مقابل كلّ جنديّ منهم سقط قتيلًا. ماذا عن تولا؟ سألت آنا بقلبٍ منقبض. اعتذر لها: لم تتضمّن الشائعات هذه التفاصيل. ولكن كيف وصلت إليهم أصلًا؟ حسنٌ... بسط يديه مع ابتسامةٍ شرقيّة. ظلّ مصدر المعلومات لغزًا بالنسبة لها. هل جاءت الأخبار مع آخر سربٍ من الطيور عبرَ السماءِ الرماديّة؟ أم أنّ لديهم عدّاء مارثون ماهر، استطاع الوصول إلى الحدود الپولنديّة بسرعةٍ أولمبيّة، وفي طريقه استوقفه الپولنديّون عند المزارع التي يعملون بها؟

*

– «أنتِ ألمانيّة حتّى النخاع»، قالت لوته وهي تهزُّ رأسها.

– «ماذا تقصدين؟»، سألتها آنا بتوجُّس.

– «لديك تلك السمة الألمانيّة العمليّة... الطريقة التي حللتِ بها مشكلة الغسّالة مثلًا... تحمل تمامًا روح معجزة ألمانيا الاقتصادية. لكنّني أتساءل...».

– «نعم...».

أحسّت آنا برغبةٍ ملحّة في شرح كلّ شيء، وتبديد أيّ سوء تفاهم.

- «هل باتت عاملات الغسيل بحالٍ أفضل في النهاية؟ بعد التنظيم الجديد للعمل الذي فرضتِه عليهنّ؟ هل بقين على عادتهنّ في الضحك والغناء والثرثرة؟».

- «أفّ...».

هزّت آنا كتفيها، متبرّمة.

- «كنّ يشربن القهوة ويتناولون البسكويت، كما تعلمين. لا يمكن لأحد الوقوف في وجه التطور. في زمن ملّاك الأراضي، كان العمّال يتعلّمون القراءة والكتابة فحسب؛ لم يعتقدوا أنّه ثمة ضرورة لما هو أكثر من ذلك. ثم جاء الوقت الذي رفض فيه العمّال أن يظلّوا في هذه الحالة من الجهل -كنت منهم- فتلقّوا التدريب، ثمّ وصل التلفاز والحاسوب... إذا كنت تريدين العودة إلى الضحك والغناء والثرثرة، فينبغي حينها التخلُّص من التكنولوجيا والرّاحة التي توفّرها لك».

- «لكنّنا فقدنا الكثير بالمقابل».

- «لا تضفي على الأمر طابعًا رومانسيًّا».

وهكذا، عادتا إلى نقطة الاختلاف القديمة. حدّقتا نحو الخارج، مرورًا بالمرأة وبجعتها، في محاولة لتنظيم أفكارهما التي راحت ترفرف مع الريح في كلّ اتجاه، مثل قصاصات من الورق، فيما انغمستا في استحضار الذكريات.

- «أتفهّم مساعدتك للأسرى الروس»، قالت لوته، «بطريقةٍ ما،

كنتِ تأملين أن يفعل الروس الشيء نفسه مع مارتين إذا وقع أسيرًا لديهم...».

- «كلّا»، زمّت آنا شفتيها، «فعلت ذلك لأجل تقديم العون، من دون التفكير بأبعد من ذلك».

- «ولكن قد تكون هناك دوافع أخرى وراء ذلك. منذ اللحظة التي جاء فيها أوّل الأشخاص المتخفين يطرق بابنا، شعرتُ أخيرًا بأنني قادرة على القيام بشيءٍ ما، كأننا مع كل شخصٍ متوارٍ يفلتُ من قبضة المحتلّ، كنّا نفعل شيئًا من أجل دافيد... على نحوٍ مجرّد».

- «خبّأتم الأشخاص في منزلكم...».

أومأت لوته برأسها.

- «يهود؟».

- «الأغلبيّة».

ندّت عن آنا تنهيدة، انصاعت لها كلّ جوارحها.

٥

تناولنا الغداء في مطعم في «پلاس ألبير» يطلُّ على تمثال ملاكٍ هائل الحجم، يتربَّع على قاعدةٍ حجريّة شاهقة، يراقب البشريّة من عليائه، حائرًا. بعد ذلك، ذهبنا في نزهةٍ قصيرة حول المدينة؛ على اعتبارها الجرعة اليوميّة من النشاط الاستشفائيّ. تجوّلنا داخل كنيسة رماديّة ذات ثلاثة أبراج تشمخُ قممُها بحدّةٍ نحو السماء مثل أقلام رصاصٍ بحوزة مدير مدرسة. اتفقنا، لأوّل مرّة، على القبح الاستثنائيّ الذي تتصف به هذه الكنيسة. من دون حماس، جابتنا الفراغ العاتم، بيد كلٍّ منهما منشورٌ عن تاريخ المكان. قرأت آنا:

- «بُنيت عام ١٨٨٥، على الطراز الرايني-الرومانسيّ، باستلهامٍ من المدرسة الكولونيّة».

عقّبت:

- «لم أدرِ أنّنا صدّرنا قبحًا معماريًّا على غرار هذا!».

تمهّلنا أمام منحوتةٍ تعود لكنيسة قديمة كانت في المكان نفسه: جوقةٌ من الملائكة يحملُ كلّ منها سيفًا وصولجانًا. غزاهما الضجر، فغادرتا

الكنيسة إلى المقهى المقابل لها مباشرةً؛ كأنَّه وُجِد عزاءً لروّاد الكنيسة المُحبطين. كان فنجان القهوة كفيلًا بتحسين مزاجهما. عبرت طائرة نفّاثة السماء بخطٍّ مائل، خلف أبراج الكنيسة الكارهة للبشر، كأنَّها تحاول طمسها.

*

حين ظهرت عائلة فرينكل، الثلاثيّ المتأنّق، عند عتبة الباب ذات يومٍ صيفيّ، لم يشكّ أحد في أنّ هذه الزيارة البريئة، كما بدت، ستمثّل النهاية التي لا رجعة عنها لحقبةٍ في حياة والدة لوته وعائلتها. كان برام فرينكل، الذي بلغ الثامنة عشرة من العمر حينذاك، قد رتّب اللقاء؛ كان قد ظلّ صديقًا لكون طوال تلك السنوات. شربوا شيئًا يُفترض أنّه قهوة. شغّل والد لوته كونشيرتو باخ المزدوج تكريمًا لماكس فرينكل، الذي ذاع صيته كعازف كمان أول في أوركسترا إذاعيّة منذ مغادرته ألمانيا. أصغى الحاضرون بإنصاتٍ؛ كما لو أنّهم جاؤوا بقصد الاستماع إلى الكونشيرتو فحسب. وبمجرد أن تلاشت الأصوات الأخيرة بعيدًا، حلّت الحربُ محلّها؛ عبر الصمت المفاجئ، والقهوة البديلة[1]، وحضور آل فرينكل.

- «أنت توحبُّ الموسيقى...»، بدأ فرينكل حديثه وهو يمسّد ذقنه بقلق.

استمدَّ من هذا الاعتبار الشجاعة لطلب الاستضافة من والديّ لوته، مقابل دفع التكاليف بالطبع؛ ولفترةٍ قصيرة، لحين إيجاد حلٍّ نهائيّ.

---

(١) قهوة غير مصنوعة من حبوب البن، بل من مصادر نباتية مختلفة كحبوب البلوط والشعير، ذات طعم سيء، شاعت إبان الحروب. (المترجم)

- «يانبغي على كلّ يهوود هيلڤرسوم أن يدجمّعوا في أمستردام»، قال بلهجةٍ ملأى بالتلميحات.

- «وأنتم تعيشون في مكانٍ بعيدٍ عن الأنظار بشكلٍ ممتاز»، أضافت زوجته سارة بلغةٍ هولنديّة سليمة، «سيتمكّن ماكس من أداء تمارينه اليوميّة على الكمان من دون أن يسمعه أحد».

كانت صغيرة ومرحة، شفتاها وأظافرها مطليّة بلون فستانها.

وُضع سرير برام في غرفة كون، أمّا الزوجان فأقاما في حجرة الأطفال حيث انبعثت منها الألحان والاهتزازات التي رجرجت جدران المنزل. حالما ينتهي الأب، كان الابن يشرع في عزف الألحان الغجريَّة وأداء الرقصات السلافيَّة. زارهم ليون شتاين، صديقهم القديم حين كانوا في ألمانيا، الذي أودعوه ثقتهم الكبيرة. كان قد غادر بلاده حينذاك لمحاربة الفاشية في الحرب الأهليّة الإسبانيّة. عمل بعد ذلك لسنوات في هارلم عند عمّه، وهو صانع للبراميل والصناديق سمح له الألمان بالفرار إلى أمريكا مقابل الكثير من المال. استطاع أخذ خيوله لكنّه عجز عن استقدام ابن أخيه الذي أصبح عديمَ الجنسيّة منذ مغامرته في إسبانيا. فالعالم الجديد، على الضفة المقابلة للمحيط، فتح أبوابه على مصاريعها أمام الجميع، ما عدا مَن هم بلا جنسيّة. كان شتاين بحاجةٍ عاجلة لمأوى يتوارى فيه. إنّما من وقت إلى آخر، كما قال. لم تخبُ بداخله النزعة القديمة المناهضة للفاشية الإسبانيّة، بل قادته للانضمام إلى المقاومة الهولنديّة؛ كان ذلك، في حالته، مثالًا قويًا على ازدراء الموت، لأنّه بدا يهوديًّا خالصًا، حتّى حين ارتدى زيًّا ألمانيًّا أثناء هجومٍ على مكتب بريد، وأصدر الأوامر بلغته الأمّ.

وُضع سريره في مكتب والد لوته، نام عليه كما ينام جنديّ على لوحٍ خشبيٍّ ضيّق، ذهنه غارقٌ في ابتكار الخطط، وأعصابه في توتّرٍ دائم؛ لقد أدرك أنَّ لحظات الراحة والهدوء لن تدهمه إلّا في خضمّ الخطر الجسيم. كان بعيدَ المنال، حياتُه تلفُّها الأسرار؛ وفي بعض الأحيان، اعتاد أن يمكث مختبئًا عندهم لثلاثة أسابيع، ثم يختفي لشهر من دون سابق إنذار.

ذات صباح، أفاقوا على دويّ طلقات بندقيّة. تراكضوا في أرجاء المنزل، بملابس النوم، فيما بحث آل فرينكل بيأسٍ عن طريقة تجعلهم غير مرئيين. ذهب كون، وبريق جاذبيّة الخطر يشعُّ في عينيه، ليرى ما يجري. تجوّل في الغابة غيرَ مبالٍ. وهناك، صادف ثلاثة جنود نمساويّين، لا يكبرونه سنًّا، قد خرجوا للصيد لكسر رتابة حصص طعامهم اليوميّة. أعطوه سيجارة وحدّثوه عن الخرانق والأرانب. كانوا عازمين، في وقتٍ لاحق من ذلك اليوم، على شنّ حملةٍ مداهمة في الحيّ، أخبروه من دون اكتراث، في بعض الأحيان، يكون الإيقاع بيهوديّ أسهل من صيد أرنب. قادهم كون إلى تلّةٍ على الجانب الآخر من الغابة، تعجُّ بالجحور والأوكار. افترقوا بعد كثيرٍ من التربيتات الوديّة على الأكتاف.

بلّغ عن ذلك لاهثًا.

– «إنّهم يصطادون الأرانب والخرانق الآن فحسب، ولكن في غضون ساعتين، سيفتّشون عن... عن...».

لم يستطع أن يحرّر الكلمة من شفتيه؛ مجلّلًا بالخزي، نظر إلى صديقه الواقف حافيَ القدمين على الأرضيّة المُبَلَّطة وقد خدّره البرد. دوّت طلقاتٌ أخرى من بعيد. فركَ ماكس فرينكل أصابعه بنزق.

- «السيّدتان نوتبوم...!»، صرخ.

أومأت زوجته برأسها إيماءةً قاطعة. بدأت تشرح:

- «معجبتان، كانتا تجلسان في الصف الأماميّ من كلّ حفلةٍ موسيقيّة. ذات يومٍ أعربتا: إذا واجهتم أيّة مصاعب، تعالوا إلينا. لكنّهما غريبتا الأطوار بعض الشيء...».

أقلّوهم إلى هناك على وجه السرعة. عاشت السيّدتان مع ثماني وأربعين قطّة في ڤيلا كبيرة متداعية، تُعرّش عليها، كي تشدّ أزرها، النباتات المتسلّقة وعرائش اللبلاب. ومع أنّ إحداهنّ والدة الأخرى، فقد استحالت معرفة أيّ هاتين السيّدتين الساحرتين، ذواتي الشعر الرماديّ المعقود على شكل كعكة ونظّارات كارل ماركس، هي الأكبر سنًّا. بضع كلمات كانت كافية. بالطبع، لاقى عازف الكمان الموهوب ترحيبًا جليًّا؛ فقد اعتادتا إيواء كلّ شارد، سواء كان يمشي على قدمين أو أربع.

بعد رحيل آل فرينكل، ترقّبوا حملة التفتيش بهدوء. تمتّعت والدة لوته براحة بالٍ مفاجئة. فقد أدركت آنذاك فحسب مقدار الضغط الذي رافق وجودهم. الخوف الدائم من زيارةٍ غير متوقّعة، من زلة لسان قد تصدر عن الأطفال الصغار، القلق من عثرة صغيرة قاتلة، تافهة لدرجة أنّك قد تغفل عنها، الرعب من الثأر الذي لم يجرؤ أحد على تخيُّله... رعبٌ تزامن مع شعور بالذنب: فقد كانت طوال هذا الوقت تعرّض أطفالها لخطرٍ داهم. قررت أن تضع حدًّا لذلك. إنّهم على ما يُرام هناك، في عهدة السيّدتين نوتبوم.

إلى جانب ذلك، كان هناك الكثير ممّا يدعو للقلق. فإذا خسر الروس، على سبيل المثال، سيضيع كلّ شيء. إبان معركة ستالينغراد، سارت جيت أثناء نومها في أرجاء المنزل ليلًا. استيقظت لوته، واكتشفت أنَّ السرير المجاور لها فارغ، لتعثر على أختها، منتصبة وشاحبة مثل تمثال في غرفة المعيشة، تتجوّل ببطءٍ بين الطاولات والكراسي من دون أن تصطدم بأيٍّ منها. عمدت لوته فيما بعد إلى إقفال باب غرفة النوم، حرصًا عليها من التدحرج على السلّم، بيد أنّ شيئًا لم يحل دون تنفيذ تلك الرغبة بالمشي: فذات ليلة، فتحت جيت باب الشرفة وخرجت تحت المطر بثوب النوم. استيقظت لوته حين بدأت الريح تداعب جبهتها. لم يكن السرير وحده فارغًا، بل الشرفة كذلك. حدّقت في العتمة حيرى: هل نمت لجيت أجنحة؟ متكئة على الدرابزين لتلقي نظرة، رأتها مستلقية في الأسفل، مبلّلة، غارقة في سرير من زهور النّجمة المتفتّحة التي أفسدها المطر. قضت جيت عدّة أسابيع طريحة الفراش في غرفةٍ مظلمة، إثر ارتجاج المخ. حلّ صداعٌ معنّد مكان السرنمة. ومع ذلك، طالبت بإبقائها على اطلاع دائم بآخر التطورات في الشرق؛ ودونها تحفُّظ.

مطرٌ في هولندا، ثلجٌ في روسيا. وعلى ما يبدو، فقد هطلت كميّةٌ كبيرة غير معهودة من الأمطار ذلك الخريف. حتّى أنَّ هذه الأمطار، ذات ليلةٍ، جرفت معها النوايا الحسنة عند والدة لوته. رنَّ الجرس؛ غامر رجلان للقدوم في هذا الطقس العاصف. كان وجه أحدهما مخفيًّا وراء نظّارات ذات إطارٍ ثخين، غشّى عدساتها الضباب. اتضح أن الآخر هو حلّاق والد لوته؛ لم يتعرّف عليه على الفور بالهيئة التي كان عليها، فما الذي يبقى

من الحلّاق حين يتجرّد من محيطه المألوف، المقصّات والشفرات والمرايا؟ ذكرا اسم شتاين لتوطيد الثقة، وبادر الحلّاق بطلب إيواءٍ مؤقتٍ لصديقه الذي كان في أمسّ الحاجة لذلك. لبضعة أيّامٍ فحسب. لم يتفوّه أحد بشيء. حبست لوته أنفاسها. كان الصمت مُثقلًا بالتوتّر الذي لم يتولّد نتيجةً للريبة بل لانعدام القدرة على الإفلات. إمكانية الاختيار الحرّ كانت ظاهريّة فحسب؛ فقد اتُّخذ القرار في الواقع، سواء بإرادةٍ بشريّة أم بإرادةٍ فائقةٍ للبشر. من المستحيل قول: لا، عُد إلى الخارج، إلى غمرة العاصفة، تحت صبيب المطر، وابحث عن سقفٍ تلوذ تحته في مكان آخر.

- «لم نعد نؤوي أحدًا»، سمعت أبوها يقول، «بات الأمر مخاطرة كبيرة».

- «سرير آل فرينكل ما زال متاحًا»، اعترضت أمُّها.

كانت يداها تنتزعان معطف الضيف غير المرحَّب به؛ أخذت الثوب المبلّل وعلّقته بجوار الموقد. قدّمت له كرسيًّا، وأخذت نظّاراته وجفّفت عدستَيها بطرف تنّورتها قبل أن تعيدها إليه.

- «من أجل أن ترى، على الأقل، أين انتهى بك المطاف».

اكتشف روبن ماير أنَّ هناك مُسرنمة أشقاها الضجر في إحدى غرف الطابق العلويّ. جلس على جانب سريرها وأخذ يقرأ بصوتٍ عالٍ؛ أحضر لها الشاي وزيّن على مسامعها أخبار الجبهة. بعد ستّة أسابيع، حين لم يُعثر على أثر له، اعترف بأنَّ القلق على أفراد أسرته يؤرّقه. فالخبّاز الذي اختبؤوا عنده، في قريةٍ من قرى أُترخت، تعرَّض للابتزاز من أخت زوجته التي اكتشفت أنَّ المتجر الواقع خلف الفرن لا تفوح

منه رائحة الخبز وكعك الزبيب فحسب، بل أيضًا رائحة العرق البارد. هُرِّب روبن إلى بلدة خوي داخل سلّةٍ من الغسيل المتسخ، للبحث عن مكان آمن يمكنهم الذهاب إليه.

- «كان من المفترض أن يتولّى الحلّاق الأمر...».

ترأرأت عيناه خلف العدسات السميكة.

- «لا أعرفُ...».

- «ليس بوسعنا انتظار ذلك»، قالت والدة لوته.

بُعثت لوته لأداء المهمّة. اجتاز القطار مساحاتٍ من الأراضي القاحلة تحت سماءٍ كئيبة كامدة. لم تعد الغابات والمروج كما كانت من قبل، لقد فقدت براءتها تحت زحف الأحذية الأجنبيّة، وباتت مخبأً ومسرحًا للمآسي في آن. حقيقة قدرتها، دونًا عن روبن، على السفر بكلّ سلامٍ شوّهت المشهد في عينيها، وجعلت منه شيئًا لا يمكن وصفه بالجمال أبدًا، تمامًا كما بدا. تصرُّفات سخيفة عبثيّة، فقد كانت في طريقها إلى عائلته، فيما كان لائذًا عند أسرتها؛ كلُّ هذا هدرٌ للطاقة، فوضى جذريّة، وليس بمقدور أحد، بعد ذلك، أن يحيا وفقًا لإيقاعه الخاصّ.

في المخبز، كانوا محشورين معًا في غرفةٍ حقيرة ضيّقة، وجدت أمّه وأخاه البالغ من العمر عشر سنوات وأخته وزوجها، مهزولي الجسم، وقد تمكّن منهم الخوف. تمسّكت الأمّ بها قائلة:

- «أرجوكِ خذي ابني معك، أخرجيه من هنا!».

- «سنأتي ونأخذكم في أقرب وقتٍ ممكن»، حاولت لوته طمأنتها، «لكن ينبغي تنظيم كلّ شيءٍ على نحوٍ صحيح».

- «ولدي الصغير، حبيب قلبي، خذيه معك...»، ناشدتها الأمّ.

كان الصبيّ يقف جانبًا، وكرّاسةٌ في يده. بدا كأنّه يحاول النأي عنها بوعيٍ، تحت وطأة العار الذكوريّ من توسّلات والدته. كانت هيئته اليهوديّة واضحةً إلى درجةٍ تمنعه من السفر في القطار.

- «تمارين حساب؟»، سألته لتزجية الوقت.

- «أكتب قصّةً عن أناس نجوا من غرق سفينة ليجدوا أنفسهم على شاطئ جزيرة في المحيط الهادئ».

- «وماذا بعد؟»، شجّعته، فيما كانت تُسائل نفسَها بلا هوادة عمّا ينبغي لها أن تفعل.

لم تكن مستعدّةً لمواجهة معضلةٍ على غرار هذه؛ فهي مجرَّد بيدقٍ جُوزِف به لاستطلاع الأمور. كما أنّ زمام القرار ليس بيدها حتّى تستطيع اتخاذه.

- «ظنّوا أنَّ الجزيرة غير مأهولة وأنَّ بوسعهم أن يعيشوا عليها بأمانٍ، لكن أكلة لحوم البشر طاردوهم مسلّحين بالرماح و...».

- «إليك هذا»، انتزعت الأمّ خاتمًا ألماسيًّا من إصبعها.

هزّت لوته رأسها، وأحسّت بثقلٍ لا يُحتمل يضغط على صُدغيها.

- «المسألة لا تتعلّق بالمال... سيسوقه الألمان عن متن القطار، وسيكون هذا تصرُّفًا متهوّرًا، لكنّنا سنأتي لاصطحابكم... سنأتي لاصطحابكم في أقرب وقتٍ ممكن...».

في ذلك المساء، جرى التواصل مع صاحب محلّ الغسيل عبر الحلّاق.

ليس بوسعه تهريب أكثر من ثلاثة أشخاص عند نهاية الأسبوع. ولأنَّ السيّدة ماير هي الأقلّ يهوديّة من حيث المظهر، قرّرت والدة لوته إحضارها عبر القطار في اليوم التالي. أخذت معها قبّعةً عريضة الحواف. سافرتا معًا مثل صديقتَين لا تنقطع الدردشة بينهما. كان ظلُّ القبّعة يخفي وجهها المغضّن بتشنّجاتٍ لا إراديّة نشأت بسبب اضطرارها لمفارقة أولادها بضعة أيّام. جاء صاحب محلّ الغسيل في الوقت المحدّد؛ وكذلك كان القدر في موعده: فقد سبقه الألمان، وألقوا القبض على الثلاثة في الليلة السابقة.

«ولدي الصغير، حبيب قلبي، خذيه معك...». كان لزامًا على لوته أن تواري يأسها؛ شعرت بأنَّ محكمةً غير مرئيّة قد حكمت عليها. لو كانت تعلم أنّهم سيختطفون الطفل، لخاطرت باصطحابه معها عبر القطار بكلّ تأكيد. ولو قُبض عليه حينها، لكانت غارقةً في جريرة الذنب، ولكن على نحوٍ أقلّ ممّا هي عليه الآن: حيث لم تخضع للمحاكمة حتّى. كان هذا التفكيرُ مبرِّحًا، عقيمًا، ينوس في عقلها ذهابًا وإيابًا، مثل بكرة الشيطان المتأرجحة بين ذنب من جهةٍ وذنبٍ آخر في الجهة الأخرى. إنها تواجه قسوةً حاذقة للوجود، لم تترك لها أيّة إمكانية للاختيار. لم تكن مستعدّة لأن تنحو الحياة هذا المنحى من الجديّة. وما زاد الطين بلّة أنَّ أحدًا لم يفكّر في إلقاء اللوم عليها، حيث بدت كأنّها تكافح لحل مشكلةٍ ذاتيّة ومُترفة إذا ما قورنت بحزن روبن ماير المسوَّغ ووحدته المشروعة. تقرّرَ حجب الحقيقة عن الأمّ: فما الذي بوسعهم فعله لأمٍّ يهوديَّة فقدت رشدها؟ أخبروها بأنَّ أولادها نُقلوا إلى عنوانٍ آخر ذلك المساء. وفي كلّ يوم كانت تشتكي:

- «ولكن أليس بإمكانهم أن يبعثوا إلينا أيّة رسالة؟».

- «ما زال هذا الأمر خطيرًا للغاية»، حاول ابنها أن يسكّن روعها بقلبٍ كسير، «كانوا يعترضون البريد أيضًا. لا ينبغي لأحد أن يعرف مكانهم».

كان يتجوّل في المنزل، كتفاه متدلّيتان؛ مُنهكٌ من الكذب اليوميّ على أمّه.

جاء والد دافيد يحملُ صندوقًا في أحد الأيّام. مع أنّه لم يتلق أخبارًا جديدة عن ابنه، لكنه استعاد شيئًا من هدوئه السابق الذي يميّز جوَّ أغانيه.

- «كنّا عازمين على التواري من جديد. لكن بحوزتي بعض الأغراض الصغيرة... بعض الحليّ...». قرع على الصندوق. «سنأسف كلّ الأسف إذا فقدناها. هل تمانعون أن ندفن الصندوق في حديقتكم أو في الغابة؟».

- «لا بأس في ذلك، ولكن ليس في الحديقة، لأنَّ كلَّ شبرٍ فيها قيد الاستخدام حاليًّا»، قال والد لوته بلا مبالاة.

كان يشير إلى شتلات التبغ التي زرعها، والتي كان سيضّحي من أجلها بجزءٍ كبير من حديقة المزروعات لولا ممانعة زوجته. متكئةً على الشرفة، شاهدت الرجلَين يسيران نحو الغابة مصطحبين المجرفة؛ شعرت بعدم الارتياح حيال ذلك، لكنّها لم تعرف السبب.

*

- «ما زلتِ غاضبةً إلى اليوم»، قالت آنا وهي تراقب لوته عن كثب، «لقد راكمتِ غضبك منذ ما يقارب الخمسين عامًا. أخرجيه! أنا الشخص المناسب، أكرّس لكِ نفسي، لقد مررتُ بحرائق أشدّ ضراوةً في حياتي. لديك كلّ الأسباب كي تغضبي!».

- «لكنّي لستُ غاضبةً على الإطلاق!»، شدّت لوته بقبضتيها على الطاولة. ثمّ بسطت أصابعها على عجلٍ. «إنّي أخبركِ بما حدث ليس إلّا».

- «لماذا تنكرين غضبك؟ كنت تصبّين هذا الغضب عليّ منذ أيّام وحتّى الآن، *هذا واضح*. إنّي أكرّس لكِ نفسي. هيّا، ألقي اللوم عليّ!». اتّكأت آنا إلى الخلف، بارتياح.

- «هذا ما لم أتوقّف عن فعله، لكنّك لم تفوّتي أيّة فرصةٍ للتصدي والدفاع عن نفسك»، تنهّدت لوته.

- «لن أفعل ذلك بعد الآن، تفضّلي. فرّغي كلّ ما في قلبك أوّلًا...».

نظرت إليها لوته نظرة تشكُّك. هل كانتا بصدد الانغماس في العلاج النفسيّ، في هذا المقهى، في جوّ هذه المدينة الكبيرة، وسط ربّات المنازل ورجال الأعمال الذين يحتسون قهوتهم بمنتهى السكينة.

- «سأساعدكِ قليلًا. دعينا نطلب فنجانًا آخر من القهوة، وسأخبرك بشيء ما زلتُ أشعر بالخجل الشديد حياله إلى يومنا هذا»، قالت آنا.

*

كانت رسائل مارتين تصلُ قادمةً من مناطق أعمق فأعمق في الجنوب. توقّف هذا التقدُّم قبل بلوغ القوقاز، حيث أُصيب بعدوى معويّة خطيرة؛ تلقّت آنا رسائل كتبها رفاقه. لم تسمح لمحاولاتهم السافرة في إخفاء خطورة حالته وراء النكات والطرائف بخداعها؛ دفعها القلق إلى إغراق نفسها في العمل بهوسٍ. ذات يوم، عاد خطُّه إلى ظرف الرسائل من جديد. تجاوز أزمته الصحيّة باتباع نظامٍ غذائيّ قائم على الحليب والطماطم؛ عبروا سهول بونتيك - قزوين باتجاه مدينة تاغانروغ. تلقّت آنا عدّة رسائل في تتابعٍ متقاربٍ: كانت أعطال الشاحنات تبطئ سرعة التقدُّم، فضلًا عن إرهاق العربات لكثرة السفر، وروسيا الكبيرة جدًّا. وصلوا إلى المدينة الواقعة على شاطئ البحر الأسود بعد تأخيرٍ دام ثمانية أيام، ومن هناك تعيّن عليهم أن يسافروا بالطائرة إلى ستالينغراد لحضور الجزء الأخير من المعركة. لم يكن أحد بانتظارهم هناك، فقد أُبلِغ عنهم كمفقودين. وهكذا، كان طاقم الشاحنات خارج الخطّة الكبرى؛ لذا صُرفت لهم إجازات رسميّة. بعد عامٍ من العرض التجريبي، حصل مارتين على إذنٍ للزواج أخيرًا.

- «آنا، آنا، تعالي، وصلتك برقيّة».

دوّى صوت السيّدة فون غارليتس عبر الأروقة. إحدى عاملات التنظيف من القرية، التي ربّت إوزةً سمينةً كي تكون جاهزة حين يُعقد ذلك الزواج المؤجّل، أسرعت على الفور إلى ذبحها لتحضير الطبق الرئيس في وليمة العرس. مُلئت حقيبة من جلد الخنزير بالمؤن، وأُودع في الأخرى فستان الزفاف والأوراق الضروريّة وباقي جِهاز العروس.

- «أنتِ بالتأكيد لا تتوقعين أن يكون جادًّا هذه المرة؟»، سخر السيّد فون غارليتس وهو يودّعها.

تحت ضوء القمر، أقلّها أوتشن، كبير الخدم، إلى المحطّة، على متن عربة يقودها آخر حصانٍ تبقّى لديهم. كان القطار المزدحم على وشك الانطلاق. تناول أوتشن الحقائب من العربة ودفعها فوق بطون الجنود النائمين على رصيف المحطة.

- «اللعنة عليكم!»، صاحوا مستنكرين.

تحرّكت آنا بينهم بحذرٍ، وأغدقت الاعتذارات في كلّ حدبٍ وصوب. وبعد جولةٍ مضنية في الممرّات المكتظّة، عثرت على مقعدٍ شاغر في مقصورة من الدرجة الأولى. هدر القطار طوال الليل مثل مجنونٍ؛ توقّفوا عند محميّة بوهيميا ومورافيا، أُذيعت الأوامر، ثمّ استأنفوا الرحلة إلى منطقة متاخمة لفيينا، لكن القطار اضطرّ إلى التوقُّف أربع ساعات ريثما ينقضي إنذار الغارة الجويّة. عند الوصول، تبيّن أنّ الحقيبة المصنوعة من جلد الخنزير ضائعة. تذكّر أحد الجنود أنَّ شخصًا بحوزته حقيبة نزل في بوهيميا، ربّما اشتمّ رائحة الإوزة. وفي خضم الضجّة الناشبة حول الشيء المفقود، لم تدرك آنا على الفور أنَّ الشخص الذي لمسها بتروٍّ لم يكن سوى مارتين برفقة والده. تراجعت خطوة. كانت آلاف الأميال تمتدُّ بينهما، ولأسابيع اقتصر وجودُه على ما جاءها مكتوبًا بخطٍّ رفاقه، لقد كان النقطةَ المركزيّةَ التي يدور حولها كلُّ ما بداخلها من مشاعر، القطبَ الجاذبَ لمخاوفها ورغباتها معًا... أمّا الآن، فكان واقفًا هناك، بدا الأمر تافهًا إلى حدٍّ ما. تبادلا التحيّة بتحفّظ؛ إذ لا يجدر البوح هنا، على مرأى

الجميع. وفي الطريق إلى منزل أبيه، على متن الترام، كانت مفتونةً برقبته الحليقة، الرقبة الضعيفة الخجلى، التي ظلّت سليمةً بالرغم من الثلوج والمرض والظروف القاسية؛ بل بالرغم من الحرب.

عُقد قرانهما في كنيسة القدّيس كارل. حاول العريس للمرة الأخيرة أن يحصل على موافقة والدته وأن يقنعها بحضور الزفاف.

- «يوم عمري!»، صرخ وهو يهزُّها بقوّة. «إنَّه يوم العمر!».

ضغطت بأطراف أصابعها على صُدغيها وأغمضت عينيها بإحكامٍ. وهكذا، تخلّى عنها إلى الأبد، تاركًا إيَّاها في ميدانها الخاصّ، حيث لا ضحية لهيمنتها الآن سوى نفسها. مذهولةً بروعة القِسم الداخليّ من الكنيسة المقبّبة وعظمته، تركت نفسها تُقاد نحو المذبح. أعمدة وألواح جداريّة وشرفات من الرخام الورديّ والبنيّ والرمليّ والأسود. وراء أحد الأعمدة، تخيّلت أنَّ حماتها مختبئة تعدُّ الثواني لاقتناص اللحظة الحاسمة للظهور وأداء تمثيليّة دراميّة تفوق بجدارةٍ مشهدَ غرفة النوم الذي افتعلته منذ عام. لكنّ اللوحات المعلّقة على السقف شتّتت انتباهها، كما فعلت الأشعة الذهبية التي انبثقت من مثلّث فوق المذبح، عليه نقوشٌ عبريّة، والملائكة تحوم من كلّ جانب، وثمّة نافذة بزجاجٍ ذهبيّ يتلألأ عبره وميضٌ برونزيّ يغمر موكب الزفاف الصغير؛ في مكانٍ ما، بين أمداء السماوات، لا بُدّ من وجود تنظيم أعلى يرسم مسارات حياتها، بين لحظةٍ وأخرى، وفق خطّةٍ سريّةٍ محدّدة بأدق التفاصيل، من أجل إضفاء معنى أعمق، لا يُعرف كنهه. نظرت جانبًا إلى العريس؛ كانت تفّاحة آدم في عنقه تعلو وتهبط، بينما راح الأرغن، المرصّع بالذهب الغزير، يعزف الترنيمة.

بعد انتهاء الحفل، تهادى الموكب على الدرج، بين الأعمدة اليونانيّة والمسلّات وملاكَين من الرخام الأبيض يشمخان بالصليب نحو السماء. تلفّتت آنا حولها من تلقاء نفسها. كان الملاك الأيمن يحدِّق في الأفق مفعمًا بالهدوء الداخليّ، أمّا الأيسر فيبدو أكثر تجهُّمًا، وهناك أفعى تلتفُّ حول صليبه. غزاها شعورٌ ظنّت أنّه تموَّتَ، لكنَّه عاد بغتةً إلى الحياة أثناء مراسم الحفل. لوته. لا تلك الغريبة التي زارتها في كولونيا، إنَّما لوته كما كانت آنذاك... كانت هناك... فهي الشخص الوحيد الذي لا ينبغي، بأيّ شكلٍ من الأشكال، أن يفوته هذا الحفل... أليس معقولًا أنها حاضرة الآن على هيئة ملاك؟ وفي هذه الحالة، ستكون ذلك الملاك الأيسر، الذي تلفُّ صليبه الأفعى... ينظران كلاهما إلى العالم بعينين رُخاميّتين، كأنهما قد فهما شيئًا عنه... عبرَ موكبُ الزفاف إلى الطرفِ الآخر المقابل للكنيسة، فيما شدّت الريحُ طرحتها؛ ولوهلةٍ، بدا لها الواقعُ الملموسُ شيئًا ضبابيًّا وغامضًا، عبر الخيوط الرقيقة لنسيج الطرحة.

انتقلا إلى شقّة جدّة مارتين الراحلة؛ ما زال شعرُ المرأة عالقًا بين أسنان المشط المرميّ على الخزانة. منزلٌ يخصُّهما وحدهما... تلفّتا نحو بعضهما، بظمأٍ لا يرتوي، تعويضًا عن آلاف الساعات التي ضاعت سدى. كانت المدينة ومحيطُها مكانًا مناسبًا لقضاء شهر العسل، باستثناء عيبٍ طفيف، في المدينة القديمة، حين صادفا مجموعة صغيرة من الأفراد، على معاطفهم أنجمٌ صفراء[1]، يهبطون بتباطؤٍ على درجات السلالم البالية

(١) الشارة التي فرضتها السلطات الألمانية في الحقبة النازية على اليهود. (المُراجِعة)

في مولكَرباستاي. تجمّد مارتين. وبدافعٍ من الورعِ الغريب، أفلت ذراع آنا، وحدّق بهم متأثّرًا، وهم يمرُّون أمامه بصمت.

صدَمها تأثُرُ مارتين، أكثرَ من الموكب الذي كان يعبّر بصمتٍ عن شيء جديدٍ، سرعان ما بات واضحًا بالنسبة لها. - «تعال، لا تنظر إليهم، أرجوك، هيّا نذهب»، ناشدته وهي تشدُّ ذراعه.

لم يكن سهلًا عليها أن تدفعه بعيدًا. طوال اليوم، بقيت مستاءة لظهور ذلك الموكب في طريقهما، كأنّه فأل شؤم.

أرادت أن تعيش، أن تحيا بكثافة، في هذه الأسابيع الثلاثة المتاحة لها؛ ما يعادلُ حياةً بأكملها.

في المساء السابق للمغادرة، حين كانت منهمكة في توضيب حقيبتها بهمّةٍ فاترة، تناهى إلى مسمعها الصوت الخافت لمارتين ووالده قادمًا من الغرفة المجاورة.

- «إليك هذه يا بني، اشتريت لك سراويل طويلة لأنّ الجو قارس هناك، خذها».

- «لا، لا داعي لذلك»، اعترض مارتين.

- «لماذا؟ لن تكون آنا بجانبك هناك، صحيح؟».

ندّت ضحكة قصيرة ساخرة.

- «الحال ليس كذلك...».

- «ما هو الحال إذًا؟».

- «أوه، يا أبي، البرد لا يُقارن بالمخاطر الأخرى التي نتعرّض لها».

- «لكن قوّات الإشارة في مأمن، فأنت لا تقاتل على الخطوط الأمامية!».

صار الصوت أقرب إلى غمغمةٍ غير مفهومة، قرّبت آنا رأسها من إطار الباب. سمعت مارتين يقول إنّ البارتيزان[1] منتشرون في كلّ مكان، لا سيّما في الأماكن التي لا تتوقّع وجودهم فيها أبدًا. كانت قوّات الإشارة مهدّدة أيضًا حين كانوا يعملون في مجموعات صغيرة خلف الخطوط المتقدّمة، ينصبون أعمدة الإشارة، يمدّون الحزم ويسحبون الأسلاك. ذات يوم، اكتشف التقنيّ الذي تسلّق إلى قمّة العمود أن كمّاشته ليست بحوزته. «انتظر»، أهاب به مارتين الذي كان يشرف على العمل، «سأذهب لإحضارها». توجّه نحو الشاحنة المستترة خلف أشجار الصنوبر. وأثناء بحثه، سمع صراخًا قصيرًا متقطعًا من بعيد، تبعه صمتٌ مفاجئ. تسلّل رجوعًا باحتراس، خلف غطاءٍ من الأشجار. وفي المكان الذي كان فيه رفاقه، قبل لحظة، مشغولين بمطارقهم وكمّاشاتهم، وجد اثنتي عشرة جثّة، بحناجر مشقوقة، ملقاة بين أنصال العشب الساكنة. اختفى الجناة بلا أثرٍ، بعد غارةٍ سريعة ومن دون جلبة، تحت السماء الزرقاء الصافية.

لم تسمع آنا ردَّ والد زوجها. انهارت على حافة السرير، بجوار الحقيبة غير الممتلئة. كانت هذه الأحداث هي الجانب المقابل لحقول عبّاد الشمس المتفتّحة، للبيانو الكبير غير المدوزن في المزرعة، لصندوق الكتب في سوق السلع المستعملة. لقد حدث الأمر على ذلك النحو،

---

(١) بارتيزان: اسم أطلق على الكثير من حركات المقاومة ضد الجيش النازي أثناء الحرب العالمية الثانية مثل البارتيزان السوفييت. (المترجم)

بين لحظةٍ وأخرى، عند جذع صنوبرةٍ خضراء، وسط العشب المزدهر. وتلك المناظر الطبيعيّة المحيطة، بكل ما فيها من شاعريّة، لم تغيّر شيئًا.

لم يعثرا على طريقةٍ للوداع. وقفا بارتباكٍ على رصيف المحطة. وكلّما تلاقت نظراتهما، تبادلا ابتساماتٍ مُطمئنة.

- «سنلتقي في وقتٍ قريب»، قال بخفّةٍ زائفة، «ملاكي الحارس لن يفارقني، حتّى عندما تصير درجة الحرارة أربعين تحت الصفر».

فكّرتْ في أن تحفرَ صورةَ وجهه في ذاكرتها، وجهه كما هو الآن. تأخذه معها إلى المنزل وتستحضره متى شاءت، مهما جرى. كان الوداع مؤلمًا؛ لا سيّما أنّهما جاهلان بفنّ الفراق؛ فلا دموع ولا كلمات تلائم الموقف، بل شعور مُشترك بالتّوق إلى التحرر من شيءٍ أكبر من أن يتحمله البشر. وعلى متن القطار المتجه شمالًا، وجدَ ذلك الحزنُ المؤجَّل اللحظةَ المناسبة كي يتفجّر.

- «زوجي...»، خاطبت، معتذرةً، المسافرةَ الجالسة بجانبها، «لقد عاد زوجي إلى روسيا».

كانت المرّة الأولى التي تشير إليه بهذا اللقب. ملأها ذلك باعتداد ممزوج بالكآبة، سرعان ما أطاح به صوتٌ دوّى في خاطرها: «أرملة، أرملة حرب».

حين عادت، كانت الحديقة المحيطة بالقصر قد اكتست بأوراق الكستناء. ساد الصقيع خلال الليل. تلألأت في الظلام آلاف النجمات؛ التي نأتْ بنفسها عن الحرب، سواء شُوهدت من براندنبورغ أو من سهول التندرا. كان مارتين هناك، وهنا، ثمّة مئات الروس ينامون

كالخنازير في الإسطبلات. وذات يوم، لاذ اثنان منهم بالفرار بالرغم من الحراسة اليقظة. في مركز المراقبة الموجود في الغابة، وهو هيكلٌ خشبيّ صغير له سلّم ومصطبة خشبيّة للجلوس، صادفا حرّاجًا مُسنًّا يتربّص لاصطياد أرنبٍ بريٍّ من أجل حفلة عيد الميلاد. قُتِل طعنًا قبل أن يتمكّن من الدفاع عن نفسه بالبندقيّة التي بحوزته. أخذ الهاربان البندقيّة والذخيرة. عُثر على جثته في اليوم نفسه وخُفِّضت حصص الطعام الهزيلة لثمانية وتسعين روسيًّا بمقدار النصف. مشّط ألفا جنديٍّ من المطار القريب الغابة المطوَّقة. كان الروسيّان قد تخفيّا تحت غطاءٍ من أوراق الأشجار؛ مرّت المجموعة الأخيرة من دون أن يُلاحظها أحد. كانوا على وشك الانتهاء من التمشيط، حين استشعر أحد الجنود، الذي كانت مسامات جلده مفتوحة على وسعها، شأنها شأن عينيه، وجود نظرات ثاقبة تخترق ظهره، فاستدار.

بحلول ذلك الوقت، كانت الأخبار قد بلغت السيّدَ فون غارليتس أيضًا. هرع إلى غرفة الصيد، وتناول سوطًا للخيل، وركض في الممرّات لاطمًا بضراوةٍ الهواءَ حوله بالسوط الجلديّ، مكيلًا الشتائم على كلّ الشعوب السلافيّة.

- «قتلا رجلًا عجوزًا، حثالة البشر، سأسلخ جلدهما، سيدفعان الثمن غاليًا!».

خرجت أنا إلى الفناء، مشمئزّةً من هذا الاستعراض الزائف للشجاعة الذكوريّة. وصل الجنود يتقدّمهم الأسيران بخطواتٍ متعثّرة. وثب السيّد فون غارليتس نحوهما مزمجرًا، بيده السوط؛ عمد ضابطان إلى كبحه وحثّه

على الهدوء. الثأر البدائيّ غير مقبول؛ عليهم الالتزام بالقواعد المطبّقة على أسرى الحرب رسميًّا. أصدر أحدهما أمرًا بإطلاق سراح الهاربَين؛ ركضا نحو الإسطبل تغزوهما الحيرة وعدم التصديق. في هذه اللحظة، أطلق عليهما النار من الخلف. سقطا بصمتٍ على الحصى. استدار الضابط نحو فون غارليتس مُعلنًا: «رُشقا بالرصاص أثناء محاولة الفرار».

تسبَّبت الحادثة باستياء الأسرى الروس. ومنذ ذلك الحين، عيّنت السيّدة فون غارليتس حرّاسًا شخصيّين لمرافقة آنا وباقي طاقم الخدم أثناء نزهاتهم في الغابة. لم تكترث آنا لهذه الحماية، فلم تكن خائفة من شيء. برأيها، الأمر برمّته عبارة عن سوء فهمٍ مروّع؛ بتبادلٍ سخيف وعبثيّ، انتهى المطاف بالروس في ألمانيا والألمان في روسيا. وبينما كان الأسرى الروس ينتظرون بإحباطٍ واستسلامٍ، خاض أبناء وطنهم، في مكانٍ ما في قلب مسقط رأسهم، معارك مريرة على خلفية من أنقاض مغطّاةٍ بالثلوج ورقاقاتِ جليدٍ متدلّيةٍ من النوافذ المتفحّمة. سقط القتلى بأعداد كبيرة في سبيل الاستحواذ على منزلٍ واحد، حظيرة واحدة، جدار واحد. بدا أنَّ مصير العالم بأسره رهنٌ بنتيجة هذه المعركة الجليديّة الدائرة في مدينةٍ تندكُّ على مهلٍ.

وصلت أخبار صمود ستالينغراد إلى الإسطبلات بسرعةٍ تفوق وصولها إلى القصر، حيث مُوِّهت الحقائق الصريحة تحت قناع التعابير الملطّفة: سنعود إلى بلادنا. أزفت لحظة الانقلاب الكبير. فقد تهيّأ القصر، الذي رُمِّم ترميمًا شاملًا، من عوارض الأسقف وحتى قاع الأقبية، لاستقبال الضيوف على أرضيّاته الخشبية الملمّعة، وبين جدرانه المطليّة

بالأبيض، في كنف الدفء الرغيد للمواقد الملتهبة على مدار الساعة: النبلاء البروسيّون القدامى كانوا أيضًا بصدد المساهمة في التاريخ. أمّا آنا، غير المبالية بالتطوُّرات الإستراتيجيّة والكارهة للآراء السياسيّة، لم تضمر سوى رغبة واحدة ملحّة: أن يخرجَ سالمًا من بين سحبِ البارود.

*

حدّقت لوته نحو الخارج، لمحت بنظرتها أحد جدران الكنيسة المبنيّة من الغرانيت.

- «خاطرنا بأرواحنا من أجل أولئك الأشخاص نفسهم الذين لم ترغبي حتّى بالنظر إليهم...»، قالت متشكّكة.

أومأت آنا برأسها.

- «كما رأيتِ. هكذا سار الأمر. لستُ أحسن ولا أسوأ من معظم أولئك الناس. أمضيت عامًا كاملًا أترقّب بقلقٍ نبأ وفاته، لكنّه عاد حيًّا وبصحةٍ جيّدة لثلاثة أسابيع. ثمّ أعدنا الكَرّة من أوّلها. كنت سأبذل كلّ ما في وسعي لاغتنام لحظات الفرح القليلة التي سنحت لنا... لكن، لو كنت قد ذهبت وحدي إلى مولكرباستاي، لنظرتُ إليهم بالتأكيد، صدقيني. ولطرحت على نفسي أسئلة مؤلمة، لكن تلك النتفة من السعادة، كانت تعني لي أكثر من أيّ شيء آخر في تلك اللحظة، هل فهمت قصدي؟».

- «دائمًا ما تجدين الأعذار لنفسك بهذا الأسلوب نفسه»، ردّت لوته بمرارة، «لكنكم جميعًا لم تضمروا ذرّة شفقةٍ على اليهود».

- «توقّفي عن ترديد كلمة «جميعكم» هذه... كانت تلك النتفة القليلة من السعادة هي كلّ ما لديّ، وأعتقد أنّه كان لي كلّ الحق في ذلك، وقد توجّب عليّ الاكتفاء بها لبقيّة حياتي».

أطلّت الشمس، أشرقَ شعاعٌ أبيض من ضوء الشتاء على يديها؛ على شبكة متغلغلة من الأوردة المزرقّة. الجلد، الأوعية الدمويّة، العضلات؛ كلّها خائرة وبائدة.

- «أظنّ أنّنا وصلنا إلى جوهر خلافنا، وقد اقتربنا من سبب غضبك...»، قالت آنا بتمعُّن.

- «هلّا اكتفيتِ من الحديث عن غضبي واعتباره شيئًا بنّاءً من شأنه أن يتحوّل في النهاية إلى تسامحٍ إذا أعربتُ عنه بما يكفي».

- «الأمر لا يتعلّق بالتسامح، فأنا لم أرتكب أيّة خطيئة»، احتدّت آنا.

- «دعينا نتوقّف عند هذا الحد»، تنهّدت لوته، مرهقةً من التنبؤ بالحتميّة التي ستجري وفقها الأمور. «الأشياء على حالها الآن. تطرّقتِ لسيرة ستالينغراد... أتذكّر جيّدًا مدى الارتياح الذي شعرنا به... النشوة... ولكن سرعان ما تعسّر الحال بعدها...».

*

لم يكن بابا ستالين ليسمحَ بأن يُنحّى جانبًا ببساطة. كان الحلفاء قد انتصروا في شمال إفريقيا وتقدّموا في إيطاليا. ولفترةٍ وجيزة، عاشوا في وهم أنَّ المسألة مسألة انتظارٍ وصمود. عاد آل فرينكل، بعد أن نجوا بشقِّ

الأنفس من غارتين وثمانية وأربعين قطًّا، بحالةٍ من الاضطراب الشديد. كانت حيوانات المنزل تقاسمهم وجبات الطعام، كشركاء حقيقيّين، حيث اعتادت السيّدتان نوتبوم أن تضعا قطعًا صغيرةً من القلوب النيئة بين أسنانهما كي تلتقفها القطط الواقفة على أرجلها الخلفيّة بكلّ رشاقة. كان إغداق العاطفة الأموميّة والتدليل المفرط كفيلًا بتحويلها إلى كائنات أنانيّة تتبرَّز في كلّ مكانٍ وتتجمّع للمواء كلّما عكف ماكس وابنه على ممارسة تمارين العزف اليوميّة.

منذ أن رفضت لوته، بوصفها عضوًا في جوقة الإذاعة، التسجيل في مجلس الثقافة النازيّ، انتهتْ مسيرتها الغنائيّة رسميًّا، وأصبحت ركنًا أساسيًّا من أركان تلك الأسرة العملاقة المكوَّنة من أربعة عشر فردًا. ازداد تعقيدُ الحياة يومًا إثر يوم، ليس من الناحية العمليّة فحسب، بل على المستوى المجرَّد أيضًا. ومنذ ذلك الحين، بات القلق حاضرًا على الدوام، كامنًا، دفينًا تحت الجلد. صمت مباغت، ضجيج غريب، أشجار تتمايل ذراها تمايلًا هائلًا، هدير آتٍ من بعيد، شائعات غامضة، تكفي شرارة تافهة لتأجيجها. كلّ ذلك كان يمكن حدوثه في أيّة لحظة، ليس ثمّة وقت مُستبعد من حيث المبدأ. ما لا يمكن لأحد تصوره، كان باستطاعتهم هم أن يتصوروه، لقد شطّوا بخيالهم إلى اللامعقول، إلى ما لا يطاق. دفع القلق آلَ ماير وفرينكل للجوء إلى الغابة، منصاعين لإنذارٍ كاذبٍ، حيث ألقوا معاطفهم الشتويّة بعجالةٍ فوق ملابس نومهم. رقدوا لساعاتٍ في خندقٍ مترع بالمياهِ، تحت طبقاتٍ من أغصان التنوّب المتدلية؛ وفي المدى دوّت أصواتٌ ونباحُ كلاب. عصرت السيّدة ماير ذيل دثارها

المبلَّل المصنوع من جلد الثعلب، فيما راح ماكس فرينكل يدلّك أصابعه لمنع الرطوبة من قرص مفاصله. أخيرًا، جهَّز ربّ المنزل مخبأً أفضل في خزانة عميقة، محفورة في جدار غرفة نومه. صغَّر باب الخزانة ليصبح مجرّد كوّة في الحائط، علَّق فوقها مرآة طويلة تخفيها، وأمكن التحكم بفتحها عبر شريط وإيصادها من الداخل عبر إغلاق المصراع. استوعب المخبأ الجميع. كانوا يغطسون عبر صورتهم في المرآة إلى داخل الكوّة؛ في شكلٍ ملتبسٍ من الوجود واللاوجود. فيما بعد، دفعت والدة لوته منضدة التزيين أمام المخبأ، بكلّ ما يعلوها من زجاجات عطر أرجوانيّة وحمراء تتلألأ على نحوٍ فاتن. ومنذ ذلك الحين، اعتادت السيّدة ماير على النوم في الخزانة فقط؛ وكان الجميع، في فراشه، يسمعُها تبكي وتصلّي على إيقاع نغمةٍ غريبة.

لم يكن سهلًا إيقاف الازدياد المستمرّ في عدد أفراد المنزل. فذات مرّة، رنّ جرس الباب. كانت لوته وحدها في البيت؛ بصرف النظر عن خمس شخصيّات غير مرئيّة وغير مسموعة تلعب الورق في الطابق العلويّ. وقف عند الباب شاب ذو شعر أحمر قصير، يده اليمنى على كتف عجوزٍ نحيلٍ يرتدي قبّعة سوداء، رفع وجهه المتجعِّد نحو لوته، كلُّه أمل.

– «أتيتُ لإحضار والد زوجة السيّد بهلول، من متجر الأسطوانات»، أعلن الشابّ.

أوضح أنَّ السيّد بهلول قد اعتُقل حين كانت زوجته وابنته في أمستردام. قابلهما شخص في المحطّة وحذّرهما من العودة إلى المنزل.

تمكّن بهلول من تهريب رسالةٍ من مركز الشرطة، مفادها أنَّ والدَ زوجته ما زال مختبئًا في العليّة ولم يُعثر عليه بعد. طلب نقل العجوز إلى أحد زبائنه الأكارم، بالأحرى صديقه، الذي لم يكن سوى والد لوته، متأكّدًا من قدرته على تدبُّر الأمر.

- «والدي ليس بالمنزل، لا يمكنني التصرُّف من تلقاء نفسي»، قالت.

ظلّت يدها ممسكة بقبضة الباب. حلَّ الصمت، تبادلوا النظرات بحرجٍ. بدا الأمر كما لو أنَّ هذا العجوز، المعتمد كليًّا على الآخرين، هو الناجي الوحيد من كارثة، فقد كان صغيرًا جدًّا وخفيفًا جدًّا بحيث لا يمكن أن يهلك مع الآخرين. فجأةً انتابها الخجلُ لتردُّدها.

- «بإمكانكم انتظاره في الداخل»، قالت وهي تفتح الباب على وسعه.

قادتهما إلى غرفة المائدة. انتظر العجوز بوداعةٍ، قبّعته على ركبتيه، حاجباه الأشيبان يتدلّيان فوق عينيه الغائرتين. تملّى رفيقُه في أنحاء الغرفة، كأنّه جالس في غرفة انتظار. وحين عاد والدها إلى المنزل، ظلّ متجهّمًا حتى ذُكر اسم بهلول؛ آه، صاحب متجر التسجيلات الذي كان بيته الثاني، يا لكثرة الجدالات المحتدمة التي خاضاها حول بعض التسجيلات! في الواقع، لقد صادف والدَ زوجته -العمّ تاك- يتجوّل في المتجر ذات مرّة. وبالطبع، كان سيبذل قصارى جهده كي يعثر على مأوى مناسب له.

- «بالمناسبة...»، استدار مخاطبًا العجوز بدهشة، «لستُ أفهم، صهرك يهوديّ إيراني، أليس كذلك؟ فقد قال لي آخر مرة إنّه

لا يخشى من شيء؛ لأن ألمانيا ليست في حرب مع إيران، وإنّه يتحرّك بلا قيود».

- «أرجوك لا تسألني»، تنهّد الآخر، «بعد عام ١٩١٤، لم يعد أيّ شخص عاديّ يفهم شيئًا في هذا العالم... لم يعد رأسي يستوعب شيئًا منذ ذلك الحين...».

- «ربّما بسبب هذه القبّعة»، قاطعه رفيقه ساخرًا، وهو يشير إلى القبّعة السوداء في حجره، التي بدت فجأة كأداة للجريمة التي تسبّبت في ضياع العالم القديم.

حُوِّلت حجرة السلّ إلى مأوى مؤقّت. ولأنَّ فترة إقامته محدودة، لم يخبروا العمّ تاك أنَّه ليس المُختبئ الوحيد في ذلك المنزل. حين أشرقت الشمس، جلس حالمًا على كرسيّ متهالك قابل للطيّ، والغليون الكهرمانيّ مرتكز على زاوية فمه. أحضرت لوته الطعام له. أخبرها عن العمل بصياغة الألماس، في الماضي، عندما كان العالم جديرًا بالحياة. شعرُه الأشيب الذي غزلت فيه الشمس هالةً من الأزمنة السعيدة، إحباطُه، بشرتُه الشفّافة؛ شعرت بأنّه قام للتوّ من موته كي يلقي نظرةً ذاهلة على فوضى العالم، كلُّه يقين مطمئن بأنّه قادر على الرجوع إلى هناك متى شاء.

لم يُعثر على مأوى آخر له؛ فقد لجأت فئات جديدة من الناس للاختباء؛ طلاب، وجنود مهدَّدون بالأسر، ورجال أرادوا الفكاك من السُّخْرة في المعامل الألمانيّة. انضمّ ثيو دِ زوان إلى جماعة المختبئين؛ تلاه بفترةٍ وجيزة إرنست غودريان الذي خاض محاولات بطوليّة لمواراة خوفه، ما أثار تعاطف والدة لوته. أقام الأخير مع العمّ تاك، حيث جهّز

توسّعًا أنيقًا مُلحقًا بالحجرة التي تئنُّ في مهبّ الريح، انكبّ داخلَه على صناعة الكمنجات، فيما تمتدُّ أمام ناظريه شتلات التبغ المزهرة. كان لزامًا على كون التواري أيضًا، لأنّه بلغ سنّ الخدمة العسكريّة. لم يتأقلم مزاجه مع فكرة الانتظار الهادئ في المنزل ريثما تنتهي الحرب. انسلَّ إلى الطريق خارج المنزل، فأُلقي القبض عليه وسِيق إلى آمرسفورت. في نهاية رتلٍ من زملائه الضحايا الذين اعتُقلوا عشوائيًّا، من الشوارع، كان يسير وسط البلدة القديمة التي اكتنفها الغسق، نحو المصير المجهول. كان الطريق ضيّقًا؛ وفي غفلةٍ عن الأعين، قفز جانبًا نحو رواق أحد المنازل، دافعًا ظهرَه إلى الباب، راح يطرق عليه ببراجمه.

- «افتحوا الباب... افتحوا الباب...»، توسّل.

- «هل أنت كاثوليكيّ؟»، جاءه السؤال من الجانب الآخر للباب.

- «لا»، تأوّه كون.

- «امضِ في طريقك إذًا»، كان الردّ.

انتهى بهم المطاف في ثكنة بالقرب من مدينة أسن، يعجُّ فيها القمل. مشمئزًا من هذه الحشرات الزاحفة التي لا حصر لها، لم يستطع النوم. انسلّ إلى الخارج وغفا بهدوءٍ جالسًا، ظهره إلى الجدار. وعند بزوغ الفجر، أيقظته شاحنة بريدٍ صغيرة تعمل على الوقود الخشبيّ أثناء دخولها عبر بوّابة الثكنة. ترجّل ساعي البرد وأفرغ صندوق الرسائل ببطءٍ، ثم استدار وعاد، مطلقًا الدخان الكثيف من فوّهة الشاحنة. في اليوم التالي، فتح كون الباب الخلفي واندسّ بين أكياس البريد، في اللحظة التي ركب فيها الساعي خلف عجلة القيادة. كشف عن نفسه حين وصلت الشاحنة فوق المعبر على نهر آيسل.

امتقع وجه ساعي البريد. وبالرغم من إعجابه بموهبة الارتجال لدى كون، لم يرغب أن يجتاز نهر آيسل ومعه هذا الطرد البريديّ غير المعتاد.

- «أيّها الفتى، ليس بوسعي فعل ذلك على الإطلاق. الأمر خطيرٌ للغاية»، تذمّر.

- «خبّئني تحت كومة الحطب»، اقترح عليه كون.

ما كان منه إلا الاستسلام أمام هذه الحنكة.

- «إنّني مجنون خالص!»، دمدم وهو يغطّي الراكب الخفيّ بجذوع أشجار الفاكهة المنشورة.

عاد كون إلى المنزل تغمرُه ثقةٌ بالنفس لا تشوبها شائبة. غمرته أمّه بين ذراعيها بعد ليلتين من الأرق، وهي ترتجف من التعب والانشراح في آنٍ. حاول التحرّر من حضنها لإجراء تفتيشٍ مفاجئٍ للملابس، خوفًا من أن يكون، هو أيضًا، قد اصطحب معه مرافقًا خفيًّا من الثكنات.

بينما مدَّ العمّ تاك جذورًا له بين أشجار التفّاح وشتلات التبغ، حالمًا بزوجته الميتة، تحت صورتها المثبّتة على الجدار بمسمارٍ صدئ، كانت ابنته وحفيدته هائمتين بغير هدى. بعد رحلةٍ طويلة من ملجأ إلى آخر، انضمّت الأخيرة إلى خطيبها الذي كان مختبئًا في مكانٍ ما في بيمستر، أمّا الأولى فجاءت في إحدى الأمسيات الصيفيّة مرتدية ثوبًا ذا تفصيلة مثيرة، من أجل زيارة أبيها. اشتمّت والدةُ لوته رائحة المتاعب على الفور، لكنّ زوجها امتثل منذ النظرة الأولى. بعد سلسلة من مناورات الإغواء السافرة، تجلّى أقواها بمطّ شفتيها المضمّختين بالحُمرة إلى الأمام، لبّى طلب السيّدة بهلول بالبقاء. حصلت على سرير في غرفة لوته وجيت. ومنذ ذلك الحين، نامت

الفتاتان وسط جوٍّ مُشبعٍ بدخان السجائر وروائح العطور الغريبة. كانت الفساتين الجريئة، الكثيرة والمختلفة، تُلقى على الأسرّة والكراسي، إلى جانب القلائد، الكثيرة والمختلفة، التي أُخرجت من صندوق مجوهرات مُرصَّع باللآلئ. كانت من صنف النساء اللواتي تتداعى أرواحهنّ إذا لم يحظين بالاهتمام الكافي؛ تعتاش على الإعجاب وتزدهر به، الأمر الذي أثار سخط الجميع، فقد اضطروا لمنحها ما تريد حفاظًا على السلام والهدوء. لم يستطع أيّ نشاطٍ ترفيهيّ أن يشغلها لمدّةٍ تزيد عن خمس دقائق. كانت تذرع المكان بخطى سريعة، مثل نمرٍ في قفص؛ وتنغّص بطقطقة كعب حذائها الآخرين أثناء القراءة ولعب الورق وحلّ الكلمات المتقاطعة. كان عصيًّا على العقل التسليمُ بأنّها ابنة ذلك العجوز في البستان، المستغرق في التأمُّل، مُدخّنًا غليونه بمنتهى الهدوء، والذي زرع شريطًا ضيّقًا من نبات الرّشاد على امتداد الشرفة المتداعية.

عند المساء، بعد إسدال الستائر المجدولة من شعر الخيل، تجمّعوا في الطابق السفليّ لتناول طعام العشاء على مائدتين طويلتين. بذلت والدة لوته قصارى جهدها، بالرغم من الموارد المحدودة، لتحضير أطباق موافقة للشريعة اليهوديّة. بعد ذلك، كان ماكس فرينكل يعزف أحيانًا مقطوعةً ساحرةً لباغانيني؛ ليردّ ابنه بأغنيةٍ غجريّة تذيبُ الأفئدة. غنّت فلورا بهلول أغنيةً أمريكيّة رائجة، صارخة جدًّا كأغاني الجاز. وفي النهاية، توجّهت كل الأنظار، كما جرت العادة، نحو لوته لكنّها عضت شفتها وهزّت رأسها. وللتعويض، ألقت السيدة ماير قصيدة؛ آثرت اختيار مرثيّة من الشعر اليامبيّ عن أمٍّ أُرغمت على بيع كلّ ما تملك كي تسدّ رمق أولادها. لم يتبقّ أمامها سوى رهن دمية ابنتها الصغرى،

بالرغم من تعلّق الطفلة بها ليلَ نهار. أحبَّ الصغار هذه الحكاية المأساويّة بجنون، أمَّا الكبار فكانوا يرجون ألّا تتحوّل إلى نبوءة.

استمعوا إلى برنامج «راديو أورانج» على إذاعة بي بي سي. ومنذ مايو، بعد أن جرى تسليم كلّ أجهزة الراديو، تدبّروا أمرهم بجهاز الاستقبال الذي ابتدعه والد لوته، فقد تمتّع بقدرةٍ حادة على استقبال الإشارات بالرغم من افتقاره للهيكل الخارجي. عندما بُثّ خطاب الملكة في لندن، استطاعوا سماعَ كلّ نفسٍ تأخذه. كانوا في تعطّشٍ لا يُروى للحصول على أخبارٍ موثوقة. تداولوا الصحف والنشرات السريّة من يد إلى يد، وبين حينٍ وآخر كان يقرأ أحدهم مقتطفًا من مقال على مسامع البقيّة.

- «ما هذا بحقّ الجحيم... اسمعوا»، صرخ كون مدهوشًا.

من دون تفكيرٍ، قرأ مقطعًا من صحيفة «هيت بارول» يأتي على ذكر غُرف الغاز التي اقتيد إليها «الخصوم الأسرى» عُراةً، معتقدين أنّها حمّامات، كي يُطلق عليهم الغاز. وقد زادت السعة الاستيعابية لهذه الغرف مؤخرًا من مئتين إلى ألف. أجهشت السيدة ماير في بكاءٍ يائسٍ؛ انحنى روبن نحوها وضمّ يديها بشدّة في محاولةٍ خرقاء لمواساتها. ألقت والدةُ لوته نظرةً فتّاكة على كون الذي أدرك شيئًا فشيئًا جريرةَ ما ارتكب. سرعان ما عمدوا إلى التقليل من شأن هذه الأخبار؛ فهي مجرّد قصص تتقصّد الإثارة لفّقها الخيال الواسع لأحد الصحفيّين المتحمّسين. رمى برام فرينكل منديله على الطاولة وسار نحو الباب، رأسه متدلٍ فوق كتفيه. يده على المقبض، استدار وخاطب كون مكشّرًا:

- «ربّما ترغبون بأن تكونوا الشعب المختار في الألفي عام القادمة!».

٦

ازداد تدريجيًّا الشعورُ بالآثار المفيدة للعلاج بالخثّ وحمّامات ثنائي أكسيد الكربون وجلسات التدليك تحت الماء. خلال الأسبوع الأوّل من الاستشفاء، عانى النزلاء إرهاقًا غامضًا مصحوبًا بالاكتئاب الناجم عن تلاشي الترسّبات المؤلمة في المفاصل وانطلاق السموم المختزنة في الأنسجة الدهنيّة. بالإضافة إلى كلّ هذا، كان على الشقيقتين مواجهة السموم التي تطايرت من المحادثات بينهما، فضلًا عن العقبات الماثلة في علاقتهما، في ذكرياتهما، التي خضعت لاختبارٍ شديد. عادةً ما يُشعر بتغيّر الحال في منتصف مسيرة العلاج. ولأنَّ الألم الممضّ مع كلّ حركةٍ تلاشى، استعاد المرضى حيويّتهم، وتدفّق الدم في عروقهم بسلاسة، وتنفّسوا بعمقٍ وراحة. لاحظت آنا ولوته، بدورهما، التأثير المفيد للعلاج على جسديهما. انتعشت الأجسام لكنّ الأرواح لم تواكب ذلك. لقد خضعت روحاهما لنوعٍ مختلف من العلاج، بيد أنَّ جدواه الشفائيّة لم تكن مؤكدة على الإطلاق. خرجتا من المنتجع الحراريّ بعد صباحٍ من الحمّام المكثّف؛ وقبل الشروع في هبوط الدرجات المحفوفة بالمخاطر، نظرتا إلى السماء، كانت زرقاء صافية تمتدّ فوق القبّة الخضراء لفندق «أور

كلير». ذاب الثلجُ الهاطل في وقتٍ سابق وصار طينًا رماديًّا. منذ عام ١٨٦٤، حين افتُتح المنتجع، كان مدخل المبنى محروسًا بتمثالين حجريّين لشخصيّتين أنثويتين؛ إحداهما تحملُ صولجانًا في يدها وثمّة سمكة بين قدميها، أمّا الأخرى فتحمل قيثارة صغيرة وثمّة جرّة تتدلّى عند قدميها، ينسكبُ منها الماء. ما لبثت كلٌّ منهما أن قفزت عن قاعدتها، وتهادت برشاقة على الدرجات، وعبرت الشارع نحو «پلاس رويال». توقّفتا مذهولتين أمام كشك مربّع مبنيّ على طراز نهاية القرن. رفعت إحداهما صولجانها وأشارت به إلى نقش محفور على جدار من جدران الكشك، يقول:

حين تحلُّ الظهيرة في مدينة سپا تكون الساعة:

١٣ في برلين وروما وكينشاسا

١٤ في موسكو وأنقرة ولوبومباشي

١٥ في بغداد

١٩ في سنغافورة

٧ في نيويورك

عزفت الأخرى قليلًا على قيثارتها، وغنّت بصوتٍ أجشّ: «... أعجوبة التزامن، حين يتغدّى أحدهم في روما، يتعشّى آخر في سنغافورة... فيما تمطرُ القنابل على برلين، يُحضّر الفطورُ في نيويورك...». طفت كلماتها مثل فقاعات الصابون وانجرفت فوق «پلاس رويال». انبثق ماء الينابيع من الجرّة الحجريّة، أم تراه الثلج الذائب؟ فقد تدفّق في شارع رو رويال وشارع الملكة أستريد. شابكت آنا ولوته ذراعيهما، وعبرتا الشارع

الموحل، حيث تسرّب البلل إلى أحذيتهما. مرّتا أمام مطعمٍ متواضع، وقرّرتا الدخول؛ حين يفطرُ أحدهم في نيويورك، يتغدّى آخرٌ في سپا.

*

استُدعيت وحدةُ مارتين العسكريّة من روسيا لبناء دفاعاتٍ جويّة حول برلين. منذ ذلك الحين، اعتاد أن يقضي عطلات نهاية الأسبوع مع آنا. أخيرًا بدأت حياتهما الزوجيّة تشقُّ طريقها نحو الاستقرار. ترقّبت آنا بفارغ الصبر أولى علامات الحمل. وفي أوائل الربيع، خضعت لعمليّة جراحيّة؛ بقي عليهم الآن أن يروا إن كان إصلاح الضرر الذي كابدته في طفولتها، من جرّ عربات الرَّوث وإعلاف الخنازير قد نجح. بدا لها أن إنجابَ طفلٍ هو الشيء الوحيد، الشيء الأهم الذي كانت تفتقده حتى الآن. فبولادة ذلك الطفل، كانت ستُولَد من جديد بدورها؛ وستمحو طفولةُ هذا المولود كلّ الذكريات الأليمة لطفولتها. لن يعوز طفلَها شيءٌ. سيملأ هذا الطفل الفراغ الذي خلّفته شقيقتها النائية. سيصالحها مع كلِّ خيبات حياتها.

في الغابة بحيرة كبيرة. على ضفّتها، قوارب بألوان الڤايكنغ الزاهية، يمكن التجديفُ بها وصولًا إلى جزيرة بيضاويّة. مستترًا هناك، خلف أشجار الصفصاف والبَتُولا الرماديّة، ثمّة كوخ خشبيّ بسقفٍ مجملن، يتبع للقصر منذ قرون، شأنه شأن البحيرة والغابة. أعطت السيّدة فون غارليتس مفتاحه لآنا. حين تشرقُ الشمس، كانت تتنزّه نحو البحيرة برفقة مارتين. كانا يربطان القواربَ معًا، ويجدّفان باتجاه الجزيرة جارّين معها الأسطولَ بكامله، حتّى يُفلتا من إزعاجِ الزيارات غير المتوقّعة.

كانا يسبحان، يستلقيان تحت الشمس بين العشب الطويل، ينامان في الكوخ الذي يفوحُ برائحة الخشبِ الذي حمّصته الشمس، وفي الليل، يستمعان إلى تأوّه أشباح المستنقعِ التي، في الليالي العاصفة، تتصاعد بين الألواح الخشبية. بدت الحرب قصيّة وزائفة. حلّ حفيف الريح، ونقيق الضفادع وثرثرة البطّ، محلَّ إنذارات الغارات الجويّة وجعجعة مذياع الشعب. في كلِّ مرةٍ أنصتت فيها إلى إيقاع تنفُّسه، في قلب الليل، فكّرت بالمعجزة المتمثّلة في رقادها بجانبه. يد خفيّة أنقذته في روسيا ثلاث مرّات، حوّطته بالحماية من القتلة المتسلّلين، من التجمّد، من الأمراض المميتة، كي يبقى من أجلها. رأت في وجودهما معًا، في هذا الزمان والمكان، على هذه الجزيرة، صورةً من صور القدسيّة، تجليًّا لاصطفاء القدر. شاهدت من خلال النافذة صورة القمر المنعكسة على سطح الماء، خلف أغصان الصفصاف المتمايلة؛ طفتْ الجزيرة فوق البحيرة، وتوقف الزمن. بعد ظهر أيّام الآحاد، يرجع الأسطول في الاتجاه المعاكس. كان طريق عودتهما مشيًا عبر الغابة، آخرَ شيءٍ تشاركاه معًا، قبل افتراق السبل بينهما: التحق مارتين بثكنته، وعادت آنا إلى حياتها القديمة عبر البوّابة.

وصلت خمس طالباتٍ، بتعيينٍ من الدولة، إلى القصر كي يخضعن لتدريب في التدبير المنزليّ. أُوكلت المهمّة إلى آنا. فقد غدت ثقةُ السيّدة فون غارليتس بآنا مطلقة بعد التحوُّل الذي طرأ على القصر منذ تولّت إدارة شؤونه. ومن جديد، أضمرن جميعًا الإعجاب لمارتين؛ فكلّما أمضى عطلته في القصر، كنّ يرتدين أجمل المآزر. اتّضح الأمر لآنا بعد أن لاحظت تزامن تأنُّقهنّ مع موعد زياراته.

- «هذه المآزر تُرتدى أثناء الخدمة فحسب، ليس لدينا ما يكفي من مساحيق الصابون لغسلها بين كلِّ حين وآخر»، تذمّرت آنا.

قرقرن بضحكاتٍ مكتومةٍ وهنّ يخلعن المآزر، وقد اتضح لهنّ على الفور، بغريزتهنّ الأنثويّة، سبب غضب آنا. وذات يوم، شاهدت آنا من نافذة المطبخ مارتين وهو يقدّم هدية لإحدى الفتيات قبيل مغادرته. بعد أن لوّح مارتين مودّعًا، استجوبت الفتاة.

- «ما هذا؟ ما هذا الشيء الذي حصلت عليه من زوجي؟».

رمقتها الفتاة بنظرة ذنبٍ خاطفة.

- «ما هو؟ قولي لي!»، حثّتها آنا وهي تمسكها من كتفها.

- «لا يمكنني ذلك».

- «أخبريني... هيّا!».

- «إنّها.. هدية... لك، لعيد الميلاد...».

- «في هذا الوقت؟ في أغسطس؟».

أومأت برأسها.

- «في حال تغيّر مكان زوجك في تلك الفترة، وتعذّر عليه المجيء..».

نظرت إليها آنا مذهولة. استشّفت في عينيها مزيجًا من السخط والازدراء لإرغامها على إفشاء السرّ، والتشكيك بها. هربت الفتاة مستاءة، وظلّت آنا حيث هي، بهيمنتها، يتناهشها الخزيُ والعاطفة التي أجّجها ذلك الخزي: أنَّ مارتين، في قلب الصيف، كان يفكِّر في طريقة يشرحُ بها صدرَها بعد ستّة أشهر من ذلك الحين، في عيد الميلاد.

احتدمت وتيرة النشاط في القصر. استقبلت الغرفُ التي أُعيد تجديدها الضيوف بلا انقطاع؛ قضى ضبّاط رفيعو المستوى الليل هناك لأخذ قسطٍ من الراحة بين مهمّةٍ وأخرى. بعد العشاء، كانوا يتوجّهون إلى المكتبة، فيما تبقى السيّدات في الصالة، في ضيافة السيّدة فون غارليتس التي ظلّت بمنتهى الأناقة والودّ والظرافة، كما لو أنَّ الحرب ونزوات زوجها لم تؤثِّر عليها. ذاعت في الأروقة شائعات بأنَّ الرجل على علاقةٍ غراميّة مع بيترا فون ڤيلرسليبن، ابنة صناعيّ رُقِّي في الجيش بسرعة البرق. منذ إصابته بخلعٍ في الركبة أثناء الحملة البولندية، تولّى فون غارليتس وظيفة غامضة في هيئة الأركان العامّة، ومن أجلها كان عليه السفر بانتظامٍ إلى بروكسل. وجدت آنا صعوبةً في تخيّل أنَّ وظيفةً مهمّة في قيادة الجيش يُمكن أن تُعهد إلى واحد من وجوه المجتمع، اعتاد أن يدير مصنعه في كولونيا وهو يمزغُ جيئةً وذهابًا مثل خيّال من الهوصار[1]؛ ذلك الخنفشاريّ الذي لا يفقه شيئًا في الواقع، ولا يصلح لفعل أيّ شيء، سوى محاولة التظاهر بأنّه رجلٌ عظيم. على نحوٍ غامض، بدا أنّه نجح في الحصول على دعمٍ من شخصيات نافذة. عبر النَّسب والمال، لا بالعمل والاجتهاد، يمكنك بلوغ الأهداف في هذا العالم، غمغمت آنا بينها وبين نفسها.

بلغ التهوُّرُ بفون غارليتس مبلغًا جعله يدعو عشيقته رسميًّا إلى العشاء في القصر. تسلّلت إلى منزله تحت غطاءٍ من نفوذ أبيها؛ ارتدت

(١) الهوصار: قوات عسكرية من سلاح الفرسان، نشأت في أوروبا الوسطى خلال القرن الخامس عشر والسادس عشر، لا سيما في المجر. (المترجم)

ثوبًا مثيرًا لإيقاع الرهبة في قلب زوجته. تولّت آنا خدمة المائدة بمساعدة المتدرِّبات. من بين الضيوف، لم تكن تعرف سوى السيّدة كيتلر، عمّة السيّد فون غارليتس، التي تقطن في مكانٍ قريب وتزورهم على الدوام. امرأة يستعصي تخمين سنّها، لم تتزوّج قط، عاشت مع طاقمٍ صغيرٍ من الخدم في ڤيلا محجوبة عن الأعين بأشجار الصنوبر السامقة. قالت عاملات التنظيف إنَّها، قبل اندلاع الحرب، كانت تدير إسطبلًا مكتظًّا بخيول السباق الأصيلة، وكانت إحدى وسائل تسليتها الأثيرة تتمثّل في ذرع الغابة على صهوة جواد أدهم وبندقيّة الصيد معلّقة على ظهرها بحزامٍ جلديّ. وبعد مصادرة الخيول، راحت تستمتع بالمشي لمسافاتٍ طويلةٍ بصحبة كلبها، وهو كلبٌ قويّ من كلاب حراسة الماشية، لا يطيع غيرها. لقد صبّت كلَّ غريزتها الأموميّة الكاسدة على ابن أخيها منذ مولده؛ كانت مغرمة به، متغاضية عن نقائصه، وحاولت بلا هوادة أن تكون بمثابة أمّه، في الظلّ.

بينما كانت آنا تتحرك جيئةً وذهابًا حاملةً الأطباق والكؤوس، حاولت متابعة كلّ ما يحدث على المائدة بأكبر قدرٍ من الانتباه. بصفته المُضيف، انخرط السيّد فون غارليتس بحديثٍ طافحٍ بالمجاملات مع الآنسة فون ڤيلرسليبن. تطرّق الحديث إلى الرسم: اللوحات العارية لأدولف زيغلر وإيڤو زاليغر. تبيّن أنّها درست تاريخ الفنّ في برلين، متظاهرًا بالدهشة والاستغراب، انهال عليها بالأسئلة كي يوهم زوجته، على الجانب الآخر من الطاولة، بأنّه لا يعرف شيئًا عن ضيفته. تظاهرت السيّدة فون غارليتس بتصديق ذلك، ما أثار حماسة الثنائيّ حتّى شعرا

كأنَّهما عاشقان يمارسان الحبّ على مرأى من عيني الزوجة. استمرّت الكونتيسة، التي كانت تعرف الكذبة، شأنها شأن كلّ شخصٍ آخر، في مراقبة المشهد بهدوءٍ لفترة، وفجأةً، ضاقت ذرعًا بدور الزوجة الساذجة المخدوعة، المتفرِّجة، الذي فرضه حضور الضيوف على العشاء. نهضت واقفةً برباطة جأشٍ، رفعت كأس النبيذ الأحمر الذي كانت آنا قد ملأته للتوّ، وكما لو أنَّها تزمع إلقاء خطاب، عمدت إلى رشق محتوى الكأس على وجه زوجها. وثبت الآنسة فون ڤيلرسليبن بعد أن ندّت عنها صرخاتٌ حادّة، خوفًا من تلوّث فستانها بالنبيذ. في تلك اللحظة، اندفعت السيّدة كيتلر من الجانب الآخر للطاولة كي تمسح البلل عن وجه ابن أخيها بمنديلها، متلهِّفة لمحو أيّ أثر للعار بكلّ السرعة الممكنة. تنهّدت آنا. السخطُ الذي ثار بداخلها لأنَّ فون غارليتس لم يكتفِ بخيانة زوجته، بل أراد أيضًا التلذُّذ باستفزازها وإهانتها، سرعان ما تخامد. هازئةً بالمساعدة المُضحكة التي قدَّمتها العمّة، انسلّت آنا خارج غرفة المائدة، بيدها صحنٌ فارغ.

في المساء نفسه، أمرت السيّدة فون غارليتس بأخذها بعربة الحصان إلى المحطة. اختفت من دون وداعٍ، وتركت الحفل في حالة ذهول. تلقَّى فون غارليتس توبيخًا مضمرًا. كان ينبغي له أن يستدعي زوجته لطاعته، فهي المضيفة وأمّ أولاده، ورجلٌ بمستواه، بمنصبه الرفيع، بمحتده، لا بُدّ أن يكون قادرًا على تأديب زوجته. وفي النهاية، هم ليسوا بغجر أو سلافيّين لا يستطيعون التحكُّم بعواطفهم. نال منه السقم بعد أيّامٍ قليلة. أهو كبرياؤه الجريح، أم الندم، أم العار؟ في الليل، قاسى نوباتٍ

من الحمّى الشديدة؛ اضطجع بين الملاءات المُبلَّلة، يتصبَّب عرقًا، يهرفُ هاذيًا. جلست آنا بجانب سريره، واغتنمت بأقصى ما تستطيع الفرصةَ لتولّي دور رَبّة الانتقام. رطّبت جبهته وصُدغيه بمنشفةٍ مبتلّة وسقته شرابًا وهمست له بكلماتٍ مهدِّئة كي ينام. وحين بدأت حرارته تنخفض، جعلته يستذكر حقارته.

- «عليك أن تحمد الربّ لأنّك حظيت بزوجةٍ مثلها»، قالت له بازدراء.

لم يكن لديه القوّة للتفوّه بأيّ شيء. مثل جنديٍّ، يحتضرُ على الخطّ الأمامي في الجبهة، كان راقدًا بين الوسائد، جفناه منتفخان وذقنه شعثاء. تابعت آنا بلا أدنى رحمة:

- «إنّك لا تستحقّ هذه المرأة، بأخلاقها وأناقتها وجمالها! أصبح لديك متسعٌ من الوقت الآن لاستيعاب ذلك!».

كان يحدّق فيها بعينين محمومتين لطفلٍ مريضٍ رُويت على مسامعه حكاية خرافيّة قاسية، مع فارقٍ وحيد؛ فقد كان مُدانًا بالتماهي مع الوحش، مع التنّين، لا مع البطل.

بعد أسبوعين، عادت السيّدة فون غارليتس إلى المنزل، نموذجًا أرستقراطيًّا لضبط النفسِ، لم يخْلُ من لمحات السخرية. تنفّس الجميع الصعداء؛ الوقت ليس مواتيًا للخلافات الزوجيّة التي، مهما بلغت من الحدّة، تبدو صغيرة أمام الصراع الهائل الذي تورّطت فيه الأمّة بأسرها.

حاول مارتين كلّ جهده ليتمكّن من الحصول على إجازةٍ طويلة والسفر إلى ڤيينا مع آنا، حتّى لو كان ذلك لأسبوعين فحسب، من أجل

أن يعيشا كزوجين في شقتهما الخاصّة، التي لم تطأها أقدامهما منذ شهر العسل. لكن محاولاته العنيدة باءت بالفشل. لم يكن هناك سوى طريقة واحدة للحصول على إجازة أطول: أن يعلن استعداده للمشاركة في دورة تدريبيّة قصيرة للضبّاط. على الرغم من اشمئزازه من فكرة الترقية إلى منصب أعلى في الجيش، لكن الشوق إلى ڤيينا، وإلى نَزْرٍ من الحُرّيّة، استحوذ عليه أخيرًا، كان يريد الإفلات من الرحى الطاحنة للخدمة العسكريّة التي أتمّ فيها عامه الرابع بما تتطلّبه من تبعيّةٍ تامّة وإنكارٍ للذات في سبيل حربٍ لا تهمُّه على الإطلاق. نُقل إلى مدرسةٍ لصفّ الضبّاط في حي شبانداو ببرلين. خلال الدورة، عُزل تمامًا عن العالم الخارجي. وفي يوم تخرّجه، كانت آنا بانتظاره عند البوّابة تحملُ حقيبةً بيدها.

- «مَن أنتِ؟»، قال الحارس متقدِّمًا بسرعة، «هل لي أن أرى أوراقك؟».

- «جئت لانتظار زوجي، اسمه مارتين غروزالي»، قالت مستاءةً من ارتيابه المفرط. «لديه إجازة اليوم».

امتقع وجه الجارس.

- «من فضلكِ، الدخول ممنوع!».

وضعت آنا حقيبتها على الأرض، ونظرت إلى الجنديّ نظرة وديّة. في حيرةٍ من أمره، حكَّ أذنه وهمس:

- «إنّهم يخضعون لعقوبة».

بعد برهةٍ من التردُّد، أخبرها بما حدث. اصطفّت المجموعة في الفناء استعدادًا للمغادرة، على بعد خطوةٍ من البوابة، إن جاز التعبير.

كان ينبغي عليهم أن يردّدوا تحيّة *«يحيا هتلر!»* بإجماعٍ وحماسة! لكنّ قائد المجموعة وجد الترديد خافتًا. صرخ بهم: «بصوت أعلى!». كرّر الرتلُ التحيّة الإلزاميّة بصوتٍ أعلى إلى حدٍّ ما، ولكن من دون قناعةٍ كافية. «بصوتٍ أعلى!»، زجر القائد، كما لو أنَّ هيبة احترامه باتت على المحكّ، لا هيبة الفوهرر فحسب. *«يحيا هتلر!»*... ظلّ الصوت خامدًا، مكتومًا، مثل أسطوانة غراموفون ترفضُ أن تدور بأقصى سرعتها. «حسنٌ، سنرى ما إذا كنتم ستعودون إلى دياركم اليوم!». أُمروا بخلع الثياب ووضعها في الخزانات ثم قفلها. بعد ذلك، سيقوا في العراء، يمينًا، يسارًا، قرفصةً، زحفًا على الأرض، في الوحل. درسٌ في الإذلال والمهانة لن يغيب عن ذاكرتهم حتى تنتهي الحرب.

- «من فضلك، عودي بعد ساعة وتصرّفي كأنّك لا تعرفين شيئًا عما حدث. كلّهم يشعرون بالعار من أنفسهم»، همس الحارس.

ألقت آنا نظرةً على البوّابة المُوصدة، يجثو وراءها مارتين، مُمَرّغًا بوحل برلين، في وحلِ رايخ الألف عام، فمن أجله ينبغي أن يبقى مستعدًّا للتضحية بحياته، التي هي حياتها بطبيعة الحال. أمسكت حقيبتها وسارت في شارعٍ عشوائيّ، ومنه إلى شارعٍ آخر، لم تبدُ هذه الشوارع مؤنسة ولا موحشة لها، كانت غيرَ مكترثة بحالها فحسب. حين عادت إلى ثكنته، وجدته هناك بانتظارها، متألّقًا بملابسه الأنيقة؛ سرعان ما طوى صفحة الخزي.

- «لقد تأخّرتِ»، قال لها مستغربًا.

لم يتفوّه بكلمة عن جلسة العقاب. فعند اللقاء، كانا يتقنان تجاهل

الحرب، مثل كائنَين دخيلَين، من عرقٍ متفوِّق، صُمَّ مسمعهما عن قرعِ الطبول، وكُفَّ بصرهما عن رؤية البرق الوامض.

بعد العودة من ڤيينا، نُقل مارتين إلى دِرِسْدِن. كان قد حلّ الخريف. أمّا آنا، التي حاكت ملءَ الحقيبة من ملابس الولدان، فلم تحبل بعد، بخلاف هانيلوره. فقد تزوّجت في الربيع وعاشت منذ ذلك الحين ببلدة لودفيشسلوست في مِكلِنبُورغ، وحافظت على الحنين إلى الماضي بمراسلة آنا. جهّزت السيّدة فون غارليتس، التي لا تفوّت الفرصة للوقوف مع أفراد طاقمها في أفراحهم وأتراحهم، كميّةً من الطعام المغذّي لدعم صحّة الأم المستقبليّة، وأرسلتها مع آنا إلى لودفيشسلوست. جلست آنا مجددًا مع حقيبتها في القطار المتّجه إلى برلين. تلقائيًا، عاد بها التفكير إلى اليوم الذي سافرت فيه إلى كولونيا، مرتدية المعطف المطريّ وقبّعة الصيد، تحمل كلّ أغراضها في صندوق من الورق المقوّى. شعرت بقليلٍ من الخجل لذكرى سذاجتها القرويّة، وذلك الطريق الطويل الذي تعيّن عليها اجتيازه؛ من أكوام الروث إلى الموائد المفروشة بالبروكار الدمشقيّ والأواني الفضيّة. انقطع سيل خيالاتها حين كُبح القطار فجأةً وتوقّف، ثمّ استأنف مسيره إلى برلين، بكثيرٍ من الارتجاج والتعثُّر. وراء نافذة المقصورة، امتدّ جدارٌ رماديّ من معدن، لا بداية له ولا نهاية، كأنّهم في قلب نفق. لكن الجدار متحرّك... إنّه من دخان، من رمل، من غبار كثيف. تلكّأ القطار ثم انطلق بتذبذبٍ نحو المحطّة. ترجّلت آنا، لكنّها بقيت مأخوذة بالجوّ الرائق والمحايد الذي عبقت به المقصورة.

في تلك اللحظة، حدث لها الشيء نفسه الذي حلّ بمئات المسافرين

الآخرين. فما إن وطئت أقدامهم الرصيف، حتى تولّت الغريزة توجيههم لما ينبغي فعله؛ تفرّقوا مذعورين، يركضون في كلّ جهة، فيما اندلعت النيران حولهم، وتصدّع هيكل السقف، وبدا على وشك الانهيار في أيّة لحظة. سحبها أحدهم بعيدًا عن قطع المعدن والخشب المتساقطة، تغلغل الدخان لاسعًا عينيها وحلقها، أفلتت من النار غير مبصرة ما حولها... إنذار بغارة جويّة، دفعها أحدهم إلى قبو. هناك اندمجت بين جماعاتٍ من البشر المتعرّقين، المرتجفين، المنحشرين، ينصتون إلى الصراخ والهمهمة؛ اهتزّت الأرض، اهتزّ الحشد معها، كلّ شيء يتحوّل إلى غبار؛ المباني والقطارات والناس، كارثة جماعيّة تدمّر كلَّ شيء، على نحوٍ ساحرٍ، وبلا معنى. حتّى تلك الحقيبة المملوءة بالنقانق ولحم الخنزير المقدّد لم تسلم منها.

استغرقت ثلاثة أيّام وليالٍ للوصول إلى شبانداو في الجزء الغربي من المدينة، قادمة من الجزء الشرقيّ. ثلاثة أيّام وليالٍ هي الجحيم بعينه، ففي لحظةٍ، سحبها شخصٌ إلى قبوٍ، في اللحظة الأخيرة، شخص لم تتمكّن من رؤية وجهه بلمحة خاطفة. سقاها شخص آخر بضع رشفات من الماء؛ حاولت جرّ نفسها، تعثّرت في طريقها بسلك كهربائيّ؛ وفي مكانٍ ما، انهار جدار، فانكمش قلبها، كانت مرهقة إلى حدٍّ جعلها لا تقوى على الخوف. حلَّ الليل مجدّدًا، دويّ صفارات الإنذار، القبو، أغفت من الإنهاك، لتستيقظ فجأة وتعاود مسيرها في هذا المشهد المُعَدّ لأوبرا طافحة بالرعب؛ أعطاها أحدهم لقمة تأكلها. برلين-شبانداو؟ السؤال نفسه في خضمّ الفوضى؛ كانت تقف على خريطة مفتّتة، تفحّمت حوافها. هل ما زالت شبانداو موجودة؟ أمّ أنّها غدت كومة من الأنقاض والدخان؟

لماذا القصفُ ليلَ نهار؟ هل على برلين، على ألمانيا، أن تمحى عن وجه الأرض؟

فجأة، وجدت نفسها مع حقيبتها المحترقة في محطّة شبانداو. المبنى ما يزال قائمًا، وهناك قطار مزدحم على وشك المغادرة إلى مِكلِنبُورغ. حملها أحدهم ودفعها إلى العربة عبر النافذة، وتبعتْها الحقيبة. انطلق القطار على الفور، جلست على حقيبتها تحت وطأة الدوار، غير مكترثة بحقيقة أنّها نجت. تابعت رحلتها في حالةٍ من الوعي الغائم؛ مستندةً إلى أجسادٍ مرهقة بجوارها، لكيلا تسقط. وصلوا إلى لودفيشسلوست عند منتصف الليل، وكانت الوحيدة التي ترجّلت. في الظلام الدامس، سارت مترنّحة نحو منزلٍ لا يظهر منه سوى خياله. عثرت يدها الراجفة على الجرس بعد عناء. سطع ضوءٌ في الممرّ وفُتح الباب وظهر أحدهم، لكنّه سرعان ما أغلق الباب مذعورًا بعد أن رأى مَن عند العتبة. عادت إلى الظلام مرّة أخرى، تكاد تتداعى من الإرهاق. الطقس بارد. تسلّل إليها خوفٌ بدائيّ، يفوق ذلك الذي اعتراها أثناء القصف، خوف مباشر وخانق؛ خوف من الرفض، من الطرد إلى الأبد، مثل كلبٍ ذليلٍ، مثل يتيمٍ لا يستحقُّ حتّى أن يعيش. راحت تخبط على الباب بغضب.

- «لقد جئت من برلين، أرجوكم...»، تأوّهت، «افتحوا الباب. لا أريد سوى النوم، أرجوكم...».

لكنّ شيئًا لم يحدث، كان المنزلُ يلفظها.

- «هنا يقف إنسان، إنسان صالح، لا يريد سوى النوم...!».

فُتح الباب تحت وطأة الخبط الشديد. هناك بطانيّة ملقاة على بلاط الممرّ. جرّت قدميها إلى الداخل، وارتمت عليها غارقةً في النوم من دون أن تنظر إلى المتبرّع بطيء الفهم. في اليوم التالي، استعادت ما يكفي من القوّة لإتمام مهمّتها. لم يكن التعرّف عليها سهلًا، بكلّ ما غزا وجهَها من خدوشٍ ودموعٍ وهِباب؛ ناولت الحقيبة إلى هانيلوره التي لم تعرف شيئًا عن غارات القصف، بل كانت طافية على سحبٍ ورديّة من الترقُّب المبتهج. في منزلها النظيف، المُزيّن من أجل الحدث الوشيك، كانت النقانق ولحوم الخنزير واللحوم المقدّدة، التي خرجت من الحقيبة من دون أن تُصاب بأذى، عنصرًا حيوانيًّا منحرفًا، فقد لُطّخت بدنس الموت تكريمًا للحياة الجديدة. نظرت آنا إليها، وانفجرت في ضحكةٍ مُرهقة، خالية من المرح.

*

- «آه، برلين!»، تنهّدت آنا. «لقد ذهبت إليها قبل بضع سنوات برفقة صديقة. جلنا المدينة على متن حافلة. فجأة صرختْ: انظري، محطّة آنهالتر. التفتُّ فإذا أمامي مبنى مرمَّم على نحوٍ مذهل، لكنني رأيته مشتعلًا بالنيران بعد لحظة. كان يحترقُ أمام عينيّ... تمامًا كما حدث من قبل... كلُّ شيء أخذ ينهار... سألتني صديقتي: ما الخطب؟ كان الدوار قد ألمَّ بي وسمعتُ في أذنيّ هسيسًا. صرختُ بهلعٍ: إنّها تحترق...! كانت أوّل مرة يتبادر فيها الحادث إلى ذهني؛ لم أفكّر به حتّى ذلك الحين، كان حادثًا مروِّعًا للغاية. تمكّنت من كبحه في ذاكرتي لمدّة خمسة وخمسين عامًا».

- «كيف أمكن لهم ذلك؟ أن يبعثوكِ إلى مدينة تحترق لإيصال حقيبة مملوءة باللحوم؟»، قالت لوته وهي تشير إلى آنا بطرف شوكتها المنغرسة في قطعة من لحم خنزير الآردين.

- «لم تكن السيّدة فون غارليتس على علمٍ بشيء، وكذلك نحن. كانت تلك أولى الغارات الكبرى على برلين، في أواخر نوفمبر. أضاء محرِّروكم أشجار عيد الميلاد فوق المدينة وفرشوا الأرض بسجّاداتٍ من القنابل. جرى القصف على نحوٍ ممنهج، فلم يسلم متر مربّع واحد من المدينة. لكن لا بُدّ من أن ينجو شيء... أنا، على سبيل المثال».

حين قيلت كلمة «محرِّروكم» باستهزاءٍ، توقّف ثغر لوته عن المضغ. مهما حاولت جاهدة تخيُّل برلين وهي تحترق، كانت صورة روتردام أو لندن تحلّ محلّها. ظلّت برلين فكرة مجرّدة، كأنّها مجرّد نقطة على الخريطة.

- «بعد الحادث، كتب مارتين رسالة إلى السيّدة فون غارليتس جاء فيها: أمنعك من إرسال زوجتي مرّة أخرى إلى أيّ مكان في ظلّ هذه الظروف». قهقهت آنا. «لكن ذلك الوقت مضى وتغيّر الحال. فمع اشتداد الحرب وتماديها، ازدادت أهميّة الطعام أكثر فأكثر».

أومأت لوته موافقة، وفمها ممتلئ، وأمامها طبق السلطة المُزيَّن بسخاءٍ لدرجة أنَّ رجلًا كان بمقدوره أن يعتاش عليه لمدّة أسبوعٍ في شتاء المجاعة ذاك.

*

لم يكن لدى لوته، المنغمسة في تدبير شؤون المنزل، الوقت للشعور بالذنب. كان عليها التحريك الذي لا ينتهي لعصيدة الحليب المخيض في القدور العملاقة، وبجانبها أحواض مملوءة بالغسيل يتصاعد منها البخار، على بعد مترين من المكواة المتوهّجة. كانت أمّها، محور العائلة الآخذة بالتزايد، مريضة؛ فقد كُشف ورمٌ في رحمها يتوجّب استئصاله على نحوٍ عاجلٍ. قبل العملية الجراحيّة، انفردت جانبًا بثلاث من بناتها: ماريا وجيت ولوته، وخاطبتهنّ:

- «أريدكنّ أن تقطعن عهدًا واحدًا أمامي... في حال لم يُكتب للعمليّة النجاح... ورحلتُ فجأة... أن تعتنينْ بالأشخاص المختبئين عندنا. أخشى أن يطردهم أبوكنّ إلى الشارع إذا ما ساء مزاجه. كان يهدّد بفعل ذلك في الآونة الأخيرة... فقد بدأ صبره ينفد...».

حدّقت في أعين بناتها، واحدة تلو الأخرى، بإصرارٍ وجديّة.

- «لطالما كنت قادرة على تهدئته... كنت أخفي نوبات غضبه عن الجميع... أمّا أولئك الأشخاص، فلا ذنب لهم لتحمّل المزيد من التوتّر...».

نظرت البنات إليها نظراتٍ واجفة. مجرّد التفكير بما قالته خطف أنفاسهنّ. سرعان ما أدركن أنَّ مخاوف والدتهنّ لها ما يبرِّرها. فقد كنّ يعرفن أباهنّ تمام المعرفة. كان بحاجة إلى خوض المعارك بين الحين والآخر، لا سيّما مع الأطفال، ألدّ منافسيه. فما الذي يمنعه من أن يخوض هذه المعارك مع المختبئين ذات يوم؟ بالطّبع كانوا مندرجين ضمن قائمة

المنافسين تلك، لكن موقفه تجاههم ظلَّ غامضًا. فعندما ناشدوه العونَ لدى وصولهم، لم يستطع السماح لنفسه برفض المساعدة. ألم يكن يتمتّع بسمعةٍ يحرص على الحفاظ عليها؟ كمحبٍّ للموسيقى؛ آل فرينكل، العمّ تاك، إرنست غودريان؟ أو كشيوعيّ؛ ليون شتاين؟ فالأمر عنده لا يتعلّق بدافعٍ خالصٍ ينبع من القلب، لا يملك شيئًا حياله، كما هو الحال مع والدتهنّ، على الرغم من أنّه، بالطبع، لم يفتقر للمزاج العاطفيّ، إذا توفّرت الخلفية الموسيقية المناسبة للموقف.

حين أفاقت المريضة، بعد زوال مفعول التخدير، كانت جيت ولوته والأب واقفين بجانب سريرها. تمددت بين الملاءات، شاحبة وواهنة على نحوٍ يبعث على القلق، وشعرها الكستنائيّ الذي تخلّله الشيبُ مبعثر على الوسادة. كانت نظرتها متغيّمة، كأنّها ما زالت تطوف في عوالمِ اللاوجود الضبابيّة. أمسكت يد زوجها بقوّة غير متوقعة.

- «اعتنِ جيّدًا بـ... بهم جميعًا»، همست.

ليس أمرًا، ولا التماسًا، بل كان شيئًا بينهما. سارت لوته بمحاذاة السرير ووقفت بجوار أبيها وأومأت برأسها نيابةً عنه. أغمضت عينيها بإحكامٍ، كما لو أنّها تقدّم ضمانًا لسلامة الجميع من تقلّبات المزاج الشائنة لسيّد المنزل. على مضض، انتظر عند حافة السرير، متعطّشًا للحظة التي يمكنه فيها الهروب من المستشفى، قصر الموت العابق برائحة الإيثر، الذي دخله بعد تنازل استثنائيّ.

حين عادت والدة لوته إلى المنزل، كانت مجرّد ظلٍّ لذاتها السابقة. لقد فقدت الكثير من وزنها. لم يبق شيء من حيويّتها المعهودة، من قوّتها

القديمة الغامضة. بضحكةٍ مصطنعة، سارت داخل الغرفة، مستندة على حواف الطاولة وأذرع الكراسي. مسرورًا بعودة يوريديس التي تخصُّه من العالم السفليّ، شغّل الزوجُ أوبرا أورفيو لغلوك من أجلها، ومثّلت هذه الخطوة كلَّ ما أسهم به لتعافي زوجته.

تلقّت إيفجي قطعةً من المخمل الأزرق هديّة في عيد ميلادها، كي تصنع منها فساتين لدماها. أخفت هذا الكنز في درجٍ سريٍّ في غرفتها. ذات يوم، فتحت الدرج، ووجدته فارغًا. بقلبٍ مرتعد، فتّشت في الأدراج كلّها، في غرفة النوم، في المنزل بأسره. سألت كلّ الساكنين في المنزل، بمزيجٍ من الإحباط والنكران: «هل رأيتم قماشتي؟». اتّضح أنه سؤال شعريّ، تتجلّى في رمزيّته كلّ أوجه القصور الناجمة عن الشحّ المهيمن. أخيرًا، ردّت ضفائرها ودفعت مقبض باب الغرفة التي لم يشملها التفتيش حتى الآن لأنَّ الوصول إليها كان محظورًا لسنواتٍ، لا سيّما أثناء الحرب: ركن الهندسة الكهربائيّة المقدّس. واقفة عند العتبة، نظرت بذهولٍ إلى الحياة الصامتة على طاولة العمل. بين البراغي والمآخذ والصمّامات والمصابيح، ثمّة علبة زبدة متوضِّعة بين أرغفة الخبز الطازج والجبن ولحم الكبد، مثل طائر درّاج في لوحة فنّان من القرن السابع عشر. نظر إليها مدهوشًا، فيما كان يمسح الفتات عن شفتيه. بفمه الممتلئ صاح:

- «كيف أملى عليك عقلك الدخول إلى هذه الغرفة فجأة؟».

راح يوضّب الخبز والجبن بعجالة.

- «أبحث عن قماشتي!»، قالت في نشيج.

مقابلها مباشرة، على الحائط، خريطة للعالم عليها أعلام صغيرة توضّح تقدّم الحلفاء. أُلصقت الخريطة على مخمل أزرق مثبّت على الجدار بمسامير.

- «قماشتي، قماشتي...»، أشارت ذاهلة.

لاحق الأب بنظره إصبعَها المرتعش، وقد برز حاجباه. أهناك هدف أسمى لقطعة قماش من أن توفِّر خلفيّة حاضنة لانتصارات الحلفاء؟ استدارت إيفجي وهبطت السلم ركضًا وهي تبكي. بكلماتٍ متعثِّرة، أخبرت جيت ولوته، المنهمكتين في شغل المطبخ، بما رأته، من دون أن تدرك أنَّ الجريمة الأشنع ليست سرقة قماشتها، بل التلذُّذ السريّ بالخبز والجبن والزبدة بينما يتضوّر الآخرون جوعًا.

أمّا مصدر هذه الأطعمة الشهيّة فقد اتضّح حين رافقت لوته والدتها إلى المستشفى، لإجراء الفحص الطبي التالي. انتحاها الطبيب جانبًا ليعبِّر عن دهشته وقلقه بشأن النقص الشديد لوزن المريضة، على الرغم من أنَّ زوجها، حين جاء لاصطحابها، قد حصل على قسائم مختومة للحصول على حصصٍ إضافيّة من الطعام. كانت معرفة الأمر شيئًا فوق طاقتها على التحمل. أخبرت جيت بالأمر، دونًا عن الآخرين. وقع الخبر وَقْع الصاعقة عليها. كانتا تدركان جيّدًا أنَّ لأنانيّة والدهما حدودًا مرنة، تنزاح بشكلٍ مذهلٍ وفق أهوائه واحتياجاته، بيد أنَّ ما حدث أوضح أنَّ لا حدودَ إطلاقًا لتلك الأنانية... على نحوٍ يصعب تصديقه.

- «سأذهب لإحضار القسائم المتبقية، في حال وجودها أصلًا»، قالت لوته.

لأوّل مرة، تشعر بصدع يخترق رباطة جأشها. لم تكن قادرة على التفكير بهدوء والخوض في المشكلة بأسلوب تكتيكيّ. لم تعد هي نفسها، إن جاز التعبير، أو ربّما في تلك اللحظة، وللمرّة الأولى، كانت هي نفسها حقًّا. متجهّمة، صعدت الدرج واقتحمت ذلك الركن من دون أن تطرق على الباب. كان جالسًا هناك... يدخّن سيجارة من التبغ المحليّ. جريدة غير رسميّة أمامه على طاولة العمل. أشاح بنظره منزعجًا من المقاطعة. وكما لو أنَّ سلكَيْن مقطوعين في قلبِ رأسها قد التحما للتو... كما لو أنَّ واحدًا وعشرين عامًا قد تبخّرت... تراءى لها طيفٌ لشخص بملابس داكنة يقف عند باب الصفّ، جناحاه الأسودان مطويان بإحكامٍ. «كيف تجرئين...»، جاء صوته من بعيد. «... على طفلتين أضعف منك...». لمحة فحسب، صدى تردَّدَ واختفى، لكنّه خلّف شعورًا جارفًا.

- «كيف تجرؤ..»، قالت بصوتٍ راجفٍ، «على أمٍّ بهذا الضعف..».

- «اخرجي واطرقي على الباب ثم ادخلي»، أمرها.

لمع وميضٌ كهربائيّ عبر السلكين... تقدّمت خطوة ومدّت يدها بحركة بليغةٍ.

- «أعطني ما تبقّى من قسائم طعام أمي»، بصوت عالٍ أضافت: «على الفور!».

راح يضحك غيرَ مُصدِّق.

- «عمَّ تتحدّثين بحق الرب...؟»، قال باستغباءٍ.

- «أنت تعرف بالضبط عمّا أتحدّث».

ودّت أن تنهال عليه ضربًا، لجلوسه هناك متظاهرًا بالبراءة؛ كان من الجُبن بحيث لا يجرؤ على الاعتراف بالأمر. احتقارها فاق كراهيتها. عليها التصرُّف بسرعةٍ وكفاءة هذه المرّة، لكيلا تضطرّ للتعامل معه بعد الآن. الخريطة، بخلفيتها المخمليّة الزرقاء، معلّقة خلفه. الأعلام الصغيرة تتناثر عليها في كلّ مكان، مغروسة بتباهٍ كأنّها إعلانٌ لانتصاراته الشخصيّة. باستثناء ألمانيا، خالية من الأعلام، لا علاقة لها بالحرب على ما يبدو. كانت ألمانيا فراغًا، ثُقبًا أسود ابتلع أنظار لوته. كم طريقة هناك لكره الذات؟

ضحك في وجهها.

- «أعطني القسائم وإلا سأخبر الجميع عن حقارتك»، قالت ببلادة شديدة.

انقشعت الابتسامة عن وجهه. نظر إليها كما لو أنّه يراها للمرة الأولى، مشدوهًا، غير مُصدِّق ما يجري أمامه. حين انسلّ الإدراك بطيئًا إلى وعيه، احتقن وجهه احمرارًا؛ سحب الدرج أسفل الطاولة بغضبٍ ونقّب فيه عشوائيًّا، وأخرج أخيرًا لفافة من القسائم، استُخدِمَ معظمها. اقترب منها حاملًا القسائم بإيماءة توعُّد. لم تحرّك لوته ساكنًا، لازمت مكانها؛ لم تشعر برعدة خوفٍ واحدة. إن تطلّب الأمر، فستسحقه كما يُسحق البرغوث. دفع لفافة الأوراق في يدها بحنق.

- «كرنبة حقيقية...»، همس، «كما هو واضح، بعد كل هذه السنوات التي مرّت... ما تزال كرنبة حقيقيّة».

استجمعت ما يكفي من القوة للعودة إلى غرفتها بهدوء متعمّد. ارتمت على سريرها، في غرفتها العابقة بالروائح الطاغية للعطور والصابون

الفاخر. كان خفقان قلبها يقرع على رأسها. كيف أمكن له، بلا رحمة، أن يطعنها في مقتلٍ...؟ ربّما لأنّه هو نفسه كان في الواقع نصف... أصابها الغثيان. استلقت وعيناها مغمضتان ريثما يهدأ النبض الذي يدقُّ على صُدغيها، ويخفُّ هدير قاذفة القنابل الإنكليزية المتجهة شرقًا، الذي تناهى إلى سمعها. كم طريقة هناك لكره الذات؟

بعد أن عزف الجميع عن ترقّب مجيئه، ظهر الحلّاق وفي جعبته أخبار سارّة: عُثر على مأوى للعمّ تاك وابنته عند طحّانٍ يعيش في مكانٍ بعيدٍ في الأغوار. لو أنَّ المأوى من أجل العجوز فحسب، لرفضوا العرض، لكنّهم جميعًا تنهّدوا بانشراحٍ لفكرة التخلُّص من ابنته، التي اعتقدت أنّها أجمل الجميلات على هذا الكوكب وفي كلّ العوالم التي يمكن تخيُّلها. أقلّتها ماريا على الدرّاجة في وقتٍ متأخّر من الليل. تبعتها لوته مساء اليوم التالي؛ جلس العجوز على المقعد الخلفي، خفيفًا كريشة، وتشبّث قَلِقًا بخاصرتيها. كان البرد شديدًا، وضوء القمر ينعكس على المروج المتجمّدة. على جانبي المسار الضيّق، شكّلت أشجار الصفصاف المقلّمة المنحنية حَرَس شرف من عجائز ماتوا منذ زمنٍ طويل، يقفون لاستقبال العمّ تاك بين صفوفهم. لكن الأخير ما زال حيًّا، وتنهّد بحنين قائلًا:

- «آه يا لوته، أتصدّقينني... لو كنتُ شابًّا لقبّلتُك بالتأكيد، هنا تحت ضوء القمر...».

ضاحكة، استدارت لوته، وراحت الدرّاجة تتأرجح على نحو خطير.

- «إذا واصلت قول هذه الكلمات الرذيلة، سينتهي بنا المطاف في الخندق»، هدّدته بمرحٍ.

على مضضٍ، سلّمت العجوز إلى الطحّان الواقف عند الباب بسرواله الداخليّ الأبيض كأنّه شبح. كانت صفقة مصطنعة، ومثيرة للقلق. انحنى العمّ تاك وقبّل ظهرَ يدها التي خدّرها البرد. قمّة رأسه الأصلع المتلألئة في ضوء القمر هي آخر صورةٍ له علقت في ذهنها؛ كان يعتقد أنّ من السخف ارتداء قلنسوة كالتي يرتديها صهره الإيراني.

جاءتهم أخباره اللاحقة بطرقٍ غير مباشرة وعلى هيئة معلومات متفرِّقة. كان الشيء الوحيد المؤكَّد هو رحيل الجدّ بعد فترةٍ وجيزةٍ. عانت ابنته من رُهاب الأماكن المغلقة في تلك الأراضي المنبسطة غير المأهولة، هناك حيث خبا بريقُ جمالها وعضّت أظافرها المشذّبة حدّ النزيف. حين جاء أهل الطحّان في زيارة، توسّلت إليهم المرأة لإنقاذها من الملل المميت وأخذها معهم إلى العالم المأهول. انصاعوا ليأسها. وسرعان ما وجدت نفسها في منزلٍ قرويّ. اتّخذت مكانها قرب النافذة بوضعيةٍ مغرية. طُلب إليها التنحّي جانبًا مرّات ومرّات كلّ يوم، لأنّها لم تكن تعرّض نفسها للخطر فحسب، بل كلّ أولئك الأشخاص الذين ساعدوها أيضًا. لكن بالنسبة لفلورا بهلول، فإنّ رؤية الآخرين لها شرط جوهريّ للوجود؛ فهي تفضّل أن تسلِّم نفسها كي يستجوبها قائدٌ ساحرُ الوسامة، مرتدية زيًّا فاضحًا من أزياء السجن المخطّطة، على أن تبقى حيث هي، تراقب مرور أيّامها، كما تنساب حبات الرمل بين الأصابع، في تستُّرٍ خانقٍ، بين الخزانة والجدار، ورائحة الملفوف العابقة. خرجت من المنزل وقدّمت نفسها للقاعدة العسكريّة المحليّة معتقدة اعتقادًا راسخًا أنَّ زواجها من اليهوديّ الإيرانيّ سيزوّدها بشيءٍ من الحصانة. حين ذاعت الأخبار، طرد الطحّان

أباها في جُنْح الليل، خوفًا من أن تشيَ به. مستيقظًا من عميق نومه، راح العجوز يتجوّل شريدًا في المروج. استقبله حرس الشرف المكوّن من أشجار الصفصاف المقلّمة بترحابٍ كبيرٍ مجدّدًا؛ لكنّه لم يرَ شيئًا ولم يتناهَ إلى مسمعه صوت، لم يكن يتوق سوى إلى فراشٍ دافئٍ. لا أحد يعرف كم طالت فترة سراحه تلك الليلة. ففي وقتٍ ما عند الفجر، مُضنى ومخدّرًا من جرّاء البرد القارس، وقع في أيدي الألمان. لاختصار المراسم الشكليّة وعناء النقل، وضعوا حدًّا لمعاناة العجوز إلى الأبد عبر بضع رصاصاتٍ، في الحديقة الخلفيّة للڤيلا التي أقاموا فيها.

عمَّ الفَزَع أرجاءَ منزل لوته. كان هذا مصيرَ رجلٍ عجوزٍ لا يكاد يشغل حيّزًا على هذا الكوكب. لماذا؟ وإذا كانت حياة المسنّين يجري استلابها بهذا التهاون هنا، على مرمى حجرٍ من المنزل، فماذا عن أولئك الذين نُقلوا إلى أماكن أخرى بمختلف الوسائل؟ كان فزعُ لوته ذا شقّين؛ مَن سلّمه بكلّ عنايةٍ إلى الرجل الذي زجّه في أحضان قاتليه؟ ومَن الذي كان مرّة أخرى، تحت مسمّى البراءة، أداة طيعة في يد المحتلّين؟ خذوا أقصى حذركم مني! أنا أسوأ بكثيرٍ من أولئك الذين يشنون الحرب علانية؟ أنا الصديق العدوّ. أنا؟ ليس ثمّة أنا، بل نحن، «نحنُ» منقسمةٌ وغادرة، تخون نفسها بنفسها... بتفانٍ يقاربُ السخرية، استنزفت طاقتها في الأعمال المنزليّة، من أجل الابتعاد عن ذاتها؛ تلك الذات الوضيعة.

كانت بشائرُ الربيع متردّدة في قدومها، كما لو أنَّ أغصان البراعم والزعفران تتضاربُ مع مشهد الحرب. غامر إد دِ ڤريس بالخروج من مخبئه لانتشال الصندوق؛ فقد كان بحاجة لبعض الأشياء الموجودة

فيه، على حدّ تعبيره المراوغ. تناول والدُ لوته مجرفة وحفر حفرة ضخمة تسبّبت في حدوث تغيّرات في الأرض ومسار نمو جذور الأشجار، إلّا أنَّ الصندوق لم يظهر. ربّما أخطأ في تحديد الشجرة. جربَ بقعة أخرى. كلّما ازداد عمق الحفر، زاد تشكُّكه في نفسه. أخذ الأمر على محمل الجد. كانت صورته أمام العالم الخارجي على المحكّ. انخرط الأطفال في العمل. طوال اليوم، عكفوا على نكش الأرض بأعمدة حديديّة طويلةٍ، وبلا جدوى. نصح ماكس فرينكل باستشارة عرّاف شهير؛ فقبل الحرب، كان هناك واحد منهم يعيش في شارع كوراسو بأمستردام. تجاهل والدُ لوته المقترحَ باستهزاء، فقد كان يعاني من حساسيّة تجاه كلّ ما يتعلّق بالدين والقوى الخارقة للطبيعة. كانت زوجته، التي تعافت من مرضها إلى درجةٍ كافية لمواجهة أحكامه المسبقة، هي من أرسلت لوته؛ لعلَّ وعسى.

لا كرات بلوريّة ولا أوراق لعب ولا متاع شرقيّة. بدا العرَّافُ أشبه بمُحاسب يرتدي بدلته الرماديَّة؛ كان مكتبه مجرَّدًا وعمليًّا. جلست لوته أمام طاولة المكتب. نظرت إليه بترقُّب، لا تعرف كيف تستهلُّ حديثها. بادرها بهدوء:

– «لقد أتيتِ من أجل شيءٍ مفقود. يمكنني أن أؤكّد لك: ما تبحثين عنه موجود في المكان نفسه الذي وُضع فيه. أرى طريقًا تصطفُّ على جانبيه الأشجار. هناك صفٌّ من الأشجار موازٍ له...».

أومأت لوته مدهوشة.

– «إنَّه هناك... عند الشجرة الخامسة... حسب ظني».

كان الأمرُ كما لو أنَّ هذا الرجل يسير معها في الغابة، ثم يشير بعكّازه، بلفتةٍ عابرة، نحو موضعٍ معيّن. كلّ ذلك من دون أيّ شكل من الاستعراضات أو الحيل السحريّة أو الطقوس. تحدّث بنبرة شخص يذكرُ بيانات موضوعيّة. لم تعرف كيف ينبغي أن تتصرَّف حيال ذلك؛ فلا شكَّ أنَّ قليلًا من الخداع البصريّ كان سيضفي على كلامه قابليّةَ التصديق.

قالت بخجل وهي تسحب صورةً من حقيبتها:

- «أودُّ سؤالك عن شيءٍ آخر... هل بإمكانك... أن تخبرني شيئًا عنه؟».

تناول الصورة، نظرت إليه بهدوءٍ فاجأها؛ ففي النهاية، ستظلُّ قادرة على تجاهل كلّ ما يقوله. تمعّن في الصورة، ثم نظر إلى لوته نظرةً خاطفة، ثمّ إلى الصورة، ثمّ إليها من جديد؛ من دون أن يبصرها. أخذت الصورة تهتزُّ، كما لو أنَّ الشخص القابع فيها نبضت في عروقه الحياة من تلقاء نفسه. بيد أنّه ارتعاش اليد. ارتجف الرجلُ بكلّ جوارحه. حدّق في الصورة، اتّسعت عيناه خوفًا، كأنَّ سحرًا خلب وعيه. فكّ ربطة عنقه وعصبها على جبهته.

- «لا... لا... لا أستطيع إخبارك أيّ شيء»، قال لاهثًا، وقلب الصورة كما لو أنّه لا يطيق عذاب النظر إليها أكثر.

غطاها بيده، ومرّرها باتّجاه لوته.

- «أحقًّا... ليس بوسعك أن تقول شيئًا... على الإطلاق؟»، حاولت لوته مرة أخرى.

هزَّ رأسه، زامًّا شفتيه. أعادت الصورة إلى حقيبتها وتمتمت ببعض العبارات المهذّبة. وفيما كانت تهبط الدرج، انتابها خجلٌ طفيف لأنَّها غادرته وهو على تلك الحال.

٧

غادرت آنا ولوته المطعم. سئمتا من الأكل والتحدُّث وإماطة اللثام عن الماضي، من الاستماع إلى بعضهما ومغالبة المشاعر المتضاربة. فقد بات هذا الآن هو النمط المألوف للقاءاتهما. عقدت آنا ذراعها حول ذراع لوته التي لم تمانع ذلك.

في «پلاس دو مونيمو»، توقّفت آنا عند سفح النصب التذكاري، وانحنت إلى الأمام لتقرأ النصّ على قاعدة التمثال.

- «تضمُّ هذه الجرّة رمادًا من محرقة الجثث في معسكر اعتقال فلوسنبرغ وقوّات الكوماندو، ١٩٤٠-١٩٤٥». شدّدت لفظ الكلمات شأنها شأن كلّ الأجانب.

سحبتها لوته بعيدًا، وقد أزعجها هذا الفضول الألمانيّ الأرعن.

- «اسمعي، اسمعي، أما زلت تكابدين أحاسيس الذنب؟»، صاحت آنا.

لقد تجاوزت الحدود هذه المرّة.

- «دائمًا ما تلوين عنق الأشياء بموهبتك الخاصة!»، ردّت بانفعال.

«لستُ أشعر بالذنب على الإطلاق، لماذا عليّ ذلك؟ في ذلك الوقت، كنت أظنّ أني الآثمة في كلّ شيء... فقد كنت صغيرة وأنانيّة، ظننتُ أني المحور الذي يدور حوله العالم، وأنَّ بإمكاني التأثير في مصائر الآخرين. آه من عنجهيّة الشباب...».

- «أنت تقولين الآن شيئًا...»، نظرت آنا إليها، متأثّرة. «الأمر نفسُه ينطبق عليّ. أنا أيضًا كنتُ صغيرة وأنانيّة. لقد أصبتِ عين الحقيقة... انشغلت بكل جوارحي، بشخصٍ واحدٍ فحسب...».

هزّت لوته رأسها بامتعاضٍ. فعند الحديث عن أنانيّة الشباب، لا يمكن أن تُوضع على قدم المساواة مع آنا، لأنَّ فجوة الاختلاف بينهما كبيرة. لقد امتلكت آنا عادة تشويه الحقائق بمنتهى المهارة. تنهّدت لوته. وحين لم تستطع إيجاد الحجج بالسرعة الكافية لدحض هذه المساواة المتغطرسة، ولّت حانقة.

- «انتظري... انتظري... يا لوتشن...»، ناشدتها آنا.

صدى لزمنٍ بالغ القدم. حين كانت فتاة صغيرة، تفوق في السرعة أختها الممتلئة. حامت نفحةٌ من ذكريات الطفولة، تهدّدُ بمعاودة الظهور.

- «اسمعيني، انتظري لحظة فحسب... أريد أن أقول لك شيئًا، شيئًا صاعقًا، لن تصدّقيه أبدًا... انتظري...». لهثت آنا. «هل تعلمين أنّي كنت قادرة على تغيير مجرى التاريخ؟ ففي ذلك الوقت حين...».

استدارت لوته بضجر. كانت تعرف جيّدًا هذه التكتيكات القديمة، منذ زمنٍ بعيد. حاولت آنا استدراجها عبر إثارة فضولها:

- «اكتشفتُ في مكانٍ ما جرّة حلوى، جرّة من الكرات الزجاجيّة ...».

لحقت بها آنا.

- «في ذلك الوقت، كان زمام الحرب معقودًا بمدبّرة منزلٍ حمقاء في غرب بروسيا، كانت...».

- «آنا بامبيرغ»، قالت لوته باقتضاب.

- «إنَّك لا تصدّقينني».

*

مع قافلة من لاجئين قادمين من برلين، التي اختفت من الوجود في غالب الظنّ، عادت آنا إلى المنزل. تلقّت السيّدة فون غارليتس أمرًا بإيوائهم. عجّت القلعة بسكان المدينة الذين هُجّروا من بيوتهم، وقد تعيّن تزويدهم جميعًا بالطعام والملابس النظيفة. وعلى الأرضيّات الخشبيّة التي اعتنت آنا بلمعانها، كانوا يحاولون التغلُّب على صدمة احتراق مدينتهم وانهيارها.

كان القصر قد استنفد كلّ طاقته الاستيعابيّة، حين وصلت زوجة ضابطٍ رفيع المستوى، وبحوزتها رضيعٌ وطفلٌ يئنٌّ.

- «لقد تقلّد زوجي وسامَ صليب الفارس».

بهذه العبارة عرّفت تلك السيّدة عن نفسها، مفترضةً أنّها ستفتح أمامها كلّ الأبواب. كانت آنا تعرف أنَّ الحصول على هذا الوسام يعني أنّكَ قتلتَ الكثير من البشر. ففي كلِّ مرة سمع فيها مارتين عبر الراديو

خبرَ منح الوسام لأحد الأشخاص، كان يسخر: «سيُصاب شخص آخر بالتهاب الحنجرة»، ذلك أنَّ تلك الميداليّة كانت تعلَّق بإحكامٍ يعصر العنق. لم تعرف آنا في أيّ مكان ستقيم زوجة البطل. سارت في الفناء، وهي تفكِّر عميقًا، حتى وقع نظرها على منزل الحُوذيّ فوق الإسطبلات. لقد اختفى الحوذي مع اختفاء الأحصنة. ترك خلفه مسكنًا واسعًا وملائمًا: غرفة معيشة كبيرة وغرفتَي نوم وحمّام ومطبخ. قررت آنا إيواء تلك السيّدة المنحدرة من طبقة عليا فيه، من دون أن تشعر بأيّ حرج. ولكن، بعد ثلاثة أيّام، وصلت أمّ شابة مع رضيعٍ وطفلٍ، زوجة عامل مصنعٍ لا تحملُ لقبًا عائليًّا فاخرًا. استدركت آنا: إذا تخلّت السيدة النبيلة عن إحدى الغرف، وتشاركت مع المرأة الحمّام والمطبخ بروحٍ وديّة، فيمكن لهما الإقامة معًا في منزل الحوذيّ. على الدرج، مرَّت سريعًا بالسيّدة فون غارليتس لتأخذ إذنها.

– «ماذا تقولين؟!»، هتفت بسخطٍ. «لا يمكنك إثقال كاهل السيّدة الراقية بامرأة لا نعرف أصلها من فصلها».

– «إنّها أمّ، لديها طفلان، هذا كلّ شيء. الأخرى أم لطفلين أيضًا. وفي النهاية، ستظلُّ لديها غرفتان بأكملها كلّ الوقت»، قالت آنا بهدوء.

نظرت السيّدة فون غارليتس إليها كما لو أنّها أمام امرأة مجنونة. هزّت رأسها.

– «انتهى الكلام».

في الحرب أو في سواها، فإنَّ مدبّرةَ منزلٍ صعبة المراس لن تغيّر

القناعة المتجذّرة بوجود أصناف مختلفة للناس يتجهون منذ ولادتهم، وكلٌّ حسب مستواه، نحو أقدار متباينة، ولهذا السبب لا بُدّ من أن يعيشوا في عوالم منفصلة.

- «سأعطيها غرفتي إذًا»، صرخت آنا.

- «مستحيل!».

تردّد صدى المُشَادَّة بينهما في أنحاء الدرج، حتّى يتسنّى للجميع الاستمتاع بها.

- «أنت بلشفيّة!»، قرّعتها الكونتيسة.

- «حسنٌ، أنا بلشفيّة».

أدارت آنا ظهرها وغادرت. أسفل الدرج، كان أوتشن الذي اعتاد تقبيل أقدام أسياده منذ نعومة أظفاره، ينتظرها عابسًا.

- «كيف تجرئين على مخاطبة جلالة السيّدة بهذه النبرة؟»، هسهس مستهجنًا.

وقفت أمامه وجهًا لوجه.

- «استمع جيّدًا لما أقوله يا أوتو. إذا توجّب علي أن أقول لها شيئًا، فسأقوله في وجهها. وسأبذل حياتي من أجلها، إذا لزم الأمر. أمّا أنت فتركع أمامها، وخنجرك المسموم على خصرك. وبينما تخاطبها كما العبيد: سمعًا وطاعة أيّتها السيّدة الجليلة، تتلظّى نيران الكراهية في عينيك. لقد رأيت ذلك بأمّ عيني، ولن تتمكّن من خداعي».

في نهاية المطاف، وجدت آنا غرفة في عليّة صغيرة رطبة، ليس فيها موقد ولا ماء ولا نافذة، من أجل تلك الأم التي لم تعرف شيئًا عن العواصف التي أثارتها. لقد أبطلَ هذا الظلمُ كلَّ رغبةٍ لديها في متابعة التواصل المبنيّ على التحضُّر مع ربّة عملها. جرت العادة أن توقظها في الصباح، وترفع ستائر غرفتها، وتدردش معها بلطفٍ وهي تنهض من سريرها. كانت هذه الطقوس الصباحيّة بمثابة العزاء للسيّدة فون غارليتس في وجه فوضى هذه الحرب المديدة التي أحكمت قبضتها على القصر. أما الآن فقد صارت آنا تلقي تحيّةً صباحيّة طافحة بالازدراء، تفتح الستائر، وتغادر بسرعة. بعد مرور خمسة أيام، لم تستطع الكونتيسة تحمُّل هذه التصرُّفات. ومن سريرها المسيّج بأربعة أعمدة، صرخت بنبرة لا تليق برزانة السيّدات:

- «اللعنة على هذا الرأس العنيد، أيشقُّ عليك قول صباح الخير أيضًا؟».

- «قلتُ صباح الخير».

- «أجل، أجل، ولكن بأيّة نبرة؟!». تابعت وهي تستند على الوسائد المطرّزة. «تعالي...».

نقرت بأطراف أصابعها على حافة السرير.

- «كفاك عبوسًا... اجلسي. اذهبي وخذي تلك المرأة إلى منزل الحوذيّ.. افعلي ما تشائين.. إنّك تعرفين هذه الأمور أكثر مني».

تقرّر عقد حفل زفاف إحدى شقيقات الكونتيسة في يوم أحدٍ من شهر مارس. غادرت السيّدة فون غارليتس مع أولادها عند الفجر إلى

قصر عائلتها حيث يُقام الحفل. اعتزم زوجها العودة من بروكسل على متن طائرة. الشكر للربّ، تنهّدتْ آنا، سيصبح القصر أخيرًا ملكها حيث يمكنها التصرُّف على هواها. وفيما تقلّبت على السرير مرّة أخرى، خطرت على بالها أغنية شعبيّة: «إنّها فرحة يوم الأحد، سأبقى في سريري حتى تمام العاشرة، ولا شيءَ يمكن أن يزحزحني عنه...». ولكن عند تمام التاسعة، دوّت ضربات مبرِّحة على باب غرفتها. كان أوتشن يستشيطُ هلعًا، ولم يستطع نطق الكلمات إلّا بشقّ الأنفس. لقد أُسقطت الطائرة العسكريّة التي تقلّ السيّد فون غارليتس إلى برلين فوق بوهيميا، ولم ينجُ أيُّ راكبٍ فيها. تغلّبت آنا بسرعة على الوقع الصادم للخبر، ولم تحاول التظاهر بالحزن. التهبت نيرانُ قلقها على السيّدة فون غارليتس فحسب، التي عاودت الظهور عند عتبة القصر بحلول منتصف الظهر. أُجِّلت مراسم الزفاف. أعطت أوامرها برباطة الجأش المثيرة للإعجاب التي تتطلّبها مكانتها الاجتماعيّة، بيد أنَّ منخرَيها كانا يرتجفان قليلًا بين حينٍ وآخر. حافظت على هدوئها، وكان لا بُدَّ من التحضير لإقامة جنازة رسميّة.

بُعثت آنا على وجه السرعة لإبلاغ السيّدة كيتلر شخصيًّا بنبأ الموت المُفجع لقرّة عينها. شقّت طريقها نحو الڤيلا النائية على عربة يجرُّها حصان. عبر نفقٍ مظلمٍ من أشجار التنوب، تفوح فيه رائحة رطبة وحارّة، اجتازت مدخل العمّال. دفعت الباب، لم يكن هناك أحد. صوت الجرس الكهربائيّ الذي تستدعي عبره سيّدةُ المنزل الخادمةَ إلى غرفتها بالضغط على دوّاسة بجوار الكرسيّ، كان يتردّد على فتراتٍ منتظمة.

عبرت آنا الممرّ مشدوهة. أين طاقم الخدم؟ هل ذهب جميعهم في إجازة يوم الأحد؟ ولماذا يرنّ الجرس إذًا؟ على الرغم من عدم معرفتها بهذه الڤيلا، لم تجد صعوبة في العثور على غرفة السيدة؛ كان عليها تتبُّع مصدر الصوت المتقطِّع فحسب. الباب مُوارب. ألقت نظرة داخل الغرفة ذات الإضاءة الخافتة، أغصان الأشجار تتزاحم على النافذة. أمام وهج النار المشتعلة في الموقد، التي يبدو أنَّ يدًا ماهرة أضرمتها، كانت عمّة السيّد فون غارليتس مستلقية على ظهرها فوق البساط الفارسيّ. يعلوها كلبها الحارس الأثير، فيما يتحرّكان بأقصى طاقتهما. كانت الدوّاسة تحتها، لذا استمرّ الجرس بالرنين. وعلى ما يبدو، لم يكن لديها وقت كافٍ لتنحية الدوّاسة قبل بدء هذه اللعبة الغريبة. حبست آنا أنفاسها. لم تتخيّل قط أنَّ المشهد الماثل أمامها، المُضاء من أحد جانبيه بتوهّج النار، يمكن أن يكون حقيقيًّا، ولم يبارحها الشكُّ حتّى بعد أن رأته بأمّ عينيها. بمزيجٍ من الرعب والتعجُّب، حدّقت في الوجه الملفوح بالحُمرة للسيّدة المغرمة بالحيوانات؛ لم تكن اللحظة مواتية لتكديرها بالخبر. نظر الكلب بعيدًا بعينين برّاقتين. فجأة، خافت آنا من أن يشتمّ رائحة وجودها. ركضت عبر الردهة وغادرت المنزل، عائدة، عبر ممرّ أشجار التنوب الذي يشبه المَطْهر، نحو العالم الطبيعيّ حيث بدا المشهدُ بالفعل مثل حلمٍ غريب.

حين عادت إلى القصر، قالت إنّها لم تجد السيّدة كيتلر في منزلها. عجزت عن التفوُّه بالحقيقة، حيث سيتّهمونها بالتخيُّلات الجامحة. فضلًا عن انشغال الجميع بالحادثة الغامضة للطائرة العسكريّة؛ كيف تحطّمت فوق بوهيميا البعيدة كلّ البعد عن الطريق بين بروكسل وبرلين؟ ففي

ذلك اليوم، لم تأتِ أخبار عن غارات قصفٍ تستدعي توخّي الحذر. تردّدت شائعات سريّة أنَّ التخلُّص من السيّد فون غارليتس جرى لأسباب سياسيّة. فقد تزايدت مؤخرًا الحوادث المميتة التي تتعرض لها شخصيات غير موثوقة. حافظت آنا على رجاحة العقل. لم تستطع تخيُّل أنَّ إزهاق حياة ذلك القرد المتبجِّح تستلزم التضحية بطائرة عسكريّة. لكنَّها راحت تعي شيئًا فشيئًا وجود حقيقة أخرى خلف تلك المقبولة عند العموم. تمامًا كما في حالة السيدة كيتلر، التي أخفى مظهرها الخارجيّ شيئًا آخر، مُغايرًا وعصيًّا على التصديق.

بعد بضعة أيّام، وصل التابوت الحاوي على رفات الميت. أوكلت المهمّة إلى البستانيّ. اقترب الأخيرُ صوب آنا، من وراء السياج، وقال لها والخوف يغلي في نظرات عينيه:

- «أتعلمين... لا يوجد شيء في التابوت...».

- «آه، هذا غير صحيح».

تقهقرت آنا. بيده المُثلَّمة، التي قضت نصف قرنٍ في معافرة الأرض، أمسك بمرفقها وقادها إلى المبنى الخارجي حيث كان التابوت ممدّدًا على ركائز في الظلام الخافت. حجمه أصغر من أن يضمَّ جثّة رجل بالغ. وحين رفعاه، لاحظا خفّته الغريبة، واستشعرا شيئًا بداخله، يتقلّب من جهة إلى أخرى.

- «لا أعرف ما هذا الشيء، لا يمكن أن يكون شخصًا كاملًا بأي حال من الأحوال»، همس البستانيّ.

- «لا ينبغي للسيّدة فون غارليتس أن تلاحظ ذلك أبدًا»، قالت

آنا باستعجال، «ضع الحجارة بداخله، قبل الجنازة، حتى يصبح بالثقل المناسب. هذا الشيء سيُحمَل قريبًا. غطِّه بالأعلام وزيّنه بالأزهار والأكاليل الخضراء».

حتّى وقتٍ متأخِّر من الليل، جلست خلف ماكينة الخياطة في غرفتها، كي تصنع فستان حداد لكريستا، الابنة الصغرى للسيّدة فون غارليتس، ذات الأربعة عشر ربيعًا، من أحد فساتين السهرة السوداء التي اعتادت أن ترتديها والدتُها.

- «ماذا تفعلين يا آنا؟»، تسلّل صوت الكونتيسة فجأة، ضعيفًا وخاليًا من النغمة، عبر ضوضاء الماكينة.

- «ليس لدى كريستا فستان للجنازة»، تمتمت آنا وهي تضغط على ثلاثة دبابيس بين شفتيها.

ارتمت السيّدة فون غارليتس على كرسيّ، بفستان نومها. حدّقت بهدوء مُلاحِقةً حركات آنا.

- «ماذا كنتُ سأفعل لولا وجودك؟»، همست، «لم يغمرني أحدٌ بالعطاء الذي قدّمتِه من أجلي».

آنا، التي لا تفقه طرقَ تلقي الثناء والردّ عليه، احمرَّت خجلًا حتّى فروة رأسها وانكبّت على ماكينة الخياطة بطاقةٍ مضاعفة. ظلّت السيّدة جالسة على كرسيّها المستقيم، تومئ برأسها، كما لو أنَّ آنا هي ملاذها الوحيد والأخير. انحنى رأسها نحو الأمام بين حين وآخر، وكانت ترفعه برعشةٍ مفاجئة كلّ مرّة، كأنّها، بين حين وآخر، تتذكّر حقيقة ترمُّلها السابق لأوانه. ضجّ رأس آنا، حتّى كاد ينفجر، قلقًا بشأن الجنازة في

اليوم التالي. كان لزامًا استقبال الضيوف الكِرام استقبالًا يليق بمكانتهم الاجتماعيّة ومنصبهم الرسميّ؛ من دون السماح بأيّ خطأٍ خلال التشييع العسكريّ... ينبغي لهذه المهزلة الهادفة إلى تكريم ذكرى تلك الشخصيّة النكراء أن تتمّ من دون أن تشوبها شائبة.

كان الفستان جاهزًا عند شروق الشمس. لا جدوى من الخلود إلى النوم. شعرت بإشراقةٍ غريبةٍ بدّدت التعب والنعاس. أوصلت السيّدة فون غارليتس إلى غرفتها، تتكئ على كتفها بكلّ ثقلها، ثمّ هرعت إلى الطابق السفليّ. كان الجوُّ باردًا وكامدًا في ذلك اليوم. التزم الجميعُ بما يمليه السيناريو؛ حيث لعب الضيوف الرسميّون أدوراهم بوقارٍ خالصٍ ينمُّ عن اعتيادٍ، ما دفع إلى استنتاج أنَّ الجنازات أمر شائع وبديهيّ في حياتهم المهنيّة، ولا يقلُّ شأنًا عن وضع الخطط الإستراتيجيّة وتفقُّد القوّات. في المقدّمة، وراء النعش المغطّى بالأعلام النازيّة والأزهار، سار المبعوث الممثِّل لهيرمان غورينغ، عاضًّا على أسنانه، عريضًا وضخمًا مثل دبّابة. خلفه، مشت السيّدة فون غارليتس محاطة بأطفالها، تبدو طافية في الأثير كملاكٍ أسود، شاحبة وهادئة ومنفصلة عن هذا العالم. بعد الإسهاب في تعداد مناقبه وخدماته السخيّة للوطن الأمّ، في تأبين طافحٍ بصيغ البلاغة الإنشائيّة، تناثر طوفان الكلمات بين أوراق أشجار الكستناء ودُفن الميت في مقبرة العائلة، في جوف الأرض التي وُلد فيها؛ ليس لفترة طويلة، كما سيُظهر التاريخ.

أكثر ما يرهق في الحرب، برأي آنا، هو استمرارها وكأنّها أمر بديهيّ، من دون أن يتمكّن المرء من التوقف عند أيّة كارثة أو مأساة. ما انفكّت

المشكلات الجديدة تظهر طوال الوقت وكان لا بُدّ من إيجاد حلول فوريّة لها. المزيد، فالمزيد، فالمزيد، والحبل على الجرّار. استمرّ العمل، الكفاح، من أجل الحفاظ على كلّ شيء فحسب، في انتظار الـ... في انتظار ماذا؟

كان هناك أيضًا أولئك الذين عارضوا ما بدا حتميًّا. فبعد شهر واحدٍ من وفاة زوجها، استقبلت السيّدة فون غارليتس زوّارًا غرباء ذات مساء. من نافذة غرفتها في الطابق الأوّل، رأت آنا ثلّة من السادة لدى وصولهم، شقّوا طريقهم نحو الباب الأماميّ بهدوءٍ ومن أجل هدفٍ معيّن، يتأبّطون حقائب صغيرة. عرفت بعضًا منهم، ضبّاطًا بزيٍّ مدنيّ كانوا قد حضروا الجنازة. استقبلتهم الكونتيسة في الصالة الكبرى التي كانت أسفل غرفة آنا مباشرة. ارتفعت همهمة الأصوات عبر مجرى الهواء الساخن للموقد الذي لديه كوّة في غرفتها.

وضعت آنا المحبرة على المنضدة، وغمست ذروة القلم بها، وانحنت فوق ورقة بلون أزرق باهت. شقَّ عليها ترتيب الكلمات الحائمة داخل رأسها في جملٍ ذات معنى، هيمنت عليها شذرات من المحادثات الدائرة في الأسفل؛ لقد تحلّقوا حول الموقد بلا شكّ. جرى التطرُّق مرارًا وتكرارًا إلى وكر الذئب[1] ومقرّ بيندلر[2]. تبيّن أنَّ أحد الحاضرين مكلّف للقيام بمهمّة في هذين المكانين، نُوقشت تفاصيلها ومواعيدُها بدقّة متناهية. تحت النبرة الهادئة العقلانيّة، استطاعت أن

(١) مقر هتلر أثناء الحرب العالمية الثانية، أدار منه المعارك، يقع في غابة من غابات مقاطعة بروسيا الشرقية. (المترجم)

(٢) مجمع أبنية في أحد أحياء برلين، كان مقرًّا للقيادة العليا للدفاع والجيش في العهد النازيّ، كما كان المقرّ الرئيس للمقاومة التي نفذت مؤامرة ضد هتلر عام ١٩٤٤. (المترجم)

تستشعر توتُّرًا مكبوتًا شحذ انتباهها. لم ينخرط صوت السيّدة فون غارليتس في النقاش. كانت مساهمتها الوحيدة، التي تقتضيها الأنوثة، هي توفير الفرصة لعقد هذا اللقاء. حاولت آنا تجاهل الكلمات التي ترنّ في أذنيها، لكنْ، بينما توغل المساء أكثر، واستمرّ قلمها يحوم عبثًا فوق الورقة، كانت معاني تلك الكلمات تصلها بوضوحٍ، كأنَّها موجَّهة إليها تحديدًا. لفحها البرد. بدأ من قدميها، وتغلغل صعودًا ببطءٍ إلى ساقيها وحتّى جذعها. لكن رأسها كان محمومًا بفكرة أنَّها الوحيدة في العالم التي تعلم بشأن خطّةٍ هائلة الجرأة. خطّة من شأنها أن تخلخل نظام الأشياء جذريًّا، وتحدث تغييرات مذهلة ليس بوسعها مجرّد تخيّلها. أحسَّت بثقل رأسها، كان العبء ثقيلًا للغاية بالنسبة لها. دفعها شعور مفاجئ بالوحدة إلى التفكير بالبوح للورقة الزرقاء بكلّ ما سمعته، لكنّ القلم تردّدَ أمام حقيقة الخطورة التي تداني الموت إذا ما أُودعت رسالة تضمّ هذا المحتوى في مكتب البريد. جلست بلا حراك حتّى غادر الزوّار، تاركين القصر في صمتٍ مشؤوم، القصر الذي صار الآن يأوي بين جدرانه ليس سرير الإمبراطور البائس فحسب، بل كذلك سرًّا بدأ العدُّ التنازليّ في مؤقّته.

*

كأنَّ يدًا خفيّة قد أرشدتها إلى الطريق، فقد انتهى بهما المطاف في المخبز الذي يقدّم حلوى ميرڤيّو لا تُضاهى. على الطاولات الأخرى، كانت النساء من جيلهنّ، بكامل أناقتهنّ، يتذوّقن الكعكات أمامهنّ بلقماتٍ صغيرةٍ، غارقات في دردشات مرحة حول الأمور اليوميّة. لماذا

حُكِم على لوته وآنا، في هذا السنّ، بالنبش عميقًا وبلا نهاية في ذكريات الحرب، في هذا العمر، في تاريخ لا يستطيع أحدٌ تغييره؟

كانتا تتبادلان النظرات، على مرأى الصحون الفارغة أمامهما، بترقُّب.

اخترقت آنا الصمت كعادتها.

- «ما تناهى إلى سمعي عبر المدخنة نُفِّذ بحذافيره. لقد قرأت عن ذلك بعد سنوات؛ باستثناء تلك المصادفة الصغيرة التي لم تكن متوقّعة. لقد ضاقوا ذرعًا بالرّسام الساذج. كانت كارثة ستالينغراد النقطة التي فجرّت الانقلاب في تفكير الأرستقراطيين ذوي العقليّة القوميّة، لأنَّ أبناءهم كانوا يموتون هناك أيضًا. انتهى الحلم الكبير. أيقن الخبراء العسكريّون منهم استحالة النصر في تلك الحرب، كانت أملاكهم مهدّدة بالخطر إذا واصل الروس تقدّمهم، فضلًا عن الخطر المُحدق بمكانتهم ككلّ. وهنا بزغت المؤامرة. قدّمت السيّدة فون غارليتس خدماتها، متأثّرة بلا شك بوالدها، ذلك البروسيّ شديد البأس الذي كان من الحرس القديم ويتمتّع بعلاقات جيدة. وأنا في غرفتي، سمعت كلّ شيء قالوه، كما لو أنّي جالسة بينهم! اجتمع المتآمرون كلّهم هناك وخططوا للاغتيال بأدقّ التفاصيل. كانوا سينجحون لولا سوء الحظّ الرهيب. في مقرّ بيندلر ببرلين، كان كلّ شيء جاهزًا. عند سماع كلمة السرّ، سيتمرّد الضبّاط ويعتقلون أعضاء الحكومة ويشكّلون تحالفًا لبسط السلام على الفور. كفى حربًا! لو كُتب النجاح لذلك، لكان مارتين على قيد الحياة اليوم، مثل الملايين

غيره، ولنجت مدن كثيرة من الدمار. كنتُ سأعيش حياة مختلفة بالمطلق. لا أعرف إن كانت أفضل، لكن بالتأكيد ليست أكثر إثارة للاهتمام؛ يا إلهي، ربّة منزلٍ في ڤيينا! في ذلك الوقت، لم يكن كلّ ذلك في خاطري. أصابني خوف جارف ولم أعرف ما الذي ينبغي فعله. كنت ملتزمة بالقانون بالرغم من عدم حبّي للفوهرر. آمنتُ بضرورة وجود السلطة، وما زلتُ كذلك حتّى اليوم، وفي النهاية، ثمة مسؤولية تقع عليّ... كنتُ ألمانيّة جدًّا من هذه الناحيّة، أقرُّ بذلك. عاد مارتين يوم الأحد التالي. أخبرته بما سمعت. امتقع وجهه. قال لي: لا تقولي كلمة واحدةً عن الأمر، اعتبري أنّك لم تسمعي شيئًا عنه. لا شيء إطلاقًا. أدعو الرب أن ينجح الأمر!».

طلبت لوته كوبًا آخر من الشاي، وقالت مستخفّة بسريّة آنا:

- «حسنٌ، لو نظرنا قليلًا إلى الوراء، فإنّ حديثك عن الخطّة أو عدمه لم يكن ليغيّر شيئًا. لقد باءت محاولة الاغتيال بالفشل بكلّ الأحوال».

كان لآنا رأي مختلف.

- «لو أنّي كشفتُ نواياهم في ذلك الوقت، فلربّما وضعوا خطّة بديلة، خطّة لن تفشل. في هذه الحالة، لم يكن التكتّم صائبًا».

أدّت هذه التخمينات إلى نقاشٍ عبثيّ تكرّرت فيه كلمة «إذا» بمعنى «ماذا لو». باختلافاتها المُختلقة، أعادت كلّ منهما رسم مسار التاريخ بيدها، وبنبرةٍ عدائيّة، لأنَّ غاية لوته، قبل كلّ شيء، هي معارضة آنا.

سئمتا من المشاحنات، وغادرتا المطعم في النهاية. كانت آنا مرهقة ومستثارة، وبدا مستحيلًا لها أن تقنع أختها؛ تُرى ما السلاح الذي وجب عليها المناورة به؟ أمّا لوته فقد أغضبها أنَّ آنا توهّمت لنفسها دورًا جوهريًا في قضيّة كانت فيها مجرّد مشاهدٍ خارجيّ.

٨

- «لو أنَّ بحوزتك مسدَّسًا الآن، وكان هتلر قاب قوسين أو أدنى، هل ستطلقين النار عليه؟».

نظر إليها ليون شتاين مبتسمًا ابتسامةً حزينة. كانا يسيران في الغابة؛ لوته تفوقه طولًا. تمشّى في وضحِ النهارِ بجانبِ صفٍّ من أشجار الزان، بدمٍ باردٍ، مدَّ لها ذراعه كما لو أنَّها خطيبته. كانت تلك البرودة جزءًا من طريقته للبقاء حيًّا؛ فقد نجا سالمًا من كثيرٍ من المواقف الحرجة. لم يلقِ بالًا لحياته الخاصَّة، كان جلّ اهتمامه منصبًّا على حياة الآخرين. أجابت أخيرًا بتردُّد:

- «أظنُّ أنّي كنتُ سأفعل، لكنّي غير متأكّدة من قدرتي على ذلك».

اجتازا صفَّ الأشجار الذي ما زال يُخفي سرَّ الصندوق بصرف النظر عن تنبؤات العرّاف. اتّباعًا لتعليماته، شرعوا في بحثٍ شاملٍ جديدٍ، لكنّهم لم يعثروا على شيء. أصبحت الأرض رخوة ووعرة كما لو أنَّ مستعمرات الخِلْدَان تتنازع على امتلاكها. فضلًا عن الغموض الشديد الذي اكتنف عبارته؛ «قرب الشجرة الخامسة».

- «أواجه مشكلة...»، اعترف ليون. «قبل شهر، وجدنا مأوى

لعائلة يهوديّة؛ أب وأمّ وأطفال، في ثلاثة أماكن مختلفة. في تلك الأثناء، أُبلغ عن المرأة واعتُقلت لكن سرعان ما أُفرج عنها. ومنذ ذلك الحين، كانت تتجوّل في الشوارع من دون مضايقة فيما أُلقي القبض على عددٍ منّا: أولئك الذين قدّموا لها القسائم التموينيّة وبطاقة الهويّة وعنوان المخبأ. لاحقناها وتأكّدنا من الأمر. تدركين جيّدًا أنّنا لن نقف مكتوفي الأيدي لنرى من سيكون الضحيّة التالية».

نظر إليها بعينين مغمضتين تقريبًا، كأنّه يتحدّث أثناء نومه.

- «اتّخذنا القرار: ينبغي تصفيتُها». شدّ ذراعه بإحكامٍ أكبر. «في بعض الأحيان، لا مفرّ من التضحية بحياة شخص من أجل سلامة الآخرين».

نظرت لوته إليه مذعورة.

- «من أجل إنقاذ حياة عائلتي، سأفعل أكثر من ذلك أيضًا، على ما أعتقد...».

- «بالضبط»، أومأ.

- «من سيتولّى تنفيذ ذلك؟»، سألت بعد صمت طويل.

الرجل الصغير، الذي لم يستطع ترك الأسئلة الكبرى من دون إجابة، ركل جذر شجرةٍ يعترض الطريق بطرف حذائه.

- «هذه هي المشكلة!».

بعد بضعة أيّام من التواري، سارع إلى المنزل؛ تلألأت نظّارته بوهجٍ مشوّش. لا وقت لسؤاله عن أيّ شيء.

- «هناك حملة قادمة، يمكن أن يصلوا في أيّة لحظة»، أشار بيده إلى اتجاهٍ غير محدّد.

المنزل يعجُّ بفوضاه المعتادة. كلّ أولئك الذين لم يكونوا موجودين بصورة رسميّة، وليس لديهم الحقّ في المطالبة بشبرٍ واحدٍ من مساحة سطح الكرة الأرضيّة، تناثروا مثل ذرّات الهواء في العدم. اعتادوا إزالة كلّ أثر لوجودهم بوتيرةٍ مذهلةٍ: أوراق اللعبة التي ما زالت دافئة من حرارة أيديهم، الكتب الممنوعة التي طالعوها، أسرّتهم غير المرتّبة. أمّا أفراد العائلة الهولنديّة البسيطة التي عاشت هناك فكانوا يمارسون أنشطتهم اليوميّة بانهماكٍ ظاهريّ؛ على أمل ألّا يسمع أحدٌ دقّات قلوبهم التي تصمُّ الآذان.

ظنّوا أنَّ إرنست غودريان مختبئ خلف المرآة، كما العادة، إلى أن ظهر في المطبخ، بنظّاراته التي غشاها الضباب، مرتديًا معطفًا جلديًّا طويلًا وحقيبة عدّة معلّقة على ظهره. كانت لوته تغسل الأطباق للتمويه.

- «جئت للوداع»، مدّ يده الراعشة ليصافحها.

مسحت لوته يديها بمئزرها.

- «وداع؟ لماذا؟».

- «لستُ... لستُ قادرًا على تحمّل الحال بعد الآن»، تلعثم، نزع نظّارته ثم أعادها. «أنا... هذا التوتُّر... الذي يحدث كلّ مرة... أنا.. أنا عازم على المغادرة».

- «المغادرة؟»، كرّرت لوته، ماثلةً أمامه مباشرة. «أتذهب بقدميك

لترمي نفسك في قبضتهم! كيف خطر لك شيء كهذا؟ ستجني علينا جميعًا!».

هزَّ رأسه بشراسة. وحاول طمأنتها:

- «لديّ بعض الزرنيخ...».

فغرت فمها، وشدّدت على مقاطع الكلمة.

- «زرّ نيخ... لقد فقدت عقلك بلا شكّ... هات الحقيبة واخلع معطفك فورًا...».

مدَّت يدها بإشارةٍ آمرة. وقف مقابلها بلا حراك. تسرَّبت أصوات قادمة من بعيد. كلاب تنبح؟ هدير محرِّك؟ لم ترَ عينيه، بل تلك النظَّارة الخرقاء، التي غشّى الضباب عدساتها، وخلفها وجهه الرفيع الذي بدا شاحبًا متشنّجًا من التوتُّر؛ ربّما كان بحاجة لهزّة عميقة. كان لكلٍّ منهما تأثير منوِّم على الآخر، إلّا أن الضوضاء الآتية من الخارج أخذت تقترب رويدًا رويدًا أثناء ذلك الاختبار الصامت للقوّة.

- «تعال...»، أهابت به لوته.

ساعدته في خلع المعطف وسحبت الحقيبة. فجأة انقاد لمشيئتها، مثل كلبٍ يطيع سيّده طاعةً عمياء، ضد غرائزه.

- «لكنّي لن أختبئ في الخزانة بعد الآن!»، صرخ بتمرُّد.

من دون إعطائها الفرصة للحيلولة دون رغبته، استدار وغادر المطبخ مسرعًا عبر الحديقة، نحو الإستوديو الخاصّ به، تاركًا لوته مع المعطف والحقيبة.

توقّفت شاحنة تابعة للشرطة أمام المنزل. انتشر عشرات الجنود تنفيذًا لإرشادات مسرحيَّة مضحكة بسخافتها. اتخذ البعض مواقعهم كحرَّاسٍ مخيفين في نقاطٍ إستراتيجية لسدّ طرق الفرار المُحتملة، فيما فتَّش آخرون المنزل وسحبوا الستائر بحثًا عن غرف مخفيَّة. توجَّه أحد الضباط بخطوات صارمة، بين أشجار التفاح، نحو حجرة السلّ. قادت سيّدة المنزل بعضهم إلى نافذة غرفة نومها للاستمتاع بالمشهد المُطلّ على المروج وأطراف الغابة. كانت الزرقة الصافية للسماء وأشعة الشمس المتداخلة بين الأغصان تكذِّب الخطر الدّاهم للموقف. لوته، التي خارت قواها من جرَّاء الصمت والسكون المحيطين بالإستوديو، واصلت الذهاب والإياب إلى النافذة، متوقِّعةً رؤية إرنست غودريان يخرج ويداه مرفوعتان في الهواء، والبندقيّة مصوَّبة على ظهره. أخيرًا، لم تعد تطيق الانتظار، سلكت المسار الذي عبره الضابط. ألقت نظرةً عارضةً، كأنَّها من قبيل المصادفة، عبر النافذة الخلفيّة للورشة. كان إرنست، ونظّارته قد تدلّت قليلًا على أنفه، يحمل كمانًا غير مكتمل ويشير نحو شيء ما، غارقًا في شرحٍ متحمِّس. وضع الضابط قبّعته على طاولة العمل وأصغى باندهاشٍ، وبين الحين والآخر يهزُّ رأسه ويمسّد ذقنه. حين فتحت لوته الباب، تشتّت انتباههما ونظرا شزرًا. راح الألمانيّ يلامس بوسطاه خشب الكمان المعلَّق على الجدار.

- «التلميع جميل جدًّا...».

- «أفعل ذلك بنفسي، من دون أيّ طلاء»، قال إرنست متفاخرًا.

- «رائع، رائع»، هتف الآخر مبتهجًا.

نهض وعبّ نفسًا عميقًا وعيناه مغمضتان.

- «الرائحة طيّبة أيضًا... زكيّة...!»، تدارك.

انسحبت لوته مرتبكة. عادت إلى المطبخ مسرعة، وقبل أن تصل الباب، غمرها شعور بالنصر: فمَن كان، قبل لحظة، مستعدًّا لتجرُّع السمّ، خوفًا من المحتلّ، بات الآن يحتفي به، ويعرّفه بحماسةٍ على أسرار صناعة الكمنجات. تحوّلٌ مذهل أشبه بمعجزة خيمائيٍّ جعلها تنسى كلَّ المخاطر. كانت على وشك دخول المنزل حين سمعت صوت الكمان قادمًا من الخلف. تصاعدت أنغام حماسيّة، تلوّع الروح، من كونشيرتو لبيتهوفن مخترقةً الألواح الزرقاء الباهتة لجدران الإستوديو. انصرف اهتمام الجنود عن محتويات المنزل وتدافعوا إلى الحديقة لسماع موسيقى استراحة قائدهم. استمعوا بانضباطٍ كما لو أنَّ هذا جزء من النظام العسكريّ. تلألأت الأزرار المعدنيَّة لزيّهم الرسميّ تحت ضوء الشمس. ولمّا تحوَّل تفتيش المنزل إلى احتفالٍ موسيقيّ، خرج والد لوته أيضًا للاستماع ويداه في جيبَيه. تلاشت الأنغام الأخيرة، بدا حينها الصمت أكثر حدّةً من أيّ وقت مضى، حتّى حلَّق عقعقٌ عن أحد الأغصان مُحدثًا جلبة، وغادر الضابط الحالم الإستوديو. تجوّل بين أشجار الفاكهة، منتشيًا بالموسيقى. فجأة، اكتشف وجود جنوده، فمرَّر يده خلال شعره الأشعث، واعتمر قبّعته، واتّخذ سحنةً تليق بالحرب.

- «حسنٌ، ماذا تنتظرون؟»، قال بصوتٍ أجشّ.

تبدَّد هدير المحرك بعيدًا. عاود أولئك الذين لا وجودَ لهم الظهور، يفوحون برائحة التعرّق، وأعربوا عن دهشتهم لتدخُّل بيتهوفن المُذهل،

الذي تناهت موسيقاه إلى أسماعهم من وراء المرآة. كان بوسع ماكس فرينكل أن يتحدّث لساعاتٍ لا تُحصى عن قوّة الموسيقى. أمّا إرنست غودريان فما زال جالسًا وحده في الإستوديو، يلمّع خشب الكمان.

- «لقد أغويتَ القائد...»، قالت لوته بسرور وهي تجد لنفسها مقعدًا بين نشارة الخشب.

- «شكرًا لكِ»، قال مبتسمًا. «قلت لنفسي بينما أدخل الإستوديو: إنّها تغسل الأطباق كالعادة. وإذا توصّلوا إلى العثور على الناس المختبئين في المنزل خلسة، فهناك احتمال كبير أن يحضروا كلّ أفراد الأسرة ويجبروهم على الالتصاق بالجدار، فيما هي تغسل الأطباق كالمعتاد. ثمّ فكرتُ، لماذا لا أعود للعمل؟ مَن ينهمك في العمل تمامًا يصبح منيعًا إلى حدٍّ ما، يخرج من دائرة الخطر بطريقة أو بأخرى... كما لو أنّه خارج ميدان الحرب...».

استمعت إليه بصمتٍ وارتباكٍ. لم تكن في موضع عدم الاكتراث بهذا الثناء الموجَّه إليها. فقد أوقعها تأثيرُها الإيجابيّ على مصير هذا الشخص في إحراجٍ ممزوجٍ باللذة.

- «حتّى أنّه عزف مقطوعةً منفردةً من أجلك...»، تنهّدت في محاولة لصرف الانتباه.

أومأ إرنست برأسه.

- «يا له من هاوٍ متحمّس. قال لي: لو لم نكن في خضمّ الحرب، لاشتريتُ هذا الكمان منك». بافتخارِ الحِرَفيّ كرّر: «أراد أن يشتري كمانًا من صنعي!».

أنعش هذا الحادث الروح المعنويَّة للوته، وأعاد بشكل أو بآخر كفتي ما لها وما عليها إلى حالة من التوازن. متطهّرة بفكرة أنَّ هذا الشخص المتواري يخصها حقيقةً، لأنَّها حالتْ دون مضيّه في تصرّفه الانتحاريّ السخيف، لم تبدِ أي مقاومة لشعور الحب الجارف الذي غزاها، كما لو أنَّه نتيجة بديهيّة: فقد أُغرمت به وبكلّ تلك الأعمال الضروريّة في حرفة الكمنجات: النشر والصنفرة والتلميع والطلاء. الصفائح الأمامية والخلفيّة تُصنع من خشب القيقب اليوغوسلافيّ الناعم، أمّا لوحات الأصابع فمن الأبنوس، الطلاء الرديء يؤثّر على نغمة الصوت، الأطراف الجانبيّة تُثنَى بالبخار، حركَ كلّ هذا مشاعرَها، كما فعلت بها كذلك الرائحة اللاذعة لغراء العظام المُستخدم للصق المكوّنات المختلفة. لكنّ أكثر ما أحبّته في إرنست هو أنَّه لا يشبه والدَها من أيّة ناحية.

*

في الدليل السياحيّ الذي يهدف إلى تعزيز سمعة مدينة سپا كمنتجع صحيّ، جاء ما يلي: «حريٌّ بنزلاء المنتجعات الصحيّة في سپا أن ينسوا كلَّ شيء عن الحياة اليوميَّة. فهم يخوضون تجربة الحياة بوتيرة أكثر تباطؤًا وانتظامًا. ويتلقون أفضل خدمات الرعاية في بيئة محميّة، محاطة بالعناية، ومتصلة بشكل وثيق مع عالم العلاج الطبيّ. ما يجعلها رمزًا للثقة والأمان».

لم تلقِ الشقيقتان بالًا لهذه النوايا الحسنة. كان مستحيلًا تحقيق هذه «الوتيرة الأكثر تباطؤًا وانتظامًا». كلّما عرفت إحداهما أكثر عن المسار المُعاكس لحياة الأخرى، زاد التوتُّر، مشفوعًا بالقلق، من قطعيَّة الماضي.

أمامهما فرصة أخيرة للتقارب والمصالحة. كانت الأولى تروم ذلك، مدفوعة بحاجة ملحّة، إرادة حقيقية، فيما ظلّت الأخرى تقاوم، بسبب انعدام الثقة الذي لا يقلُّ عمقًا. اجتاحت الحرب أجواءَ علاجهما الصحيّ. استدعتا الأشباح، وسرعان ما ظهرت... بأرواحها الكسيرة، في أرض مقفرة، تحت سماء بلون الرصاص، تفوح برائحة البارود والفوسفور... مرثيّة نواحٍ على ما تبقّى من حقّ في الحياة والحريّة والإنسانيّة والإحسان المسيحيّ... قيمٌ كانت ذات شأنٍ في يوم من الأيّام، كلمات مستمّدة من لغة قديمة؛ إسبرانتو[1] السُذَّج. سارت الأشباح في أرتالاً وخلّفت آثارًا راسخةً في طريقها.

رغم أنَّ لوته وآنا كانتا مضطجعتين على الأرائك في صالة الاستراحة، لكنَّهما لم تغمضا عينًا، ولم تسمعا هديل الحمام. وحدهما في المكان هذا الصباح، واصلتا الحرب المعتادة، بوضعيّة أفقيّة هذه المرّة.

قالت آنا:

- «٢٠ يوليو، اليوم الذي باءت فيه محاولة اغتيال هتلر بالفشل. أتذكّره كما لو أنّه حدث بالأمس. ظلّت السيّدة فون غارليتس ملازمة للراديو. كانت تعرف موعد الحادثة بالضبط. أُذيع بيان مقتضب عن الهجوم، ولا شيء آخر، كانت تتوقّع ذلك. هتفتْ بفرحٍ جارفٍ، وتردّد صوتها في أنحاء الممرّات والسلالم: الشكر للربّ، لقد نفق الخنزير! تسمّرتُ مكاني. ظهر أوتشن فجأة وأعلنَ: الفوهرر حيّ،

(١) الإسبرانتو: لغة مصطنعة اخترعها لودفيغ أليعزر زامنهوف كمشروع لإرساء لغة تواصل دولية سهلة عام ١٨٨٧. (المترجم)

إنَّه يتكلّم عبر الراديو. يا إلهي، تمنّيتُ ألّا يكون أحد قد سمع ما قالته السيدة. المنزل طافح بالغرباء! لم نكتشف حقيقة ما جرى إلّا في وقت لاحق. الفوهرر، الذي لم يكن من عادته مغادرة كرسيّه أثناء الاجتماعات، استدار حول الطاولة نحو الجانب الآخر، قبيل لحظات من انفجار القنبلة. أُلقي القبض على المتآمرين على الفور، قُتل فون شتاوفنبرغ[1] في اليوم ذاته. لم ينجُ أحد من السادة الذين رأيتهم عند عتبة الدرج، يتأبطون حقائبهم، بمن فيهم ابن شقيق الكونتيسة. لم يعد ذلك الخنزير يريد أيًّا من أولئك الضبّاط الكبار المنحدرين من عائلات مرموقة... شُنق معظمهم في پلوتسينزي، معلّقين على خطّافات الذبائح».

- «عرضة على مرأى الجميع...».

أومأت آنا برأسها.

- «كي يكونوا بمثابة عِبْرَة مروِّعة. زُجّ أولادهم ونساؤهم في معسكرات الاعتقال. بدأت حملة تطهير صارمة، وكلّ من حامت حوله أدنى الشبهات كان مصيره السجن».

- «ماذا بشأن السيّدة فون غارليتس؟».

- «لم يكن أحد يعلم أنَّها متورِّطة بالقضية».

*

(١) كلاوس فون شتاوفنبرغ (١٩٠٧-١٩٤٤) ضابط في الجيش الألماني، شخصية محورية في محاولة الاغتيال الأهم التي تعرض لها هتلر، أعدم رميًا بالرصاص. (المترجم)

«مستلقيًا على ظهري، أشاهد الطائرات تحلّق فوقي»، كتب مارتين في رسالته من نورماندي، وأرفق معها صورتَين. في الأولى كان متربّعًا على صخور جبل القدّيس ميشيل، بمعطفه العسكريّ، ينظرُ عبر البحر صوبَ إنكلترا، أمّا الأخرى فيظهر فيها جالسًا على جناح طائرة إنكليزيّة محطّمة، تحمل صورة نجمة على جانبها. بعد أسبوع، جاءت مكالمة مفاجئة منه. «أنا قريب جدًّا، هنا في اشتتين». حُلَّت وحدة الإشارة التي ينتمي إليها. وأُرسل عناصرها لتدريب قصير ضمن دورة المشاة، في ثكنة تابعة لقوّات الدفاع عند بحر البلطيق. ابتكر قائد الوحدة البارع، الذي سمح لهم ذات مرّة بالمغادرة من أوكرانيا في إجازة غير قانونيَّة، حيلة جديدة. تلقَّت كلُّ الزوجات برقيّات تقول إنَّ أزواجهنّ في حالة مرضيّة خطيرة. مصطحبة هذه الورقة الرسميَّة في جيب سترتها، التي تخوّلها السفر نحو الشمال، استقلّت آنا القطار. ومرّة أخرى، في نهاية الرحلة، ارتفع جدار رماديّ شديد الانحدار فيما كان القطار ينحرف انحرافًا حادًّا إلى أحد الجانبين. ماذا يخفون وراءه؟ تساءلت آنا. تذكّرت ذلك السلاح المعجزة الذي ضجّ الراديو بالإشادة فيه، السلاح الذي سينصر ألمانيا في الحرب. ربّما تكون صواريخ V2 مصفوفة خلف ذلك الجدار! لكنّ تصدّعاتٍ بدأت تظهر في الجدار العملاق، كان يتحرَّك، بالتزامن مع انحراف القطار، حتى تلاشى، ورأت آنا فجأة، لأوّل مرة في حياتها، مساحة غير متناهية من المياه الرمادية، تطفو على سطحها سفينة.

توقّف القطار عند منتجع على الشاطئ. ترجّل عدد هائل من الشابات، تحمل كلّ منهنّ حقيبتين. بسهولة يمكن معرفة ما تحتويه هذه

الحقائب؛ واحدة مملوءة بأطعمة منزليّة والأخرى محشوة بالثياب. سرن بخطى متردّدة في الساحة الصغيرة أمام مبنى المحطّة، ذهابًا وإيابًا، حتى أدركن جميًعا أن مشكلتهنّ مشتركة: كيف ينقلن هذه الأمتعة الثقيلة إلى الفندق؟ تقدّمت امرأتان ملفوحتان بالشمس، تجرّان عربة تفوح برائحة السمك، نحو آنا، بعد أن ألقتا نظرات فاحصة، بيد إحداهما صورة من صور زفافها.

- «أأنت السيّدة غروزالي؟».

- «نعم»، أجابت آنا متفاجئة.

- «طلب إلينا زوجك أن نصطحبك وأمتعتك».

من دون انتظار لإجابتها، عمدتا إلى تحميل الأمتعة في العربة. انفجرت النساء الأخريات بكيل الشتائم الغاضبة: لماذا لم يقم أزواجهنّ بالترتيبات من أجلهنّ؟

- «يا إلهي!»، صرخت آنا، «ما خطبكن! ليس عليكنّ سوى تحميل الأمتعة على العربة ودفعها معنا!».

وهكذا، دفعت مجموعة من النساء اللواتي يرتدين فساتين صيفيّة مزركشة بأزهار الحرب، العربةَ الثقيلةَ فوق حصى الطريق غير المستوية، نحو الفندق الواقع على الشاطئ. اتّضح أنّه في الليلة السابقة، التقى مارتين بصيّاد وأعرب عن حاجته، واتفقا على ترتيب إحضار آنا من المحطّة مقابل بضع علب من السجائر.

كان الفندق جاثيًا على قمة كثيب رمليّ، كما لو أنّه يتحدّى البحر باستفزاز: تعال إليّ، هيّا، إن كنت تجرؤ. الثكنات على بعد ثلاثة كيلومترات.

اعتاد عناصر الوحدة على السباحة كلّ مساء بإذن الضابط. تركوا ثيابهم العسكريّة على الشاطئ، ساروا مسافة ثلاثة كيلومترات بملابس السباحة المبلّلة، وأمضوا الأمسيات مع زوجاتهم في غرف الفندق. ذات ليلةٍ من الليالي الحارّة، انطلق مارتين وآنا للسباحة، كما اعتادا ذلك في البحيرة. انعكس ضوء القمر على سطح الماء الأملس. سبحا، جنبًا إلى جنب، بوتيرة هادئة وثابتة. منحهما البحرُ إحساسًا بالحريّة، كأنَّ قوانين الحرب لا تسري إلّا على اليابسة.

- «سمعت للتوّ عبر الراديو أنَّ الروس قد وصلوا إلى شرقي بروسيا»، قال مارتين دون أن يحاول إخفاء فرحته.

- «لن يستغرق الأمر وقتًا طويلًا إذًا»، قالت آنا بعد أن بصقت رشفة من الماء.

غطس وخرج بعد برهةٍ.

- «بمجرّد أن تنتهي هذه الحرب الغبيّة»، هتف مغرغرًا، «سننتقل إلى ڤيينا أخيرًا، وإلى الأبد».

بحماسة، شبه مخمورَين، استمرَّا في السباحة حتّى استدار مارتين وقال بدهشة:

- «لقد ابتعدنا كثيرًا عن الساحل».

تلفّتت آنا حولها تلقائيًّا. خط أبيض رفيع يمتدُّ عند الأفق، هذا كلّ ما تبقى من مشهد الشاطئ. راحا يسبحان بالاتجاه المعاكس. وحين أدركا أنَّ ذلك الخطّ لم يقترب قيد أنملة، ضاعفا المجهود. كان القمر يرافقهما، من دون أن تظهر عليه آثار التعاطف. واظب مارتين على الالتفات

نحوها وحثّها على المضي قدمًا. مياه البحر غزيرة، ينبغي إزاحة برميلٍ من المياه مع كلّ تجديفة. لهثت أنفاسها. كلّما حاولت جاهدة الحفاظ على هدوئها، غمرها الذعر أكثر. ظلَّ خطّ الأرض مرئيًّا بالبعدِ نفسه.

- «مارتين...»، صرخت بوهنٍ، اختفت تحت الماء ثم عاودت الظهور، «اتركني وشأني...».

- «سأساعدكِ».

مع أنَّ صوته بدا قادمًا من بعيدٍ، أحسَّت بذراعيه تحيطان بكتفيها.

- «بعد كلّ هذا، لن نموت غرقًا قبيل نهاية الحرب...»، سمعت صوته فجأة يقترب منها.

استسلمت له. فقدت شعورها بالوقت. لم تعرف كم مرّ من ساعات أو دقائق حين لم يعد لديه من قوة لإبقائهما طافيَين في الماء. سمعت صرخات استغاثته التي ترددت فوق سطح الماء مبهمة. استسلمت لفكرة اختفائها معه، غارقَين في البحر الأمّ، من دون حاجة لفعل أيّ شيء بعد ذلك. في غفلةٍ عن الانتباه، ومن دون أيّة مقاومة، تركت نفسها تنغمس في رحاب العدم الصامت.

بعد مرور دهر، كانت مستلقية على الرمال المحتفظة بدفئها، وهناك شخصٌ ينفخُ الأنفاسَ في فمها. رافقت عودتها إلى الحياة موجة من الغثيان سرت في عروقها. جفّفها أحدهم بمنشفة خشنة ودفّأ جسمها. لماذا لم يتركوها حيث كانت؟ فقد كان مكانًا يليق بها، شعرت فيه بالارتياح المطلق. لكنّ مارتين جالس قربها، تشوبه زُرقة شاحبة تحت ضوء القمر، يترقّب بقلقٍ عودة علامات الحياة إليها، بين يدي المُنقذ

الخبير. لم يمانع مارتين أن تحظى زوجته بقبلة الحياة من زميله الرَّقيب في الوحدة، الذي تمتّع بكتفين عريضتين وذراعَي مُصارع. في ذلك الوقت، لم تكن تعرف أنَّها ستلتاع حسرةً بعد بضعة أشهر، حين ستتذكّر هذه الليلة وتدخُّل الرقيب المتحمِّس، الذي حالَ دون السماح لها ولمارتين بأن يتلاشيا معًا.

في اليوم التالي، انتهت الإجازة غير الرسميَّة نهاية مفاجئة: كانت كتائب «ڤافن إس إس»[1] تراقب مجموعة عناصر المشاة الخاضعين للدورة التدريبيَّة. انسحبوا إلى الفندق غاضبين. لقد ضاقوا ذرعًا بالحرب، وكانت بشائر السلام القادم تتراءى لأبصارهم، ولم يخطر ببالهم أبدًا الانضمام إلى فيلق الغُلاة العميان. أخذ مارتين يلكم الوسادة بقبضتيه. هؤلاء الضبّاط المتشددون، المتعنّتون، الذين لم ترد كلمة استسلام في قواميسهم، ما الذي يخطّطون لفعله غير الإقدام على انتحار جماعي؟ ألا يردعهم حصار الإنكليز والأمريكان لهم من جهة والروس من جهة أخرى عن التضحية بمزيد من المحاربين الشباب لكسب رضا الآلهة وفقًا للطقوس الجرمانيَّة القديمة؟ للمرة الأولى والأخيرة، تمرَّد مارتين على كلِّ شيء. هزَّته آنا وحاولت تهدئته من دون اقتناع منها. «ليس بوسعنا فعل أيِّ شيء»، همس أخيرًا باستسلام: «ولا أيّ شيء».

غادرت الوحدة العسكريَّة إلى نورِمبورغ. اتجهوا جنوبًا من بحر البلطيق مرورًا بالرايخ الثالث في عربات مخصّصة لنقل الماشية والبضائع.

---

(١) الجناح العسكري للحزب النازي، يضمّ صفوفًا من المتطوعين إلى جانب أعضاء الحزب، يتبع للقيادة العليا لقوات الدفاع (الڤيرماخت)، وهو أحد الفرعين الأساسيين لقوّات الأمن الخاصة النازية التي تُسمى وحدات إس إس أيضًا. (المترجم)

رافقتهم الزوجات إلى برلين؛ باستثناء آنا، فلم يسمح لها مارتين بالسفر من دون توفّر كلّ وسائل الراحة.

- «انتهى النقاش. لا يوجد مرحاض ولا ماء. زوجتي لن تسافر في عربة ماشية مثل الدوابّ».

تسلَّق غاضبًا. ناولته آنا، التي كان عليها أن تنتظر قطار الركّاب القادم، حقيبة مملوءة بالأطعمة.

- «ماذا بها؟»، رمق الحقيبة.

- «طعام»، قالت آنا.

أعادها إلى الرصيف. رفعتها آنا ووضعتها على العربة من جديد.

- «خذيها معك، لدي ما يكفي من الطعام».

دفع الحقيبة مرّة أخرى، زامًّا شفتيه. أيكون الوداع على هذا النحو؟ فكَّرت آنا. دوّت صافرة الإقلاع. أحاط وجهها بيديه وقبّلها بمرارة. وحين غادر، كانت واقفة على الرصيف، تفرك يديها، بجوارها حقيبتان.

تردَّدت أصداء الأنباء عن وجود الروس شرقيَّ پروسيا بالتزامن مع موجات حرِّ الصيف، ما تسبّب في إثارة القلق من جانبٍ والسرور الخفيّ من جانب آخر. ظلَّ كلّ شيءٍ في القصر ومحيطه على حاله؛ أُنجزت الأنشطة الزراعيَّة والأعمال المنزليَّة بأقصى سرعة، في ديمومةٍ من الحركة الدائبة التي هيّجتها الحرب. لكن أسرى الحرب الروس وعمّال السُّخْرَة البولنديين، كما قال ڤيلهلم هامسًا، قد أمضوا وقتهم في حالة غليان مستمرّ، لم يكن بوسعهم إخفاؤه عن الحرَّاس إلّا ببذل أقصى درجات ضبط النفس الجماعيّ. أومأت آنا برأسها؛ لا يمكن الاستمرار على هذا

المنوال لفترة أطول. كانا في حديقة المطبخ، خلف نبتة الرّاوند الفارعة. أمسك الرجل يديها ودنا بوجهه المُخدَّد من أذنها؛ ظنّت أنّه يودّ تقبيلها.

- «حذّري جلالة السيّدة... في اليوم الذي يأتي فيه الروس لتحريرنا، سيقدم البولنديّون على قتل كلّ ما هو ألمانيّ هنا. إنّهم متعصّبون لوطنهم، يريدون الانتقام لما عانته بلادهم. سيقتلون الجميع ما عداكِ. لن يرفعوا إصبعًا في وجهك، لقد وعدونا بذلك. الروس سيحمونكِ».

- «لكن يا ڤيلهلم»، تلعثمت آنا، «لا يمكنك قول ذلك... السيّدة فون غارليتس... الأطفال... كلّهم لم يرتكبوا شيئًا».

أشاح بعينيه، أفلت يديها وسار مبتعدًا، كتفاه تتدلّيان، كأنَّ ذراعيه يرزحان تحت ثقل كراتٍ مصمتة من الرصاص. حدّقت آنا في الجذوع المتينة لنبتة الراوند؛ وتبادرت إلى ذهنها كلمة «برابرة». حديقة الخضراوات المعتنى بها، المروج المشذّبة أعشابُها، القصر المتألّق، الغسيل الناصع كالثلج، المنشور على الحبال بلا حراك... بدا احتمال تخريب النظام الواضح في كلّ شيء هنا أمرًا عصيًّا على تصوُّرها. النواة البشريّة لهذا النظام، العائلة التي ارتبط اسمها بالمكان منذ القرن السابع عشر، أوتشن، مامسيل، عاملات التنظيف وخادمات الغرف، انتهاءً باللاجئين؛ كلّ هؤلاء البشر الذين كانت على احتكاكٍ يوميٍّ معهم، هل سيتعيّن عليهم جميعًا أن ينالوا الجزاء؟ ماذا اقترفوا؟ لأوّل مرّة، أدركت أن التحرُّر الذي يتوقون إليه قد لا يكون تحرُّرًا على الإطلاق، وأنَّ الحرب ستستمرُّ كالعادة؛ ولكنّها اتشحت بقناعٍ مغاير. أفاقت من سكونها، وسارت قاصدة السيّدة فون

غارليتس، التي لم تعبِّر ملامحها عن صدمة أو مفاجأة. لقد تفطَّنت منذ وقتٍ طويلٍ إلى أنَّ الجحافل القادمة من الشرق لن تجلب معها التحرير؛ فضلًا عن أنَّ خطة الفرار على أُهبة الجاهزيّة.

تلقَّت آنا رسالة من مارتين، رسالة ممهورة بشعار «إس إس»، قادمة من الثكنات التابعة لها. كتب فيها أنَّ الروس يقتربون من غرب پروسيا، وأنَّ عليها الاستقالة من وظيفتها والتوجّه إلى ڤيينا؛ حيث المكان أكثر أمانًا وحيثُ منزلها. رسالة رصينة وواقعيّة. مارتين، الذي كان يجوب أوروبا كغجريّ جائل على مدى السنوات الستّ الماضية، يتحدّث عن مغادرتها القصر كما لو أنّه تغيير بسيط في المكان. كأنَّ ليس ثمة علاقات بات عليها أن تقطعها، لأوّل مرة في حياتها. علاقتها مع سيّدتها، مع الطفلين، مع طاقم الخدم؛ أسرتها البديلة، الخليط الثقيل، المتقلِّب، الذي اختبرته مرارًا وتكرارًا، وتعلّقت به على نحوٍ وطيد بمرور السنين. القصر الذي أعادت تأهيله، وفق رؤيتها الخاصّة، كيف ستسير أمورُه ليومٍ واحدٍ من دونها؟ أيجب عليها أن تتخلّى عن كلّ شيء؟ وتنصاع لـ...؟

لقد تركت كلَّ شيء وراءها؛ انهمرت الدموع وقُطعت الوعود عند الوداع. نال الحدثُ من السيّدة فون غارليتس، وآلمها، كما لو أنَّ هذه التي تخلَّت عنها هي أمّها. تشبّث الأطفال بها مثل قردة صغار، ومسحت عاملات التنظيف أنوفهنّ. أمَّا أوتشن فقد تنشَّق بصوت عالٍ تعبيرًا عن ازدرائه للموظّفين الذين لا يرون عملَهم واجبًا مدى الحياة. جلس على مقعد السائق متجهِّمًا. كانت مغادرتها ختامًا لحقبة معيّنة، أحسَّ الجميع بذلك، لكنّ أحدًا لم يدر شيئًا عمّا سيتبعها.

صعدت آنا على متن العربة، بحوزتها حقائبُها الأزليَّة، عيناها حمراوان، اجتازت الممرّ الرئيسي للقصر، عبر البوابّة، ملوّحةً تلويحة أخيرة. سارت العربة في طريق القرية المبنيّة على الطراز الفريدريشي، كان الأسرى الروس المنهكون يصطفّون بثيابهم الرثّة على الجانبين، يلوّحون لها بمناديلهم الزرقاء ذات المربّعات. ظلَّ الحرّاس يراقبونهم بحذرٍ شديدٍ عن بعد. وقف ڤيلهلم في المقدِّمة، يبتسم ابتسامة عريضةً، معذَّبة. كأنَّهم آخر الأتباع الأوفياء لملكةٍ تُساق إلى حبل المشنقة. ملكة المناديل ومعاجين الأسنان والأمشاط التي تكسّرت بعض أسنانها، أجهشت في بكاءٍ جارفٍ. تقدَّم ڤيلهلم كي يعطيها منديله. كان آخر ما رأته عيناها في تلك القرية، عبر خرومِ الوشاح، صفوفًا من الحرَّاس على كلا الجانبين، ترفرف خِرَقُهم البالية بحزنٍ، ووجوههم تعِبة؛ من تراه الرَّاحل من حياة الآخر آنئذٍ؟ سرعان ما توارت القرية وامتدّت بعدها الحقول، وباستثناء أوتشن الذي ظلَّ يحدِّق في اهتزاز ردف الحصان على نحوٍ غامضٍ، لم يلح في الأفق سوى الهجران.

*

– «نعم، لقد أكنّوا لي حبًّا جمًّا»، اختتمت آنا حديثها.

لم تتجاوب لوته، كان صعبًا عليها التوفيق بين صورتها الخاصَّة عن آنا، المفتقرة إلى المجاملة، وهذا البوح الممجوج بالمداهنة. لقد أوغلت آنا في إضفاء الرومانسيَّة على الماضي.

سألتها على مضض:

– «وڤيلهلم... هل كان على حقّ؟».

- «حدث كلّ شيء كما توقَّع. نُهب القصر، ولم ينجُ إلّا القليل. كانت السيّدة فون غارليتس قد فرَّت ليلًا برفقة أولادها وبعض الخدم الثقة، نحو الغرب عبر نهر الأودر المتجمِّد. عرفتُ ذلك بعد سنوات من ماميسيل التي التقيتُها مصادفة».

- «ماذا عن القصر؟ هل زرته مرّة أخرى؟».

لم تتمكّن لوته من كبح فضولها، فالمنازل العريقة من مكامن ضعفها.

- «لا تأتي على سيرته!»، ردّت آنا بسخطٍ بالغ فيما نهضت للجلوس. «كان لدى البولنديّون عقليّة عاملات الغسيل البدينات نفسها حين جئت إلى القصر. إنّهم لا يعرفون شيئًا عن العمل. ولن يعرفوا في حياتهم، صدّقيني».

احتجَّ كرسيّ التمدُّد بصريره العنيف، حيث لم يعتد على ضيوف المنتجع الذين لا يتوقّفون عن الثرثرة.

- «سافرتُ إلى بولندا الخريف الماضي برفقة صديقة. ذهبنا بالسيارة إلى وارسو، كراكوف، أوشفيتز، زكوبن، بُزنان. خطرت لي فكرة ملحّة: لنذهب إلى المدينة التي عملتُ فيها أثناء الحرب. همهمتْ صديقتي: بالتأكيد لم يعد لها وجود الآن. قلت لها: مازالت موجودة بالطبع، قد يكون اسمها قد تبدّل فحسب. بدأنا رحلة البحث، من دون خريطة، في منطقة ليس بها سوى الأسماء البولندية التي لا ترشد إلى شيء. قدت السيارة معتمدةً على ذاكرتي بالكامل: شجرة مغضّنة هنا، إسطبل قديم هناك، طريق يفترق نحو ثلاث جهات بدا مألوفًا لي، كانت هذه المعالم التي وجّهتني وسط تلك

الرحاب الخالية. فجأة سلكنا طريقًا طويلًا مستقيمًا تصطفُّ على جانبيه أشجار الكستناء؛ مزارع متهالكة، دجاجات متبعثرة في الطريق، رجال سكارى عند عتبة مكتب البريد الذي كان حانة القرية أيضًا. ترجّلتُ وسألتُ عن القرية مشيرةً إليها باسمها القديم. نظروا إليَّ من دون اكتراث ولم يجيبوا على سؤالي. انهمر رذاذ المطر، ما جعل مظاهر الفقر أكثر وضوحًا. مشيت قليلًا في شارع القرية، وتوقّفتُ أمام منزلٍ ضخمٍ مُهمل... مسكن مالك الأراضي، على ما أعتقد. العشب نامٍ في المزاريب المتهدِّلة، تقشَّر الطلاء عن المصاريع المتدلّية من مفاصلها، بعض النوافذ مغطّاة، المظلّة فوق الباب الأماميّ تستندُ على دعامة متذبذبة، وكان الجص يتداعى متصدِّعًا في كلّ مكان؛ تحوّلت الإوزّات في مرج من العشب، بعيدًا عنها كان الخنزير ينبش في الوحل، فيما كشَّف كلب حراسة أجرب عن أنيابه. تذكّرتُ مزارعنا النظيفة في ألمانيا. انظري كيف يتدبّر البولنديّون أعمالهم، هذا ما قلتُه لنفسي. إنَّهم، بكلّ بساطة، لا يفقهون شيئًا. مرَّ رجل عجوز. استوقفته وذكرت الاسم القديم للقرية مرة أخرى. حملق بي عبر عدسات نظارته الثخينة كما لو أنّي شبح من الأشباح، ثمّ أومأ ببطء. قال بلغة ألمانيّة ركيكة: اسمها ستوكو حاليًّا. أومأتُ إليه وقد تحمّست فجأةً. ماذا عن عائلة فون غارليتس؟ سألتُه. لم يقل شيئًا. القصر؟ أين القصر؟ ابتسمَ، بان طقم أسنانه المكسور، يا له من رجل مسكين. *القصر...؟* كرَّرَ مذهولًا. إنَّه هنا، أمامك مباشرة. لقد كنتُ واقفة أمامه، أحدّق به، من دون أن أعي. هل تتخيّلين ذلك!».

احمرَّ وجه آنا. بدت جدران صالة الاستراحة كأنَّها تنتفخ تحت ضغط السخط الذي عبّرت عنه. مدَّت ذراعيها الممتلئتين.

- «فيما مضى، كانت هناك أراضٍ بها أشجار معمرّة، يسوِّرها جدار. لم يبق شيء. ليس هناك سوى قصر مهلهل يُرثى له، وسط الطين والأعشاب اليابسة. لا أستطيع أن أخبرك ما شعرتُ به هناك. كان الأمر أشبه بتدمير آخر معاقل ثقتي بالإنسانيَّة، أؤكّد لكِ أنَّه لم يتبقَّ منها إلّا النزر القليل بكل الأحوال. كما لو أنَّ كل شيء، كل شيء على الإطلاق، كان من أجل اللاشيء. سألته: هل يمكنني رؤية المنزل من الداخل؟ لقد كنت أعمل فيه خلال الحرب. أومأ، لكنّي لم أكن متأكدة أنَّه فهم قصدي. أخبرني أنَّ عشرات الأسر البولندية عاشت في القصر منذ نهاية الحرب، حيث أضحى ملكيّة تشاركيّة».

نشقت.

- «شأنه شأن مزارع الكولخوز[1]. سُمح لنا بالدخول لرؤية جزء من القصر. يا إلهي، أيّة كارثة! بدأنا الجولة من الصالة، الصالة التي حيكت فيها المؤامرة. كانت حبال الغسيل مثبّتة داخلها، وقد عُلِّقت عليها بعض الملاءات والقمصان المصفرّة. الجدران رمادية، البلاط متصدِّع. فتحنا باب غرفة المائدة. وضعت يدي على فمي. صرخت: انظروا، أرضيّتي الخشبية المزخرفة! هنا كانت تكمن سعادتي وفخري، هذه الأرضيّة الأثيرة التي

(١) الاسم الروسّي للمزارع الجماعية في الاتحاد السوفييتي. (المترجم)

فُركت بالشمع مرارًا وتكرارًا باتت متيبّسة ومتشقّقة وضاعت أجزاء كاملة منها. استندت درّاجتان صدئتان على الحائط، انسلَّت قطة هزيلة صهباء، ذيلها مطويّ بين قدميها. أصابني الدوار، هل تصدّقين؟ دعنا نخرج من فضلك، توسلّتُ إليه. مشينا في ممرّ طويلٍ ومخيف، كان خاويًا، لم يبق أيّ أثر للسجّاد، للوحات مشاهد الصيد على الجدران المتقشِّرة، كدتُ أتعثر بدلوٍ من الماء الآسن والصابون. في الخارج، التقطتُ أنفاسي. المقبرة، اقترحتُ عليه، لا بُدّ من وجود شيء فيها يعود لذلك الوقت. هزّ العجوز رأسه وتمتم: *اندثر كلّ شيء*. ذهبتُ إلى المكان الذي دُفن فيه السيّد فون غارليتس، أو على الأقل ما تبقّى منه. ظلّت الممرّات القديمة سليمة، ولكن بدلًا من القبور كان ثمة حفر مظلمة، مكتظّة بعرائش اللبلاب. قطع من الرخام متناثرة هنا وهناك. تدلّت أغصان الشجيرات العتيقة كأنّها في سعيٍ لإخفاء العار. صرختُ: حتى الموتى لم يتركوهم وشأنهم! قال مرشدي باستسلام: دمّروا كلّ شيء. وهذا ما كان فعلًا. لقد بلغ بهم سُعار الانتقام حدًّا جعل المقابر العائدة للقرن السابع عشر لا تسلم من بطشهم».

- «لكن هذا منطقيّ في الحقيقة، كان لديهم ما يكفي من الأسباب للتصرّف على هذا النحو»، قالت لوته متكئةً على حافّة ملاءتها.

- «نعم، نعم»، قالت آنا بفارغ الصبر، «لكنّي حين وقفت هناك أشاهد القبور المنبوشة لم أستطع فهم أيّ شيء».

حلّ الصمت لوهلة. ثم قالت بنبرة واثقة كأنّها تفشي للوته سرًا حميمًا:

- «التقطت حبَّة كستناء وأخذتها. حبّة كستناء كبيرة ولامعة. أحملها معي دائمًا كذكرى من أيّام الماضي تلك... حين كنتُ في ذروة سعادتي، من دون أن أعي ذلك».

*

ڤيينا. ستكونين في مأمنٍ هناك، كتب مارتين. اليوم الذي وصلت فيه آنا، كان والد زوجها يحزم حقائبه. أوضح لها:

- «سأتوجّه إلى نورمبيرغ، وجّهت قوّات إس إس دعوات خاصة للآباء من أجل زيارة أولادهم».

عاد مسرورًا بعد بضعة أيّام.

- «لا تقلقي بشأن مارتين، إنَّه بخير هناك. النظام سائد وكذلك علاقات الزمالة. تلقّوا معدّات جديدة. الجميع ودودون ومهذّبون».

- «إنَّك تختلق لي القصص والروايات»، قالت آنا بتشكُّك.

- «أقسم لك على ذلك، إنَّه رضيّ البال مثل سمكة في الماء».

- «لكنّه يكرههم، يكره النازيين!».

- «سترين ذلك بعينيك، حين تصلك الدعوة لزيارته قريبًا».

حصلت على تصريح سفر؛ وغادرت في الأسبوع الأخير من أغسطس إلى نورمبيرغ في رحلة لمدّة أسبوعين. لم تسلم أجزاء كبيرة في المدينة من غارات التفجير، لكنّ الفندق الذي استولت عليه قوّات إس إس لم يصبه أذى. مُنح المتزوّجون أجنحة فاخرة؛ وفي الصباح كان على

الضبّاط المشاركة في تدريب قصير، ثمّ يقضون بقيّة اليوم كما يحلو لهم. كانت الثكنات أيضًا بمثابة جزيرة هدوء وسط الفوضى العارمة. كلّ شيء نظيف ولامع؛ حظي الأشخاص بالتقدير والاحترام شأنهم شأن الأشياء الأخرى. لم يكن والدُ زوجها يبالغ في ما قاله: فمارتين، الذي كان مغرمًا إلى حدٍ بعيدٍ بالسلوك الحسن والأناقة والتهذيب، شعر بكلّ الرضا هناك. استغلّا هذا اللقاء غير المتوقّع كما لو أنّهما في شهر العسل؛ كانت القيادة العسكريّة حريصة على هناء جنودها الشباب. انفجار قنبلة بين حين وآخر بمثابة هفوةٍ صغيرةٍ باتت لا تتسبّب في استرعاء الدهشة منذ أمدٍ بعيدٍ. انصبَّ الشغف على التقاط الصور لبعضهما البعض: مارتين، بزيِّه العسكريّ، تغمره البهجة، أمّا آنا فترتدي ثوبًا بلون القشدة خِيط من ملابس التنس التي كانت ترتديها السيّدة فون غارليتس.

كانت كل النساء اللواتي صادفتهن في مغامرة بحر البلطيق حاضرات هناك. تلذّذن بكلّ يوم، بكلّ ليلة منحت لهنّ، بشراهةٍ مؤمنة بالقدر، باستثناء امرأة منهنّ أسرَّت لآنا، مع سيلٍ من الدموع، بأنَّ والديها منعاها الحملَ من رجلٍ قد يخطفه الموت في أيّة لحظة.

- «في كلّ ليلة أدير ظهري له»، قالت وهي تتنشّق بكاءً.

آنا، التي ما زالت تترقّب بشوقٍ حارّ ظهور بوادر الحمل عليها، شجّعتها:

- «لنفترض أنّه مات، سيكون ذلك الطفل، بضعة منه، تمنحك العزاء والسلوان... ولكن ما أودّ قوله إنَّ الحرب أوشكت على

النهاية! حينها سيعود إلى المنزل قريبًا وتعيشون معًا تحت سقف واحد...».

ثمّ رفعت إصبعها في وعيدٍ مازحٍ، وقالت ضاحكة:

- «عندها ستبدأ الحرب الحقيقية، *يا عزيزتي*».

كان حرص مارتين على رعاية زوجته يظهر في أشكالٍ على قدرٍ من الغرابة في بعض الأحيان. ذات صباح، التقت النساء في حوض السباحة. وفيما كانت آنا تسبح على ظهرها، اندفعت إحداهنّ نحو الداخل وهي تصرخ: «بسرعة، بسرعة، سيصل رتل من الضبّاط!». نهضن على عجلٍ، أجسادهنّ مبللة، وهرعن إلى غرف تبديل الملابس. نظرت آنا حولها مدهوشةً وواصلت السباحة باسترخاءٍ من دون الالتفات إلى صوت الغناء القادم من بعيد، يزداد علوّه تدريجيًا. لم تشعر بأنَّ وجودها بات في موضع عدم ترحيب إلّا حين كان الضبّاط على وشك الغوص. جدّفت نحو حافة الحوض بضرباتٍ فاترةٍ. مرتدية ثوب السباحة الأسود المحتشم الذي غطّى قوامها المكتنز لكنّه لم يخفه عن الأعين، سارت بين الضباط إلى غرفة التبديل. أثناء مرورها، تبيّنت عن كثبٍ شفتي مارتين المزمومتين وملامح الغضب على وجهه. بعد الظهر انفجر في وجهها مستنكرًا كونها المرأة الوحيدة التي تباهت بملابس السباحة أمام كلّ أولئك الرجال. هزّت كتفيها.

- «كنت أسبح فحسب».

هزّ رأسه وقد اعتراه شعور عميق بالإهانة.

- «زوجتي... وسط كل أولئك الرجال».

- «حوض السباحة للجميع»، قالت وهي تضحك ببراءة.

- «زوجتي لا تفعل مثل هذه الأشياء».

- «يبدو أنّها تفعل».

لم يتّفقا في الرأي بشأن الحشمة.

- «لا أريد أن تكوني نكتة في أفواههم، أنا أعرفهم جيّدًا».

شعرت بأنّها تختنق.

- «إذا بقيت على هذا المنوال، فسأطلب الطلاق»، صرخت لإسكاته.

اعتراه الخوف من هول الصدمة، وبدا مثيرًا للشفقة لدرجة أنّها سارعت لعناقه ندمًا وحنانًا. إنَّ المجادلة في مثل هذه الأمور التافهة لمن الحماقة، لا سيَّما حين يحكمُ الوقت خناقه.

في الليلة الماضية، استيقظت آنا مرتجفة، وأسنانها تصطكّ. كان مارتين قادرًا على الإحساس بحالها حتّى أثناء نومه، ففتح عينيه واقترب منها.

- «أنت مذعورة...»، اخشوشن صوته بفعل النوم.

أراحت رأسها على صدره.

- «لا أعرف ماذا يحدث».

عانقها بقوّة. وقال بهدوء:

- «نحن بحاجة للحديث عن ذلك، أعتقد أن الوقت قد حان. اسمعي. لقد أزهقت هذه الحرب العفنة أرواح الملايين من البشر، فيما كُتبت لي النجاة حتّى هذه اللحظة. من يعرف إن كان

الأمر سيستمرّ على هذا النحو؟ مات الكثيرون بالفعل، ما المانع من أن يأتي دوري؟ بالنسبة لي، لا أخشى الموت، إنَّه يأتي بسرعة خاطفة، لا تقلقي. الأمر الذي يقلقني هو أنني لن أستطيع البقاء قربك ومساعدتك. أعرف ما الذي سيحدث لك، أعرف ذلك تمامًا. أنت هشّة كالخزف، لكن أحدًا لا يعلم عنك ذلك. تظهرين دائمًا بدور القويّة والجريئة، لكنّك في الواقع حسّاسة وضعيفة وتحتاجين إليّ. عليك أن تعيشي حتّى لو رحلتُ عن هذا الوجود. عديني بشيء واحدٍ فحسب: لن تفكري في وضع حدٍ لحياتك. إن أقدمتِ على الانتحار، فلن أهتم لأمرك بعد ذلك الحين! لن ألقي عليك التحيّة حتّى!».

ساد الصمت في الغرفة، وحده صوت دقات قلبه يتردّد في أذنها. بدا مستحيلًا أن يتوقّف هذا القلب عن الخفقان بين لحظة وأخرى، أن يتبلور الرابط بين الأشياء التي ألمح لها بحديثه والدقّات الثمينة لهذا القلب، وهذا الجسد الدافئ، النابض بأنفاس الحياة، الذي لم يكن ملكًا للجيش فحسب، بل لمارتين نفسه ولها أيضًا. كان مصير هذا الجسد مرتبطًا على نحو وثيقٍ مع جسدها لدرجة أنّها لم ترغب في سماع ما يقوله، على الرغم من أنَّ حديثه ترسَّخ في ذاكرتها كلمةً كلمة.

- «لا أريدك أن تتشحي بثوب الحداد لبقيّة حياتك. حتّى لو متُّ، أريد أن تكون زوجتي جميلة. هل تعدينني بذلك؟ سأخبرك ماذا عليك أن تفعلي. لن تكوني قادرة على تخطّي الأمر إلّا بتقديم العون لأولئك الذين تكبّدوا المعاناة أكثر منك. اذهبي للعمل في

مستشفى عسكريّ أو شيء من هذا القبيل، بهذه الطريقة وحدها ستستطيعين النجاة، أعرفك جيّدًا...».

بدلًا من التماس الشجاعة والطمأنينة منها للتغلّب على هواجس احتماليَّة موته قبيل حلول السّلام مباشرة، راح يرشدها إلى الطريق الذي ينبغي لها ارتياده في حياتها المستقبليَّة بمنتهى راحة البال. تخلَّصت من القلق، وحلَّ مكانه هدوء هائل؛ كان مارتين قد نسج شرنقة حريريَّة من الأمان والمقاومة تحيط بها، زاخرة بالصمت المسالم والوثيق، حيث تتداخل الحياة والموت في تدفُّق طبيعيّ. وفي جوفها، ينامان متعانقَين، ويستيقظان، في صباح اليوم التالي، متعانقَين أيضًا.

كان الطقس رائعًا، لم يسبق أن تمتّع مارتين بمظهرٍ أكثر إشراقًا وسحرًا. مسمرًّا بفعل الشمس، مبتهجًا، يضجُّ بالحياة. انحنت آنا من نافذة القطار الذي كان على وشك الانطلاق. ركض على طول مسار السكّة ملوِّحًا بيده.

- «أراكِ في ڤيينا، سينتهي هذا الهراء اللعين قريبًا!»، صرخ جذلًا.

تقبّضت ملامحها؛ لم يكن هذا القدر من التفاؤل، الصادر عن ضابط في قوّات إس إس، ليُغتفَر. فضلًا عن أنَّ صدى الكلمات تردّد في أنحاء الرصيف أيضًا! أغمضت آنا عينيها بإحكام، متوجِّسة من إلقاء القبض عليه في الحال. لكنّه ظلّ هناك، واقفًا، يلوِّح بيده من دون أن يعترضه أحد.

لم تكن ڤيينا آمنة إلى ذلك الحدّ. عمد الأمريكان إلى قصف مناطق واسعة لقطع الطريق أمام القوّات الألمانيَّة المنسحبة من البلقان، وكانت

فيينا من بين تلك المناطق. لم يغامر مفجّرو الغارات بالطيران فوق جبال الألب خلال الليل، واكتفوا بتنفيذ الضربات في النهار. ارتجّت نوافذ شقتها الجديدة، وحاولت تدعيمها بتسمير الورق المقوّى عليها. حين دوّت صفّارات الإنذار، هرعت إلى أقرب ملجأ، وفي طريقها صادفت امرأة تجلس محتمية تحت أحد المداخل.

- «ما الذي تفعلينه هنا؟»، صرخت في وجهها وراحت تسحبها من ذراعها. «هيّا بسرعة إلى الملجأ».

كان القبو مكتظًّا.

- «انهض وأعطِ مكانك للسيّدة العجوز»، قالت لأحد الصبية.

اندفع إليها الحارس المسؤول عن حماية السكّان في حال وقوع غارة جويّة.

- «ما خطبك؟».

- «ماذا تقصد؟ لم أفعل شيئًا!»، سألت آنا.

- «هل تعرفين مَن هذه التي أحضرتِها معك؟».

حدّقت في المرأة الجالسة، المتكوّمة على نفسها، مثل عصفورٍ في الشتاء.

- «لا يهمّني ذلك، إنّها امرأة عجوز، هذا كلّ شيء».

- «نصف يهوديّة!»، زمجر.

- «حسنٌ...»، هزّت كتفيها، «لكنّكم آويتم كلبًا هنا، أليس هناك متسع لعجوز مسكينة؟».

شخصت النظرات القلقة عليها من كلّ حدب وصوب؛ بأيّة جرأةٍ تناكف حارس القبو على هذا النحو! تقلّصت عضلات فكّيه. رمقته بنظرات التحدي. أشاح بعينيه وانتقل إلى زاوية أخرى في الملجأ، كما لو أنَّ أحدهم استدعاه لأمر طارئ هناك.

انتظرت، من دون جدوى، رسالةً من مارتين طوال شهرٍ. كتبت إليه مطلع شهر أكتوبر رسالةً جاء فيها: «أجلس هنا، القلم بيدي، كلّي إحساسٍ بأنّي أكاتب العدم». علّلت نفسها بشراء باقة من أزهار النجمة. كانت تصعد درج شقتها، حاملةً الأزهار، حين قابلت جارها الذي اعتاد إلقاء التحيّة عليها بصوتٍ صاخبٍ وراءٍ متدحرجة على طريقة أهل ڤيينا، لكنَّه غذّ خطاه هذه المرّة. فتحت باب الشقّة، فإذا والد زوجها ينتظرها في غرفة الجلوس.

- «آه، لم تصل أيّة رسالة كالعادة»، تنهّدت وهي تنظر إلى الطاولة الفارغة.

- «بلى، هناك رسالة هذه المرّة»، قال مشيرًا بعينيه إلى المنضدة الجانبيّة.

طرد. انحنت لتقرأ: *ردّ الممتلكات*. مزّقت الغلاف بعنفٍ. في الأعلى ثمّة ظرف، سحبت الرسالة منه. «السيّدة غروزالي المحترمة... بصفتي قائدًا للوحدة العسكريَّة، يقع على كاهلي واجب إبلاغك بنبأ الممات البطوليّ لزوجكم...». واصلت القراءة بنفسٍ محمومٍ. «... في جبال آيفل... جرّاء انفجار قذيفة مدفعيَّة...». اختُتمت الرسالة بالعبارة: «في يقين بالنصر النهائيّ، ومواصلة الحرب من أجل القضيّة العادلة،

سأبقى... *يحيا هتلر*! زعيم الهجوم الكبير[1]، قائد الوحدة...». سقطت الأزهار على الأرض.

- «هذا لا يمكن أن يكون صحيحًا»، بصوتٍ هادئ شنّت اعتراضها على مضمون الرسالة.

بدأت تدور، حول الطاولة، حول والد زوجها، أسرع فأسرع، وأشدّ هيجانًا، وراحت تصرخ:

- «غير صحيح، غير صحيح...».

كما لو أنَّ طقسًا استنكاريًّا كهذا من شأنه أن يدحض الحقائق. بجمودٍ متحجِّر، ظلّت تردّد الكلمات نفسها حتّى تمكّن والد زوجها من إيصالها إلى الأريكة. أعلاها، كانت صورة مارتين معلَّقة بإطارها على الجدار. انتزعتها وضمّتها إلى صدرها وصارت تورجح جذعها للخلف والأمام. يا لها من مفارقة مبتذلة؛ كان عليها أن تكابد ما لا يُطاق بطريقة أو بأخرى. ذرعت الشقّة، بحثًا عن ملابس داكنة، وفي المرآة، رأت شخصًا غريبًا، بغيضًا؛ تلاشت تجعيدات شعرها المموّج في الحال. ها هو شعرها قد بدأ يذوي، وسيتبعه باقي جسدها من الآن فصاعدًا.

لم تقطع وعدًا لمارتين بأنَّها ستتغذّى جيّدًا! مرَّت أيّام بأكملها من دون أن تتذوّق شيئًا من طعامٍ أو شرابٍ أو رقادٍ أو بكاء. في الليل، كانت تتجوّل في أنحاء المنطقة السكنيَّة المتضرِّرة كما لو أنَّها تبحث عن ضالّتها هناك. لم تكن تبتغي شيئًا سوى الاهتداء إلى مكانه. حاول والدُ زوجها،

(١) رتبة عسكرية تمنح للضباط الكبار في الجيش النازي. (المترجم)

الذي احتفظ بهدوء الأعصاب وظلّ بجانبها بناءً على طلب زوجته، أن يتفهّم سلوكها كمرحلة طبيعيّة من مراحل الحداد. أحضر لها وشاحًا طويلًا للأرامل كي ترتديه أثناء الجنّاز في كنيسة القدّيس كارل. قبل عامين، سارت في الممر نفسه، مرتديةً طرحتَها البيضاء، أمّا الآن فستعبره من جديد، بنظرة سادرة، متدثّرة بالوشاح الأسود. «المرأة الألمانيّة لا تذرف دمعةً...»، تناهى إلى مسمعها همسٌ قادمٍ من جهة المقاعد. مرَّت بها أصوات القدّاس من دون حراكٍ منها، مثل صمّاء بكماء.

بعد أسبوع، توقف والدُ زوجها عن مرافقتها. ولأنّه، بمفرده، لم يستطع العدول بها عن إضراب الطعام الذي عكفت عليه، فقد أخذ منها وعدًا بأن تزوره في بيته يوم الأحد التالي على أمل أن تتمكّن زوجته من إقناعها بتناول شيء من الطعام. غادرت شقّتها بخطى متردِّدة. لم يحرّك العالَم ساكنًا لموت مارتين؛ فحتّى مدينته لم يبقَ فيها أثرٌ من ظلاله. كانت وحيدة، وسط مدينة غريبة، فيها الحرب ما زالت مندلعة؛ هذه هي الحقائق. لم يكن لها مكان ضمن هذا النظام، تمامًا كما الحقائق التي لم تجد حيّزًا لها في حياتها. توجّهت نحو مركز المدينة كمن يسير نائمًا، وعبرت الجادة المطوِّقة للمدينة، الجادة المتلألئة، مرورًا بالمسرح وقصر هوفبورغ والأوبرا. تركت خطواتها تقودها إلى كنيسة القدّيس كارل، مدفوعةً بتوقٍ غامضٍ إلى العزاء الذي يمنحه الإيمان الدينيّ، وقبل كلّ شيء، الأمل الخالص بأنَّ الربّ سيهبها إشارةً من عنده، تؤكِّدُ تجلّيه المُطلق في كلّ الأمكنة، وتبرهنُ وجودَه. بمشقّة بالغة استطاعت فتح البوّابة الكبيرة. كان قدّاس الأحد قد بدأ للتوّ. تردّد صدى صوت الكاهن في أرجاء

القبّة، واهتزّ التذهيبُ الباروكيّ استجابةً له. في البداية، لم تكن قادرة على فهم معنى الكلمات. أنهكها الصوم، فانسلَّت إلى أحد المقاعد. وأخيرًا، داخل جدران الكنيسة الأمّ، التي ألفتها منذ صغرها، تغلَّب عليها التعب وكادت تغفو بعد وقتٍ طويلٍ لم تغمض خلاله جفنًا. لكنّها نهضت من سباتها فجأة. «كلّ موت على جبهة الحرب...»، كان للصوت وقع الوعيد، «وكلّ بيت تدمَّر هنا هو قصاص منّا على خطايانا...». قصاص؟ كيف يمكن لهذا الأحمق أن يقول ذلك! كانت هذه أقسى رسائل الكنيسة إليها وأشدّها خداعًا. وقفت احتجاجًا. سارت بجوار صفوف المقاعد نحو المخرج. وعلى الرغم من الوهن، استجمعت فتات قوّتها لإغلاق البوّابة الثقيلة بصفعةٍ ملؤها التحدّي. هبطت الدرج وهي تتلمّظ غضبًا. تلفَّتت حولها تلقائيًّا: كان الملاكان في مكانهما، على كلا الجانبين، يحمل كلٌّ صليبه، ويحدِّق، بلا اكتراث، في العالَم الماثل أمامه.

تابعت طريقها. كان أعضاء من شبيبة هتلر يسيرون بحماسٍ عبر الجادة، رافعين أعلامًا جديدة. تهدّجت آنا عند مرورها قربهم، ملتفحة بوشاحها الأسود. اعترضها أحد الفتية.

- «يحيا هتلر!».

حدَّقت إلى الأمام بصمت.

- «ألا تريدين تحية العلم!»، زمجر.

كان يفوقها طولًا، نقرت بإصبعها على صدره.

- «سأخبرك شيئًا واحدًا فحسب، لقد مات زوجي من أجل العلم نفسه».

دفعته جانبًا وأكملت مسيرها. ركض وراءها يدمدم بسيلٍ من الاعتذارات. لم تزحزح عينيها؛ لقد بلغ بها الحزن حدًّا جعلها لا تتعاطف مع حرج الآخرين.

لا تعرف كيف انتهى بها المطاف في منزل أهل زوجها. حين فُتح الباب، سقطت عند العتبة. طوال ذلك الوقت، كان بينها وبين الإغماء قيد شعرة، لكنَّ أعضاء جسدها تحيَّنت اللحظة المناسبة للأمر. مُدِّدت على الأريكة. في حالةٍ من الذهول والوعي المتغيّم، تناهت إليها أصوات الجدال القادمة من الغرفة المجاورة.

- «لم تولِها ما يكفي من العناية...»، جاء صوت زوجته. «لقد وعدتَ مارتين أن تعتني بها، والآن نراها تنهار أمام أعيننا».

كادت آنا تفقد وعيها مرّة أخرى. أُعِدَّ إبريق من القهوة المركّزة. لُوِّح فنجان القهوة المصنوعة من حبوب البن الحقيقيّة، جيئة وذهابًا تحت أنفها. لم تتجاوب آنا. كانت غرائز الحياة البدائيَّة ما دفعها إلى فتح فمها واحتساء رشفة، استجابةً لحافزٍ تستحيلُ مقاومته. بالآلية نفسها، تناولت قطعة من الكعكة. قُمعت النزعة الانتحاريّة من خلال هذه الطريقة المبتذلة للغاية، باستخدام القهوة والكعك، لإفساح المجال أمام العيش بحالة تعاسة مجرَّدة. حالةٌ تعرفُها جيّدًا، بعد أن تآلفت معها لسنوات.

تبقّى الإيفاء بالنصف الآخر من الوعد. توقّفت سيارة مرسيدس سوداء تحمل شعار إس إس أمام شقتها ذات النوافذ المدّعمة بالورق المقوّى حيث واصلت حياتها الزوجيَّة، بمفردها. كانت قوّات إس إس تولي رعاية خاصّة بأعضائها. جاء قائد القوّات ومدير الدائرة الاجتماعية

في شرطة منطقة الدانوب لتقديم واجب العزاء للأرملة. رجل ودود، عرف كيف ينتقي كلماته المطمئنة بفطنة، الكلمات نفسها التي عجزت كنيسة القدّيس كارل عن تقديمها. سألها من دون تردّد عما يمكنه فعله لمساعدتها. بصوت خافتٍ قالت:

- «أودُّ من عميق قلبي أن أعمل في مستشفى عسكريّ. لقد وعدتُه بذلك. لكنّ أوراق توظيفي تقول إنّي مدبرة منزل، لذا لن أستطيع العمل في رعاية المرضى».

- «تعالي إلى مكتبي، وسنعطيك شهادة رسميَّة»، وعدها وهو يصافحها بتعاطف.

عقب الزيارة رفيعة المستوى، التي شهدها كلّ سكّان الحيّ، لم تعد آنا تلك «المرأة الألمانيَّة» بل «العمّة إس إس». كلَّما ازدادت حدَّة القصف وتوالت خسارات هتلر، زاد وصمها بالعار. حثّت نفسها على الصمود، لقد عرفت تمامًا كيف تسير الأشياء هنا، طالما أنَّ الأمور على ما يُرام، يهتفون: هوشعنا، وبمجرد أن تنحو في الاتجاه الآخر يصرخون بصوتٍ واحدٍ: اصلبوه[1]. راجعت مكتب التوظيف. كانت الوثيقة الضروريَّة بانتظارها. «السيدة غروزالي يتيمة وليس لها أطفال، فقدت زوجها في الحرب مؤخرًا، وترغب في تعيينها كممرضة في الصليب الأحمر. سأكون في غاية الامتنان لو منحتموها إعفاءً ويسّرتم شروعها في العمل مع الصليب الأحمر الألمانيّ. قائد الفرقة، فلايتمان».

*

(١) إشارة إلى محاكمة السيد المسيح. أمّا هوشعنا (وترد أحيانًا: أوصنّا) فتعني حرفيًّا: خلّصنا، وهي الكلمة التي هتف بها الجمهور تحية ليسوع المسيح عند دخوله مدينة القدس. (المترجم)

عند «شاليه دو پارك»، في الطريق خارج المنتجع الحراريّ، صادفتا امرأة منحوتة في الحجر، يحيط بها الجنود، تحاول اتّقاء حربة. ليس هناك نصّ منقوش ولا قائمة بالأسماء عند قاعدة التمثال. توقّفت آنا ولوته، وقد تلفّحت كلّ منهما بياقة ثوبها المقلوبة.

- «وأين... أين دُفن مارتين؟».

- «في مقبرة عسكريَّة ببلدة غيرولشتاين. لكن قبل ذلك...».

- «ألم يُحضروا جثمانه إلى المنزل؟».

- «هل جُننتِ؟ لقد تمزّق جسده إربًا إربًا بفعل قذيفة مدفعيَّة في جبال آيفل. جمعوا رفاته ودفنوه في التراب. هل تظنّين أنَّهم كانوا يعيدون جثث الموتى إلى ديارهم في عام ١٩٤٤؟ لا سيّما مع الأعداد التي لا تحصى للوفيّات! في روسيا، في فرنسا، في جبال الآردين، تناثروا في كلّ مكان، ساق هنا وجذعٍ هناك. دعكِ من هذا كلّه، لقد كانت معجزة بالفعل أنَّهم أخبروني بمكان موته».

استاءت لوته، لكنّها ظلّت ساكتة. لقد خاطبتها آنا بالنبرة التي يُخاطب بها الحمقى والسذَّج، كما لو أنَّها تتمتّع بصلاحيات عليا لأنَّ زوجها لقى مصرعه في تلك الحرب. قالت آنا بتمعُّن:

- «تلك الليلة، في نورمبيرغ، توقّع كلّ ما جرى فعلًا. وبدلًا من خشية المنية، لأنَّه الشخص الذي سيموت في نهاية المطاف، كان قلقًا بشأني. رجل في السادسة والعشرين، ناضجٌ ومتزنٌ كما لو أنَّه قد خاض حياةً كاملةً من التطوُّر الفكريّ لكن بوتيرة متسارعة. كان على دراية بكلّ شيء، في تلك الليلة».

٩

لُقِّن الأطفال، كونهم عوامل خطرٍ حقيقيّة، تعليمات صارمة تنصُّ على تحريم التحدُّث عن شؤون المنزل تحت أيّ ظرفٍ من الظروف. ترسّخت هذه الأوامر في أذهانهم مثل جدول الضرب بأربعة. حين يصطحب أحدهم أحد أصدقاء المدرسة على نحوٍ غير متوقّع، كان يصرخ بمجرّد الخروج من الغابة: «أمّاه، جاء بيبت، أليس هذا رائعًا!». كانت هذه العبارة تعني: الانتباه، فليختبئ الجميع في الطابق العلويّ. لقد عزّزت الحرب من حذرهم وسعة حيلتهم. في الغابة، دنت زوجة بستاني المزرعة المجاورة من بارت وبادرته بالكلام:

- «أخبرني يا بارت، مَن هي تلك المرأة التي كانت تجلس خلف ماكينة الخياطة في منزلكم؟».

عرف في الحال أنّها تقصد السيدة ماير التي تقوم من وقت لآخر ببعض أعمال الحياكة والترقيع.

- «لقد ذهبت لأستعير بعض السكّر من والدتك، ولم أجد أحدًا في المنزل، سوى تلك السيدة في غرفة المائدة».

- «آه، إنها إحدى خالاتي»، تظاهر بعفويَّة، «واحدة من أخوات أمّي، تزورنا أحيانًا من أجل خياطة بعض الأشياء لنا».

تولَّت والدة لوته دفَّة القيادة. خبزت فطائر البطاطس وأرغفة الخبز الضخمة؛ فيما تناوب المختبئون على طحن القمح بمطحنة القهوة. في تلك الأثناء، كانت تتوجَّه إلى الطابق العلوي لتهدئة المشاجرات حول لعبة الورق، فزوجها مقامر متعصّب في الرهان ولا يطيق تقبّل الخسارة. أمَّا السيدة ماير فكانت تعمد إلى الغش حين تحاصرها بوادر الخسارة. انغمس آل فرينكل في دورة تدريبيّة للغة الإنكليزيّة عبر المراسلة، استعدادًا للهجرة إلى أمريكا حالما تنتهي الحرب. حالما تنتهي الحرب! أضحت هذه العبارة بمثابة قول مأثورٍ، نخبٍ مرفوعٍ، توقُّع طافح بالآمال، ولمّا كان الحلفاء قد وصلوا فرنسا، وبات الجميع غير آبهٍ بأسراب القاذفات الإنكليزيّة التي تحلِّق يوميًّا نحو الشرق؛ اتفق الجميع على أنَّ السلام، للأسف، لا يتحقّق بغير قوّة التدمير. في غضون ذلك، انضمّ اثنان إلى جماعة المختبئين. اكتشف المخرِّب الذي يعمل في مكتب البريد ويقرأ كلّ الرسائل الموجّهة إلى دائرة الأمن أنَّ شخصًا ما قد وشى بمكان اختباء سامي غولدشميت وزوجته. لذا كان عليهما العثور على مكانٍ آخر فورًا. من دون أن ينبس أحد ببنت شفة، أضيف فراشان آخران وتزحزح الجميع قليلًا لإتاحة القليل من المساحة الفارغة.

رويدًا رويدًا، اقتربت مكنستان هائلتان، واحدة من الشرق والأخرى من الجنوب. مكانس بأهدابٍ طويلةٍ تجرف الألمان أكوامًا أكوامًا، كما الغبار. في كلّ مكان، ترقَّب الجميع ذلك بفارغ الصبر. بثّ راديو أورانج

مساء الاثنين، الرابع من سبتمبر، النبأ التالي: «وفقًا لمصادر من الحكومة الهولنديَّة، وصلت جيوشُ الحلفاء إلى بريدا». عانق المختبئون بعضهم البعض وسط الضحكات والدموع. سارع ربّ المنزل إلى إخراج زجاجة جِن من مؤن الحرب. لكنّ الخبر نُفي بعد أيّام قليلة. بشقّ الأنفس، تمكّن الحلفاء من فتح ممرٍّ ضئيلٍ عبر بَربنت، اجتازوه للتقدّم شمالًا. استولوا على عدد من الجسور النهريَّة في هجمات خاطفة، ولكنهم فشلوا أمام الجسر العابر لنهر الراين عند بلدة آرنم. وتوقف تقدّم القوّات. اضطرَّ والد لوته لإنزال بعض الأعلام الصغيرة على عجل.

في الورشة ذات اللون الأزرق الشاحب، أرادت لوته أن تعرف كلَّ شيء عن تلك القطع الخشبيَّة التي لا تزيد سماكتها عن بضعة ميلمترات؛ خلع إرنست غودريان نظّارته وانحنى على مقربة من الخشب؛ كما لو أنَّه منخرط في مؤامرة غامضة مع الكمان قيد التصنيع. كان قد نسي أن يرتدي نظارّته من جديد حين عانقها بطريقة خرقاء بين أكوام نشارة الخشب ودلو الغراء الذي اندلق على الأرض وفاح على الفور برائحة عفن كريهة. ربّما كان الحب، ربّما رأى كلّ منهما في الآخر ترياقًا للحرب التي بالغت في امتحان جهازه العصبيّ وضميرها. من دون درايةٍ منه، راح يمحي جذورها المخزية، ويحرِّرها من قبضة الذكريات القديمة التي كانت جزءًا من حياة سابقة. برفقته، كانت تفتح صفحة جديدة في دفتر حياتها، ومن خلاله، أصبحت هولنديَّة أصيلة.

في وضح النهار، تنزَّها عبر الغابة؛ فبوجودها إلى جانبه، كان يتحدَّى المصير بلا اكتراث. استراحا عند جذع بلوطة متهدمة. وقع نظره، حين

تلفّت جانبًا، على فطرٍ نامٍ من أحد الأغصان الثقيلة، له شكل اللسان، بحجم شريحة لحم، لونه بنيّ ضارب إلى الحمرة، ملتحم بلحاء الغصن؛ اقتطفه برفق. في تلك الليلة، حمّرت لوته الفطر بسرعة من الجانبين، حرصًا على ألّا تضيع العصارة الدمويّة التي تشرَّب بها. ظهر هذا الفطر بوصفه الطبق الرئيسيّ على المائدة. تلقّى الجميع نصيبهم من هذه الهديّة التي وهبتها الآلهة، لأنَّ الجوع ظلَّ باسطًا سطوته على الجميع.

تفاقم شحّ الغذاء أكثر فأكثر. تناوبوا على الذهاب إلى مطبخ الحساء في القرية لإحضار قصعة مملوءة بمرق الكرنب والبطاطس المهروسة. بعد سماع الشائعات عن بيع الإوزّ في بارنيفيلد، سارعت لوته وكون على متن الدرّاجات، حيث ضاقا ذرعًا بالبقاء محبوسَين في المنزل. على مشارف آمرسفورت، صادفا قافلة المُرحَّلين من آرنم، تضمُّ بين أفرادها فتاتين صغيرتين تتعثّران في الطريق مع قطّة مربوطة بحبل. بعد برهة، اضطرّا للتنحيّ عند جانب الطريق لأنَّ حافلة مرَّت بسرعة جنونيّة، تقلّ الفتيات المُساعدات في قوّات الدفاع.

- «خفافيش على هيئة فتيات! إلى الجحيم أيّتها الحشرات»، استهزأ كون.

تابعا قيادة الدرّاجة في أعقاب الدخان الكريه الذي خلّفته الحافلة. بدأ المطر ينهمر. حلّقت طائرة على ارتفاع منخفض جدًّا لدرجة أنَّ الطيور فرَّت من الأشجار مذعورة. في غمضة عين، صُعقا حين دوّى انفجار هائل، على مبعدةٍ، استهدف الحافلة التي كانت أمام أعينهما. ارتفع عمود من ألسنة اللهب، وتصاعد الدّخان متبخّرًا في سحب المطر. دُهش كون

بالسرعة الهائلة التي تحقّقت فيها أمنيته، حدَّق في المشهد فاغرًا فمه، وتردّد في موقفه؛ هل يرى ما حدث عظيمًا أم مروِّعًا. في غمرة الاندفاع، انصبَّ تفكير لوته، على نحوٍ ليس لها يدٌ فيه، حول آنا. كنّ ما يزلن هناك قبل دقيقة، واجتزن المكان بسرعة خاطفة كسرب طيور بزيّهنّ الرماديّ النظيف، وسرعان ما كشّرت الحرب عن أنيابها بطريقة غريبة، هنا بين المروج وتحت رذاذ المطر. لو أنَّ آنا على متن الحافلة، لكانت لوته قد فقدت شقيقة للتّو. وبعدها، ستكون حرّة حقًّا ومن دون أدنى شك. لم تجترح هذه الأفكار أيّة ذرّة من المشاعر داخلها. لقد سبق لآنا أن تلاشت شيئًا فشيئًا حتّى باتت طيفًا غامضًا لا يهمُّ كثيرًا إذا ابتلعته زوبعة الدخان التي تطايرت أمام ناظريها أم لا. حين استأنفت قيادة الدرّاجة، شعرت باشمئزاز طفيف، إلى أن استوقفهما أحد المرحّلين وأخبرهما لاهثًا بأن محطة آمرسفورت قد قُصفت واشتعلت النيران بكلّ قطارات النقل. لم يكن هذا مكانًا لقيادة الدرّاجة، بحثًا عن إوزّة. عبرا الخندق، يرفع كلّ منهما درّاجته على ظهره، وعادا إلى المرج. عبرا مسارًا نصف دائريّ على محيط البلدة، حيث جلبت الريح معها أصواتًا مشؤومة. عثرا على إوزّة. وفي طريق العودة، سلكا دربًا مختصرًا، مُحمّلين بإوزة وحقيبة مملوءة بالبيض الطازج المفصول عن بعضه بنشارة الخشب.

نفد مخزون الدقيق. تذكّرت سارة فرينكل مزارعًا ثريًّا يقطن قرب ديڤينتر، كَنَّ إعجابًا شديدًا لبراعة ماكس في العزف على الكمان قبل الحرب. تطوّعت لتنفيذ المهمّة بنفسها: لا يمكن أن يصيبها أيّ سوء، فقد كان بحوزتها بطاقة هُويّة شخصيّة باسم خيّاطة آريّة من آرنم.

تجاهلت اعتراضات والدة لوته بقولها: «لن يعطيكم شيئًا من دون وجودي». وفي يوم خريفيّ ممطر، انطلقت سارة وجيت على متن قطار إلى ديڤينتر، بحوزتهما الأكياس الفارغة وعربة أطفال قديمة لبرام. لم تكن شهرة ماكس فرينكل قد خبت بعد. غادرتا المزرعة ببطون متخمة وعربة أطفال ممتلئة. في طريق العودة، عثرتا على مأوى لقضاء الليلة في قصر مهيب على ضفة نهر آيسل في ديڤينتر. في اليوم التالي، خطر لسارة عنوانٌ آخر. تزايد طموحها، ففي المرّة الوحيدة التي غادرت بها مخبأها، لا بُدّ لها من العودة مدجّجة بالمؤن، لا سيّما أنَّ الأكياس ما زالت تتسع للمزيد. تركا عربة الأطفال في مكانٍ آمنٍ وغادرتا البلدة. غصّ الطريق بالأغصان المتساقطة في أعقاب عاصفة الليلة السابقة. كانت قطرات مطر الخريف تصفع وجهيهما. في منتصف الطريق، توقّفت سيارة تابعة للشرطة الألمانيّة، وفُتحت النافذة.

- «أين وجهتكما؟».

ذكرت سارة اسم القرية بجرأة.

- «اركبا. امرأتان جميلتان تكابدان في هذا الطقس الرهيب... أمر لا نرضاه أبدًا»، دعاهما السائق بمرح.

جلستا في المقدمة، بين السائق والجنديّ المكفهرّ. ساروا في صمت. مع أنَّ السائق كان عليه تركيز انتباهه التامّ على الطريق أمامه كي لا تجرف الريح السيّارة، إلّا أنّه ابتسم لهما ابتساماتٍ خبيثة بين حين وآخر. استرق الآخر نظرات جانبيّة عليهما، وسرعان ما تبيّن شكلَ الأنف الشهير لعائلة روكانيه؛ دمغة الأصالة.

- «أنت يهوديّة»، صرخ متفاجئًا، «توقّف... توقّف...!».

دعس السائق على المكابح. مرتجفة، سحبت جيت بطاقة الهوية من جيبها الداخليّ. لكنّ محتواها لم يكن كافيًا لتبرئتها في نظر الجنديّ.

- «أنت يهوديّة رغمًا عن ذلك»، كرّر بعناد.

- «بالله عليك! إذا كانت هذه يهوديّة فأنا مثلها»، استخفّت سارة بلهجة ألمانيّة رفيعة.

- «دعهما وشأنهما»، قال السائق.

خلقت قطرات المطر التي تدقُّ سقف السيّارة جوًّا حميمًا ومخيفًا داخل القمرة.

- «لكنّها يهوديّة... هذا واضح للطفل الصغير»، أصرَّ الآخر.

فتح الباب محبطًا لعدم قدرته على إثبات ذلك.

- «ترجّلا. هيّا».

- «من الأفضل لكما أن تنزلا هنا»، قال السائق وهو يرمقهما بنظرة انهزام.

تعثّرتا أثناء الخروج بأقصى سرعة ممكنة. حين تلاشت السيّارة في المطر، تعانقتا بحرارة. استمرّ هطول المطر، لكنّهما لم تشعرا به، لقد كانتا غارقتين بعرق الخوف. اختفى ذلك الدافع لملء الأكياس بالمؤن. كانتا بحاجة للاستراحة استعدادًا لرحلة العودة في اليوم التالي بعربة تعجُّ بالأغراض.

لكن الأمور لم تسر على ذلك النحو. ففي تلك الليلة، تعرَّضت البلدة للقصف. لاذتا إلى أحد الملاجئ وانتظرتا، متلاصقتين، في الظلام

المشبع بالرطوبة. حين اتّضح أنَّ الهجوم سيغدو أشدَّ شراسة، وباتت الأرض تحتهما والجدران حولهما تهتزُّ بعنفٍ لدرجة تعذّر معها تعرّف جهات المكان، أين الأعلى من الأسفل، وأين اليمين من اليسار، راحت جيت تصرخ بسخطٍ غير مُصدِّقة ما يجري:

- «إذا استمر الوضع على هذا المنوال ستقع كل هذه الخرائب علينا...».

ما انفكّت تصرخ وتهرف بصوتٍ أعلى وقد غطّت أذنيها بكلتا يديها. أضفى الخوف على صوتها قوّة هادرة جعلته يتغلَّب على ضوضاء الغارة الجويّة. حاولت سارة تهدئتها بلا جدوى. بعد ساعات، كانت ما تزال على حالها، في ذروة الهيجان، جاثمة على الأرض، متيبّسة ولا يمكن الدنوّ منها، مستعدّة لشيء واحد فحسب؛ مغادرة الملجأ والعودة إلى المنزل على متن أوّل قطار.

- «وماذا عن العربة...؟»، سألتها سارة.

نظرت إليها جيت بازدراء.

لا مفرَّ من حصر التفكير بمسألة الطعام. كانت عربة الأطفال تلك المليئة بدقيق القمح تعني تأمين ما يكفي من أرغفة الخبز لإطعام عدد كبير من الأشخاص على مدار أيَّام. دفع هذا المنطق البسيط لوته للتوجّه إلى ديڤينتر حيث تركت سارة العربة بقلب ينزف حزنًا. غادرت على متن درّاجة بلا إطارات، ولكنْ بخُرج. كانت تنتعل حذاءً فضفاضًا ذا أربطة لإرنست غودريان فوق زوج من الجوارب المهترئة التي رقّعتها السيدة ماير بجهودها المنزليَّة. في ديڤينتر، نقلت محتويات العربة إلى خُرج

الدرّاجة. تمثّل العائق الأكبر في اجتياز الجسر فوق نهر آيسل. في البداية، ذهبت لاستطلاع الوضع سيرًا على الأقدام. ثمّة كوخ خشبيّ عند مدخل الجسر، يتمركز فيه عناصر من الميليشيات الموالية لألمانيا للتحكّم بحركة المرور؛ وفي منتصف الجسر، هناك مفرزة فيها حارس ألمانيّ من أجل المهمّة نفسها. حين رآها قادمة لوَّح لها.

– «هل تريدين تمرير الطعام عبر الجسر؟»، سألها بلطف.

– «إن كان هذا ممكنًا»، همست.

أخبرها الحارس أنّها ليست أوّل شخص يساعده في ذلك. لقد ابتكر طريقة تسمح للأشخاص بعبور الجسر من دون علم رجال الميليشيات الهولنديّين الذين يصادرون كلّ ما هو صالح للأكل. يتألّف الجسر من قسمين، أحدهما لمرور المركبات والآخر للمشاة. هناك جدار عالٍ يفصل بين القسمين على طول الجسر، تقطعه مفرزة الحراسة في المنتصف. إن سارت بدرّاجتها المحمّلة بين أنقاض المنطقة المحظورة، إلى أن تصل ممرّ المشاة، وتبلغ الجزء الخلفي من مفرزة حراسته، فسيأخذ أكياس الدقيق منها. بعد ذلك، عليها العودة مع الخرج الفارغ وعبور الطريق الأساسيّ حيث رجال الميليشيات. أخيرًا، سيحمّل الأكياس على متن الدراجة مرة أخرى. اتّبعت نصيحته. أمروها بدخول الكوخ الخشبيّ الهولنديّ مع درّاجتها وكلّ شيء؛ كان أشبه بأرضٍ موعودة زاخرة بالبطاطس والخبز والزبدة والجبن ولحم الخنزير المقدّد. فتّش الحارس الخرج الفارغ، وتبيّن من جواز سفرها أنَّ منزلها بعيد عن هذه المنطقة، وقال لها بملاطفة:

– «سنعطيكِ رغيف خبز تأخذينه معكِ».

تناول رغيفًا من الكومة الهائلة ووضعه في خرجها. بوسعها استئناف طريقها. دفعت درّاجتها فوق الجسر حتّى وصلت عند الحارس الألمانيّ. كعاصفة انبثقت من العدم، انحرف سرب من الطائرات النفّاثة فوق الجسر.

- «إلى الجدار، بسرعة...!»، سمعت صراخًا بالألمانيَّة.

ألقت درّاجتها على الأرض والتصقت بالجدار الفاصل. تحت نيران كثيفة، تأوّه الجسر في ضجيج يصمُّ الآذان. من زاوية عينها، رأت أنّ أحد أكياسها قد أُصيب؛ بدأت الحبوب تتقاطر منه مثل أسراب النمل. حبست أنفاسها، فبينما كانت القنابل تتساقط من كل حدب وصوب، زحف الألمانيّ نحو الكيس وربط الثقب بخيط كما لو أنّه يضمّد جرحَ جنديٍّ مكلوم. عاودت الطائرات النفّاثة التحليق فوق الجسر قبل أن تختفي تاركة وراءها صمتًا موحشًا. في الأسفل، استمرَّ نهر آيسل في جريانه غير آبهٍ بما جرى. مترنّحة، كافحت لوته للوقوف على قدميها. ما زالت حيَّة، وكلّ شيء يسير كما كان من قبل. حمّل الألماني أكياس القمح في خرج الدرّاجة. شعرت بالحرج أمام السخاء الذي أغدقه عليها، فتشكّرته بالألمانيّة. بكآبةٍ قال لها:

- «إنّك تذكّرينني بزوجتي. لدينا طفلان صغيران. أتطلّع بشوق لانتهاء الحرب، لكنّي خائف للغاية... لقد تعرضت هامبورغ لقصفٍ كثيف. لا أعرف ما إذا كانوا على قيد الحياة...».

القمح، القمح... هذا ما يهمُّ فحسب. استأنفت رحلتها. على امتداد الطريق بين آبلدورن وآمرسفورت، اختلط البريقُ الأصفر والبرتقاليّ

لأوراق الأشجار المتساقطة هنا وهناك مع الأخضر الأبديّ لأشجار التنوب. ألقت الشمس الخفيضة ضوءًا حادًّا مُستحكِمًا على المشاة بهيئاتهم الباهتة، ملفوفين بمعاطف قديمة، يسيرون على الطريق؛ مُرهقين، جائعين، متوجّسين خشية أن يُسلبوا في اللحظة الأخيرة النزرَ اليسير ممّا بحوزتهم من أطعمة حصلوا عليها مقايضةً بخاتم أو مشبك زينة كان لإحدى جدّاتهم فيما مضى. مشت لوته بينهم، تجرّ غنائم الحرب. أمامها مباشرة مشى رجلان بخطوات متعثّرة؛ هيئتهما على تناقض صارخٍ مع ألوان الخريف المتوهجة على جانبي الطريق، كما لو أنّ سراحهما قد أُطلق للتوّ من زنزانات عشعشت داخلها الرطوبة، ولم يبصرا ضوء النهار منذ سنين. يرتدي كلّ منهما معطفًا عفنًا، يداه وقدماه ملفوفة بضمادات متسخة. حين اقتربت منهما، اندلعت ضوضاء تصمّ الآذان. لاحت ظلال القاذفات في الأرجاء، وتردّدت أصداء الانفجارات قادمة من وراء الأشجار. ظهر جنود ألمان بين شجيرات الزينة. تلفّت الرجلان حولهما بذهول.

- «تعالا، ساعداني في الدفع»، صرخت لوته لتزويدهما بالعذر في حال جرى تفتيش مباغت. «ادفعا!».

أمسكا المقودين وثبّتا رف الأغراض. وإذا بانفجار قريب يدوّي. ألقوا جميعًا بأنفسهم في خندق واختبؤوا في حفرة. أدركوا شيئًا فشيئًا أنّ الانفجار استهدف سكة الحديد الموازية للطريق السريع حيث كانت تسير قافلة قوّات عسكريّة. جثموا في جوف الأرض، بوجهيهما النحيلين اللذين تكتنفهما غشاوة رمادية، وفي غمرة الهرج الجهنميّ المحيط، راح الرجلان يرويان، بتلعثمٍ، قصة رحلتهما من ألمانيا. كانا من

أسرى الحرب الذين أُرسلوا للعمل في مصنع للفولاذ، وفي كلّ صباح، عند نداء الأسماء، كان عليهما القفز مثل لاعبي السيرك لتجنّب جلد القدمين بالسياط الذي مارسه الحرّاس المتعطّشون للترفيه. تقرّحت الأقدام المصابة ولم تتماثل للشفاء في ظلّ سوء التغذية. حين قُصف المصنع، لاذا بالفرار ليلًا عبر الغابات، باتجاه الغرب، وفي الصباح ناما. كانت عائلة كلٍّ منهما في لاهاي؛ ولم يعرفا ما إن كان بوسعهما الوصول إليهم، تقيَّح أخمص قدميهما وقد أودى بعزمهما الهذيان المُلازم الذي سبّبه الجوع.

خيّم الهدوء تدريجيًّا حولهم، باستثناء أصوات الفرقعة الخفيفة وحسيس القطارات التي ظلَّت مشتعلة. تبدَّد هدير القاذفات بعيدًا، وقد تلاشت من الأفق مثل دبابير غاضبة وخلَّفت الطريق فارغًا، لكنّه سرعان ما اكتظّ من جديد بأولئك الذين عليهم المضيّ قدمًا. في إحدى القرى، قايضت لوته ببعض القمح خبزَ الشعير أملًا بشدّ أزر الهاربَين قليلًا. لم تجرؤ على تركهما لمواجهة القدر بمفردهما، مع أنّهما تسبّبا في تأخيرها.

- «دعونا نجلس...»، قال أحدهما بأنينٍ.

عارضت لوته خشية ألّا يستطيع معاودة النهوض.

- «استمرَّا... استمرَّا».

- «طفح الكيل، لا أستطيع المواصلة بأي شكل»، تنّهد بعد مسير ثلاثة كيلومترات.

- «تبقّى القليل... القليل فحسب... كدنا نصل».

كان الظلام قد حلّ بالفعل، وبلغوا مشارف آمرسفورت. أرشدتهما لوته إلى طريق المستشفى؛ فقد كان معروفًا أن أبوابه مفتوحة أمام الجميع دومًا.

- «سيعتنون بكما هناك بكل تأكيد».

لم يرغبا في التخلّي عن الملاك الحارس الذي أنقذهما.

- «لا تتركينا وحدنا. سيلقون القبض علينا»، توسّلا إليها.

هزّت رأسها.

- «ليس بوسعي الذهاب معكما، لا سيّما أنّ بحوزتي كلّ هذا القمح».

القمح، القمح... لقد ضيّعت الكثير من الوقت، وباتت مضطرة لمغادرة البلدة قبل بدء حظر التجوال.

اختفت على عجلٍ عن أنظار الهاربَين مع درّاجتها المدجّجة بالأحمال. حثّت الخطى. مساء كباقي المساءات المتشابهة الأخرى، لا قمر فيه ولا غيوم، يهيمنُ عليه الاسوداد التامّ الذي ازدادت حلكته بالنوافذ المعتمة. تنامت داخلها الريبة بأنّها على وشك أن تضلّ طريقها. مرَّ بها رجل على درّاجة لها سلّة. خاطبها. نعم، كانت تسير في الاتجاه الصحيح، لكن لماذا لا تضع أغراضها في سلّته؟ فيخفّف عنها عناء جرّ العربة. بحوزته مصباح وبوسعه مرافقتها لبعض الوقت. قبلت خدمته بامتنان؛ قاد درّاجته بوتيرةٍ متهاديةٍ ولم يتبادلا الكلام. عمّ يمكنها أن تتحدّث مع غريب تتعذّرُ رؤيته بوضوحٍ، أثناء حظر التجوال؟ فجأة، وهي بجواره، أحسَّت بتسارع حركاته؛ زاد مرافقها من سرعته أكثر فأكثر، خارقًا

ميثاق الصمت بينهما بدمٍ باردٍ. مثل سرابٍ مراوغٍ ينقشع خلسة، اختفى في جنح الظلام، تاركًا إيّاها خاوية الوفاض. لم تسمع سوى دقّات تلك المضخّة الغبيّة داخل قلبها. ساد حولها صمت عاتٍ. وسرعان ما دهمها الخوف آنذاك. الخوف الذي أفلتت من قبضته حين كانت على الجسر فوق نهر آيسل، وأثناء قصف سكّة الحديد؛ لقد تأنّى في اختيار اللحظة المناسبة. راحت تصرخ. في الظلام، اخترق صراخها، غير الموجَّه لأحد بعينه، حظر التجوال المطبَّق. القوّة، التي هزّت خزّان الماء البرجيّ بأركانه الراسخة في الأرض ذات يوم، تكثّفت على نحو غير مسبوق في صوتها. اقتربت دوريّة شرطة؛ أمسكها شرطيٌّ من ذراعيها كي يهدّئها. روت ما حدث لها بكلام متشظٍّ. دفعها داخل السيارة وانطلقوا لمطاردة الرجل؛ حفرت مصابيح السيارة نفقًا في العتمة. اعتراها تبلُّد غريب. لم تعد تلقي بالًا لمسألة الإمساك باللصّ. باتت المفاهيم التي كانت جليّة في وقتٍ سابق، كمفهوم الصديق والعدوّ، ملتبسةً. خرج الأمر عن نطاق السيطرة، لم يعد يعنيها، بل صار على عاتق أناس آخرين. لحقوا بالرجل وأرغموه على التوقُّف ووبّخوه. ربّما كان بانتظاره فوج من الأطفال الجياع في المنزل، يترقّبون عائدات حملة النهب الليليّة. راقبت الأشخاص المتحرّكين في ضوء المصابيح الأماميّة من دون اكتراث. تسلّمتْ أكياس الحبوب للمرة الألف؛ لن يتبقّى منها شيء على ما يبدو.

*

انتهى بهما المطاف في «شاليه دو پارك». مرّة أخرى، توارى وجههما خلف قائمة الطعام، تغمرهما متعة الحياة. كان علاج التهاب المفاصل

يحدث بصورة أساسيَّة في الأجواء المغلقة لحمّام المتنجع والمطاعم ومخابز المعجنات والمقاهي لأنَّها أرادتنا في هذا الشهر، شهر يناير، الاحتفاظ بحرارة حمّامات الخثّ داخلها طوال اليوم. أمّا السبب الجوهريّ، فلأنَّ التحدُّث أثناء تناول وجبة طعام أو كعكة أو احتساء فنجان من القهوة أيسر، حيث تغدو هذه الأشياء بمثابة مانعات الصواعق.

- «حسن... لو أنّكم لم تنهبوا بلدنا لما حدثت مثل تلك المشاهد»، قالت لوته بتأمُّل.

- «لقد عانينا من تقنين الحصص الغذائيّة على السواء...»، علَّقت آنا بهدوء.

رفعت لوته حاجبَيها.

- «لقد كنتم مخزن الغذاء لأوروبا بأسرها».

تركت آنا القائمة تسقط من يدها، وقد أحسَّت بشيء من الإهانة.

- «انتقم الفرنسيّون بعد الحرب. جرى تجويعنا بشكلٍ منهجيّ في مناطق السيطرة الفرنسيَّة».

- «آه...»، تنهّدت لوته. هذا هو التبرير الأبديّ. دائمًا الأمر نفسه: لم يكن الأمر سهلًا علينا أيضًا.

- «ماذا ستطلبين؟»، قالت آنا. أثارت تلك القصص عن شحّ الطعام شهيّتها.

- «أظنّ... شريحة ضلع البقر بصلصة النبيذ الأحمر... أم آخذ سمكة الترويت بصلصة المونيير...؟» قالت لوته متردِّدة.

*

باشرت آنا عملها في مستشفى عسكريّ تديره الرّاهبات. راحت تتعلّم مهامّها بسرعة، خشية أن تسبّب خيبة الأمل لمارتين. عُهدت إليها مسؤولية الإشراف على جناحَين: أحدهما للجنود والآخر للضبّاط؛ كان جميع المرضى قد فقدوا طرفًا من أطرافهم في جبهة آخذة بالتضاؤل شيئًا فشيئًا. كلّ صباح كان جرس الإنذار يدقُّ عند العاشرة: طائرات معادية تحوم في الأفق! كان لزامًا إنزال الجرحى إلى القبو بأسرع ما يمكن، على نقّالات خاصّة مزوّدة بعجلات من جانب ومقبضَين من الجانب الآخر. وثُبِّتت سكك خشبيَّة على امتداد السلالم.

- «أسرعي، أيّتها الأخت آنا!»، صاحت إحدى الراهبات.

لا داعٍ لقول ذلك، فقد كانت آنا منهمكة في الركض وصولًا إلى منعطف السلّم لتأمين المرور الحرج للمرضى مبتوري الأطراف. أسرعت جيئةً وذهابًا، يستحثُّها صوت الصافرات، إلى أن أصبح كلّ المرضى في مأمن. حين سقطت القنابل الأولى، هرعت عائدةً لإحضار أطرافهم الاصطناعيَّة. لم تتوقّع أيّ عونٍ من الراهبات، فقد كان الشغل الشاغل لهنّ يتمثّل في نقل وعاء القربان المُقدَّس إلى برّ الأمان. صلّين ورتّلن وأخذن صورة الربّ الحامي إلى مصلًّى صغير مرتجل لئلا تتضرّر من جرّاء القصف. لم يكن لدى آنا متسع من الوقت لالتقاط أنفاسها. استمرَّت المهام اليوميّة بلا هوادة على الرغم من القصف: الغسيل، توزيع الأدوية، تنظيف الضمادات. كانت بمثابة دمية يتحكّم بها محرِّك الدمى المحبوب ذاك، سالمًا هانئًا في سمائه، وإذ يراها، يتأكّد من أنَّ حدسه قد تحقَّق. تزايد قلق أولئك الجرحى بشأن آنا، حيث اتّضح لهم

أنَّ دافعًا غير دنيويّ يستنهض فيها العزم للعمل ولا يدعها تدّخر وقتًا للأكل أو النوم. ذات يوم، صنع لها الجرحى الذين استطاعوا التحرّك قليلًا بمساعدة الأطراف الاصطناعيّة، أريكة ملكيّة في زاوية القبو عبر تكديس المعاطف والسترات والوسائد. احتجّت آنا وميزان الحرارة في يدها، لكنّها سرعان ما تركت نفسها تُقاد إليها، لتغرق في نومٍ عميق على الفور، وبحنانٍ أخويّ، غطّوها ببطانيّة.

كان الجناح الآخر يأوي مريضًا بحالة لا تخوّله الخضوع للجراحة، اخترقت الشظيّة جسده واستقرّت قرب قلبه. اضطرّ إلى البقاء ساكنًا، لا يتحرّك ولا يحرّكه أحد. كان عليه أن يكابد انتهاء غارة القصف وهو على سريره، بهدوء تامّ؛ حيث مثّل الانفعال تهديدًا جسيمًا لحياته يفوق خطر القنابل. تناوبت الممرضات مع الطبيب على مراقبته. لذلك اعتادت آنا بانتظام على البقاء معه، جالسة كهدفٍ حيٍّ بجوار النافذة، وراحت تتحدّث بطلاقة في شتّى المواضيع البريئة. مقابلها، على الجانب الآخر من السرير، جلس الطبيب المنهك مرتديًا خوذة مضادة للغارات الجويّة. كان لثرثرتها الفارغة تأثير عليه في كثير من الأحيان. شاهدت جفنيه يغمضان ورأسه يتدلّى ببطء. قبل أن يغفو، كان واعيًا بما يكفي لخلع الخوذة ووضعها في حجره. وحين تسقط قنبلة على مقربة منهم، كان يفزُّ جالسًا ويعتمر الخوذة كردّة فعلٍ، ثم تبدأ سلسلة الأحداث نفسها من جديد. أمام هذا المشهد الهزليّ المتعاقب، جاهدت آنا لكبت ضحكتها احترامًا للمريض المصاب بالشظية.

أثناء بحثها عن إحدى الراهبات، ضلّت طريقها في مجمّع المباني

التابعة للمستشفى. فتحت بابًا عشوائيًّا يبدو أنَّه يقود إلى قاعة ضخمة، وتجمّدت عند العتبة. بمشقّة بالغة تمكنت من قمع الرغبة بالفرار حالّا، عبر متاهة الممرّات نحو الخارج. كان جناحًا بلا أسرّة، سُجِّي فيه الجنود الذين فقدوا كلّ أطرافهم على الأرض. اندملت جروحهم بالفعل. أمّا جذوعهم فملفوفة بالجلد، مثل الرُّضع، كي يتمكنوا من الزحف على الأرض. ألقت شمس الخريف وهجها عليهم، أو على ما تبقّى منهم. لم يكن بوسعهم سوى التحدّث والتدحرج. أغلقت آنا الباب بسرعة. كانت في المنطقة المحظورة، فما رأته للتو هنا لم يكن له وجود رسميّ؛ الجانب المظلم للأبهة العسكريّة وصليل الأسلحة والأوسمة وخطابات البطولة. هل كان هؤلاء الجنود سينطلقون إلى الحرب لو حُذِّروا بأنّ المطاف قد ينتهي بهم، فضلًا عن الموت البطولي، إلى حجرة خلفيَّة كهذه؟

في المساء، كانت تعود إلى منزلها عبر الشوارع الغارقة في الظلام، في رحلةٍ مليئة بالمفاجآت. كان الدمار الذي يحلُّ بالمدينة نهارًا يعيد رسم معالمها المألوفة باستمرارٍ. بذلت جهدًا لفتح الباب الأماميّ، كان لوحان زجاجيّان جديدان من ألواح النوافذ قد تحطّما، وعصفت الريح الخريفيّة القارسة برسائل البريد العسكريّ التي أمضت الليلة السابقة في إعادة قراءتها وبعثرتها في أنحاء الشقّة. تلمّست طريقها نحو الخزانة ذات الأدراج لإضاءة شمعة، اتكأت يدها على حفرة، وكادت تفقد توازنها. كانت الخزانة قد سقطت في الشارع. في اليوم التالي، انهارت امرأة أمام عينيها عند مدخل السلم. تعرَّفت عليها من وجهها الشاحب. بعد فترة وجيزة من وفاة مارتين، صادفتها المرأة على السلم وقدّمت لها التعازي.

- «آسفة لما حدث. إنَّه لأمرٌ شاقّ عليكِ»، همست حانيةً رأسها، «ربّما تعتقدين أنّه أفظع شيء حلَّ بك، لكن هناك ما هو أسوأ...».

ركضت، والدموع تنهمر من عينيها، صعودًا إلى الطابق العلويّ، تاركةً آنا تتساءل عن معنى هذا التلميح الغامض.

حاولت آنا إنعاشها بقطعة قماش مبلّلة.

- «سأقتلهم!»، صرخت المرأة وهي تهمُّ بالنهوض.

- «اهدئي، اهدئي...»، تمتمت آنا لطمأنتها.

- «سأعثر عليهم، حين تنتهي الحرب، سأشرب دماءهم، أقسم بذلك»، اهتاجت المرأة.

بعد نوبة الغضب، استعاد وجهها لونه. أمسكتها آنا من كتفيها.

- «ماذا حدث إذًا؟...».

استسلمت في الحال، وروت لآنا بصوتٍ رتيبٍ عن الاعتقال المفاجئ لزوجها قبل بضعة أشهر. أُلقي القبض عليه وهو يودع ساعة ابنته للتصليح عند أحد معارفه القدامى. الجدير بالذكر أنَّ الابنة ممرضة وترتدي الزي البنيّ بدافع القناعة المطلقة. لم يكن مدركًا أنّ شبهات الانخراط في الأنشطة الشيوعيّة تحوم حول صانع الساعات، لذا جرى اعتقال زوجها بطريق الخطأ على اعتباره واحدًا من تلك الجماعات. منذ ذلك الحين، بات في السجن وحُكم عليه بالإعدام، وعلاوة على ذلك، قيّدوه بالأصفاد ومنعوه من الإيتاء بأيّة حركة. ليل نهار، كان الماء يقطر على رأسه في كلّ لحظة. كاد التفكير في ذلك يصيبها بالجنون.

- «أيّ خطأ فادح هذا الذي اقترفوه!»، هتفت آنا بسخط.

لم تستطع، بحسّ العدالة الذي تعرفه ونهجها العقلانيّ المنظّم، أن تستوعب كيف أمكن لهم إدانة رجل بريء والتعسُّف في إصدار الحكم بحقه. قبل كلّ شيء، شعرت بحاجة ملحّة للتصرّف حيال الأمر، فلم يكن بوسعها تقبُّل حقيقة ترك ذلك الرجل البائس يكابد، إلى أمدٍ غير محدود، الموت المقترن بالتعذيب البطيء وفق أسلوبٍ ماكرٍ لا يخطر سوى ببال المختلّين عقليًّا.

- «دعي الأمر لي...»، قالت بشراسة وهي تحتضن المرأة بذراعها.

أصبح مبنى البرلمان القديم التابع لإمبراطوريّة هابسبورغ السابقة المقرَّ الإداري للتخم الشرقيّ تحت حكم الرايخ الثالث، حيث أقام فيه *الغاولايتر*[1]. توجّهت آنا إلى هناك بخطوات واثقة، وصعدت الدرج ودخلت المبنى التاريخي الذي ينمُّ عن ثراء مذهل، عبرت الممرّ ذا الأعمدة، حيث وقف جنديّ مسلَّح من قوات إس إس كلّ عشرة أمتار، ساكنًا كمومياء. لم يكن معتادًا أن يدخل أحد إلى هذا الحرم من دون دعوة سابقة، وكان الذهول كبيرًا لرؤية ممرضة من الصليب الأحمر تهرول أمامهم لدرجة أنَّ أحدًا لم يتدخّل. لم تشعر آنا بالخوف ولا بالخجل، كان رنين خطواتها على رخام الممرّ دليلًا دامغًا على صحَّة مسعاها. عند تقاطع الممرّات ارتبكت لوهلة. اعترض أحد الحرّاس طريقها.

---

(١) رئيس الفرع الإقليمي للحزب ضمن المنظومة السياسيّة النازية، ثاني أعلى رتبة شبه عسكرية في صفوف الحزب بتعيين مباشر من هتلر. (المترجم)

- «إلى أين أنت ذاهبة؟».

- «إلى الغاولايتر».

- «لماذا؟».

- «أريد مقابلة الغاولايتر!».

اقترب حارسان آخران وتبادلا النظرات المتسائلة: ما الذي تفعله الممرّضة الهستيريّة هنا؟

- «لقد مات زوجي منذ فترةٍ قريبةٍ في صفوف قوّات ڤافن إس إس»، قالت بغطرسة وهي تلوِّح أمام وجوههم رسالة التعزية من زعيم الهجوم الكبير.

لم يتفوّهوا بأيَّة كلمة، واصطحبوها إلى وجهتها، محاطة بمرافقة تليق بمبعوث دبلوماسيّ.

في مخيّلتها، كان الغاولايتر يتمتّع بهيئة متوحِّشة. أمَّا الواقع، ففي غرفة فاخرة، لا بُدّ أنّها كانت تضمّ مكتب الإمبراطور ذات يوم، خلف طاولة ضخمة، كان يجلس عجوز طيّب القلب ذو لحية طويلة؛ يشبه بابا نويل. مذهولًا، شجّعها بإيماءة من رأسه. بعد أن أخذت نفسًا عميقًا، استنكرت أمامه الخطأ الفادح.

- «أعرف جيّدًا هذه العائلة، إنَّهم نازيّون مخلصون، ابنتهم ممّرضة ممّن يرتدين الزيّ البني! لن يسمح الفوهرر بحدوث شيء كهذا! إنَّه لا يعرف الخطأ الذي ارتُكب بحقّ الرجل، ينبغي أن يكون على اطلاع!».

أومأ الغاولايتر مثل جدٍّ حنون لا يقوى على قول لا لحفيدته.

قال بتريُّث:

- «أَسدي لي معروفًا. اذهبي إلى المنزل، واطلبي إلى هذه المرأة أن تكتب طلب استرحام. اجلبيه لي شخصيًّا».

أثمرت جهود آنا، بعد أسبوعين، عن عودة رجل إلى المنزل لم يكن بوسعه إلّا الهمس بأشكال التلذُّذ التي ابتكروها للتنكيل به قبيل إعدامه الوشيك. كان عاجزًا عن الأكل، وتسبّبت أدنى حركة له بألمٍ مرهق. جرّ نفسه إلى السرير بما تبقى في جسده من عزمٍ ومكث فيه، ضعيفًا على الموت، ضعيفًا على الحياة. ذهبت زوجته إلى عملها في النّهار. لذلك لم تكن موجودة حين سقطت قنبلة على المبنى في أواخر مارس، وخلّفت حفرة بعرض عشرة أمتار. عند عودتها إلى المنزل، بدلًا من شقتها، لم تر آنا إلا الشقق الواقعة خلفها. انهارت الأرضيّات وتحوّلت إلى كومة من الأنقاض، وعُثر على النزيل المحكوم بالإعدام تحت الركام، مرتديًا ملابس النوم، كما صرّح أحد الجيران.

- «ربّاه، أيّ ساديّ أنتَ...»، صرخت آنا

وشوشت الريح في أذنها: أما زلت تؤمنين بالعدل أيّتها الحمقاء؟ صرّت على أسنانها. ليس بمقدورها الشكوى إلى الغاولايتر هذه المرة... عليها البحث عن سلطة أعلى... عن عرشٍ أثيريّ...

جلبت الريحُ نفسها رائحة الوحل الجاف؛ كان الروس يقتربون. خلال اجتماع العمل، علمت الممرّضات بضرورة إخلاء المستشفى في غضون ساعتين. ثمّة مستشفى داخل سفينة في الدانوب، ولا بُدّ من

نقل كلّ الجرحى إليه. سارعت آنا، في غفلة من أعين الجميع، لتوديع والد زوجها. حشرت على عجلٍ رزمة رسائل البريد العسكريّ في يده؛ كانت قد احتفظت بها في قبو المستشفى داخل حقيبتين مملوءتين بأمتعتها الشخصيَّة، منذ انهارت واجهة شقتها.

- «أرجوك أن تحرقها... وإلّا سينتهي بها المطاف في صفحات إزفيستيا»[1].

حين عادت، رأت صفًّا من الحافلات أمام مدخل المستشفى. حالما انتهت من مساعدة المرضى النزلاء في الأجنحة المسؤولة عنها وجلست في المقدّمة محاطة بحقائبها، سحبها أحدهم من مئزرها.

- «أختاه، انتظري لحظة، لا يمكنك المغادرة من دون هذه الأشياء!».

قبل أن تدرك ماذا يجري، سلّمت الراهبات الباقيات الأدوية والسجلات الطبيّة لكلّ الجرحى، وعددها مئة وستون إضبارة، إلى آنا، ممرضة الصليب الأحمر المؤقتة. دفُعت، مع ما بحوزتها، إلى داخل حافلة انطلقت بسرعة، تقلُّ رجالًا لا تعرفهم مصابين بجروح خطيرة. كان من المأمول أن تتبعها حقائبها في الحافلة التالية. سارت الحافلة بوتيرة متصدِّعة كما لو أنّها تنوي تقريب الأجل الوشيك لركّابها؛ لسوء الحظّ، اضطرّت للتوقّف في منتصف الطريق عند نفقٍ واطئ. أرسلوا في طلب حافلة أخرى. وفي هذه الأثناء، انكبّت آنا والسائق على حمل المرضى ووضعهم على نقّالات بجانب الطريق. خيَّم الظلام -الروس يقتربون

---

(١) صحيفة روسية يومية تأسست عام ١٩١٧ عقب الثورة البلشفية، استمر نشاطها حتى بعد سقوط الاتحاد السوفييتي. (المترجم)

أكثر- وهم في أماكنهم، ينتظرون، يحدّقون في النفق الذي بدا كأنّه حلقة الاتصال الأخيرة بعالم الأحياء. شقّت حافلة أخرى، ذات حجم ملائم، صفاء العتمة. حُمِّل الجرحى، الذين نخر التجمُّد عظامهم، على متنها، وواصلوا رحلتهم إلى ضفاف الدانوب.

سُجِّي مئة وستون جريحًا على العشب النديّ. تولّى الجنود المعاونون، الذين حُشدوا على عجل، نقلهم واحدًا تلو الآخر إلى متن السفينة، عبر سلَّم ضيق. استنجد زوجان بلّلهما المطر من الرأس وحتى أخمص القدمين بآنا.

- «الفتى الذي تحملونه الآن هو ابننا. بحوزته مسدّس. نخشى أن يؤذي نفسه. لا يمكنه تحمّل رؤيتنا نخسر الحرب».

وعدت آنا بمراقبته وذهبت للبحث عن حقائبها. سمعت اسمها يتردّد بصوت جوقةٍ قادمًا من بعيد.

- «الأخت آنا، القسم C3، ها نحن هنا!».

رنَّ النداء في أذنيها مثل شذراتٍ من قدّاس ميسا سولمنيس حملتها أجنحة الريح؛ ركضت جهة الصوت، في مسارٍ متعرِّج بين الجرحى، حتّى عثرت على جرحاها الذين رفضوا الصعود على متن السفينة من دونها. جلسوا في حلقة واسعة على العشب، أطرافهم الاصطناعيَّة بجانبهم، يحرسون حقائبها. بين الأخت الممرِّضة ومرضاها، خلقت الأشهر الماضية علاقة تملُّك بين الطرفين، وأصبحوا عائلة واحدة كبيرة، لا يصعدون متن السفينة إلّا معًا.

تلاشى الجنود المعاونون بعد انتهاء مهمّتهم، تاركين آنا وراءهم

على ظهر سفينة مُثقلة بأحمالٍ تفوق طاقتها. لمساعدتها في العناية بالجرحى المتناثرين في كلِّ مكان، رافقتها خمس نساء من الطبقة المتوسطة، نُدبن على عجلٍ، غير مدرّبات ولا خبرة لديهن في مجال التمريض. ارتدين مآزر وقبّعات، ولمجرّد كونهنّ إناثًا، افتُرِضَ أنَّ الطبيعة قد منحتهن بالفطرة الموهبة اللازمة لرعاية المرضى. سرعان ما تبيّن أنَّ موهبتهنّ منكبّة في منحى آخر وأنَّ فكرتهنّ عن المهام المنوطة بهنّ مغايرة تمامًا. حين احتاجت لهنّ آنا لتوزيع المِبوَلات أو الأدوية أو وجبات الطعام، كانت تجدهنّ دائمًا، بعد بحثٍ طويل، في أحضان الجنود. نساء تغيَّب عنهن أزواجهنّ طوال سنوات الحرب أردن تعويض خسارتهنّ بذريعة العمل الخيريّ عبر نفح الشفاء الإلهيّ في المساكين الذين سقطوا جرحى في معارك الدفاع عن الوطن، أو ربّما أُصيبوا بجروح قاتلةٍ؛ وهنا يكمن الزخمُ الأكبر.

بدافع من الضرورة الملحّة، قسَّمت آنا نفسها إلى مئة وستين جزءًا؛ جزء يغيِّر الضمادات وآخر يعين على التبرُّز وآخر يقيس حرارة المحمومين، كلّ ذلك بوتيرة سريعة أشبه بفيلمٍ صامتٍ. في الليل، لم يتسنَّ لهذه الأجزاء المتفرِّقة أن تتحد من جديد، بل واصل كلّ منها مهامّه. بعد يومين، كانت تترنَّح في الجوار، وعيناها محمرّتان من شدّة الإنهاك. لم يلحظ ذلك سوى السيّد توپفر، وهو ضابط رفيع الرتبة من قوّات إس إس، من نزلاء جناحها، كان قد فقد إحدى ساقيه على الجبهة الهنغاريَّة.

- «أنتِ على وشك الانهيار. اجلسي هنا»، قال وهو يدفع لها كرسيًّا.

متكئًا على عُكّازيه، تلفَّت حوله مثل جنرال، وخاطب ضبّاطه بصوتٍ جهوريّ.

- «اسمعوني جميعًا: ليس بمقدور الأخت آنا تحمُّل الحال أكثر من ذلك. إنَّها بحاجة للنوم. علينا إيجاد بعض المتطوِّعين الأصحاء الذين يمكنهم تولّي بعض أعمالها. لديها قائمة وسوف تخبركم بمكان وجود المرضى، مسألة تنظيم ليس إلّا».

أومأ الجمهور بالموافقة. وتابع توبفر:

- «الأمر الآخر، ثمّة سرير شاغر في قمرتي. أودّ تقديمه للأخت آنا. إن كان لدى أحدكم أيّة تحفّظات، فسأسمعها الآن بكلّ سرور. الويل لمن أسمعه يتفوّه شيئًا عن الأمر صباح الغد. سأرديه قتيلًا في الحال. هل فهمتم؟».

قادها إلى القمرة وكشّف لها غطاء السرير بحنان. غفت آنا على الفور. حين استيقظت، وجدت توبفر الذي تولّى رعايتها راقدًا قربها؛ كان قد تراجع إلى الزاوية، وتمسَّك بحافة فراشه حتّى أثناء النوم، لكيلا يتدحرج نحوها. لقد أعطى سريره الخاص لرجلٍ يحتضر ويبرطم بشتائم غير مفهومة.

في مساء اليوم التالي، رست السفينة في لينتس. لمعهد اللاهوت مبنى ضخم ومظلم، من المقرَّر أن يصبح المقرَّ المؤقَّت للمستشفى، كان جاثمًا تحت المطر مثل حصنٍ منيع. حين استخدم السيّد توبفر وهو يعرج نحو المبنى، تعضده آنا، سلاحَ صوته، انفتح الباب كصدع. ظهر عند المدخل رجل بدين نعسان، مرتديًا سترةً كهنوتيَّة فوق بيجاما حريريَّة، حدَّق

بهما مستاءً. آه نعم، سفينة الجرحى... حكَّ رأسه... ينبغي أولًا أن يُفلَّى القمل منهم، بالطبع.

- «عليك اللعنة أيّها الوغد!»، صرخ توپفر محتدًّا لما رأى من جهلٍ وانعدام كفاءة. «وحدك مَن يُفلّى رأسه. لسنا مصابين بالقمل، لقد جئنا من مستشفى نظيف. إن لم تجهّز لنا الأسرَّة في هذه اللحظة...!».

فتح الرجل الباب المزدوج على مصراعيه وهو يرتجف.

كلُّ شيءٍ كان مهيَّأً في الداخل؛ أُعدّت منصّاتٌ خشبية عليها أكياس من القشّ داخل الغرف الكبيرة التي كانت حجراتٍ دراسيّةً فيما مضى. أخيرًا، حصل الجرحى على أسرَّة مرّة أخرى. غادرت السفينة بمجرّد تفريغ حمولتها، وعلى متنها الممرّضات المساعدات اللواتي سئمن من ساعات العمل الإضافيَّة، تاركاتٍ آنا وحدها، بصفتها الأم الرؤوم لكلّ أولئك الجرحى. حاول الجميع النوم، بمن فيهم آنا، التي جلست أمام طاولة كبيرة وسط الغرفة، وأسندت رأسها على ذراعيها المتصالبتين. استيقظ توپفر في جنح الليل.

- «ماذا تفعلين هنا؟ بوسعك أن تدعينا وشأننا، الجميع نيام! اذهبي إلى سريرك!».

- «ولكن أين سريري؟»، تثاءبت آنا.

ماذا؟ تململ تحت غطائه، وأمسك عكّازه، وخرج من الغرفة ساخطًا. جُرَّ صاحب البيجاما الحريريَّة من سريره بسيلٍ من الصراخ:

- «إن لم تفعل في هذه اللحظة.....».

- «طيّب، طيّب، طيّب...»، تلعثم الآخر بعصبيَّة.

عثر لها على سريرٍ، ما يزال محتفظًا بحرارة جسد الشخص الذي توجّب عليه التخلّي عن مكانه من أجلها، غير أنَّ آنا أقلعت عن مساءلة ضميرها.

*

طلبت كلتاهما سمكة الترويت مع البطاطس المسلوقة، كونه طبقًا خفيفًا على الهضم. تذكّرت لوته أغنية شوبرت التي تحمل اسم السمكة نفسها، كانت قد درستها ذات مرة، لا سيّما نهايتها المأساويَّة: «... السمكة الصغيرة تتلوَّى...». ربطت صورة السمكة العاجزة، التي لا تملك سوى رأسٍ وجذع، وهي تتخبّط في نهاية الخيط، بالمرضى مبتوري الأطراف الأربعة في المشفى القيبيني.

- «لم يخطر ببالي أبدًا أنَّ شخصًا يمكن أن يفقد أطرافه الأربعة.. يا له من أمر مروِّع».

وضعت آنا شوكتها.

- «كانوا شبّانًا. لطالما تساءلتُ عمّا حلَّ بهم فيما بعد. لم أقرأ كلمة عنهم، لا في الصحف ولا في المجلات ولا في الكتب، مع أنّهم ما زالوا على قيد الحياة! ترى أين انتهى بهم المطاف؟».

واصلتا تناول الطعام في صمت، كلٌّ تحت رحمة تكهناتها الخاصَّة.

- «ماذا عن رسائل زوجك من روسيا وبولندا ونورماندي...؟ هل حُرقت بالفعل؟»، سألتها لوته.

توفّزت آنا.

- «أودُّ أن أضرب رأسي بالحائط من أجلها... كانت بمثابة ذكرى جميلة، وثيقة. لسوء الحظّ، نفّذ والد زوجي ما طلبتُ إليه بلا تردُّد. حرق كلَّ شيء. فعل ذلك متأثّرًا بالدعاية المُهوَّلة: حين يصل الروس، سيأخذون كلّ ما يحلو لهم. إذا عثروا على رسائلي، التي كُتب معظمها في روسيا، فسيعدوّنها أمرًا مثيرًا للاهتمام بكلّ تأكيد وسيطبعونها في الجرائد الشيوعيّة. هكذا كنّا نفكّر في ذلك الحين».

ندَّت عن لوته ضحكة هازئة.

- «كما لو أنَّهم سيلقون بالًا لأمر كهذا! حياة الجنديّ لا تعني شيئًا للروس... في عهد ستالين، كانت حياة الإنسان لا تعني شيئًا بأيّ حال من الأحوال...».

- «لكنّ غسيل العقول كان في أوجه! حتّى نهاية الحرب. لقد قلتُ للغاولايتر: لن يسمح الفوهرر بحدوث شيءٍ كهذا! تخيَّلي ذلك! بكلّ إخلاصٍ وقناعة. مع أنّي لم أكن من المعجبين به على الإطلاق، وشأني شأن أي شخص آخر أدركتُ أنَّه لن ينتصر في الحرب، لكنّي كنت على قدر من السذاجة، لم أستطع تصديق أنّ الأبرياء تعرّضوا للتعذيب وحُكم عليهم بالإعدام في عهده. كان ذلك في نهاية عام ١٩٤٤. يا إلهي كم كنتُ ساذجة...».

نسيتْ أمر الأكل متأثّرة بعميق غضبها، وكادت سمكة الترويت التي أمامها تبرد.

*

كان عيد الميلاد الثاني الذي يحتفلون به معًا، يهودًا وملحدين. خسر الجميع وزنًا، وبات طبق الخضار المهروسة الذي يقدّمه مطبخ الحساء مَرِقًا إلى حدٍّ جعله يُشرَق كالشراب. عاد والدُ لوته، الذي كان يزوِّد بالكهرباء سرًّا الطبيبَ وتاجر الخمور والمزارعين الأصدقاء، إلى المنزل حاملًا شريحة كبيرة من لحم الخنزير وزجاجة من الجِن. انسلَّت زوجته إلى المطبخ وبدأت تحمّر اللحم على نار هادئة. أخرجت لوته أدوات المائدة من الخزانة. جذبت الرائحة المميزّة للحم المشويّ المتبّل بالقرنفل المطحون السيّدة ماير إلى الطابق السفليّ.

- «آه... ليس بوسعنا أن نأكل من هذا»، قالت وهي تنظر إلى الطبق بحسرة.

- «ماذا تحبّذين أن تكوني؟ يهوديّة محافظة ميتة أم آثمة حيَّة تُرزق؟»، سألتها الطاهية بواقعيَّة.

استسلمت السيّدة ماير، فقد كانت عاجزة عن المجادلة بشأن انتهاز فرصة غذائيّة كهذه.

جُهِّزت المائدة وأُشعلت الشموع واتّخذ كلٌّ كرسيَّه. كان إرنست ولوته في المطبخ يقشّران الدفعة الثانية من البطاطس المسلوقة حين سمعا هدير طائرة قادمة من بعيد. اقتربت الطائرة أكثر فأكثر. تجمّدا وسكاكين التقشير في يديهما. دوّى انفجار قويّ كبرقٍ صاعقٍ، زلزل الأرض وجعل النوافذ تتأرجح في إطاراتها. بفعل انقلاب غريب في ضغط الهواء، سقطا أرضًا بين حبات البطاطس المتبعثرة.

- «إنّنا على شفا حفرة من الموت»، صرخت السيّدة ماير.

سرعان ما غادر الجمعُ غرفة المائدة ذات النافذة المقوّسة الهشّة للاحتماء في المطبخ المجاور الأقلّ انكشافًا. جلسوا القرفصاء هناك؛ لكنّ السيّدة ماير، يدفعها أمل عبثي بتعفُّف الموت عن الشباب، عانقت إيفجي التي ظلّت واقفة بلا خوف. ثمّ ساد هدوء غير منطقيّ، ونهضوا واحدًا تلو الآخر بحذر. عثروا على سارة فرينكل في غرفة المائدة تنهي عشاء ليلة عيد الميلاد المنغَّصة وحدها. كانت تأكل بشهيّة جامحة.

- «لم أرغب في ترك طبقي من البطاطس يبرد»، قالت بفمٍ ملآن.

تصدَّعت كلّ النوافذ، بدا الزجاجُ مخرَّمًا كالدانتيل الرقيق. أشارت سارة نحو المروج بشوكتها المغروسة في قطعة من اللحم قائلة:

- «رأيت لسانًا هائلًا من اللهب».

- «كأنَّ طائرةً قد تحطَّمت...»، قال برام.

- «إن تمكّن الطيّار من القفز والنجاة، فيجب أن نتوقّع حدوث جلبة كبيرة هنا للعثور عليه...»، أشار إرنست غودريان وبريق الرعب يتصاعد في عينيه.

ما زال يحملُ قشّارة البطاطس بيده، كأنّ بوسعه استخدامها لحماية نفسه. تلفَّت حوله مذعورًا.

- «اليهود... يجب أن يصعد اليهود إلى الطابق العلوي!».

- «أيّ يهود تقصد! هكذا بدأ كلُّ شيء، منذ وضِعنا جميعًا في الخانة نفسها»، صاح سامي غولدشميت ساخطًا.

- «هذا صحيح، معك حقّ...»، رفع إرنست يديه مدركًا خطأه، «ولكن ما الذي ينبغي أن أقوله...؟».

- «فلتقل: المختبئين»، ردّت سارة بتأنٍّ، «أنت نفسُكَ أحد هؤلاء المختبئين في نهاية المطاف، أليس كذلك؟».

تخفّى الجميع خلف المرآة في الطابق العلويّ؛ تماهوا مع صورتهم في المرآة، حيّدوا أنفسهم، وتوقّفوا عن الوجود. أثناء ذلك ذهب والدُ لوته لاستطلاع الأمر، حيث خولّه عمله الخروج من المنزل أثناء حظر التجوال. لدى المغادرة، لاحظ زوال البوابة الأماميَّة؛ ليعثر عليها سليمةً في المرج. انهمك باقي أفراد الأسرة في التظاهر بقضاء ليلة عيد ميلاد عاديَّة تحسُّبًا لحملات تفتيش المنازل. انتزعوا صحون المختبئين عن المائدة، وجلسوا مغتمّين أمام حبّات اللفت الباردة، في الضوء الوامض للشموع الدامعة. عصفت ريح قارسة بالستائر، وبين حين وآخر، تساقطت كِسرٌ من زجاج النوافذ على الأرض. تحلّقوا حول المائدة كأنهم ممثّلون ينتظرون ارتفاع ستار المسرح. فكّرت لوته بأنّها المرّة الأولى التي يجتمعون فيها منذ وقت طويل؛ لقد نسوا كيف يتمُّ هذا الأمر على ما يبدو. اختلست النظرات إلى أمّها التي ظلّت محور المنزل. جلست منتصبة... صدرها منتفخ في وجه الذئب، ومستعدّة للدفاع عن صغارها بأسنانها وأظافرها... لكنّ الوهجَ الكستنائي، في شعرها المرفوع، قد خبا، وحتّى المشط المنحوت من صدف السلحفاة، بات كامد اللون. خلال الحرب، بدأ الشيبُ يتغلغل في شعرها، وأخذت تفقد شيئًا فشيئًا ملامح المرأة التي لا تُقهر. هبّت نفحةٌ من الريح وأطفأت كلَّ الشموع. فُتح الباب على مصراعيه ودخل والدُها.

- «بوسعهم أن ينزلوا من مخبئهم. كانت مجرّد قنبلة. أين زجاجة الجِن؟»، قال.

بعد أن ابتلع محتوى كأسه برشفةٍ واحدةٍ، أوضح أنَّ قنبلة طائشة أحدثت حفرة عميقة في حديقة القصر المجاور الذي يعود تاريخه للقرن الثامن عشر. انخلعت شرفة المدخل المبنية على الطراز الكلاسيكيّ واصطدمت بالصالة والأعمدة وكلّ شيء، أمّا سيدة المنزل، التي وقفت قرب النافذة لتبيُّن مصدر الضوضاء، فقد نُقلت محمولةً وهي تصرخ بصوتٍ عالٍ بعد أن انغرست شظايا الزجاج بعينيها.

لقد اختُزلت الحياة حتّى باتت محض صراعٍ من أجل البقاء، كما زادت وتيرة رحلات تصيُّد الطعام واتخذت أبعادًا شيطانيَّة في بعض الأحيان. مثل باعة جائلين، تناوبت لوته مع جيت وماري على التنقُّل من مزرعة إلى أخرى في مقاطعات شمال هولندا، بحوزتهنّ أقمشة الكتّان والخواتم وقلائد اللؤلؤ وساعات اليد ودبابيس الزينة، وقد أصابهن الدوار بسبب الجوع. صادفتا لافتة معلّقة على السياج تقول: «لا نعطي الماء». وأُطلق الكلب عليهما غير مرّة. في مكان آخر، كان الناس يجرشون الحبوب؛ انتظر المتفرّجون غير المدعوّين بفارغ الصبر سقوط بعض الحبات على جانب الطريق. هبَّت ريح قطبيّة رهيبة عبر الحقول المتجمّدة، تأوَّه لها الجليد المتصدِّع في الخنادق والقنوات. قرب أفسلاوتدايك، مرَّ الطريق عبر نقطة حراسة ألمانيَّة. وبغرض تعليل جحافل الجياع، المتعثّرين في سيرهم، بوعود العالم الأفضل، عالم الخير الوفير، فرش الضبّاط مائدة في الهواء الطلق، وجلسوا بتباهٍ أمام الأطباق المكدّسة بالخضار والنقانق، التي يتصاعد منها البخار، وكادت أزرار أثوابهم الرسميَّة تنفجر من جرّاء التخمة. راقبتهم لوته وقد جفَّ لعاب

فمها. بمناورة نفسيَّة بالغة التعقيد، استطاعت تحويل مشاعر الكراهية الملتهبة إلى ازدراءٍ يسهلُ عليها تحمُّله مع قرقرة المعدة الفارغة.

على السواء، لم يخلُ الأمر من مزارعين أسخياء قدّموا الطعام والشراب للمارّة ووضعوا المراتب المحشوة بالقش في الإسطبلات. ظلَّ الخبثاء مستيقظين خلال الليل لسرقة رفاقهم الراقدين. كانت لوته، بدورها، نائمة ورأسها مستند على السترة الملفوفة التي خبّأت المجوهرات بداخلها. بعد أن فقدتا كلَّ أمل، وفي طريق العودة إلى بيمستر، ملأت زوجة أحد المزارعين أكياسهما بالبطاطس ورفضت أن تأخذ شيئًا مقابل ذلك. كانت العودة إلى المنزل بأكياس ممتلئة هو الانتصار الوحيد الذي يستحقُّ السعي على وجه الأرض. في أمستردام، عبرتا بحيرة آي على متن عبّارة، الضباب الكثيف البارد يغطّي سطح الماء. تبيّن وجود عناصر من الميليشيات يفتشون حقائب الركّاب. تقوقعت جيت ولوته على نفسيهما؛ سلبُ البطاطس منهما بمثابة انتزاع الروح. وقف صبيّ في الثامنة من العمر قرب سور العبّارة، كان سرواله البالي يخفق حول ساقيه. أسفل قبعته، ظهر تعبيرُ استسلام محفور بحدّة على وجهه الذي يبدو كوجه رجل مسنّ. بحوزته سلّة غُطّيت حمولتها بقطعة من قماش الأشرعة؛ بدا غير مبالٍ باقترابه من دور التفتيش. راح يحدِّق في الضباب فوق بحيرة آي، الذي تخترقه النوارس الصاخبة. وحين اقترب منه الرجلان اللذان يرتديان الزيّ الرسميّ بصرامة، لم يستدر.

- «أيّها الرجل الصغير، هلّا كشفت الشراع من فضلك حتّى نتمكّن من رؤية ما بداخل السلّة؟»، قال أحدهما باستهزاء.

نظر الصبيّ أمامه بلا اكتراث، ولم يحرّك ساكنًا.

- «يبدو أنّه أصمّ».

نفد صبرهما.

- «ارفع الشراع!».

تحشرج الغضب في حلق لوته. أرادت أن تصرخ في وجههما: إنَّه طفل، دعوه وشأنه، لكنَّ حبّات البطاطس التي بحوزتها عقدت لسانها.

- «تحرّك أيّها المغفّل، افعل ما أمرتك به!».

انحنى الصبيّ بثباتٍ، بان معصمه النحيل من الكمّ المهترئ وهو يمسك بحافة الغطاء وينتزعه بعزم. وإذا برجل ميّت، ساقاه الهزيلتان مقوّستان، محجراه غائران، أذناه تبرزان من جمجمته العجفاء. كان جسده ملتويًا على نحو غريب عند المنتصف، كما لو أنّه منقصم.

- «من هذا...؟»، سأل المفتّش، محاولًا عبثًا إعطاء سؤاله لهجة الأمر.

- «إنَّه أبي»، أجاب الصبيّ بصوتٍ خافتٍ.

ردَّ القماش وعاد يحدّق في المياه. تبادرت إلى ذهن لوته شذرات من قصيدة «ملك العفاريت»[1]. كان الصبّي يمثل الصورة المعكوسة : «... إنَّه الطفل مع أبيه... في ذراعيه كان الأب قد مات...».

---

(١) قصيدة للشاعر الألماني غوته، يصوّر فيها موت طفل مريض على يد كائن خارق للطبيعة، فيما كان الأب يحمله على فرسه إلى المستشفى. في سياق الفقرة تصرّفٌ بالقصيدة لتجسيد الدور المتعاكس بين الأب والابن. (المترجم)

بعد أسبوع، بدأ الثلج يتساقط. توارى البؤس تحت البياض الناصع. ومن السماء، بدا الشمال المُحتَلّ متّحدًا مع الجنوب المُحرَّر بفضل الثلج. كان الموقد الحديديّ في الإستوديو، المزوّد بالحطب الرطِّب، ينفث الدخان الحالك أكثر ممّا يبثُّ الحرارة. حاول إرنست، وهو يحدّق بتشنج من خلف عدسات النظّارة المغشّاة بالهُباب، إبقاء المسحاج طوع أصابعه الخدرة.

- «بالمقابل، لدي أكياس من الفحم في المنزل بأُترخت»، تمتم.

اقترحت لوته تولّي مهمة إحضارها. لم يعارض ذلك لقناعته التامَّة بقوّة عريكتها. انطلقت في رحلتها، وشقّت طريقها عبر الثلج على متن درّاجتها، تتوقّف من وقت لآخر لتناول بضع لقمات من هريس الشمندر الذي أودعته والدتُها في وعاء صغير معها. هطل الثلج على نحو متقطِّع، وتقدّمت ببطءٍ، وكانت ندف الثلج الضئيلة تلسع وجهها. دفعت الدرّاجة الثقيلة قُدمًا، غير واعية لشيءٍ سوى تلك البقعة المشعّة من الفحم، المتوهِّجة في الأفق، التي ضخّت الدفء في عروق روحها. خارج ذلك، لم يكن هناك إلّا العدم الأبيض، الوحشة المطلقة. تجمّدت يداها وقدماها؛ فقد تغلغل البردُ إليها عبر أطرافها واستقرَّ في جوفها متحوّلًا إلى خولٍ لطيف. لم تكن على دراية بالمدة التي قضتها في الطريق، وإلى أيّ مدى يتعيّن عليها المواصلة. تلاشى مفهوم الزمن في البياض المُجرَّد، المهيمن على كلِّ شيء؛ كأنَّ سلامًا رؤوفًا حلَّ بها. علقت ندف الثلج على حذائها ذي الأربطة، ومن خلال الشبكة الرقيقة لبلورات الثلج الملتصقة برموشها تبيّنت، على نحوٍ غائمٍ، الأبعاد العريضة لقلعة

محصّنة وسط سهلٍ فسيح مغطّى بالثلوج. ولّدت شجرة بأغصان بيضاء، كأنّها في صورة نيغاتيف، رغبةً لا تُقاوم بداخلها لأخذ قسط من الراحة تحتها. أسندت الدرّاجة إلى جذعها وارتمت غارقة في الثلج الذي سرعان ما تحوّل من بطانيّة ناعمة تحتها إلى غطاء يعلوها. باتت عاجزة عن التفكير بأيِّ شيء؛ تطايرت الأفكار مثل فراشات بيضاء في ذهنها الخامل. تبدّدت كلُّ التناقضات والمفارقات هباءً؛ تذكّرت على نحو مبهم شعورًا مشابهًا خامرها قبل فترة طويلة، حين غرقت في الجليد لبضع ثوانٍ امتدَّت كالأبديّة. نسيت أنّ لها جسدًا. صوت تساقط الثلج... كان آخر ما فكّرت به قبل أن تنغمس عميقًا في غياهب النسيان القاسية والمبهجة.

- «انهضي... ستموتين إن بقيت هنا...».

أعادها أحدهم إلى الواقع وهو يهزُّها عنيفا ممسكا بذراعها. انزلق الثلج عنها. خارت قواها إلى درجة لم تقو فيها على المقاومة. دُفعت الدرّاجة إلى يديها.

- «سأرافقك...».

مشت مثل دمية آليّة، برفقة رجل يرتدي معطفًا أسود طويلًا وقبّعة غطّاها الثلج. تنفَّس لاهثًا؛ وحدَه صوت تنفسه كان مسموعًا أثناء سيرهما. لم يسألها عن شيء، لم يقل شيئًا، اكتفى بحثّها على الإسراع حين تتباطأ بعبارات مختصرة. «هيّا، امضي قدمًا...». شعرت بأنّها على عتبة ذكرى مهمّة، لكنّ درع البلادة الذي حوّطها، حال دون استحضارها. كان الظلام قد حلَّ حين لاحت مشارفُ البلدة، توجّها نحو مركزها،

يجتازان مُجهدَين الشوارع الخالية. ودّعها الرجل فجأة عند سوق السمك، رافعًا قبّعته، التي تساقطت رقائق الثلج عنها... مرّة أخرى، حامت ظلال ذكرى على حين غرّة فيما ابتلع الشارعُ المظلمُ الرجلَ الذي رافقها.

في تلك اللحظة، أدركت أن هذا الشخص الذي تحدِّقُ به قد أنقذ حياتها. ظهر من العدم مثل مَددٍ غيبيّ ثمّ اختفى كأنّه مجرّد إهلاس. كفّ الثلج عن التساقط. البلدة مهجورة إلّا من جثث قليلة غمرها الثلج عند سفح جدار، وجوه متدلية تحمل علامات الجوع الواضحة. سمحت لها صاحبة المنزل المذهولة بالدخول. ما زالت غرف إرنست سليمة؛ كانت ممتلكاته، التي في معظمها كتب عن صناعة الكمان وصور عائليّة، ترتقب عودته بصبرٍ. تفحّصتها وهي تستعيد حرارة جسمها ببطء. الشيء الوحيد الذي لم يكن له وجود هو الفحم. أنكرت صاحبة المنزل، التي تتولّى تنظيف الغرف، وجودها إنكارًا شديدًا. فحم؟ لو كان هناك أيّ منه لعرفت مكانه بالطبع. لم تستطع لوته إثبات شيء. غرفت ما تبقّى من هريس الشمندر في وعائها وانسلّت داخل سريره الضيّق البارد.

١٠

«بيض في الثلج»[١] هي التسمية الشعريّة للحلوى التي استُخدمت لمغالبة الجوع أثناء الحرب؛ كان بها من الهواء أكثر ممّا بها من الغذاء. في ذلك الوقت، تشنَّج معصما لوته جرّاء خفق بياض بيضتَين من أجل تحقيق معجزة العصر بإنتاج مقدارٍ لا نهاية له من الرغوة.

- «كنتُ أعدُّها من أجل الأطفال خلال شتاء المجاعة»، قالت لوته وهي تغرف إحدى الجزر الطافية في صلصة الفانيليا. «لتشتيت انتباههم عن شعور الفراغ الذي استأثر ببطونهم».

تنّهدت آنا.

- «لم أكن أعلم أنّكم عانيتم الجوع لهذا الحدّ».
- «لقد كان سلاحًا أشدّ شراسة من صواريخ V1»، قالت لوته باقتضابٍ.

بمهارة، غيّرت آنا موضوع الحديث.

---

(١) حلوى من أصل فرنسي تتألف من المرينغ العائم على كاسترد الفانيليا، تسمّى باللغة الإنكليزية: الجزيرة العائمة. (المترجم)

- «كدت تُدفنين تحت الثلج... لقد عرفتُ أيضًا شعور الوحشة المطلقة وسط الطبيعة، الطبيعة التي لا تكترث بشأنك من الأساس ... وكذلك تلك الرغبة الجامحة في الموت حين تستحوذ عليك... لا سيَّما مع الحرب المندلعة من حولك...».

*

في اليوم التالي لوصولهم، حضر الأطبّاء والممرِّضات إلى معهد اللاهوت الذي بات مستشفى عاديًّا. طلب السيّد تويفر، الذي كان في طور النقاهة، إذنًا رسميًّا بأن ترافقه الأخت آنا أثناء ممارسته المشي في الحديقة. بخطواتٍ بطيئة، تنزَّها بين زهرات الثلج وشجيرات البندق المتبرعمة. أشرقت الشمس من خلف الغيوم. جلسا على مقعدٍ غزته الطحالب.

قال بنبرة حاسمةٍ:

- «أختاه، لقد بلغنا نهايتنا. حتّى وقتٍ قريب، ظلّ الناقوسُ يتأرجح قليلًا، تارةً إلى الشرق وتارةً إلى الغرب، لكنَّه عالق عند المنتصف الآن. إنَّهم يتقدّمون من كلّ الجهات وسوف يسحقوننا».

- «لكن صواريخ V2 ما زالت بحوزتنا...»، قاطعته آنا.

- «لا تخدعي نفسك أيّتها الأخت. لقد قُضي الأمر بكلّ بساطة. أبي وأمي وزوجتي وأطفالي... كلّهم يأملون عودتي، لكن إذا جاء الروس، فلن يتركوا أحدًا من عناصر إس إس على قيد الحياة».

أومأت آنا بلا إرادةٍ منها؛ كانت قسوة انتقام الروس ذائعة الصيت. حتى لو كان العناصر عراة، سيتعرّفون عليهم بسهولة، فقد وُشِمتْ فصيلةُ

دم كلٍّ منهم على ذراعه. تلفّتت آنا حولها. أزهار الثلج هذه ستدوسُها أقدام الروس عمّا قريب. لأوّل مرة، كان التفكير بنهاية الحرب يثير الخوف بداخلها، ليس الخوف على نفسها، بل على الجرحى الذين حاولت جاهدة مساعدتهم على استعادة قواهم، الذين ضحّت بنوم الليالي من أجلهم.

- «آه أيّتها الأخت... كم تطلّعنا لتحقيق أحلامٍ جميلة»، تلمَّس تويفر الكئيب ذقنَها، وحدَّق فيها بحزن.

لم يبارحها الشعور باقتراب حلول الكارثة، كان الانتظار الهادئ شاقًّا، وكذلك عدم الانتظار. بيد أنَّ الشاب الذي بحوزته مسدَّس لم يكن ينوي الانتظار بهدوء، مترقّبًا سقوط الرايخ الثالث. استمرَّت آنا في ترصُّده، متحيّنة اللحظة المناسبة لانتزاع السلاح منه. في غمرة واجباتها، اعتادت الجلوس على حافة سريره والاستماع إليه وهو يحاول إخفاء عجزه عن التفكير بفشل مُثُله العليا وراء نزعة محمومة لرسم الخطط المحتملة. كان عضوًا في شبيبة هتلر منذ أن كانت تجمّعًا سريًّا، وفقد إحدى عينيه خلال مشاجرة في الشارع مع شبّان شيوعيين. أصبح ضابطًا في قوّات الدفاع بفضل تميّزه، وحتّى حين بات مستلقيًا في المستشفى العسكريّ، وركبتُه متهشِّمة، لم يفكّر لوهلةٍ في الاستسلام! ذات ليلة، فيما كان نائمًا، سحبت آنا خلسةً المسدَّس المخبَّأ أسفل وسادته. رمته في نهر الدانوب وقد غمرها الارتياح. في اليوم التالي، جالسته وعلى وجهها ملامح البراءة. أمسك يدها، وتلألأت عيناه.

- «أيتها الأخت، انضمّي معنا إلى الفيرفولف!»، قال بلهجةٍ تآمريّة.

هزّت رأسها. لقد أثار شفقتها بتخيّلاته الساذجة عن حركة

الڤيرڤولف؛ مجموعة من المغامرين الذين صمّموا على الانسحاب إلى جبال الألب لمواصلة القتال حتّى الموت.

- «أنت مجنون، أيّها الصبي. لقد انتهى كلّ شيء»، قالت بهدوء.

- «إن كنتِ على حقّ، فسأصوّب رصاصةً إلى رأسي»، صرخ باحتداد. «لن أسمح لهم بالقبض عليّ حيًّا».

لإظهار جديّته، مدَّ يده تحت الوسادة. ماج الغضبُ به حين لاقى فراغًا محلَّ مسدَّسه؛ مَن اللصّ الذي سلبَه الحقّ في تقرير مصير حياته؟ تلوَّى وهو ينسلُّ خارج سريره، وراح يعرج في الجناح، وجهه يحتقن احمرارًا، وفكّاه منطبقان، يجرُّ خلفه الساق التي تهشّمت ركبتها. اعترضت آنا طريقه.

- «كفى صراخًا! المسدَّس في قاع الدانوب. أنا من رمتْه، لا أحد سواي. والداك طلبا إليّ ذلك، ووعدتهما بأن أفعل».

نظر إليها، بعينه الوحيدة، مشدوهًا. تسمّر واقفًا، يشدّ قبضتَيه؛ لا ينبغي أن تلاحظ ارتجاف جسده من التوتّر المكبوت، لكنَّه انفجر بكاءً في النهاية. تحطّمت روحه القتاليَّة، وانحنى كما لو أنَّها صفعتْه، متكئًا بكلِّ ثقله عليها، وسمح لها باقتياده إلى السرير.

تسارعت أحداث الحرب. لم تبعد جبهة القتال أكثر من خمسة وعشرين كيلومترًا عن لينتس. على نحوٍ ارتجاليّ، تقرّر نقل كلّ المرضى القادرين على الحركة أو الذين يمكن حملهم بشكل من الأشكال إلى ألمانيا ليلًا. كان الجميع جاهزين باستثناء اثني عشر جريحًا لديهم إصابات بالغة في الظهر ولم يكن بوسعهم إلا الاستلقاء على بطونهم طوال الوقت.

كُلِّفت آنا برعايتهم في تلك الليلة. بعاطفة متهيّجة، ذهبت لوداع مرضاها القدامى، مرضى ڤيينا.

- «افتحي هذا الصندوق...»، طلب إليها السيد توپفر، مشيرًا بعكّازه.

حاولت آنا فكّ القفل؛ عثرت داخل الصندوق على صرّة صغيرة في الأعلى.

- «أخرجيها واقفلي الصندوق من فضلك».

اتبعت تعليماته بحذر. خفق قلبها؛ أحسّت أنّ هذا الرجل كان يعتني بها طوال الوقت، أمّا الآن فهو موشك على المغادرة.

- «تعالي... تعالي معي»، دعاها كي تتبعه.

عند أحد مداخل الممرّ الطويل البارد، فتح الرجل الصرّة. يداه ترتعشان.

- «اسمعي جيّدًا. سأعطيكِ هذه، إنّها شوكولاتة. كنتُ قد احتفظتُ بها من أجل زوجتي لكنّي أعتقد أنّها ستفيدك أكثر الآن. سنغادر جميعًا، وستبقين وحيدة الليلة. كلي هذه الشوكولاتة حينها، ستحتاجين إليها».

صدق حدسُه. في تلك الليلة، حين أُخلي معهد اللاهوت بصمتٍ، جلست آنا على ضوء الشموع، بجوار اثني عشر جريحًا، لم تتعرّفهم من وجوههم، بل من طبيعة إصاباتهم. جلست هناك ونفّذت طلب توپفر الأخير: التهمت تلك الشوكولاتة حتّى الهذيان، لدرجة أنّها لم تكن تشعر لو لاذ كلّ الجرحى بالفرار. استفاقت من غيبوبتها عند الصباح. يرنّحها

التعب والغثيان، تعثّرت خارجةً من الجناح. بدا مبنى المعهد مهجورًا كما كان ليلة وصولهم: اختفى الأطباء والممرّضات، مع ما بحوزتهم من ضمادات وأدوية، كذلك البواب ذو البيجاما الحريريَّة، غادر السفينة الغارقة. ساد صمت مهيب، يقترب من الورع؛ أهو الصمت ذاته الذي يسبق حدوث المذبحة الأخيرة؟ الصمت المُستبدّ، ثقيل الوطأة، الذي يشبه الزوابع حين تنذرُ بالعواصف الرعديَّة؟ ماذا كانت تفعل في هذه البقعة النائية، بعيدًا عن منزلها؟ بعيدًا عن منزلها؟ ليس لديها منزل، لا مكان تشتاقُ للعودة إليه، لا موقد دافئًا ولا بستان تفّاح... لا أحد ينتظرُ عودتها بلهفة. سمعت صدى خطواتها على البلاط كأنَّها تطارد نفسها. تفاقمت وحدتها في كلّ مرة تدخل فيها إحدى الغرف المهجورة... منزل هارب من حلمٍ، كلّ غرفة فارغة فيه تقود إلى غرفة فارغة أخرى...

- «أختاه...».

أعادها إلى الجناح أنينُ المرضى المتروكين في عهدتها مثل أطفالٍ بعاهاتٍ أبديّة. ليس بحوزتها ما يخفِّف آلامهم أو يطهِّر جروحهم؛ ليس لديها سوى بعض الأوراق لمسح القيح وهي تهدِّئهم بكلماتٍ جوفاء. اجتاحتها الأفكار والخواطر والتخمينات، لكنّها لم تدقّ وترًا عاطفيًّا بداخلها سوى وتر الكآبة أمام المعاناة المديدة. مرَّ النهار على غفلةٍ منها، وخيَّم الليل شيئًا فشيئًا من دون أن يأتي أحد ليحلّ مكانها. هل باتوا طيّ النسيان؟ هل تغافلت كلُّ الخطط، كلّ الحملات، عن ذكرهم؟ هل شُطبوا من القائمة؟ كان التيّار الكهربائيّ قد انقطع منذ أسبوع، وتدبّروا أمرهم بالشموع؛ لكنْ هذه أيضًا أخذوها معهم. جلست في مكانها

وسط الظلام. بدا كما لو أنَّهم جميعًا قد ماتوا. لكنَّهم ثلاثة عشر نفرًا هنا، كلٌّ منهم وحيدٌ، يغالبُ يأسَه على طريقته الخاصَّة. واضحٌ أنَّها بلغت منتهى ترحالها؛ حيث النقطة التي تفضي إليها كلّ المسارات المتقاطعة. انفجرت فقاعة الصابون التي أحاطت بها، وخلَّفت وراءها فراغًا عابقًا بالرائحة المعشعشة للجنود المشارفين على الموت.

لكنّها لم تكن وحيدة. تراءى لها رفيق مألوف، قديم، جدير بالثقة، ينبعثُ منه سحرٌ يتناسب تمامًا مع الظروف. رفيق من النوع الذي لا يثقل الكاهل بإستراتيجيات النجاة الملتبسة، رفيق يضحك على الجهود التي لا طائل من ورائها، لا يطلبُ شيئًا ولا يطرح أيَّ سؤالٍ... لا يريد منها شيئًا سوى ألّا تمانعه. غادرت الجناح من دون أن تلتفت إلى الوراء؛ التقطت إحدى الحقائب، تلك التي تحتوي ملابس الأطفال. كأنَّها منوَّمة مغناطيسيًّا، سارت نحو الخارج ونزلت إلى ضفّة النهر. الدانوب مُعتم. فكّرت بتردُّد: إذا غطست في الماء، فستبدأ السباحة على نحو غريزيّ. صعدت إلى منتصف الجسر الباروكيّ. «وعدتُكَ ألّا أفعل ذلك، سامحني»، تمتمت. ذابت الكلمات في همار المطر. كان الجسر هناك، الماء تحته، والوعدُ بالرّاحة يكتنفُها من كلّ صوب. رفعت الحقيبة فوق السياج الذي يطال كتفيها، وحاولت رفع نفسها. لكنّ حافة الحجارة التي تعلوها الطحالب كانت مبلّلة وزَلِقة. لم تستطع إحكام قبضتها، وفجأةً خارت قوى ذراعيها اللتين كانتا في غاية المتانة قبل وقتٍ بعيدٍ. حاولت مرة ثانية، تلتها محاولة أخرى... كانت تتشبّث ثم تنزلق إلى الوراء من جديد... رفضت الاستسلام للفشل... كيف يمكن لشيءٍ تافهٍ كسياج

جسرٍ أن يعرقل مسألة حياة أو موت؟ أمسكت الحقيبة وقد نال منها الإحباط، ورمتها في الأعماق. ما يحدثُ للحقيبة سيحدثُ لها على السواء. لكنّ السياج كان مرتفعًا بعض الشيء وزلقًا في كلّ أنحائه. من الأعلى، دوَّت ضحكة ساخرة من جهودها السخيفة: آنا، التي لطالما كانت حازمة ومتمكّنة، تُقدمُ على الانتحار بهذه الطريقة الخرقاء والمثيرة للشفقة!

استسلمت وغادرت الجسر، ثمّ صعدت المنحدر عائدة إلى المعهد. لقد انتهى كلّ شيء: خلّفت حياتَها وراءها، وألقت بها في الدانوب، في جوف الحقيبة الطافية بعيدًا؛ تبقّى معها جسدُها فحسب، ولم يكن أمامها سوى أن تواصل ما عليها فعله. رجعت إلى الغرفة وأذعنت انتظارًا لنهاية الانتظار. لكن شيئًا لم ينتهِ سوى هطول المطر. حدَّقت نحو الخارج، بلا مبالاةٍ، من دون تمعُّن بما تراه، لاحظت أنَّ السماء آخذة بالصفاء على مهلٍ. لم تكن واعية بالزمن إذ يمرّ، وفي أوانٍ من الليل اللامتناهي، سمعت طرقًا على الباب. اجتازت ببطءٍ الممرّ، نائمة وليست بنائمة. بدا الطارق في عجلةٍ من أمره، وفُتح الباب على مصراعيه.

- «أين المستشفى العسكريّ؟»، صاح مسعفو الإس إس.

- «أيّ مستشفى؟»، ردَّت آنا.

- «أليس هذا بمستشفى عسكريّ!».

- «لا أعرف إن ظلّ بالإمكان اعتباره مستشفى... كان من المتوقَّع أن أُرفد بالمؤازرة لكن أحدًا لم يأتِ...»، قالت بتردُّد.

لم يكن لديهم متسع من الوقت للاستماع إليها، جبهة الحرب على بعد خطوات، توجَّب عليهم تفريغ حمولتهم والمغادرة. مدّدوا الجرحى

بعجالة على جانبي الممرّ، وأخذوا النقّالات من أجل جلب الضحايا الآخرين، كذلك البطانيات. رحلوا قبل أن تدرك تمامًا ما يجري، وراحت تتجوّل بين صفوف المصابين بجروحٍ بالغة. مئة على الأقل. الشبّان المفعمون بالنشاط، الذين قاتلوا في أرض المعركة قبل ساعات، باتوا عراة راقدين على البلاط الشبيه برقعة الشطرنج، اختُزل كيانُ كلّ منهم إلى قصاصة من الورق تصف ما خضعوا له في المستشفى الميداني. سقط ضوء القمر من خلال النوافذ القوطيّة العالية على أجسادهم المغشيَّة، الفتيَّة على نحوٍ يبعث على الشفقة. سطعَ القمر الرومانسيّ، شفيع العشّاق، بضيائه على عُريّهم دون رأفة، في مشهدٍ من الجماليّات المنحرفة. ذرعت آنا المكان جيئة وذهابًا، ينهشها العذاب؛ لم يكن بوسعها فعل شيءٍ من أجلهم سوى البقاء شاهدةً على موتهم. تعاظم اشمئزازها من الحرب مع كلّ جنديٍ يلقى حتفه. جرى الأمر على هذا النحو، وكلّ ما قاسته في حياتها حتّى الآن ليس إلّا تمهيدًا. بهذا تهاوتُ كلُّ جهود الرعاية والعناية، كلّ تضحيات الأمهات المجهولات، كلّ الأحلام والآمال، عند مقصلة الموت المُبكر، الأرعن... الابن والخاطب والأب، صار واحدُهم مجرَّد شيءٍ عارٍ، هامدٍ، لا لزوم له، اسم على بطاقة.

استعاد أحد الجنود وعيه.

- «*أختاه...*»، قال متأوِّهًا.

انحنت آنا نحوه. أمسك بذراعها، عيناه تتألّقان.

- «أختاه، ما زلنا صامدين!».

- «نعم، أيّها الشاب»، أومأت آنا.

أراد أن يعقّب، فتح ثغره، متنشيًا، لكنَّ تغيُّرًا غير مرئيّ طرأ على جسده في اللحظة نفسها. تجمَّدت الكلمات غير المنطوقة على شفتيه، وتصلَّب جسمه؛ كانت تعابيرُ الحماس العنيد على وجهه لا تُحتمل فسارعت لإغماض عينيه.

بطريقة أو بأخرى، بزغ الفجر. اللونُ الرماديّ يخضّبُ الموتى تحت ضوء الصباح الباهت. مرّة أخرى، فُتحت الأبواب، واقتحم الأطباء والمسعفون المبنى. تلفّتوا حولهم على عجلٍ. لا يبدو أنَّ شيئًا فاجأهم في المشهد سوى وجود آنا؛ حدّقوا بها كأنَّها شبح.

- «ماذا تفعلين هنا...؟»، صرخ الطبيب مذهولًا، يمسّدُ شاربه الأصهب. «هل جُننتِ؟ الروس قادمون!».

- «إذًا...؟»، قالت غير مكترثة.

في اليوم التالي، عجَّ المكان بممرّضات الصليب الأحمر النشيطات. لم تعلم آنا من أين أتين. لقد تخلَّت منذ فترة طويلة عن محاولة فهم أيّ شيء. فجأة ساد التنظيم من جديد وأدّى كلٌّ مهامه؛ لكنَّها كفَّت عن تصديق هذه الأشياء، كان مجرَّدَ غطاءٍ يداري الفوضى التي يمكن أن تبتلع كلّ شيء في أيّة لحظة. عُقد اجتماع أيضًا. استدعى الضابط المساعد كلَّ الأطباء والمسعفين والممرّضات لسماع تعليمات الغاولايتر.

- «الوضع مستتب في منطقة الدانوب العليا. سنبقى هنا، في مواقعنا، مهما كانت الظروف. بما في ذلك الممرّضات. ليس هناك ما يدعوهنّ للخوف من الروس، سلامتهنّ مضمونة في هذا المستشفى»، أعلن الأخير.

ما كان من آنا، التي استوعبت كلماته المطمئنة بارتيابٍ، إلّا أن تتقدّم من قلب حشد الممرّضات وتصرخ:

- «لكنكم أجليتم زوجاتكم وبناتكم، أليس كذلك؟».

كردّ فعلٍ خاطف، عمدت الممرَّضات إلى سحبها نحو وسط الحشد، حتّى بات صعبًا تمييزها بين النسوة المرتديات زيًّا متطابقًا.

- «من التي تحدّثت للتو؟»، قال الغاو لايتر بفظاظة.

أرسل مساعده الذي استجوب الممرِّضات تباعًا عن هويّة التي صرخت، ما كان منهنّ إلّا التكتُّم وتوحيد صفّ التواطؤ.

عقب الاجتماع، انتحى الطبيب ذو الشارب بآنا.

- «اسمعي أيّتها الأخت»، قال سرًّا، «ثمّة أربعة جرحى، إصاباتهم منحصرة في الأذرع، أي أنهم يستطيعون المشي. سأعطيكنّ، أنتِ وممرّضتين آخرتين، أمرًا بالانطلاق لمرافقتهم إلى ميونخ».

أومأت آنا برأسها تلقائيًّا. بطبيعة الحال، كانت تنفّذ ما تُؤمر به، حتى لو كان يصبُّ في مصلحتها إلى حدٍّ ما كمغادرة ذلك المعهد.

- «بالمناسبة»، قال وهو يحكُّ خلف أذنه بالقلم، «هل سمعتِ المرأة التي صاحت بالأمس: لكنّكم أجليتم زوجاتكم وبناتكم؟».

كانت النظرة التي رمقها بها أقرب إلى نظرة كلبٍ، مزيج من المكر والوفاء، ما دفعها للإقرار بلهجةٍ اعترافيَّة:

- «نعم، لقد سمعتُها».

فهمت فجأةً سببَ إقدام الطبيب على إصدار أمر بالتوجّه إلى ميونخ.

ولأنَّها لم تكن قادرة على شكرهِ علانية، ألمحت له بعينيها أنَّها تعرف أنَّه يعرف أنَّها تعرف.

*

- «كأنَّ ذلك حدث في حياة غير هذه الحياة...»، غمغمت آنا.

حدَّقت بها لوته. استطاعت أن ترى للمرَّة الأولى، خلف الوجه الماثل أمامها، المرأةَ الشابَّة التي كانت عليها آنا؛ على جسر حجريّ تحت المطر، في ممرّ طافحٍ بجثث الجنود المحتضرين. لقد تأثَّرت بها أكثر ممَّا تودُّ. بذلت جهدًا وهي تحاول إضفاءَ الرصانة على نبرة صوتها:

- «كيف أمكنهم التخلّي عن كلّ أولئك الجنود المصابين بجروح خطيرة؟».

- «تخيَّلي الأمر: كانت الجبهة قريبة جدًّا...»، شرحت آنا مشيرة بيديها، «تولَّى المسعفون إخراج الجرحى من خطوط النار ونقلهم إلى المستشفى الميدانيّ حيث دُبِّرت الحالات الأشدّ خطرًا قدر الإمكان، ودُوِّنت بعض الملاحظات على الأوراق - فعلنا كذا وكذا للجريح - ثمّ وُضعوا في سيّارة وصدرت الأوامر بتوجّهها إلى مستشفى عسكريّ خلف الخطوط. هناك فرَّغت السيارة وعادت من حيث أتت على الفور. جرحى من قوّات إس إس، ڤافن إس إس، الذين قاتلوا حتى الرمق الأخير؛ كانوا شبّانًا أصحاء وصغيري السن. ماتوا واحدًا تلو الآخر أمام عينيّ تلك الليلة. لم يكن هناك من يعتني بهم. في ذلك الممرّ الطويل الرهيب. كنت وحدي وغير قادرة على فعل أيّ شيء. لقد كتمت ذكرى

تلك الليلة لسنواتٍ طويلة، ولم أستطع التحدُّث عنها أبدًا. ثمَّة أغنية لطالما ذكّرتني بها، اسمها: «ليلة مُقمرة في إبريل».

*

كانوا سبعة أشخاصٍ ضئيلين، يُرثى لهم، يسيرونُ بمشقَّة تحت سماء قاتمة. حملت آنا حقيبة جلديَّة كبيرة تضمُّ كلّ ما تملكُه من أمتعة. في طريق رحلتهم، اعتادوا النوم في كنيسةٍ هنا ومدرسةٍ هناك؛ كان القرويّون مرغمين على إيوائهم بعد إبراز الأمر الرسميّ الذي بحوزتهم. في مكانٍ ما، عثر أحد الجنود على عربةٍ مكّنتهم من تحميل أمتعتهم فيها والمضيّ بجرِّها قدمًا، ليل نهار، حتّى بلغوا تقاطعًا للسكك الحديديَّة تحوَّل من جرَّاء غارات القصف الماهرة إلى منظر طبيعيٍّ لقمر محتضر، تخترقه الوِهادُ التي برزت منها شظايا قضبان ملتوية لامعة. تجشّموا العناء في تمرير العربة التي أخذت عجلاتها تصدر صريرًا مخيفًا. لاحظت آنا فجأة أنَّ حقيبتها ليست داخل العربة. ركضت عائدة، وهي تتعثر، وانزلقت إحدى قدميها في حفرة. أتلك حقيبتها؟ ذلك الشيء الأسود البرَّاق الطافي في بحيرة الوهدة؟ انتشلتْها. شعرت بأنَّها باتت ثقيلة للغاية. حين وُضعت في العربة، انكسرت إحدى عجلاتها؛ لذا تركوها برفقة عربات أخرى مقلوبة في الأنحاء.

توقَّفت آنا لتفريغ حذائها. كان نعلاها يعجّان بالثقوب، وقدماها تنزلقان في حذاء الجلد الرثّ مع كلّ خطوة. أعطاها أحد الجنود زوج الأحذية الإضافيّ الذي بحوزته، وخوذته كي تقيها من المطر. كأنَّ ذلك لم يكن كافيًا، عمد إلى جرّ حقيبتها بذراعه الوحيدة فيما حملت بندقيّته

بالمقابل. في المساء، راق الطقس. أطلَّ القمر على المسافرين السائرين وئيدًا بين السحب المتهافتة. بغتةً، اعترض طريقهم اثنان من الحرَّاس.

- «ماير، انظر إلى هذا»، صرخ أحدهما بدهشة، «ثمَّة جنديٌّ بثوب امرأة!».

منذ ذلك الحين فصاعدًا، كانت الحقيقة الوحيدة هي ضرورة وضع قدمٍ أمام الأخرى. كلُّ مترٍ يجتازوه يعني اقترابًا من ميونخ وابتعادًا عن الروس. ذات ليلة، حين بات المترُ مسافةً شاسعةً، اصطحبهم شخص إلى مدرسة قديمة. فيها أسرَّة خشبيَّة بطابقين. حصلت آنا، التي بلّدها الإرهاق، على سرير علويّ. رفعت نفسها بآخر رمقٍ لديها من القوّة، وارتمت على السرير بكاملها، من دون أن تخلع خوذتها. لكنَّ السرير لم يقوَ على تحمُّل ذلك التعب المتراكم، فانهارت بالفراش المحشوّ بالقشّ على النائم تحتها. دفع الأخيرُ الوزن الذي هبطَ عليه من دون أن يستيقظ، تدحرجت آنا وارتطمت على الأرض حيثُ غفت على الفور. في الصباح الباكر، فتحت إحدى عينيها لترى عجوزًا له هيئة الأقزام، بوجه متغضّن وصدر هزيل غائر، يحدِّق بها من سريره مذعورًا.

- «يا يسوع يا مريم يا يوسف... أيّ فارس هذا الذي هاجمني الليلة الماضية! الحمد للربّ أنني ما زلت حيًّا!».

بمجرَّد عبور الحدود، كان لزامًا عليهم الكفاح لاجتياز ميلٍ تلو آخر سيرًا على الأقدام أيضًا. أنذرَها الألم الواخز في ركبتها بأنَّها لن تقدر على مواصلة المسير لمسافة أطول، وصل تورم المفصل حتى حافة الحذاء العلوية. هرعت وحدات الجيش المهزومة إلى المناطق الوسطى في ألمانيا؛

مرَّت سيّارات وشاحنات نقلٍ محمّلة بالنساء والجنود والضبّاط. حاولوا الحصول على توصيلة معهم، لكنّ أحدًا منهم لم يتوقّف، كان شبحُ الهزيمة يلهثُ مُطاردًا أعقاب الجنود. أصبح الألم لا يُطاق؛ للمرة الأولى يقول جسدها، هو الآخر، لا. جرَّت حقيبتها إلى منتصف الطريق. خلعت خوذتها بانحناءة، كأنّها ترحّب بالجحافل المارَّة، وجلست على أمتعتها، مُباعدةً ساقيها.

- «هل جُننتِ؟»، صاح رفاقها بغضبٍ، «سوف تُقتلين!».

ضحكت آنا بازدراء.

- «سيّان عندي إن أخذوني معهم أو دعسوني!».

اقتربت شاحنة. كان هناك شيء مطمئن في القوّة الغبيَّة لهذه الآلة التي لا تأبه بالكائنات الحيّة، فانتظرت دنوَّها بابتسامة ترحيب تقول؛ هيَّا افعليها بسرعة. بدت صرخات الذعر التي أطلقها الآخرون أشبه بغناء جوقة آتٍ من بعيد. في منتصف الطريق، تبلورت حبكة الحكايا الخرافيَّة البدائيَّة؛ إذا قدَّمت العذراء نفسها للوحش فسيتحوّل إلى أمير. توقّفت الشاحنة عند مسافة آمنة. ترجَّل ضابط شاب ودعاها للصعود إلى الشاحنة، بعد أن أظهر الاحترام العسكريّ لرباطة جأشها. وقفت بتأنٍّ. لوّحت لرفاقها الآخرين وصعدت.

لم يكن الاستقبال في المستشفى على النحو الذي توقّعوه بعد هذه الرحلة الشاقّة.

- «ماذا تفعلن هنا؟ لسنا بحاجتكنّ على الإطلاق!»، زجروا في وجه الممرِّضات.

سُمح ببقاء الجنود المصابين فحسب. حصلت ممرِّضات الصليب الأحمر الثلاث على أوامر جديدة: العودة إلى جبال الألب الباڤاريّة، والالتحاق بمستشفى عسكريٍّ ببلدة كيمزيه. عدْنَ إلى الطريق مرَّة أخرى، وبدأ كلُّ شيء من جديد. عند الرصيف رفعت، كلٌّ بدورها، يدها بتوانٍ. «لسنا بحاجتكنّ...»، تردَّد صدى العبارة في ذهن آنا. بمرارة، راحت تفكّر بينها وبين نفسها، لقد عرفتْ كيف مات مئات الجرحى في ممرٍّ باردٍ حين لم يكن هناك ما يكفي من الممرِّضات للاعتناء بهم: أمّا هناك، فثمَّة ما يفوق الحاجة.

توقّفت شاحنة عسكريَّة. مدَّ السائق رأسه.

- «من تعرف الطريق إلى تراونشتاين؟».

- «أنا أعرف»، صاحت آنا.

لقد مرّوا بها في رحلتهم، ليست بعيدة عن كيمزيه. كان على آنا التقدُّم والجلوس بجانب السائق الذي قاد شاحنته ببطءٍ وحذر. فوق غطاء المحرِّك، تفرَّس جنديٌّ في السماء عبر منظار.

- «عمَّ يبحث؟»، سألت آنا.

- «قاذفات القنابل»، ردَّ جارُها مكشِّرًا.

كانت زوايا فمه ما تزالُ متقلِّصة حين تناهى الصراخ القادم من الخارج:

- «اخرجوا! قنابل!».

قفزوا خارج الشاحنة على نحو أعمى، دارت الطائرات فوق رؤوسهم مهددة بالخطر. قفزوا إلى داخل حفرة عميقة. دفنت آنا نفسها

تحت حقيبتها. في تلك اللحظة، انفجرت الشاحنة التي كانت ستقلُّهم في طريقها إلى كيمزيه. بدا كأنَّها تتعرَّض لقصفٍ متكرِّرٍ، انفجار يقود إلى آخر في سلسلة متوالية، والحطام يتناثر على حقيبتها. حين عمَّ السكون تمامًا، زحفوا خارج المخبأ. مرتعدين، ولجوا الصمت الذي أعقب الغارة؛ لم يُصب أيّ منهم بأذى. فاحت رائحة البارود في الهواء.

- «كانت... كانت شاحنة محمّلة بالذخيرة»، قال السائق.

تفحَّمت البقايا المُحترقة. ولأنَّ النظر إليها لن يغيِّر في الأمر شيئًا، انطلقوا جميعًا، كلٌّ منهم يتفكَّر بصمتٍ في النجاة العصيبة من الموت المُحدق. توقّفت شاحنة من مؤسسة البناء التابعة لهتلر؛ تودت. أشاروا لها.

- «الممرِّضات فقط»، صاح السائق بتجهُّم.

كأنَّه كان يخشى، بمجرَّد التحدُّث، أن يثير غضب الآلهة، قادهنّ من دون أن يتفوَّه بكلمة إلى المستشفى العسكري في كيمزيه، الذي كان فندقًا فيما مضى. كان يعلن عن نفسه من بعيد - حتَّى من السماء، بالنسبة لتلك الآلهة - لأنَّ الصلبان الحمراء داخل الدوائر البيضاء الكبيرة كانت مرسومة على أرضيَّة الطريق.

على جانب الطريق، ثمة رجلان، بأطراف سفليَّة مبتورة، يجلس كلٌّ منهما على كرسيٍّ متحرِّك. راقبا شاحنة تودت تفرِّغ حمولتها من الممرِّضات بدلًا من مواد البناء؛ شاهدا آنا تقفز بركبةٍ ملتوية، لتحطّ على الإسفلت مع حقيبتها الصامدة. لم يتجاهلا المشهد. هرع أحدهما على كرسيِّه المتحرِّك برشاقة وحاول أن يحتويها بذراعيه ويسندها إلى حجره،

أمّا الآخر فحمل حقيبتها. عبروا بسرعةٍ كبيرةٍ بضع مئات من الأمتار وصولًا إلى مكتب رئيس الأطباء، حيث تركاها جالسة على مقعدٍ في الممرّ، فخورَيْن بالقوة المعوِّضة التي تدفقت في ذراعيهما. أبلغ جنديٌّ عابر عن وصولهنّ.

- «كيف يجلبوهنّ من دون سابق إنذار...»، سمعن هتاف الطبيب من خلف الباب، «لسنا بحاجة لأيٍّ منهنّ! ستنتهي الحرب بين عشيةٍ وضحاها، ليس لدينا ما نقتات عليه. فليتدبّرن أمرهنّ».

تركت آنا رأسها يتدلّى إلى صدرها. نظرت باهتمام كبيرٍ إلى أظافر يديها، سوداء كما لو أنّها نبشت التراب بحثًا عن حبّات البطاطس. نفدت كلُّ المشاعر التي بداخلها، ولم تنزعج لصراخ الطبيب. كانت واثقة من شيءٍ وحيد: لن تتحرَّك قيد خطوة. ستُغلغلُ جذورها على هذا المقعد إن دعت الحاجة، هنا مقابل مكتبه، لتذكِّره بوجودها. سمعت اعتراض الجنديّ:

- «لكنّهن نساء مسكينات، وما زال لدينا بعض الأسرَّة الشاغرة، فلماذا لا يبقين هنا؟ ويحصلن على حصّة الطعام المكوَّنة من ثلاث حبّات من البطاطس كما الآخرين...».

وافق الطبيب على العدول عن رأيه، كانت الموافقة أقلّ عناءً من الاستماع إلى مناشدات الجنديّ. في تلك الليلة، استلقت على سريرٍ حقيقيٍّ، بين ملاءاتٍ ناعمةٍ بيضاء. تذكّرت على نحوٍ غامضٍ أنّها قد جرّبت إحساسًا مماثلًا بالترف غير المألوف قبل وقت طويلٍ مضى، حين وصلت إلى منزل عمّها في كولونيا.

على الرغم من إعلان رئيس الأطباء عدم الحاجة لها، عثرت في اليوم التالي، أثناء تجوّلها في أنحاء المستشفى، على غرفة تعجّ أرضيّتها بالأفرشة. أطفال صغار يرقدون عليها، ضمادات ضخمة تغطّي موضع الطرف المبتور، بعض الرؤوس ملفوفة بضمادات فيها العينان تحدِّقان في السقف بلا حراك. اعتقدت آنا أنّها في تلك الليلة، التي قضتها بين صفوف الجنود المحتضرين، قد قاست أفظع ما يمكن أن يواجهه إنسان، وأنَّ برميها الحقيبة المليئة بملابس الرضَّع قد تخلَّصت من كل ما له علاقة بالأطفال، لكنَّها راحت تمشي، وقد نال منها الدوار، بين الأفرشة، تنحني بين حينٍ وآخر بجانب طفلٍ صغير هامد، يرمقها باستسلامٍ يائس. لم يكن بينهم طفلٌ يلعب أو يضحك؛ بل ساد صمتٌ قاسٍ كما لو أنَّهم جميعًا في خوفٍ دائم، ينتظر كلٌّ منهم مجيء أبيه أو أمّه كي يحظى بقبلةٍ تبدِّد كلَّ أثرٍ للخوف. لكن لا وجود للآباء والأمّهات هنا، لا وجود لمن يسلّيهم برواية الحكايات. كانوا راقدين حيث هم، بامتثالٍ جماعيٍّ، كأنَّهم يكفّرون عن ذنبٍ لم يقترفوه. عبثٌ إضافيّ لاحظته آنا تدريجيًّا: كلّ الأطفال شقر وذوو عيون زرقاء. لقد تمتّعوا بتغذية جيِّدة، ويبدون مثل ملائكة الكيروبيم المكتنزة التي أسقطها من الغيوم الرقيقة شيطانٌ مبغضٌ للبشر، بلغ حقدُه السماء. لم يكن رئيس الأطباء بحاجة للعون من أيّ شخص، لكنَّ آنا بدأت العمل كعادتها.

*

- «ماذا حدث للأطفال بعدها؟».

نظرت لوته إليها بقلق. أضفت بقعة الرغوة العالقة على شفتها العليا طابعًا مضحكًا على هيئتها، ممّا ساعد آنا على التحرُّر من وطأة الصور التي كانت تستحضرها في ذاكرتها.

بهدوءٍ قالت:

- «كانوا يعيشون في دارٍ لرعاية الأطفال في وادي أوبرزالتسبورغ الذي قصفه الأمريكان. أُطلق عليهم اسم الليبينسبورن؛ السلالة الصافية التي أنتجتها المزرعة النازية. يمكن القول إنه جرى انتقاء الشقر من الرجال والنساء خصيصًا من أجل عمليَّة التلقيح. وبعد أن أتى هؤلاء الأطفال للحياة، قُدِّموا من أجل الفوهرر».

- «ماذا أراد أن يفعل بهم؟».

- «بعد أن أباد اليهود والغجر على نحوٍ ممنهج، كان لا بُدّ من تأسيس العرق النبيل المتفوِّق ليحلّ محلَّهم ويتولَّى حكم العالم. نشأ هؤلاء الأطفال في أوبرزالتسبورغ، حيث خُبِّئوا بعيدًا عن العالم الخارجيّ. أُحضروا عقب القصف ونقلوا إلى مستشفى الطوارئ في كيمزيه، حينها أعلن رئيس الأطباء عن عدم حاجته لأيَّة ممرِّضات».

تحيَّرت لوته. كان الأمرُ هائلًا للغاية، معقدًا للغاية، مروِّعًا للغاية.

غيَّرت الموضوع:

- «أظنُّ أنَّ الوقت حان لطلب الحساب، لقد ألمَّ بي تعب مفاجئ وشديد. لعلَّ ذلك لكثرة ما أكلتُ وشربتُ».

برويَّة، دفعت جانبًا كأسَ النبيذ الممتلئ إلى منتصفه.

- «في مثل هذا السنّ، لا يعود بإمكان المرء تحمُّل الكثير»، قالت آنا بتورية، «وعلينا دائمًا أن نتذكّر العودة إلى رشدنا، ولو بطريقة مريرة».

لدى عودتها إلى الفندق، تلقَّت لوته مكالمة هاتفيَّة من ابنتها الكبرى التي تاقت بفارغ الصبر، «ونيابة عن الآخرين أيضًا»، للاطمئنان إلى تقدُّم العلاج. زوّدتها لوته بصورة منمّقة، ملأى بالحماس الزائف. فكّرت في الوقت نفسه بأنَّ عليها إخبارها بما حدث. ولكن ماذا ستقول لها؟ لقد عثرتُ على أختي، خالتكم. وماذا بعد؟ دراما غير مفهومة، لا تُصدَّق، تافهة، تليق بمسرحيّة من بضع مشاهد؟ كيف ستشرح الأمر لها؟ صرفت انتباهها إلى النصائح التي أغدقتها ابنتها؛ كوني هادئة واسترخي واستمتعي ولا تقلقي بشأن شيء، هل قابلتِ أناسًا لطفاء؟ ثمّ ودّعتها. قالت لنفسها بحنق والسماعة ما تزال في يدها: ينبغي أن أكفّ عن تلك النقاشات. إنّها ترهقني في الوقت الذي يتأمَّل الأولادُ عودتي إلى المنزل بحيويَّة متجدِّدة. لديهم كلّ الحق في ذلك. هذا العلاج هو هديّتهم، وقد كلّفهم ثروة من المال.

لكنَّها، في اليوم التالي، غادرت المنتجع برفقة آنا مرَّة أخرى، ذلك أنَّ الانعتاق بات وشيكًا. كان لقاؤهما بأسرهِ أشبه بفيلمٍ، عجزت عن الفرار منه في اللحظات المناسبة، أمّا الآن فقد باتت تودُّ معرفة مآل نهايته. أشرقت الشمس، وأبدى العالم سحرًا مُخادعًا. تجوّلتا لبرهة، ووصلتا إلى «پارك دو سيت أور» حيث دغدغتْ أنفيهما رائحة البطاطس المقليَّة. استنشقت آنا الرائحة وقد أغمضت عينيها.

- «هذا ما أريده!»، قالت بنبرة صاعدة من أعماق قلبها.

على الرغم من نفور لوته من أكشاك الدونات والبطاطس المقليَّة لأنَّ «روائحها تعشعش في الملابس»، إلّا أنَّها تبعت شقيقتها تلقائيًّا. بعد قليل، كانتا جالستين على مقعد في الحديقة، في يد كلٍّ منهما مخروط ورقيّ، تحيط بهما الحمائم المتطفِّلة. الحرب، تقلُّبات البشر، معضلات الضمير المؤلمة؛ كلّها أخذت تضمحلُّ أمام تلذُّذ هاتين المراهقتين بحصَّةٍ من البطاطس المقليَّة في برد الشتاء؛ حبَّات طويلة، متماسكة، مقرمشة، صفراء ذهبيَّة. أصابع مملَّحة، مغطَّاة بالزيت. لكنَّ تلك الفكرة؛ فكرة بساطة الحياة، تلاشت مع اختفاء آخر حبَّة من البطاطس. حيث مسحت كلٌّ منهما يديها وفمها، وعاودت الحرب مسارَها.

*

لم يعد بحوزة والد لوته ما يكفي من الأعلام ليشير إلى انتصارات الحلفاء على الخريطة؛ أمَّا زوجته، التي قرأت الكثير من روايات الحرب في حياتها، فقد ارتجفت تخوُّفًا من الفراغ الإستراتيجيّ والأخلاقيّ الذي يصاحب عادةً تبدُّلات القوى؛ وهي الفترة التي قد ينتهج فيها العدوُّ مع اقتراب هزيمته، وعلى نحوٍ أعمى، مضاعفة أعمال الحرق المتعمّد والتدمير والعنف والقتل. ماذا سيحلُّ بهم إن بات منزلهم على مرمى حجر من خطوط النار؟ كانت هذه هي المرَّة الأولى التي تعربُ فيها عن خوفها منذ اندلاع الحرب. أصبح الوضع مقلقًا أكثر فأكثر. تصاعد التوتُّر، وتمظهر لدى إرنست بعرض زواج أخرق. متأثِّرة بارتباكه، لم تتركه لوته يتوسل طويلًا. ليس لأنها أحبّته لهشاشته الصريحة وضعفه

غير الذكوريّ فحسب، إنَّما بدافع خوفٍ سريٍّ ترعرع بداخلها من أنَّ الحياة بعد الحرب ستستأنف مسارها الطبيعيّ حتَّى لو كان مسارًا مغايرًا تمامًا لما كانت عليه قبل الحرب. سينقذها الزواج من الاضطرار إلى عيش اللحظة التي ستفكك فيها الجماعة الضخمة التي تكوَّنت من أفراد العائلة والمختبئين عندهم؛ لأنها غدت عالمًا صغيرًا عزيزًا عليها على نحو ما، أو ربما بسبب إدمانها على الخوف. كانت تأمَلُ أن تهرب، عبر الزواج، من الفراغ الذي سيخلّفونه وراءهم، من وفرة الوقت المفاجئة التي ستمتلئ بالأسئلة المستعصية. ستتمكّن أيضًا من الهرب بعيدًا عن والدِها الذي سيغدو القربُ منه أمرًا لا يُطاق في زمن السلم.

لن يكون بوسعهما تحمُّل تكاليف حفل الزفاف؛ فكلُّ ما بحوزتهما من ممتلكات دُفع لمقايضة المؤن. قرّرا عقد الزواج قبل انتهاء الحرب؛ ففي ذلك عذر مناسب ليكون الحفلُ هادئًا وبلا صخب. إلَّا أنَّ سربًا من الطائرات النفَّاثة المحلِّقة على ارتفاع منخفض قاطع ذلك الهدوءَ، في ذروة الحدث، بمنتهى الوقاحة. في الطريق إلى قاعة البلدة، كان على الجماعة المتواضعة، المكوَّنة من الخاطبَين ووالدي الفتاة وشاهدَين عابرَين، أن تختبئ من وقتٍ لآخر بين أجمات السرخس. ولأنَّ العريس قيد التواري عن الأنظار، اجتازوا مسارًا خفيًّا عبر الغابة؛ جرت المراسم بحضور نائب عمدة البلدة الذي كان أهلًا للثقة؛ كان لوالدُ لوته، الذي لطالما بدا بمظهرٍ جذّاب خارج المنزل، شبكة علاقات ومعارف. أُقيمت الإجراءات الرسميَّة من دون أدنى مظاهر الاحتفال، وضاعت كلمات نائب العمدة وسط هدير الطائرات. التقطت لوته ما علق هنا وهناك بثوبها البنيّ من غُصينات

الأجمات وفكّرت بأنَّ حفل زفاف، بهذا القدر من الكآبة، لم يسبق أنَّ مرَّ في تاريخ العالم. حين انتهى، سارعوا للعودة إلى المنزل عبر الطريق نفسه، هناك حيث استحقّ ذلك العقد لمدى الحياة أن يتوهّج بشيءٍ من البهجة أمام كعكة الجاودار وزجاجة من الجِن؛ هي الأخيرة.

*

أثناء عبورهما شارع الملكة أستريد، اختُبر صبرهما بمرور موكبٍ عسكريٍّ؛ الموكب ذاته الذي سبق أن شاهدتاه يتوجَّه غربًا قبل بضعة أيَّام، يعود نحو الشرق الآن. دبّابات ملأى بجنودٍ يرتدون ملابس قتاليَّة وسيارات دفع وشاحنات الصليب الأحمر، كلّها بلون الخردل.

رمقت آنا الموكب بعبوس.

- «*كما ترين*، بقيت الأمور على حالها»، تذمَّرت. «طالما كان الاقتصاد قائمًا على صناعة الأسلحة، فسيكون هناك دائمًا بؤر لتأجيج الصراعات، وسنستمر في تسليح أنفسنا، من الرأس إلى أخمص القدمين».

لم تتفق لوته معها في هذا الطرح. لم يكن سوى تعميم آخر، يتجنّب طرح السؤال الحقيقي: من الجاني في ذلك؟ لو كان التسلُّح ظاهرة منتشرة في كلّ أنحاء العالم، لكانت ألمانيا غير مسؤولية عن الانتعاش الاقتصاديّ في الثلاثينات – القائم على صناعة الأسلحة – وكلّ ما تلاه من عواقب. لكنَّها سئمت دحض نظريّات آنا، فالتزمت الصمت وحدَّقت بالرتل المبقَّع بالوحل، تنتابها مشاعر مختلطة. بهذه الطريقة جاء المحتلُّون إلى البلاد، وبها جاء المُحرِّرون أيضًا.

الجزء الثالث

السِّلم

نحن ومن بعدنا الطُّوفان

١

مات الفوهرر؛ لم يكن موته سوى مسألة أيَّام. مرَّت الليلة التي سبقت الاستسلام مثل بخارٍ يتصعَّد في حالة من السُّكر العام. في أقبية الفندق القديم، كان هناك مخزونٌ من خمور ما قبل الحرب، تغطِّيها أكفانٌ من أنسجة العناكب. خوفًا من أن يعقد الأمريكان حفلات العربدة الجماعيَّة ويغتصبون الممرِّضات على إيقاع موسيقى الجاز المنحرفة، قرَّرت إدارة المستشفى توزيع زجاجات الخمر على أعضاء الطاقم العامل. جلست آنا على أرضيَّة إحدى غرف الممرِّضات، تعتريها نشوة مريرة إذ يتقوَّض إحساسُها بالواقع مع رشفات المارتيني الأحمر. نزعت قبَّعة الممرِّضة الضيِّقة التي تحيط برأسها وراحت تمشِّط شعرها الأشقر وهي تهمهم.

- «انظرن إليها...»، حدّقت الأخريات بها مذهولات. «ما أجملك يا آنا! لماذا تخفين شعرك تحت تلك القبَّعة، دعي الجميع يراك كما أنت!».

قرَّبت آنا الزجاجة إلى فمها من جديد. لم تحدُها الرَّغبة إلى التوضيح لهنّ أنَّ «الظهور بهيئة جميلة» كان آخر شيءٍ تسعى إليه. إنَّها تزدري كلّ ما

يتعلَّق بالغنج الأنثويّ والإغواء؛ أيُّ تسفيهٍ لحرمة الموتى! في نهاية تلك الأمسية، اضطرَّت الأخريات لاصطحابها، مرورًا بغرفة الاستقبال، وهي تترنَّح في ضحكٍ وقهقهة، إلى مهجعها.

في اليوم التالي، تمظهرَ السِّلمُ حديثُ العهد بصداعٍ ثاقبٍ ألمَّ بها: موكب ممتدّ إلى اللانهاية من الجنود المهزولين المرهقين، يجرُّون خطاهم في الطريق السريع، يقتادهم أمريكيُّون بأجساد متينة، يطفحون بالغطرسة والازدراء. صعدت آنا المنحدر ورأت حشدًا مخذولًا يسير أمامها خلال يوم التحرير المشمس ذاك؛ وجوه رماديَّة، شفاه شقَّقها الظمأ. هناك، تعرَّفت إلى ظاهرة الأمريكيّ الأسود. التفتَ إليها، يمضغ العلكة، يحتذي نعلًا مطاطيًّا سميكًا.

- «هيلو بيبي...»، قال مبتسمًا بعفويَّة.

مستاءةً، أدارت ظهرها وركضت عابرةً المنحدر نحو المطبخ مباشرةً. اقتحمته وهي تلهث.

- «جنودنا قادمون من معاقلهم في الألب... يا إلهي... لم يعد بإمكانهم الصمود أكثر من ذلك...!».

كلٌّ من استطاعت تحرير نفسها، ملأت إبريقًا بعصير الليمون وهرعت به إلى الطريق. ولكن بمجرَّد أن شرب ثلاثة جنود أو أربع قليلًا من العصير، ظهر جنديٌّ من الطراز الغربيّ المتوحِّش، دفع الممرِّضات بضربات عنيفة عن المنحدر. سارعن إلى النهوض والصعود مرَّة أخرى لتوزيع عصير الليمون. نهل الشبَّان العصير بشراهة وحشروا الرسائل في جيوب مآزر الممرِّضات. «أرجوكِ... أرجوكِ... اكتبي لزوجتي أنَّي

ما زلتُ على قيد الحياة»، توسلّوا إليهن وهم يمرُّون، «أخبري أمّي أنّكِ رأيتِني...». داخل المستشفى، عمدت الممرِّضات إلى إفراغ جيوبهنّ وملء الأباريق؛ وبلا كلل لازمن مواقعهنّ على شفا المنحدر. لقد دُفِعن وتدحرجن وهُدِّدن بأعقاب البنادق، لكنهنّ لم يتزحزحن وواصلن القدوم حتّى مرور آخر جنديّ. بالعودة إلى المستشفى، فرزن رسائل البريد. أحدهم أعطى آنا طردًا، بلا عنوان ومن دون رسالة. فتحته: بداخله عثرت على قماشة صوفية زرقاء داكنة لزيّ ضابط؛ أهي هديّة؟ حين عادت خدمة البريد للعمل، كتبت عشرات الرسائل: من هينز، إلى العزيزة هيرتا... إلى موتي من غيرولد... عبر آنا غروزالي.

في ذلك اليوم، تغيَّر طاقم الحراسة. جاءت سيّارات الدفع وسيطر الأمريكان بلا صخب على المستشفى العسكريّ. أسروا الجنود الذين تماثلوا للشفاء ونقلوهم، أمّا الأطباء والممرِّضات والمسعفون فاستأنفوا واجباتهم تحت سلطة الحرس. رُكِّبت كشّافات ضوئيّة ضخمة في الأراضي المحيطة بالمستشفى لإجهاض أحلام الهروب المتهوِّرة. بين الجرحى، كان هناك العديد من النازيّين المتفانين الذين بحوزتهم صور لهتلر وأشياء نازيّة أخرى. جمعت الممرِّضات هذه الأغراض في اللحظة المناسبة، متخوِّفاتٍ من لفت انتباه الأمريكان، وألقين بها في بحيرة كيمزيه. أحد الجنود الذين لم يكن بالمستطاع انتزاع هذه الرموز منه؛ الصليب الحديديّ وصورة هتلر، حجبَ كلَّ شيء عن أنظار الجميع. استوقف آنا بعد بضعة أيّام.

- «هل تسدين لي معروفًا، يا أختاه؟ أريد أن تخبّئي لي هذه الأشياء».

- «ولكن أين؟»، قالت مرتابة.

- «في الغابة الخلفيَّة. ادفنيها في الأرض، وعلّمي موقعها بخريطة مرسومة تدلُّ عليه بدقَّة. سأستعيدها حين ينتهي كلّ هذا».

لم تقو على الرفض. عند المساء، تحيَّنت اللحظة التي تغيب فيها أشعّة الكشّاف، وانحنت متسلِّلة عبر الفناء، تتلفّت حولها باستمرار. حفرت حفرةً بين شجرتين من أشجار البَتُولا، وهي تضحك بخفوتٍ بينها وبين نفسها: خالت نفسها كلبة تنبش في التراب لإخفاء عظمة. بعد أن رسمت بسرعة مخطَّطًا للموقع، مستضيئة بنور القمر، وأشارت بعلامة الصليب إلى البقعة التي دُفن فيها الفوهرر، عادت من حيث أتت، وهي تشتم الأمريكان وأضواءهم الكشّافة؛ استعراض سخيف للقوَّة يجعل المرء، حتّى حين يسود السِّلم في بلاده، غير قادر على التحرُّك بحريّة.

لم يستغرق الأمريكان وقتًا طويلًا حتّى يكتشفوا المزايا الساحرة للمبنى الذي كان فندقًا: حيث بوسعهم السباحة وخوض رحلة على متن المركب في بحيرة كيمزيه. لقد استحوذوا عليه. حُلَّ المستشفى العسكريّ؛ فُرز جنود إس إس ونُقلوا، سيقت ممرِّضات الصليب الأحمر كأسيرات حرب إلى ثكنة تابعة لقوّات الدفاع في بلدة تراونشتاين المجاورة التي زالت منها معظم آثار الانضباط الألمانيّ الشهير. حين بات الأمريكان على التخوم لدرجةٍ أمكن معها شمّ رائحة لحم الخنزير المقلي والمقدَّد الفائحة منهم، ارتأى ضبّاط قوّات الدفاع اختتام سقوط الرايخ الثالث بإقامة الحفلات الصاخبة. فيما بعد صدرت الأوامر للممرِّضات بتنظيف القذارة

التي خلّفها الضبّاط. أوغر الأسرُ صدورهنّ، فقد تعارضَ مع الطبيعة الحياديَّة للصليب الأحمر، فضلًا عن الأعمال الدنيئة التي طُلبت إليهنّ، البعيدة كلّ البعد عن واجباتهنّ الأساسيَّة. لكنَّ ذلك كلّه يضمحلُّ أمام الحصَّة اليوميَّة من الطعام؛ كوب من القهوة السوداء البديلة وشريحة من الخبز اليابس وطبق من الحساء الشبيه بالماء. نظّفن الأرضيَّات، وهنّ يترنّحن دوارًا بسبب الجوع. بعد أسبوع، لم يكن بوسع آنا أن تحملَ سوى الدلو الممتلئ إلى ربعه.

ذات يوم، تجرّأت إحدى الممرِّضات على كسر التضامن الجمعيّ للبطون الخاوية، وعرضت نفسها على الأمريكان مقابل الحصول على طبق من الطعام. عادت تنهشها النقمة على الذات؛ أخذت تعصر ممسحتها، وتبكي على ما لا يمكن استرجاعه. تناوبن على تهدئتها لكنَّها أبت بعنادٍ قبول صدقة التأسّي ممَّن لم يفقدن احترامهن لذواتهنّ. كانت الأخت إلزِه صديقتَها، وتعرف أنَّ عيد ميلادها في ذلك الأسبوع.

- «علينا أن نفعل شيئًا من أجلها... شيئًا لطيفًا»، قالت لآنا.

أومأت آنا بوهنٍ؛ كانت حركات رأسها المفرطة تصيبُها بالدوار.

- «على الجانب الآخر للطريق تنمو أزهار المارغريت...»، اقترحت بتردُّد، «ولكن كيف سنتمكّن من تجاوز حارس البوَّابة؟».

- «دعي هذا الأمر لي... أنا أتحدّث القليل من الإنكليزيَّة»، قالت إلزه.

نجحت إلزه في تليين قبضة الحرَّاس بعد مفاوضاتٍ مُطوَّلة، برطانةٍ مُغوية مازجةً الإنكليزيَّة بالألمانيَّة. فُتحت البوَّابة؛ اضطرّتا لكبح جماحهما

عن الركض في المروج مثل عُجولٍ أُطلِق سراحها، والسير بدلًا من ذلك بضبطِ نفسٍ حالمٍ لسجينتين حظيتا بامتياز. المشي بين العشب المزهر، بين أزهار المارغريت والحوذان والحمّيض... الاستلقاء في رحابها والكفّ عن الوجود! فيما كانت آنا تقطف الأزهار، كانت سويقات العشب على ضفاف نهر ليبه تخدش ساقيها من جديد، وتشمّمت، مرَّة أخرى، تلك الرائحة الخضراء الواخزة التي لا تضاهيها أيَّة رائحة أخرى. لم تنزعج لوجود خيام الجيش الأمريكيّ على مسافة ليست بعيدة عنها، مثلما تجاهلت، قبل زمن بعيد، قربَ المزرعة التي ابتدعت فيها زوجة عمّها اضطهاداتٍ جديدة. شعرت بالدوار من جرَّاء الانحناء المديد، سقطت في دوَّامةٍ من الثمالة أقرب إلى الإغماء، وسط مرجٍ من بهاء الطبيعة اليوتوبيَّة والنسيان الخالص.

فجأة، سقط لوح شوكولاتة عند قدمها، تلاه واحد آخر، ورغيف خبز، وشيء آخر، وآخر. أعادتها المفاجأة إلى واقع اللحظة الراهنة.

- «اللعنة أيها الأوغاد»، ردَّت بنزق.

لم تفكِّر في لمسها. تظاهرت إلزه أيضًا بعدم ملاحظة المكافآت التي رماها مجهولون من الخيام. صرخ أحد الحرَّاس من الجانب الآخر:

- «يا إلهي! خذاها، لم يقدِّموها لسواكما!».

تردَّدت إلزه.

- «إن أخذناها، فسنستمع بها جميعًا... ستكون حفلة عيد ميلاد حقيقيَّة...»، همست.

لم تكن آنا قد وصلت بتفكيرها إلى هذه النقطة بعد. لفَّت مئزر

الصليب الأحمر من زواياه وانحنت تملؤه. في النهاية، نهضت، بمئزرٍ منتفخ وهتفت بغطرسة:

- «*شكرًا جزيلًا!*».

لن تحصل فتاة عيد الميلاد في حياتها على باقةٍ من أزهار المارغريت تشبه الباقة التي قُدِّمت لها في ذلك اليوم. جلست الممرِّضات في دائرة. أمام كلّ واحدة منهنّ كومة صغيرة من الهبة الأمريكيَّة. حصلت فتاة عيد الميلاد على النصيب الأكبر، ولكنَّها تقاسمته مع الأخريات بطبيعة الحال.

هناك مستشفى عسكريّ في الجانب الآخر من تراونشتاين. منذ اعتقال الممرِّضات ذوات الزيّ البنيّ واقتيادهنّ بعيدًا بات هناك نقص في الممرضات. لفت أحد الأطباء التابعين لقوَّات إس إس، العامل تحت الحراسة، انتباهَ الأمريكان إلى ممرِّضات الصليب الأحمر في الثكنة؛ تولَّى اثنان من الجنود إحضارهنّ إلى ذلك المستشفى. لم تكن آنا في حالة تسمح لها بحمل حقيبتها؛ لذا وُضعت في عربة. كلّ ما حملته هو الطرد الحاوي على قماشة الضابط الزرقاء، تأبّطته تحت ذراعها. ساروا في موكبٍ عبر تراونشتاين، يحدِّق بهم سكان البلدة. شعرن بالارتياح؛ ليس لأنَّ بوسعهنّ أخيرًا متابعة عملهنّ الطبيعيّ في بيئة صحيّة حيث انضباط القوّات النازيَّة المألوف ما يزال سائدًا فحسب، بل لأنّهن حصلن على الطعام من جديد. كان مسؤول إدارة الحسابات، وهو رقيب أوَّل من قوَّات إس إس وُلد وترعرع في تراونشتاين، على صلات مع المناطق المحيطة. بينما كان الأمريكان يتسكّعون أمام البوَّابة، قام المزارعون

بإدخال اللحم المدّخن والنقانق والبطاطس عبر النوافذ الخلفيَّة، وحفر سكان البلدة نفقًا إلى القبو لتجديد الإمدادات. ظلَّت آنا تحشو نفسها لثلاثة أيّام.

مع ذلك، لم تنجلِ صفة الأسر عنهنّ. كان الصيف قد انتصف. أعربت مشاهدُ سفوح جبال الألب أمامهنّ عن سحرٍ لا مثيل له، لكن لم يُسمح لهنّ باجتياز عتبة البوَّابة. اتّكأت آنا على نافذة غرفتها بتوقٍ خانقٍ وحدَّقت في جنة عدن الماثلة أمامها. كان المواطنون الأحرار يسيرون في الطريق الريفيّ الذي يمتدُّ ملتفًّا حول التلّة إلى أن تبتلعه الغابة. جنديّان عفا عليهما الزَّمن، يقومان بدوريَّة على ذلك الطريق، يلوِّحان قائلين «هيلو بيبي» عقب أيَّة تنّورةٍ تمرُّ بجوارهما؛ هل فعلا ذلك في براري أمريكا أيضًا؟ قرّرت أن تحصّل حقها بيدها. خلعت رداء الصليب الأحمر، وتناولت من حقيبتها، التي قاست الكثير، بدلةً مجعَّدة من قطعتين. تنكّرت بزيّ مواطنة مدنيَّة، وانسلَّت من النافذة؛ تحت غطاء من الشجيرات المتناثرة تمكّنت من بلوغ الغابة من دون أن يراها أحد. غابة عاديَّة، بمظاهرها البسيطة المكرورة. كانت شجرة البلوط عبارة عن شجرة بلوط، لا أكثر ولا أقلّ؛ ألقت التحيَّة على شجرة الزان، وعانقت شجرة البلوط، وركضت من شجرة إلى أخرى، تستنشق رائحة الدُّبَال، وتسلَّقت جذع صنوبرةٍ ساقطة، ثم بدأت تردّدُ أضغاثَ أغنية سرعان ما تحوّلت إلى نوبة دموع في منتصفها. ارتعش الجذع تحتها، في تزامن وانسجامٍ مع بكائها الذي بدا ظاهرة من ظواهر الطبيعة هناك، مثل مطرٍ يغسل الغبار عن الأوراق. ليست المسألة مسألةَ قلبٍ كسيرٍ: كان جسدُها كلّه يبكي من أخمص

قدميها حتَّى جذور شعرها، كلُّ جوارحها كانت تنكمشُ معًا، وتنسبطُ معًا على وسعها، أخذ البكاءُ يحرِّرُ نفسه من قيد الأسباب العقلانيَّة حتَّى بات صيغةً قائمة بذاتها، لها طابع الأثير المتخلخل، إذ يتلاشى على مهلٍ. حين عادت إلى رشدها، كان الغسق يرخي سدوله. انتزعت الغصينات العالقة بشعرها وانطلقت تبحث عن الدرب. تعرقل طريق العودة بجنديَّين منخرطين في محادثة. انتظرت، جاثمة خلف شجرة. في النّهاية، أكملا النزهة في شفق المساء واستطاعت آنا السير على الطريق العامّ بصفتها مواطنة حرَّة. مرَّت بمزرعة، انظري إليها؛ خاطبتْ نفسها بدهشة، الناس جالسون هناك، يتناولون طعامهم، لا قنابل تتساقط، والمصابيح مضاءة! أدركت أنَّها، منذ عام ١٩٣٩، لم تقضِ ليلةً من دون انقطاعٍ في التيّار الكهربائيّ. لقد اعتادت على انحراف الأمور عن مسارها لدرجة باتت معها الأمور، في جريانها السويّ، مدعاةً للذهول.

بين يومٍ وآخر، حُلَّ مستشفى تراونشتاين أيضًا. رُحِّل المرضى بعيدًا، اختفى الحرَّاس، وتُرِك الأطباء والممرِّضات لفعل ما يحلو لهم؛ غير أنَّ أحدًا منهم لم يفكّر بالمغادرة. بعد يومين، جاءت شاحنة بضائع يقودها أمريكيّ. صعدوا جميعًا على متنها وغنّوا بأعلى صوتٍ: «أنا أسير حرب...»؛ قاد الجرَّاح الجوقة بيديه المرهفتين. الشمس مشرقة، التفَّاح يتدلَّى من أغصان الأشجار، ليس هناك إطلاق نار، لا مركبات تنفجر في الهواء ولا رُكَب متورِّمة. تحوَّلت المفاجأة واللايقين إلى تسليمٍ بالقدرِ، تحوَّل بدوره إلى استهتار جماعيّ. انتهت الحرب، لا يهمُّ كيف تمَّ ذلك؛ كانت هذه الفكرة تتغلغل في أعماق الوعي رويدًا رويدًا.

وقعوا، وهم يغنّون، في شراكِ الاحتجاز من جديد، هذه المرّة في آيلن بالقرب من ميونخ، داخل معسكر ضخم لأسرى الحرب، كان مطارًا فيما مضى، وجرى إيواء النساء والممرّضات والمساعدات في قوّات الدفاع ضمن عنابر؛ أمّا قادة قوّات الدفاع ففي المباني الأخرى. بعيدًا قليلًا، في الهواء الطلق، بمعزلٍ عمّن تبقّى، كان الآلاف من جنود إس إس على الأرض، تحت الشمس والمطر، يحرسهم جنود صارمون مسلّحون ببنادق آليّة. ذهبت آنا وإلزه إلى الحمّام لإزالة الأوساخ التي علقت بهما جرّاء الرحلة. كانت النساء يتدافعن أمام المرايا، فوق أحواض المغاسل. يطلين شفاههنّ ويتجمّلن. في الخلفيّة، تردّد صدى الموسيقى الشعبيّة في أرجاء العنبر. بين أغنيتين، وجّه منسّق التسجيلات التحيّات من ڤولفغانغ إلى زابينِه بلكنةٍ فظيعة وهنّأ هانتس في عيد ميلاده بالنيابة عن أوشي.

- «ما هذا بحقّ الرب؟ هل مسّهم الجنون؟»، قالت آنا.

سرعان ما اتضح الغرض من التبرُّج. في الخارج، مرورًا بالعنابر، كان القادة الرفيعون من قوّات الدفاع يتجوّلون بزيّهم الرسميّ المزركش بالأوسمة والزخارف والشرائط؛ إلى جانبهم النساء، المتزيّنات على أكمل وجه، وكلٌّ واحدة أجمل من الأخرى. بالرغم من آلاف الأميال التي تفصلهم عن بلادهم كان الأمريكان مولعين بالعروض، فاهتمّوا بالموسيقى وشغّلوا التسجيلات التي اعتادوا الاستماع إليها في ديارهم. أقيمت كلّ يوم، بين الخامسة والسابعة، عروضُ مغازلةٍ كبيرة أمام قادة قوّات الدفاع، أولئك الذين كانوا قد أرسلوا الآلاف، بل وعشرات الآلاف من الأفراد إلى حتفهم، بينما، بعيدًا عن مكبّرات الصوت والنساء

الحسناوات، كان جنود إس إس الذين نجوا من الموت يرقدون في المروج مثل قطعان الماشية. تابعت آنا وإلزه المسرحيّة الغريبة بفمٍ فاغرٍ. كان الجنرالات، كبار الضبّاط الذين بقوا بمنأى عن ساحات القتال، يطوفون كسجناء شرف على أنغام غزاتهم المنتصرين. تسمّرت آنا مكانها وشاهدت واستمعت، عاضّة على أسنانها، إلى الموسيقى الأجنبيَّة التافهة، غير قادرة على احتواء الغضب الذي هاج بداخلها. غضب من كلّ هؤلاء الأوغاد المغرورين الذين لولا أوامرهم ما كانت لتندلع الحرب، ولولا دعمهم لانكسرت شوكة هتلر. غضب من العجرفة الغبية لرعاة البقر الأمريكان هؤلاء. غضب من عجزها؛ لم يكن ينقص الآن إلا أن تنخرط في التصفيق أو تطلي شفتيها.

بعد أسبوع، انتهى الاستعراض اليوميّ فجأة. لا مزيد من الموسيقى والتحايا والجنرالات والتبرُّج. استلقت النساء على أسرّتهن متنهّدات. لفترة من الوقت، لم يكن هناك ما يسدُّ الرمق، إلى أن جاء أسقف ميونخ في زيارة وأقام مفاوضات من أجل تحسين الحصص الغذائيّة اليوميّة، بصفته وسيطًا بين الربّ وعباده الخطاة. فُحصت النساء تحرّيًا للأمراض التناسليَّة وأُطلق سراحهن تدريجيًا، بناءً على نتيجة الفحص. حتّى إلزه غادرت، وانطلقت باحثة عن السلطات المُخوَّل إليها الإفراج عن خطيبها، وهو جنديّ من قوّات إس إس الراقدة في المرج. ظلّت آنا قيد الاحتجاز بسبب التهاب تسبّب في إرباك المختبرات الأمريكيَّة. وحين تبيّن أنّها كانت تعاني بشكلٍ أساسيٍّ من انخفاضٍ هائل في مقاومة الجسم، تقرّر طردها أيضًا.

*

يتنقّل المتنزِّه في مركز مدينة سپا، ذهابًا وإيابًا، بين الاستشفاء الصحيّ والحرب، وبين رؤوس الأموال والمعتقدات الإيمانيَّة، اعتمادًا على المباني والمعالم التي يمرُّ بها: المنتجع، الكازينو، الكنيسة، النصب التذكاريَّة للذين قضوا في الحرب. يصعب أن تعيش تسعينات القرن العشرين هناك؛ حيث كلّ شيء يفوح بعبق الماضي.

وقفت الشقيقتان أمام واجهة محلٍ تعرض، على نحوٍ مغرٍ، أشياء عائدة للحرب العالميَّة الثانية. سترات جنود، خوذات، حقائب معدّات، مناديل مطرّزة ومزخرفة تابعة للبحريّة الأمريكيّة، علب مياه الشرب المصنوعة من الصفيح والمعدَّة لحالات الطوارئ، درّاجة قابلة للطيّ لمظلّي إنكليزي، وملصق لفتاةٍ تحملُ دمية بين ذراعيها، مرفقة بشعار يقول: «لكيلا تتجرَّع هذه الفتاة أهوال الديكتاتوريَّة، دعونا نتّحد جميعًا من أجل أمريكا المنتصرة والمزدهرة».

- «أمقتُ تلك اللغة»، قالت آنا بنبرة ندَّت من أعماق قلبها، «لم أرغب يومًا في تعلُّمها. يا لهم من شعبٍ سخيف، كلّ واحد فيهم أشدّ غباء من الآخر. هيلو بيبي... لقد جاؤوا إلينا يهزّون مؤخراتهم السمينة وتصرّفوا كما لو أنّهم يجلبون لنا الحضارة. ظنّوا أنّهم سادة العالم».

- «هم مَن حرّرونا»، ردَّت لوته بجمودٍ.

ضحكت آنا ضحكة مبحوحة وأشارت إلى الواجهة بإصبعها الذي يغلّله القفّاز.

- «يواصلون تكريم هؤلاء الحمقى كأنَّهم أبطال؛ نعم، كما ترين، بعد

سنوات كثيرة من الحرب، ليس هناك سوى الأشياء الإنكليزيّة والأمريكيّة، لا شيء ممّا له علاقة بالألمان بطبيعة الحال. قدمي تؤلمني، ألا يمكننا الجلوس في مكانٍ ما؟».

ذهبنا إلى المقهى القريب، المطلّ على «لو پوّون پيير-لو-غران». شعرت لوته بالانزعاج.

- «لستُ أفهم»، قالت بتردُّد، «لماذا تضمرين هذا الحقد نحو الأمريكان. لم يرتكبوا أيّة إساءة بحقّك».

تنهّدت آنا بنفاد الصبر.

- «لأنّهم كانوا كلابًا لئيمة. لأنّهم تجبّروا علينا. لا يجدر بك أن تنسي ما كنا قد كابدناه. ثمّ جاءنا هؤلاء الأولاد... الذين في الحقيقة، لا يساوون رصاصة، كان بوسعنا تمزيقهم إلى أشلاء لو أردنا ذلك... كلّ واحدٍ منا، كلّ جنديّ جريح كان يساوي عشرة من أمثالهم... لقد كان الأمر فظيعًا لنا...».

- «لستُ أفهم ذلك»، واصلت لوته، «لقد وضعوا نهاية لتلك الحرب».

- «كفاكِ، إنّهم صبية، لوّاكو علكة، قدموا مباشرة من قلب تكساس!».

- «لعلّهم جاؤوا من نورماندي...»، قاطعتها لوته بحدّة.

- «آه، أولئك؟ حفنة الأمريكان الذين توجب عليهم أن يقوموا بشيء ما هناك. جاؤوا في النهاية، وساهموا في كسب الحرب. الإنكليز والفرنسيون والروس... فكّري قليلًا بما قد فعلوه».

- «لكن الكثير من الأمريكان لقوا مصرعهم».

- «يا إلهي!»، قالت آنا باستهزاء وهي تتراجع على كرسيّها، «أكاد أذرفُ الدموع في الحال. ما الذي يعنيه بضع آلاف من الأمريكان أمام الملايين الذين ماتوا؟».

- «المسألة ليست مسألة أرقام».

- «أنتم الهولنديون ترون الأشياء بطريقة مختلفة. لدينا وجهة نظرنا الخاصّة. عليكم تقبّل ذلك. لقد طفحت كراهيتهم بداخلنا. كنّا قد مررنا بستّ سنوات من الحرب، واثنتي عشرة سنة من الديكتاتوريّة. ثمّ قدم أولئك الأوغاد، الذين لم يعرفوا شيئًا عن كلّ ذلك، أناس أميّون خرجوا إلينا من مزارعهم. صبية متعجرفون، مغرورون، من الغرب المتوحش، المتهافت بشراهة لاكتناز الذهب. أيّ صنفٍ من البشر هم في الحقيقة؟ لقد كانوا هناك منذ ثلاثمئة عام؛ بعد أن طردوا الهنود. هذا كلّ شيء، أليس كذلك؟ هل أنا مخطئة؟».

- «ليس هناك شعب أفضل أو أسوأ من غيره»، قالت لوته بصوتٍ راجف. «لا بُدّ أنّك أدركتِ ذلك جيّدًا، بصفتك ألمانيّة».

- «لكنّهم، بكلّ بساطة، الأغبى»، صاحت آنا. «غير متحضّرين!».

- «لديهم مثقّفون على السواء».

- «مجرّد طبقة صغيرة. انظري إلى الأغلبيّة».

- «ينطبق ذلك علينا وعليكم. إنّهم جميعًا من أصول إنكليزيّة وألمانيّة وهولنديّة وإيطاليّة...».

- «لكن الحثالة هي من ذهبت إلى هناك. انظري كيف صاروا!».

- «كانوا مهاجرين، نهشهم الفقر، بلا مستقبل في أوروبا».

- «لا بأس، لا بأس، أنتِ على حقّ...»، رفعت آنا يديها في استسلامٍ، «سئمتُ من كلّ هذا...».

كانتا جالستين، وجهًا لوجه، مثل كلبَين مسعورَين استنكفا عن العراك. نظرت لوته إلى الخارج، متجاوزة آنا؛ باتت فجأة غير قادرة على تحمُّل رؤية وجهها أكثر. كأنَّ شعورًا بالعداء، طافحًا بالغضب، لا يُطاق، قد عقد لسانها. انتقادُها الشخصيّ للأمريكان؛ مطاردة مكارثي للشيوعيّين واضطهادهم، جماعات كو كلوكس كلان[1]، حرب ڤيتنام، الطريقة التي تجري بها الانتخابات الرئاسيَّة، كل هذا تبدّل كتلوّنِ الحرباء، إلى حاجةٍ مطلقة ومقدَّسة للدفاع عنهم بالنار والسيف. لكنّها لم تقل أيَّة كلمة أخرى. تغلَّب عليها الإحباط. كوكبان مختلفان، قالت لنفسها، كوكبان مختلفان.

لم يغب عن آنا أنَّ لضراوتها تأثيرًا معاكسًا لما تريد الوصول إليه. كانت تمقت حماستها المنجرفة. وفي محاولة للتلطيف قالت:

- «أنت امرأة هولنديَّة، وهذا أمرٌ مختلف تمامًا. لا علاقة لي بأولئك الأشخاص الذين لم يعرفوا معنى الجوع. كان جنودنا يعانون من الهزال والسقم، خسروا وطنهم، ولم يعد لديهم أيّ شيء،

(١) منظمات أخوية في الولايات المتحدة الأمريكيّة، تُصنّف كإرهاب يمينيّ، تؤمن بتفوّق العرق الأبيض ومعاداة السامية والعنصرية والكاثوليكيّة والمهاجرين، تنتهج العنف في اضطهاد من يخالفونها. (المترجم)

كانوا رفاقي. قد لا تستوعبين ذلك، فأنت لم تكوني في المستشفى العسكريّ مع الجنود الألمان، في ظروفٍ يُرثى لها. لو أنَّكِ جرّبتِ ذلك، لكنتِ رأيتِ الأمر تمامًا كما أراه».

كان ذلك بمثابة الضربة القاضية؛ غير أنَّ لوته، التي كُمِّم فمها بغارةٍ استباقيَّة، كانت عاجزة عن الاحتجاج. استمرَّ الحديث، حيث تابعت آنا، بلا هوادة، مثل مدرّس يشرحُ الشيءَ نفسه مرارًا وتكرارًا، وبصبرٍ غير محدود، لتلميذٍ بطيء الفهم.

- «لكنّهم حرّروكم من ديكتاتوريَّة النازيين...»، اعترضت لوته في محاولة أخيرة.

- «ها...»، اتّكأت آنا على الطاولة وهي تضحك بسخرية، «أتظنّين حقًّا أنهم جاؤوا لإنقاذنا؟ لقد خطفوا علماءنا وعادوا بهم إلى أمريكا: كيميائيين وعلماء أحياء وباحثين في علم الذرة وخبراء عسكريّين. حتّى أعضاء الغيستابو، مثل باربي[1]، استحوذت عليهم وكالة سي آي إيه. ثمّ تقولين إنَّ عليّ أن أعدّهم محرّرين. لقد جعلوا من أدولف هتلر وقوّات إس إس خاصّته كبش الفداء؛ ولم يحاكموا جنرالات قوّات الدفاع، ذوي الرتب العسكريَّة، الذين يتحمّلون وزر موت ملايين الجنود. بل بات يُنظر إليهم كسادة نبلاء. مَن يتقن شنَّ الحرب وقيادة الجيش فهو رجل نبيل. فكّري بالقضاة الذين وقّعوا أحكام الإعدام، الذين

---

(١) كلاوس باربي: ضابط نازي عمل في صفوف قوات الغيستابو، يعد مسؤولاً عن الكثير من المذابح ضد المدنيين. (المترجم)

أرسلوا البشر إلى معسكرات الاعتقال؛ معظمهم لم يخضع لأيّة محاكمة».

- «ماذا عن آيشمان[1] إذًا؟».

- «لم يكن ذلك ليتمّ لولا ڤيزنتال[2]. فضلاً عن قاضي محاكمات نورمبيرغ، لقد كان مثاليًا، وهذا استثناء».

استمعت لوته من دون إنصاتٍ. لم تستغرب هذه الحجج. شتّت انتباهها إحساس غريب بأنّ الموقف مألوف؛ لقد سبق أن عايشته. أين سمعت كلّ هذا من قبل، الأشياء ذاتها، إنّما بشكلٍ مختلف؟ حاولت أن تصيخ السمع إلى الصوت الآخر، القابع خلف صوت آنا. عرفته بغتةً: لطالما كان والدها يشجب الأمريكان بالقدر نفسه من الشراسة. لسنوات. بدأ ذلك بعد الحرب مباشرة، كان في البداية مُستوحى من كاريزما بابا ستالين، واستمرّ، من تلقاء نفسه، حتى بعد أن زال القناع. اليانكيز!

*

التحرُّر: ليس من جيوش العدو فحسب، بل من الخوف أيضًا. للمفارقة، أصبحَ الخوف المستمرّ، ليل نهار، ملموسًا لحظةَ اختفائه. لقد

---

(١) أدولف آيشمان: أحد كبار المسؤولين في الرايخ الثالث، ضابط في قوات إس إس، تولى الترتيبات اللوجستية في الغيستابو. (المترجم)

(٢) سيمون ڤيزنتال: يهودي نمساوي نجا أكثر من مرّة من معسكرات الاعتقال، كرّس حياته بعد انتهاء الحرب لملاحقة مجرمي الحرب النازيّين ومقاضاتهم، لعب دورًا في تحديد مكان أدولف آيشمان وإلقاء القبض عليه. (المترجم)

حلّ محلّه انشراح عام، لم يدم طويلًا، لأن الخوف ظلّ يُقدِم بين وقت وآخر على محاولةٍ أخيرة.

ترحيبًا بالقوّات الكنديَّة والإنكليزيَّة التي كانت على الأغلب في طريقها مباشرةً إلى محطّة الراديو، تجمّع حشدٌ من الناس وسط هيلڤرسوم، حيث خفق العلم الهولنديّ، ذو الألوان الثلاثة، بابتهاج. على الرغم من أنَّ الجميع قد تابعوا عن كثب تقدُّم قوَّات الحلفاء وتراجعها منذ إنزال نورماندي، إلّا أنَّ بطولات الجنود تلك ظلَّت صورًا مجرَّدة؛ لذلك أراد الجميع الآن رؤيتهم واحتضانهم ومعانقتهم فرحًا. كان إرنست ولوته يقفان عند حافَّة حقل القوّة هذا، ويترقّبان الظهور الوشيك للدبابات الأولى. لكن بدلًا منها دوَّت رشقات ناريَّة من مبنى على الجانب الآخر، واخترقت البهجة السائدة. تفرَّق الحشد. سحب إرنست لوته من ذراعها إلى شارعٍ فرعيّ. كان الاستسلام قد غدا حقيقةً مطلقة، لكن هل استسلم الجميع؟ أن يُطلق عليك النار أثناء حربٍ دائرةٍ لأمرٌ محزنٌ بلا شك، بيد أنَّ الوقوع ضحيَّة لجنديٍّ خاب أمله عقب الحرب لهو مأساةٌ سخيفة وبلا معنى. قرّرا العودة إلى المنزل، وبالتالي الانسحاب من المشهد الذي عرضته كلّ دور السينما، مشهد استقبال المحرّرين والحفاوة بهم وسط أفواج النساء والصبية الضامرين الذين تسلّقوا الدبّابات؛ المحرّرين القادمين بالسجائر وألواح الشوكولاتة.

بعد بضعة أيّام، رأت لوته رتلًا من الألمان العُزّل يمرون بها؛ خفَّ انفعالُها حين تبيّنت هيئتهم الواهنة. تهكّم بهم الواقفون على الأرصفة، وتفجّرت الشتائم مثل قنابل يدويَّة بين الجنود؛ فرّغوا ما تراكم بداخلهم

من كراهية وخوف منذ خمس سنوات على رؤوس هؤلاء المهزومين. اعتراها شعورٌ غامض بالتعاطف، لكنّها لجمت أفكارها على الفور، ومارست رقابة على نفسها.

لم يعد بالإمكان كبح جماح اليهود المختبئين. أرادوا العودة إلى ديارهم، أرادوا البحث عن أفراد عائلاتهم. دفعهم الجزع المكبوت والهواجس الطافحة بالقلق للخروج إلى الحرية التي لن تشبه أبدًا، بالنسبة لأيّ أحد، تلك التي كانت قبل الحرب، لا سيّما بالنسبة لهم. تلقّوا التحذيرات: لم يُنزع السلاح من كلّ الألمان حتّى الآن، ولم يُلقَ القبض على كلّ النازيّين الهولنديّين. بضبطٍ غير عاديٍّ للنفس، مكثوا في مخابئهم طوال عشرة أيام، باستثناء روبن الذي لم يستطع تحمّل ذلك أبدًا. أراد أن يرى منزل والديه، أن يفاجئ الجيران: «كم سيسعدون لرؤيتي!». على الرغم من كلّ الحجج المضادة، انطلق على درّاجته المتهالكة، منشغلَ البال، يحدّق به الآخرون بتوجُّس.

عاد سالمًا على ما يبدو. ارتمى بصمتٍ على كرسيّ، جالسًا بلا حراك؛ تأرجحت عيناه الحائرتان خلف نظّارته. أخيرًا، تدلّى رأسه على صدره وأدركوا أنّه يبكي. لم يكن الأمر عاديًّا، بل أثار القلق، بعد أن تحلّى بالصلابة وعفَّ عن ذرف الدموع لسنواتٍ. من دون أن يرفع رأسه، روى كيف سار لمُّ الشمل. حين فتحت الجارة الباب الذي قرع جرسه، ارتعدت، وعيناها تتوهّجان بالرهبة والنفور. كانت ردّة فعلها الأولى هي المسارعة لإغلاق الباب لكنّه كان قد انسلّ إلى الداخل. دلف إلى الغرفة كما في السابق؛ وقع نظره على الكرسيّ الذي اعتاد أن يجلس عليه

ويشرب عصير الليمون أو حليب الشوكولاتة الدافئ حين كان طفلًا. لكنّها لم تَدْعُه للجلوس؛ بل ذرعت المكان مهتاجة، تصرخُ في وجهه أنها كانت مقتنعةً طوال الوقت بأنَّ العائلة بأكملها قد رُحِّلت إلى ألمانيا.

- «أمّي ما زالت على قيد الحياة. ستكون في غاية السعادة لأنَّك اعتنيتِ بأشيائها طوال تلك السنوات»، قال لها.

أشار من حوله، شارد الذهن، إلى السجاجيد الفارسيَّة واللوحات التي عهد بها والداه إليها.

- «لقد أعطاني إيَّاها والدك»، صحّحتْ كلامه بحدّة، «ما زلتُ أتذكّر ما قاله لي حينها: خذي هذه الأغراض يا ليزبث، لا نعرف ماذا نفعل بها، ليست سوى عبء يثقل كاهلنا».

حدَّق روبن في الصورة الزيتيَّة لجدّه، الذي كان ينظرُ إليه بانتقاصٍ عبر نظّارته ذات العدسة المفردة.

- «من الأفضل أن تناقشي هذا الأمر مع والدتي»، همسَ بدماثة.

- «ليس لدي ما أناقشه مع والدتك»، ردَّت بعجرفة.

ابيضّت براجمُ يديها وهي تضغط ممسكةً بحافة الطاولة. قالت باندفاع:

- «اسمع. ثمَّة أناس آخرون يعيشون في منزلكم منذ سنوات. لقد تغيَّر العالم واضطررنا جميعًا للتكيُّف معه، والآن قدمتَ إلينا، لا نعرف من أين، معتقدًا أنَّ كل شيء بقي على حاله...».

- «أنتِ على حق...»، قال روبن وهو يتوجَّه نحو الباب كأنَّه في حلم. «أنتِ على حق... سامحيني على الإزعاج...».

شيئًا فشيئًا، تفكّكت الجماعة التي ترابطت من خلال إستراتيجات البقاء المؤقتة؛ ترجّل أعضاؤها واحدًا تلو آخر عن السفينة التي قادتْها والدة لوته. حين توقّفت تلك الآليَّة التي من شأنها الحفاظ على سيرورة الأشياء، وعمَّ الصمت من حولها، تشنّج جسدُ تلك المرأة. استلقت في سريرها تتلوّى؛ في البداية، أغمضت عينيها تألُّمًا، ثمّ فتحتهما، على وسعهما، في دهشة. عشعشت رائحة مرَّة في غرفة نومها. كان لا بُدّ من تبديل ملاءات السرير المبلّلة باستمرار. استدعى طبيبُ الأسرة الإسعاف بعد أنَّ عزَّ العثور على تشخيص. يا للمفارقة الساخرة: أولئك الذين تمكّنت من إنقاذهم طوال تلك السنوات انطلقوا، بكلّ يسرٍ، على أقدامهم في ذلك الطريق المجاور للمروج، أمَّا هي، فسيحملها المسعفون على النقَّالة. في جناح الأمراض العصبيَّة، توصّلوا إلى سبب مرضها: ارتخاء مفاجئ في أعصابها التي انبعثت منها إشارات «الخطر» لفترة طويلة، من دون القدرة على توليد رد الفعل المواكب لها؛ «الهروب».

كان زوجها متوتّرًا لأسباب مختلفة تمامًا. وبّخ الإنكليز والكنديّين والأمريكان، وهاجم الحكومة الجديدة. عارض الاحتفاء بالحلفاء الغربيين وتمجيدهم في الوقت الذي التزم فيه الجميع الصمت حيال الجهود العظيمة لقوى الشرق.

- «ما كان للجبهة الغربية أيُّ أملٍ بالنصر لولا ستالينغراد، لولا الجبهة الشرقيَّة، لولا ملايين الخسائر في الجيش السوفييتي، لولا حنكة ستالين وصموده».

لم يكفّ عن المجادلة.

- «الخطر الجسيم كامن في الشرق، كان هتلر يدرك ذلك جيّدًا، كلّ الألمان كانوا يدركون ذلك. إذًا، لماذا يسكت الجميع حيال الأمر؟ لماذا تتعمّد الصحافة التغافل عنه؟».

كان كريمًا بما يكفي للإجابة على تلك الأسئلة في خطبه العصماء.

- «خوفًا من البلاشفة! ها! لأنَّ عدوهم الفعليّ ليس الفاشيَّة، بل الشيوعيَّة!».

وفي محاولة لإضافة تنبُّؤ غير حاسم قال:

- «هذا الخوف سيوحّدهم جميعًا».

منتفضًا من السخط، وضع تسجيلًا على القرص الدوّار. وحدهم الموسيقيّون العظام بوسعهم تهدئة روعه؛ بصرف النظر عن ڤاغنر الذي تعيَّن على تسجيلاته أن تقضي بقيَّة حياتها في قاع درجٍ سحيق.

٢

قبل زمنٍ طويلٍ، اعتادتا على الجلوس معًا في حوض استحمام واحدٍ، أمّا الآن، فكلّ واحدة منهما ترقد في حوضٍ منفصلٍ داخل حمّام، ألوانه تشبه ألوان الباستيل، تتفكّر في العلاقة الغريبة والمؤلمة الآخذة في التجاذب والتنابذ بينهما. كلّ يوم، تلتقيان في الممرّات الخاوية في الطريق من أحواض الخثّ إلى جلسة التدليك تحت الماء أو حمّام ثنائي أكسيد الكربون. بعد طول تأمُّل في التدفّق الذي لا يكلّ للمياه من النوافير، حدث بهما الرغبة في وقتٍ متأخر من الصباح إلى احتساء فنجان من القهوة في صالة الاستراحة. كان الولع بالقهوة، على الأقلّ، قاسمًا مشتركًا بينهما؛ ألا يمكن أن يكون ذلك متأصِّلًا في جيناتهما؟ تحت لوحة ليدا والبجعة، شربتا القهوة في رشفاتٍ صغيرة. درجت العادة أنّ تبدِّد آنا الخمول والتعب الذي يلي الاستحمام بالعودة للحديث عن «ذلك» الشيء.

*

مثلت آنا أمام البوّابة مع حقيبتها. نهاية سبتمبر، السماء تمطرُ، السّلمُ سائد. ليس لديها مَن تذهبُ إليه. هناك شخص وحيد اشتاقت إليه؛ بعد

أن عقدت العزم على الذهاب والبحث عنه، فكّرت في خطّة تتيحُ لها الاقتراب منه قدر الإمكان.

كانت المحطة الأولى في بلدة باد نويهايم بولاية هيسن، حيث التقت بإلزه. سُمح لها بالركوب في الجزء الخلفي من شاحنة نقل، محشورة بين ستين جنديًّا من قوّات الدفاع المُفرَج عنهم. تغلغلت الريح من خلال ثوبها النديّ. تشبّثت بجانبٍ من جوانب الشاحنة، مرتجفةً، وأسنانها تصطكُّ.

- «أختاه، انزلي واجلسي في الداخل، بجوار السائق»، حثّها أحد الجنود. «إذا اقترب منكِ، قولي لنا فحسب، وسنقوم بما يلزم».

طرق أحدهم على قمرة السائق وتوقّفت الشاحنة؛ شرح الجنديّ ما يريده بإنكليزيّة ركيكة.

- «أوف كورس»، أومأ الأمريكي ذو البشرة السوداء، وفتح الباب لآنا بتهذيب.

كانت القمرة دافئة ومريحة. تقاسم غداءه معها مثل أخ. تبادلا حديثًا يغلب عليه الهراء، كلٌّ على موجةٍ صوتيّة غير مألوفة.

- «إلى أين أنتِ ذاهبة؟»، سألها.

- «ليس هناك أحد أذهب إليه. زوجي مات، منزلي تعرَّض للقصف. لديّ موعد في باد نويهايم مع شخصٍ قد يساعدني في العثور على عمل».

متفاجئة من صراحتها، حدّقت في أصابعه البنيّة الطويلة التي تمسك عجلة القيادة بتراخٍ. مَن هذا؟ مَن كانت هي؟ من أين أتيا؟ إلى أين سيذهبان؟ عبد إفريقيّ سابق وصل إلى ألمانيا مرورًا بأمريكا. خادمة

سابقة من كولونيا، عائدة إلى ألمانيا عبر النمسا، أسيرة سابقة برفقة عبدٍ سابقٍ من إفريقيا نُظِرَ إليه بوصفه مغتصبًا مُحتَملًا منذ لحظاتٍ قليلةٍ. كأنَّه قد استشعر ارتباكها، راح يتضاحك بتودُّد.

في باد نويهايم، انطلقت بحثًا عن العنوان الذي أخذته من إلزه، تجرُّ حقيبتها بتثاقل. حاول متسكّعون أمريكيّون التحدّث إليها. نظروا إليها، مذهولين من تجاهلها لهم؛ فمعظم النساء لا يقاومن إغراءهم، بل يشعرن بسعادةٍ غامرةٍ وهنّ يجبن القرية في أحضانهم، ينفثن دخان السجائر. كانت مستغرقة في التأكُّد من عدم السماح لهم بالاقتراب منها لدرجةٍ لم تدرك معها أنَّها وصلت الشارع المنشود إلا بعد مرور وقتٍ طويل. أفسحت لها سيّدة المنزل المجال للدخول، بعد أن دفعت في يدها رسالةً من إلزه وكأنَّها سرٌّ من أسرار الدولة. كانت قد ذهبت بالفعل إلى منزل والديها في زاربورغ وطلبت إلى آنا اللحاق بها حين تجد لذلك سبيلًا.

- «كيف يمكنني الوصول إليها؟»، سألت آنا.

كانت بلدة زاربورغ ضمن المنطقة الفرنسيَّة؛ ولم يكن مسموحًا لغير السكّان الأصليّين الذين بحوزتهم الأوراق الرسميَّة العودة إلى تلك البلدة. آنا، على اعتبارها من ڤيينا، لم يكن لديها أدنى فرصة للقيام بذلك.

- «سنفكّر في طريقة ما»، همست المرأة قبل أن تغادر غرفة النوم الأنيقة التي خُصصت لها.

في المنزل نفسه، أقام ضابط أمريكيّ، كان محاميًا في شيكاغو. تعرَّفت عليه آنا في صباح اليوم التالي، واكتشفت أنَّ الإمبراطوريَّة الشاسعة التي

تمتدُّ من المحيط إلى المحيط، التي احتُلّت بعربة مغطّاة ووَهْق وبندقيَّة، قد أنجبت، بمحض المصادفة، مواطنًا مثقفًا، وقبل كلّ شيء، يتحدّث بلغتها الأمّ.

- «يا لفظاعة الأعمال التي ارتكبها النازيّون بحق الشعب الألمانيّ..».

- «لم يرتكبوا أيّ شيءٍ بحقّي. المدفعية الأمريكيَّة هي التي قتلت زوجي، والقنابل الأمريكيَّة هي التي دمَّرت منزلي، والأمريكان هم من أسروني»، قالت آنا بفظاظة.

مصمّمًا على عدم الاعتراف بالهزيمة، راح يطرح حججه بسعة صدرٍ كي يحملها على تغيير رأيها. في الوقت نفسه، كانت محاضراته في السياسة ودراسات الحروب شكلًا مستترًا من الإغواء؛ غير أنَّ آنا، التي لم تكن صمّاء عن النبرة الشهوانية المبطّنة للحديث، تمكّنت من صون المسافة بينهما عبر اعتراضاتها المهذّبة خلال أيّام الانتظار القسريّ. عجَّت بلدة باد نويهايم بالجنود الألمان الذين فقدوا ذراعًا أو ساقًا؛ كانوا يجلسون ضجرين على المقاعد بجانب بعضهم البعض، يحدّقون بصمتٍ في المارّة الأمريكان الذين لم يحتلّوا وطنهم فحسب، بل نساءهم أيضًا. تراءى لها مارتين بينهم؛ ذلك أنَّ رؤيتهم بتلك الهيئة اخترقت روحها في الصميم.

ذات مساء، دعاها الأمريكيّ إلى حفلة.

- «ما هي هذه الحفلة؟»، سألته.

- «حسنٌ... نأكل قليلًا، نشرب قليلًا، نمرح قليلًا...»، قال وهو يتحسّس ذقنه الحليقة.

- «وماذا بعد ذلك؟»، سألته بارتياب.

- «حسن، بعد ذلك...؟ ستقضين وقتًا ممتعًا، أنت شابّة، ولا يمكنك أن تبقي حزينة إلى الأبد».

- «لا، شكرًا لك، أعرف تمامًا على أيّ نحوٍ ستنتهي الحفلة»، قالت وهي تهزّ رأسها.

- «أنا مجرَّد رجلٍ»، قال معتذرًا.

- «وأنا مجرَّد امرأة، غير أنّ زوجي مات منذ عام. المعذرة، لكن لا يمكنك التفكير جديًّا بأنّي سأرافقك إلى حفلة...».

تلفّظت الكلمات كما لو أنَّ حبَّة لوزٍ مُرّة كالحنظلِ داخل فمها. أحنى رأسه مذعنًا. لم يكن قادرًا على مضاهاة هذا العناد، لا بوصفه جنديًّا ولا رجلًا ولا بارعًا في تنميق الكلام. في اليوم التالي، جاء القرار بنقله. تلقَّت آنا باقةً ضخمة من الورود الحمراء التي كانت دليلًا دامغًا على البذخ العابث في زمن الشحّ. كانت البطاقة المعلَّقة بين الأوراق تقول: «إلى المرأة الألمانيَّة الأولى التي قالت لا».

في غضون ذلك، أُجريت الترتيبات اللازمة من أجلها. كان متعهّد نقل من باد نويهايم، بحوزته إذنٌ يخوّله عبور حدود المنطقة، على استعداد لتهريبها إلى كوبلنتس. تقدَّم على متن عربة يجرّها حصان، واضطرَّت آنا للاستلقاء مع حقيبتها على أرضيَّة العربة التي يغطّيها القماش المشمَّع. تكدّست الأكياس المملوءة بمحتويات مجهولة فوقها، ولم يتبقّ سوى فتحة صغيرة لمرور الهواء. سمح لهم الأمريكان المتراخون بالمرور من دون تفتيش، لكن الفرنسيّين أعملوا حرابهم في الأكياس على نحوٍ عشوائيّ؛ أفلتت آنا التي كانت تستنشق رائحة القماش المشمَّع وتنتظر دونما خوف.

ربّما ما كانت لتنجو إلّا لأنّها تاقت في سرّها للموت، فيما آثرَ القدرُ الضحايا الذين يقاومون بقوّة. كان سائق العربة يتلو صلواته، يتصبّب عرقًا، كما اعترف لها لاحقًا وهو يساعدها على النزول عند محطة كوبلنتس.

لا قطارات للمغادرة في ذلك المساء. نامت جماعة من المسافرين العالقين في المحطة. وجدت آنا لنفسها مكانًا على الأرض بجوار عجوز ألقى على كتفيه المتهدّلتيْن معطفًا عسكريًّا مرّقعًا، وراح يضع فوّهة زجاجة النبيذ بين شفتيه، ثمّ يداولها بسخاء مع مَن حوله فيما يدهن الزبدة على قطعٍ من الخبز الأبيض ويوزّعها عشوائيًّا. رفضت آنا عرضَه، وما كان منه إلّا أن دفع زجاجته بين يديها بإيماءةٍ لا تقبل أيّة معارضة. «هناك المزيد»، ندّت عنه ابتسامة عريضة، بلا اكتراث، يشير إلى حقيبته بإصبعٍ راعش. لم تتردّد آنا؛ كان الطابعِ الحماسيّ الذي يحيطُ بالعجوز معديًا. أطنب الجميعُ في الإشادة بكروم العنب المعرّشة على منحدرات نهر مُوزِل، انتقلت الزجاجة من شفةٍ إلى أخرى لاختبار مذاق ما بداخلها من جديد. تمدّدت آنا على الأرض، رأسها يستندُ على حقيبتها، وغفت ببطءٍ. أفاقت على النبيذ في الصباح؛ كانت مكوّنات العشاء الاحتفاليّ في الليلة الفائتة بمثابة فطور اليوم التالي. لقد نسوا همومهم، وراحوا يغنّون، شمس الخريف مشرقة، والقطار المتّجه إلى مدينة ترير أعلن دخوله المحطّة نافثًا الدخان. استمرّت حلقةُ الاحتفال في المقصورة، والمضيفُ الأشعث يشعُّ في مركزها.

توقّف القطار في منتصف الطريق. كان هناك ضياعٌ في قضبان السكّة لمسافة بضعة كيلومترات. واصلوا السير على الأقدام، ينشدون

أغاني السفر ويشربون. تلألأ وهجُ الشمس على الأقناب الغزيرة لحشيش الدينار النامية على امتداد السكة الحديدية. كان قطار آخر بانتظارهم هناك. لا شيء بوسعه أن يعكِّر صفو المرح.

- «ما هؤلاء الناس؟ ما كلّ هذا السكر والهذر!»، تمتم القسّ الجالس بجوار النافذة.

غاضبًا، أمسك كتابه وانكبّ يتلو الصلوات ليوزانَ الفجور الذي أحاط به.

- «أترغب في رشفة؟»، قدَّمت إليه آنا الزجاجة وهي تقهقه.

نفض رأسه زامًّا شفتيه. ترجَّل الجميع في بلدة بيرنكاستل، لتبقى وحدها برفقة القسّ. انحنت من النافذة لتلوِّح للمُحسِن المكرمش الذي أسعد كلّ من كان حوله. سار مترنِّحًا على الرصيف، بانتظاره كانت زوجته التي رصدت، بنظرة صقرٍ جارح من بعيد، خواء حقيبته.

- «أين الخبز...؟ أين الزبدة؟ أين الـ...؟»، صاحت المرأة.

رفع الرجل الضئيل الواهن ذراعيه إلى السماء.

- «في الجنّة...»، قال بأنينٍ.

انطلق القطار مرَّة أخرى. تحوّلت مشاعر السعادة التي خلّفها النبيذ إلى حزنٍ. تقاطرت دموعُ العاطفة الرقيقة على زجاج النافذة السفليّة وهي تحدِّق في هيئته الآخذة بالتضاؤل. تراجعت عائدة إلى مقعدها. نظر القسّ إليها ذاهلًا، وقد أشاح بعينيه عن كتاب الصلوات. متذكِّرًا واجبه المسيحيّ، سألها بترفُّع عن سبب بكائها. قالت له إنّ اللحظات التي شعرت فيها بالسرور الغامر، منذ شهر أكتوبر في عام ١٩٤٤،

تُحصيها أصابع اليد الواحدة. فضلًا عن أنَّها هذه المرة لم تكن سعادة مفعمة باللامبالاة كما الماضي، بل سعادة متجذّرة في عمق اليأس. كان يألفُ هذا النوع من المفارقات؛ شأنها شأن المعاناة في سبيل الخلاص مثلًا، فأومأ برأسه.

خيَّم الظلام قبل بلوغ ترير.

– «ألديكِ مكان لقضاء الليلة؟»، سألها بنبرةٍ رسميَّة.

– «المحطّة»، ردّت باقتضاب.

رمقها باستهجان.

– «لماذا برأيك أبدو على هذه الهيئة؟»، قالت مشيرة إلى زيِّها القذر.

ظلَّ صامتًا، مستغرقًا في التفكير.

– «يمكنني أن أصطحبك إلى دير الراهبات، هل تأتين معي؟».

– «يا إلهي!»، صاحت، «أما زالت هذه الأشياء موجودة؟».

– «بكل تأكيد».

– «في هذه الأيّام؟».

– «نعم»، قال مُكدّرًا.

– «بالطبع سآتي معك».

حين وصلا إلى ترير، كانت في طور التعافي من الخُمار. ترجّلت من القطار، منهوكة القوى.

– «اتبعيني»، قال الأب بلهجة صارمة.

سار مسرعًا في المدينة المعتمة. جرَّت الحقيبة الثقيلة مثل كلب

موثوق بزمامٍ يتخطّى الحصى الوعرة خلفها. كان يتقدّمها بعشر خطوات من دون أن يتلفّت حوله، كي ينأى بنفسه عن أيّة تهمة. تراءى لها أنّ دافعه ليس الالتزام بالإحسان المسيحيّ، بل رغبة في صون مكانه الخاصّ في الجنّة: «بما أنّكم فَعَلْتُمُوه بأحد إخوتي هؤلاء الأصَاغِرِ، فَبِي فعلْتُم»[1]. لاهثةً، تبعت الرداء الأسود مرورًا بواجهات المباني المظلمة. كلّ خطوةٍ للأمام خطوةٌ بالزمن إلى الوراء، وصولًا إلى عهد الرومانيّين، إلى بوّابة بورتا نيغرا التي علت فوقها مهدّدةً، بضخامتها الكئيبة. استدار مبعوث الكنيسة يمينًا وتوقّف عند بابٍ خشبيٍّ ثقيل به مسامير حديديّة. طرق، وتمتم بثلاث كلمات، ثمّ اختفى دونما مصافحة ودونما وداع؛ لم ينضحْ خادمُ الربّ هذا بأيّة قطرةٍ من الإنسانيّة.

كانت نظرة خادمات الربّ لحقيقة كونهنّ مُختاراتٍ مغايرة تمامًا. كمّمن أفواههن بأيديهنّ حين رأينها، وبدأن على الفور وضع الأمور في نصابها. مُلِئ حوض الاستحمام بالماء الدافئ ونزعن عنها الثياب القذرة؛ وبينما كانت في الحمام، امتلأ الدير بأصداء الصلوات الليليّة. لُفَّت بمنشفة طاهرة وأُخذت إلى غرفة ضيوف حيث انسلَّت بين الملاءات الناعمة النظيفة وغفت على مرأى البسمة السماويّة للراهبة الماثلة أمامها. حين استيقظت، وجدت زيّ الممرّضة المخطّط، بلونه الرمادي الفاتح، على الطاولة، زاهيًا تحت شمس الصباح؛ بعد غسيلٍ وكيٍّ وطيّ.

وصلت إلى زاربورغ كممرِّضة في الصليب الأحمر لا ينقصها شيء. أعادت القصّة تكرار نفسها. كانت إلزه قد غادرت مرّة أخرى، للبحث

---

(١) إنجيل متى ٢٥:٤٠.

عن خطيبها الذي ما زال رهن الاحتجاز، تحثُّها البوادر الكئيبة للشتاء الوشيك على الإسراع. لم يتناقص العمل الموكل إلى آنا؛ لقد انتظرتها مهامّ رتيبة وبغيضة بصبرٍ طوالَ ذلك الوقت. انتقامًا من خمس سنوات التهمتها الحرب، عبرَ اللوكسمبورغيّون الحدودَ وصبّوا غضبهم عبر سلسلةٍ من الهجمات الخاطفة على ممتلكات القرويّين. لُطِّخت الجدران والنوافذ في المنزل ذي الهيكل الخشبيّ لعائلة إلزه بالفضلات والقاذورات. نزعوا المفارش والملاءات الكتّانيَّة المكدّسة في الخزائن ولوَّثوها؛ لقد افترشوها، وفرّغوا غليل الثأر أمام عينيها، أخبرتها المرأة، التي تشنّج فمها من الغضب المكبوت.

- «كان كلّ ذلك انتقامًا، كما تعلمين. هؤلاء اللوكسمبورغيّون شعبٌ مقزّز!».

كانت المرأة عليلة لدرجة العجز عن القيام بأعمال التنظيف الهائلة بنفسها، فيما أمضى زوجها أيامًا بأكملها في المنشرة.

شمَّرت آنا عن ساعديها وبدأت. لقد هربت من حظائر الخنازير منذ عشر سنوات، لكنّها عادت الآن إليها؛ ما الذي يهمُّ؟ حين عرضت عليها شاحنة المنشرة التوصيل إلى مكانٍ قريب من وجهتها المنشودة، ألقت المسحة والفرشاة في الزاوية، لقد سئمت من حركات اللفّ والدوران. لم تستطع والدةُ إلزه، التي كانت تعرف ما الذي أتى بعاملة التنظيف الدؤوبة إلى هذه إلى المنطقة، الوقوف في طريقها. غادرت الشاحنة البلدة في غمرة رذاذٍ كثيف، متوجّهة إلى بلدة دَاون في جبال آيفل. أكملت طريقها سيرًا على الأقدام، عبر غابات الصنوبر اللانهائيَّة

التي تاهت في ضباب القطرات الرقيقة. كان الجو باردًا، تغلغلت الرطوبة عبر نعليها، لكن إدراكها بأنّها، مع كلّ خطوة، تقتربُ من وجهتها جعلها غير مبالية بالمشقَّة. هذا الطريق المُقفر، الذي يتناوب فيه الصعود الوئيد مع الانحدار بين أشجار الصنوبر الكئيبة هو بالضبط ما يمكنُ أن يتوقّعه المرء في مسار حجٍّ يقودُ إلى العالم السفليّ. لم تكن خائفة. لاحت بشائر انتهاء الرحلة ولن يكون ثمَّة ما تتمنّاه فيما بعد، فيما بعد... ليس هناك فيما بعد. زحف البردُ حتى خصرها، وتباطأت في سيرها، تدلّى نعل حذائها المتآكل وراح يخفق مع كلّ خطوة. كلُّ ما كان بوسعها أن تراه هو الجذوع السوداء اللامعة والأغصان المتساقطة؛ ألحّت روحُها بعنادٍ مع أنَّ جسدها أبدى علامات متزايدة لانطفاء الرغبة. وفي لحظةٍ ما، ضاق ذرعًا بالمشاهدة وقرّر التدخُّل. اسمعي يا عزيزتي، قال بشفقة، عليك أن تعودي إلى المنزل. ماذا تريدين؟ إلى أين أنتِ ذاهبة؟ لن تجديني هناك على الإطلاق... حاول إقناعها بذلك، تجاهلتْه في البداية ولكنّها استسلمت حين هيّأ لها -بشهامته المعتادة- سيّارة خارجة من الضباب. لقد غلبْتَني اليومَ، اعترفتْ له، لكنّني سأردُّ الصاع... في اللحظة الملائمة...

عادت إلى زاربورغ وواصلت أعمال التنظيف. لم يتوقف التذمر من اللوكسمبورغيّين، بل طاردها من غرفةٍ إلى أخرى، مثل مثقاب شحذه الانتقام، وقد وصل صوته إلى مسامع السيّدة العجوز التي تشغل بعض الغرف في الجزء الخلفيّ من المنزل.

- «كيف تتحمّلين كلَّ هذا؟ بالتأكيد لن تبقي هنا إلى الأبد، تفعلين هذه الأشياء»، قالت وهي تراقب آنا المنهمكة في التنظيف.

- «ماذا تريدين مني أن أفعل إذًا؟»، قالت آنا بتبرُّم. «أنا أنتظر قدوم إلزه فحسب».

- «يا إلهي، ستنتظرين وقتًا طويلًا. لا أحد يعلم متى تعثر على مَن يساعدها. على كلّ حال، اسمعي، لدي اقتراح من أجلك. لدي واحدة من معارفي في ترير، معلّمة مدرسة ثانويَّة متقاعدة. إنَّها تبحث عمّن تتولّى تدبير شؤون منزلها... لكنها لا تريد أيّ شخصٍ، هل فهمتِ؟ قد تكون الفرصة مناسبة لكِ».

أومأت آنا برأسها على مهلٍ؛ كانت حياتُها، في نهاية المطاف، قائمة على الارتجال.

في ترير، تعرَّفت على شارع كايزرشتراسه الذي اجتازته في رحلتها الليليَّة في أعقاب القسّ، وهناك تعرَّفت، أيضًا، على واحدة من الأشخاص المذهلين، الطافحين بالتناقضات العويصة: تيريز شميت، وهي امرأة نحيلة، ناتئة العظام، شعرها الأشيب مُثبّت بمشبك، يغلب عليها طابعُ البخل في المناحي الماديَّة لكنَّها معطاءة وخدومة في المناحي الفكريَّة. لم يبدُ عليها أنَّها اعتادت الذهاب كلّ يوم إلى مزرعة شقيقها الواقعة خارج البلدة لتحشو جوفها بالخبز واللحم ومنتجات الألبان ومشتقّاتها. كانت تتحدّث عن ذلك دونما خجل. لم يخطر ببالها أبدًا أن تحضر معها شيئًا لآنا التي حاولت البقاء على قيد الحياة بتناول شريحتين من الخبز يوميًا وبعض البطاطس وفنجانًا من رسابة القهوة السوداء؛ تقنين في الحصص الغذائيَّة فرضه الفرنسيُّون ردًّا على الجوع الذي كابدوه. كان من العسير التوفيق بين تقتير السيّدة شميت الصارم

وزياراتها اليوميَّة للكنيسة وانكبابها على الكتاب المقدَّس ومواظبة الصلاة؛ لم يسبق أن واجهت آنا، بهذه الدرجة من القرب، نزعةً دينيّة متعصّبة على هذا النحو. عجّ المنزل بأكوام الكتب، فعاودتها الشهيَّة القديمة للقراءة بين مهامها المنزليَّة. دُهشت المعلِّمة حين عادت من زيارتها اليوميَّة ووجدتها تقرأ، فتناولت كرسيًّا ودنت إليها.

- «ليس قدرُكِ أن تبقي طوال حياتك بين الموقد وحوض المطبخ، سرعان ما لاحظتُ ذلك منذ البداية... ما الذي ترغبين في فعله حقًّا؟».

- «ليس لديّ أدنى فكرة...»، تلعثمت آنا، مغمورةً بالاهتمام المفاجئ.

لم تكن خططها المستقبليَّة تمتدّ إلى ما هو أبعد من إتمام تلك المهمَّة الوحيدة.

- «أليس هنالك شيءٌ لطالما أردتِ تحقيقه؟».

تجهّمت آنا. انزلق دانتي من حجرها، لكن يد السيّدة شميت النحيلة تداركت سقوطه. كانت فكرة امتلاك الحريَّة في انتقاء مهنةٍ لها ثوريَّةً على نحوٍ شلَّ قدرتها على التفكير. عليها أن تتخلَّى عن الصورة التي رسمتها للعالم، حيث تنقسم النساء إلى ثلاث فئات متباينة: طبقة دنيا واسعة تضمُّ المُزارعات والخادمات، طبقة عليا صغيرة من النساء المحظيَّات، اللواتي يؤدّين الوظيفة المزخرفة المتمثّلة بكونهنّ زوجات متعلِّمات وأنيقات، أمَّا الفئة المتبقية فتضمُّ النساء غير المتزوّجات اللواتي يعملن في التعليم والتمريض والأديرة. لا تختار الواحدة ما يحلو لها؛ بل

كان شيئًا يُقحَمن فيه؛ حسب الولادة والظروف. كرّرت السيّدة شميت سؤالها البريء.

- «حسنٌ...»، تنهّدت آنا.

أحسَّت بخفّةٍ في رأسها، لا تدري إن كان سببها الجوع أم الاستجواب الشائك. تسابقت أفكارها في استعادةٍ فوضويّة للماضي، باحثة عن نماذج لأشخاصٍ يمكنها التماهي معهم، عن شخصٍ يوشوش لها بالإجابة؛ وجدتْ نفسها في غرفةٍ صغيرة مظلمة، خانقة، تعبق برائحة الأقدام المتعرِّقة وعلى الحائط صورة جنديٍّ ميت، وُلد ليموت دفاعًا عن وطنه (المغزى الجليّ والحتمي للحياة من جديد). أمامها تقف امرأة، تغلق الباب بإحكامٍ متكئة عليه بظهرها، تفتحُ ذراعيها بمودَّة وتقول: تعالي إليَّ...

- «رعاية الأطفال... أعتقد أنّ هذا ما كنتُ أرغب دائمًا في القيام به»، قالت آنا من دون تفكير.

- «طيّب... لماذا لم تفعلي ذلك إذًا؟».

- «لأنَّه كان من قبيل المستحيل... كان عليَّ الحصول على الشهادة الثانويَّة العامة أوّلًا...»، قالت آنا بصوتٍ أجشّ.

ضحكت السيّدة شميت قائلة:

- «أهذا كلّ ما في الأمر!».

نقّبت في ماضيها بسلك التعليم بحثًا عن معلِّم مستعدٍ لتجشّم عناء إعدادها لامتحان الدولة. انضمّت آنا إلى امرأةٍ أخرى كانت تحضر دروسه أيضًا. منذ ذلك الحين فصاعدًا، كانت تسير إلى منزله بعد ظهر

كلّ يوم، عبر شوارع عمرُها قرونٌ منصرمة، بين أكوام الحطام والناس الذين ينهارون من جرَّاء الجوع، تنتعلُ حذاء مطاطيًّا باليًا فوق حذاءٍ بالٍ آخر.

- «اسمعي، لستِ بحاجة لفهم أيّ شيء. كلّ ما عليكِ فعله في الامتحان هو تدوين الإجابات الدقيقة. عليك أن تحفظيها عن ظهر قلب»، شدّد المعلّم.

فيما مضى، اندهش الجميعُ بذاكرتها القويَّة حين تلت قصيدة «أغنية الجرس» بجانب والدها الفخور. أمَّا الآن، فكان المعلّم يلهثُ أنفاسه أمام السرعة التي نفّذت بها نصيحته. لقّنها، على عجلٍ، دروس النحو وأساسيَّات الرياضيَّات، وعرج بها إلى التاريخ والجغرافيا والأدب الألمانيّ. بعد أسبوعين قال:

- «أحسبُ أنَّ لدي خيلَيْن غير متكافئَين في القوّة. أنتِ تركضين قدمًا مثل سهمٍ خاطفٍ والأخرى لا تستطيع اللحاق بكِ. ينبغي أن أفصل بينكما».

كان رأسها فارغًا؛ لقد أخفتِ الحربَ في قعر صندوقٍ سحيقٍ وضيّعت مفتاحه عمدًا. هناك حيّزٌ واسع لكمٍّ مذهل من المعلومات المستساغة في حيادها، بوصفها قيمًا ثقافيّة. أُتخمت حتى كاد يغمى عليها في بعض الأحيان.

- «هل تشعرين بالدوار؟»، سألها المعلّم.

- «نعم...»، قالت بتشوُّش.

- «ماذا أكلتِ اليوم؟».

- «حبتين من البطاطس...».

- «يا إلهي، لماذا لم تقولي ذلك منذ البداية!».

أعدَّ لها طبقًا من عصيدة الشوفان.

- «لا تقلقي، فأنا أحصل على طرود غذائيَّة من المنطقة الإنكليزيَّة».

في كلّ يوم، كان الدرس يبدأ بطبق من العصيدة: الجسد أولًا، ثم العقل، هذه كانت رؤيته. كما لاحظ التلف المفرط للجرموق الذي تنتعله. لم يخطر ببال ربّة عملها أبدًا، على الرغم من امتلاكها عشرات الأحذية من المقاس نفسه، أن تعطيها زوجًا منها. قايض المعلّم بزجاجتين من الجِن حذاءً جلديًّا متينًا. عند عودتها إلى المنزل، كانت في غاية السرور وهي تُري سيّدتها الحذاء. رفعت السيّدة شميت حاجبيها من دون اهتمامٍ وقالت: «إذًا؟...».

عشيَّة عيد الميلاد، ذهبت إلى أخيها، كعادتها، كي تتذوّق طعام الاحتفال قبل أيّ أحد. قالت قبل مغادرتها إنَّها تريد أن يكون الحمّام جاهزًا حين تعود؛ كان لزامًا عليها تطهير جسدها قبل أن يأتي دور روحها في قدّاس منتصف الليل. توجّب على آنا أن تحضّر كلّ شيء بما في ذلك تسخين المياه في مرجلٍ كبير على موقد الفحم الموجود في المطبخ. كان الظلام قد خيَّم فعلًا حين رنَّ الجرس على نحوٍ غير مُتوقَّع. عند عتبة الباب، وقفت امرأة، تحمل طفلًا يبكي، مدثّرًا بخِرَقٍ، توشك أن تنهار من الإرهاق. سارعت آنا لمساندتها وأرشدتها نحو المطبخ. أخذت الطفل الذي تبيّنت، من رائحته، أنَّ ملابسه لم تُبدَّل منذ أسابيع. من طرف عينيها، لمحت المرجل الذي يتصاعد منه البخار وحوض

الاستحمام؛ كان كلُّ شيءٍ مُعدًّا من أجل السيّدة. من دون تفكير في الأمر، ملأت الحوض ونزعت ثياب الطفل، وألقت تلك الخرق النتنة في الممرّ. بعد أن حمّمت الطفل، لفتّه بمنشفة من قماش الفانيلّة. في غضون ذلك، قدَّمت للأم خبزًا بالزبدة وبطاطس مسلوقة وفنجانًا من القهوة السوداء. من دون التفوّه بكلمة واحدة، جرى كلُّ شيء في سلسلة متسارعة من الأفعال البديهيَّة؛ إلّا أنَّ شبح السيّدة شميت، التي يمكن أن تعود إلى المنزل في أيّة لحظة، ظلَّ تهديدًا مستمرًّا. والآن؟ تساءلت آنا على نحوٍ محمومٍ، إلى أين ستذهب الأم وطفلها؟ إلى الدير! إلى الراهبات، ملائكة الرحمة! ارتدت معطفًا واصطحبت المرأة وطفلها إلى الراهبات الأورسلينيات اللواتي سارعن للاستقبال برحابة. في طريق العودة، اعتراها شعورٌ هانيء، مبعثه المصادفة التي لَمَّت شمل الأحداث: إنَّها ليلة عيد الميلاد وليس هناك موضع في المنزل! فوق أكوام الأنقاض في ترير، كانت السماء ملأى بالنجوم، راحت تمشي تحتها، منتعلة حذاءها الجديد. كلُّ شيءٍ في اتّزان؛ إنَّما لبرهةٍ قصيرة.

وصلت إلى المنزل بالتزامن مع سيّدتها. استشاط غضبُ المعلِّمة حين وجدت بانتظارها، بدلًا من الحمّام الدافئ، حوضًا طافحًا بالمياه القذرة. رفعت ذراعيها، في وضعيَّة خرقاء، وانهالت بسيل الاتّهامات والإهانات على آنا.

- «ثوانٍ فحسب...»، قاطعتها آنا، «سأضع على الفور مرجل ماء على الموقد، سأنظّف كلّ شيء، ثوانٍ فحسب ويكون كلّ شيء جاهزًا».

لم تستعد السيّدة شميت هدوءها إلّا بعد أن عاد الترتيب وتطابقت صورة المطبخ مع تلك التي تخيّلتها أثناء عودتها إلى المنزل، بوجهٍ متورّد وبطنٍ مُتخم بعد الوجبة.

خلال قدّاس منتصف الليل، جلست على المقعد الخشبيّ الطويل، تفوح منها رائحة الصابون والنشاء، ترتّلُ وتبتهج وتصلّي بورَعٍ. بالصوت نفسه الذي أجادت كيل الإهانات به، كانت تهتفُ ملء حنجرتها مثل ملاك من ملائكة الرب. راقبتها آنا برزانة. في طريق الإياب، قالت السيّدة شميت:

- «ما زلتُ لا أفهم كيف سمحتِ لمرأة وطفلٍ بتلك القذارة أن يدخلا إلى منزلي».

توقّفت آنا وحدّقت مباشرةً في عينيها، وبأعصابٍ هادئة، اقتبست ممّا تلاه الكاهن قبل لحظاتٍ وجيزة: «فولدتِ ابنها البِكْرَ وقمَّطتْه وأضجعتْه في المِذْوَد... إذ لم يكن لهما موضعٌ في المنزل[1]...».

- «أتحاولين التنصُّل من الموضوع بالحيلة...؟»، قالت المعلِّمة وهي تمشي بخطوات جلفة.

مع ذلك، تلقَّت آنا هديَّة عيد الميلاد. لم تكن جوارب دافئة أو سترة أو لحمًا أو حليبًا، بل كتاب صلواتٍ باللاتينيَّة؛ يضمُّ الأسرار المقدَّسة والدروس وترنيمة غرادوال. في تلميحٍ صامتٍ لآنا بأنّ أمامها الكثير لتتعلّمه فيما يخصّ الديانة المسيحيَّة.

---

(١) إنجيل لوقا ٢:٧.

تجلَّى إيثار السيّدة شميت أكثر ما تجلَّى في المجال التعليميّ. تطلّب منها العثور على مؤسسة أكاديميّة تدرّب المختصّين الاجتماعيّين الكثير من الجهد. أُغلقت كلّ كليّات التدريب التي أسّسها النازيّون، ولم ينجُ سوى معهد كاثوليكيّ موثوق في نوردراين-ڤستفالن. استجابت مديرته على الفور لخطاب التوصية المكتوب ببراعة: ستزور معهد اللاهوت بمدينة ترير في شهر مارس، وستنتهز حينها الفرصة لتقيّم، بنفسها، ربيبة السيّدة شميت.

اتّقاءً للغبار الذي تطاير من أكوام الأنقاض، ارتدت آنا وشاحًا للرأس راح يرفرف مع هبّات النسيم. كلّما اقتربت من معهد اللاهوت، استحوذ عليها توتّر الامتحان بوطأةٍ أشدّ. لم تحاول المديرة، التي غلبت عليها طباع العجرفة والفظاظة، أن تخفّف من حدّة قلقها، بل راحت تستجوبها.

- «لماذا تودّين أن تكوني مختصّة بالرعاية الاجتماعيّة؟»، سألتها بنبرةٍ ساخرة، كما لو أنّها لم تسمع من قبل بهذه الفكرة المتغطرسة والصفيقة.

- «أريد أن أساعد الناس»، قالت بصوتٍ خافت.

- «لماذا؟».

- «لأنّني أريد أن أساعد الناس!»، كرّرت آنا، بصوتٍ أعلى، متغافلة عن كلّ اعتبارٍ وأدب.

ساد صمتٌ مضطرب. لقد أفسدتُ كلّ شيء، فكّرتْ آنا، لقد فعلت ذلك بلمح البصر. ولكن، لماذا تعاملني كما يُعامَل الكلب؟ غير

أنَّ المرء يربّت على رأس الكلب ويقول له: يا لك من كلبٍ طيّب. أخيرًا، كسرت الصمت، يعتريها الندم:

- «أنا نفسي كنت بحاجة للمساعدة حين كنتُ طفلة».

عاد الصمتُ ذاته مرَّة أخرى، وكان مصيرها معلّقًا بنظرتها الثاقبة، الطافحة بالازدراء.

- «يمكنك الذهاب»، قالت المرأة بغتةً.

عادت آنا إلى المنزل مغتمّة. اندفعت السيّدة شميت نحوها.

- «كيف سارت الأمور؟».

- «من الأفضل أن أنسى الأمر. لن يجدي نفعًا».

تنشَّقت المعلِّمة غير مُصدِّقة. كان لديها طرقها الخاصّة للحصول على المعلومات الموضوعيَّة؛ فبعد بضعة أيَّام، أعلنت مزهوّة بالانتصار:

- «لقد تركتِ أثرًا عميقًا فيها. أضعف الإيمان أنَّها تعرف ما تريد، هذا ما قالته لرئيس الدير».

التفتت آنا بسأمٍ. لم تكن تريد أن تسمع أيّ شيء عن الأمر، وظنّت أنَّ المعلِّمة تلفّق ذلك. لكنّ مكتب البريد دعّم مزاعم السيّدة. وصلت برقيَّة متداعية لفرط ما تلقّفتها الأيدي، جاء فيها: «بداية الفصل الدراسيّ الأول: ١ سبتمبر».

وداعًا للسيّدة شميت، أيّتها المعلِّمة! كان عليها أن تحاول مرّة ثانية قبل أن تنطلق إلى شمال الراين فستفالن. هذه المرَّة كانت ترتدي حذاءً متينًا، والشمس مشرقة، وأوصلتها شاحنة صغيرة تابعة لمكتب البريد

إلى مركز القرية. ترجّلت، وأرشدها القرويّون إلى الطريق. بحفنةٍ من الزهور التي اقتطفتها في طريقها، دفعت بوابّة مزيّنة بالحديد المشغول ندَّ عنها الصرير. كان ثمَّة ممرّ، كما في الكنيسة، وصفوف من القبور على كلا جانبيه. القبور الأقدم في المقدِّمة: أسماء أشخاص من سكّان المقاطعة، غزتها الطحالب، وتآكلت بالمطر والصقيع، محفورةٌ على شواهد الأضرحة المتصدِّعة والمائلة. تتوزع بينها شجيرات الطقسوس المقلَّمة والصنوبريّات، ويكتنفُ المكان غيابٌ تامٌّ للضوضاء، لا يخترقه سوى تغريد الطيور. مع الابتعاد نحو الخلف، تصطفُّ القبور الأحدث. برز أحدها بوضوحٍ عن البقيَّة، بشكله المربّع لا المُستطيل، وانتصبت فوقه ثلاثة صلبان خشبيَّة زهيدة، كأنَّها تستجدي التعاضد من بعضها البعض. حالما مشت في ذلك الاتجاه، مدفوعة بالحدس، غمرها خوفٌ مفاجئ وغير عقلانيّ: خوف من أن يكون على حقّ بعد كلِّ شيء، من أنّه في أيّ مكانٍ آخر ما عدا هذه البقعة... حينها، سيخرُّ ضاحكًا من سذاجتها، أنّى كان تائهًا في رحاب الجهات. بيد أنَّه لا مفرّ: فمنذ إخلاء سبيلها من معسكر الأسرى الأمريكي، كانت تشقُّ طريقها نحو هذين المترين المربّعَين، الباعثين على الشفقة. وهكذا اقتربت بتهيُّب، خطوةً إثر خطوة، من خيبة أملها. كلّ صليب يحمل اسمًا محفورًا بأحرفٍ مسماريَّة؛ الصليبُ الأوسطُ يحملُ اسمه. كانت الأرض تحتَه مغطّاة بأغصان أشجار دائمة الخضرة، تكلّل ذراها ورودٌ بيضاء. ممّن؟ ممّن هذه الورود؟ جثت على ركبتيها، ووضعت حفنة أزهارها البريَّة هناك، وحدَّقت باسمه لعلَّ شيئًا من وجوده يتجلَّى، لكن الشيء الوحيد الذي استطاعت أن تراه أمامها هو جنديّ مسفوع لوَّح لها مودّعًا في محطَّة نورمبيرغ: «...

سينتهي هذا الهراء اللعين قريبًا...». إن كان يعيشُ في مكانٍ ما، فهذا المكان في داخلها، ليس ثمَّة مكان على وجه الأرض بدا ذلك فيه يقينيًّا كما بدا هنا...

- «ماذا تفعلين عند قبري؟»، تردَّد الصوت الأنثويّ الآتي من الخلف، مجتازًا الصمت.

تيبّست آنا. قالت بلطفٍ من دون أن تستدير:

- «إن كان هناك شخص في العالم، يقول إنّ هذا القبر له، فهو أنا. زوجي يرقد هنا».

تعالى صفيرُ شحرورٍ طائش من إحدى الشجيرات؛ تخلّلته تنهّدات مكتومة. استدارت آنا. كانت امرأة شابّة، متورّمة العينين، تحدِّق بها. ظلَّ القبر، شأنه شأن كلّ القبور الأخرى في العالم، صامتًا على نحوٍ يُضرب فيه المَثَل، سرعان ما تنامت الريبة داخل آنا، وبلغت حدًّا كان التفكير به مروِّعًا. هناك جنديّان آخران يرقدان هنا، طمأنتْ نفسها.

- «لا بُدّ أنّك السيّدة غروزالي؟»، قالت الفتاة بكلماتٍ متداخلة.

- «نعم، نعم... أنا السيّدة غروزالي، ولكن ما علاقتك بزوجي...؟»، قالت آنا بجفاء.

رنتِ الأخرى إلى السماء كأنّها ترتقبُ إشارة. لم تستطع آنا التفكير في قول شيءٍ يضع الأمور في نصابها الصحيح. تلاقت نظراتها بشكلٍ عابرٍ.

- «سأشرح لكِ»، قالت الفتاة.

حكّت ذقنها.

- «أقام عند جيراننا. تعرّفنا عليه من خلال السياج، أنا وأمي... أحسسنا بتعاطفه على الفور... كلتانا...».

على هذا النحو، روت قصّتها بخجلٍ. من خلال هذه الفتاة، التي كانت آخر أنثى رآها قبل وفاته، حاول مارتين أن يتواصل مع آنا بطريقةٍ غير تقليديَّة؛ من خلالها، أخبر زوجته تفاصيل ما جرى. في هذه اللحظة فحسب، أصبح موته المُجرَّد -«المهات البطوليّ لزوجكم»- حادثًا كابده مارتين، في وقتٍ ومكان مُحدّدَين. في لحظة ما، كان ما يزال على قيد الحياة، يرى، يسمع، يشمّ، يتحدّث ويضحك، وفي اللحظة التالية، جُمع رفات جسده المتناثر. بصوتٍ خافت، استحضرت الفتاة أحداث ذلك اليوم، في سبتمبر من عام ١٩٤٤. أُغلق المكتب الذي تعمل فيه ببلدة بروم، لأنَّ المقاطعة بأسرها باتت خطَّ نارٍ أماميّ وتوقّفت حركة المرور وأُرغمت على المكوث في المنزل. كانت جالسة على المقعد في الحديقة، حين لوَّح لها ضابط وأعلن أنَّه تلقّى أمرًا بالسير مع جنوده إلى الحائط الغربي للاستيلاء على مخبأ مملوء بمعدّات الإشارة. وثبت عن المقعد قائلة:

- «هل يمكن أن أذهب معك إلى بروم؟»، سألت باندفاعٍ عفويّ. «نسيتُ كيسًا من أغراضي في المكتب».

هزَّ رأسه.

- «الطرق غير آمنة، الأمريكان يطلقون النار علينا من كلّ حدبٍ وصوب».

لكنَّه استسلم حين ألحّت وتوسّلت أن يقلّها معه.

- «حسنٌ، طالما أنك مصرّة على ذلك».

انطلقوا؛ سارت الشاحنة في طريقٍ وسطَ الغابة. بين الحين والآخر، دوّى انفجار في الأنحاء، اهتزَّت معه أوراق الأشجار وحبَّات التوت في الهواء، ثمّ ساد الهدوء مرَّة أخرى.

- «يا إلهي»، صرخت فجأة في حالة من الذعر، «لقد نسيتُ المفتاح!».

- «لن تحتاجي المفتاح على أيّ حال، سوف ترين كيف بات الحال هناك، حتّى النوافذ لم تعد موجودة، ستدخلين عبر التسلّق»، قال مارتين محاولًا التقليل من أهميَّة المشكلة.

- «هذا ممكن، لكنّي أفضّل أن آتي به»، ردَّت بعناد.

استعدَّت للنزول، أوقفها قائلًا:

- «العودة بمفردك الآن محفوفة بالمخاطر».

لكنَّ عزيمتها ما كانت لتنثني. حملها إيمانُها الرَّاسخ بأنَّه لا غنى عن المفتاح، مهما حدث، على العودة مباشرةً. ودّعتْهم وترجّلت وسارت في الطريق من حيثُ جاؤوا.

عاد فنيّو الإشارة إلى القرية بعد الظهر. ثلاثة منهم ملفوفون بقماشٍ مثل المومياوات، والستّة الآخرون لم يُصابوا بأذى. احتشد القرويّون، بينهم وقفت الفتاة يخامرها يأسٌ حائر، وسألت الناجين، بنبرةٍ اعتذاريَّة، عن تفسيرٍ لما جرى، من دون أن يساورها الشكّ بأنَّ إحساسًا بالذنب يطبقُ بثقله عليهم. أدلى أحدهم بشهادته، منكّسًا رأسه. كانت الشاحنة تقترب من قرية فيها جلس مارتين في المقدّمة -كما كانت تعلم- بين السائق وجنديّ. نادى الآخرون من الخلف قائلين: «توقف للحظة،

نريد أن نقطف بعض التفّاح». ثمّة بستان ممتدّ على منحدر، حبّات التفاح الحمراء تتلألأ على نحوٍ جذّاب تحت الشمس. قال مارتين: «لا يمكننا التوقّف، إن توقّفنا، سنغدو فريسة سائغة في قبضة الأمريكان». تذمّر الرجال بحزنٍ: «دقيقة فحسب». لكنَّه رضخ لمشيئتهم: «أسرعوا إذًا!». قفز ستّة جنود من الشاحنة وركضوا إلى البستان مثل أطفالٍ مشاكسين. لقد نسوا الحرب، وراحوا يهزُّون الأغصان ويجمعون التفاح إلى أن جفلوا فجأةً من الانفجار الذي دوّى عن بعد. كانت مقصورة الشاحنة، والرّكاب الثلاثة بداخلها، تحترقُ للتوّ بنيران القذيفة، أمام أعينهم.

استمعت إليه الفتاة، معقودة اللسان، تحدِّق في الصُرر الثلاث بهيئتها المبتذلة، وأمامها الرجال الذين جلست بينهم، مثل إخوةٍ، قبل ساعاتٍ قليلة. في تلك الأثناء، جُمعت أمتعة الرجال؛ في حقيبة مارتين، كان هناك، بين الكتب، زوج من أحذية الأطفال بلون أزرق باهت وجزدان سهرة فضيّ. لم تتضح فداحة الكارثة لها إلّا بعد أن رأت ممتلكاته الشخصيَّة. أدارت ظهرها للمشهد، وسيل الدموع ينهمرُ من عينيها. وفي غمرة الفوضى، انتهز أحدهم الفرصة السانحة؛ حين عادت إلى رشدها، واستدارت مرَّة أخرى، لم يكن لزوج الأحذية وجزدان السهرة أيُّ أثرٍ باقٍ.

أومأت آنا ببطءٍ. «المهات البطوليّ لزوجكم...». لقد قُتِل من أجل حفنةٍ من التفاح. كأنَّ في ذلك تماهيًا مع تلك التفاحة الأولى التي تسبّبت بمحنة البشريَّة. لقد اجتاز سهول روسيا وحقول أوكرانيا، ونجا من الصقيع وهجوم البارتيزان والمرض المميت، لقد أفلت من

الحرب بأسرِها كي يموت عند ضواحي قرية زراعيَّة على جبال آيفل من أجل حفنةٍ من التفاح. مهما بدا هذا الموتُ سخيفًا وبلا معنى، إلّا أنَّه كان ملائمًا له: لقد مات وهو يمنحُ الآخرين البهجة. تراءى لها كما كان حينذاك. بمعرفة قصَّة وفاته، بات فجأةً قريبًا جدًّا منها.

- «أأنتِ من جاء بهذه الزهور؟»، سألتْها برقّة.

- «أنا وأمي... قايضناها بالزبدة والبيض في ترير»، أكّدت الفتاة.

التفتت آنا. القبور الأخرى مُهملة؛ كان القبر المُربّع، بصلبانه الثلاثة، أشبه بجزيرةٍ حظيت بالعناية والمحبّة بين القبور التي غزاها نموّ الأعشاب.

ألحَّت الفتاة على التعارف بين أمّها وآنا. صافحتها المرأة بعاطفة متقدة.

- «كم كان زوجك رجلًا طيّبًا...»، تنهّدت وهي تنفُّ.

فيما بعد، أعدَّت استقبالًا للأرملة كأنَّها أحد أفراد العائلة الذين طال انتظار قدومهم من أمريكا. كلُّ ما كان صالحًا للأكل، في المنزل والحديقة، وُضع على المائدة بعد تحضيره مع التوابل العطريَّة. أدركت آنا أنَّ ذلك كان وجبة احتفال بقدر ما هو وجبة تذكاريَّة. كان ميّتًا فيما ظلَّت هي على قيد الحياة؛ بفضل هوسها الخارق بالمفتاح.

- «الأمر الذي لا أفهمه...»، قالت الأمّ قبيل المغادرة، «هو أنَّ عناصرَ من قوّات إس إس دفنوهم ووضعوا الصلبان على قبورهم، لكنّ قسّ كنيستنا رفض مباركتهم لأنَّهم من تلك القوّات. السؤال هنا: هل هذا يمتُّ للمسيحيَّة بصلة...؟».

*

- «على الأقلّ، كان ثمَّةَ قبرٌ بوسعك أن تزوريه»، قالت لوته ببرود.

لم تكن راغبة في التعاطف مع قصَّة رحلة الحجّ التي خاضتها آنا إلى قبر ضابط إس إس يخصُّها.

نظرت إليها آنا، وقد تاه منها التفكير.

- «ماذا تقصدين؟».

- «لم يكن هناك مقبرة في ماوتهاوزن».

مدّدت آنا ساقيها اللتين تؤلمانها. لقد صدّقت، لبضعة أيّام، الوهمَ بأنَّ الألم يتضاءل تحت التأثير المسكّن للحمّامات، لكنّه عاد الآن فجأةً بكل ضراوته.

- «زرتُ آوشفيتس منذ عامين. كان ستّة آلاف شخص يُقتلون بالغاز هناك كلَّ يوم. وجدت نفسي أقف في ذلك المكان، حيثُ مرَّ كلّ أولئك الأشخاص، وتذكّرتُ صيف عام ١٩٤٣ الجميل. حين اعتاد مارتين أن يأتي ونسبح في البحيرة، نصل إلى الجزيرة، نقضي عطلات نهاية الأسبوع الرائعة، وحدنا، ومن أجلنا فحسب. من دون أن أدري أنَّ ذلك كان بمثابة العشاء الأخير. لقد قضى ملايين الناس على ذلك النحو في الوقت الذي كنتُ أحظى فيه بالقليل من الحظّ السعيد في حياتي... لم أستطع تحمّل ذلك، كان مروّعًا جدًّا...».

دلّكت ركبتَيها.

- «وسواء كنتُ سعيدة أم لا حينها، لم يكن ذلك ليغيّر شيئًا بالنسبة لهم...».

حقيقة بديهيَّة. ظلَّت لوته صامتة. تابعت آنا:

- «لم أصدّق ذلك في البداية. شاهدتُ الصور على التلفاز لأوّل مرّة في الخمسينات. أتعرفين بماذا فكّرتُ؟ أنَّ الأمريكان جمعوا الجثث من البلدات التي قصفوها بنيرانهم وكدّسوها في أكوامٍ داخل معسكرات الاعتقال. لم أستطيع تصديق ذلك».

- «متى تمكّنتِ من ذلك أخيرًا؟»، سألتها لوته بحدّةٍ.

- «بدأ الأمر بمعرضٍ كبير؛ يهودُ كولونيا منذ العصر الرومانيّ. أخذت الحقيقة تتغلغل شيئًا فشيئًا داخل رأسي. ينبغي أن تعرفي جيّدًا أنّي لم ألقِ بالًا للسياسة. كنتُ مشغولةً بعملي، لا بأيّ شيء آخر».

- *«لم نكن نعرف بذلك، كان لدينا شيء آخر نفعله»*، سخرت لوته بازدراء.

- «أجل... لا...»، قالت آنا منزعجة، «لم نسمع شيئًا عن اليهود خلال حياتنا اليوميَّة. لستُ أتذكّر أنّي سمعتُ أحدًا يتحدّث عنهم ذات يوم».

نهضت لوته، وقد استولى عليها شعورٌ غائمٌ باللاجدوى. جاءت الممرضة وطلبت إليهما ارتداء الملابس. حان وقت الإغلاق وأراد الموظّفون العودة إلى منازلهم.

كانت الصلة الأسريَّة التي لا مفرَّ منها مستمرَّة في المطالبة بما لها من حقوق سواءٌ وافق ذلك رغبتهما أم لا. ثمَّة ما يدفعهما إلى الاستمرار في التجديف ضدّ التيّار، تجاه بعضهما البعض؛ واحدة يحثّها سعيٌ للانتصار

بلا كلل، والأخرى كضحيَّة عاجزة، تتخبّط في شبكة من الانجذاب المشبع بالغضبِ، لا تقوى على مقاومته.

في ذلك المساء، تناولتا العشاء معًا في مطعمٍ صغير بشارع الملكة أستريد. اليومَ سبت؛ ما يعني أنَّهما غير مضطرتين للاستيقاظ عند بزوغ الفجر في اليومِ التالي من أجل الذهاب إلى الحمَّام. بحثًا عن أجواء ليلة السبت الجميلة، توجّهتا إلى مقهى «روليه دولا پوست»، حيث اتكأتا على الأرائك الجلديَّة الوثيرة العائدة لفترة الثلاثينات، حين كانتا في ريعان الصبا لا تعرفان ما الذي تخبئه لهما الحياة. احتستا القهوة مع «غران مارنييه». أمَّا صندوق الموسيقى فقد ملأ المكان بأغانٍ ساحرةٍ من الخمسينات.

- «الحياة تستمرُّ، هذا ما يقولونه دومًا...»، رشفت آنا من كأسها. «حين نعاني من خسارةٍ فادحة، يربّت الآخرُ على كتفنا ويقول: هيّا، ارفع رأسك، الحياة تستمرُّ. صيغة مبتذلة، لكنّها في الوقت نفسه، حقيقة كونيَّة مريرة. كانت بلداتنا تحت الأنقاض وجنودنا قتلى، مُقعدين، جُرِّدوا من أوهامهم. تحمّلنا، كشعبٍ، المسؤوليَّة الجماعيَّة عن ارتكاب أكبر جريمة إبادة في تاريخ البشريَّة. كابدنا الإفلاس الاقتصاديّ والأخلاقيّ... وبعد كلّ شيء، بطريقةٍ أو بأخرى، استمرَّت الحياة. أقحمتُ نفسي في الدراسة والعمل. كان الجميعُ يعمل، يا إلهي...».

أفرغت الكأس بجرعة واحدةٍ وضحكت على نفسها.

- «كانت إعادة الإعمار بمثابة علاجٍ هائلٍ عبر الانهماك بالعمل!».

حدَّقت لوته في كأسها بذهنٍ شارد. انجرفت ذكريات السُّلم الكئيب. لم ترغب في التفكير بالأمر، ولهذا السبب بالتحديد، راحت تفكّر به.

*

كان إرنست يعمل أيضًا. انتهى به المطاف في العمل عند صانع كمانٍ في لاهاي، يعاني من الروماتيزم في اليدين، ما أجبره على ترك العمل تدريجيًا وتكليف الشاب به. انتقلا إلى شقّةٍ صغيرة واقعة إلى الخلف من الورشة، وقد تقاضى إرنست، مثل كثيرين غيره، أجرًا ضئيلًا كما هو الحال في زمن ما بعد الحرب. منهمكًا في مسؤوليّاته الجديدة كزوجٍ وربٍّ مستقبليّ لأسرة، حثَّ نفسه من أجل إنجاز المزيد والمزيد: خمسة أيّام في الأسبوع خصّصها لتصليح الكمنجات، وفي اليومين الآخرين انكبّ على صناعة كمنجات جديدة بغرض البيع. أمّا لوته، فقضت سبعة أيّام في الأسبوع وحيدةً، تصارع الأفكار التي كان يجدر بالزوّاج أن يحرّرها منها. تذرع الغرفة جيئةً وذهابًا، بعد أن اجتُثّت من كنف أسرتها؛ الأمر الذي سبق أن عايشته بمنتهى الألم. أين تناهى بها الحال؟ أهذا ما كانت تريده؟ كانت تحلم بمنزلٍ كبيرٍ قديمٍ، بأسقف عالية، منزل من شأنه أن يصالحها مع العزلة التي فرضها الزواج، منزل بوسعها أن تعيد تكوينه وتصنع منه مسكنًا لروحها. قادها الحلم إلى متاهة متشابكة من الشوارع والقنوات. جاء الخريف، ثمّ الشتاء، أخافتْها الواجهات العاتمة وصدَّتها الغرف المضاءة؛ لم ينقص المشهد سوى بائعة الكبريت الصغيرة. كما لو أنّها تكفّر عن خطيئة، محكومة بالتجوال الأبديّ، بلا مأوى، بلا أقارب،

جزاء عادل لكونها ليست من هؤلاء ولا هؤلاء، بل كائنًا هجينًا، موصومًا بالخيانة من كلا الطرفين.

ربّما الموسيقى هي ما كان ينقصها. ماذا حدث بأميليتا غالي-كورتشي؟ وبمقطوعاتٍ على غرار «افرحوا وابتهجوا»؟ «آلام المسيح برواية القدّيس متّى»؟ عثرت على مُدرِّس غناء، ولكن، في الدرس الأوّل تبيّن أنَّ القليل من رونق صوتها هو ما تبقّى فحسب. اعتذرت للمدرّس اعتذارًا جمًّا وراحت تسترجع، بحنينٍ إلى الماضي، ذكرى كلّ ما غنّته من قبل، وحين رأت الريبة في عينه، بدأت، بدورها، تشكّك بقرارة نفسها. ما الذي حدث لصوتها الذي كان يملأ برج المياه، من أسفله إلى أعلاه، بلا أدنى عناءٍ منها؟ لقد أضحت حبالها الصوتيَّة أشبه بالأربطة المطاطيَّة المتيبّسة التي تتفتّت بين الأصابع.

كان عليها زيارة والديها إن رغبت في الاستماع إلى الموسيقى. وهناك، في ثنايا الحياة الأسريَّة التي تصلحُ للعرض في واجهة متجر، تردّد صدى التفكّك. نما لدى والدتها، التي حافظت على التئام شمل الأسرة ببهجةٍ مصطنعةٍ، هوسٌ لتناول الطعام، كي تنسى الجوع والمشكلات الأخرى. إلى جانب المختبئين، غادرها كلّ أولادها تقريبًا. بدا أنَّ رابطة قد تطوّرت سرًّا بين روبن وجيت منذ أن استلقت في سريرها جرّاء ارتجاج المخ، وراح يقرأ على مسامعها لساعات من أجل تزجية الوقت. ثيو دِ زوان كان قد عرف منذ وقتٍ طويلٍ كيف يأسر قلب ماريا السندريلا. مايز انتقلت إلى شقّة فوق متجر القبّعات قبيل الحرب بفترةٍ وجيزة. تزوّجن جميعًا وعشن مستقلّات. سافر

كون، بدعوةٍ من برام، إلى أمريكا التي تمتّعت بشعبيّة أسطوريّة منذ إنزال نورماندي بوصفها بلاد الإمكانيّات اللامحدودة. أمّا الولدان الصغيران اللذان ما زالا في المنزل، فلم يتمكّنا من التركيز في المدرسة واتّسما بالصخب وصعوبة المراس.

غير أنَّ لوته استاءت لرؤية والدها وهو في غاية السعادة، لأنَّ زوجته أصبحت متفرِّغة من أجله فحسب. ذات مرّة، أوقفه سيّدٌ مسنّ في الشارع وحدَّق به مذهولًا:

- «أما زلت حيًّا! أنت السيّد روكانيه، أليس كذلك؟».

هزَّ رأسه بارتيابٍ.

- «أعطيتُكَ حقنةً ذات يوم...»، هتف الرجلُ بحماسٍ، «في القلب مباشرةً، لقد كان تصرُّفًا نابعًا عن اليأس، وكدتُ أقرّ بعجزي!».

لم يتذكّر والدُ لوته شيئًا عن ذلك، فقد عرف كلّ شيءٍ عن مرضه حسب ما رواه الآخرون، لكنَّه تشكّره ذاهلًا من التدخّل الشجاع وعاد إلى المنزل، يحثُّ خطاه سرورًا. شعر بأنَّه مُنح الحياة مرَّة ثانية ولذلك لن يسمح لأيّ شخصٍ بأن يمنعه من الاستمتاع بذلك على أكمل وجه. لم تكن خيبة الأمل الكبرى قد أصابته بعد: فالأب ستالين ما زال، بنظره، رجلًا يتمتّعُ بسلوكٍ لا تشوبه شائبة.

ومع ذلك، تجشّأتِ الحرب بعضًا من سمومها، ولولا التصرُّف السديد لسارة فرينكل، في اللحظة المناسبة، للطّختْ وصمة العار سمعة الرجل. أُقيم عشاء يهوديّ. دُعيت إليه عائلة فرينكل التي لم تهاجر بعد إلى أمريكا. أثناء تناول الطعام، أعلن إد دِ ڤريس، بأسلوبه الصاخب

الذي عرف دائمًا كيف يجذب به الانتباه بصفته مغنيًا وفنّانًا ترفيهيًّا، أن عائلة روكانيه سلبت منه صندوقًا كان قد أودعه عندهم، ويحتوي هذا الصندوق على أشياء ثمينة بقيمة نصف مليون.

- «كيف تجرؤ على ذلك!»، صاحت سارة فرينكل بسخطٍ على المائدة. «اسحب كلامك في الحال، أيّها الجرذ العجوز. كيف تَبادر شيء كهذا إلى ذهنك؟ لم يكن بحوزتك فلس واحد! كم تضحكني، أنت وصندوقك الحاوي على نصف مليون، الصندوق الذي قلتَ عنه: جئتُ لأدفن بعض الأغراض والحلي الصغيرة. أعرفُ ما الذي تريده، تحاولُ الحصول على تعويض عبر التأمين. هذا الشأن شأنك ولكن لا تفكّر في أن تجرّ عائلة روكانيه إلى حضيضك!».

من وقتٍ لآخر، اعتادت لوته أن تشاهد صورًا تجمعها مع جيت، شبيهة بصور نجمات الأفلام، كان ثيو دِ زوان قد التقطها قبل الحرب. بتحدٍّ وثقةٍ عارمةٍ بالنفس كانتا تنظران إلى العدسة، كأنَّ العالم بأسره ينبسط تحت قدميهما. يا للطيش! يا للجهل! بمرارة وحنين عاد بها التفكيرُ إلى الشكل الذي كانت عليه الحياة قبل الحرب. على الرغم من أنَّهم كانوا ضد الربّ، وضد كولين، فقد آمنوا، تحت مظلّة والدتهم، إيمانًا رومانسيًّا بالعدالة والإنسانيَّة والجمال. في الأمسيات الصيفيَّة حين كانت موسيقى بيتهوفن تتدفّق خارجةً من النافذة المفتوحة وهم جميعًا يجلسون على كراسي الخيزران، محدّقين في النجوم والجانب المظلم للغابة، كانوا يفكّرون: إن كانت موسيقى بديعة الجمال كهذه موجودة فعلًا، فلا

بُدَّ أنَّ الحياة، بمعنى أعمق، جميلةٌ أيضًا. أمَّا الآن، فباتت تشعر بالعار من تلك المشاعر الجارفة. كان بيتهوفن ألمانيًّا، وباخ مثله، ومِندلسون كان يهوديًّا؛ صبَّ النازيّون اهتمامهم على الملحّنين الألمان ونبذوا اليهود منهم؛ لن يكون باستطاعتهم أبدًا بعد الآن الاستماع إلى الموسيقى بتجرُّدٍ من الأفكار الثانوية. فضلًا عن لزوم الصمت إزاء نشيد «ترانيم لموت الأطفال». لقد أضحى كلُّ شيءٍ مُدنّسًا.

*

ازدحم المكان من دون انتباهٍ منهما. أزواج أكبر سنًّا شغلوا الطاولات؛ الرجال يرتدون بدلات وقمصانًا وربطات عنق، وزوجاتهم -الخارجات للتوّ من صالونات تصفيف الشعر- يرتدين فساتين ذات طيّات وأحزمة لمّاعة. لم يغزُ عصرُ الجينز والقمصان قصيرة الكمَّيْن أسلوب اللباس هنا. شُغِّلتْ أغنية شعبيَّة، وشقّ بعض الأزواج طريقهم إلى المركز الذي تحوّل إلى حلبة رقص. قادهم صوت لويس بريما العذب، وشكّلوا الدوائرَ المُعتادة برشاقة... طاب مساؤك يا سنيورة... طاب مساؤك...

- «ما أجملهم... ما زالوا يتمتّعون بالروح المرحة في هذه السنّ»، تنهّدت آنا.

لاحقت لوته بنظراتها الراقصين ذوي الشعر الأشيب، بعبوسٍ مُستهجن.

- «ألا ترين ذلك في غير محلّه... سلوك غراميّ كهذا يبدرُ عن أناس طاعنين في السنّ»، قالت برزانةٍ.

- «كفى، لا تكوني قاسية... على نفسك. ألم ترقصي مع صانع كمنجاتك...؟».

أحسَّت بالإهانة الكامنة في عبارة «صانع كمنجاتك». بدت لها فكرة رقصها معه، مثل هؤلاء المسنّين المتبهرجين، مثيرة للاشمئزاز.

- «لقد مات صانع كمنجاتي منذ سنوات...»، ردَّت بحدّة، على أمل أن تشعر آنا بشيء من الخجل.

لكنّ ذلك لم يحرّك فيها ساكنًا. قدَّم رجلٌ مسنٌّ قويُّ البنية نفسه. زرّر سترته وانحنى جهةَ آنا على نحوٍ فكاهيّ قليلًا. نهضت وعلى وجهها ضحكةٌ مَرِحة، وانسلَّت بين طاولتَين لتختفي عن الأنظار لفترة وجيزة. «أوه، مون بابا...»، صدح صندوق الموسيقى.

دارت آنا حول حلبة الرقص كما لو أنَّها لم تفعل شيئًا آخر في حياتها منذ أن علّمتها الراهبات الرقص في ظلال قلعة فون تسيتزيفيتس. ضاحكةً بينها وبين نفسها، تذكّرت اللغط الذي أثارته أغنية «ماذا تفعل بركبتك، عزيزي هانتس؟»، غير أنَّ كازانوڤا سپا تصرَّف على نحوٍ مثاليّ. كان يقودها بثقةٍ، من دون أن يخامره الشكّ بأنَّ مَن كانت بين ذراعيه ظلَّت فترة طويلة لا تسمح لأحدٍ بأن يقودها، أيًّا كان. نعم، بل أنَّه تحلَّى بالجرأة لدعوتها إلى رقصة تانغو على طريقته الخاصَّة، حيث مدَّ ذراعه باستقامة إلى الأمام ودار دوراتٍ مفاجئة وكاملة. بعد ذلك، اصطحبها إلى كرسيّها بشهامة.

لهثت آنا.

- «من كان يظنُّ ذلك؟»، ضحكت بصوتٍ أجشّ. «حمّام خثٍّ تتبعه جولة رقص...».

غادرتا المقهى في وقتٍ متأخّر من المساء، بعد أن انقادت آنا لإغواء الرقص في الحلبة مرّتين أُخريين مع شريكها الصامت. ألقى المنتجعُ ظلاله العملاقة على الطريق مثل ماموث. استدارتا يُمنةً، وقد تمكّن منهما الدوار بفعل مشروب غران مارنييه.

- «مَن يرقص يباعد بينه وبين الموت...»، قهقهت آنا وهي تصطدم بلوته. «انظري للسماء الصافية! سيكون الطقس لطيفًا في الغد بكلّ تأكيد. يمكننا الذهاب في نزهةٍ جميلةٍ. ما رأيك في ذلك، يا أختاه؟ لقد زال الألم، صدّقيني، لقد اختفى... ففففف ...».

شابكت ذراعها بذراع لوته.

فقدت هي الأخرى شيئًا من تحفُّظها جرّاء الكحول والمشاهد غير الواقعيَّة التي استحوذت عليها طوال ذلك الوقت.

- «اسمعي يا آنا... منذ قليل، حين رأيتكِ تدورين حول حلبة الرقص، تذكّرتُ شيئًا قديمًا، في ومضةٍ خاطفة...».

- «أتقصدين شيئًا منذ وقتٍ طويلٍ جدًّا؟».

- «نعم... كنتِ ترقصين في القاعة، بجموح، وحيويَّة، ومن دون قيد، ربّما لم يكن رقصًا، بل كنتِ تلعبين الغميضة مع... كان هناك صبيّ...».

- «ابن البوّاب»، أضافت آنا غريزيًّا.

- «ربّما... كنتِ تصعدين الدرج بلهوٍ صاخبٍ، صراخك المتحمّس تردّد صداه في أرجاء الممرّ... فجأة كنتِ مستلقية أسفل الدرج

تصيحين... أُصيبت ذراعك... كنتُ خائفة وشاركتك الصراخ.
لا أعرف ماذا حدث بعدها... بلى... انتظري...».

بسبب انفعالها، غدا صوتُها أعلى. صار تدفّق الذاكرة عصيًّا على الإخماد بمجرّد أن أُضرَم.

- «نُقِلتِ إلى المستشفى وعدتِ بذراعٍ ملفوفة بالجبس ومعلّقة بحمّالة. شعرتُ بالغيرة... كنتُ أريدُ أن أحظى بكلّ ما كان لديك... وجعك وضمادتك. لفّوا ذراعي بفوطة مطبخ أو شيء من هذا القبيل... على سبيل المواساة».

- «لولا ما قلتِه الآن...»، توقّفت آنا. «نعم... لولا ما قلتِه الآن... لكنت نسيتُ تمامًا. لقد كُسرت ذراعي، في موضعين على ما أظنُّ... ما زلتِ تتذكّرين! كيف أمكنك ذلك!».

أرادت أن تقول شيئًا آخر، لكنَّها احتضنت لوته بدلًا من ذلك. تخمّر الكحول مع العواطف على نحوٍ يُنذر بالخطر. تأرجح جسداهما تأرجحًا مُرعِبًا فوق الإسفلت، كما لو كانتا تتشبّثان بإحكامٍ ببعضهما البعض على متنِ سفينة ابتلعتها العاصفة. أمام عيني آنا، كان فندق آتينيه يهيم معهما في خلفيَّة المشهد، وأمام عيني لوته، كانت حبّات البرتقال والليمون في واجهة محل البقالة تفعل الشيء ذاته. تقدّمتا خطوة بخطوة، كانت سبا، مدينة الينابيع، تتمايل بلطفٍ كما لو أنَّها، بدورها، أفرطت في شرب الغران مارنييه. توقّفت آنا عند منتصف الجسر الواقع فوق السكة الحديديّة. اتكأت بثقلها على سور الجسر، وبإيماءة ملحوظة نحو النجوم التي كانت تتلألأ فوق ظلال للأسطح والتلال المحيطة، راحت تلقي بصوتٍ رنّان:

خُلقتُ أنا للنظر،

واستخدموني لحدّة البصر،

البرج مقامي،

والدنيا فرحتي.

أرى ما هو بعيد بعيد،

وأرى ما هو قريب قريب،

القمر والكوكب والنجم،

والغابات بوعولها...

- «آه... ما هي التتمّة...؟»، صاحت بحزنٍ. «يا إلهي، لستُ أتذكّر أيّ شيء...».

ظلّت ذراعاها مرفوعتين نحو النجوم، بإيماءة أصبحت فارغة الآن.

- «هيّا»، قالت لوته وهي تشدُّ ذراع شقيقتها.

٣

اختارت لوته طريقًا يحملُ اسمًا شاعريًّا؛ «ممشى الفنّانين»، مسترشدةً بخريطة التجوّل. ندمت على عاطفيّتها المفرطة في الليلة الفائتة. فالذكرى المشتركة ليست سببًا كافيًا للتآخي؛ الغريبُ أنّ كلمة التآخي مشتقّة من كلمة الأخ، ولا وجود لكلمة مرادفة مشتقّة من كلمة الأخت. أبقتْ على مسافةٍ حَذِرة بينهما، ووضعت يديها بثباتٍ داخل جيبَي معطفها الشتويّ. أشعة الشمس الوادعة تنسلُّ بين الأغصان. جدولٌ صغيرٌ يسيرُ متعرِّجًا، بجانب الطريق، كأنّه صهير فضّة.

مع كلِّ خطوة، عبّرت آنا عن بهجتها بالليونة التي تنامت في مفاصلها؛ بدأ مفعولُ الحثّ يسري. استنشقت هواء الغابة الواخز، وخالتْ أنَّ بوسعها الإحساس بالأوكسجين إذ يتغلغل عميقًا في رئتيها. سرعان ما تُرجمت هذه البهجة إلى شهوةٍ للتواصل. ضحكت وهي تقول:

- «لن تخمّني أبدًا يا لوته من جاء لزيارتي في زالتسكوتن».

*

يقع معهد الخدمة الاجتماعيَّة في الطابق العلويّ لديرٍ فرانسيسكاني. كان النجاح في الدراسة يعتمد إلى حدٍّ كبيرٍ على موهبة الارتجال. ليس هناك كتب مدرسيّة أو دفاتر للتمارين؛ فقط مَن استطاع الحصول على لفافة من ورق الجدران أو قسيمة من ورق التغليف كان قادرًا على تدوين الملاحظات. وصل المُحاضِرون، الذين جُمعوا من كلّ أنحاء البلاد، إلى المعهد قادمين من بلداتهم المُدمَّرة بعد رحلةٍ محفوفة بالمغامرات على شبكة السكك الحديديّة المُخرَّبة. مكثوا في الدير وحَشَوا عقول الطلاب بلا توقّف، على مدار أربعة عشر يومًا، بدروسٍ في علم النفس والاجتماع. واضعاتٍ رسالة الناصريّ نصب أعينهنّ، تقاسمت الراهبات مؤنهنّ الزهيدة مع الطلّاب، وحين حلَّ الشتاء، لم يمانعن البقاء في البرد، عن طيب خاطر، من أجل أن تُعطى الدروس في الغرف الدافئة.

كان ثمَّة مُصادفة ساحرة؛ فالقرية الواقعة على نهر ليبه، حيثُ وُلد أبوها وتُوفّي جدّها، لم تبعد كثيرًا عن زالتسكوتن، القرية التي تجري فيها أحداث الحكاية الخرافيَّة الشهيرة عن قطيع الخنازير؛ باستثناء أنّه ليس هناك أمير[1]. آثرت أن تبعد عن ذهنها الافتراض بأنَّ مغامرات القدر والارتحال أعادتْها، بدقّة، إلى هذا المكان، كأنَّها عنصرٌ في دورة الطبيعة التي لا مناص منها. ودَّت أن تتجاهل قربها من هذه البقعة المشؤومة؛ فحتّى جمال الطقس لم يغرِها بالمُضيّ نحوها. غير أنَّ زالتسكوتن، بسوقها الأسبوعيّ، تشكّل نقطة تجمُّع للقرى المجاورة. ذات يوم، قابلت

(١) إشارة إلى حكاية لهانس كريستيان أندرسن. (المترجم)

شخصًا من قريتها، كان قد جلس فيما مضى بجانبها في الصفّ. تبادلا الأخبار في دهشةٍ من هذا الاجتماع.

حرَّض هذا اللقاءُ المنبثق عن المصادفة فحسب، لقاءً آخر لا يدينُ للمصادفة بأيّ شيء. فبعد بضعة أيّامٍ، سمعت طرقًا على بابها.

- «لديكِ زائرة، تنتظركِ في الردهة إن كنتِ ترغبين برؤيتها»، قالت زميلتها بارتباكٍ.

- «زائرة لي؟»، هتفتْ آنا. «مستحيل، لم يبق لي أحدٌ في العالم بأسره. من ستكون هذه؟».

- «حسنٌ، لن أقول إنّها سيّدة... بل امرأة تدّعي أنّها من أقاربك».

نزلت آنا إلى الطابق السفليّ، لا تشتبه بأيّ أحدٍ. تجمّدت عند المدخل. طغى حضورُ تلك الشخصيَّة على الغرفة المؤثثة برزانةٍ طغيانًا تامًّا؛ كانت حقيقة وجودها، في حدِّ ذاتها، شكلًا من أشكال تدنيس المقدّسات. بدت بدينة ومترهِّلة، بشرتُها متوهّجة، عيناها وشعرها يلمعان بلونٍ أشدّ دُكنةً من أيِّ وقتٍ مضى، وكان اعتدادها المبتذل بالنفس على تناقضٍ صارخٍ مع تواضع الرسوم التوراتيَّة المعلَّقة على الجدران.

- «يا إلهي»، قالت بصوتٍ أقرب للتذمُّر، حاولت تكييفه مع المكان، «ماذا تفعلين هنا، هل عقدت العزم على الرهبنة؟».

أبقت آنا على مسافةٍ لائقةٍ؛ كانت بحاجة إلى كلّ ذرةٍ من ضبط النفس لمواجهة ذكريات التعذيب والإذلال التي انبعثت منها في هالةٍ شيطانيَّة قاتمة. لا... أوه لا... فكّرت وهي تدرأُ عن نفسها.. ليس لأجل ذلك.. بنبرةٍ محايدة ومبهمة، أوضحت الغرض من إقامتها في الدير.

- «آه، الأمر كذلك إذًا...»، تنهّدت الزائرة، كأنّها لم تروِ غليل فضولها. «اسمعي، إن احتجتِ أيّ شيء: زبدة، جبن، بيض، ما عليكِ سوى أن تخبريني...».

أقحم هذا العرض المتهوِّر آنا في شرك المعضلة. كانت تهديداتها قبل عشر سنواتٍ تطنُّ في رأسها: «ستعودين زحفًا على ركبتيك، تتسوّلين لقمة الخبز...». ولكن من ناحيةٍ أخرى، كان الجوعُ الصريحُ ينهش كلّ مَن في الدير، وكانت هناك الحسابات القديمة التي لا بُدَّ من تصفيتها: بدا جليًّا أنّها تستحقُّ كلّ ما تدين لها به هذه العمَّة.

- «هذا عظيم»، سمعت نفسها تقولُ بترفُّع، «سنكونُ جميعًا سعداء بذلك، يمكنك ترك الطعام عند البوَّابة».

أومأت عمّتها، غير راضية تمامًا، واعتقدتْ آنا أنَّ ما بدر عنها ليس مبعثه الشرّ في الواقع، بل طبعها البدائيّ الذي يغدو معه أيُّ شكلٍ من أشكال الفضيلة والارتياب الذاتيّ والضمير، شيئًا دخيلًا. عندما لم يبق هناك شيء يقال، غادرت العمّة مارتا بقوامها العريض، بعد أن أدّت على أكمل وجه دورها كعمَّة ودودة بحثت، باهتمامٍ كبيرٍ، عن ابنة أخ زوجها الجائعة في كنف الراهبات. بقيت آنا حيثُ هي، مشدوهة. ما الذي قادها إلى الدير؟ لا يمكنُ أن يكون فعلُ الخير. هل كانت تحاول أن تعيد الشاة التي هربت من حظيرتها قبل عشر سنوات؟ هل كانت بحاجة إلى عاملة رخيصة الأجر، إلى شخصٍ تشبعُ من خلاله رغباتِها المُدمِّرة؟

لم يُسلَّم أيّ شيءٍ عند البوَّابة. بخلاف ذلك، التقت آنا بأناسٍ من القرية بين حين وآخر، أطلعوها على آخر المستجدّات، عبر أخبار متفرِّقة،

حول الطريقة التي أدارت فيها عمّتها شؤون حياتها الخسيسة والبغيضة. ففيما كان العمّ هاينريش يقاتل على الجبهة الروسيّة، غدت زوجته، كما بدا، أشدّ تجّار السوق السوداء سوءَ سمعةٍ في عموم المنطقة. بلا تعاطفٍ يردعُها، استولت على كلّ ممتلكات النازحين من البلدات؛ مجوهرات، أدوات مائدة، علبة تبغ، صورة ذات إطار مذهّب، مقابل إعطائهم بيضةً أو كسرة خبز. جعلت كلّ قطعة خبزٍ تعادلُ أربعة أضعاف قيمتها الحقيقيّة. حظيت بالاحترام والإعجاب في المقاطعة الأوسع؛ حيث كان الجوع أقوى من الخوف. والشخص الوحيد الذي كان قادرًا على وضعِ حدٍّ لها بات أسيرَ حربٍ في روسيا.

كان آخر ما تناهى إلى آنا من أخبارها غريبًا لدرجةٍ دفعتها إلى الردّ بتهكُّمٍ لاذعٍ بادئ ذي بدء. لكنّ ضحكها سرعان ما تحوّل إلى غضبٍ منافٍ للسلوك المسيحيّ، متناقضٍ على نحوٍ أليمٍ مع السكينة التي تكتنف الدير. بثّت العمّة مارتا خبرًا مفاده أنّها متكفّلة بنفقات دراسة ابنة أخ زوجها في معهد الخدمة الاجتماعيّة. كلّما اعتقد المرء أنّه رأى وجرّب كلّ شيء، ينزل به العقاب فورًا بسبب سذاجته. مكائد لا تتمخّض إلّا عن روحٍ مجبولة بالغدر، ها قد نجحت مرّة أخرى في تعكير مزاج آنا التي لم تكد تستعيد راحة بالها؛ كانت الأمور تسير في مجراها المعتاد، كما لو أنّها لم تغادر أبدًا.

لكنّ السنوات التي تخلّلت تلك الفترة تركت بصمتها. اجتازت آنا مشهد المرج المرتبط بيفاعتها، بخطواتٍ مفعمة بالخفّة، لا تلال ولا جبال، بل حقول على مدّ النظر. لم تعبأ بكآبةٍ أو حنينٍ؛ فقد أقصى تصميمُها كلَّ

المشاعر. تحاشت الشجرة المعمِّرة، وكنيسة السيّدة بجانب جسر النهر، ولم يخلخل توازنها لقاؤها بالمزرعة مرَّة أخرى، والأطفال الذين باتوا كبارًا. اقتحمت المطبخ من دون إنذارٍ وأمسكت عمّتها الذاهلة من قميصها، بمستوى الصدر، وصاحت:

- «إذًا، فأنت المتكفّلة بنفقة دراستي!».

- «أرجوكِ، أرجوكِ، ما الخطب...».

ضاقت عينا العمّة مارتا خوفًا، مثل قطة شريرة يُقبَض عليها من مؤخّرة عنقها.

- «كم تدفعين؟ ولماذا؟ ومنذ متى؟ قولي!».

تدلّى ثغرها الجشع، ثم انغلق، ثم عاد مفتوحًا. لم تتفوّه بأيّة كلمة، اكتفت بتعابير احتجاج غير متماسكة. واصلت آنا بلا تراجع، بلا شفقة، بلا اكتفاء.

- «هل تدرين حقًا كم أنتِ مدينة لي؟ أنتِ مدينة لي بشبابي، مدينة لي بكلّ شيء! سأشتكي للشرطة! إنّني أحذّرك. إن لم تتراجعي عن الأكاذيب التي نشرتِها في كلّ مكان، وبشكلٍ رسميّ في الجريدة، فسأبلغ عنك الشرطة!».

- «أرجوكِ، أرجوكِ...».

تمكّنت من تحرير نفسها، تبحثُ بتوتُّر عن مهرب.

- «ورق! أحضري قلمًا وورقًا»، أمرتها آنا.

بخنوعٍ مثيرٍ للاشمئزاز، سارعت العمّة مارتا لجلب ما طلبته إليها.

مسّدت آنا الورقة على طاولة المطبخ، ودفعت القلم في يدها وأملت عليها بلغة ألمانيَّة رفيعة: «أنا، مارتا بامبيرغ، أسحبُ التصريحات التي بدرت عني حول دراسة ابنة أخ زوجي، آنا غروزالي-بامبيرغ، في زالتسكوتن. حين أدليتُ بأنّني متكفّلة بنفقات دراستها، كنتُ أفتري على الحقيقة». راجعت آنا النصّ وعدّلت بعض الأخطاء الكتابيَّة وأمرت عمّتها بإيداع تصريح التراجع في الجريدة المحليَّة. مع أنَّها كانت ترى، من زاوية عينها، طاولة المطبخ والموقد، نقطتين من النقاط المرجعيَّة الراسخة فيما يخصّ فترة طفولتها، فترة العبوديَّة، لكنَّها لم تتنازل لإلقاء نظرة على تلك الفوضى. أغلقت الباب خلفها وسارت عبر الفناء من دون التفات.

عادت مجتازةً الحقول، يداها قبضتان مُحكمتان. لن تدع أيّ شخصٍ يعبثُ معها بعد الآن، مع آنا غروزالي، أرملة الحرب، الممرِّضة في الصليب الأحمر، المتدربّة لتصبح عاملة اجتماعيَّة في رعاية الأطفال. تلك المخلوقة المثيرة للشفقة، التي كان من المفترض أن يكون قد أودى بحياتها السلُّ أو السرطانُ أو غارةٌ بالقنابل منذ وقتٍ طويلٍ، لن تدع أحدًا يعبثُ معها بعد الآن؛ كانت تدرسُ موادَّ تعجز العمّة مارتا عن مجرّد النطق بأسمائها.

لكنّ جلبة الاحتفال بالنصر تلاشت حين سمعتْ، في حفيف شجر الحور فوق رأسها، صراخها الأجشّ حين كانت في الثانية عشرة. تباطأت. لقد أدركت، بمعزلٍ عن حلاوة الانتقام، وعن عدد الأطفال الذين سترعاهم في المستقبل، أنَّها لن تستطيع أبدًا حماية الطفلة التي كانتها بقوّة رجعيَّة. لقد سُلِّمت تلك الطفلة، بصورة دائمة ونهائيَّة، إلى رحمة العمّة مارتا لتكون حرّة التصرّف بها إلى الأبد. بدت فكرة

القصاص سخيفة في مواجهة روح بدائيَّة، غير قادرة على التفكير بمنطق الخطأ والصواب؛ أقصى ما كانت قادرة على إدراكه هو أنَّ آنا باتت أقوى الآن. نصرٌ بيروسيّ[1].

تحدّى معلّمون جدد عقبات وسائل النقل لتعريفِ الثلّة المخُتارة في المعهد على مواضيع غير مألوفة مثل قانون الوصاية. تذكّرت آنا، بلا إرادةٍ منها، مندوبَي حملة التعقيم وصكّ الوصاية الذي أفاد فيه العمّ هاينريش لسنواتٍ بأنَّها بلهاء عليلة الجسد. أيّ نوعٍ من القضاة ذلك الذي لم يخطر بباله مطلقًا أن يرسل مفتّشًا إلى المزرعة؟ ولتوضيح الأمر، توجّهت إلى محكمة المقاطعة. بدا أنَّ القاضي الذي كان في تلك الفترة قد حلّ محلّه قاضٍ آخر فور انتهاء الحرب، رجل شابّ يترأسُ المكان، موهن العزيمة، كأنّه محبوس في جوف هرم وعليه مهمّة إيجاد المخرج.

- «كيف أمكن ذلك؟»، تنهّد قائلًا بعد أن شرحت له آنا القصَّة.

- «هذا ما أسألك عنه، كيف أمكن ذلك؟ ولماذا من فضلك؟».

لعب القاضي بقلمه للحظة، وقال بتمعُّن:

- «كان الغرض من القانون الذي تشيرين إليه الحدّ من انتشار الاضطرابات الخلقيَّة، عبر التأكُّد من تعقيم المصابين. كان على القاضي في العهد النازي، الجالس على هذا الكرسيّ...»، تلعثم، «أن يبرهن ولاءه للنازيَّة عبر التعاون الخثيث. لو قال: ليس ثمَّة حالات بلاهة في مقاطعتي، لوضع نفسه موضع ريبة. في حين

---

(١) نسبة إلى الجنرال بيروس الإبيري، ويشير المصطلح إلى الانتصار مع تكبّد خسائر كبيرة ترقى لمرتبة الهزيمة، في إشارة إلى انتصاره ضدّ الرومان في معركة أسكولوم وانهيار جيشه (المترجم).

أنَّ حالة كهذه، طفلة فقيرة، علاوة عن كونها يتيمة؛ كانت هبة حقيقية له من السماء، والخيار واضحٌ وضوح الشمس».

ضحك ضحكة خجولة.

- «هل أستطيع الاطلاع على الصكّ؟»، قالت آنا.

- «بكلّ تأكيد، لا بُدّ أنّه في مكان ما في الأرشيف. سنبحث عنه ونرسل لك نسخة».

تبيّن أنَّ لا أثر للصكّ. تلقّت رسالة بعد أسبوعين مفادُها أنَّ الوثيقة التي تسبقُ صكّها موجودة في مكانها، وكذلك الوثيقة التالية له في الترتيب، ما عدا الصكّ الذي يخصُّها، لم يكن موجودًا. لم يكن بوسعهم معرفة مَن سمح باختفاء الصكّ ومتى ولماذا. إن نجا العمّ هاينريش من روسيا، فلن يكون بوسعها الذهاب إليه وحشر الصكّ بين عينيه. وحدُه أرشيف ذاكرتها الشبيهة بذاكرة ببغاء، التي لم يُمحَ منها أيّ شيءٍ لسببٍ لا يمكن تفسيره، كان يحتفظُ بحقيقة طفولتها؛ بما في ذلك الأكاذيب.

ظهر تصريحُ التراجع الذي وقّعته العمّة مارتا بكلّ وضوحٍ في الجريدة. وسرعان ما تلاشى رضا آنا وسط لفائف الورق الطويلة؛ مقرّرات عن العمل الاجتماعيّ كان عليها دراستها من أجل الامتحان أشبه بمخطوطات البحر الميت. تعرّفت على فرويد وأهميَّة السنوات الستّ الأولى من الحياة. فكّرت بأبيها للمرّة الأولى منذ فترة طويلة، في ذلك السياق، تذكّرت سعاله، نقر عكّازه على الحصى، معطفه الأسود، قبّعته، فخره حين تنجح ابنتاه في شيءٍ ما، حزنه المكبوت حين بات عاجزًا عن ضمّهما إلى حضنه. تدفّقت الذكريات في موجاتٍ، ذاكرتها

التي سجّلت كلّ التفاصيل لم تضنّ عليها بشيء. تذكّرت لوته أيضًا. معًا في السرير، معًا في حوض الاستحمام. صلة بديهيّة لا تنفصم، كما لو أنّها ستبقى على حالها في السنوات القادمة. تتهامسان في الفراش ليلًا، تتسابقان لجذب انتباه أبيهما نهارًا؛ لم يكن بمقدوره أن يمنحهما معًا، في الوقت نفسه، نظرة المودّة أو التأنيب. طوّرت كلّ منهما مواهبها الخاصّة وسماتها الفريدة عبر التنافس حوله. آنا بذاكرتها الأسطوريَّة عند الإلقاء، تقمّصها دور فتاةٍ بائسةٍ على مسرح الكازينو؛ وهو تمرين ممتاز لما كان ينتظرها، وحيويتها التي لا تنضب: الجري والقفز والسقوط والأنين والصراخ. وفي مواجهة كلّ هذا الصخب، برزت لوته بالغناء. مدفوعةً بعشقٍ طفوليّ لصوتها، صدحت بأغانيها عاليًا إلى القبّة المستديرة للقاعة واستمعت إلى الصدى بذهول. في غير أوقات الغناء كانت تلتزم الهدوء والمسايرة؛ وبهذه الطريقة كسبت حماية أبيها الخاصّة، على نحوٍ يزيد اندفاع آنا الغيورة خلال الجري والقفز والسقوط. كلّما تذكّرت أكثر، تنامى اهتمامُها. أثار هذان الشخصان اللذان كانا بالنسبة لها العائلة الأكثر قربًا وحميميَّة فضولًا أكاديميًّا بداخلها. أم تراه كان الشوق، شوق عميق ومتهوّر، الآن بعد أن غدت وحيدةً أكثر من أيّ وقتٍ مضى؟

حادثها معارفُ قدامى في الشارع وأخبروها أنَّ العمّ هاينريش قد عاد، ووصفوا لها، كلٌّ ببلاغته الخاصّة، الأثر الذي تركته روسيا عليه. لقد عاد، إنَّه على قيد الحياة! استحوذ عليها انفعالٌ عبثيّ ومتناقضٌ: لم تكن تريد رؤيته، بل كانت تريد ذلك. تبادرت إلى ذهنها صورةُ العمّ هاينريش عائدًا من الحدث الذي أُقيم في بوكيبيرغ: مصعوقًا، معقود

اللسان، طافحًا بالخوف والقرف. استشفَّ ملامح ما سيأتي، من خلال مهرجان الحصاد الجرمانيّ الكبير الذي سُجِّل بإتقان، وسط حماسة الجماهير الغفيرة، وخطاب الفوهرر الملتهب والمُخدِّر. على الرغم من وعيه بكلّ ذلك، لم يستطع أن ينأى بنفسه عن أن يُرسَل إلى روسيا بوصفه عنصرًا من عناصر التمثيليَّة في نهاية المطاف. كان ذلك جارحًا للمشاعر لدرجة أنَّ فؤادها كاد ينفطر، لولا أنّ كلّ الأشياء الباقية كانت على المقلب الآخر. لم تكن تريد رؤيته، بل كانت تريد ذلك. أرادت أن تستوضح منه بشأن صكّ الوصاية. أرادت أن تقول له: زوجي كان في روسيا أيضًا. أرادت عنوان لوته الذي فقدته وكتب أبيها؛ مجموعة من مجلّدات الكلاسيكيَّات الألمانيَّة، الشيء الوحيد الذي تركه لها. أرادت أن تظهر أمامه وتقول: انظر، هذه الطفلة البلهاء، عليلة الجسد ما زالت على قيد الحياة، وقد صارت امرأة قويَّة؛ هل فعلًا كان ثمَّة صلة تجمعنا، فيما مضى، أم أنّني أتوهّم ذلك؟

عندما أدركتْ أنَّها لن تتمكّن أبدًا من مقاومة الرغبة بالذهاب، استعارت درّاجةً وانطلقت. اختارت توقيت الزيارة بعناية؛ صباح يوم الأحد. فعمّتها، التي تجاهلت كلّ وصايا الربّ، لا تفوّت أيَّ قدّاس كبير. أصابت آنا في رهانها، كان المنزل فارغًا باستثناء غرفة المعيشة الصغيرة التي وجدت فيها عمَّها بجوار الموقد، جالسًا على الكرسيّ، حيثُ احتضر أبوه ببطء، تحت صورة الجندي الميت. كانت قد أعدَّت نفسها لرؤيته أشدّ نحلًا، لكنّها صادفت، في تلك البقعة المثقلة بالماضي، المحكومة بالوراثة، رجلًا عجوزًا سقيمًا، حدّق بها من دون أن يراها، بنظرةٍ جوفاء باهتة.

برزت رقبة ضامرة من ياقة قميصه، ومعصمان هزيلان من كُمَّي سترته، أصابعه الهامدة تتدلَّى على مسندَي الذراعين. شعره الأشقر الكثّ غدا رماديًّا، تلمعُ من خلاله جمجمة ناتئة. لم يكن ثمَّة علامة تدلُّ على ذلك العمِّ الشاب، ابن المزارع، ذي العضلات المفتولة، الذي تهكّم بترانيم عيد الميلاد في كولونيا. حيّته على استحياء. هل تبيّنتْ ردَّه في تلك الإيماءة الطفيفة من وجهٍ أثقلته التجاعيد؟ كان يجدر في الخطوة التالية أن تسأله عن حاله؛ هذا السؤال، بحسب ما أدركت، من شأنه أن يظهر افتقارها المتحجِّر إلى الإحساس. عشّش هواءٌ حامضٌ في الغرفة الخانقة، تمامًا كما شعرت من قبل بعجزها عن التنفُّس فيها. جلس صامتًا؛ حتّى بدا كأنَّه يلومها على شيءٍ ما. ماتت في فمها الأشياء التي أرادت قولها. رطّبتْ شفتَيها.

- «عمّي هاينريش...»، بدأت.

لم يستجب. كيف لها أن تُكمل؟ الشروعُ بالحديث عن الصكّ مستحيل في هذه الظروف، وروسيا كانت موضوعًا مؤلمًا أيضًا؛ أمَّا لوته فمن المحظورات. الأمر الوحيد الذي تبادر إلى ذهنها، بوصفه موضوعًا ملموسًا وغير خطير، هو مجوعة الكتب الكلاسيكيَّة.

- «كتب والدي...»، قالت باستعجال، «أتتذكّرها؟ شيلر وغوته وهوفمانستال... أودُّ أن آخذها معي».

حدثت المعجزة: انتقل الرأس من نهايةٍ خياليَّة للأفق إلى الأخرى.

- «لماذا لا...؟»، همست آنا، من دون أن يأتي ردٌّ مفسِّر.

نظر إليها، ثمّ أشاح عنها. كانت تختنق تحت السقف المنخفض، بين

الجدران المُطبِقة، بين ميتَين وآخر حيّ بهيئة ميت. استدارت نحو الباب وولّت.

قادت درّاجتها عائدة بسرعةٍ غاضبةٍ، يتقاذفُها السّخط والتعاطف. إن ظنّت حقًّا أن روسيا كانت تمرينًا على التخلّي؛ فما قيمة الممتلكات وقت الجوع والعطش والألم؟ صحّحتْ لنفسها: ألا ترين أنّه مهشّم، مثل قطعة جليدٍ في سهول التندرا؟ ألا ترين أنّ كل ما بوسعه أن يتفوّه به هو لا، لا كبيرة ومدويّة، للجميع ولكلّ الأشياء؟ هذا الرجل، بل ظلّ الرجل، لن تتمكّن أبدًا من محاسبته مرّة أخرى، ناهيك عن عقد الصلح معه.

في اليوم التالي، غيّرت رأيها. حين يهجرها الجميع، فكلُّ ما يتبقّى لها منهم هو الأشياء المادّية. صمّمت على حيازة الكتب، الذكرى الوحيدة الملموسة من أبيها. ذهبت مرّة أخرى إلى محكمة المقاطعة. حصلت على أمر رسميّ، أمر ينصُّ على الإفراج عن الكتب. ثم أدّت رحلة الحجّ الأخيرة إلى المزرعة. كلّ شيءٍ على حاله في الداخل. وعلى الرغم من عجزه عن التحدُّث، لكنّه ظلّ قادرًا على القراءة. كان احترام السلطة متأصّلًا فيه، بدءًا من زوجته المستبدّة، مرورًا بالجيش، وانتهاءً بنظام المُعسكر. لقد فهم جيّدًا محتوى الوثيقة الرسميّة التي يحملُها بين أصابعه الواهية. هذه المرّة، تحرّك الرأس الذي أثقلته التجاعيد من السقف ذي العوارض الواطئة نزولًا إلى الأرضيّة الخشبيّة ثمّ رجوعًا. حملت آنا الكتب عن الرفّ الموجود فوق الخزانة الجانبيّة. قابضةً على كومةِ الكتبِ المضمومة على صدرها، نظرت إليه نظرة أخرى، من فوق

كتب الكلاسيكيَّات. كان كتاب فاوست في الذروة. حدَّقت في الشكلِ البائس بجوار الموقد وازدردت ريقها. لماذا كانت شخصيَّة فاوست ذَكرًا على الدوام؟ ففي تلك الأثناء، كان فاوست الذي يخصُّهما في الكنيسة، يداه مضمومتان، تصلّيان.

*

تلاشى وعيُهما بالوقت والمكانِ فيما كانت آنا تُمسك زمام الحديث. كانتا قد سارتا مسافة طيّتَين في الخريطة حين توقّفت آنا في منتصف كلامها، تقبضُ بيدها على ناحية القلب، في حركةٍ باعثة على الشفقة، لاهثةً. وقفت لوته بجانبها، مستسلمة. بدا الأمر مألوفًا لها. ركضٌ وقفزٌ أوّلًا، ثم ذراعٌ مكسورة أو سنّ يجرح الشفة، في البداية وابل من الكلمات تغمر به الآخرين، ثم انقطاع نفس.

- «دعينا... نعود...»، قالت آنا.

أومأت لوته. عاضدت أختها؛ وعادتا، الخطوة إثر الأخرى، في المسار المتعرِّج، على إيقاع جسد آنا المتثاقل وأنفاسها المتحشرجة. حين أوصلت آنا، إلى ردهة فندقها، أحسَّت أنَّ رحلة العودة قد استغرقت دهرًا. قهوة... أشارتْ آنا، قهوة مركَّزة. لقد سبق أن أعادتها القهوة إلى الحياة في الماضي. وبضحكةٍ مفتعلة، ارتمت على كرسيّ، تلوّح يدها كمروحة. كان وجهها الشاحب يلمع من العرق، وعيناها مغمضتين انتظارًا لهدوءِ أنفاسها. جلست لوته بجانبها، مُذعنة وغير قلقة. فحين سردت آنا قصَّة حياتها، قدَّمت نفسها كشخصٍ منيعٍ، شخص يهزم الموتَ، وجهًا لوجهٍ، بقول الحقيقة الخالصة. وبالفعل، استرجعت آنا

قواها شيئًا فشيئًا، وفتحت عينيها من جديد وراحت تنظرُ إلى لوته نظرةً ثاقبة ومبتهجة.

- «المعذرة، جسدي معكّرٌ للأوقات الجميلة في بعض الأحيان... نحن في راحةٍ هنا... من فضلك، اطلبي شيئًا تشربينه... هل تتذكّرين...».

بذلت آنا جهدًا للاقتراب من لوته ولمس يدها. خطتْ بخفَّة فوق جسدها، الذي كانت تخور قواه بين حين وآخر، كأنّها تخطو فوق جذع شجرة ساقطة في منتصف الطريق، وقالت:

- «هل تتذكّرين، يا لوته، حين جئتُ لزيارتك في لاهاي؟».

تجمَّدت لوته. لكنّ آنا مضت قُدمًا؛ كأنَّها في عجلةٍ من أمرها حقًّا.

- «في البداية، كنتُ قد ذهبتُ إلى كولونيا... على أمل أن يكون العمّ فرانتس ما يزال على قيد الحياة، فهو الشخص الوحيد الذي يعرف عنوانك...».

طلبت آنا فنجانًا آخر من القهوة. مرَّ اثنان من نزلاء الفندق، ينظران إلى العجوز الصاخبة بدهشة. جالَ في خاطر لوته أنَّ بوسعها أن ترى النفور، نعم، بل العداء في نظراتهما.

- «كولونيا...»، قالت آنا بنبرةٍ حالمة، «لن أنسى أبدًا حين كنتُ على الضفة الشرقيَّة لنهر الراين، أحدِّق عبر المدينة جهة الغرب حيث برزت مداخن مصنع الفحم البنيّ في الأفق. بمقدور المرء التعرّف على كولونيا من برجَي الكاتدرائيَّة، اللذين أفلتا من الدمار بأعجوبة. ظلّ جدارٌ واقفًا هنا وآخر هناك، وبين تلك

الجدران، ليس ثمّة شيء. كنتُ على تلك الضفّة برفقة آخرين، ننظر ولا نصدّق ما نراه، لأنَّ المدينة لطالما كانت ماثلة هناك، بين الراين ومصنع الفحم. هُدِّمت كلّ الجسور. وقفنا هناك وأردنا العبور إلى الجانب المقابل؛ جدَّف زورقٌ قادم لنقلنا، كما لو أنّنا قبل ألف عامٍ. على الضفة الأخرى، كان أحدهم بانتظارنا ومعه عربة لحقائبنا، وبدأت رحلتنا على طول الأزقة المتعرّجة بين أكوام الأنقاض، أمّا الناس فكانوا يعيشون في أقبية الملاجئ أو تحت بقايا جدار...».

استمعت لوته على مضض. شعرت برغبةٍ جارفة في العودة إلى فندقها. ألّا تضطرّ إلى الاستماع، لمرَّة واحدة فحسب، ألّا تضطرّ للردّ على أيّ شيء؛ أن تستسلم لشعور فتور الهمّة الذي يسود بعد ظهر يوم الأحد، لا أكثر.

- «أردتُ رؤيتك، لقد بدأ كلّ شيءٍ من هنا... وبالطبع، أردتُ أن أعرف ما إذا كان ابن عمّ أبي وزوجته أحياءً. لقد حالفهما الحظّ، حيثُ نجا المستشفى، ولم يعانيا الجوع لأنَّ الإنكليز زوّدوا المستشفى بطعامٍ وافر. الشيء الوحيد الذي استطعتُ النطق به بعد مفاجأة رؤيتهما على قيد الحياة هو: أنا جائعة. أعدّا لي قدرًا من الأرز بالحليب وأكلتُ وأكلتُ حتّى عجزتُ عن تناول المزيد. أخذتُ عنوان العمّة إليزابيت منهما، وعثرتُ عليكِ في نهاية المطاف... يا إلهي، لن أنسى ذلك أبدًا!».

*

بينما كانت آنا تنتظرُ أخبارًا من عمّة أبيها في أمستردام، التي لا تتذكّرُ عنها شيئًا سوى أنَّها مَن اجتثّتْ لوته من الثنائيَّة التكافليَّة بدقَّة جراحيَّة منذ زمنٍ بعيدٍ، باغتها القلقُ بشأن ألّا تكون لوته، بدورها، على قيد الحياة. تذكّرتْ قصف روتردام الذي تكلّل بالنجاح في بداية الحرب، وبعد ذلك، لم تكن على دراية بما أحدثته الحرب في هولندا.

عقب بضعة أسابيع، أخذت الأمور منحًى ورديًّا بعض الشيء. كانت لوته تترقّب قدومها، حيث عبّرت في رسالةٍ مُلغزةٍ عن موافقتها على مجيء آنا. ومن داخل القطار، تبيّن لها أنَّ هولندا لم تتكبّد دمارًا هائلًا كالمتوقَّع. بدت المروج ملساء ومحصودة، وقطعان الماشية جيّدة التغذية كأنَّها في صورة بطاقة بريديَّة إلى جانب الجسور وأبراج الكنيسة. كان المشهدُ أقلّ بانوراميَّةً في ترام لاهاي. المقاعد جميعها مشغولة، والركاب الواقفون في الممرّ المركزيّ يتصادمون عند كلّ منعطف. وقف رجلٌ دمث في منتصف العمر وأفسح المجال لآنا. ارتمت على المقعد مع لازمتها الأبديَّة؛ الحقيبة الجلديَّة، وهي تهمس شاكرةً:

- «دانكه شون».

- «ماذا...؟»، صاح الرجلُ مصدومًا، «أأنتِ ألمانيَّة! قومي في الحال!».

نهضت آنا، مع أنَّها لم تفهم إلّا نصف ما قاله، لكنَّها أدركت جيّدًا مقصده. استدارت كلُّ الوجوه، بنظرات الاتّهام، نحوها.

- «أفهمُك تمامًا»، قالت معتذرةً بسذاجة، «أفهمُ تمامًا رفضك لنا.

لكنّني لستُ نازيَّة، سواء أردتَ أن تصدّق ذلك أم لا، أنا امرأة عاديَّة، مات زوجي في الحرب، وليس لي أحدٌ سواه. هذا كلُّ ما أستطيع أن أقوله لك...».

ساد صمتٌ بليغٌ من حولها. أشاح الناسُ عنها باحتقارٍ. تشبّثت آنا بالحزام وشعرت للمرّة الأولى بما يعنيه كونك ألمانيًّا من الآن فصاعدًا. أن يدينك أشخاصٌ لا يعرفون عنك شيئًا. ألّا ينظروا إليك كفردٍ، بل كعينة من نوعٍ منفصلٍ، لأنّك قلتَ دانكه شون بدلًا من شكرًا جزيلًا.

لكنَّ تضامنها الذي لا يتزعزع مع تاريخها وافتقارها للوعي السياسيّ حالا، مؤقّتًا، دون وقوعها في فُصام الذنبِ الجمعيّ والبراءة الفرديَّة. بالنسبة لها، آنا غروزالي، كان هذا يومًا تاريخيًّا. لم تكن ألمانيَّة بقدر ما كانت شخصًا تُرِكَ وحيدًا في العالَم، يستجدي العثورَ على الأمان في سنوات طفولته الأولى. روابطُ الدمِ التي يحظى بها معظم الناس كمُسلَّمات كانت شيئًا عليها السعي لاسترداده. ترجّلت وأوقفتِ أحد المارة وأظهرت له الرسالة مع عنوانها من دون أن تنبس بكلمة. لن تدع لغتَها تندُّ عن شفتيها؛ فلربّما أرشدها عامدًا إلى الاتجاه الخاطئ.

*

- «هذه هي الأشياء التي لا ينساها المرء ما حيا»، قالت آنا.

- «المرء لا ينسى أيّ شيء أبدًا»، عقّبت لوته بتجهُّم.

- «أيّ خيبةٍ للأمل كانت زيارتي لك... لقد رفضتِ التحدّث بالألمانيَّة، لم أستطع التواصل معك إلا من خلال زوجك؛ في

حال حدث تواصل أصلًا. ترجم، ذلك الرجل الطيّب، كلّ ما قلتُه والإجابات القليلة التي قدّمتِها».

- «لم أستطع نطق أية كلمة ألمانية. توقّفت عن فهم هذه اللغة. لو كنتِ تحدّثت إليّ بالروسية، لكان الشيء نفسه».

- «لكنّ هذا مستحيل، إنّها لغتك الأمّ! ما زلتِ قادرة على التحدّث بها بطلاقة حتّى الآن».

- «حسنٌ، كان الأمر كذلك».

- «بالطبع كان السببُ نفسيًّا. كنت لا تريدين التعامل معي، واتّخذت الهولنديّة ترسًا تحتمين به...».

تصاعدت حدّة آنا.

- «لا تعرفين كم كان الأمر صعبًا عليّ. كنتِ الشخص الوحيد الذي أملك. أردتُ التعرّف إليكِ، أردتُ الاعتذار عن سلوكي حين جئتِ لزيارتي. أردتُ أن أريكِ أنّي تغيّرتُ. لكنّكِ كنتِ مشغولة بطفلك. طفل؛ تدهورَ كلّ شيءٍ هنا! كنتِ تحمّمين الطفل، وتطعمينه، وتمشطين شعره... وقد تجاهلتِ وجودي. فعلتُ كلّ ما بوسعي للفت انتباهك: لكنّي كنتُ كخيطِ الهواء بالنسبة لك. كان زوجك مُحرجًا من الموقف وحاول تلطيفه قدر الإمكان... لماذا لم تثر ثائرتك في وجهي؟ لماذا لم تكيلي أقذع الشتائم لي حتّى يتسنّى لي الدفاع عن نفسي على الأقلّ؟ لكنّك آثرتِ التجنُّب... عددتِني غيرَ موجودة».

تلفّتت لوته حولها باهتياجٍ، تبحث عمَّن تسدّد له ثمن قهوتها.

أرادت المغادرة بأسرع وقتٍ ممكن. فكلّما طال أمدُ بقائها، تزايدت عبثيّة الموقف. كأنّها مستدعاة للمرافعة عن نفسها. بات العالمُ رأسًا على عقب.

- «لم أطلب إليكِ المجيء، لم يكن يعنيني أمركِ».

- «هذا صحيح، لم يكن يعنيكِ أمري... فقد أنجبتِ طفلكِ...».

- «هذا الطفل كان خلاصي»، ردَّت بلهجةٍ لاذعةٍ، «لقد صالحني مع حياتي... أولادي هم كلُّ شيءٍ بالنسبة لي».

تنهّدت آنا يأسًا. ما زالت شقيقتُها بعيدة المنال، خلف حصون الذُريَّة؛ أمَّا هي فما زالت وحيدة وبلا أطفالٍ، على الرغم من مئات الأطفال الذين ساعدتهم في حياتها. شعرت بألمٍ غامض في صدرها... من الانفعال... غبيّ، غبيّ، غبيّ. كم كانت سخيفة حين ظنّت أنّها ما تزال قادرة على إصلاح شيء ما.

- «لوته، لا تذهبي»، قالت بندامة، «كان ذلك منذ زمنٍ بعيدٍ. ما رأيك... ما رأيك أن نذهبَ لتناول العشاء، عزيمة منّي. لقد حدثت معجزة حقيقيَّة حين عثرنا على بعضنا البعض مرّة أخرى، هنا في سبا، دعينا نستمتع بذلك ما أمكننا...».

سمحت لوته لنفسها بأن تنجرّ نحو الاقتناع. ما الطائلُ من ذلك الهرج بعد كلّ شيء؟ إنَّه مساء الأحد، وليس لديها أيّ التزام. توجّهتا إلى غرفة الطعام وطلبتا مشروبًا فاتحًا للشهيّة.

- «أحضرتُ أختي معي»، هتفت آنا بفخرٍ.

ضحك النادلُ ضحكة بكياسة. شعرت لوته بأن الغيظ يتغلغل داخلها مثل حكَّة.

- «متى مات زوجكِ؟»، سألتها آنا، «لقد نال إعجابي. كان جادًّا ومثقفًا... ولبقًا... أكادُ أقولُ...».

- «منذ عشر سنوات»، قاطعتها لوته باقتضاب.

- «كيف؟».

- «نوبة قلبيَّة... الإرهاق بعد كلّ ذلك العمر...».

- «هل تزورين قبره؟ أم أنَّه كان...».

- «في بعض الأحيان...».

رفضت لوته التوسّع في الحديث. ليس لديها رغبة في الانخراط بمنافسة معها؛ مع ضابطٍ قُتل في الحرب.

- «أزوره مرتين كلّ عام، في يوم ذكرى الأموات وفي الربيع، وآخذ معي إكليل زهورٍ وشمعة».

*

مرّتين في كلّ عام، استقبلتْها الأمّ وابنتها بحفاوة لإحياء ذكرى الموت المأساويّ ومعجزة النجاة. فكرة أنَّ قبره لم يُبارك كانت تحزُّ بنفسها، لذا قررت التحدّث إلى الكاهن المتعنّت. انتظرته بعد القدَّاس الذي تمحور حول الوصية الإلهيَّة المقدَّسة «أَحِبُّوا أعدَاءَكُم». كان ما يزالُ مرتديًا الثوب الكهنوتيّ. استوقفته قائلة:

- «أيّها الأب، أحد الجنود الثلاثة في المقبرة كان زوجي. نحن كاثوليكيّون، زوجي وأنا، لذلك ألتمسُ إليكم الطلب بمباركة قبره».

ضحك هازئًا.

- «لا يهمّني ما إذا كنتما كاثوليكيّين أم لا، أولئك الجنود كانوا في قوّات إس إس».

- «ولكنّك...»، ذكّرته آنا، «كنت تتلو منذ لحظات موعظةً تقول: أَحِبُّوا أعدَاءَكُم».

رفع حاجبًا من حاجبَيه المكتنزين الفاحمين، ما أعطاه هيئةً شيطانيَّة، وتلفّظ ساخرًا:

- «لا أبارك قبرًا لجنديٍّ من تلك القوّات».

- «بقي مع الإس إس أسبوعين فحسب»، صرختْ، «لم يكن أمامه خيار آخر على الإطلاق!».

ردًّا على جيشانها العاطفيّ، رمقها الكاهن بنظرة ازدراءٍ قبل أن يتركها حيث كانت واقفة، ويخطو في ظلام الممرّ الجانبيّ.

مباركًا كان أم لا، ادَّخرت أوّل مبلغ تقاضته كموظّفة في السلطة المحليَّة لكولونيا لشراء شاهدة قبر وصليب من الحجر الرمليّ، نُقشت عليه الأسماء الثلاثة. ظلّ اللوح الحجريّ قائمًا لعقدٍ من الزمن، بين شجيرات الطقسوس والصنوبريّات، واعتنت به النساء الثلاث جيّدًا حتّى نهاية الخمسينات، حين دارت الشائعات بأنّ رفات الجنود سينقل إلى مقبرة حديثة على تخوم قرية مجاورة. في هذه الأثناء، ارتأت آنا نقله إلى كولونيا. نجحت في الحصول على تصريح من مجلس المدينة لدفنه في مقبرة الجنود بكولونيا. مسلَّحة بهذا الإذن، زارت الكاهن مرّة أخرى، حيث كانت المقبرة تابعة لسلطة الكنيسة. وبعد أن أبلغته بقرارها، على

نحوٍ رسميّ وحياديّ، وأبرزت التصريح أمامه، تركت عنوانها لديه وطلبت إخطارها بموعد إفراغ القبر.

ثمّ جاء يوم ذكرى الأموات، وأدّت آنا طقوس رحلة زيارتها. كان الضباب الكثيف معلّقًا في دنوٍّ من الأرض، يفوح برائحة الأوراق النديّة والأقحوان. كعادتها، فتحت البوّابة التي تحدثُ صريرًا. خطت بين القبور تحملُ الشموع المشتعلة؛ ظلّت ألسنة اللهب ثابتة في الهواء المشبع بالرطوبة. في البقعة التي تنتهي عندها رحلتها، بوضع إكليل الزهور والصلاة، صادفت مربّعًا من العشب، خاليًا، تتناثر عليه أوراق الخريف الجافّة. تلفّتت حولها حائرة. هل سارت في الطريق الخاطئ؟ مذعورةً، راحت تفكّرُ: قبري؟ أين قبري؟ رأت موكبًا يتقدّم على طول المسار المركزيّ المغطّى بالطحالب، يلفُّه الضباب. الكاهن في الصدارة، متدثّرًا بردائه، يتبعه القرويّون بشموعهم. بدأت تعي ما يجري. هنا مشى الممثّلُ المتعنّت للكنيسة الأمّ بزيّه المهيب الذي بدا تهريجيًّا عليه. هنا عبرَ المتظاهِرُ بالورع، الذي لا قلب له، وكان الناس موشكين على الصلاة، تحت إشرافه، من أجل خلاص أرواح الموتى. ربّما سيُحاسب على كلّ ذلك ذات يوم، لكنّها لا تطيق الانتظار بهدوء ريثما يتمّ ذلك. بخطواتٍ واسعةٍ، تشعُّ بالتوق إلى الانتقام، سارت إليه ووقفت في منتصف المسار، ويداها على وركيها. ارتفع الحاجبُ المكتنز.

- «أين قبري؟»، ثارتْ في وجهه، «أين زوجي؟ أين شاهدة القبر؟ لقد أعطيتُك عنواني، كان عليك أن تخبرني!».

حدَّق القرويّون بها مذهولين. أدركوا بالضبط ما تتحدّث عنه آنا،

فهي أرملة الحرب التي يعرفونها. لم يقل الكاهن شيئًا؛ نقل ثقل جسمه من ساقٍ إلى أخرى، ورمقها باستهجان، كما لو أنَّ التي أمامه امرأة مصابة بالهستيريا.

- «لم يعد هناك أيّ شيء...»، صرخت، «لا شيء...».

سمعت رنينًا بأذنيها، كان وقعُ صوتها قد تلاشى في المحيط. تمايلت وهي تتنحّى عن الطريق، غلبها الدوار، وتركت نفسها ترتمي على شاهدة قبر متهالكةٍ، من دون احترامٍ للميت، دافنةً رأسها في كفيها، وسقط إكليل الزهور بين العشب حولها. وفيما واصل الموكب مسيره، جثت امرأة مسنّة بجانبها وهمست لها:

- «لقد أخرجوهم من القبور ونقلوهم إلى غيرولشتاين، إلى المقبرة التذكاريَّة».

بعد ساعات، حين عادت إلى رشدها، كانت في غيرولشتاين، لم تجد مقبرة شاعريَّة تغزو شواهدها الطحالب والصلبان التي يعرّش عليها اللبلاب، بل حقلًا مُستحدثًا، قُسِّم هندسيًّا إلى مستطيلات متناسقة. شرائط متوازية من الرمل الأبيض تفصل بين ألواحٍ عموديَّة مرقّمة. وضعت إكليلها وسط المقبرة. آسفة يا مارتين، اعتذرتْ، لقد بات إكليل الزهور الآن من أجلكم جميعًا.

*

- «غُرست الصلبان هناك في وقتٍ لاحقٍ. وقد ظلّ الجنود الثلاثة سويّة، جنبًا إلى جنب»، ضحكت آنا. «كأنَّ مكوثهم في السيارة بدلًا من سرقة التفّاح عقد فيها بينهم رابطةً أبديَّة. كانت عبارة

«جندي مجهول» منقوشة على العديد من الصلبان. ما زلتُ أذهب إلى هناك بين حينٍ وآخر، في الربيع تحديدًا. المقبرة على قمَّة تلّة، عند حافَّة العالم، ومنسيَّة. الهدوء يسودُ هناك. تأتي الأمهات أحيانًا للسير هناك برفقة أطفالهنّ، لأنَّ المكان هادئ للغاية. أتكئ على جدارٍ منخفضٍ، محاذٍ للقبر، يتوقّفن للدردشة معي، ويسألنني من أين جئتُ ولماذا. أخبرهنّ أنّي قدمتُ لزيارة زوجي هنا. كن يرتعدن. لم يستوعبن ذلك، فقد مضى وقت طويل. في الحقيقة، كان الحال ينطبق عليّ. في السنوات الأخيرة بتُّ أتساءل: ما الذي أفعله هنا؟».

أومأت لوته إيماءة كسلى. لقد شربت من النبيذ ما يفوقُ الكمّ الملائم لها. لم تنسجم مع موضوع الحديث. وآنا، ما انفكّت عن المُضيّ به، لكشف المزيد من الحقائق. حقيقة أنَّ موتًا بطوليًا يمكن أن تستتبعه عواقبُ من هذا القبيل.

حافظت آنا على رباطة جأشها.

- «أمّا الآن فأودُّ أن أسألك: لماذا نعتقد حقًّا أن الوجود الروحيّ للمتوفّى ينبغي أن يظلّ مرتبطًا بتلك البقعة الوحيدة؟ لماذا نعود إلى هناك؟ أبدافعٍ من الحنين؟ ومن الذي يستفيدُ من ذلك؟ بائعو الزهور؟ البستانيّون؟ أولئك الذين يصنعون شواهد القبور؟ ثمَّة صناعة كاملة قائمة على ذلك. إنّها مصدر رزقهم، ولهذا السبب لا نكفُّ عن المجيء... هل تريدين أن تُدفَني؟».

- «أنا؟»، جفلت لوته. «بالطـ.. بالطبع»، تلعثمت.

وبطيشٍ في غير محلّه، حرّضه الامتعاض، أضافت:

- «أريدُ قبرًا تغطّيه الأزهار البريّة... لديّ خمسة أولاد وثمانية أحفاد يمكنهم الاعتناء بها».

- «حين أموت، لن يتبقَّ منّي أيّ شيء»، قالت آنا لإظهار التناقض، «لن يكون ثمَّة حديقة صغيرة يمكن لأحدٍ الذهاب إليها وإنفاق المال مقابل وضع الزهور على قبري. من سيفعل ذلك من أجلي؟ من الذي قد يهتمُّ لهذا؟ ففي النهاية، لن أكون هناك على الإطلاق».

دفعت لوته فنجان قهوتها الفارغ جانبًا ونهضت بتمهُّلٍ.

- «مضطرّة للذهاب الآن»، تمتمت.

كأنّما الكحولُ قد نقل كامل وزن جسدها إلى رأسها. غادرت غرفة الطعام، يغمرها شعورٌ بالثقل، بينما واصلت آنا كلامها.

أمسكت بكتفها وهي تتنفّسُ بعسر:

- «هل تتذكّرين ذلك اليوم... الذي دُفنت فيه... أمّنا؟».

- «لا، بالطبع لا».

انتزعت لوته معطفها على نحوٍ أعمى. لا مزيد من المقابر، كانت تتوسّل في دخيلتها.

- «لقد وضعوا نعشها على الأريكة. كنّا قد تسلّقنا عليه، لننظر خارج النافذة، ونترقّب قدومها. استراحت أقدامنا على عتبة النافذة. نقرنا بصوتٍ عالٍ على النافذة بأحذيتنا الجلديّة اللامعة لأنَّ الانتظار استمرَّ طويلًا، لعلّها تسمعُ الصوت وتسرع. رفعنا

أفرادُ الأسرة الساخطون عن النعش. لم أدرك إلا الآن آننا كنّا جالستَين فوقها...».

- «حسنٌ...»، قالت لوته غير مبالية.

بالنسبة لها، ثمّة أمٌّ واحدة؛ هي الأمُّ الأخرى. زرّرت معطفها وتلفّتت حولها بسأمٍ.

- «سأرافقكِ إلى الخارج»، قالت آنا.

تحت ضوء السقف السَّاطع، رأت تعبيرًا بين الاستسلام والحنق على وجه أختها. تذكّرت أنَّ أباها ظهرَ بملامح شبيهة تمامًا في أيّام سقمه الأخيرة. لا بُدَّ أنَّ تعابير الوجه تنتقلُ بالوراثة! لم تجرؤ على إخبارها باكتشافها. اندفعت لوته بخطى متسارعة، ولم يكن هناك سوى سبب وحيد لذلك: أنّها عادت إلى كثرة الكلام وصخبه.

بكلّ القوى التي تستطيع عجوزٌ ثملة أن تحشدَها، دفعت لوته الباب الأمامي الثقيل. عند العتبة، تردّدتْ.

- «تصبحين على خير».

قالت بصوتٍ واهنٍ للقوام المستدير الذي شغل حيّز المدخل وظلَّ يشعُّ اتّقادًا لا يخمد.

- «آسفة لأنّي عاودتُ الثرثرة اليوم».

وضعت آنا ذراعيها حول لوته شاعرةً بالذنب.

- «أعدكِ، في الغد، أن أدع الجانب الهادئ منّي يطغى. نومًا هنيئًا، يا حبيبتي، أحلامًا سعيدة...».

في تلك الليلة، لم تحظَ آنا بشعورِ الخفَّة التي تُسلّم المرء لقياد النوم. تزاحمت صور الجنائز والمقابر. بنظرةٍ إلى الوراء، بدا لها أنَّ الموت يدمغُ حياتها على نحوٍ راسخٍ، كما الحال في مقطعٍ عرضيٍّ بقشرة الأرض المتجمّدة يُعثَر فيه على أثر العصور الجليديَّة السالفة؛ كثيرًا ما غيّر هذا الموتُ مجرى حياتها بوحشيَّة وقسوةٍ. غمرتها غبطةٌ مدهشةٌ، كأنَّ حدثًا احتفاليًّا على وشك الحدوث. ماذا يمكن أن يكون هذا الحدث غير تتويج محاولات التقارب المستمرَّة منذ أسبوعين؟ لقد حان الوقت لعقد مصالحةٍ مع شقيقتها العنيدة والمُراوِغة، على الملأ. إن كانت كلتاهما، المولودتان في الوقتِ نفسه من رحمِ الأمّ نفسها، المحبوبتان من الأب نفسه، عاجزتين عن تخطّي العقبات السخيفة التي أوجدها التاريخ، فمَن، على وجه الأرض، سيكون قادرًا على ذلك؟ أيّ مستقبلٍ ينتظرُ العالَم إن لم تستطع هاتان المرأتان، اللتان يُفترض أنَّ تقدّم العمر زادهما اعتدالًا، الأخذ بزمام المبادرة؟

أحسَّت بالاختناق، وأزاحت البطانيَّة عنها، وتقلّبت على الجانب الآخر. حين كادَ الصبحُ ينبلجُ غلبها النوم على غفلة. كان حلمُها عامرًا بملائكة ذوي ريشٍ من شتّى الأشكال والألوان. تعرَّفت على معظمهم من الوهلة الأولى، وبعضهم بعد قليلٍ من التفكير. كانوا أشفاعًا باستثناءٍ وحيدٍ. غادر الملاكان الماثلان على جانبَي الدرج في كنيسة القديس كارل، قاعدتهما، وحلّقا فوق القبّة الخضراء، نحو السحب، يرفرفان جناحيهما بقوَّة مع حفيف الأردية، يضمُّ كلٌّ منهما صليبَه إلى صدره. هبطت حارستا المتجمع الحراريّ عن الشرفة وحلّقتا في أعقاب الملاكَين. في

الأعلى، على سحابة ذات حوافَّ مذّهبة، رقدت المرأتان العاريتان اللتان اعتادتا الاتّكاء على زخرفة شبيهة بالصَّدَفة في القاعة؛ إحداهما تحاولُ وسعها لفتَ نظر الأخرى التي كانت (أتراها عامدةً؟) تحدّق بعيدًا بتأمُّل. تضرّجت كلُّ الوجوه بالانعكاسِ الورديّ لغروبِ الشمس. في الخلف، حيثُ تبدَّى الليلُ بلونٍ أرجوانيّ داكن، نزل شخصٌ فجأةً من ارتفاعٍ شاهقٍ، منزلقًا بمعطفه الأسود العريض. ثبّت القبّعة على رأسه بيدٍ وأمسك العصا بيدٍ أخرى. تبعه طفلان مكتنزان، على ظهرِ سمكة، على إثر التيّار الجارف الذي خلّفه المعطف. تذكّرت آنا، على نحوٍ غامضٍ، أنّها صادفتها خلال إحدى نزهاتها، عند معلمٍ أثريّ أُقيم تكريمًا للمشاهير الذين زاروا سِبا على مرّ القرون: ملاكٌ من الكيروبيم يجلسُ على ظهر سمكة بوجهٍ خبيث، وعلى الجانبين قائمة من الأسماء المنحوتة في الحجر.

بعد ذلك، كان الليل. لم يكن هناك ما يشتّتُ انتباهها سوى الملاك الذي ظهر بغتةً، تحت ضوء القمر، لا، ليس ملاكًا بل عُقاب، شقَّ، مثل وميض برقٍ، الظلمة العميقة والمطلقة الشبيهة بليالي الإعتام إبّان الحرب. تقلّبت آنا إلى جانبها الآخر، الأمر الذي سلبها، أو بالأحرى حرّرها، من أحلامها تلك.

٤

حبلٌ معلَّق فوق حوض الاستحمام النحاسيّ المنحني، له مقبضٌ مكتوب عليه «اسحب» بأربع لغاتٍ مختلفة. حين يعطي المنبّه إشارة بانتهاء الوقت المحدَّد، جرَّة خفيفة للحبلِ من نزيل الحمَّام تعني مجيء امرأةٍ برداءٍ أبيض، تساعد على النهوض والتجفيف.

بدأت لوته أسبوعها الأخير بحمَّام خثّ وحمَّام غاز ثنائي أكسيد الكربون. كانت تستريحُ، ملفوفة بمنشفة، تطهّر جسدها من الداخل بشرب مياه «سپا-رين». ساد الصمتُ كما في غرفةٍ مصمتة الجدران. لم يتسرّب أيُّ صوتٍ من العالم الخارجيّ، كما لو أنَّ مجمَّع الحمامات مدفون في كهوفٍ عميقةٍ بجوفِ مرتفعات «أوت فانيه»[1]، حيثُ أصل الينابيع مباشرة.

لكنَّ الصمت انقطعَ على نحوٍ فظّ. في مكانٍ قريب، صاح صوتٌ: «يا إلهي!». دوّت خطوات مستعجلة في الممرّ. صرخة كُبحت على الفور. فُتح بابها؛ كانت المرأة ذات الرداء الأبيض عند العتبة، تفرك يديها.

(١) محميّة طبيعيّة ضخمة ومقصد سياحيّ على الحدود البلجيكيّة الألمانيّة. (المترجم)

- «سيّدتي، سيّدتي... بما أنّكما كنتما على الدوام معًا... تعالي... صديقتُك...».

انتعلت لوته صندلها وتبعت المرأة إلى أحد الحمّامات المجاورة حيث كان الباب مفتوحًا على مصراعيه. في الداخل، كان الطبيبُ قد استُدعي. ركض أحدهم بلا بصيرةٍ وكاد يصطدم بلوته. تقدّمت خطوتين على الأرضية المبلّطة. في البداية، لم ترَ سوى الجزء الخلفيّ العريض للمرأة الموجودة أمامها، لكنّها سرعان ما ابتعدتْ لتفسح المجالَ لها لرؤية ما لم تستطع قوله بشفتيها.

كانت آنا تحدّق بها بعينين لامعتين، مستلقيةً داخل حوض الخُث، بدت مقطوعة الرأس، جسدُها غارق إلى الأبدِ في قاع المستنقع البنيّ بينما ظلَّ رأسها طافيًا على السطح، مدفوعًا بالكتلة الموحلة. حدَّقت نحو لوته بنظرةٍ خاليةٍ من المشاعر: الانفعال، الغيظ، الازدراء، الغضب، الحزن... غياب تامٌّ لكلّ الأحاسيس التي تبادلتاها بتغيُّرٍ مستمرّ على مدى أسبوعين والتي تشكّل بمجموعها ذلك الكائن بالغ التعقيد المسمَّى: آنا. الأكثر رعبًا هو صمتُها الجليّ... أنَّها لم تكن تشرح ما حدث لها، كعادتها، لم تتحدّث بحيويَّة مصحوبة بإيماءات. تلفّتت لوته حولها، مرتبكة. كان حمَّامًا مثل بقيّة الحمّامات، رطبًا ودافئًا. هل أصابها الاختناق؟ انتهى البلاط الأزرقُ الفاتح في الأعلى بإطارٍ ذي زخارف صَدَفيَّة؛ كان هذا آخر ما رأته آنا. هل ذكّرها ذلك ببحر البلطيق، حيث كادت تغرق برفقة زوجها... حيثُ، تمنّت، فيما بعد، لو أنَّها غرقت بالفعل...؟ كان هذا آخر ما رأته آنا؛ قبل ذلك بقليل، كانت على قيد

الحياة ودخلت الحمّام بنشاطها المعتاد. يا لها من مزحة سمجة، مروِّعة... كانت آنا على وشك الإتيان بحركة من جديد: يا إلهي، ما هذا الموقف التافه...!

هرع طبيب يلحقه فريق إنقاذ.

- «ماذا تفعل هذه هنا؟»، احتجّ أحدهم. «الوقت غير ملائم للسماح بدخول النزلاء».

- «لكنّها صديقتها...»، تلعثمت الممرّضة التي أبلغت لوته.

تراجعت لوته، بعيدًا عن تلك النظرة الجوفاء الفارغة التي لم تنضح إلّا بالعدمِ المفجعِ، بعيدًا عن الموقف الحميم وغير المتوقّع الذي ورّطتها به آنا، من دون أن تسألها.

ركضت الممرّضة وراءها.

- «المعذرة سيّدتي... ظننتُ أنّكِ ينبغي أن تعرفي في الحال... ربّما... ربّما ما زال بوسعهم مساعدتها... في بعض الأحيان، يُحدث الإنعاشُ المعجزات... علينا أن ننتظر... إلى أين ستذهبين الآن؟».

- «إلى صالة الاستراحة، أ... أعتقد أنّني بحاجة إلى الاستلقاء قليلًا»، قالت لوته بصوتٍ أجشّ.

- «بالطبع... أعي ذلك... سأبقيكِ على اطلاع بما يجري...».

باستثناء تمثالٍ نصفيّ لاثنين من الأساتذة الذين ساهموا في ازدهار الحمّامات العلاجيّة إسهامًا كبيرًا، والشخصيّة الأنثويّة الوحيدة التي

تذرع مشهدًا مقفرًا في لوحةٍ ضخمةٍ تهيمنُ على الغرفة بأسرها، كانت صالة الاستراحة فارغة. ارتمت لوته على أوّل سريرٍ صادفته. لقد فات الأوان، لقد فات الأوان، تردَّد الصدى في رأسها. لقد أدركت أنَّها لطالما سلَّمتْ بافتراضٍ باذخٍ مفاده أنَّ بحوزتها متّسعًا هائلًا من الوقت. والآن، فجأةً، في صباح يوم اثنين، قبل أسبوعٍ من مغادرتها، انسحبت آنا من السيناريو. كيف أمكن ذلك...؟ آنا، العصيَّة على التدمير، آنا، التي لا تملُّ التحدُّث لساعاتٍ، وهذا سبب، من بين أسبابٍ أخرى، جعلها تبدو متمتّعة بحياةٍ أبديَّة... مثل سام وموس في النكتة التي لطالما ساقها ماكس فرينكل لرفع الروح المعنويّة خلال الحرب: حين سُئل سام وموس، الناجيان الوحيدان من حادثة تحطّم سفينة، عن طريقة الوصول لبرّ السلامة، أجابا بكثيرٍ من الإيماءات التي تحاكي تجديفَ كلبٍ غارقٍ: واصلنا الكلام بلا انقطاع.

في الخارج، كانت الحمائمُ تهدلُ كعادتها. كلُّ شيءٍ على حاله المعهودة، إلّا شيء واحدٌ أساسيّ كان ناقصًا. فكّرتْ لوته؛ قبل أربعة عشر يومًا لم تكن موجودةً بالنسبة لي، والآن، هل سأفتقدُها؟ نعم، زمجرَ الصمتُ في صالة الاستراحة، اعترفي بذلك! لقد قالت آنا: «أعدك، في الغد، أن أدع الجانب الهادئ منّي يطغى». وعدٌ زائفٌ تجسَّد الآن في معنى مرير، مشؤوم. سواء فتحت عينيها أم أغمضتهما، ظلَّت لوته ترى تلك الصورة المتجمّدة أمامها. لم تستطيعا تبادل الوداع. ما زال في جعبتي الكثير لأقوله لها، فكّرتْ، ينتابها شعورٌ يتعاظم من الندم. حسنٌ، ماذا بعد ذلك، صاح صوتٌ ساخر، ماذا كنتِ ستقولين لها لو عرفتِ ما سيحدث؟ كلامًا

لطيفًا، مجامِلًا، مواسيًا، آه؟ هل كان بوسعك أن تبوحي لها بها ودَّت أن تسمعه بالفعل، ما كان يعني لها كلَّ شيءٍ؟ هل كنت ستنجحين في النطق بهذه الكلمة الوحيدة: «أتفهّمُكِ...»؟

هذه الكلمة، البسيطة بظاهرها، كانت مزلزلة للغاية بالنسبة للوته، وقد تراكمتْ في حلقها، كأنَّها، في تلك اللحظة، بعد أن فات الأوان، فات الأوان، فات الأوان، أرادت إعتاقها. بدلًا من ذلك، راحت تبكي، بهدوءٍ وصمتٍ، تماشيًا مع جوّ الصالة. لماذا بقيت كلّ ذلك الوقت متشبّثة بموقف المقاومة الذي تبنّته منذ البداية؟ ففي حين شعرت بالمزيد والمزيد من التفهُّم والتعاطف مع آنا، ظلَّت، بعنادٍ مقصودٍ، بعيدةً، عصيَّة على الاقتراب. أبدافعٍ من الانتقام الزائف الذي دفعت آنا ثمنه ظلمًا؟ أتضامنًا مع الموتى، موتاها؟ أم انطلاقًا من انعدام الثقة، الراسخ عميقًا بداخلها: حذارِ من التبرير «لم نكن نعرف»، حذارِ من التفهُّم؛ فبمقدور المرء أن يتعاطف مع الجلّاد حتّى، إن اطّلع على ماضيه.

تدفَّقَ عجزُها على خدَّيها؛ لقد فات الأوان، فات الأوان. تصاعد هديلُ الحمامِ مثل استهزاءٍ يرنُّ بأذنيها. لقد فات الأوان على نحوٍ لا رجعة عنه. هربًا من ذاتها، رفعت الستائر ونظرت إلى الفناء الرماديّ المختبئ في الخلف، مجال الحمائم. فيما كانت تحدِّق نحو الخارج، من وراء الزجاج، تراءت لها الذكرى التي أرادت آنا أن تتشاركها معها في الليلة السابقة، عند النهاية تمامًا. رأت نفسها، بوضوحٍ كثيفٍ كأنَّه حدث بالأمس، جالسة فوق نعشٍ على الأريكة برفقة أختها، تنقران على النافذة بأحذيتهما؛ تعويذة سحريَّة لحثّ الأم على غذّ الخطى. رأت زوجَين من

الأرجل القويّة، بجوارب بيضاء، وأحذية ذات أربطة. تنقر بتزامنٍ دقيق كأنّها، معًا، زوجٌ وحيدٌ؛ ليس لإخطار الأمّ فحسب، بل لحجب ضجيج الأصوات الغريبة القادمة من حولها ولإبقاء حقيقة لا تُحتمل على مبعدةٍ. نظرت جانبًا إلى شعر آنا الأشقر، شفتيها المزمومتين بإحكام، وعينيها الشرستين اللتين تمنحانها هيئةً ماكرةً.

لقد فات الأوان! أفلتت الستارة. فُتح الباب في تلك اللحظة، وتقدّمت المرأة ذات الرداء الأبيض، ملاك الموت الذي يخصُّها، على رؤوس أصابعها.

- «للأسف...»، شابكت يديها، «ليس بوسعهم أن يفعلوا المزيد لإنقاذها. القلب، آه. علمنا ذلك... مذكورٌ في سجلّاتها الطبيَّة أنَّ لديها قلبًا ضعيفًا وعليها تجنّب الحمّامات الساخنة جدًّا... هل تعلمين شيئًا عن عائلتها؟ ينبغي تنظيم نقلها إلى كولونيا وتنسيق شؤون الجنازة... لا نعرف... أنتِ صديقتها بكلّ الأحوال...».

- «لا...»، قالت لوته منتصبةً.

وقع نظرها على زجاجات المياه المعدنيّة ورزمة الأكواب البلاستيكيّة. من جديد، سمعت آنا وهي تسألُ بفرنسيَّة مدرسيَّة: «هل مسموحٌ.. لنا.. أن نشرب من هذه المياه؟». ومن جديد، سمعت نفسها تجيب، ببداهةٍ لم تدرك عواقبها إلّا في هذه اللحظة: «نعم، يمكنك الشرب».

- «لا...»، كرّرتْ، وهي تنظرُ إلى المرأة بتحدٍّ، «أنا... هي أختي».

تنويه من المترجم

المقطع الوارد في الفصل الخامس من الجزء الأوّل، مقتبس من كتاب رأس المال لكارل ماركس، المجلّد الأول، ترجمة فالح عبد الجبار، الصفحة ٢٩٩، دار الفارابي، الطبعة الأولى ٢٠١٣، بيروت - لبنان.

المقطع الشعريّ الوارد في الفصل الثاني من الجزء الثالث، مقتبس من فاوست لغوته، ترجمة سهيل أيوب، الصفحة ٤٥٧، دار الينابيع، ١٩٨٠.

شكر وعرفان

أتوجّه بجزيل الشكر لكلِّ من مدَّ يد العون وساهم في تحسين النصّ أو فكّ غموضٍ فيه أو مراجعته وإبداء ملاحظاته، مترجمين وقرّاءً ورفاقًا، وأخصّ بالذكر المترجمة هيلين پاپو؛ مترجمة النصّ إلى الفرنسيَّة، التي جادت في الإجابة على أسئلتي وتوضيح ما التبس فهمه. والشكر الأوفى للمُراجِعة التي عملت بجهدٍ على النصّ، تحريرًا وتجويدًا، كي يخرج بأفضل صورة ممكنة؛ المترجمة والقاصّة ليندا حسين. كما أشكر منشورات تكوين على الثقة والفرصة والمهنيَّة.

المترجم

